العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

# موسوعة
# الثورة الحسينية

## الجزء السابع

تأليف
الاستاذ محمد نعمة السماوي

شعبة الدراسات والنشرات

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

شعبة الدراسات والنشرات

**كربلاء المقدسة**

**ص.ب (٢٣٣)**

**هاتف: ٣٢٢٦٠٠، داخلي: ١٧٥-١٦٣**

www.alkafeel.net
info@alkafeel.net

السماوي، محمد نعمة

موسوعة الثورة الحسينية / تأليف الأستاذ محمد نعمة السماوي.– الطبعة الرابعة.– كربلاء، العراق : العتبة العباسية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، شعبة الدراسات والنشرات، 1440 هـ. = 2018.

7 مجلد ؛ 24 سم

يتضمن ارجاعات ببليوجرافية

1. الحسين بن علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام، 61-4 هجري. 2. معركة كربلاء، 61 هـ. --اسباب ونتائج. الف. العنوان.

BP193.13.A3 S26 2018
مركز الفهرسة ونظم المعلومات

الكتاب: موسوعة الثورة الحسينية/ الجزء السابع.

الكاتب: الاستاذ محمد نعمة السماوي.

الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.

مراجعة: شعبة الدراسات والنشرات.

الاخراج الطباعي والتصميم: علاء سعيد الأسدي، محمد قاسم النصراوي.

التدقيق اللغوي: مصطفى كامل محمود، عمار كريم السلامي.

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة: الرابعة.

عدد النسخ: ١٠٠٠.

محرم الحرام ١٤٤٠هـ-تشرين الأول ٢٠١٨م

# الفصل العاشر

# نتائج الثورة وآثارها الاجتماعية والنفسيّة

## تطابق النتائج مع الأهداف

قبل الخوض في هذا البحث، لابد لنا من ملاحظة الأهداف التي توخاها الامام الحسين عليه السلام من الثورة، ومدى تطابق النتائج المتحققة، مع هذه الأهداف، سواء تلك المتحققة بالفعل على المديين القصير -أي بعد حدوث الثورة- والطويل، أي على امتداد التاريخ الإسلامي إلى يومنا هذا أو تلك التي يتوقع تحققها في المستقبل أيضا.

لقد أوضح الحسين عليه السلام منذ مسيره من المدينة، وقدومه إلى مكة وخلال مسيره إلى كربلاء، وفيها أيضا، أهداف ثورته الكبيرة - كما تحدثنا عن ذلك في الفصول السابقة - وحاول لفت الأنظار اليها، بتحرك واضح تطلعت اليه الأمة وقد أرادت أن تلاحظ رد فعل الدولة الأموية تجاهها، والذي توقعت أن يكون عنيفا مدمراً، خصوصاً وأن موقف الحسين عليه السلام كان منذ البداية يسير باتجاه رافض للحاكم المفروض على الأمة التي بايعته مرغمة تحت وطأة الظروف التي مهد لها معاوية بعناية فائقة...

## منازلة مكشوفة أمام الأمة

وكانت منازلة حاسمة مكشوفة جرت أمام سمع الجميع وبصرهم، وكانت فصولها وأدوارها مسجلة بكل دقة ووضوح، أراد الحسين عليه السلام فيها أن يثبت لكل الأجيال أنه عند موقفه المبدئي السابق وأنه لن يستسلم أو يهادن السلطة الجائرة مهما كانت الظروف التي يتعرض لها، وحتى لو كانت النتيجة المباشرة لذلك هو الموت قتلا والتعرض للأهوال والمصائب.

لقد شجب الحسين عليه السلام الشكل الجديد للدولة المعروض والمقدم للأمة الإسلامية كبديل عن الدولة الإسلامية التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وآله؛ اذ أن هذه الدولة الجديدة لا علاقة لها بالإسلام بتاتا ولا تحمل منه الا اسمه وبعض ممارساته المظهرية، لأنها تلزم

رأسها الذي نصب خليفة بالاكراه، بالعقد الالهي الذي يجعل خلافته شرعية قائمة على شروط الإسلام ومبادئه وأسسه، لا ملكا مطلقا غير مقيد بضوابط الإسلام وتشريعاته.

**الأمويون: خلافة غير شرعية**

فخلافة الإنسان على الأرض وقوامته عليها، وعلى أخيه الإنسان، وفق منظور القرآن الكريم، حددت بضوابط وتشريعات وتعليمات إسلامية واضحة الشكل والمعالم، لا لبس فيها ولا غموض.ومعلوم لكل فرد مسلم أن الاخلال بأي شرط أو جزء منها يُعَدُّ خروجا عليها جميعا ونقضا لكل بنودها، ويعني أن العقد الذي قبل الخليفة أن يكون ملزما به عندما قبل هذا المنصب، مفسوخ، ولم تعد له قيمة شرعية أو قانونية بنظر الأمة أو نظر المستخلف نفسه، وهو الله جل وعلا.

كما أن خروجه الفعلي على صيغة العقد الالهي المقيد الملزم بضوابط وشروط – تحدثنا عنها في هذا الكتاب(١)– يلزم الأمة بمنعه من ذلك وايقافه وأن لا تبيح له ذلك وتجعله حقا من حقوقه، انسياقا وراء الأمر الواقع وقد رأته أمامها متسلطا قويا متنفذا.. وأن تقوم بعزله بكافة الطرق المناسبة.

ان سلب المسلمين حقهم في أن يحكمهم الإسلام وينظم حياتهم بعيدا عن كل تصور جاهلي غريب، ووفق التصور الإسلامي الصحيح للخلافة، يعني اشعارهم بشكل معلن بعدم حاجتهم للإسلام نفسه وامكانية استمرار حياتهم دونه، مادام هذا الركن المهم من أركان الدولة الإسلامية قد لُعِبَ به وتعرض لهذا الخرق الشنيع من قبل

---

(١) كرسنا الفصل الأول من هذا الكتاب للحديث عن (الخلافة) من وجهة نظر الإسلام وتحدثنا باسهاب عن الصيغة الرباعية التي تنظم عقد الاستخلاف كما تناولها الشهيد الصدر في (المدرسة القرآنية)، وتحدثنا عن بعض الآراء في هذا الموضوع، والتي تشير بأجمعها إلى عدم شرعية المتخلفين الأمويين وعدم جداراتهم لقيادة المسلمين...

أناس أظهروا أنفسهم للناس وكأنهم من أشد الناس حرصا عليه، وذلك يعني اشعارها أيضا بعدم ضرورة التقيد بالعقد الالهي الخاص بالخلافة والالتزام به وامكانية الرجوع إلى أية صيغة جاهلية للحكم بمقتضاها.

وإذا ما كان ذلك الأمر صادرا عن (الخليفة) الذي يدعي تمسكه بقوانين الإسلام والذي لم يصل إلى السلطة الا على أساس ذلك الادعاء، كان ذلك اشعارا آخر بأن الصيغة الأولى للحكم القائمة على أساس عقد إلهي متين غير صالحة اطلاقا لأنها لا تحقق الغاية المرجوة منها...ومعنى ذلك أن الإسلام - شأنه في ذلك شأن الأنظمة الوضعية التي تتحكم بها ارادة البشر ورغباتهم - قابل للطعن والنقض والتعديل والتبديل والاضافة - وفق تصورات الحاكمين ومصالحهم، وأنه بالتالي غير كامل وغير مؤهل لتغطية كل جوانب الحياة بقوانينه وتعليماته، وان له جوانب محدودة يجب أن يقتصر عليها من يريد أن يدين به...وهذه الجوانب لا تتعدى -بطبيعة الحال- المظاهر الطقوسية الظاهرية التي من شأنها اشعارهم بأنهم ينتمون للإسلام خاصة دون بقية الأديان.

**انماط متعددة من اللاشرعية**

وهذا هو الذي وقع فعلا، لتغيير هذه الصيغة الإسلامية بمبررات (إسلامية) مشوهة ومهلهلة، وقد أتاح ذلك الفرصة لسلاسل من الحكام الآخرين ابتداء من الأمويين وحتى العصور اللاحقة والى يومنا هذا، لاختلاق المبررات التي من شأنها التلاعب بأشكال وأنماط الحكم والقوانين السائدة التي تحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية وصلاحيات الدولة ووضع الخطوط الحمراء، غير المسموح بتجاوزها من قبل الناس لاختراق الدولة والتصدي لها ومحاسبتها، إلى غير ذلك من الأمور الأخرى التي تستهدف احتكار السلطة وعدم السماح بخروجها من أيدي الذين يمسكون بها.

### هل هو انحراف واحد فقط

وإذا ما تحدث متحدث عن انحراف واحد فقط، وقع في نظام الحكم وحسب، قام به الأمويون وانهم لم يتجاوزوه إلى انحرافات خطيرة أخرى، يريد أن يهون - بذلك- من شأن المسألة، ويعتبر أن خطرها ثانوي، فإن عليه أن يتذكر هنا، انه انما يناقش قضية إسلامية، فلابد أن ينطلق إلى ذلك من خلال التصور الإسلامي نفسه ويعالجها بأدوات إسلامية، ليتاح له التعرف بدقة على وجهة نظر الإسلام وموقفه من مختلف قضايا الحياة والمجتمع وفي مقدمتها قضية الحكم ليتوصل بعد ذلك إلى نتيجة واضحة: وهي ان الإسلام لم يجعل من التصرف أو التلاعب الكيفي بتشريعاته وقوانينه مسألة كيفية رهينة بمصالح الحكام ورغباتهم، وانه لم يترك الحبل على الغارب، وقد أكد أن هؤلاء الحكام، ماداموا ملتزمين بالإسلام وشروطه وأحكامه، فهم حكام شرعيون، أما إذا خرجوا عن أبسط هذه الشروط والأحكام، فهم بذلك يعتبرون أول الخارجين عن الإسلام، وعلى الأمة في هذه الحال، استبدالهم بالقوة، ان لم يستجيبوا لارادتها بشكل طوعي ويبتعدوا عن سدة الحكم.

لم يكن التغيير الأموي في شكل الحاكم فقط، وانما كان في شكل الحكم وأسلوبه وطريقته.

لقد بدلوا الطريقة الصحيحة الأولى، وابتكروا طرقا وصيغا جديدة، وهذا ليس مجرد انحراف بسيط عن نمط الحكم الإسلامي الصحيح والتصور الإسلامي - على حد زعم بعض الكتاب - وانما خروج متعمد عن الإسلام ورفض لأهم بنوده وقواعده.

### خروج متعمد عن شرعية الصيغ الإسلامية في الحكم والحياة

واذ أباح الأمويون لأنفسهم هذا الخروج المتعمد، فارضين ارادتهم على الأمة،

فانهم أعلنوا بذلك أن من حقهم أن يخرجوا عن أي أمر، وان أقره الإسلام وأراده، وهو ما فعلوه بالضبط بالعديد من الأمور، مادامت مصالحهم قد استدعت ذلك وماداموا هم قد أرادوه، فلم تكن تصرفاتهم في مختلف المجالات الحياتية الأخرى تتقيد بالنمط الإسلامي للحياة والقواعد الإسلامية عموما، وكان ذلك ايذانا بمرحلة جديدة، حاولوا فيها اشعار كل فرد من الأمة أن بامكانه أن (يتحلل) من هذه (القيود) الإسلامية ويكسر طوقها ويخرج عنها إذا ما رأى أنها قد قيدت حريته الشخصية، ووقفت أمام طريق رغباته وراحته وسعادته، وأصبحت قيود الدولة وأوامرها وقوانينها بديلة عن القوانين الإسلامية المنزلة، كما أصبح نمط الحياة الذي تريده هو المفضل والسائد.

**نمط مبتذل - يزيد مثالا**

لقد كان نمط الحياة الذي يعيشه يزيد مثلا، وهو ثاني خليفة أموي مطلق، نموذجا لنمط مطلوب، أخذ به في البداية ولاته وعماله، ثم انتشر بين عموم الناس..(و غلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب)(١).

لقد أصبحت هذه الفئة الحاكمة مثلا أعلى لفئات كبيرة من أبناء المجتمع، تحركت أمام دوافع استجابتها الغريزية وبعدها عن الإسلام ويأسها من عودته ثانية كما كان أيام رسول الله صلى الله عليه وآله واستسلام الأمة أمام معاوية ويزيد، وتصرفات يزيد وعماله المشينة وشذوذهم الصارخ، لتسلك نفس سلوكهم متشبهة بهم، ولتقف موقفا سلبياً من الإسلام كدين قيد من حرياتهم وحاول كبح تصرفاتهم، كما أنه هو نفسه أصبح يلوح لهم كأثر من آثار الماضي، إذا ما أبدي البعض اعتزازا حقيقيا به فانهم لم يكونوا يتوقعون أن يعود إلى حياتهم كما كان، وقد عهد لهذا التصور معاوية بحملة من أطروحاته التي

(١) مروج الذهب: ج٣ص٨٢.

أفادت بأن لاأحد يستطيع السير على (سنة) الشيخين بل انه هو نفسه لا يستطيع أن يسير في المسلمين حتى بمسيرة عثمان، كما أنه أفضل من غيره...وهكذا يستمر العد التنازلي لمسيرة (الخلفاء) وهو تمهيد خطير يراد من ورائه اشعار الأمة بأن ما مضى كان حالة فريدة لن تعود ولن تتكرر ثانية.

**الانحرافات أصبحت مبادئ**

وكان السلوك الأموي أحد المبررات أو الذرائع التي استند اليها الآخرون للانفلات من تعاليم الإسلام الأخلاقية وغيرها، وقد تمادوا في ذلك إلى حد بعيد، بفعل تحسن أوضاع الأغنياء والفتوحات وما كان يغدقه عليهم (الخلفاء)، وتوسع هذه الطبقة الطفيلية القريبة من الحكم الذي كان يتصرف تصرفا عبثيا كيفيا غير مسؤول بعد أن احتكر الحكم وتسلط على الناس بالقوة وكمِّ أفواههم ومهَّد لأشد ألوان الاستبداد السياسي قتامة ومقتا، أصبحت هذه الانماط من السلوك تبدو أمام الأمة المظلومة في مختلف العصور وكأنها مقرّة من قبل الإسلام نفسه، بعد أن أحاط الحكام أنفسهم بطبقة طفيلية أخرى مطبّلة مزمّرة من وعاظ السلاطين وفقهاء الدولة المأجورين.

«..والى هنا يكون قد وقع من الحكم الأموي انحرافان في عالم السياسة، أيا كانت الأسباب التي استندوا اليها لتبريرها، الأول: هو تغيير النموذج الأعلى لنظام الحكم الإسلامي، الذي تتمثل فيه روح الإسلام كاملة، وهو الخلافة واستبدال الملك العضوض به، والثاني: محاولة اسكات الناس بالقوة عن مراقبة أعمال الحاكم، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وصرفهم بالعنف عن أداء واجبهم الإسلامي في هذا الشأن الذي تعلموه في فترة الخلافة الراشدة، وهو أن قضية الحكم مهمة مشتركة بين الراعي والرعية، وليست أمراً يستقل به الراعي دون الرعية.وتبدو جسامة الآثار التي ترتبت على هذين الانحرافين، حين نرى العهود التالية تأخذهما كأنهما مبادئ مقرّة، مما أدى

إلى استقرار لون من الاستبداد السياسي في حياة المسلمين كأنه أصل من أصول الحياة الإسلامية، فيما عدا الفترات التي يأخذ العدل فيها مجراه بدافع ذاتي من الحاكم، لا بطلب من الأمة، ولا بسعي من جانبها.

وقد كان لهذا الأمر آثار خطيرة في حياة الأمة ان لم تظهر بوضوح في العهد الأموي، فقد كانت أوضح في العهد العباسي ثم العثماني...»(١).

**لماذا الخوف من كشف الانحرافات؟**

ومع ذلك يهون كاتبنا الإسلامي الكبير من شأن هذه الانحرافات (الحالية والسابقة) لأن ما حدث بعدها كان أشد منها، وكأن السابق منها ليس هو سبب اللاحق، ويبدي تخوفه من النقد والكتابات المختلفة التي تبرز الأخطاء وتجسمها وتخفي حسنات الأمويين..! ويعيد نفس تخرصات الأمويين بشأن الأعداء الشيعة أو السبئيين الذين جعلوا همهم التشنيع عليهم.

«حين نعيد كتابة هذه الفترة، ينبغي أن تكون على بيّنة من عدة محاذير...

المحذور الأول: إن معظم ما نتداوله في مدارسنا وفي دراساتنا عن هذه الفترة مكتوب بأيد شيعية أو سبئية، همها الأول التشنيع على بني أمية وتجسيم أخطائها وإبرازها وإخفاء الحسنات أو تفسيرها تفسيراً ملتوياً، يذهب بما فيها من الخير، ويعرضها كأنها من السيئات، وعلاج هذا الأمر- كما اشرنا في (الفصل السابق) -هو اتباع منهج المحدثين لتمحيص الروايات المدسوسة والضعيفة والملتوية للوصول إلى الحقائق الصائبة، بقدر ما يتاح للمؤرخ المسلم الملتزم بالحيدة العلمية التي هي أصل من أصول هذا الدين.. **﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ**

---

(١) محمد قطب: كيف نكتب التاريخ الإسلامي: ص ١١٢.

كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾[١].

هل نمسح المسألة بهذه البساطة ونتناسى كل ما قيل عن الأمويين، وما يعترف به الكاتب الإسلامي الكبير نفسه..؟

ألم يؤدِّ اتّباع منهج المحدثين لتمحيص الروايات إلى تأكيد الحقائق بشأن انحراف الأمويين، مع أن روايات عديدة انسابت من أيدي هؤلاء وأخذت مواقعها كروايات موثوقة في ظل الظروف والأوضاع الأموية نفسها وإن العديدين من هؤلاء الرواة (الثقات) عاشوا في بحبوبة الترف الاموي، واغترفوا من الأموال الأموية..؟

إن كاتبنا الكبير واثق في قرارة نفسه من انحراف الأمويين عن الإسلام، غير أنه يشعر أنه إذا ما أقر بذلك علانية وبوضوح فإنه يتيح مجالاً آخر للشيعة (والسبئية) للتشنيع مجدداً على الأمويين، ويثير ذلك عداوة كل نمط مشابه للخط الأموي القديم ولنستمع إليه ثانية، ونلتفت إلى الحقائق التي يقرها هو، ثم لنتساءل كيف يوفق بين ما يقوله هنا وما سبق أن قاله قبل قليل[٢].

**بسبب الامويين اتهم الاسلام بأن مثله الرفيعة غيرقابلة للتطبيق**

«..والمحذور الثاني في المقابل هو محاولة الدفاع عن بني أمية بنفي كل التهم الموجهة اليهم على أساس أنها موجهة من الخصوم السياسيين، فهي باطلة لأول وهلة، ولابد من الاجتهاد في دحضها واثبات عكسها، والمحذور في هذا المسلك أنه أولا - مخالف للمنهج الرباني الذي سبقت الاشارة اليه ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**﴾[٣].

(١) الإسراء: ٣٦.
(٢) محمد قطب/ كيف نكتب التاريخ الإسلامي ص١١٣.
(٣) النساء: ١٣٥.

ثم هو ثانيا يوشك أن يوقعنا في محذور أشد، هو اتهام الإسلام بأن مثله الرفيعة غير قابلة للتطبيق في عالم الواقع، واننا لابد أن نحيد عنها لمواجهة الواقع العملي، وهي دعوى ما أيسر أن يتخذها الطغاة سندا لإيقاع المظالم بالناس والتنكيل بالمعارضين الذين يقفون في وجه استبدادهم وظلمهم، وستجد حين نلتزم بتلك الضوابط جميعا أننا نستطيع أن نفسر ونبرر كثيرا من أعمال معاوية التي قام الشيعة والسبئيون بتشويهها لهوى في أنفسهم، ولكننا لا نستطيع أن نبرر كل ما يفعله معاوية دون أن نجني على قيم إسلامية أصلية...وليست القضية شهوة في تجريح معاوية، ولا شهوة في الدفاع عنه وتبرئته، فكلتاهما حيد عن الطريق، انما القضية هي الأمانة الواجبة لهذا الذين وقيمه ومعاييره، والرسالة التي نزل ليؤديها في حياة الناس...»[1].

**هل نغلق الملف ونبدأ تاريخا مقطوع الجذور؟**

ماذا سنفعل إذا؟ هل نغلق الملف بأكمله ونوقف استعراض الشخصيات التي كان لها في تاريخنا الإسلامي أكبر الأدوار والآثار، ثم نبدأ تاريخا مقطوع الجذور لا علاقة له بتاريخنا الأول؟ أم أننا سنجد في تلك الحال أن كتابة التاريخ مستحيلة وأننا في عملية تقويم أنفسنا وأوضاعنا سنحتاج لعملية تقويم شاملة تبدأ منذ ظهور الإسلام نفسه؟

لسنا بحاجة لاستعراض تاريخ معاوية لو لم يكن معاوية قد لعب دورا كبيرا في تاريخنا لن يضير معاوية التجريح لو كان بريئا ولن ينفعه الدفاع لو كان ظالما، فالحساب في النهاية سيكون أمام العليم الخبير، ولسنا بحاجة لذلك لو لم يتكرر نمط معاوية دائما.

لقد جرت محاولات أموية دؤوبة لجعل المجتمع الإسلامي يهبط من القمة التي أوصله اليها رسول الله صلى الله عليه وآله، حينما لم يكن ير أمامه الا القيم الالهية التي آمن بها بشكل

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامي ص ١١٥ - ١١٤.

مطلق وجعلها السبيل لتنظيم كل شؤون حياته، والا رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قاده إلى بر الأمان عبر كل الزوابع والأعاصير التي أثيرت لعرقلة مركبه عن الوصول اليه إلى وهدة منخفضة تتصارع فيها آلهة الغرائز والحس والنزوات والمصالح ليكون هو الهدف المباشر لهذه الآلهة التي تجبرت وطغت وجعلت منه أداة لتنفيذ كل أعمالها غير المشروعة، وجعلته طوع ارادتها هي، بعد أن جعلته يرى أن الإسلام مجرد نور أشرق مرة واحدة وقد استهلكت الطاقة التي أمدته بهذا النور، وانه مجرد أمل يراود النفوس التي شهدت اشراقته الأولى وأنه غير ممكن التطبيق الا في الفترة التي شهدت فيها رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه..ولم تمتد كل تلك المدة الا لأنه صلى الله عليه وآله كان لا يزال بعد في ذاكرة الأمة، وقد جعلها الأمويون بعد ذلك تنسى حتى الصورة الصحيحة لرسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن عملوا على تشويهها وتزويرها وتشويه الإسلام وتزويره؛ لأن من شأن الصور الصحيحة أن تظهر بطلان كل المزاعم التي استندوا اليها للالتفات حول مكاسب المسلمين وسرقتها والاستئثار بها.

**تشريعات أموية..لا تشريعات إسلامية**

وقد كانت (التشريعات) الأموية الخارجة عن الإسلام، وجها آخر لوجوه الانحراف الأموي، وكانت اعلانا واضحا لرفضه الإسلام واستبعاده عن الحياة بصورة عملية، وعندما تم اخضاع الأمة لتقبل تلك التشريعات الغريبة، كان ذلك ايذانا بافتتاح عهد جديد لسلاسل فراعنة وطغاة الأمة الذين لم يقيموا وزنا للإسلام ولم يقبلوا منه الا بعض الاداءات الطقوسية التي من شأنها أن تحسن صورهم أمام الأمة وقد زوروه وذهبوا به إلى الحد الذي بدا فيه وكأنه جاء لتكريس حكمهم وسلطانهم وانه لم ينزل الا لهذه الغاية فقط، لقد أراد معاوية منذ البداية التمهيد لكي يحكم يزيد وسلالته من بعده حكما مستبدا غير مقيد بقوانين الإسلام وشريعته وقطع الطريق على كل الحجج التي

قد ترفع لتبرير الثورة على هذا الحكم فيما بعد، وقد صور الأمويون معركة الطف وثورة الحسين عليه السلام بعد ذلك، وعرضوها على أنها معركة (السلطة الشرعية) مع فئة خارجة عن القانون والشرع...! وان هؤلاء الخارجين على سلطة الدولة الشرعية هذه كانوا جديرين بما فعلته هذه الدولة معهم من قتل وابادة وقطع للرؤوس وتمثيل بالجثث، وكان قمعهم وقتلهم بالأسلوب الذي تم فيه ذلك، انما هو تدبير محكم لمنع مثل هذه البوادر الخطيرة وعدم السماح بظهور بوادر مشابهة لها في المستقبل، مما سيحدث شرخا كبيرا في جدار وحدة الأمة وتآلفها واجتماعها حول قادتها (الشرعيين) ويفسح المجال لمزيد من (الفتن) و(العصيان) والفرقة بين المسلمين، وان هذا الأسلوب (التأديبي) ستلجأ اليه الدولة مع كل من يريد أن يقوم بما قام به الحسين وأصحابه، وقد أخذوا يلوحون بذلك أمام كل من كانوا يحسبونهم أعداء لدولتهم يريدون القضاء عليها.

وهكذا قال يزيد لجلسائه عندما جيء برأس الحسين عليه السلام ورؤوس أصحابه ووضع امامه: (أتدرون من أين أتى هذا؟ قال: أبي علي خير من أبيه، وأمي فاطمة خير من أمه، وجدي رسول الله خير من جده وأحق بهذا الأمر منه. فأما قوله: «أبوه خير من أبي»، فقد حاج أبي أباه وعلم الناس أيهما حكم له، وأما قوله: «أمي خير من أمه»، فلعمري فاطمة ابنة رسول الله خير من أمي... وأما قوله: «جدي خير من جده» فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندّا، ولكنه انما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[١].

**لماذا اختصهم الله بالملك لمؤهلاتهم النادرة؟**

وقال للامام زين العابدين: «يا علي، أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقي، ونازعني

(١) آل عمران: ٢٦.

سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت...»[١].

كان يزيد يرى ان الله قد اختصه هو بالملك، مادام آتاه ذلك الملك دون غيره من الناس، وقد أصبح ذلك أمرا واقعا، وها هو ذا يتمتع بملكه وسلطانه.

أما كيف تم ذلك الأمر؟ هل تم بتكليف أو وصية الهية خاصة، أم بوصية خاصة من الرسول صلى الله عليه وآله..أم أنه تم بالقهر والاكراه بالشكل الذي أطلعنا عليه في هذا الكتاب؟ فذلك لايهم - بنظره - مادام قد أصبح حقيقة واقعة.

كانت أطروحات معاوية تؤكد على ذلك الأمر وتعد الناس لتقبله كقدر مقدور من الله عزوجل - وليس أن يقوم معاوية بتأييد أفكار القدريين والمرجئة، بل لعله كان هو مصدر تلك الأفكار.

### اطروحات فرعونية بمواجهة الشرعية

وكان من شأن تلك الأطروحات أن تكبح إلى الأبد كل تطلع شرعي لاقامة الحكم الإسلامي على الأسس التي أرساها ووضعها رسول الله صلى الله عليه وآله...لو لم يقم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، الامام الحسين عليه السلام بالتصدي لها ومواجهتها بدمه ودماء أهل بيته وأصحابه، في محاولة جريئة واضحة لابطال كل المزاعم الأموية التي تمهد لجعل كل شيء رهن أيدي معاوية ويزيد وسلالتهما، ثم رهن أيدي سلاسل الطغاة والمتجبرين فيما بعد.

كان يزيد يرى أن الأمر أمر منافسة على السطان والملك، ويرى أن عليه التصدي بكل وسائل العنف اللازمة لكل من لا يرى له الحق في أن يكون خليفة لأبيه، ولكل منافس، بل ان الحسين نفسه كان موضع استهداف خاص من قبل يزيد لما كان يضمره

---

(١)الطبري: ج٣ ص٣٣٩.

هذا الأخير من كره موروث أصبح يمثل (حقدا مقدسا) في نفوس الأمويين على رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وأبنائهما، وهكذا عبر بكلماته تلك التي وجهها للامام زين العابدين عليه السلام بعد أن أُخِذَ أسيرا إلى الشام.

كانت كلماته تتخذ نفس النمط والأسلوب الذي اتخذته كلمات عبيدالله بن زياد التي وجهها لزينب في الكوفة: «كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك..؟»[1] يكررها يزيد بصيغة أخرى فيقول: «فصنع الله به ما قد رأيت..».

**مفاهيم جديدة**

كان النظام الأموي يسعى لترسيخ مفهوم جديد لشرعية وجوده واستلامه الحكم، ويبين أن ما حدث لأعدائه انما كان بتدبير الهي ومشيئة الهية اقتضت أن يقتل أولئك الأعداء، فكأن الذي قام بعملية القتل والقمع جنود من السماء، لا أعوان الدولة ومرتزقتها.

وكأن المؤهل المطلوب من الحاكم هو حسن السياسة والتدبير، ولا يهم بعد ذلك أن يكون عاطلا من أي مؤهل آخر، أو أن يحكم بما لم ينزل الله به من سطان أو حكم أو قانون، قانون الحاكم سياسته وحسن تدبيره للامساك بزمام الأمور وضبطها لصالحه، وعلى هذا الأمر وحده أكد معاوية عندما اختار يزيد وليا للعهد، وقد اقتنع به يزيد مع أنه لم يكن حسن السياسة والتدبير كما كان يتبجح بذلك والده - وكان يبدي تعجبه من اقدام الحسين عليه السلام على التصدي له ورفض حكمه، كما جاءت فئة كبيرة من المسلمين بعد ذلك، والى يومنا هذا، تبدي تعجبها، بل واستنكارها لما قام به الحسين عليه السلام وتجد أنه بثورته بوجه يزيد كان ظالما له، وقد تطرقنا إلى الأطروحات التي كانت ترى وجوب

(١) الطبري: ج٣ص٣٣٧.وقال لمحمد ابن الحنفية بعد ذلك «..كان قد ظلمني وقطع رحمي ونازعني حقي» بحارالأنوار: ج٤٥ ص٣٢٦.

اطاعة الحاكم الجائر أو الفاسق وعدم الخروج عليه لأي سبب من الأسباب لما في ذلك - كما تؤكد تلك الأطروحات - من احتمال كبير للتعرض للفساد والفرقة والهرج والفوضى، كأن تلك الأطروحات تقول: ان ما يراد من الناس هو أن يكونوا منضبطين وفق قانون قوي، ولا يهم أن لا يكون ذلك القانون قانون الإسلام نفسه، وهذه الأطروحة هي السيف الذي لا يزال يسلط فوق رقاب المسلمين، ماداموا قد أقروها في زمن ما واعتمدتها سلاسل للحكم طويلة على أنها هي الشيء الصحيح ووضعوا لتبريرها (أحاديث) قالوا ان النبي صلى الله عليه وآله نفسه قالها وأوصى بتطبيقها، مع أن بعض تلك السلاسل كانت معادية للنظام الأموي الا أنها تساهلت بشأن أطروحاته حول الحكم والحاكم.

**لماذا يريدون ازالة ملكنا؟ حيرة يزيد**

ربما كان يزيد يعجب من اقدام الحسين على ثورته بوجهه ويراه منافسا جديرا بالقمع والاستئصال مادام يريد زوال هذا الملك الذي آتاه الله اياه دون بقية البشر واختصه به، وربما يعجب أي فرعون أو قيصر إذا ما رأى من يريد ازاحته عن العرش، فهو ملك لا يرى الا نفسه، ويرى الناس حوله راكعين مطيعين لا يجرؤون على رفع أبصارهم اليه وعصيان أوامره واهمال رغباته، فهم عبيده وخدمه وحراسه.

لقد كان تصوره لذلك السطو الكبير على الخلافة من قبل أبيه - الذي كان مقتنعا به قناعة شديدة - والذي بدت أفعاله ورغباته تسير باتجاه تكريس الحكم له ولأبنائه من بعده، بجعله يعتقد أنه انما ينال حقا خاصا به وملكا آتاه الله اياه، فليس لأحد، حتى ولو كان هو الممثل الشرعي للأمة الإسلامية - ولنلاحظ أنه لم يكن يعتقد بممثل لها سواه - من حقه أن يتصدى له ويرفض حكمه، ولو كان ابن الرسول صلى الله عليه وآله نفسه الذي يحمل له المسلمون في قرارة أنفسهم حبا كبيرا وودا خاصا، وفي تلك الظروف التي رأى

فيها أن كل شيء طوع أمره وارادته كان يزيد على استعداد لمنازلة أي (منافس) أو عدو حتى ولو كان هو رسول الله ﷺ نفسه، الذي يحمل له المسلمون في قرارة أنفسهم حبا كبيرا وودا خاصا، وفي تلك الظروف التي رأى فيها أن كل شيء طوع أمره وارادته كان يزيد على استعداد لمنازلة أي (منافس) أو عدو حتى ولو كان هو رسول الله ﷺ نفسه، ولفعل به ما فعل بالحسين تماما.

ربما كان يزيد لا يفهم، وربما كانت حاشيته مثله لا تفهم، لماذا يقف الحسين منه ذلك الموقف ولماذا يريد استبداله بقيادة شرعية مؤهلة، وقد تعود أن يسمع من الجميع، وفي مقدمتهم والده أن الملك في النهاية له يتلاعب ويتصرف به وفق مشيئته وهواه، كما تعود أن يسمع كلمات الاعجاب والثناء على سلوكه وسياسته وفطنته وحسن تصرفه.

وربما كانت عقلية يزيد نسخة مكرورة معادة من عقليات كل الطغاة الذين سبقوه على مر التاريخ والذين كانوا يرون الجميع ينحنون أمامهم ويدينون لهم بالطاعة ويجعلون منهم أربابا من دون الله، وقد كانوا يريدون لقانونهم وحده أن يسود ويحكم، ويرون في كل قانون أو دين أو نظام آخر يشجب تصرفاتهم ويحد منها، عدوا يجب محاربته واستئصاله.

وهكذا، فلا غرابة أن يرى يزيد في الإسلام عدوه اللدود لأنه يقف عائقا أمام اندفاعاته وتصرفاته غير المسؤولة وغير المنضبطة، وقد نستطيع أيضا تفسير تلك التصرفات إذا ما فهمنا تصوراته كطاغية مطلق اليد، وجد الأمر ممهدا له منذ البداية ووجد الطريق مفروشا بالورود، وقد أصبح زعيماً للأمة وملكا مطلقا عليها رغم علمها المسبق بحقيقته وحقيقة تصرفاته التي لم تكن تخفى عليها، ولم يكن يخفى عليه علمها بها.

ومن هذه الزاوية قد نستطيع الاقتراب من تصور كل طاغية وجد الأمور ممهدة له

منذ البداية، ووجد نفسه متسلطا على رقاب الناس وحاكما غير مقيد.

**لابد من كشف الباطل حتى يستبين الحق**

كان عمل الحسين عليه السلام يهدف إلى تبيان طبيعة الانحراف الكبير الذي كانت تتعرض له الأمة على يد المؤسسة الحاكمة منذ أن جلس معاوية على العرش وأخذ يمهد لمجيء يزيد خليفة له ومتصرفا مطلقا بها وبمقدراتها، رغم علمها بحقيقته وبعده الكبير عن الإسلام.وكان سكوتها دليلا على أنها بدأت تتقبل ذلك الانحراف وتراه أمرا طبيعيا، وكانت حالة اللامبالاة والاستسلام والمساومة تبرز كرد فعل على حالة اليأس التي بدأت تنتاب أبناءنا نتيجة تداعي الأوضاع ووقوع الجميع في القبضة الأموية المحكمة التي بدت لها أنها لن تفرط فيما حصلت عليه، وانها لن تتنازل أمام أية جهة تريد اعادة الأمور إلى نصابها.

وكان الصراع الذي تفجر بمعركة الطف، صراعا حقيقيا بين الإسلام ومنهجه المتكامل في الحياة وبين سلسلة الطواغيت التي بدأت تعلن عن نواياها الحقيقية ومناهجها هي في الحياة، والتي بدأت تعتقد أن كل من يريد تصحيح مسيرتهم والعودة إلى المنهج الإسلامي الصحيح انما هو معتد على حقوقهم ومعتد عليهم شخصيا، وانهم بتصرفهم القمعي تجاه أعدائهم، وفي مقدمتهم الامام الحسين عليه السلام، كانوا يدافعون عن امتيازاتهم ويصونون ممتلكاتهم الشخصية التي انتزعوها بالقوة من أعدائهم القدامى وفي مقدمتهم الرسول وآله صلى الله عليه وآله، والتي استطاعوا الحفاظ عليها بجدهم ومثابرتهم وحسن تدبيرهم وسياستهم.

وربما كان الذي حاولوا أن يوحوا به للأمة بأنهم نالوا ما نالوه بالجد والمثابرة وحسن التصرف والسياسة، وقد اقتنعوا به من قبل غيرهم، لأن من مصلحتهم أن

يقتنعوا به قناعة مطلقة تظهر آثارها على سلوكهم وتصرفاتهم، وقد أوحوا للأمة أنهم لن يتخلوا عن مكاسبهم وانهم سيحتفظون بها ويعضون عليها بأنياب من حديد، فما أخذوه بالقوة لن يتخلوا عنه الا بالقوة، وما أخذوه بالحيلة والسياسة و(حسن التدبير) فانهم على استعداد لمواجهة كل من يريد منازلتهم، واستخدام المزيد من الحيلة للحيلولة دون خروج الأمر من أيديهم.

وكان الأمر يبدو مستحيلا أن يقدموا على التنازل، أو أن يقدم رأس الدولة على ذلك، لأن من يسند دولته وهم أقرباؤه وحاشيته وكل الموالين لدولته لن يقبلوا بذلك، بعد أن جعلوا الأمر أمر عصبية، اعتقدوا معه أنهم أصحاب الشأن والسلطان الذين ينبغي أن تدين الأمة كلها لهم بالطاعة والولاء.

**نصر ام هزيمة..نمطان من التفكير والتصور**

وكانت نتيجة المعركة التي خاضها الحسين عليه السلام ضد يزيد، تمثل في أذهان الذين لا يملكون وعيا إسلاميا وتصورا إسلاميا صحيحا عن الجهاد والنصر والهزيمة، هزيمة منهكة للحسين عليه السلام أمام القوة الأموية الهائلة، الا أنها في أذهان الذين يملكون فهما إسلاميا صحيحا وشموليا، تمثل هزيمة مطلقة ونهائية ليزيد ولكل الطواغيت من بعده...فقد استطاع الحسين عليه السلام كشف زيف الادعاءات التي قامت على أساسها دولة الظلم الأموية وزيف المزاعم التي أطلقتها لتبرير وجودها وبقائها واحتواء كل تحرك محتمل أو واقع ضدها.

ان تعمّد تجنب معالجة المسألة على اساس إسلامي صحيح هو السبب وراء أخطاء العديد من المفكرين والكتاب، ووقوفهم إلى جانب النظام الأموي وتبني أطروحاته الغريبة عن الإسلام، فهم يناقشون المسألة ويعرضونها وكأنها مسألة صراع بين جماعتين

متنافستين تقفان على نفس أرضية المواجهة بعيدا عن الإسلام برمته، كما يناقشونها وكأنها مسألة صراع بين جماعة ثورية عابثة ذات انتماء غريب ضد دولة أثبتت وجودها وقدرتها على سياسة الناس وحكمهم، وكأن الامام الحسين استفزهم هم أنفسهم شخصيا حينما رفض قبول الأمر الواقع المتردي في ظل تلك الدولة، وكانوا يأملون أن تحسن تلك الدولة سلوكها وأن تعمد إلى اتخاذ جانب العدالة التي يريدها الإسلام.لو لم (يعكر) الحسين عليه السلام صفو هدوئها وأمنها واستقرارها، ولم نلمس من العديدين رغبة بإدانة يزيد وأركان حكمه على الكثير من الجرائم التي ارتكبها ضد المسلمين، وذهبوا إلى حد تحميل المسلمين الذين ثاروا عليه مسؤولية شق صفوف الأمة ووحدتها وتعكير أمنها وهدوئها.

**فهم الثورة الحسينية يقتضي فهم الإسلام كله**

ان فهم ثورة الحسين عليه السلام تقتضي فهما واعيا للإسلام كله، ولكل تاريخه منذ بدئه، لا فهم جانب واحد منه أو حدث مقطوع مجزأ عن جوانبه الأخرى، فهما مبنيا على توضيح الحقائق وكشف الأباطيل التي ألحقت بالإسلام ودست به على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله، وكشف التأويلات والتفسيرات المضللة للقرآن الكريم، وحينذاك سندرك حقيقة النصر الذي تحدث عنه الحسين عليه السلام وحققه، ولا نزال نلمح آثاره ونتائجه واضحة ملموسة إلى يومنا هذا اذ أثبت حقيقة انتمائه للإسلام عندما قدم معه في سبيله وفي سبيله وحده.

حينئذ سنفهم مغزى هذه الثورة العظيمة، وندرك أبعادها الكبيرة، وانها كانت امتدادا لوقائع المسلمين الكبرى بقيادة الرسول صلى الله عليه وآله وفي مقدمتها واقعة بدر التي نصر الله فيها المسلمين على مشركي قريش وكفارها وعتاتها وطغاتها، بقوتهم وبقوى غير منظورة من الملائكة.

ان الذين شاركوا بمعركة بدر وعدوا بنصر مادي ملموس وسريع على العدو أما الذين شاركوا بمعركة الطف فقد وُعِدُوا بشهادة سريعة على يد العدو وكانوا يبشرون بمستقبل عظيم لا يقل عن مستقبل أولئك الذين استشهدوا في بدر..ومن هنا، واذ أنهم أدركوا حقيقة المعركة التي كانوا يخوضونها إلى جانب الحسين عليه السلام وان مصير الإسلام نفسه كان متعلقا ومتوقفا على موقفهم فيها، وانهم تيقنوا أنهم سيقدمون دماءهم فيها كما أنبأهم الحسين عليه السلام، فإن اقدامهم على خوضها دون تردد أو خوف جعل منهم صفوة تتفوق حتى على تلك الصفوة البدرية الأولى..اذ أن النصر في المعركة الأولى كان واضحا وكان الرسول صلى الله عليه وآله يبشر أصحابه بأنهم سيتغلبون على أعدائهم ومن سيستشهد منهم سيدخل الجنة دون حساب...أما في هذه المعركة فكان النصر يتوقف على تقديم دمائهم كلها، ولابد من ذلك لكي يتحقق بشكل تام وعندها ستدرك الأمة أن في هذا الدين ما يستحق أن يستشهد الإنسان من أجله، وأن عليها في نهاية المطاف أن تلحق بذلك الركب القليل الذي ضمته قافلة الحسين عليه السلام.

ان المنتصر الحقيقي في نهاية المطاف هو الشهيد في المعركة وربما كان هو المغلوب والمظلوم والسجين والمضطهد والمبعد والهارب، مادام يسجل موقفا رافضا غير مستجيب ولا مستسلم لدولة الظلم والانحراف، اذ أنه ما كان ليصير كذلك شهيدا ومظلوما وسجينا ومضطهدا ومبعدا وهاربا لو أنه استجاب للظالمين وواكب مسيرتهم وعزز مواقع ظلمهم وعمل على تقويتها.

ان اعلان موقف الرفض والثورة وتحمل ما تحمله الامام الحسين وأصحابه عليهم السلام في سبيل ذلك، يسجل أثرا قويا في أذهان الكثيرين من أبناء الأمة، ممن يستعيدون هذه الواقعة الكبيرة أو يدرسونها أو يقرؤون عنها، فيرون أنها لم تكن بغير سبب، وان السبب الرئيسي، بل الوحيد لها، هو الحرص على الإسلام والحفاظ عليه من العبث أو الضياع

والاندثار، ورفض أي قوة تحاول أن تكون بديلة له أو شريكة للقوة الالهية المقتدرة، مهما كان الشكل الذي تحاول أن تتخذه.

لقد عززت ثورة الحسين بوجه الانحراف الأموي، الرصيد الضخم للإسلام الذي كاد أن يضيع ويسلب وينتهب من قبل الأمويين بشكل سافر مكشوف بعد أن كان يتم بشكل مبطن مستور، وكان وقوف الحسين عليه السلام إلى جانب الإسلام تلك الوقفه الثابتة غير المساومة أو المترددة، حجر عثرة في طريق العجلة الأموية التي بدت في ذلك الحين قوية وكاسحة، وقد حفز الكثيرين ممن جاؤوا بعد ذلك لينظروا إلى الإسلام ويفهموه بالمنظار الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن ينظروا به اليه، وكان الاسفين الذي دق في النعش الأموي الذي بدأ منذ ذلك الحين يعد لاستقبال الجثة الميتة لدولة الظلم الساقطة عمليا وواقعيا وان بدت مزدهرة قوية في الظاهر لأكثر من نصف قرن بعد تلك المأساة الأليمة.

**الإسلام حل جميع التناقضات**

لقد عمل الإسلام - خلال مسيرته لتنظيم الحياة وفق منظوره وأسسه - على حل كل التناقضات الطبقية والاجتماعية وتلك القائمة على سوء توزيع الثروة واحتكارها من قبل فئة محدودة من أبناء المجتمع، وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأرسى قواعد جديدة لتنظيم أمور الدولة المالية بشكل تفصيلي دقيق، مما كان سيعمل بالتالي إلى محو الفروق الاجتماعية والاقتصادية بالقدر الذي يبرز فيه الفرد كطاقة متميزة مبدعة تحتل مكانة خاصة بجهودها ومثابرتها وقابلياتها.

**جرثومة الترف أفسدت كل شيء**

وكانت قيم العمل هي القيم التي حاول الإسلام أن تكون سائدة ومتعارفة ومألوفة ومتقبلة، حتى من أولئك الذين يحتلون مركزا مرموقا بين المسلمين، وحتى

الذين يحتلون مراكز القيادة الإسلامية أنفسهم.

وقد كانت المسيرة الذاتية لرسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام والعديد من الصحابة في صدر الإسلام تؤكد هذا الاتجاه الذي رعاه الإسلام وأراد أن يجعل منه أسلوبا عاما متعارفا لا يأنف منه أي فرد مهما علت مكانته الاجتماعية.

غير أن الانحرافات التي وقعت، واتسعت في عهد عثمان، ثم تجاوزت الاتجاه الإسلامي نفسه بشكل حاد ومعلن في عهد معاوية مهد لظهور صراع وتناقض اجتماعي وطبقي جديد، كان سيتسع حتما فيما بعد وفي ظل الميوعة واللامبالاة التي تميز بها يزيد، وكان من شأن ذلك أن يمهد لوجود صراعات وتناقضات اجتماعية أوسع في ظل وجود الثروة والسلطة بيد فئة قليلة مترفة مقربة من رأس الدولة.

ولم تكن الأموال الطائلة التي جاءت أغلبها نتيجة الفتوحات الواسعة - التي لم تكن دوافعها هي نفس الدوافع الأولى من قبل - تستخدم على الأغلب، الا لتوطيد وتقوية سلطان الدولة، وهو سلطان شخصي بحت تستأثر به عائلة واحدة أرادت أن يكون ذلك إلى الأبد وليس إلى أجل محدد، وفيما يموت الخليفة الحالي ويختار المسلمون أحدهم للخلافة بطريقة ما حتى وان لم تكن احدى الطرق المتعارفة قبل مجيء معاوية.

كان على عموم المسلمين أن يعملوا ويكدوا ويحاربوا ويموتوا ويفتحوا البلدان، لكي يكون حاصل ذلك في جيب (الخليفة) وجيوب الفئة المقربة منه وفي جيوب حاشيته ومن تريد الدولة شراءهم وشراء ولائهم ونفوذهم وأبناء قبائلهم.

وكان من شأن تسرب المكاسب التي حصل عليها المسلمون والتي توقعوا أن يحصلوا عليها في ظل حكم إسلامي عادل ونظيف، أن يفقد عموم الناس ثقتهم حتى بدينهم وقدرته على تحقيق المساواة والعدالة، وهم يرونه يدار ويفسر ويعد اعدادا خاصاً

ليبدو وكأنه يكرس لمصلحة الفئة الحاكمة المتسلطة وأعوانها لا غير، والتي يعلمون أنها متسلطة وغير شرعية، وانهم استسلموا لها بفعل الظروف والحوادث التي ذكرناها.

كانوا يرون أن المكتسبات التي نالوها في عهد الرسول صلى الله عليه وآله قد أوشكت أن تفلت من بين أيديهم، بل هي قد أفلتت فعلا، ولم تكن تلك المكتسبات اجتماعية تتعلق بمسائل الحرية والعبادة وغيرها، وانما هي مكتسبات مادية أوشكت الأمة كلها أن تحصل عليها، فلا تستأثر بها فئة معينة فقط دون عموم أبنائها، والذي شاهدته الأمة ولمسته غير ما طمحت اليه وتمنته وأوشكت أن تناله في ظروف صحيحة وعدل قائم على أساس القرآن في ظل رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام.

**الطبقة الثرية استعداد منذ البداية لمواجهة عدالة أمير المؤمنين**

وقد قلنا في أحد المباحث ان الشدة والعدالة اللتين آلى أمير المؤمنين عليه السلام أن يأخذ بهما نفسه، جعلنا من الطبقة الطفيلية الثرية والمتكونة حديثا، تتأهب إلى أقصى حد وتقف بشراسة للدفاع عن مصالحها، وقد آثرت الانضمام إلى جبهة معاوية الذي بدا لها بوضوح أنه هو الذي سيشبع رغباتها ونهمها للمال والثورة، وقد فعل معاوية ذلك فعلا، وأشبع رغباتها وطموحها إلى الجاه والمال والسلطة، وسارت خلفه فعلا ودعمت مواقفه ضد أمير المؤمنين عليه السلام وتغاضت عن كل خروقاته وخروجه المتعمد عن العديد من أحكام الإسلام، فقد رأت أنها إذا ما انضمت إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام فانها لن تكون ثرية ومنعمة بل انها ستفتقر وتساوي الآخرين من أبناء الأمة وسيلحقها الهوان والمذلة في ظل عدله واستقامته، لأن تطلعها غير المشروع للمال يزين لها أنه هو الطريق الوحيد للسعادة والعز والرفعة.

كانت الجبهة التي أعلنت الحرب على الامام عليه السلام هي جبهة معاوية، وقد قامت

بذلك تحت ذرائع وحجج مختلفة، وقد حاولت أن تضفي على حججها تلك وذرائعها طابعا شرعيا مستمدا من الإسلام ذاته؛ لأن ذلك هو وحده الكفيل للتأثير على الأمة المظلومة وتضليلها، فكان كل من يريد الخروج على أميرالمؤمنين عليه السلام من الأحزاب والقوى والأفراد، يلجأ إلى الجبهة الأموية التي أعلنت عداءها المكشوف ضده وشنت عليه الحرب منذ اليوم الأول لاستلامه القيادة الفعلية للدولة، وأخذت تكيد له حتى تمكنت بالتالي من اغتياله واختراق سياج الجبهة المضادة لها بعد اختفائه من الساحة..

**قائد الأمة الحقيقي موجود دائما**

غير أن اختفاء أميرالمؤمنين عليه السلام من الساحة، لم يكن من شأنه أن يخلي الأمة من مسؤولياتها، وكذلك اختفاء الامام الحسن عليه السلام بعد ذلك؛ كان عليها أن تسير خلف قادتها الحقيقيين، بعد أن تعرفت على مواصفاتهم ولياقتهم الفريدة لهذه المهمة.

واذ أنها قد فعلت العكس، وسارت خلف أعداء هؤلاء القادة الحقيقيين، فانها تكون قد اشتركت بأكبر مؤامرة حيكت ضد الإسلام.

لقد كانت المحنة الحقيقية التي مرت بها الأمة، تتمثل لا بمجرد استسلامها ليزيد، وانما مشاركتها بالجريمة التي اقترفها، وكانت هي الأداة المباشرة للجريمة.

وقد يبدو الأمر مربكا للبعض ممن يتناولون حوادث التاريخ بعيدا عن مسبباتها وخلفياتها، وقد يبدو لهم أن الأمة كلها كانت تتعرض لحالة عبث غير مسؤولة من قيادة يفترض أنها مسؤولة وملتزمة، فان هذا الامام الذي سار لينقذها من أخطاء وانحرافات سابقة وحالية، قد تعرض لعدوان هذه الأمة نفسها، فقد ارتكب في حقه خطأ لا يغتفر، حينما حملت عليه وقتلته تلك القتلة الشنيعة ووقفت منه ذلك الموقف المشين، ومن لم يشترك من أبنائها في قتله، وقف موقف المتفرج الذي يراقب الأحداث من خارج حلبة

الصراع وكأن الأمر لا يعنيه، وكأنه خارج الحلبة فعلا، بعيد عن الصراع، وكأن الأمر برمته بدا وكأنه لا يعني احدا مباشرة، وكأن الامام الحسين عليه السلام كان هو المعنّى الوحيد والمستهدف الوحيد بالظلم والأذى، مع أن اشارة بسيطة منه بالموافقه على مبايعة يزيد، كانت تكفيه لكي يحصل على مكاسب كبيرة وهائلة، قد تكون ولاية عهد يزيد نفسه وقد تكون مقاسمته ملكه وقد تكون ملكا أو ولاية كبيرة أخرى، وكان يزيد سيطير من الفرح لو فعل الحسين عليه السلام ذلك وكان سيعطيه كل ما يريد، فاقرار الحسين حكم يزيد ومشاركته اياه فيه سيعطي المبرر الشرعي لوجود الدولة الأموية وسيسقط آخر الحصون لكل جهة رافضة أخرى لا تريد هذه الدولة وتعاديها، وسيصرخ كل فرد من أعوانها: ما شأن من يعادينا؟ ماذا يريد منا؟ ألسنا حكومة شرعية أقرها وباركها وسار في ركابها الحسين نفسه؟

**ما كان سيحدث لو أن الحسين بايع يزيد؟**

كان ذلك يعني أن الحسين عليه السلام إذا ما فعل ذلك فإنه سيجعل نفسه في صف الطبقة المستغلة التي تقود دولة الظلم الأموية وتستأثر بكل الخيرات دون عموم أبناء الأمة المظلومة المضطهدة المقهورة، وكان سيعطيها الشرعية التي تطلبها لتعزيز مكانتها وتثبيت وجودها وهو أمر لم يكن الحسين يفكر به اطلاقا بحكم موقعه ومركزه ومسؤوليته، وما نحسب أن أحدا من المسلمين يعتقد أن الحسين يمكن أن يفكر بذلك، فكيف يمكن أن يقدم عليه..

لقد آثر أن يقوم بما لم يقم به أحد غيره، لأنه لم يكن مثل الآخرين، وكان وعيه وشعوره بالمسؤولية استثنائيا، لم يكن يقل عن وعي وشعور من سبقوه ممن حملوا لواء الامامة مكملين دور الرسول القائد صلى الله عليه وآله بين أبناء الأمة. كانت معرفته بالإسلام ويقينه به أكبر من أي شيء آخر يمكن أن يجعله يستجيب لدعوة يزيد لمبايعته ووضع يده في يده.

لم يكن أحد يتصور أو يحتمل أن يقر الحسين عليه السلام الانحراف أو يهادن الدولة الأموية المنحرفة، وكان أبناؤها كلهم ينظرون اليه كرافض وعدو لهذه الدولة وكشخص غير قابل للمساومة والشراء.

وقد حاولت فئات كبيرة منها في فترات سابقة - أيام معاوية - أن تسير خلف قيادته لا نتشالها من وهدة الحكم الأموي الجائر، غير أنه لم يوافق على ذلك لعدم وجود الظروف الموضوعية المناسبة التي تمكنه من القيام بهذه الثورة وضمان نجاحها وتأثيرها في ذلك الوقت الذي كان معاوية يحاول أن يظهر فيه بالشكل الذي ظهر به من سبقوه وكان يحاول التمسك ببعض المظاهر الخارجية التي تبديه وكأنه أحد المنتمين للإسلام حقا وأحد المتمسكين بتعاليمه وتشريعاته، مادام ذلك الامر هو المحبب والمرغوب من قبل أبناء الأمة.

أما بعد هلاك معاوية، فقد رأينا أن الحسين عليه السلام لم يكن أمامه سوى سبيل واحد، وهو رفض يزيد أيام أبيه، وقد رفضه وقد تسلم القيادة الفعلية للمسلمين وأصبح متخلفا عليهم، وهو أمر حَسِب له معاوية ألف حساب وأعد يزيد لمواجهته، وقد كان يقض مضاجع أركان الحكم الأموي ويجعلهم قلقين، على مواجهتها وحلها، فيزيد ليس كمعاوية في (دهائه) وسياسته ومهارته وأركان حكمه ليسوا كعمرو بن العاص والمغيرة وزياد وأضرابهم.

كانت مبايعة الحسين ليزيد تعني تحمله مسؤولية استسلام كل فرد من أفراد هذه الأمة المشلولة الخائفة المنهزمة، ومن هنا جاء شعور أنصاره الذين علموا صدق التوجه الحقيقي وراء رفضه الحكم الأموي وثورته عليه، معبرين عن الوفاء العميق بل الود الشخصي والولاء الخالص له عليه السلام، مؤكدين لكل فرد من أبناء هذه الأمة ما ينبغي عليه الشعور تجاهه، فكل فرد ينبغي أن يعبر عن احساسه الشخصي الخاص ولمسته الشخصية

الخاصة تجاه الحسين عليه السلام الذي بدا أنه كان يفدي بحياته وراحته وأمن عائلته جميع أبناء هذه الأمة على امتداد العصور.

ان كل من يعرف الدوافع الحقيقية لهذه الثورة يشعر بالامتنان تجاه الحسين، وان في عنقه ديناً شخصياً له.

**لماذا الشعور بالحزن والأسف؟**

ومن هنا كان الحزن والمشاعر العاطفية الجيّاشة من العديدين من أبناء الأمة لذلك المصاب المحزن في مذبحة كربلاء، عاملا من عوامل التعبير عن الشعور الحقيقي والفهم الواعي لما قدمه الحسين عليه السلام، مما يمكن أن يوظف ويستثمر لا لمجرد نقله إلى الآخرين هكذا دون سبب ولمجرد الرغبة في ذلك، وانما لتوضيح الموقف الذي وقفه والأذى الذي تعرض له رغم موقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن المسلمين، لكي يفكر الجميع في المغزى الحقيقي وراء وقوفه ذلك الموقف الثابت، ولجعل الآخرين يعيدون النظر في مواقفهم تجاه الإسلام على ضوء ما فعله الحسين عليه السلام وأصحابه عليهم السلام.

ان موقف الحسين عليه السلام في عاشوراء فرصة مناسبة لكل فرد من أبناء الأمة الإسلامية دون استثناء، لكي يستعرض على ضوئه مواقفه هو تجاه ما يعيشه ويشهده ويرى مدى ابتعادها أو تطابقها مع الخط الإسلامي السليم حتى وان كان يعيش في ظل دولة ظلم جديدة، ليرى هل أنه قادر على الاقتراب من ذلك الموقف والتفاعل معه للحد الذي يكون فيه مستعدا للوقوف مع الحسين كأحد أصحابه، وان طال المدى وتباعدت الأيام.

ولا يكفي الشعور المجرد بالتقصير لجعل الأمة تغير مواقفها الخاطئة، أو يقدم أي فرد منها على تغيير موقفه الخاطئ، ما لم يستتبع هذ الشعورَ تصميم مخلص وارادة حازمة للتغيير، ثأر الحسين من أجل الأمة كلها ومن أجل أن يطبق الإسلام كله.

ولم ينهض ثأراً لمن قتل من أهله وآبائه، أو لمن جعلوا من أنفسهم شيعة لجده صلى الله عليه وآله وأبيه وله هو خاصة، بل ثار من أجل خلاص كل المسلمين من الانحراف الذي أوشك أن يلتف حول رقابهم، وحتى لأجل أولئك الذين دفعوا للاشتراك بقتله.

فأي شعور بالحزن والأسى كان ينتابه، وهو يرى هذه الأمة تنسلخ عن دينها وتبعد عنه بفعل تدبير منظم دؤوب تقوم عليه المؤسسة الحاكمة لدولة الظلم التي تدعي الانتساب للإسلام والقيمومة على المسلمين.

**كيف تبرر الأمة اقدامها على قتل ابن نبيها؟**

كان أمرا غير مفهوم بنظر من لا ينتسب للإسلام، أن تقدم الأمة المسلمة على قتل ابن بنت نبيها والاعتداء عليه، فكيف حصل وإن أصبح ذلك أمرا مقبولا من قبل أبناء هذه الأمة المسلمة نفسها، وتسكت عن تلك الجريمة التي وقعت بين ظهرانيها..؟ وكيف حصل أنها تعترف بكونها مدينة لجده صلى الله عليه وآله بانقاذها من تخلفها وجاهليتها، ثم تقدم على قتل ابنه عليه السلام بحجج ملفقة من حاكم متسلط عليها تعرفه حق المعرفة، وتعرف أنه غير مؤهل حتى للحفاظ على قطيع صغير من الأنعام...ذكر «عن أبي لهيعة عن أبي الأسود محمد بن عبدالرحمن، قال: لقيني رأس الجالوت، فقال: والله، ان بيني وبين داوود لسبعين أبا، وان اليهود تلقاني فتعظمني، وأنتم ليس بين ابن نبيكم وبينه الا أب واحد قتلتم ولده...»[1].

وقال راهب لمن حملوا رأس الحسين عليه السلام ليزيد: «تباً لكم، والله، لو كان لعيسى بن مريم ابن لحملناه على أحداقنا..»[2].

---

(١) سير الأئمة عليهم السلام - السيد محسن الأمين: ج٣ص ١٥٣.

(٢) البحار: ج٤٥ ص ١٧٥.

لقد حصل الذي ندمت عليه الأمة بعد ذلك، وتمنت لو أنها لم تشهده ولم تشترك به أو توافق عليه أو تسكت عنه، وتمنت لو أن الأيام دارت دورتها المعاكسة، وعادت إلى الزمن الذي سبق تلك الواقعة، إذاً لما كانت قد أقدمت على ما أقدمت عليه من فعل مشين ولكانت قد وقفت إلى جانب الحسين عليه السلام.

**غلطة أم كارثة؟**

ان هذه الغلطة الكبيرة التي ارتكبتها الأمة بمشاركتها وسكوتها عن الجريمة التي ارتكبت بحق امامها وقائدها الحقيقي أتاحت لها فرصة التبصر والمراجعة قبل الاقدام على مواقف مماثلة، وأتاحت للعديدين من أبنائها فرصة التراجع عن مواقفهم الضعيفة المساومة وانتهاج خط الامام الحسين المتصدي لدولة الظلم أينما كانت ومهما كانت قوتها، وجعلتهم متحفزين متربصين لكل الظواهر أو البوادر التي تسبق ظهور هذه الدولة وظهور طغاة جدد يتسلطون على مقدارات الأمة ومكاسبها.

ويمكن القول ان العديد من الثورات التي حدثت بعد ثورة الحسين وفي مقدمتها ثورة المدينة والتوابين في الكوفة، كانت تعبر عن تراجع الأمة عن موقفها الخاطئ وتقبلها للانحراف، واستعدادها لتصحيح المسيرة بمثل الأسلوب الذي لجأ اليه الامام الحسين عليه السلام، حتى ولو اقتضى الأمر وكان الثمن هو دماء المزيد من المضحين، وقد دفعوه غير مبالين ولا خائفين.

وكان رد الفعل الأول على الثورة هو الاحتجاج على أسلوب قمعها أولا، ثم الاحتجاج على الظواهر التي اعتادت الأمة رؤيتها من دولة الظلم الأموية.

وكانت محاولة التنصل من تهمة قتل الحسين عليه السلام وأصحابه من قبل يزيد وابن زياد وابن سعد وغيرهم، وقيام المشتركين ومنفذي الجريمة باتهام بعضهم البعض، يمثل

استجابة لردود الفعل الغاضبة التي لمسوها من عموم أبناء الأمة، حتى من الناس المقربين منهم والمحسوبين عليهم منذ اللحظات الأولى لارتكاب جريمتهم المنكرة.

**لابد من الجد والموضوعية**

ان أمراً مهماً - بخصوص هذه الثورة - ينبغي على جميع المسلمين القيام به على اختلاف مذاهبهم ومواقفهم المتباينة منها الآن والمبنية دون شك على طبيعة فهمهم لها والمصادر التي تلقوا عنها معلوماتهم، وهو ضرورة تناولها تناولا جادا ودراستها دراسة موضوعية غير متحيزة مبنية على فهم واضح لظروفها وأهدافها وأطراف الصراع فيها وطبيعتهم.

ان الفترة الزمنية الطويلة التي مرت على ذلك الحدث الجلل، ينبغي أن تجعلنا هادئين بشكل كاف لنتناوله من الزوايا المناسبة الصحيحة التي تتيح لنا فهمه بشكل واضح ندرك معه أن الحسين عليه السلام كان يقف مع عموم جماهير الأمة، حتى مع أولئك الذين حسبوا أنهم سيستفيدون من قتله ويجنون أكبر الأرباح، وأنهم يقومون باطفاء نار فتنة متوهمة تفرق بين المسلمين...!!

كان الحسين عليه السلام يقف مع الأمة كلها على امتداد وجودها وبقائها على هذه الأرض، لا الأمة التي عاصرها وحسب، والتي لم تكن هي - من جانبها - تقف معه...كان يدافع عن مكاسبها التي حققتها في ظل الإسلام وفي ظل القيادة الحقيقية لها، ويدافع عن المكاسب المحتملة التي يمكن أن تجنيها في ظل ظرف إسلامي صحيح آخر قد تمر به في وقت لاحق، وقد يعمل أعداؤها التقليديون المتطلعون للسلطة والثروة دائما على تجريدها منها كما كانت تفعل زمن حدوث الثورة نفسها كما كان يريد تجنيبها شر الوقوع بين براثن وأنياب هؤلاء الأعداء الذين لا يتورعون عن فعل شيء في سبيل مصالحهم ونزواتهم.

**الإسلام طاقة دائمية**

فلم يكن الإسلام طاقة مؤقتة قادرة على انعاش روح الأمة وبث الدف ء في جسمها لأمد محدود، وانما هو طاقة متجددة متصاعدة تمتلك عناصر الديمومة والبقاء والنمو لأمد غير محدود إلى أن تنتهي الحياة، ويرث الله الأرض ومن عليها، كما لم يكن مرهونا بطبقة أو فئة أو مذهب وانما جاء بشمولية للناس كافة، فقد أرادهم اليه أن يكونوا على طريقه المستقيم الذي رسمه رسول الله صلى الله عليه وآله بعيدا عن عبث العابثين والمزورين والمحرفين.

وكما كان رسول الله صلى الله عليه وآله معنيا بأن يقوم الإسلام بدوره الكامل الواسع على هذه الأرض دائما، ويدعو المسلمين للبحث عن المناخ الصحيح الذي يستطيعون التعايش فيه مع الإسلام بشكل واقعي وسليم ليحكموه في حياتهم ويكون هو المصدر الأول لتنظيم هذه الحياة، ورفض التطلعات الأرضية المتدنية، فكذلك كان أوصياؤه عليهم السلام معنيين بنفس الدرجة وبالقدر العالي من المسؤولية نفسه، بسيادة الإسلام على هذه الأرض بعيدا عن عبث الطواغيت والطامعين.

**اعداء الإسلام: استعدوا منذ البداية**

ولم يكن ظهور الأعداء الذين يكيدون لهذا الدين أمرا غير متوقع من قبل الرسول صلى الله عليه وآله، فهؤلاء الأعداء بدؤوا عملهم ونظموا صفوفهم منذ اللحظة الأولى التي أعلن فيها الإسلام وظهر، وكانت البصيرة الواعية التي يتمتع بها رسول الله صلى الله عليه وآله والحس المرهف السليم والعلم الالهي المتيقن تجعله يلمح دائما إلى أن الإسلام سيمر بصعوبات جمة، وأنه سيعود غريبا كما بدأ غريبا[1] .

---

(١) قد يكون لتفسير هذا الحديث الشريف معانٍ عديدة لسنا بصدد الحديث عنها كلها في هذه الدراسة.

## مصلحة الأمة أهم من السلامة الشخصية

ومع ذلك فلم يدعهم الى ايثار السلامة الشخصية وتجنب المتاعب التي كان يراها رأي العين باخبار مؤكد عن الله سبحانه وتعالى، ولم يدعهم إلى التراجع لتجنب المصير الظاهري المؤسف الذي سيؤولون اليه في خضم تصديهم لأعداء الإسلام.

ومع أن ذلك كان يؤلمه ويحزنه أحياناً، الا أنه كان يرى أنه أمر ضروري، بل انه الأمر الوحيد الكفيل بجعل هذه الأمة تستيقظ وتتخلى عن القيادات المنحرفة، وتدرك مغزى ذلك الاقدام البطولي على الموت من قبل تلك الصفوة، رغم معرفتها الأكيدة به.

لقد أراد الرسول صلى الله عليه وآله أن تفكر الأمة بكل الوقائع والاحداث الكبار التي قام بها أبطال الإسلام، ابتداء من معركة بدر، وبكل واقعة محتملة قد يتصدى فيها فرد بمفرده أو بفئة قليلة لحكومة ظالمة، كمعركة الطف التي أصبحت في مقدمة معالم التاريخ الإسلامي الكبيرة.

## الطف شاخصة أمام الأمة دائما

وكما أراد الرسول صلى الله عليه وآله أن تشخص بدر أمام الأمة دائما، ويشخص أبطالها أمام أنظار أبناء هذه الأمة كنموذج قابل للتكرار، أراد أن تشخص الطف أمام أنظارها كظاهرة أخرى كبيرة، بطلها ابن بطل الإسلام الأول، وأبطالها الآخرون أفراد عاديون من المسلمين، أدركوا مسؤولياتهم وواجباتهم وتقدموا بين يدي الحسين غير مبالين بالقتل والأذى..

وكان نموذج الأبطال الذين اشتركوا مع الامام الحسين أمرا ممكن التكرار أمام أية حالة ظلم وأمام أية دولة ظالمة على امتداد التاريخ، ولو كانت هذه الدولة تتستر بالأغطية الإسلامية وترفع الشعارات الإسلامية التي رفعتها دولة الظلم الأموية.

وليس من الغريب أن يقوم أحفاد أولئك الأعداء الذين قاوموا رسول الله صلى الله عليه وآله منذ البداية، وتزعموا الحملة الظالمة لحربه واستئصاله والقضاء على دينه، بشن الحرب على آله عليهم السلام وفعل ما لم يستطيعوا فعله معه صلى الله عليه وآله.

ولم يكن خافيا على الأمة تحيز آل أبي سفيان إلى الشرك ووقوفهم في الصف الأول من المعادين للإسلام، ولم يكن خافيا عليها انحناؤهم أمام العاصفة الإسلامية القوية التي أوشكت أن تزلزل بهم الأرض، وتسللهم إلى صفوف المسلمين، ثم احتلالهم مراكز مهمة أدت - في ظروف الانحراف- إلى أن يستأثروا بالسلطة والملك بشكل تام.

وكان لذلك أسبابه وممهداته التي كانت نابعة عن نظرات فردية خاصة، ربما رأت أن تقريب آل أبي سفيان قد يعمل على تجنيب الأمة شرهم، وأنه يمكن بالمناصب التي منحت لهم كسبهم نهائيا إلى صف الإسلام ومحو كل الآثار السلبية التي قد تبقى في نفوسهم ضده، هذا إذا حاولنا تفسير الأمر هذا التفسير البسيط الذي لا تلوح منه اشارة إلى نيات سيئة خلف هذا التعيين الذي جر على الأمة الويلات طيلة مئات السنين...مع أننا ينبغي أن نحمِّل من عيَّن معاوية تبعات قيامه المتعمد بذلك لأنه ألحق أشد الأذى بالمسلمين، اذ كان معاوية واليا مدللا -إذا صح التعبير- ولم يكن يجري عليه ما يجري على غيره من العمال الآخرين حتى في زمن عمر الذي اشتهر بالشدة والصرامة على عماله، الا أنه كان يتراجع أمام تبريرات معاوية وأعذاره التي ذكر لنا التاريخ طرفا منها.

### لماذا تبني الموقف الأموي رغم ذهاب بني أمية؟

ولا يزال عدد كبير من المفكرين والكتاب الإسلاميين يتبنون نفس الموقف الأموي المعادي للحسين وثورته ومن آل البيت عموما وفي مقدمتهم أميرالمؤمنين عليه السلام، وقد يكون ذلك اما بدافع التأثر بمفاهيم وأفكار مسبقة، تسلسلت عبر البيئة التي تربوا فيها،

أو بتأثير المواقف الرسمية للدول (الإسلامية) التي لا تختلف صيغ العمل فيها عن الصيغة الأموية، وقد تكون صورة منها.

وإذا ما جرت دراسة موضوعية تفهم طبيعة الدوافع الحقيقية لهذه الثورة، فان هؤلاء سيعلمون بلا شك أنهم قد انساقوا وراء خطأ كبير، وانهم بذلك يجنون على أنفسهم وأمتهم، وانهم قد أوقعوا أنفسهم بورطة كبيرة، قد يدركون هم آثارها بعد أن يدركها الآخرون وقد يجيء ذلك بعد وقت متأخر، يتحملون عنده المسؤولية أمام الله وأبناء الأمة بعد أن شاركوا بتمييع القضية بأكملها وعرضها بشكل مشوه، ومن خلال تصور مسبق كثورة (شيعية) لا علاقة لها بعموم المسلمين، بل لا علاقة لها بالإسلام بتاتا، بعد أن رسموا للشيعة صورا مشوهة فألصقوا بهم مختلف التهم وعرضوهم بأشكال مختلفة، اقتضت مصالح حكام الانحراف أن تقدم للأمة بذلك الشكل المشوه لكي ترفض من قبلها.

واذ أن معاوية، الذي رفع السيف بوجه أميرالمؤمنين عليه السلام وشن أكبر حملة لتشويه أنصار الإسلام الحقيقيين الذين انضموا تحت لوائه، كان هو الذي مهد لقتل عثمان بجعله يتمادى في الانحراف والخطأ مما جعل النقمة الشعبية تتزايد عليه وجعل الناس تقدم على قتله، ثم بتلكئه عن نصرته ونجدته، وكان بامكانه القيام بذلك، فانه قام أيضا – وهذا ما أراده من قتله – بمهمة المطالبة بدمه بعد موته، لأن تلك كانت هي الفرصة الوحيدة التي يستطيع فيها ايجاد مبرر (مقنع) لأهل الشام وغيرهم من رؤساء الفتن والأحزاب، للوقوف بوجه أميرالمؤمنين عليه السلام، اذ لم يكن دم عثمان ليستدر دموعه ويثير أحزانه بأي حال من الأحوال.

**مطامع شخص واحد دمرت مستقبل الأمة إلى الأبد**

«و كان الحق على معاوية، لو أنصف وأخلص نفسه للحق أن يبايع كما بايع الناس، ثم يأتي إلى علي مع غيره من أولياء عثمان فيطالبوا بالاقادة ممن قتله. ولكن معاوية لم يكن يريد أن يثأر لعثمان بمقدار ما كان يريد أن يصرف الأمر عن علي، وآية ذلك أن الأمر استقام له بعد وفاة علي عليه السلام ومصالحة الحسن اياه، فتناسى ثأر عثمان ولم يتتبع قتلته..»[1].

لقد أدرك معاوية أن السبيل الوحيد الذي يتيح له البقاء على كرسي الحكم بعد عثمان، هو مقتل عثمان، فأية ذريعة يمكن أن يرفعها للوقوف بوجه أمير المؤمنين عليه السلام إذا ما مات عثمان موتاً طبيعياً، وهو شيخ كبير أوشكت سنوات عمره على الانقضاء... وقد رأينا في المبحث الذي تطرقنا فيه إلى سيرة معاوية أنه كان في مقدمة الساعين لقتله، وكان يمهد الأمور من طرف خفي لذلك ليتسنى له بعد ذلك رفع شعار المطالبة بدمه، وهو شعار سيلقى لدى المضللين والطامعين والأحزاب صدى مقبولا، وستجعل منه سببا لتوهين حكم أمير المؤمنين والخروج عليه.. وهذا ما تم بالضبط.

وقد أدرك الكثير من الباحثين المسلمين الجادين ذلك، وعلموا أن معاوية لم يكن يسعى الا وراء مصالحه وغاياته وأطماعه الخاصة، وأنه حاول خلط أوراقه بأوراق من سبقوه من الخلفاء ممن كانوا يلقون قبولا حسنا لدى جماهير واسعة من المسلمين، ليكون مقبولا لديهم بدوره، وليظهر بمظهر قوي بمواجهة أمير المؤمنين عليه السلام، وليستطيع أن يدعي بعد ذلك أن عليا كان على الكل واجدا وأنه لم يختص معاوية بذلك وحده، فكأنه كان يريد أن يظهر أمام الأمة بمظهر المظلومية ويشعرها بأنه مغبون محسود كغيره ممن سبقوه.

---

(١) الفتنة الكبرى: ج٢ ص٣١.

### افتراءات ومزاعم

وقد رد أمير المؤمنين على افتراءاته برسالة لا تدع مجالا للشك في أمره المريب...«... **وزعمت أني لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت...فان يكن ذلك كذلك، فليس الجناية عليك فيكون العذر اليك..«و تلك شكاة ظاهر عنك عارها» ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان، فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه.فأينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله؟ أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه، أمن استنصره فتراخى عنه وبث المنون اليه حتى أتى قدره عليه..»**[١].

ومن العجيب أن تلفيقات معاوية وأكاذيبه لا تزال تلقى قبولا واستحسانا من قبل أناس بامكانهم أن يقرؤوا ويلاحظوا ويتمعنوا جيدا فيما يطرح أمامهم لتوفر أدوات البحث والدراسة...ولا يكونوا بمستوى الرعاع الذين رباهم معاوية وأعدهم من قبل في الشام، غير أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث والنظر، ونظروا بعيون من سبقوهم، ولعل للأسباب التي ذكرناها فيما مضى أثرها في ذلك.

### قضية التاريخ الإسلامي لنبحثها بعيدا عن حدود النظرة الأموية العابثة

اننا إذا ما تجاوزنا حدود النظرة الأموية التي أراد معاوية أن تتبناها الأمة، فاننا قد نستطيع وضع قضية التاريخ الإسلامي برمتها على نار هادئة ونتناول أحداثها بشكل لا يسبب الضغينة والكراهية التي حاول معاوية زرعها ليتسنى له تنفيذ مخططاته في السيادة والغلبة، وحينذاك سندرك الدوافع الحقيقية وراء فضح النظام الأموي - الذي لا يزال يتكرر ويظهر بعدة أشكال -والأسباب التي تدعو لرفضه والخروج عليه، وستكون تلك الدوافع هي نفسها التي ستحدد الكثير من أنماط أعمالنا وتصرفاتنا ومواقفنا تجاه العديد من دول الظلم الممتدة مع تاريخنا الإسلامي، والكثير من القضايا الراهنة التي

(١) نهج البلاغة: ص٥٥٠.

تتعلق بحياتنا ووجودنا ومستقبلنا، وقد لا نعود ننظر للأمور نظراتنا اللامبالية اليها، وندرك ما لم ندركه من قبل.

ان فهم ثورة الحسين، وكل معارك الإسلام الأخرى، كان دافعا للعديدين الذين فهموها فهما صحيحا، لكي ينهجوا نهج أولئك الذين شاركوا فيها وكان لهم دور بارز، ويقفوا مواقفهم الواضحة تجاه قضايا الأمة المصيرية.

وهو أمر لا يبدو حكرا على فئة خاصة من أبناء هذه الأمة، بل انه متاح للجميع إذا ما جعلوا قضية الإسلام قضيتهم الأساسية وبذلوا جهودا مخلصة لفهمه بعيدا عن تصورات أعدائه، حتى أولئك المتغلغلين بين صفوفهم، وعن تخرصاتهم وألاعيبهم التي بات معروفا للجميع أن الغرض منها كان يصب في دائرة مصالحهم وطموحاتهم الشخصية البحتة.

وتظل ثورة الحسين شاخصة كأقدس معركة ضد رموز الشرك والظلم والطغيان، ويظل رجالها ماثلين أمام أنظار أبناء الأمة الإسلامية كلها على امتداد الأزمان كمدافعين حقيقيين عن الإسلام المحمدي الصحيح لحفظه من التزوير والانحراف والاندثار، وما على الذين يريدون التغيير والثورة ضد الظلم والتسلط الا أن يضعوها نصب أعينهم ويستعيدوا أدوارها وفصولها وموقف كل مشارك فيها، ويضعوا أنفسهم مكان أولئك الرجال ليروا هل أن بامكانهم القيام بها قاموا به، وهل أنهم يمتلكون نفس القوة التي امتلكوها، وهل اندمجوا مع الإسلام ولم ينظروا الا اليه وأصبح مثلهم الأعلى الوحيد، أو أن الرواسب الأولى قد أضيفت اليها رواسب جديدة والتظليل الأموي لا يزال يفعل فعله.

**هل هي شجاعة مجردة؟**

لقد وصفت مواقف الرجال المشاركين بثورة الحسين عليه السلام بالشجاعة، رغم كل ما قيل فيهم، غير أن الشجاعة المجردة والتظاهر بها، لم تكن هي الدافع الذي مكنهم من الصمود إلى آخر لحظة من حياتهم ومنازلة أعدائهم الكثيرين وقتل بعضهم وعدم المبالاة بالموت رغم يقينهم أنه نازل بهم بعد لحظات.

فالشجاعة المجردة قد يمتلكها حتى أولئك الذين لا يحدد مسيرتهم غرض نبيل أو هدف سام وقد يتميز بها حتى بعض المتهورين وقطاع الطرق وأولئك الذين لا يحملون قضية عادلة، غير أنها شجاعة مطلقة، لأنها امتزجت بالمثل الأعلى المطلق وكان دافعها الوحيد هو حماية الإسلام من الانحراف والضياع... «سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى، فأيها في سبيل الله؟

فقال: **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله..**»[(١)].

وكان دافعها الحرص على الأمة كلها وحمايتها من الانحراف، والشعور بمسؤولية شخصية يتحملها كل فرد من المشاركين بالثورة والمعركة، ويدرك أن عليه دورا لابد من القيام به ولا يمكن تأجيله..ولو كان الظرف عاديا، ولو لم يمر أولئك الرجال بمحنة تغلغل الانحراف بين صفوف أبناء الأمة، وشعورهم بمسؤولية مواجهته بعد أن عجزت الأمة كلها عن ذلك، لربما وجد بعضهم أن عليه أن لا يفرط بقطرة دم واحدة من دمه أو حتى بساعة راحة واحدة، طالما أن الأمر لم يكن يقتضي ذلك..أما وأنه كان واجبا وضروريا وأمرا عاجلا لا يحتمل التأجيل، فكيف يتسنى لهم الانتظار، وكيف يتسنى لهم أن يتجاهلوا أن مصلحة الأمة كلها وعلى امتداد الأزمان، فوق مصلحتهم الشخصية وراحتهم الشخصية وأن حياتها أهم من حياتهم.

(١) رواه الشيخان / سيد قطب – في ظلال القرآن: ج ١٧ ص ٢٤٢٧.

**من هم المجاهدون؟**

وهكذا هو الجهاد في الإسلام، يندفع اليه أكثر الناس شعوراً بالمسؤولية وأكثرهم تحسسا بوطأة الواقع المر في ظل الظلم والانحراف والجور...وهذا الشعور بالمسؤولية قد يكون شعورا بالمسؤولية الخاصة أو العامة، ومن هنا ورد في الحديث الشريف أن «**من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد**»(١).

على أن الذي اتفق عليه علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم وطوائفهم هو أن أعلى مراتب الشهادة، هي الشهادة في سبيل الله، يقاتل من أجلها المسلم ويقتل، وقد يكون ذلك على أيدي المشركين أو الكافرين، وقد يكون على أيدي الباغين أو المنحرفين او المنافقين أو الخارجين عن الإسلام بمختلف الأشكال والحجج.

سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن أفضل الأعمال فقال: «**الايمان بالله والجهاد في سبيله**»(٢) وسئل عن أفضل الناس فقال: «**مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله**»(٣).وقد روي عن الامام الحسين عليه السلام قوله عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**فوق كل بر بر حتى يبذل العبد دمه، فاذا فعل ذلك فلا بر فوق ذلك**»(٤).

وقال الامام الباقر عليه السلام: «**ان علي بن الحسين عليه السلام كان يقول: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما**

---

(١) الشهيد في الفقه الإسلامي: د.شوكت عليان الفيصل: ج٤ص ١٨٨، صفر ١٤١٣/ ١٩٩٢.

(٢) جهادنا المقدس – د.عبد الحليم محمود – شيخ الأزهر – عن الجهاد – جلال الدين الفارسي بيروت ١٩٧٨ ص ٥٨.

وفي أصول الكافي: ج٥ ص٥٣ فوق كل ذي برٍّ بر حتى يقتل في سبيل الله، فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه بر.

(٣) أصول الكافي: ج٥ ص٥٣.

(٤) أصول الكافي: ج٥ ص٥٣.

**من قطرة أحب إلى الله عزوجل من قطرة دم في سبيل الله»**[١].

وقال الامام الصادق عليه السلام: «**من قتل في سبيل الله لم يعرفه الله شيئا من سيئاته**»[٢] ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام حول جهاد أهل البغي والزيغ: «...**وقتال لأهل الزيغ لا ينفر عنهم حتى يفيئوا إلى أمر الله أو يقتلوا..**»[٣].

وحتى إذا ما حاول أحد أن يجعل من معركة بين طائفتين من المسلمين دليلا على أن كلتيهما من المؤمنين، كما ورد في الآية الكريمة: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ**﴾[٤]...«فهذا النص القرآني الكريم يتناول كل قتال بين الفئات المسلمة، وعلى كافة المستويات...وعليه فالمقتول في مقاومة الباغين كالمقتول في محاربة الكافرين سواء بسواء وذلك لأن قتل باذلا نفسه في سبيل الله»[٥].

وهنا علينا أن ننظر إلى ما قامت به القيادة الأموية ضد الإسلام واستبعادها اياه عمليا عن الحياة العامة للمسلمين الا القدر الذي لا يضر بمصالحها وترى أنه يعزز تلك المصالح وتجاوزها كل معطياته وأحكامه إلى حد الذهاب لتنصيب أبعد الناس عن الإسلام وأقلهم احتراما له والتزاما به خليفة للمسلمين وممثلا لرسول الله صلى الله عليه وآله نفسه قدوة المسلمين ورائدهم ومثلهم الأعلى..كيف سيكون البغي ان لم يكن هو هذا البغي الأموي نفسه...؟ ان التعدي الأموي لم يكن على فئة أخرى من المسلمين، ولم يكن على الجيل الذي عاصر تلك الفترة المحزنة، وانما هو على أجيال المسلمين التي تحملت

(١) أصول الكافي: ج٥ص٥٣ (الجهاد).
(٢) أصول الكافي: ج٥ ص ٥٤ (الجهاد).
(٣) التهذيب - للطوسي: ج٦ ص ١٤٤.
(٤) الحجرات: ٩.
(٥) الشهيد في الفقه الإسلامي ص ٩٦.

مساوئه وآثاره ولا تزال تعاني منها إلى اليوم.

هل يمكن أن تلحق أطماع فرد واحد أو جماعة قليلة كل هذا الأذى الهائل الذي ألحق بالبشرية! وهل يوازي ما جناه من أرباح ومكاسب هذه الخسائر الجسيمة التي لا تحصى! انه لأمر غير قابل للتصور ولا نستطيع أن نرى كيف يستطيع هضمه من يدعي الانتماء للإسلام والحرص على مصالح المسلمين...!

**لم يجرؤوا على شجب الثورة فشجبوا الأسلوب**

ان بعض أولئك الذين لم يجرؤوا صراحة على شجب الثورة لما يعلمونه من خروج يزيد الفاضح عن الإسلام.يأخذون عن الحسين عليه السلام أنه لم يقم بها في الوقت المناسب، ولم يعد لها العدة اللازمة من الرجال والسلاح والمال...وفي معرض الحديث عن ذلك قلنا ان الحسين عليه السلام لم يكن بوسعه الا القيام بما قام به، مادام قد رفض حكم يزيد ومبايعته، بفعل الظروف المفاجئة التي بدأت بموت معاوية والذي تم على أثره مطالبة الحسين بمبايعة يزيد حالا، فحاكم المدينة الأموي الذي أبلغه خبر موت معاوية طلب منه مبايعة يزيد على الفور، وربما كان سيسجنه أو يقتله في تلك اللحظة لو لم يكن الحسين مستعدا لذلك ولو لم يأخذ جماعة من أصحابه وأهل بيته إلى محل اللقاء ليستنقذوه إذا ما رأى بادرة خطر محتملة، وكان الأمر كما توقع فعلا..

وقد رأينا أن الحسين عليه السلام خرج من المدينة هاربا يترقب - ان صح التعبير - خوفا من تعرضه للموت هناك ان لم يبايع، وهو لم يرد بالتأكيد أن يبايع، كما رأينا خروجه الملحمي على مرأى ومسمع آلاف الحجاج الذين قدموا مكة ذلك الموسم، لأن الأمر يمكن أن يتكرر هناك كما تكرر في المدينة خصوصا وأن يزيد أرسل ثلاثين رجلاً لاغتياله ولو كان متعلقاً باستار الكعبة على حد تعبيره، واذا ماقتل في المدينة أو مكة فان الأمر كله يمكن

أن يضيع دون أن يستطيع كشف الدوافع الحقيقية من وراء رفض يزيد وعدم مبايعته، ولن يكون لموته ذلك التأثير الذي حصل في كربلاء وجعل الأمة تعيد النظر في موقفها المستسلم والمتهاون واللامبالي.

**كيف يعبر عن رفضه لو جلس في بيته؟**

انه لم يجلس في بيته ويعلن رفضه وقعوده واعتزاله الحياة العامة ليكون ذلك دون فائدة فيما بعد، ففي هذه الحالة قد يسجن في بيته أو يحاصر وقد يقتل بعد حين ويضيع دمه هدرا دون أن يتمكن من اشعار الأمة بالحال الذي آلت اليه تحت وطأة الحكم الأموي المنحرف وقد أوضحنا سبب رفضه البقاء في مكة، رغم ما كان يرجح له البعض ذلك، ورأينا كيف أنه لم يكن أمامه سوى المسير للعراق رغم المخاطر المحتملة من ذلك أيضا الا أنها مخاطر لم تكن غير ذات جدوى.

**احتمالان**

فهناك أمران كان يحتمل أن يتعرض لهما في مسيره هذا، وهو اما أن يستشهد أو يربح الموقف والمعركة كلها، وفي الحالة الأولى فهو يتعرض لما كان محتملا أن يتعرض له في المدينة أو مكة، غير أنه كان يستطيع هنا أن يعرض قضيته على رؤوس الأشهاد، والأشهاد هنا الأمة كلها، والتي بدأت تراقب هذا الموقف الملتهب، ويستطيع لفت نظرها بدون دمه ودماء أصحابه الأحمر القاني إلى ما لا يمكن أن تنتبه اليه دون هذا الدم ودون هذا الموقف الحاسم.

وإذا ما ربح المعركة عسكريا وعلى كل المستويات والأبعاد، أو إذا ما خسر على المستوى العسكري وقتل، وقتل معه أصحابه، فهو في الحالتين قد حقق كسبا عظيما لصالح قضيته، اذ يستطيع وضع عصاه القوية في عجلة الانحراف، ويجعل الأمة تندم

وتأسف على استسلامها ومهادنتها دولة الظلم ومواقفها اللامبالية تجاه ما كان يجري من خرق مفضوح لكل قوانين الإسلام وأحكامه من قبل الدولة الجائرة التي ليس لها من الإسلام الا اسمه فقط، وتعيد النظر بمواقفها وتعمل على تصحيحها منذ اللحظة الأولى التي تنتهي فيها المعركة.

**نجاح منقطع النظير**

لقد كان نجاح الثورة هائلا وغير متصور، وكان رد فعل الأمة تجاهها قويا ومتجددا، بل انه بدا ليس مقتصرا على وقت محدود أو على فئة خاصة من المسلمين.

لقد عد الكثيرون من المسلمين الواعين - على اختلاف اتجاهاتهم - قضية الحسين عليه السلام، قضية الإسلام الأساسية الكبرى بمواجهة أعدائه، وكانت مسيرته الملحمية لوقف الانحراف والانحدار السريع عن خط الإسلام المحمدي الصحيح، تمثل أمامهم دائما كفعل ارادي حر نابع عن ارادة الإسلام نفسه وعن الشعور العميق بالمسؤولية تجاه هذا الدين، فليس لأحد من المسلمين أن يكون مرهونا بارادة دولة ظالمة أو حاكم جائر مستبد، ولعل شهادته أمام الله، انه لا اله الا هو وانه وحده الخالق والقادر والمالك والمهيمن، واقراره أن محمدا عبده ورسوله، عقد يعترف به هو كل يوم عدة مرات، ويرتب عليه أن يستسلم لله وحده ويطيعه ويتمسك به ولا يخاف الا اياه، وان عليه أن يفي بمتطلبات هذا العقد أمامه مع كل ما يترتب عليه من مسؤوليات وترافقه من مخاطر أو متاعب، واعترافا منه بالعبودية المطلقة لهذا الخالق الفرد عن وعي وموقف ارادي حر، والذي اشترى منه نفسه وماله. فان عليه أن يقدم على ما يراه ضروريا لصالح دينه حتى وان كان القتل في سبيله؛ لأن ذلك سيكون قمة الوفاء وستكون محصلته الفوز العظيم بالجنة مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا...

**﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ**

وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(١).

لم يعمل الحسين وأصحابه سوى أن استجابوا –بارادة طوعية حرة– إلى مسوؤليتهم كمسلمين واعين يحترمون عهودهم والتزاماتهم.وكان ذلك نابعا عن فهم صحيح للإسلام واستيعاب تام لمعطياته ومبادئه، وفعلوا ما لم تفعله الأمة كلها، وما أرادوا أن تفعله مجتمعة.وكانوا مطمئنين من النتيجة، ومن وعد الله لهم بالنصر والفوز بالجنة ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾، وبذلك حفظوا الأمة من الاستسلام المستمر والنوم والخدر واللامبالاة والوقوع بين براثن الظالمين، وجعلوها تنتبه إلى كل بادرة قد تؤدي بها إلى انحراف جديد وتتصدى في أحيان عديدة لرموز الانحراف الجديد بنفس القوة التي تصدى بها الامام الحسين للدولة الأموية الجائرة.

**النتائج المباشرة القريبة**

وإذا ما أردنا استعراض نتائج الثورة على المدى القريب، أي بعيد وقوعها، سنجد أن نتيجتها المباشرة كانت رد فعل غاضب عمت أقطار العالم الإسلامي، ولم يقتصر الأمر على فئات كانت تعد بالأصل معادية للنظام الأموي، بل ان هذا الغضب بدا حتى داخل هذا البيت نفسه، وحتى من بعض أفراد الجيش الذي قام بالمذبحة، وهذا ما أقلق أركان النظام وجعلهم يخافون نتائج فعلتهم، ويستعدون لمواجهة أخطار محتملة قد تعصف بعرشهم، وقد تصدوا بعد ذلك للثائرين عليهم بنفس العنف الذي تصدوا به للامام الحسين عليه السلام وحاولوا التنكيل بهم واتباع أقسى الأساليب معهم وخصوصا في (واقعة الحرة) في المدينة المنورة حيث ألحقوا أذى كبيرا بأنصار رسول الله صلى الله عليه وآله وأباحوا المدينة بشكل وحشي لمدة ثلاثة أيام لجنودهم ومرتزقتهم، مما جعل الأمة تتيقن بعد ذلك

(١) التوبة: ١١١.

من حقيقة ذلك النظام وعدم انتمائه للإسلام.

وإذا ما بدأنا باستعراض تاريخي، نجد أن استنكار تلك الفعلة الشنيعة بدأ منذ أن اتجهت السيدة زينب بخطابها إلى ابن سعد بعد مقتل الحسين عليه السلام مباشرة.ثم استمر كعامل مهم في اسقاط الدولة الأموية بعد ذلك على يد العباسيين الذين استغلوا مشاعر الغضب والكراهية لدى الكثيرين من أبناء الأمة، ووظفوها لمصلحتهم لقيام دولة عباسية كانت شعاراتها في البداية علوية.

ومع أن الدولة العباسية قد كانت على انحراف مماثل للانحراف الأموي منذ البداية وكانت أموية في معظم توجهاتها وأعمالها، ولم تكن تلبي مطامح المسلمين الذين حسبوا أنهم قد استراحوا إلى الأبد من النموذج الأموي البائد، الا أننا نستطيع القول ان وجودها كان نتيجة محتومة للخرق الأموي المعلن للإسلام والخروج المتعمد عليه والذي بدأ بشكل سافر قبيل وفاة معاوية وخلال حكم يزيد واستمروا بعد ذلك إلى أن سقط الحكم، وكانت نتيجة لغضب الأمة كلها على ذلك النظام الذي كشف كل أوراقه أمامها، ولم يكن العباسيون لينجحوا في توظيف ذلك الغضب لصالحهم لو لم يدعوا حرصهم على اعادة الأمور إلى نصابها ولو لم يتظاهروا بموالاة آل البيت والرغبة بأخذ ثأرهم من أعدائهم وأعداء الإسلام.

**رد الفعل المباشر - غضب جماهيري عام**

وينبغي أن نفهم أن ردود الفعل الفردية والعامة - التي سنكرس لها حيزا في هذا الفصل - لم تكن ردود الفعل الوحيدة التي ظهرت على الساحة، فقد استعرض المؤرخون لنا منها القدر الذي رافق بعض الأحداث العامة المتعلقة بتلك الثورة وما تبعها، فكتبهم التاريخية لم تكرس في الأساس للحديث عن كل ما كان يجري من أمور

وأحداث بين أوساط عموم الناس، وانما كانت معنية بطبقة الملوك والأمراء والحكام، وقد كتب معظمها في ظل دول و(خلفاء) لم يكونوا إلى جانب الحسين وآل البيت عليهم السلام عموما، وحتى الشعارات المرحلية التي رفعها بعضهم لم تكن تشم منها رائحة الولاء لهم وانما كانت شعارات كاذبة يستهدفون منها كسب الجماهير الموالية لخط الرسول صلى الله عليه وآله وآل بيته الكرام.

كما أن المؤرخين لم يكونوا معنيين -في ظل الظروف- بتقصي كل الحالات الفردية التي برزت بعيد هذه الواقعة، غير أن ما كتبوه يكفينا لكي نعلم أن غضبة جماهيرية كادت أن تعصف بالعرش الأموي وتودي به إلى الأبد، وقد بلغت من القوة درجة جعلت يزيد -بغروره ولا مبالاته وطيشه- يخاف من آثارها وقد حاول تبرير أعماله والقاء تبعتها على ابن زياد الذي حاول بدوره التنصل منها وتحميل يزيد المسؤولية كاملة، كما أن ابن سعد بدوره حاول التملص من المسؤولية، وقد راح الجميع يتبادلون حملة محمومة من الاتهامات في محاولات لتخليص أنفسهم والظهور أمام الامة بمظهر البريء الذي لم يفعل شيئا.

**اسف أم خوف - التنصل من الجريمة**

«لما قتل عبيدالله بن زياد الحسين بن علي عليه السلام وبني أبيه، بعث برؤوسهم إلى يزيد ابن معاوية فسر بقتلهم أولاً، وحسنت بذلك منزلة عبيدالله عنده، ثم لم يلبث الا قليلا حتى ندم على قتل الحسين، فكان يقول: وما كان عليّ لو احتملت الأذى وأنزلته معي في داري، وحكمته فيما يريد، وان كان عليّ في ذلك وكف ووهن في سلطاني، حفظا لرسول الله صلى الله عليه وآله ورعاية لحقه وقرابته! لعن الله ابن مرجانة، فانه أخرجه واضطره، وقد كان سأله أن يخلي سبيله ويرجع فلم يفعل، «أو يضع يده في يدي، أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله عزوجل» فلم يفعل، فأبى ذلك ورده عليه وقتله، فبغضني بقتله الى

المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة، فبغضني البر والفاجر، بما استعظم الناس من قتلي حسينا؛ ما لي ولابن مرجانة، لعنه الله وغضب عليه»[١].

وعندما أحضرت الرؤوس برفقة الامام علي بن الحسين عليه السلام والسبايا، أمام يزيد، توجه هذا بخطابه إلى زين العابدين قائلا:

«لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أني صاحبه ما سألني خصلة الا أعطيتها اياه، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن الله قضى ما رأيت...»[٢].وهنا يحاول رد الأمر إلى الله، وكأن يزيد لا يد له في الامر كله وانه كان مسيراً بارادة الهية مباشرة.وهذا مذهب استحدثه معاوية وشجع عليه طالما أن من شأنه تثبيت حكمه ودولته واخضاع الناس لما زعم أن الله قرره وقدره، وقد أشرنا لذلك في مبحث سابق أيضا.

أما ابن زياد، وقد أدرك فداحة جرمه فانه حاول تلافي أوامر مماثلة بغزو مكة صدرت اليه من يزيد والتملص منها، وقد قال لبعض مقربيه: «لا أجمعهما للفاسق أبدا، أقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وأغزو البيت...»[٣].

كما حاول أن يستعيد الرسالة التي أصدر أوامره فيها لابن سعد بقتل الحسين عليه السلام أو أن ينزل على حكمه...«قال عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد بعد قتله الحسين: يا عمر،

---

(١)الطبري: ج٣ص٣٦٥، والبداية والنهاية: ج٨ ص ٢٣٥ ويستخدم يزيد هنا طريقة ماكرة لتبرئة نفسه وإلقاء تهمة الجريمة علي ابن زياد وحده، ليردد أكاذيب ابن سعد وادعاءه بأن الحسين عليه السلام طلب وضع يده في يد يزيد، ليوحي بذلك بشرعية حكمه وخلافته طالما أن الحسين عليه السلام قبل بمبايعته وحكمه، وقد فندنا في مبحثٍ سابق هذه المزاعم التي كان مصدرها الأول عمر بن سعد نفسه، منفذ جريمة قتل الحسين عليه السلام....

(٢)الطبري: ج٣ص٣٣٩.

(٣) الطبري: ج٣ص ٣٥٣.

أين الكتاب الذي كتبت اليك في قتل الحسين؟

قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب.

قال: لتجيئن به.قال: ضاع.قال: والله لتجيئن به.

قال: تُرِكَ والله يقرأ على عجائز قريش اعتذارا اليهن بالمدينة.أما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص، كنت قد أديت حقه.قال عثمان بن زياد أخو عبيدالله صدق والله، لوددت أنه ليس من بني زياد رجل الا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة، وأن حسينا لم يقتل...

فوالله ما أنكر ذلك عليه عبيدالله»(١).

هل كانت الدوافع الطبيعية للندم، وبعد أن أدرك هؤلاء القتلة فداحة الجريمة التي قاموا بها، هي التي دعتهم إلى التنصل من المسؤولية والقاء تبعاتها على بعضهم...؟

أم أن الخوف من تبعاتها هو الذي دعاهم لذلك؟

لا شك أن تصريح يزيد قد أكد أن بغض الناس وعداوتهم له بما استعظموه من قتله الحسين، وهو ما دعاه للتبرؤ من ابن زياد واستنزال اللعنات عليه، ولم يكن ليفعل ذلك بدافع الكياسة أو الشعور بالذنب، وقد دلت أعماله اللاحقة أن مشاعر كتلك ما كانت لتساوره في أي وقت من الأوقات.

ولا شك أن دوافع بقية القتلة للتبرؤ من الجريمة لم تكن تختلف عن دوافع يزيد، فقد علموا أنهم مستهدفون لغضبة جماهيرية واسعة قد تنال منهم شخصيا وقد تقف عائقا في سبيل طموحاتهم، كما حدث بالفعل بعد ذلك، اذ رفضت الكوفة كليهما بعد

---

(١)الطبري: ج٣ص٣٤٢، والبحار: ج٤٥ ص ١١٨.

موت يزيد، كما رفضت الكوفة والبصرة ولاية ابن زياد عليها، اذ استحضر أهلوهما موقفيهما وما فعلاه بالحسين وأصحابه في كربلاء[١] كما استحضروا مواقف ابن زياد السابقة وعسفه وما فعله بهم.

**جيش ابن زياد أول من أدرك فداحة الخطب**

وإذا ما استثنينا أولئك المندفعين العابثين، الذين حسبوا أن مستقبلهم وحياتهم مرهونان بنظرة رضا أو بسمة استلطاف من ابن زياد، وقد تحدثنا عن بعضهم في هذه الدراسة، فلا شك أن بقية الجند العائدين من (المعركة)، وقد بهرهم الأداء الرائع للحسين وأنصاره وهم يواجهون عشرات الآلاف منهم والذين بدؤوا يرون الآن بوضوح أن الدولة ستتمادى في ظلمها وعدوانها بعد أن قضت بتلك الطريقة البشعة على أكبر شخصية في المسلمين، بل وأملهم الأخير للقضاء على الانحراف أو وقفه.

**مشاعر الندم..بعد الواقعة مباشرة**

قد أصبحوا -منذ تلك اللحظات التي بدا فيها أعوان تلك الدولة مصممين- بناء على تعليمات ابن زياد -على قتل الحسين عليه السلام وأصحابه وقطع رؤوسهم والتمثيل

(١) وقد حاول ابن زياد بعد موت يزيد استرضاء أهل البصرة وتذكيرهم (بأياديه) عليهم في محاولة منه لكسب ودهم وجعلهم يبايعونه، رغم أنه ادعى رفض تلك المبايعة في الظاهر، وقد بايعه من حضر منهم الا أنهم انصرفوا بعد ذلك وهم يقولون: «لا يظن ابن‌مرجانة أنا نستقاد له في الجماعة والفرقة، كذب والله».ثم وثبوا عليه.وكما هو متوقع في تلك الحال من أناس بعيدين عن المبادىء فان ابن زياد في تلك الخطبة عرض بثلب يزيد إلى أن منعه الأحنف من ذلك...وقد بعث ابن زياد مبعوثا للكوفة ليأخذ له بيعة أهلها، الا أنهم رفضوا وقال أحد ممثليها: «الحمد لله الذي أراحنا من ابن‌سمية، لا ولا كرامة» ثم اقترح بعضهم تأمير عمر بن سعد...«فجاءت نساء همدان يبكين حسينا ورجالهم متقلدون السيوف فأطافوا بالمنبر»، ولم يؤمر ابن سعد...وقد وصل خبر ذلك إلى البصرة فقالوا: «أهل الكوفة يخلعونه وأنتم تولونه وتبايعونه! فوثب به الناس» راجع التفاصيل في الطبري: ج٣ص٣٦٤-٣٧٥.

بجثثهم- نادمين على وقوفهم إلى جانب دولة الظلم الأموية، كما أصبحوا يحملون قدرا من الحقد والكراهية لها بقدر ما حمل العديدون منهم تقديرا خاصا لأصحاب تلك الأجساد التي ظلت ملقاة على ثرى كربلاء، ولعلهم تمنوا لو أنهم امتلكوا القوة الكافية للوقوف موقفهم.

ولم تأخذ مشاعر الندم تلك وقتا طويلا لكي تنتشر بين أوساط عموم أهل الكوفة، لتنفجر بعد قليل ثورة شعبية ضد الأمويين، وبعيد هلاك يزيد مباشرة، ونحسب أن بوادر اعداد وتنظيم لتلك الثورة قد بدأ منذ عودة الجند من (المعركة)، ومنذ أن بدأ الناس يقيمون نتائجها وما أصبحوا يلقونه الآن بعدها.

كانوا يرون خسارتهم الآن واضحة، ولم تقتصر على أولئك الذين شاركوا بقتل الحسين، فقد «قل من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة وعاهة في الدنيا، فلم يخرج منها أحد حتى أصيب بمرض، وأكثرهم أصابهم الجنون»[(١)]...ومع أن معجزات كتلك لم تكن تفعل فعلها في أمة مخدرة ميتة، كما لم تكن تفعل فعلها من قبل ببني اسرائيل مع أنها كانت تعد بالمئات وكان نبي الله بينهم يرشدهم ويحذرهم، الا أن هؤلاء، وقد رأوا أنهم لم يجنوا من وراء اندفاعهم وراء دولة الظلم سوى المزيد من الظلم يقع عليهم هم خاصة، سوى ما لحق بمن شارك بقتل الحسين عليه السلام، أصبحوا يفكرون بشكل جاد بما سوف يلحق بهم إذا ما استمر موقفهم المهادن والموالي للدولة...فالحسين عليه السلام - بمنظور من يرى الأمور بظواهرها العادية - لم يكن مستهدفا بالظلم، قد كانت كلمة واحدة منه تكفي لجعل الدولة تغدق عليه الأموال والمناصب وكل ما يتمناه، غير أنه ثار من أجل هذه الأمة التي استُهْدِفَت بالظلم.وها هي تظل وحيدة الآن بدونه تواجه جلاديها

(١) البداية والنهاية: ج٨ ص٢٠٣ وقد تحدثنا في هذه الدراسة عن بعض تلك الحالات التي ذكرها المؤرخون.

وأعداءها الحاكمين. وقد أدركت بشكل واضح أنها هي المستهدفة بالظلم، وقد توافقت عوامل الشعور بالظلم والاحباط والندم لتكون شعورا دائميا بأن الأمة المسلحة لا يمكن أن تجني أية مكاسب في ظل دولة الظلم، وأنها ستظل مستهدفة ومستنزفة ما لم تقف وقفة الامام الحسين وأصحابه، وتشهر سيفها بوجه تلك الدولة.

**شبث بن ربعي أول النادمين ((..ضلال يا لك من ضلال..))**

ولعل ما تفوه به شبث بن ربعي، بُعَيدَ قتل مسلم بن عوسجة –وبعد ذلك في امارة مصعب– يدل على حال أهل الكوفة خاصة وما شعروا به جراء مشاركتهم بالمجزرة... فعندما «...تنادي أصحاب عمرو بن الحجاج: قتلنا مسلم بن عوسجة الأسدي...قال شبث لبعض من حوله من أصحابه: ثكلتكم أمهاتكم، انما تقتلون أنفسكم بأيديكم، وتذللون أنفسكم لغيركم، تفرحون أن يقتل مثل مسلم بن عوسجة..أفيقتل منكم مثله وتفرحون!»[1].

وشبث بن ربعي هذا، الذي كان يقاتل مع أميرالمؤمنين عليه السلام في صفين، وله موقف معروف مع معاوية، أجبر ليكون أحد قادة ابن سعد...وكان قد كتب إلى الحسين عليه السلام يدعوه للقدوم إلى الكوفة ويعده بنصرته، الا أنه تراجع واستسلم لابن زياد وأصبح في صف الجيش القاتل.

وكلماته هنا كانت موجهة ليسمعها جماعة من أصحابه، ولعله لم يكن يجرؤ على التفوه بها علنا أمام أفراد الجيش الآخرين، لما كان يعلمه من عدم تورع ابن زياد عن البطش والقتل.

وقد قال شبث هذا نفسه، فيما بعد؛ في امارة مصعب، وقد دالت دولة يزيد وقتل

(١)الطبري: ج٣ص٣٢٥.

ابن زياد...«لا يعطي الله أهل هذا المصر خيرا أبداً، ولا يسددهم لرشد، الا تعجبون أنا قاتلنا مع علي بن أبي طالب، ومع ابنه من بعده، آل أبي سفيان خمس سنين، ثم عدونا على ابنه، وهو خير أهل الأرض نقاتله مع آل معاوية، وابن سمية الزانية! ضلال، يا لك من ضلال»[1].

أية كلمات أبلغ من هذه يمكن أن تعبر عن ندم الناس على موقفهم من الحسين، اذ لم يكتفوا بالتخلي عنه وعدم نصرته وذهبوا إلى حد المشاركة بقتله، مع علمهم أنه أخير أهل الأرض، وأن عدوه من نسل زانية يعرفها كل العرب.

ويكاد شعور الندم هذا لا يشمل أهل العراق وأهل الكوفة وحدهم على وجه الخصوص، بل يشمل العديد من المدن الإسلامية المهمة الأخرى كالمدينة ومكة اللتين قامتا بالثورة بوجه يزيد بعد فترة قصيرة، وان اختلفت بعض دوافع الثوار وأهدافهم كما هو الأمر بالنسبة لابن الزبير مثلا، وسنفرد لكل ثورة مبحثا كاملا بعون الله، نتناول فيه خصوصياتها وملابساتها..

**الشعور بالذنب والتنصل من المسؤولية: ((..لا والله، ما أنا قتلته))**

كان الشعور بالذنب يراود العديدين ممن شاركوا بقتل الحسين وأصحابه، وأولئك الذين أحجموا عن الانضمام اليه ونصرته، وتكشف لنا محاورة بين أيوب بن مشرح الخيواني الذي عقر بالحر فرسه وبين أشياخ من أهل الكوفة، ما كان يعانيه أيوب من شعور بالذنب والندم على ما اقترفته يداه مع أنه - بزعمه - لم يفعل شيئا سوى أن عقر بالحر فرسه، وربما كانت نقاشات وحوارات عديدة كالتي درات بينه وبينهم قد أخذت تدور في الكوفة وغيرها أثر واقعة الطف لتقويم الموقف ومراجعته، ولم يكن ما دار منها

---

(١) الطبري: ج٣ص٣٢٥.

يسير لصالح الذين شاركوا بالجريمة...بل ان الموقف العام كان يبدو ضد أولئك القتلة، وكان يدينهم بشكل واضح.

حدث نمير بن وعلة «أن أيوب بن مشرح الخيواني كان يقول: أنا والله عقرت بالحر ابن يزيد فرسه، حشأته سهما، فما لبث أن أرعد الفرس واضطرب وكبا، فوثب عنه الحر كأنه ليث والسيف في يده وهو يقول:

ان تعقروا بي فأنا ابن الحر أشجع من ذي لبد هزبر

فما رأيت أحدا قط يفري فريه.

فقال له أشياخ من الحي: أنت قتلته؟

قال: لا والله ما أنا قتلته، ولكن قتله غيري، وما أحب أني قتلته.

فقال له أبو الوداك: ولم؟

قال: انه كان -زعموا- من الصالحين...فوالله لئن كان ذلك اثما لأن ألقى الله باثم الجراحة والموقف أحب إلي من أن ألقاه باثم قتل أحد منهم..

فقال له أبو الوداك: ما أراك ستلقى الله الا بإثم قتلهم أجمعين.أرأيت لو أنك رميت ذا فعقرت ذا، ورميت آخر، ووقفت موقفا، وكررت عليهم، وحرضت أصحابك، وكثرت أصحابك، وحمل عليك فكرهت أن تفر، وفعل آخر من أصحابك كفعلك، وآخر وآخر، كان هذا وأصحابه يقتلون؟ أنتم شركاء كلكم في دمائهم.

فقال له: يا أبا الوداك انك لتقنطنا من رحمة الله، ان كنت ولي حسابنا يوم القيامة فلا غفر الله لك ان غفرت لنا.

قال: هو ما أقول لك..»[١].

**طاقية الاخفاء طاعة الخليفة، فأبلغ عبيدالله أما لقيته بأني مطيع للخليفة سامع**

ولم يستطع آخرون تبرير جريمتهم الا بقولهم إنما كانوا يقومون بما قاموا به لارضاء الخليفة الذي كانوا يدينون له بالطاعة، أما على أي أساس قامت تلك الطاعة وبنيت، فلم يكن أحد منهم يكلف نفسه عناء السؤال عن ذلك، فالدولة الأموية حبذت مرتزقتها من واضعي الأحاديث ومدعي صحبة الرسول ﷺ ليفتروا عليه ويضعوا على لسانه أحاديث تمنع الخروج على (الخليفة) ولو كان فاسقا، مادام هو الحاكم الفعلي والمتسلط على رقاب الناس.

وقد أشرنا إلى موقف كعب بن جابر - التطوعي - حين اندفع دون أن يسأله أحد ذلك للقضاء على برير بن خضير رغم أن أحد أصحابه حذره من قتله قائلا: «هذا برير ابن خضير الذي كان يقرئنا القرآن في المسجد..

فحمل عليه بالرمح حتى وضعه في ظهره...وطعنه حتى ألقاه...وقد غيب السنان في ظهره، ثم أقبل عليه يضربه بسيفه حتى قتله...»[٢].

وعندما عتبت عليه امرأته النوار، وعابت عليه فعلته وقالت له: «أعنت على ابن فاطمة، وقتلت سيد القراء، لقد أتيت عظيما من الأمر، والله لا أكلمك من رأسي كلمة أبدا..»[٣].

---

(١) الطبري: ج٣ص٣٢٦.
(٢) الطبري: ج٣ص٣٢٣ وقد قال في امارة مصعب في محاولة منه لاقناع نفسه بصحة موقفه ورد الهدوء اليها: «يا رب إنا قد وفينا فلا تجعلنا يا رب كمن قد غدر» الطبري: ج٣ص٣٢٣، وهي محاولة للتنصل لابد أنها باءت بالفشل..اذ لم يكن لكعب قضية يدافع عنها الا ولاؤه المزعوم ليزيد.
(٣) الطبري: ج٣ص٣٢٣.

لم يجد ما يرد به على عتابها وتقريعها سوى قوله - ضمن أبيات من الشعر - يبرر بها موقفه...

فأبلغ عبيدالله أما لقيته      بأني مطيع للخليفة سامع
قتلت بريرا ثم حملت نعمة      أبا منقذ لما دعا: من يماضع

فهو هنا يعلن أنه قام بما قام به لأنه سامع مطيع للخليفة، ولأن أحد جماعته استغاث بأصحابه، فبرز هو لاغاثته.

انه يعلن براءته من الحسين وأصحابه، لا لسبب الا تلك الطاعة العمياء التي أعلن عنها، مع أنه يشيد بهم وبمواقفهم الفريدة التي لم يشهد لها مثيلا في حياته..

فجردته في عصبة ليس دينهم      بديني، واني بابن حرب لقانع
ولم تر عيني مثلهم في زمانهم      و لا قبلهم في الناس مذ أنا يافع
أشد قراعا بالسيوف لدى الوغى      ألا كلُّ من يحمي الذمار مقارع»[1].

أما ذلك الذي استغاث بأصحابه لينقذوه من برير الذي أو شك على قتله، رضي ابن منقذ العبدي، والذي تطوع بدوره لمنازلة برير دون أن يسأله أحد ذلك، فقد كان الندم الشديد يطبع كل تصرفاته فيما بعد، وقد عبر عن ذلك بأبيات صريحة تشير إلى عمق المأزق الذي وضع نفسه فيه...وندمه على ذلك...

«لو شاء ربي ما شهدت قتالهم      و لا جعل النعماء عندي ابن جابر
لقد كان ذاك اليوم عارا وسُبة      يعيّره الأبناء بعد المعاشر
فيا ليت أني كنتُ من قبل قتله      ويوم حسينٍ كنت في رمسِ قابرِ»[2]

وقد كانت في الأبيات اشارة واضحة إلى حالة اجتماعية بدأت تظهر بعد واقعة

(١) الطبري: ج٣ص٣٢٣.
(٢) الطبري: ج٣ص٣٢٣.

الطف، وهي استهجان ما قام به القتلة في ذلك اليوم واستنكار الأبناء والزوجات لذلك، وهي اشارة لعموم المجتمع.

**ندم المهزومين..حتى الذين لم ينصروا الحسين ندموا على فعلتهم، عبيدالله بن الحر مثالا**

ولم يكن عبيدالله بن الحر الجعفي ممن قاتلوا الحسين عليه السلام الا أنه امتنع عن نصرته رغم دعوته اياه إلى ذلك، قبل الواقعة، عندما انتهى في مسيره إلى قصر بني مقاتل، وقد حذره الحسين عليه السلام قائلا: «...**فالا تنصرنا، فاتق الله أن تكون ممن يقاتلنا، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ثم لا ينصرنا إلّا هلك**»[1]...وقد تعهد ابن الحر أن لا يكون ذلك أبدا...

وبعد المعركة تفقد عبيد الله بن زياد اشراف الكوفة الذين كانوا يقفون على أعتابه كسبا لمودته، فلم ير ابن الحر، ثم جاءه بعد أيام، وقد اتهمه ابن زياد بأنه كان في صف عدوه الحسين، الا أنه أنكر ذلك.

وقد استغل الحر غفلة من ابن زياد فهرب منه ولم تستطع الشرطة اللحاق به، وقد أبلغهم قائلا: «أبلغوه أني لا آتيه والله طائعا أبدا.

ثم خرج حتى أتى منزل أحمر بن زياد الطائي، فاجتمع اليه في منزله أصحابه، ثم خرج حتى أتى كربلاء فنظر إلى مصارع القوم، فاستغفر لهم هو وأصحابه، ثم مضى ونزل المدائن، وقال في ذلك:

يقول أمير غادر حق غادر: ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمة
فيا ندمي الا أكون نصرته ألا كل نفس لا تسدد نادمة
واني لأني لم أكن من حماته لذو حسرة ما ان تفارق لازمة

---

(١) الطبري: ج٣ص٣٠٩.

سقى الله أرواح الذين تـأزروا على نصره سقيا من الغيث دائمة
وقفت على أجداثهم ومجالهم فكاد الحشا ينفض والعين ساجمة
لعمري لقد كانوا مصاليب في الوغى سراعا إلى الهيجا حماة خضارمة
تآسوا على نصر ابن بنت نبيهم بأسيافهم آساد غيل ضراغمة
فـان يقتلوا فكـل نفـس تقية على الأرض قد أضحت لذلك واجمة
وما إن رأى الراؤون أفضل منهم لدى الموت سادات وزهرا قماقمة
أتقتلهم ظلما وتـرجـو ودادنـا فـدع خطة ليست لنا بملائمة
لعمري لقد راغمتمونا بقتلهم فكم ناقم منا عليكم وناقمة
أهـم مـرارا أن أسـير بجحفل إلى فئة زاغـت عن الحق ظالمة
فكفوا والا ذرتـكـم بكتائب أشد عليكم من زحوف الديالمة»[1].

ان مرارة الندم على ترك نصرة الحسين عليه السلام تمتزج هنا مع الغضب والنقمة على أعدائه الذين قتلوه تلك القتلة الشنيعة..ويكشف مديح ابن الحر لأنصار الحسين واشادته بهم عن رغبة كبيرة للوقوف موقفهم..غير أنه -وقد فات أوان ذلك- يؤكد عزمه على الوقوف موقفهم إذا ما ضغطت عليه الدولة واستهدفته وبادأته بالقتال...

ولابد أن حالات أخرى تستتبع الندم، حالة الصحوة من الاستسلام والغفلة والخضوع الأعمى لسلطان (الخليفة)، وحالة البحث عن مخرج من مأزق ذلك الاستسلام ومحاولة العودة إلى النهج الطبيعي الذي أراده الإسلام لمناوأة الظالمين وردع الانحراف.ولابد أن تساؤلا حقيقيا يستتبع كل ذلك، عن حقيقة ما يدور من أحداث على الساحة وفي كواليس دولة الظلم ووراءها.

ان حالة من الشك والحذر والانتباه بدأت تسود أوساط الامة بخصوص حاكميها

(١)الطبري: ج٣ص٣٤٣ - ٣٤٤ وسير الأئمة السيد محسن الأمين: ج٣ ص١٧٠.

الذين لم تر أنهم ينتمون للإسلام حقا، وانهم لا يرعون الا الجانب الذي افتعلوه، ويرون أنه كفيل بحفظ ملكهم وسلطانهم.

**مشهد جيش منتصر، أم فلول مهزومة؟**

كان مشهد الجنود العائدين من كربلاء إلى الكوفة، لا يدل على جيش منتصر يشعر بالنشوة مما قام به من أعمال بطولية بمواجهة عدو أكثر منه حشدا وقوة، بل انه يكاد يبدو كحشد من عصابات مهزومة خائفة تطاردها قوة أكثر منها عزيمة وبأسا.قيل لهم أن الدولة مستهدفة بالخطر، وأنهم هم خاصة مستهدفون بخطر أشد وأكبر...قرعت لهم أجراس الحرب، وحشدوا من كل صوب، وأخذوا بالاكراه، حتى أخذ أصحاب المصالح والمهن ولم يسمح لأحد يقدر على حمل السلاح بالبقاء وأُرسلَ الجميع للحرب! وقام الأشراف وأعوانهم ومن تطوع لابداء حماس استثنائي بدفعهم إلى كربلاء، حيث لم يجدوا أمامهم سوى حفنة صغيرة من قرائهم وأماثلهم وفضلائهم يقودهم الحسين في قافلة صغيرة ضمت مجموعة من النساء والأطفال.وجدوا أن هؤلاء قد حوصروا ومنعوا الماء بدعوى أنهم كانوا يستهدفون الدولة بالحرب والأذى.

تحدث معهم الحسين وجماعة من أصحابه، وبينوا لهم الغرض من قدومه اليهم، ورغم الضجيج، ومحاولات شمر وأشباهه لمنعهم من ايصال أصواتهم وشرح مهمتهم، فان ما سمعوه، وما علموه قبل ذلك كافيا ليؤكد لهم أنهم هم الذين كانوا مستهدفين بالظلم والأذى..وقد جاء الحسين عليه السلام لينصرهم بعد أن وعدوه بالوقوف إلى جانبه لنصرة الإسلام.

واذ أنهم واجهوه تلك المواجهة الشرسة ولم يستمعوا له، وذهبوا إلى حد التمثيل بجثته وقطع رأسه ورؤوس أصحابه ومنع الماء عن نسائه وأطفاله، بل وقتل بعض

أولئك الأطفال أيضا، فان المجموعة المبتهجة برفع الرؤوس على أطراف رماحها، ما كانت الا لتثير مشاعر الأسى والاحباط في بقية أفراد الجيش العائد من المذبحة.

هل كان الأمر يستحق كل هذا لو أنهم كانوا المستهدفين بالأذى الوهمي الذي يمكن أن يلحقه الحسين بهم..؟ أم أن الدولة تبدي قسوتها وشراستها لمواجهة أكرم وأعز شخص في المسلمين لتبلغهم رسالتها وتقول: هذا مصير كل من يتصدى لنا ويقف بوجوهنا...؟

كانوا من قبل ضحية للدولة وأطماعها، وعلموا الآن أنهم سيبقون ضحية دائمية لها...وانها ستظل تستنزفهم وتعبث بهم إلى الأبد.وقد أعلمهم الحسين بذلك قبل أن يقتلوه بتلك الطريقة البشعة التي لم يكن مسرورا بها حتى قائدهم الجبان المتخاذل عمر بن سعد، رغم أنه هو الذي أصدر أوامره بذلك بناء على تعليمات مشددة تلقاها من سيده ابن زياد الذي كان يخافه أشد الخوف.

**مشاهد مروعة لا يمكن أن تغيب عن الذاكرة**

كان الموقف كله يمثل أمام ذاكرتهم التي لا يمكن أن تنساه بسهولة ووقت قصير، مشهد الحسين عليه السلام وهو يسقط من فرسه على الأرض على خده الأيمن بعد أن أثخن بالجراح، ثم دفاعه الباسل عن نفسه أمام العصبة التي تريد سفك دمه، ومشهد زينب وقد هالها حرص القوم على قتله وجدهم في ذلك، وقولها: «ليت السماء تطابقت على الأرض»[١]..وقولها لابن سعد: «أيقتل أبوعبدالله وأنت تنظر اليه...؟!»[٢]..ومشهد ابن سعد ودموعه تسيل على خديه ولحيته وقد صرف بوجهه عنها، بعد أن أدرك أن ثمن جريمته كان باهظا، وان منّي بملك الري الذي لم يتمتع به على الاطلاق، ومشهد

(١) الطبري: ج٣ص٣٣٤.

(٢) الطبري: ج٣ص٣٣٤.

الحسين عليه السلام ..."قبل أن يقتل، وهو يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع، يتقي الرمية ويفترض العورة، ويشد على الخيل، وهو يقول: **أعلى قتلي تحاثون، أما والله لا تقتلون بعدي عبدا من عباد الله الله أسخط عليكم لقتله مني.وأيم الله أني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون.أما والله أن لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم...**"[1].

ومشهد شمر وأصحابه وهم يجهزون عليه وقد "حمل عليه من كل جانب، فضربت كفه اليسرى..وضرب على عاتقه"[2].

ثم انصرافهم عنه وهو ينوء ويكبو، ومشهد سنان بن أنس وهو يطعنه بالرمح ويوقعه على الأرض وقد نزل اليه "فذبحه واحتز رأسه...وقد ضُرِبَ قبل ذلك بالسيوف"[3].

ثم مشهد سلبه وهو قتيل مقطوع الرأس وسلب عياله وأطفاله وحرق خيمهم، ومشهد قطع بقية الرؤوس في حمام الدم ذاك الذي أعد له ابن زياد ونفذه ابن سعد وشمر وأعوانهما.

**عذر دائمي يتجدد دائما في ظل دول الظلم**

هؤلاء جنود قالوا فيما بعد أنهم مغلوبون على أمرهم، وأنهم دُفِعُوا بالقوة لمقاومة الحسين وقتاله، وقد رأينا الطريقة التعسفية التي أخذهم بها ابن زياد وجعلهم ينقلبون على الحسين بعد أن أرسلوا اليه يستنصرونه ويعدون بالوقوف إلى جانبه.

(١)الطبري: ج٣ص٣٣٤ .
(٢)الطبري: ج٣ص٣٣٤.
(٣)الطبري: ج٣ص٣٣٤.

أما الأعطيات التي وُعِدُوا بها والسعادة التي قيل لهم أنهم سيغمرون بها والظلم الذي قيل أنه سَيُرفَع عنهم، فبدت لهم أمورا لا وجود لها الا في الخيال.

عادوا إلى واقعهم المر وقد وقعوا وثيقة استسلامهم بأيديهم حينما وافقوا على أن يكونوا الأداة المباشرة لقتل الحسين وأصحابه...

وبالاضافة للجيش العائد الذي كان يبدو مهزوما ومنكسرا نفسيا، لأنه لم يقم الا بمجرد مذبحة لم يكن مقتنعا بجدواها، وقد زادت قناعته بذلك بعدها مباشرة، اذ لم تكن تصرفات ممثلي الدولة وأعوانها الا لتتسم بالمزيد من الخشونة والابتعاد عن العدالة بل وحتى عن الحد الأدنى القليل من الكياسة واللياقة اللذين تتطلبهما سياسة الحكم مهما كان نوعها.

فقد أسفر الحاكمون عن وجوههم الحقيقية، ولم يعودوا يرون ضرورة للتظاهر بما كان يتظاهرون به قبل ذلك...ولنا عند ذاك أن نتصور المشاعر التي بدت تظهر حينذاك...نقول: بالاضافة للجيش العائد الذي كان نفسه يشكل صوتا اعلاميا ضد نظام الحكم لما اطلع عليه وكشفه من الأساليب الاجرامية الغريبة التي لجأ اليها في واقعة الطف...فان قافلة زين العابدين وموكب السبايا الذي تشرف عليه زينب، شكل موكبا اعلاميا ذا صوت مسموع ومؤثر ومرصود خلال المسافة الطويلة الممتدة من كربلاء إلى الكوفة ثم إلى الشام، ثم إلى كربلاء ثنية (كما روت أغلب المصادر) ثم إلى المدينة، المحطة الأخيرة التي بدا فيها ذلك الصوت مؤثرا إلى أبعد غاية، بل لعله الذي رجح قيام المدينة بوجه يزيد بعد ذلك وأجج عضبها المكبوت، وجعلها تقدم على ما أحجمت عنه في البداية...عندما لم تقم مع الحسين.

لقد شهدنا موقف زينب عند وصولها الكوفة ومرورها بين الجمع المحتشد الحزين

من الرجال والنساء من أهلها، واستمعنا إلى خطبتها فيهم وتأثيرها عليهم، حتى انهم كانوا «يومئذ حيارى يبكون، وقد وضعوا أيديهم في أفواههم»[١]...وقد قال شاهد العيان الذي رآهم في تلك الحال: «رأيت شيخا واقفا إلى جنبي يبكي حتى أخضلت لحيته وهو يقول: بأبي أنتم وأمي كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونساؤكم خير النساء، ونسلكم خير نسل لا يخزى ولا يبزى»[٢].

وقد رأينا موقفها أمام ابن زياد الذي بدا متوتر الأعصاب، ولم يكن يعيش حالة النشوة التي كان يتوقعها بعد الجريمة التي قام بها أعوانه..واستمعنا لحوار زين العابدين معه والذي أزعجه كثيرا حتى أنه أخذ يهدد بقتله آملا أن يضعف الامام أو يتخاذل، الا أنه أجابه بكل جرأة...«أبالقتل تهددني يابن زياد! أما علمت أن القتل لنا عادة، وكرامتنا الشهادة؟»[٣]...وقد أمر بسجنه ريثما يبعث به إلى يزيد مع الرؤوس والسبايا...

وقد استمعنا لخطبتها في مجلس يزيد وحوارها اياه...فرغم محاولاته هو الآخر اقناع نفسه بأنه منتصر، وقد ظهر بمظهر المنتشي بالنصر، إلّا أنه بدا وكأنه يحاول التستر على جريمته واظهارها كقدر مقدر من الله مرة، وكنتيجة حتمية (لمنافسة) الحسين اياه على الملك والسلطان...وقد وجد مخرجا في النهاية بمحاولة القاء تبعاتها على ابن زياد ومحاولة استرضاء زين العابدين وزينب واقناعهم بقبول بعض الذهب والأموال.

ولم يكن دور زينب وأخواتها ونساء بني هاشم والمتعاطفات معهن من نساء المدينة إلّا أحد العوامل المهمة بجعل المدينة تغلي ضد يزيد وتثور عليه بعد ذلك ثورتها المعروفة.

---

(١) السيد محسن الأمين: سيرة أهل البيت:ج٣ ص١٤٣، والبحار: ج٤٥ ص١٠٩ - ١١٠.
(٢) السيد محسن الأمين: سيرة أهل البيت:ج٣ ص١٤٣، والبحار: ج ٤٥ ص١١٠.
(٣) البحار: ج٤٥ ص ١١٨.

**دور الامام زين العابدين بعد الواقعة - في الكوفة**

أما دور الامام زين العابدين، الذي كان يعاني مرضاً مبرحاً في كربلاء جعله لا يستطيع المشاركة في القتال، فقد كان ينسجم مع دور أبيه الحسين المناوئ لدولة الظلم الأموية، وقد أخذ يؤدي ذلك الدور منذ تلك المعركة (المذبحة)، واستمر بعد ذلك يؤديه بنمط وأسلوب جديدين يتماشيان مع طبيعة المرحلة التي كان يعيشها ومع طبيعة نظام الحكم الشرس الذي بدأ يكشف عن مخططاته وبرامجه بكل جرأة ووقاحة غير حاسب لجماهير المسلمين أي حساب...ألقى خطبة مؤثرة في أهل الكوفة الذين كانوا يتوقعون عودة موكبه بالنساء السبايا والأطفال المرعوبين، الذين استمعوا قبل ذلك لخطبة مؤثرة طويلة من السيدة زينب عليها السلام ثم أخرى قصيرة من أم كلثوم كان الموقف عاصفا، وكأنه كان معدا لسماع تلك الخطبة، اذ كان الناس يضجون بالبكاء والنوح والحنين «و نشرت النساء شعورهن ووضعن التراب على رؤوسهن وخمشن وجوههن وضربن خدودهن، ودعون بالويل والثبور، وبكى الرجال، فلم يُرَ باكية وباك أكثر من ذلك اليوم...

أومأ إلى الناس أن اسكتوا فسكتوا، فقام قائما فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبي وصلى عليه ثم قال:

**أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحل ولا تراث، أنا ابن من انتهك حريمه وسلب نعيمه، وانتهب ماله، وسبي عياله.أنا ابن من قتل صبرا، وكفى بذلك فخرا...**

**أيها الناس: ناشدتكم الله هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة، وقاتلتموه وخذلتموه! فتبا لما قدمتم لأنفسكم وسوأة لرأيكم، بأية عين نتظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله اذ يقول لكم: قتلتم عترتي وانتهكتم**

**حرمتي، فلستم من أمتي...؟!»**(١).

وكان تساؤله في ذلك الجمع المنكسر الحزين الذي أدرك فداحة الجريمة التي أقدم عليها وشارك فيها، ذا أثر كبير لتصعيد وتائر الحزن والندم، اذ ما عسى أن يجيب على ذلك السؤال المفحم، وعلى رسول الله صلى الله عليه وآله ان سألهم يوم الحساب عن ذلك، وقد أعادت أقواله انهمار الدموع التي لم تكد تجف في مآقيهم...«فارتفعت أصوات الناس من كل ناحية، ويقول بعضهم لبعض: هلكتم وما تعلمون»(٢).

بعد أن هيأ الامام ذلك الجو العاطفي المشحون، وجعل الناس مستعدين لتلبية ما كان يبدو أنه سيطلبه منهم قال لهم مستطردا: «**رحم الله امرءا قبل نصيحتي، وحفظ وصيتي في الله وفي رسوله وأهل بيته فان لنافي رسول الله أسوة حسنة..**»(٣).

كانوا في غمرة حزنهم يتوقعون أن يدعوهم الامام لاعلان الثورة على ابن زياد مجددا لأخذ ثأر أبيه وأصحابه عليهم السلام...وقد ارتفعت صيحاتهم: «نحن كلنا -يا بن رسول الله- سامعون مطيعون حافظون لذمامك غير زاهدين فيك ولا راغبين عنك، فمرنا بأمرك يرحمك الله، فإنا حرب لحربك، وسلم لسلمك، لنأخذن يزيد ونبرأ ممن ظلمك وظلمنا...»(٤).

### فورة عاطفية مؤقتة

وقد علم زين العابدين أنها لم تكن سوى فورة عاطفية، وان الكوفة ان تجمعت حوله الساعة فانها ستتفرق عنه بعد لحظات بمثل الطريقة التي تفرقت بها عن مسلم

---

(١) البحار: ج٤٥ص١١٢ - ١١٣، والسيد الأمين: سيرة أهل البيت: ج٣ ص ١٤٣- ١٤٤.
(٢) البحار: ج٤٥ص١١٣، والسيد الأمين: سيرة أهل البيت: ج٣ ص١٤٤.
(٣) البحار: ج٤٥ص١١٣، والسيد الأمين: سيرة أهل البيت: ج٣ ص١٤٤.
(٤) البحار: ج٤٥ص١١٣، والسيد الأمين: سيرة أهل البيت: ج٣ ص١٤٤.

وتخلت عن أبيه عليهما السلام ثم أقدمت على حربه وقتاله...وان تكن قد هاجت لما حل بالحسين عليه السلام...فان سيف السلطة وسوطها سيعيدانها لواقعها المر في ظل دولة الظلم.

كان يكفي زين العابدين أن يتذكر أهل الكوفة خطأهم على الدوام ويتوبوا عن جريمتهم المنكرة.أما رد الفعل المناسب فقد يأتي في الوقت المناسب أيضا، اذ قد تقدم الكوفة على الثأر من القتلة المباشرين ومنفذي الجريمة.وتري الجميع أن أولئك الجلادين كانوا من ضحايا دولة الظلم أيضا اذ ألقت عليهم مسؤولية الجريمة وجعلتهم يواجهون الأمة المسلمة حينما أرادت التعبير عن غضبها والثأر للحسين، وهو ما فعلته بعد ذلك عندما أقدمت على مطاردة أولئك القتلة واستئصالهم.

وقد استأنف خطبته قائلا: «**هيهات هيهات أيها الغدرة المكرة، حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم، أتريدون أن تأتوا الي كما أتيتم إلى آبائي من قبل؟ كلا ورب الراقصات، فان الجرح لما يندمل، قتل أبي صلوات الله عليه بالأمس، وأهل بيته معه، ولم ينسني ثكل رسول الله وثكل أبي وبني أبي، ووجده بين لهاتي، ومرارته بين حناجري وحلقي، وغصصه يجري في فراش صدري، ومسألتي أن لا تكونوا لنا ولا علينا..**»[(١)].

لم يكن يأمل منهم أكثر من ذلك، فقد كانوا يعيشون حالة خدر واستسلام...وجل ما كان يتمناه هو أن يقوموا بمراجعة أنفسهم وتقويم الوضع كله، فالموقف الحيادي غير المنحاز يجعلهم يدركون أي الجانبين أقرب للحق والصواب ويتيح لهم انتهاج طريقه عن وعي وارادة وتصميم والعودة إلى منهج رسول الله صلى الله عليه وآله وخلفائه الحقيقيين الذين تناسوهم في غمرة الحملة المحمومة التي شنت عليهم من معاوية وخليفته ومن قريش والأحزاب...

---

(١) البحار: ج٤٥ ص١١٣، والسيد الأمين: سيرة أهل البيت: ج٣ ص١٤٤.

### في مجلس ابن زياد

وكان ابن زياد يتوقع أن يستقبل أناسا أرهقهم الذل والخوف بعد ما حل بذويهم في كربلاء، وربما داخله السرور مسبقا من احتمال رؤية أناس مرعوبين خائفين يترجون عفوه وصفحه عنهم ويتغاضون عن شتائمه واهاناته، واذ أنه وُوْجِهَ بنفوس عزيزة لم تكن تتقبل الذل والاهانة ولم يفقدها هول المصاب صوابها...وكان بحواره معها، المهان الوحيد في ذلك المجلس، فانه غضب أشد الغضب من ذلك وأرعد وأبرق وتهدد الامام زين العابدين بالقتل(١)..

ولابد أن مخبريه أوصلوا اليه أنباء الاستقبال الحميم الذي استقبل به أهل الكوفة موكب آل الحسين العائد من كربلاء، ولابد أنه لمح بوادر ثورة شعبية أخرى توشك أن تهب مجددا...ففي ذلك المجلس نفسه الذي أدانه فيه الامام زين العابدين وزينب...«.. ورأس الحسين موضوع بين يديه...وهو ينكت بقضيب بين ثنيتيه ساعة...فلما رآه زيد ابن أرقم لا ينجم عن نكته بالقضيب، قال له: اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين، فوالذي لا اله غيره، لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وآله على هاتين الشفتين يقبلهما.ثم انفضخ الشيخ يبكي، فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك، فو الله لو لا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك.فنهض فخرج.

فلما خرج، قال قولا لو سمعه ابن زياد لقتله..قال: ملك عبدٌ عبداً، فاتخذهم تلدا؛ أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعدا لمن رضي بالذل»(٢).

---

(١) وقد أشرنا لتلك المقابلة بالتفصيل عند استعراض موقف زينب بُعَيد واقعة الطف وكذلك عند استعراض سيرة ابن زياد في هذه الدراسة.

(٢) الطبري: ج٣ص٣٣٦، والبحار:ج٤٥ ص١١٦ – ١١٧، والبداية والنهاية: ج٨ ص ١٩٢، والكامل في التاريخ: ج٣ص ٤٣٤، والارشاد: ص٢٢٨، وروي في سيرة الأئمة للسيد محسن

كانت الكوفة تعلن احتجاجها على ابن زياد، الا أنه احتجاج الضعيف الذي أُجْبِرَ على المشاركة بالجريمة...وقد أراد ابن زياد ايقاف كل تحرك ممكن ضده، فدعا لاجتماع عام يتاح له فيه تهديد من يفكر بالخروج عن سلطانه وسلطان سيده يزيد. وقد جاء في خطبة ألقاها في ذلك الاجتماع قوله: «الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أميرالمؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته...»[١].

**عبدالله بن عفيف الأزدي: تقتل الذرية الطاهرة وتزعم أنك على دين الإسلام**

وكان يحسب أنه يستطيع الاستمرار بشتائمه وبذاءاته لولا أنه فوجئ بعبد الله بن عفيف الأزدي ثم الغامدي، أحد بني والبة وهو من أصحاب أميرالمؤمنين عليه السلام يثب اليه محتجا بقوة...«وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع علي، فلما كان يوم صفين ضُرِبَ على رأسه ضربة، وأخرى على حاجبه، فذهبت عينه الأخرى، فكان لا يكاد يفارق المسجد الأعظم يصلي فيه إلى الليل، ثم ينصرف...»

فلما سمع مقالة ابن زياد، قال: يا بن مرجانة، ان الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه..يا بن مرجانة أتقتلون أولاد النبيين، وتكلمون بكلام الصديقين»[٢].

---

الأمين: ج٣ص ١٤٥: أنه قال له: «يا بن زياد لأحدثنك حديثا أغلظ عليك من هذا.رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله اقعد حسنا على فخذه اليمنى وحسينا على فخذه اليسرى ثم وضع يده على رأسيهما ثم قال: اللهم أستودعك اياهما وصالح المؤمنين فكيف كانت وديعة رسول الله صلى الله عليه وآله عندك يا بن زياد» وراجع حول هذه الاضافة في البحار: ج٤٥ص١١٨ وقيل أيضا أن أنس بن مالك قد احتج على ابن زياد عندما كان ينكت بقضيب على أسنان الحسين عليه السلام.

(١)الطبري: ج٣ص٣٣٧، والبحار: ج٤٥ ص١١٩، والبداية والنهاية: ج٨ ص ١٩٣، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٣٦، والارشاد:ص٢٢٩.

(٢)الطبري: ج٣ص٣٣٧-٣٣٨.

كان موقفا أفقد ابن زياد صوابه، وأضاع عليه فرصة الاستمرار بالشتائم والأكاذيب...وقد خاض ابن عفيف ملحمة أخرى ضد جنود ابن زياد وأعوانه عندما أمر هذا بقتله، وقد تساءل: من عسى يكون..فأجاب: «أنا المتكلم يا عدو الله.تقتل الذرية الطاهرة التي قد أذهب الله عنهم الرجس، وتزعم أنك على دين الإسلام...

واغوثاه، أين أولاد المهاجرين والأنصار، ينتقمون من طاغيتك اللعين ابن اللعين على لسان محمد رسول رب العالمين.

فازداد غضب ابن زياد حتى انتفخت أوداجه وقال: علي به، فبادر اليه الجلاوزة من كل ناحية ليأخذوه، فقامت الأشراف من الأزد من بني عمه فخلصوه من أيدي الجلاوزة، وأخرجوه من باب المسجد وانطلقوا به إلى منزله...

فقال ابن زياد: اذهبوا إلى هذا الأعمى، أعمى الأزد، أعمى الله قلبه كما أعمى عينيه، فائتوني به.فانطلقوا، فلما بلغ ذلك الأزد اجتمعوا، واجتمعت معهم قبائل اليمن ليمنعوا صاحبهم...

وبلغ ذلك إلى ابن زياد فجمع قبائل مضر وضمهم إلى محمد بن الأشعث وأمرهم بقتال القوم، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى قتل منهم جماعة من العرب، ووصل أصحاب ابن زياد إلى دار عبدالله بن عفيف، فكسروا الباب واقتحموا عليه، فصاحت ابنته: أتاك القوم من حيث تحذر، فقال: لا عليك، ناوليني سيفي.فناولته اياه فجعل يذب عن نفسه ويقول:

أنا ابن ذي الفضل عفيف الطاهر عفيف شيخي وابن أم عامر
كم دارع من جمعكم وحاسر و بطل، جدلته، مغادر

وجعلت ابنته تقول: يا أبت ليتني كنت رجلا أخاصم بين يديك اليوم هؤلاء

الفجرة، قاتلي العترة البررة.

### اقسم لو يفسح لي عن بصري

وجعل القوم يدورون عليه من كل جهة، وهو يذب عن نفسه، فلم يقدر عليه أحد.وكلما جاؤوا من جهة قالت: يا أبة قد جاؤوك من جبهة كذا، حتى تكاثروا عليه وأحاطوا به.فقالت ابنته: واذلاه، يحاط بأبي، وليس له ناصر يستعين به، فجعل يدير سيفه ويقول:

أقسم لو يفسح لي عن بصري ضاق عليكم موردي ومصدري

فما زالوا به حتى أخذوه، ثم حمل فأدخل على ابن زياد.فلما رآه قال: الحمد لله الذي أخزاك، فقال له عبدالله بن عفيف: يا عدو الله، وبماذا أخزاني الله؟

والله لو فرج لي عن بصري ضاق عليك موردي ومصدري

فقال ابن زياد: يا عدو الله ما تقول في عثمان بن عفان؟

فقال: يا عبد بني علاج، يا بن مرجانة - وشتمه - ما أنت وعثمان ان أساء أم أحسن، أصلح أم أفسد، والله تعالى ولي خلقه، يقضي بينهم وبين عثمان بالعدل والحق، ولكن سلني عن أبيك وعنك وعن يزيد وأبيه...

فقال ابن زياد: والله لا سألتك عن شيء أو تذوق الموت..

فقال عبدالله بن عفيف، الحمد لله رب العالمين: أما أني قد كنت أسأل الله ربي أن يرزقني الشهادة قبل أن تلدك أمك.وسألت الله أن يجعل ذلك على يدي ألعن خلقه وأبغضهم اليه، فلما كف بصري يئست من الشهادة، والآن الحمد لله الذي رزقنيها بعد اليأس منها، وعرفني الاجابة منه في قديم دعائي...

فقال ابن زياد: أضربوا عنقه، فضربت عنقه وصلب في السبخة...»[١].

أجبرت الكوفة على السكوت والاستسلام، وبعث ابن زياد برأس الحسين عليه السلام ورؤوس أصحابه مع السبايا إلى يزيد في الشام بعد أن نصب الرأس الشريف بالكوفة وأمر أن يدار به فيها...وحاول أن ينهي هذا الفصل المحزن بضروب الشراسة وسوء الخلق الذي أبداه هناك، غير أن الكوفة ما نامت الا لتستيقظ ثانية وتهز سيوفها بوجوه ممثلي دولة الظلم ورموزها..وكان لها فصل آخر لعبته بعد فترة قصيرة، وأنزلت فيه عقابها بكل من شارك بمذبحة الطف..وكانت لها فصول أخر أثبتت فيها أنها لم تكن تنتمي لدولة الظلم مهما كان شكلها ووجهها وان سكتت أحيانا وبدت لمن يراقبها من السطح أنها نائمة هادئة.ولنا حديث آخر عنها في هذا الفصل سنتطرق اليه بعون الله تعالى.

**في دمشق..احتفالات وأفراح**

أما في دمشق، فقد رأينا كيف كانت الاستعدادات جارية، بعد وصول نبأ المذبحة ليزيد، لاستقبال الرؤوس الشريفة وموكب السبايا.

كانت المظاهر الاحتفالية البهيجة تعم عاصمة الدولة التي أعد أهلها منذ وقت بعيد لموالاة البيت الأموي الحاكم والنظر بمنظاره لكل شيء ومعاداة أعدائه ومناوئيه، وقد جعلوا الحقد على آل البيت دينهم ومذهبهم.لقد جعلهم معاوية منذ البداية يعتقدون أنهم المستهدفون الرئيسيون بالأذى من قبل كل من يرفع أصبعا أو صوتا بوجه النظام وكل من يسعى لتقويم الانحراف أو الخلل الواضح الذي بدأ يظهر بجسم الدولة الإسلامية التي سيطر عليها هو وأعوانه.

(١) البحار عن الملهوف: ج٤٥ ص١٢٠- ١٢١، وقد رويت القصة باختصار في الارشاد: ص٢٢٩، والطبري: ج٣ ص ٣٣٨.

ولنا أن نتصور فرحتهم وهم يرون رؤوس أعدائهم ترفع فوق الرماح في نفس القافلة التي ضمت النساء والأطفال المحمولين على الأقتاب والذين يساقون كما تساق سبايا اعداء المسلمين الذين لا ينتمون للإسلام والذين أشهروا سيوفهم بوجوه المسلمين...

وقد جعلت أبهة السلطان ومظاهر القوة التي أحاط بها نفسه، يزيد يعتقد حقا أنه يعيش حالة انتصار حقيقية على أعدائه وأن الطريق أصبح ممهدا أمامه لتنفيذ كل ما يحلم بتنفيذه، وأن لا أحد يجرؤ بعد الآن على الوقوف بوجهه وتعطيل مسيرته المنحرفة أو انتقادها.

لم يطق يزيد صبرا لانتظار الموكب ريثما يدخل عليه، وانما خرج لتلقيه «فلقي الأطفال والنساء من ذرية علي والحسن والحسين والرؤوس على أسنة الرماح وقد أشرفوا على ثنية العقاب، فلما رآهم أنشد:

لما بدت تلك الحمول وأشرفت تلك الرؤوس على ربى جيرون
نعب الغراب فقلت: قل أو لا تقل فلقد قضيت من الرسول ديوني[١].

**«يوم بيوم بدر» الثأر من رسول الله**

لقد حسب يزيد – في غمرة شعوره الوهمي بالانتصار – انه استطاع القضاء على آل بيت محمد صلى الله عليه وآله تماما، وأنه استوفى كل ما بذمته صلى الله عليه وآله له ولآل أبي سفيان بعد أن وترهم ببدر هو وابن عمه أمير المؤمنين عليه السلام الذي قتل عددا من أسلافه بتلك المعركة، وكان من شأن ذلك الشعور أن يزيل كل تحفظاته ويجعله يجاهر بآرائه الحقيقية من الرسول صلى الله عليه وآله وفي الإسلام. اذ من سيجرؤ بعد الآن على انتقاده وتوجيه اللوم اليه بعد أن أقدم على

(١) سيرة الأئمة: ص ١٤٨ عن جواهر الطالب لابي البركات شمس الدين محمد الباغندي عن تاريخ ابن القفطي.

قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام بتلك الطريقة البشعة.

كما كان من شأن منظر ثقل الحسين ونسائه ومن تخلف من أهله وهم مقرنون بالحبال وفي مقدمتهم زين العابدين عليه السلام وهو مغلول، أن يزيد من فرحه وزهوه وشعوره بالانتصار...وقد أراد أن يبقيهم على تلك الحال لولا أن أحرجه زين العابدين أمام جلسائه قائلا: «**أنشدك الله يا يزيد، ما ظنك برسول الله صلى الله عليه وآله لو رآنا على هذه الصفة؟**»[(١)] وهو تساؤل أثار مشاعر الحزن والألم في الحاضرين «..فلم يبق في القوم أحد الا وبكى.. فأمر يزيد بالحبال فقطعت وأمر بفك الغل عن زين العابدين..»[(٢)].

وفي خضم مشاعر الحزن والألم والبكاء حاول يزيد التظاهر بالحزم والشدة، وأنشد وهو يحاول أن يبدو بمظهر من يريد تطبيق العدالة والحرص على وحدة الأمة! وسيادة قانون الدولة...مرددا أبيات الحصين بن الحمام المري..

«صبرنا وكان الصبر منا سجية ... بأسيافنا يفدين هاما ومعصما
أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت ... قواضب في ايماننا تقطر الدما
تغلف هاما من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ودعا بقضيب خيزران وجعل ينكت به ثنايا الحسين عليه السلام ثم قال: يوم بيوم بدر...»[(٣)].

وقد أثار ذلك رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يقال له أبوبرزة الأسلمي كان يحضر ذلك المجلس، وهو أمر مألوف في بلاطه حيث يحاول استمالة الناس وتحسين منظره بدعوة بعض الصحابة والناس المرموقين لحضور مجلسه، كما كان يفعل والده

(١) سيرة الأئمة: السيد محسن الأمين: ج٣ ص ١٤٩.
(٢) سيرة الأئمة: السيد محسن الأمين: ج٣ص ١٤٩.
(٣) سيرة الأئمة: السيد محسن الأمين: ج٣ ص١٥٠ - ١٤٩. والطبري: ج٣ ص٣٣٨ - ٣٤٠.

من قبل تماما..قال له أبوبرزة مستنكرا: «و يحك يا يزيد، أتنكت بقضيبك ثغر الحسين بن فاطمة، أشهد لقد رأيت النبي صلى الله عليه وآله يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن ويقول: **انتما سيدا شباب أهل الجنة، فقتل الله قاتلكما ولعنه وأعد له جهنم وساءت مصيرا..**»(١).

**ثارات أموية ليت أشياخي**

وقد تمادى يزيد بعبثه إلى أبعد من ذلك، فقد أنشد أبياتا تدل على كرهه الشديد لرسول الله صلى الله عليه وآله وخروجه الواضح عن الإسلام مرددا ما قاله ابن الزبعرى.أحد أعداء الإسلام القدامى وشعرائهم الحاقدين على الإسلام والرسول صلى الله عليه وآله مضيفاً إليها بعض الأبيات التي حسب أنها تنسجم مع المناسبة ومع ما أقدم عليه من فعل مشين بحق الإسلام والمسلمين.

قال في مجلسه الذي ضم حشدا كبيرا عن أتباعه وأشرافه وخدمه، متباهيا بفعلته:

«ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
فأهلوا واستهلوا فرحا ... ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم ... و عدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف ان لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل»(٢).

(١) سيرة الأئمة: السيد محسن الأمين: ج٣ ص١٥٠.وذكر الطبري أن أبابرزه الأسلمي قال ليزيد: «أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين!؟ أما لقد أخذ قضيبك من ثغره مأخذا، لربما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يرشفه.أما انك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك.ويجيء هذا يوم القيامة ومحمد صلى الله عليه وآله شفيعه.ثم قام فولى..» الطبري: ج٣ص٣٤١، ويراجع البداية والنهاية: ج٨ ص١٩٦، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٣٨.

(٢) سيرة الأئمة: ج٣ ص١٥٠ عن الحافظ ابن‌عساكر وذكر أن يزيد قد زاد البيتين الأخيرين كما رواه سبط بن الجوزي عن الشعبي.الا أن ابن‌كثير ذكر هذه الأبيات الثلاثة بعد البيت الأول:

وقد استمعنا لخطبة زينب في أعقاب ترديد يزيد لأبيات ابن الزبعرى الجاهلي وما أضافه اليها من أبيات تدل على كرهه الكبير للإسلام وللرسول ﷺ...فقد نددت زينب به وجعلته يخجل من موقفه المتشفي الذي يكشف عن ضعفه واستجابته الواضحة لعوامل الكراهية والحقد التي حاول أسلافه اخفاءها فظهرت في بعض مواقفهم وفلتات ألسنتهم، كما رأينا من قبل.

**منطق أموي**

وقد حاول أن يغطي على ضعفه وما ظهر من حقده -على الإسلام- بتوجيه الكلام إلى زين العابدين عليه السلام في محاولة جره إلى مهاترة كلامية معه يستطيع فيها التغلب عليه والنيل منه ومن آبائه.

«لما جلس يزيد بن معاوية دعا أشراف أهل الشام، فأجلسهم حوله، ثم دعا بعلي ابن الحسين وصبيان الحسين ونسائه، فأدخلوا عليه والناس ينظرون، فقال يزيد لعلي: يا علي، أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت.

فقال علي: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا

---

فأهلوا واستهلوا فرحا ... ثم قالوا لي هنيئا لا تشل
حين حلت بفناء بركها ... و استحر القتل في عبد الأسل
قد قتلنا الضعف من اشرافكم ... و عدلنا ميل بدر فاعتدل

و يروي ابن كثير عن مجاهد قوله في يزيد: «نافق فيها والله ثم والله.ما بقي في جيشه أحد الا تركه؛ أي ذمه وعابه».البداية والنهاية - البداية والنهاية: ج٨ ص١٩٤ .وروى في ص ٢٧٧ أنه قال ذلك في أعقاب واقعة الحرة التي استباح فيها المدينة، ونرجح أنه قد كرر ترديد الأبيات عقيب الواقعتين. وربما كان مغرما بترديدها طوال المدة الواقعة بينهما يدل على ذلك واقعه وحبه لأمثال هذا النوع من الشعر ومنه هذه القصيدة التي قالها ابن الزبعرى في أعقاب معركة أحد.

﴿يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(١).

فقال يزيد لابنه خالد: اردد عليه، فما درى خالد ما يرد عليه، فقال له يزيد: قل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(٢)...(٣).

وكان يزيد يهدف -بتحشيده أشراف أهل الشام الحقودين على آل البيت عليهم السلام حوله- أن يثير الرعب في نفوس من بقوا أحياء من بيت الحسين عليه السلام..ولابد أنه كان يتوقع تسلية كبيرة من أناس شلت ألسنتهم المخاوف منه، بعد أن رأوا فعله بالحسين وأصحابه عليهم السلام وكان يتوقع أن يصمت زين العابدين ويتخاذل أمامه فلا يرد عليه بكلمة، فيكون قد أبلغ هو في الكلام أمام جلسائه وأفحم خصومه الذين أحضرهم أمامه بتلك الحال المزرية.

ولابد أن ما كان يحفظه من كلام الله الوارد في كتابه المبين كان يقصد به استعماله لأغراضه، فيختار من الآيات ما يستطيع تأويله وتحقيق مآربه، كما كان يفعل والده معاوية قبل ذلك تماما، الا أنه فشل بما أراد تحقيقه بعد أن رد عليه الامام زين العابدين عليه السلام ذلك الرد القوي.

---

(١) الحديد ٢٢ / ٢٣.

(٢) الشورى ٣٠.

(٣)الطبري: ج٣ص٣٣٩، والبداية والنهاية: ج٨ ص ١٩٦ وذكر السيد الأمين: ج٣ص١٥٢ أن زين العابدين رد عليه قائلا: «**يا بن معاوية وهند وصخر لقد كان جدي علي بن أبي‌طالب في يوم بدر وأحد والأحزاب في يده راية رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبوك وجدك في أيديهما رايات الكفار...ويلك يا يزيد.انك لو تدري ماذا صنعت وما الذي ارتكبت من أبي وأهل بيتي وأهلي وعمومتي إذا لهربت في الجبال وافترشت الرماد ودعوت بالويل والثبور أن يكون رأس أبي الحسين بن فاطمة وعلي منصوبا على باب مدينتكم وهو وديعة رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم فابشر بالخزي والندامة...**».

**بين الدفاع عن السلطان ومجالس الشرب**

وقد أخبرنا زين العابدين عليه السلام عن المظاهر الاحتفالية التي رآها يزيد جديرة بتلك المناسبة..قال: «لما أتي برأس الحسين عليه السلام إلى يزيد، كان يتخذ مجالس الشرب، ويأتي برأس الحسين عليه السلام ويضعه بين يديه ويشرب عليه..»[١]...

كان يزيد يحسب أنه – بذلك – ينال من الرسول صلى الله عليه وآله شخصيا..ذلك الرسول الذي نال من أسلافه فقتلهم..وكانت قتلتهم على يد أخيه خاصة، أب صاحب هذا الرأس المطروح بين يديه.

كانت معادلة غريبة غير مفهومة، أن يصبح آل البيت الأكثر جدارة بالرعاية والاحترام والحب، مستهدفين لكل ضروب الأذى والشر والعدوان من قبل المسلمين أنفسهم... في أعقاب مقدم زين العابدين والنساء إلى الشام، وبعد أن أمر يزيد بنصب رأس الحسين عليه السلام بدمشق ثلاثة أيام[٢]...«خرج زين العابدين عليه السلام يوما يمشي في أسواق دمشق، فاستقبله المنهال بن عمرو، فقال له: كيف أمسيت يابن رسول الله؟ قال: **أمسينا كمثل بني اسرائيل في آل فرعون يذبحون أباءهم ويستحيون نساءهم.يا منهال أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمدا عربي، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمدا منها، وأمسينا معشر أهل بيته ونحن مغصوبون مقتولون مشردون.انا لله وانا اليه راجعون مما أمسينا فيه..**»[٣].

**يزيد بين الفرح والخوف**

وقد تجاذب يزيد في تلك اللحظات عاملان، عامل الفرح والنشوة والزهو بما ظن

(١) سيرة الأئمة: ج٣ ص١٥٣.

(٢) سيرة الأئمة: ج٣ ص١٥٣.

(٣) سيرة الأئمة: ج٣ ص١٥٣.

أنه قد حقق من انتصار، وعامل الخوف من انقلاب الموقف لغير صالحه، وقد رأي بوادر غضب وثورة شعبية توشك أن تهب عليه وتطيح بعرشه، بل أن بعض من غضبوا عليه كانوا من أهل بيته ومن المقربين اليه.

كان يحيى بن الحكم، أخو مروان بن الحكم أحد الذين كانوا يحضرون في مجلس يزيد عندما جلبت السبايا والرؤوس اليه، وقد رأى رد فعل يزيد وفرحه مما نال الحسين وأصحابه عليهم السلام فأنشد في ذلك المجلس بيتين من الشعر أسمعهما كل الحاضرين حتى يزيد نفسه الذي نهره وقيل انه عاتبه على انشادهما في تلك اللحظة.

قال يحيى بن الحكم:

«لهام بجنب الطف أدنى قرابة    من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل
سمية أمسى نسلها عدد الحصى    و بنت رسول الله ليس لها نسل

فضرب يزيد بن معاوية في صدر يحيى بن الحكم وقال له: اسكت..»[1].

ويحيى بن الحكم هذا قد شهد وفد أهل الكوفة عندما دخل مسجد دمشق برأس الحسين عليه السلام وقد استمع إلى روايتهم عن واقعة الطف فقال لهم: «ما صنعتم؟...»[2] فأخبروه الخبر «فقال: حجبتم عن محمد يوم القيامة، لن أجامعكم على أمر أبدا.ثم قام

---

(١)الطبري: ج٣ص٣٣٩.البداية والنهاية: ج٨ ص١٩٤ وقيل ان يزيد قال له: «نعم، فلعن الله ابن مرجانة اذ أقدم على قتل الحسين بن فاطمة.لو كنت صاحبه، لما سألني خصلة الا أعطيته اياها، ولدفعت عنه الحتف بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي ولكن قضى الله أمرا فلم يكن له مرد» ونرى أن يزيد يسند الأمر كله إلى قضاء الله.وروي «ان يزيد أسر إلى عبد الرحمن وقال: سبحان الله، أفي مثل هذا الموضع، أما يسعك السكوت» وفي هذه الرواية تنسب الأبيات إلى عبدالرحمن بن الحكم،بحار الأنوار: ج٤٥ ص١٣٠-١٣١.

(٢)الطبري: ج٣ ص٣٤١.

فانصرف..»[١].

**حتى آل يزيد استنكروا فعلته**

وكما كان حال يحيى كان حال نساء يزيد أنفسهن، فقد غضبن من فعلته وأظهرن الحزن على مقتل الحسين وآل بيته وأصحابه..«أدخل نساء الحسين على يزيد، فصاح نساء آل يزيد وبنات معاوية وأهله وولولن..ثم انهن أدخلن على يزيد، فقالت فاطمة بنت الحسين - وكانت أكبر من سكينة: أبنات رسول الله سبايا يا يزيد...؟ فقال لها يزيد: يا ابنة أخي، أنا لهذا كنت أكره...!

ثم أخرجن فأدخلن دار يزيد بن معاوية، فلم تبق امرأة من آل يزيد الا أتتهن..»[٢] كما أن هند بنت عبدالله بن عامر بن كريز - زوج يزيد قد استنكرت ما فعله يزيد بالحسين وأصحابه، وقد اعتذر يزيد أمامها بأن ما حصل انما كان بفعل من ابن زياد وانه لم يصدر اليه أية أوامر بقتل الحسين.

دخلت هند مجلس يزيد متقنعة بثوبها وقالت تؤنب يزيد: «..أرأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله...!؟

قال: نعم فأعولي عليه، وحدي على ابن بنت رسول الله ﷺ وصريخة قريش، عجل عليه ابن زياد فقتله قتله الله..»[٣].

وعندما أدخلهم يزيد داره قبل أن يسجنهم في خربة مجاورة «...لم تبق من آل معاوية امرأة الا استقبلتهن تبكي وتنوح على الحسين.فأقاموا عليه المناحة ثلاثا...»[٤].

(١) الطبري: ج٣ ص٣٤١.
(٢) الطبري: ج٣ص٣٤٠، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٣٨.
(٣) الطبري: ج٣ص٣٤٠.
(٤) الطبري: ج٣ص٣٣٩.

**تبجحات لإخفاء المخاوف**

وقد حسب يزيد أنه يستطيع تخفيف غضب الناس عليه – ومنهم أفراد من عائلته نفسها – برمي تهمة القتل وتبعاتها على ابن زياد وحده، كما رأينا، وباستعراض السبايا والرؤوس الشريفة، واجراء حوارات مع بعض النساء الباكيات الحزينات، ومع الامام زين العابدين الموثق بالاغلال، حاسبا أنهم سيسكتون أمام ادعاءاته وتبجحاته وأنهم سينحنون أمامه ويوافقونه على كل ما سوف يطرحه من أفكار و(حجج)، وأنهم سيستجدون عطفه، وقد يسألونه رد ما أخذ منهم من أموال ومصاغ...وسيبادر إلى تلبية طلبهم حاسبا أن كل شيء وكل امرئ يمكن أن يشترى بالأموال[1]...مع أنهم كانوا أكثر الناس شعورا بالخسارة الكبيرة المتمثلة بفقد الحسين وأصحابه عليهم السلام والتنكيل بهم وقطع رؤوسهم وحملها بتلك الطريقة المردية البشعة، وترك جثثهم الممزقة تسفي عليها الرياح، وتغزوها الرخم والعقبان والوحوش.

واذ أنه فشل بمواجهة زينب التي جعلته يبدو على حقيقته عصبيا متشنجا يلجأ إلى السباب الفاحش والكلام القبيح، فانه حاول اعادة الكرة مع زين العابدين الذي بدا مرهقا حزينا مريضا ينوء بأعباء الأسر والفاجعة، عله يسمع منه كلمة تدين موقف والده الحسين أو تقر موقفه منه والذي لجأ اليه بتوصية من والده معاوية كما رأينا، الا أنه فشل في ذلك أيضا، وكان موقف زين العابدين الصلب مثار انتكاسة أخرى لحقت

---

(١) وقد روجت روايات أفادت أن بعض النساء طلبن من يزيد اعادة مصوغاتهن التي سلبت منهن عقيب واقعة الطف، وانه قد وافق على ذلك وضاعفها لهن.ودلائل الحال لا تشير إلى ذلك ولا تقره، اذ كيف تقدم اولئك النسوة بما عرف عنهن من المواقف المبدئية المشهودة، على مثل ذلك الطلب مع شعورهن الكبير بخسارة الصفوة من آل الرسول صلى الله عليه وآله وفي مقدمتهم الحسين عليه السلام واخوته وأبناء عمومته وأولاده.ولا شك أن الغرض من تلك الروايات تحسين صورة يزيد وتشويه صور الحسين وأصحابه ونسائه.

به وجعلته يفقد حلاوة النصر التي كان يحسب أنه يستمتع بها في تلك اللحظات، بل لعلها أثارت في نفسه مخاوف حقيقية من ثورة محتملة بوجهه رغم كل ما كان يتمتع به من سلطان كبير وقوة ظاهرية.

**الامام زين العابدين معركة في قصر يزيد**

نقل عن الأوزاعي في مناقب ابن شهر آشوب قوله: «لما أُتي بعلي بن الحسين عليه السلام ورأس أبيه إلى يزيد بالشام، قال لخطيب بليغ: خذ بيد هذا الغلام، فأت به المنبر وأخبر الناس بسوء رأي أبيه وحده وفراقهم الحق وبغيهم علينا، فلم يدع شيئا من المساوئ الا ذكره فيهم..»[(١)].

وروي عن صاحب المناقب...«ان يزيد أمر بمنبر وخطيب ليخبر الناس بمساوئ الحسين وعلي عليهما السلام وما فعلا، فصعد الخطيب المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم أكثر الوقيعة في علي والحسين وأطنب في تقريظ معاوية ويزيد..فذكرهما بكل جميل، فصاح به علي بن الحسين: **ويلك أيها الخاطب، اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق، فتبوأ مقعدك من النار**..ثم قال علي بن الحسين: **يا يزيد ائذن لي حتى أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلمات لله فيهن رضا، ولهؤلاء الجلساء فيهن أجر وثواب**، فأبى يزيد عليه ذلك، فقال الناس:...ائذن له فليصعد المنبر، فلعلنا نسمع منه شيئا...

فقال: انه ان صعد لم ينزل الا بفضيحتي وبفضيحة آل أبي سفيان..

فقيل له: وما قدر ما يحسن هذا؟ فقال: انه من أهل بيت قد زقوا العلم زقا.

فلم يزالوا به حتى أذن له، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم خطب خطبة أبكى منها العيون، وأوجل منها القلوب، ثم قال: **أيها الناس، أعطينا ستا، وفضلنا بسبع:**

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٥ ص١٧٤.

أعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين. وفضلنا بأن منا النبي المختار محمدا ومنا الصديق ومنا الطيار ومنا أسد الله وأسد رسوله، ومنا سبطا هذه الأمة، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي..

أيها الناس: أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن من حمل الركن بأطراف الرداء، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حج ولبى، أنا ابن من حمل على البراق في الهوا، أنا ابن من أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أنا ابن من بلغ به جبرئيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى اليه الجليل ما أوحى، أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا: لا اله الا الله..

أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله بسيفين، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين، وبايع البيعتين، وقاتل ببدر وحنين،و لم يكفر بالله طرفة عين.أنا ابن صالح المؤمنين، ووارث النبيين، وقامع الملحدين، ويعسوب المسلمين، ونور المجاهدين، وزين العابدين، وتاج البكائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل ياسين رسول رب العالمين. أنا ابن المؤيد بجبرئيل، المنصور بميكائيل، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين، وقاتل المارقين والناكثين والقاسطين، والمجاهد أعداءه الناصبين، وأفخر من مشى من قريش أجمعين، وأول من أجاب واستجاب لله ولرسوله من المؤمنين، وأول السابقين، وقاصم المعتدين، ومبيد المشركين، وسهم من مرامي الله على المنافقين، ولسان حكمة العابدين، وناصر دين الله، وولي أمر الله، وبستان حكمة الله، وعيبة علمه.

سمح، سخي، بهي، بهلول، زكي، أبطحي، رضي، مقدام، همام، صابر، صوام، مهذب، قوام، قاطع الأصلاب ومفرق الأحزاب، أربطهم عنانا، وأثبتهم جنانا،

**وأمضاهم عزيمة، وأشدهم شكيمة، أسد باسل، يطحنهم في الحروب إذا ازدلفت الأسنة وقربت الأعنة، طحن الرحا، ويذروهم فيها ذرو الريح الهشيم، ليث الحجاز، وكبش العراق، مكي مدني، خيفي عقبي، بدري أُحدي، شجري مهاجري، من العرب سيدها ومن الوغى ليثها، وارث المشعرين وأبو السبطين: الحسن والحسين، ذلك جدي علي بن أبي طالب..**

ثم قال: **أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيدة النساء**..فلم يزل يقول أنا أنا حتى ضج الناس بالبكاء والنحيب..وخشي يزيد أن تكون فتنة.فأمر المؤذن فقطع عليه الكلام.فلما قال: الله أكبر الله أكبر، قال علي: **لا شيء أكبر من الله**.فلما قال: أشهد أن لا اله الا الله، قال علي بن الحسين: **شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي**.فلما قال المؤذن: أشهد أن محمدا رسول الله، التفت من فوق المنبر إلى يزيد فقال: **محمد هذا جدي أم جدك يا يزيد؟ فان زعمت أنه جدك فقد كذبت وكفرت، وان زعمت أنه جدي فلم قتلت عترته؟...**»(١).

**هذا الذي تعرف البطحاء وطأته**

كانت خطبة زين العابدين متحدية صارمة رغم ما كان يلوح فيها من كلام مهذب وأدب رفيع، فقد كان المقام مقام تحدٍّ، وكان يزيد يريد أن ينال المزيد من آل البيت أمام أعوانه وحشمه..وكانت ثقافة سب آل الرسول التي انتشرت وتفشت، قد جعلته يعتقد أنها اللغة المناسبة في كل وقت، ولم يحسب أن بامكان كلمات مؤدبة قوية نافذة يمكن أن تحدث ذلك الأثر الذي أحدثته، صحيح أن من التفوا حوله من الأشراف كانوا يعلمون حقيقته وحقيقة الحسين وآل البيت عليهم السلام الا أنهم آثروا الانحياز اليه بفعل الدوافع العديدة التي جعلتهم يفعلون ذلك وفي مقدمتها التلويح بالأموال والجاه

(١) بحار الأنوار: ج٤٥ ص١٣٧ - ١٣٩.

والمناصب، غير أن بقية أهل الشام من غير الأشراف كانوا مضللين مخدوعين لم يعرفوا أهلاً لمحمدﷺ سوى آل أبي سفيان وأولاده وعترته..فكان لابد لعلي بن الحسين أن يعرفهم بحقيقة آل الرسولﷺ..

وكان لابد أن يذكرهم بمحمدﷺ وبموقعه منه، وبعلي وشرفه وقدمه وسابقته وبالحسن والحسينعليهما السلام ومكانتهما من رسول اللهﷺ...

من على ذلك المنبر الذي اعتادوا سب علي وبنيه من فوقه، رسم زين العابدين صورة آل البيت وعرضها على مشاهديه ومستمعيه...وجعل يزيد يوجل أشد مما كان يفعل ويخاف اشتداد النقمة والغضب الشعبي عليه، ويبدي اعتذاره في مواقف عديدة مما فعله ابن زياد في كربلاء، مدعيا أنه لم يوعز اليه بذلك ولم يأمره به.

كان التضليل الأموي يذهب مذاهب بعيدة مع أهل الشام، فقد أسدل عليهم ستاراً أسود من الجهل وجعلهم لا يرون الا بعيون معاوية ومن تبعه، فكأن الإسلام هو ما جاء به معاوية لا محمدﷺ.

**الشامي المضلل**

وقد رأينا ذلك الشامي الذي طلب من يزيد منحه احدى بنات أميرالمؤمنينعليه السلام لتكون جارية له..وقد حسب أن ذلك جائز له، وذكرنا المحاورة التي دارت بين زينب ويزيد بهذا الخصوص[1].

وقد روي في احدى الروايات أن هذا الرجل الشامي حينما استمع إلى حوار زينب مع يزيد وأدرك أن من أحضرهن يزيد إلى مجلسه بتلك الهيأة المزرية هن بنات الحسين

(١)الطبري: ج٣ص٣٣٩ وفي بعض الروايات انها فاطمة بنت الحسين –بحار الأنوار: ج٤٥ ص١٣٦ - ١٣٧.

وعلي وآل أبي طالب، لعن يزيد في مجلسه ذاك وقال: «و الله ما توهمت الا أنهم سبي الروم»[١] وقد أمر يزيد بضرب عنقه..اذ كان وعي ذلك الرجل مؤشرا خطرا لاحتمال انتشار ذلك الوعي بين جماهير الشام مما ستكون له عاقبة غير محمودة بالنسبة للنظام الحاكم[٢].

وروي «ان بعض فضلاء التابعين لما شهد برأس الحسين بالشام أخفى نفسه شهرا من جميع أصحابه، فلما وجدوه بعد اذ فقدوه، سألوه عن سبب ذلك، فقال: ألا ترون ما نزل بنا؟ ثم أنشأ يقول:

جاؤوا برأسك يا بن بنت محمد ... مترملاً بدمائه ترميلا
قتلوك عطشانا ولما يرقبوا ... في قتلك التأويل والتنزيلا
ويكبرون بأن قتلت وانما ... قتلوا بك التكبير والتهليلا»[٣].

واذ أن موقف هذا التابعي الفاضل محتمل ووارد لما كان لابد أن يكون متمتعا به من وعي ومعرفة، فإن الجماهير المضللة التي لا تتمتع بنفس القدر من الوعي والمعرفة، كانت تطبل وراء أعوان السلطة وتندفع فرحة فخورة بما تحقق لها من قتل الحسين وأصحابه...

**تاب فقُتِلَ..**

«..جاء شيخ فدنا من نساء الحسين وعياله، وقد أقيموا على درج باب المسجد، فقال: الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم، وأراح البلاد من رجالكم، وأمكن أمير المؤمنين منكم..

---

(١) البحار: ج٤٥ ص١٣٧.
(٢) البحار: ج٤٥ ص١٣٧.
(٣) البحار: ج٤٥ ص ١٢٨- ١٢٩.

فقال له علي بن الحسين: **يا شيخ هل قرأت القرآن..؟** قال: نعم.

قال: **فهل عرفت هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾**[١]..؟

قال الشيخ: قد قرأت ذلك..

فقال له علي: **فنحن القربى يا شيخ، فهل قرأت هذه الآية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾**[٢]..؟

قال نعم.

قال علي: **فنحن القربى يا شيخ. وهل قرأت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾**[٣].؟

قال الشيخ: قد قرأت ذلك.

قال علي: **فنحن أهل البيت الذين خصصنا بآية الطهارة يا شيخ.**

فبقي الشيخ ساكتا نادما على ما تكلم به وقال: بالله انكم هم؟

فقال علي بن الحسين: **تالله انا لنحن هم من غير شك. وحق جدنا رسول الله انا لنحن هم.**

فبكى الشيخ ورمى عمامته، ورفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم اني أبرأ اليك من عدو آل محمد من جن وانس، ثم قال: هل لي من توبة؟ فقال له: **نعم. ان تبت تاب الله عليك، وأنت معنا.** فقال: أنا تائب.

---

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) الشورى: ٣٣.

(٣) الأحزاب: ٣٣.

فبلغ يزيد بن معاوية حديث الشيخ فأمر به فقتل.»[١].

لقد أوشك السحر أن ينقلب على الساحر، عندما بدت بوادر وعي وفهم تلوح في أفق دمشق...غير أن الكبت والقمع كان لهما دورهما هنا، وكان لابد من اجراء حاسم بحق زين العابدين ونسائه والا افتُضِحَ أمر النظام الأموي بين أوساط أهل دمشق وبدأت تساؤلات جدية عنه تظهر بينهم، ولم يجد يزيد بدا من ابعاد زين العابدين والأمر باعادته إلى المدينة طالبا منه أن يكاتبه وينهي اليه كل حاجة تكون له[٢].

كان الدور اللاحق للامام زين العابدين يتصاعد باتجاه تحصين الطليعة العقائدية وجمع شملها ثانية واعداد الأمة لتقويم الوضع بعد أن خلا الجو ليزيد وبعد أن نكل بأعدائه بذلك الشكل المرعب.

**اعلان الطوارئ لخنق الأنفاس**

وكان خلق الظروف الطارئة وايهام الأمة بوجود أعداء يكيدون لها، يتيح لها اعلان حالة استنفار وحرب دائمية واللجوء إلى أقسى الأساليب وأشدها شراسة مع كل من تعتقد أنه ضد مسيرتها.كانت الأمة تعيش حالة حرب منذ أن مهد لقتل عثمان ومع بداية حكومة أميرالمؤمنين، وكانت تلك الحالة هي الأمر الوحيد الذي حسب معاوية أنه يتيح له تنفيذ خططه وأفكاره، وهكذا كان هو في مقدمة الساعين لقتله وكان أشد الناس فرحا بذلك، لأن المطالبة بدمه فيما بعد يتيح له استقطاب كل من لا يرى رأي أميرالمؤمنين وكل طامع ومضلل، ويتيح له تكوين جيش مستنفر دائما وعلى أهبة الاستعداد لتنفيذ مطالبه وأغراضه.

---

(١) الملهوف: ص ١٥٨ ، والبحار: ج٤٥ ص ١٢٩ .

(٢)الطبري: ج٣ص٣٣٩ -٣٤٠.

ولم يكن في صالح النظام الأموي أن تعطل حالة الاستنفار والطوارئ تلك وكان يجد المبررات دائما لوجودها وادامتها...

واذ أن النظام بدا مزدهرا وقويا وقادرا على التنكيل بخصومه بكل سهولة، فان الأمة لابد أن تدفع باتجاه التساؤل عن مغزى دفعها لتعيش حالة الطوارئ الدائمية تلك، وعن سبب الويلات والأزمات الخانقة وحالة التفرقة والتباين التي تعيشها في ظل ذلك النظام...هل خاض المسلمون الحروب وعاشوا الويلات ليمهدوا الطريق أمام دولة الظلم الأموية لتقوم بالمزيد من الظلم والانتهاكات والتجاوز على حقوقهم..؟ وما هي الحجج التي بقيت أمامها لتقوم بمثل تلك الانتهاكات.

وكان لابد أن تفهم الأمة الإسلام جيدا لكي تفهم طبيعة الظلم الواقع عليها وطبيعة انحرافها عن الإسلام، فبدون تلك تبقى مضللة وتعيش حالة الهمج الرعاع الذين لا يدركون أن هناك ظلماً يقع عليهم ويعيشون الحالة الحيوانية الغريزية ولا يهتمون الا بحياتهم اليومية العادية ولا تتعدى اهتماماتهم إلى جماهير الأمة المظلومة.

كانت دولة الظلم تسعى لتوسيع هذه الطبقة لكي يتاح لها تنفيذ كل مخططاتها ومؤامراتها، وكان لابد من وجود قوة واعية متسلحة بالعلم الرباني الصحيح غير القابل للانحراف والمساومة تتصدى لقوة الانحراف ومؤسساته وأجهزته...

وقد تمثلت تلك القوة بآل البيت عليهم السلام وأتباعهم الذين شكلوا الطليعة العقائدية المؤهلة للقيادة والتأثير....

**بناء الكتلة العقائدية ومحاربة الانحراف**

في تلك الفترة بدأ قادة أهل البيت..«ببناء الكتلة، بناء الجماعة المنضوية تحت لوائهم الشاعرة بكل الحدود والأبعاد من المفهوم الإسلامي المتبنى من قبلهم عليهم السلام..بناء

الجماعة الصالحة من مجموع هذه الأمة التي حصنت بالحد الأدنى من التحصين، ولابد أن تنتخب مجموعة من هذه الأمة فيحصنون بأعلى درجة ممكنة من التحصين ويوعون بأعلى درجة ممكنة من التوعية حتى تكون هذه الجماعة هي الرائد والقائد والحامي للوعي الإسلامي الذي حصن بالحد الأدنـى..»[١]، «..حتى في حالة الشعور بعدم وجود الظروف الموضوعية التي تهيئ الامام لخوض معركة في مقام تسلم زمام الحكم من جديد..»[٢].ومع قيام الأئمةعليهم السلام «بمحاولة القضاء على الانحراف الموجود في تجربة المجتمع الإسلامي وارجاعها إلى وضعها الطبيعي، وذلك باعداد طويل المدى وتهيئة للظروف الموضوعية التي تتناسب وتتفق مع ذلـك»[٣] فانهم مارسوا عملية «تعميق الرسالة، روحيا وسياسيا للأمة نفسها، بغية ايجاد تحصين كافٍ في صفوفها لكي يؤثر هذا التحصين في مناعتها، وفي عدم انهيارها، بعد تردي التجربة وسقوطها، اذ كان من اللازم بعد أن حرمت الأمة الإسلامية من التجربة الصحيحة الكاملة للحياة الإسلامية بعد وفاة الرسولصلى الله عليه وآله أن تطعم وتغذى الأمة كأمة، تطعم الأمة وتغذى بالإسلام رساليا، وتغذى في مجالها الروحي والفكري والاجتماعي والسياسي، لكي تستوعب الإسلام - بايجاد قواعد واعية في الأمة وايجاد روح رسالية فيها وايجاد عواطف تجاه هذه الرسالة في الأمة»[٤].

كانت مهمة أهل البيتعليهم السلام لحماية الإسلام واحدة وان اتخذت دورا بدت مختلفة في الظاهر، وكانت تلك الأدوار تنسجم مع الظروف التي كان يمر بها كل امام.

وقد تعرضنا في هذه الدراسة لأدوار الأئمة الثلاثة الأوائلعليهم السلام ورأينا كيف أنهم

(١) أهل البيت: السيد محمد باقر الصدر: ص ١١٦.
(٢) أهل البيت: السيد محمد باقر الصدر: ص ١٣١ - ١٣٢.
(٣) أهل البيت: السيد محمد باقر الصدر: ص١٣٢.
(٤) أهل البيت: السيد محمد باقر الصدر: ص١٣٢.

استطاعوا تحصين التجربة الإسلامية والحفاظ عليها رغم عوامل الانحراف التي كانت قابلة للاطاحة بها واسقاطها إلى الأبد حتى لا تعود تذكر الا كتجربة تاريخية مرت على المسلمين، ولن تكون قابلة للتكرار في أي وقت آخر.

**دور لامع للامام زين العابدين بعد واقعة الطف**

ولعل دور الامام زين العابدين عليه السلام بدأ منذ تلك اللحظات التي ختمت واقعة الطف، فكانت حواراته مع ابن زياد ويزيد وكلماته في أهل الكوفة والشام والمدينة بعيد تلك الواقعة بداية لنشاط كبير عمل فيه على استقطاب جماهير الأمة حول الإسلام لاستيعاب كل مضامينه بعيدا عن التشويه والتزوير. كان زين العابدين عليه السلام يريد للأمة أن تقف وقفة متأملة متفحصة لمجمل الأوضاع وما أدى بها إلى الانحراف، وأن تعود إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله نابذة كل زيف وتحريف وكذب.

ولعل دراسة مستقلة لشخصية الامام زين العابدين عليه السلام تكشف عن الدور الكبير والحساس الذي قام به لربط الأمة بالرسالة الإسلامية رغم وجود القيادة المنحرفة وجعل الإسلام يبدو قويا وواضحا رغم ابتعاد تلك القيادة عنه ومحاولاتها تجريده من كل ما يجعله صالحا لقيادة الحياة قيادة سليمة صالحة.

**توسيع الفئة العاملة الواعية**

بدا أن أهم ما كان يشغل بال الامام زين العابدين في تلك الفترة التي بدت بعيدة عن عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وفي غياب الجيل الأول من المسلمين، هو توسيع الفئة العاملة الواعية التي تستمد علمها ووعيها من مبنع الإسلام الصافي، أي من آل البيت أنفسهم؛ أي منه هو بالذات، بقيتهم وممثلهم وحامل علومهم، وقد كان -بالتأكيد- المؤهل الأول لمثل تلك المهمة الكبيرة وكان يبدو قادرا على انجازها بكل كفاءة وجدارة...

وقد حفلت كتب التاريخ والسيرة والحديث بأمثلة عديدة وشواهد على تتلمذ أشهر أقطاب العلوم الإسلامية على يديه منهم رجال من الصحابة كجابر بن عبدالله الأنصاري وعامر بن وائلة الكناني وسعيد بن المسيب بن حزن وسعيد بن جهان الكناني ورجال من التابعين أمثال سعيد بن جبير ومحمد بن جبير بن مطعم والقاسم ابن عوف واسماعيل بن عبدالله بن جعفر وابراهيم بن محمد بن الحنفية وأخوه الحسن وحبيب ابن أبي ثابت وأبي يحيى الأسدي وأبي حازم الأعرج وسلمة بن دينار المدني، وروى عنه الزهري وسفيان بن عينية ونافع والأوزاعي ومعاثل والواقدي ومحمد بن اسحاق، وروى عمن روى عنه كثيرون مثل الطبري وابن البيع وأحمد بن حنبل وابن بطة وأبي داوود وصاحب الحلية وصاحب الأغاني وصاحب قوت القلوب، وصاحب أسباب النزول وصاحب الترغيب والترهيب وصاحب الفائق وصاحب المصطفى وغيرهم(١).

وقد اشتهر من طلابه المعروفين أبوحمزة الثمالي ثابت بن دينار والقاسم بن محمد بن أبي بكر وعلي بن رافع والضحاك بن مزاحم وحميد بن موسى الكوفي وأبوالفضل سدير ابن حكيم الصيرفي ويحيى بن أم الطويل وعبدالله البرقي وحكيم بن جبير والفرزدق وفرات بن أحنف وأيوب بن الحسن وأبومحمد القرشي السدي وطاوس بن كيسان الهمداني وأبان بن تغلب بن رباح وأبوخالد وردان الكابلي وسعيد بن المسيب المخزومي وعمر بن علي بن الحسين وأخوه عبدالله وجابر بن محمد بن أبي بكر وغيرهم(٢).

وكانت هناك نصوص ثابتة على امامته وردت عن رسول الله ﷺ، ولابد أن فئات عديدة من الأمة كانت تعرف ذلك وتعيه وترى أن له منزلة رفيعة ينبغي النظر اليها

(١) أهل البيت: الإمام زين العابدين - لجنة التأليف في دار التوحيد عن بحار الأنوار ط:١٣٨٥هـ: ج٤٦ ص١٣٣ ومناقب آل أبي طالب: ج٣.

(٢) أهل البيت: الأمام زين العابدين - لجنة التأليف في دار التوحيد عن بحار الأنوار ط:١٣٨٥هـ: ج٤٦ ص١٣٣ ومناقب آل أبي طالب: ج٣.

وعلماً الهياً متوارثاً عن الرسول صلى الله عليه وآله ينبغي الاهتمام به والنظر اليها بكل جدية..وليس من العبث أن تحيط طبقة كبيرة من العلماء بزين العابدين عليه السلام وتأخذ عنه في الوقت الذي انصرف فيه القادة المنحرفون إلى تثبيت مراكزهم باللجوء إلى أشد الأساليب قسوة وبعدا عن الإسلام.

كان الإسلام هو الضمانة الوحيدة للأمة الإسلامية لكي تبقى وتستمر وتنمو كأمة إسلامية بعيدا عن مخططات قادة الانحراف، وكان العمل على نشر علومه وأحكامه وتشريعاته هو الطريق الأمثل لفهمه واستيعابه.

**أدب الدعاء..أدب الوصول إلى الله**

واذ أن الأمة كانت تعيش حياة يأس وغربة عن الإسلام في ظل الحملة المحمومة لاستبعاده عن الحياة وتهميش دوره وجعله أقل فاعلية، فان صلة حميمة به لابد أن تبعث ثانية، ولابد أن تُرَبَّى الأمة على التحسس به والتقرب من الله عزوجل من خلال الفهم الواعي للإسلام ومن خلال أدب الدعاء ذي المضامين الشفافة والمناجاة الحميمة مع الله عزوجل.وهكذا عمل زين العابدين على اشعار الأمة بأهمية هذين الجانبين وأرسى أسلوبا فريدا في الدعاء والمناجاة جديرا بآل الرسول صلى الله عليه وآله.

اذ من يستطيع – حتى وان اشتد الصراع على الحكم والسلطة واتخذت المواجهات طوابع غير إسلامية – أن يمنع مسلما من اللجوء إلى العلم والعبادة.وجميع القيادات المنحرفة السفيانية والمروانية والزبيرية تدعي حرصها على ذلك وان كان واقع حالها يشير إلى أنها كانت تحاول ترسيخ مصالحها وامتيازاتها وأساليبها المنحرفة في الحكم والحياة.

وكان أسلوبه التربوي هذا ينسجم مع أسلوب آخر اعتمده طيلة حياته للتذكير

بثورة والده الحسين عليه السلام، فلم يكن من قبيل الشعور بمظلومية ذلك الامام العظيم الذي واجه السلطة المنحرفة القوية بدمه ودماء أصحابه القلائل وقتل تلك القتلة المفجعة، اعلانه الحزن الطويل المفجع.

كان ذلك الحزن استمراراً لحزن والده عليه السلام وشعوره بالمرارة وهو يرى الأمة تقاد لتنفيذ المخططات الأموية...وكان شجبا لارادة الشر التي ألحقت الأذى بوالده وأنصاره عليهم السلام.

**ارساء قواعد الحزن النبيل البناء المتعاطف...**

كان الامام زين العابدين عليه السلام يريد الأمة أن تستشعر حزنه على والده وأنصاره وأن تشاركه فيه، فالتعاطف النبيل لابد أن يؤدي إلى أن تُفْهَم الأسباب التي قدم من أجلها دمه ولابد أن تدرك في النهاية أن هدفه الأساسي هو تخليصها من الانحراف الاموي وليس لجني مكاسب خاصة أو لمزاحمة النظام على الحكم لمجرد الرغبة في ذلك، مع أنه كان أحق الناس بالحكم وأجدرهم به وأكثرهم كفاءة وشعورا بالمسؤولية لتطبيق أحكام الإسلام وشرائعه تطبيقا عادلا مسؤولا.

وكانت صرخاته وكلماته أمام ابن زياد وأهل الكوفة ويزيد وأهل الشام تشير إلى أنه كان أكثر الناس فهماً ووعياً لقضية والده وكان يريد الأمة كلها أن تفهم غرضه من الثورة وتقديم دمه بتلك الطريقة الباسلة التي أرعبت النظام وجعلته يحشد كل قواه وأعوانه لمواجهته..

أما في المدينة، تلك التي نصرت رسول الله صلى الله عليه وآله منذ البداية وسارت خلفه دون تحفظ وقدمت للإسلام كل شيء، ثم نكصت واستسلمت كبقية حواضر الإسلام الأخرى أمام الارهاب الأموي، فان ثمة ما يجعل الأمل يتصاعد بامكانية تجدد عزيمة الأنصار

الأوائل الذين آزروا رسول الله صلى الله عليه وآله، خصوصا وأنها تمتلئ بالمزيد منهم ومن أبنائهم، وكان لابد من جعلها تدرك التضحية الكبيرة التي أقدم عليها أبوعبدالله الحسين لانقاذها وانقاذ كافة المسلمين من الأمويين.

**قبيل الوصول إلى المدينة**

وقبيل الوصول إلى المدينة أراد الامام علي بن الحسين أن يكون لذلك الوصول وقع خاص، وأن يستقبل أهل المدينة بقية موكب الحسين استقبالا جديرا بالتضحية التي قدمها.

روى أحد الشعراء، بشير من حذلم قال: «...لما قربنا منها[المدينة] نزل علي بن الحسين عليه السلام فحط رحله، وضرب فسطاطه وأنزل نساءه وقال:

**يا بشير: رحم الله أباك لقد كان شاعرا، فهل تقدر على شيء منه؟**

قلت: يا بن رسول الله اني لشاعر.

قال: **فادخل المدينة، وانع أباعبدالله...**

فركبت فرسي وركضت حتى دخلت المدينة، فلما بلغت مسجد النبي صلى الله عليه وآله رفعت صوتي بالبكاء وأنشأت أقول:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرج والرأس منه على القناة يدار

ثم قلت: هذا علي بن الحسين مع عماته وأخواته قد حلوا بساحتكم ونزلوا بفنائكم، وأنا رسوله اليكم أعرفكم مكانه.

فما بقيت في المدينة مخدرة ولا محجبة الا برزن من خدورهن، مكشوفة شعورهن،

مخمشة وجوههن، ضاربات خدودهن، يدعون بالويل والثبور، فلم أر باكيا أكثر من ذلك اليوم ولا يوما أمر على المسلمين منه...»(١).

وقد أرشد هذا الشاعر الذي كان ضمن موكب على بن الحسين ومستقبليه الأوائل أهل المدينة إلى الموضع الذي نزل فيه الامام، فبادروا اليه.

ويقص علينا بقية الخبر: «فضربت فرسي حتى رجعت اليهم، فوجدت الناس قد أخذوا الطرق والمواضع، فنزلت عن فرسي، وتخطيت رقاب الناس، حتى قربت من باب الفسطاط، وكان علي بن الحسينعليه السلام داخلا ومعه خرقة يمسح بها دموعه، وخلفه خادم معه كرسي فوضعه له وجلس عليه، وهو لا يتمالك من العبرة وارتفعت أصوات الناس بالبكاء، وحنين الجواري والنساء، والناس من كل ناحية يعزونه، فضجت تلك البقعة ضجة شديدة، فأومأ بيده أن اسكتوا، فسكنت فورتهم، فقالعليه السلام:

**الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، بادئ الخلائق أجمعين، الذي بعد فارتفع في السموات العلى، وقرب فشهد النجوى، نحمده على عظائم الأمور، وفجائع الدهور، وألم الفجائع، ومضاضة اللواذع، وجليل الهزء وعظيم المصائب الفاجعة، الكاظة الفادحة الجائحة..**

**أيها الناس، ان الله - وله الحمد - ابتلانا بمصائب جليلة، وثلمة في الإسلام عظيمة، قُتِلَ أبوعبدالله وعترته، وسبي نساؤه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان، من فوق عامل السنان، وهذه الرزية التي لا مثلها رزية...**

**أيها الناس: فأي رجالات منكم يسرون بعد قتله، أم أية عين منكم تحبس دمعها، وتضن عن انهمالها. فلقد بكت السبع الشداد لقتله، وبكت البحار بأمواجها، والسماوات**

---

(١) البحار: ج٤٥ ص١٤٧.

**بأركانها، والأرض بأرجائها، والأشجار بأغصانها، والحيتان ولجج البحار والملائكة المقربون، وأهل السماوات أجمعون...**

**أيها الناس: أي قلب لا ينصدع لقتله، أم أي فؤاد لا يحن اليه، أم أي سمع يسمع هذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام...**

**أيها الناس: أصبحنا مطرودين، مشردين، مذودين، شاسعين عن الأمصار، كأنا أولاد ترك وكابل، من غير جرم اجترمناه، ولا مكروه ارتكبناه، ولا ثلمة في الإسلام، ثلمناها ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين.ان هذا الا اختلاق.**

**والله لو أن النبي تقدم اليهم في قتالنا كما تقدم اليهم في الوصاءة بنا، لما ازدادوا على ما فعلوا بنا، فانا لله وانا اليه راجعون، من مصيبة ما أعظمها، وأوجعها، وأفجعها، وأكظها، وأفظها، وأمرها، وأفدحها...فعند الله نحتسب فيما أصابنا، وما بلغ بنا، انه عزيز ذو انتقام..»**(١).

**بشارة أم اثارة شجون وأحزان...واقعة الطف أثارت المدينة**

ولعل يزيد وأركان حكمه كانوا يتصورون مشهدا هزليا، يتاح لهم من خلاله التندر بتلك العائلة المنكوبة التي رفض عميدها الاعتراف برأس النظام ومبايعته، ثم ها هو ذا يجني نتيجة (تمرده) وخروجه على سلطان الدولة، ولعلهم كانوا يتوقعون قدوم عائلة مصابة ثكلى بأعزائها، ذليلة بعد ما حل بها، لتكون، عبرة لكل من يفكر بالخروج على الدولة والاعتراض على تصرفاتها المنحرفة.

وهكذا حسب ابن زياد، وعمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة يومئذ، فقد دعا ابن زياد عبدالملك بن أبي الحارث السلمي وأمره أن ينطلق إلى المدينة حتى يقدم على

(١) بحار الأنوار: ج٤٥ص ١٤٨- ١٤٩.

عمرو بن سعيد ليبشره بقتل الحسين عليه السلام، وقد حاول عبدالملك السلمي أن يعتذر، الا أن ابن زياد زجره: وقال له: «انطلق حتى تأتي المدينة، ولا يسبقك الخبر، وأعطاه دنانير، وقال: لا تعتلَّ، وان قامت بك راحلتك فاشتر راحلة.

فقال عبدالملك: فقدمت المدينة، فلقيني رجل من قريش، فقال: ما الخبر.فقلت الخبر عند الأمير.فقال: انا لله وانا اليه راجعون، قتل الحسين بن علي.

فدخلت على عمرو بن سعيد، فقال: ما وراءك؟ فقلت: ما سر الأمير، قتل الحسين ابن علي، فقال: ناد بقتله، فناديت بقتله، فلم أسمع والله واعية قط مثل واعية نساء بني هاشم في دورهن على الحسين.

فقال عمرو بن سعيد وضحك:

عجت نساء بني زياد عجة كعجيج نسوتنا غداة الأرنب[1].

ثم قال عمرو: هذه واعية بواعية عثمان بن عفان.ثم صعد المنبر فأعلم الناس قتله»[2].

حسب ابن زياد أنه بفعلته تلك سَيُسِرُّ عمرو...وانهما عندما يتلاقيان بعد ذلك سيضحكان كثيرا عندما يستحضران خبر تلك المفاجأة التي أعدها ابن زياد لعمرو ولأهل المدينة وبني هاشم منهم على وجه الخصوص.

ولم يحسبا – كلاهما – أنهما بعملهما ذاك كانا يثيران الناس ضدهما وضد نظام الحكم الجائر اذ يثيران أحزانهم ولوعتهم...فما كان الحسين – بنظر الأمة حتى وان تقاعست

---

(١) والأرنب وقعة كانت لبني زبيد على بني زياد من بني الحارث بن كعب من رهط عبدالمدان، وهذا البيت لعمرو بن معد يكرب الطبري: ج٣ص٣٤٢.

(٢) الطبري: ج٣ص٣٤١ – ٣٤٢.

عن اتباعه ونصرته - يستحق ما لحق به، بل أن اهل المدينة أنفسهم، شهود على أحقيته بالحكم والخلافة، ومنهم صحابة قد عاصروا رسول الله ﷺ واستمعوا اليه.

**المدينة تبكي الحسين**

هل كانت تلك المشاهد التي تعد بذلك الشكل المستخف والمزدري يقصد بها الحاق الاهانة بالحسين وآل الرسول ﷺ خاصة، أم أنها كانت تلويحا للأمة كلها بالعصا الغليظة التي ستنزل على رأس كل معارض للنظام..؟ وهل كان ذلك التلويح قادرا على اسكات الأمة وتسكين غضبها ونقمتها..؟

وهل بكت نساء بني هاشم وحدهن على الحسين عليه السلام...أم أن المسلمين بأجمعهم، نساء ورجالا بكوا على الحسين عليه السلام، وأسفوا على أنهم لم يقدموا على نصرته والانضمام اليه...؟ فالظلم الأموي كان يستهدفهم جميعا...وكان بامكان الحسين عليه السلام لو هادن أو سكت او بايع يزيد يحصل على العديد من المكاسب والامتيازات الشخصية، كانوا يعلمون ذلك، ويعلمون سبب اقدامه على مواجهة النظام، وان ذلك من أجل كل أجيال الأمة لكي تنتبه للظلمة والمنحرفين وتوقفهم عند حدودهم إذا ما حاولوا اختراقها أو تجاوزها.

لم يدر ببال سلطة الظلم أن الحزن النبيل يمكن أن يتمخض عن مشاعر نبيلة أخرى، وأن بكاء صادرا عن قلب صادق مليء بالاخلاص يمكن أن يكون احتجاجا دائميا على الظلم وعلى كل ما يعكر الطبيعة البشرية ذات الفطرة الصادقة، ولعل خبرتها لم تتسع بعد لتدرك أن الحزن ما هو الا صرخة احتجاج بوجه الظالم..فما لحق بالناس لم يكن نتيجة كوارث طبيعية أو أقدار مقدرة وانما كان نتيجة لممارسات دولة الظلم...انها اذ تتيح لمحزون أن يبث حزنه وأساه، فانها تتيح له عرض قضيته على الناس، ولابد أن

يجد من يتعاطف مع هذه القضية ويعلن استهجانه وغضبه مما يجري...

### اسلوب جديد لفضح الانحراف

لم يكن بامكان زين العابدين أن يحرض الناس تحريضا مباشرا على الدولة الأموية الظالمة التي أعلنت استعدادها للتمادي في ممارساتها المفضوحة الخارجة عن الإسلام، اذ أنها ستلجأ معه إلى ما لجأت اليه مع أبيه، وستعمل على تصفيته وتصفية كل من يتعاطف معه، غير أنه باحياء ذكرى والده، تلك الذكرى التي تستدر الدموع والحزن من عيون المسلمين الذين عرفوا مكانته وموقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله والغرض الذي ثار من أجله، وهو حق شخصي، لم تر فيه الدولة خطرا عليها بعد ولم تفكر بعواقبه، يكون قد مهد السبيل أمام تصاعد النقمة الشعبية بوجه الحكم الأموي، وكل حكومة ظالمة فيما بعد.

كان ذلك التجمع الجماهيري الذي أعد له الامام زين العابدين في المدينة عند عودته اليها بعد مسير العودة المرهق يتسم بطابع العفوية و الاستجابة التلقائية المتأثرة بالحدث الكبير الذي حدث في كربلاء، فخبر ذلك الحدث قد وصل المدينة في وقت مبكر، لعله وصلها قبل أن يصل الشام، وكان رد الفعل قويا في بيوتها، ولعل أهلها كانوا متلهفين على معرفة أخبار من بقي من قافلة الحسين، ويودون لو أنهم عادوا سالمين إلى ديارهم، ولعل الشوق واللهفة لمقابلتهم وابداء مشاعر الحزن والأسى أمامهم هو هاجسهم الأول وأملهم الكبير. كان زين العابدين عليه السلام يدرك ذلك ويعلم منزلة آل الرسول عليهم السلام من أهل المدينة، فلم ير أن يكون حدث العودة عابرا صامتا لا تشهده الا القلة من الناس، ولم يشأ أن يكون متسما بالذلة التي ما تكون غالبا في أعقاب القهر والهزيمة وتسلط العدو، وانما أراده أن يكون عاصفا مشحونا بعواطف الولاء والاستجابة الصادقة الحزينة لأناس ما كان ينبغي أن يقابلوا بتلك الصورة ولا أن يعاملوا تلك المعاملة من قبل مسؤولي دولة الظلم وأعوانها.

ويمكن اعتبار ذلك أول تجمع جماهيري مدروس، رغم ما اتسم به من عفوية في المواقف والمشاعر، أراد من خلاله الامام زين العابدين أن يوضح للأمة مظلومية آل البيت بما تعرضوا له من أذى واستبعاد عن المركز الحقيقي اللائق والجدير بهم، ومظلوميتها هي، الأمة المقهورة المغلوبة التي ما كان ينبغي لها أن تعيش ظروف القهر والحرمان والظلم في ظل دولة الانحراف الأموية.

**الابقاء على شحنة الحزن النبيل المتعاطف**

كان الامام زين العابدين يرى ضرورة تصاعد مشاعر التعاطف والود تجاه آل البيت عليهم السلام...وكان الابقاء على شحنة الحزن النبيل بما لحق بالحسين عليه السلام قائد الأمة وممثلها الحقيقي، من شأنه تصعيد الشعور المعادي للظلم والانحراف دائما، لا في زمن يزيد أو الدولة الأموية، وانما في كل زمان ومهما كان شكل الظالم وشعاراته وواجهاته.

وكان هو أول مجسد لذلك الحزن النبيل المتعاطف مع الحق وفطرة الإسلام السامية والشاجب للظلم، فلم تكن مصيبته بأبيه وآل بيته وأصحابه نتيجة حدث طبيعي أو قدر أو حادث لايد لأحد فيه، وانما جاءت نتيجة عدوان من فئة نصبت من نفسها حاكمة علّامة وقيّمة عليها بالقوة والاكراه، وأرادت التمادي في ظلمها، وقد وقف لها الحسين وأنصاره بالمرصاد وقدموا دماءهم أمام أبناء الأمة كلها علانية وفي وضح النهار وأعلنوا شجبهم، بل رفضهم لدولة الظلم التي واجهتهم تلك المواجهة الدموية الرهيبة وألحقت بهم أشد ضروب التنكيل حتى بعد الموت...وكان على الأمة أن تلتفت لأولئك الذين قدموا أرواحهم ودماءهم في سبيلها...وتقابلهم بأعلى درجات التقدير والعرفان والود لما قدموا من أجلها، وكان الحسين عليه السلام في مقدمتهم لمكانته وعظم تضحيته التي فاقت كل تضحية أخرى.

وهكذا صرح زين العابدين قائلا: «**أيما مؤمن دمعت عيناه حتى تسيل على خديه فيما مسنا من الأذى من عدونا في الدنيا، بوأه الله منزل صدق، وأيما مؤمن مسه أذى فينا فدمعت عيناه حتى تسيل على خديه من مضاضة ما أوذي فينا، صرف الله عن وجهه الأذى يوم القيامة من سخط النار**»(١).

وقد روي عن الصادق عليه السلام قوله: «**ان زين العابدين عليه السلام بكى على أبيه أربعين سنة صائما نهاره قائما ليله، فاذا حضر الافطار جاءه غلامه بطعامه وشرابه فيضعه بين يديه فيقول: كل يا مولاي. فيقول: قتل ابن رسول الله جائعا، قتل ابن رسول الله عطشانا، فلا يزال يكرر ذلك ويبكي حتى يبل طعامه من دموعه ثم يمزج شرابه بدموعه، فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عزوجل**»(٢).

---

(١) الامام زين العابدين، السيد عبد الرزاق المقرم ص ٣٤٣ نقلا عن ثواب الأعمال للصدوق. وورد في كامل الزيارات لجعفر بن محمد بن قولويه القمي - المطبعة المرتضوية - النجف / ١٣٥٦هـ- باب ٣٤:ص ١٠٣ - ١٠٤ قوله عليه السلام: «**أيما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين دمعة حتى تسيل على خده بوأه الله بها في الجنة غرفا يسكنها أحقابا، وأيما مؤمن دمعت عيناه حتى تسيل على خده فينا لأذى مسنا من عدونا في الدنيا بوأه الله بها الجنة مبوأ صدق**».

(٢)بحار الأنوار: ج٤٥ ص١٤٩ وقد ورد عن الصادق عليه السلام في مناقب ابن‌شهر اشوب ان علي بن الحسين بكى على أبيه عشرين سنة وروى الصدوق في الأمالي والخصال عن الصادق عليه السلام: **وأما علي ابن الحسين فبكى على الحسين عليهم السلام عشرين سنة وأربعين سنة**. ومن المعلوم أن زين العابدين بقي بعد أبيه عليهم السلام مدة ٣٣سنة أو ٣٤سنة، غير أن رواة سيرته ذكروا أنه بكى عليه بقية حياته - تراجع سيرة الأئمة: ج٣ ص٢٠٨.

**اما آن لحزنك أن ينقضي؟**

وقد روي أن مولى له قد هالته كثرة بكائه حتى تغمر دموعه لحيته ووجهه قد تساءل قائلا: «يا سيدي أما آن لحزنك أن ينقضي، ولبكائك أن يقل؟ فأجابه عليه السلام: **ويحك إن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم كان نبيا ابن نبي، كان له اثنا عشر ابنا فغيب الله سبحانه واحدا منهم فشاب رأسه من الحزن، واحدودب ظهره من الغم، وذهب بصره من البكاء، وابنه حي في دار الدنيا، وأنا فقدت أبي وأخي وسبعة عشر من أهل بيتي صرعى مقتولين، فكيف ينقضي حزني ويقل بكائي؟**»[١]. وقد روي عن الصادق أيضا قوله: «**..وكان جدي إذا ذكره، بكى حتى تملأ عيناه لحيته، وحتى يبكي لبكائه رحمة له من رآه..**»[٢].

**منطق الطغاة**

ويحاول الطغاة وأعوانهم ومن لا يفهم منطق الحزن النبيل والاستجابة الواعية لنداءات وآلام المظلومين، ومن يهولهم ويهزهم هذا الحزن الواعي، أن يبدوا استغرابهم منه وغم كل هذه السنين، وقد يتساءلون: أما كان أولى بهؤلاء المحزونين المكروبين أن يبكوا على رسول الله صلى الله عليه وآله أو على الأقل على علي أمير المؤمنين عليه السلام بنفس المرارة التي يبكون فيها على الحسين عليه السلام خصوصا وأن أمير المؤمنين قد قتل هو أيضا[٣]..ويحاولون أن يجعلوا الآخرين يعجبون بدورهم من هذا الحزن القديم الذي لا مبرر له الآن بزعمهم، متناسين أن الحزن على الحسين منسجم مع حزنه هو على هذه الأمة ورغبته الصادقة لانقاذها من الانحراف الأموي رغم علمه بالثمن الباهظ الذي كان عليه أن

---

(١) البحار: ج٤٥ ص١٤٩.

(٢) البحار: ج٢٥ ص٢٠٧.

(٣) كتب ابن كثير في تعليق له على ظاهرة البكاء على الحسين عليه السلام قائلا: (...ولكن لا يحسبن ما يفعله الشيعة من اظهار الجزع والحزن الذي لعل أكثره تصنع ورياء، وقد كان أبوه أفضل منه، فقتل، وهم لا يتخذون مقتله مأتما كيوم مقتل الرافضة يوم مصرع الحسين) البداية والنهاية ج١٨: ٢٠٥.

يقدمه في سبيل ذلك.ان على كل واحد منا ديناً شخصياً للحسين ولكل واحد منا علاقة حميمة خاصة به، ولعل الحزن سيكون سببا لاستنكار الظلم الواقع على الأمة والذي أراد الحسين ازالته ولو كان الثمن دمه...

**القضية العادلة تبقى ماثلة في الأذهان - لن ننسى الحسين..**

لا يبكي محبو الحسين على امرئ مات قبل مئات السنين وانتهى أمره...وانما يسترجعون قضية عادلة رفعت بوجه الظلم، ولا يزالون بحاجة إلى رفعها من جديد مادام الظلم والانحراف لا يزالان يرفعان لواءهما بوجه الإسلام.

كانت قضية الحسين أبرز حدث في تاريخ الإسلام، جعل هذا التاريخ يدخل منعطفا خطيرا لمواجهة حكام الانحراف على كل مداه فيما بعد، وإذا جاز لنا أن نحكم على المواقف والأحداث التاريخية من خلال مواقف أصحابها ودوافعهم، فان المسلمين يرون في موقف الحسين تجسيدا للتضحية والايثار والحب والتفاني في هذا الدين الذي أرسل لخلاص البشرية وسعادتها وأمنها واستقرارها من المستغلين العابثين.

في هذا الدين مصيرنا وحياتنا، وعلى المواقف الكبيرة كموقف الحسين تتوقف حياتنا ووجودنا ومستقبلنا.لقد أقدم على مواجهة الظلم والانحراف في الوقت الذي أحجمت فيه الأمة كلها عن ذلك ولم تجد في نفسها القوة أو الجرأة لمواجهة الحكام المستهترين الذين أعلنوا خروجهم عن الإسلام صراحة بتلاعبهم بأحكامه تشريعاته.

**أننسى الذي ضحى من أجلنا؟**

واذ أن الحسين أقدم على ذلك، رغم علمه المؤكد بما يصيبه على يد أولئك الحكام الذين لا يتورعون عن اللجوء إلى القسوة وسفك الدماء فان حكمنا على موقفه لايتمثل بمجرد اعلان التأييد والموافقة عليه، وانما ينبغي أن يكون موقفا متعاطفا ينسجم

وتعاطفه النبيل عليه السلام مع كل أبناء أمته وينسجم مع حزنه الكبير على المصير الذي آلت اليه في ظل حكام الجور. لقد فقدنا الحسين وتخلينا عنه في ظرف كان ينبغي علينا فيه أن نقف إلى جانبه وأن نسنده ونقدم أرواحنا دونه كما فعل أنصاره.

هل يستطيع أحد من المسلمين أن ينسى ألم الحسين لما حل بهم؟

وهل يستطيع أحد أن ينسى عظم التضحية التي أقدم عليها في سبيل كل واحد منهم؟

وهل أن مشاهد الطف كانت مجرد قدر مقدور علينا المرور به ببساطة وتناسيه لأنه أمر تقادم عليه العهد، كما يحاول البعض الايحاء بذلك؟

أم أنها ينبغي أن تمثل أمامنا دائما لنستمد منها العزيمة والصدق والمضاء، التي تميز بها من نصروا الحسين ووقفوا إلى جانبه..؟ ونحاول أن نسير على نفس الخط الذي سلكوه لمواجهة كل ظلم وعسف وانحراف..؟

أن تبكي على الحسين، يعني أن تفهم قضيته وتتبناها وتتمنى لو أنك كنت في عداد أنصاره وأصحابه، وتكون في مقدمة المضحين في سبيل الإسلام وأهدافه الكبيرة..

لهذا حزن زين العابدين وبكى على أبيه الحسين كل تلك المدة الطويلة...

ولهذا حزن بقية الأئمة عليهم السلام وأرادوا من الجميع أن يظهروا مشاهد الحزن على مصابهم بالحسين، فمن شأن هذا الحزن ومظاهر التفجع والبكاء وخصوصا عند ذكرى واقعة الطف أن تجعل المشهد ساخنا والقضية حية قائمة مادام هناك ظلم وانحراف.

**زيارة الحسين استنكار لواقعة الطف**

كما أرادوا من الجميع التشرف بزيارة قبره وقبور الشهداء من آله وأنصاره، فمن شأن هذه الزيارة أن تعيد الى اذهانهم مشاهد الطف وتعدهم للالتقاء بتلك الصفوة

المضحية من أجل الإسلام، وتذكرهم بالشرف الكبير الذي نالوه باقدامهم الباسل على مواجهة السيف بالدم، وتحفزهم للبحث عن طريق الحسين وقضية الحسين وبسالة الحسين...

وأرادوا أيضا احياء هذا الذكرى واستحضار وقائعها وتفاصيلها المفجعة وانشاد الشعر فيها، فللشعر قيمته التحريضية ضد الظلم والعاطفية لشد الناس إلى الحسين وقضيته والى خط آل البيت عليهم السلام، بل وانشاده بطريقة بكائية حزينة والنوح به -إذا صح التعبير- لزيادة التأثير واستقطاب الناس من خلال اثارة مشاعر الحزن النبيل المتعاطف الواعي.

**زوروا الحسين ولا تجفوه**

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: (**زوروا الحسين ولا تجفوه، فانه سيد شباب الشهداء - أو سيد شباب أهل الجنة، وشبيه يحيى بن زكريا، وعليهما بكت السماء والأرض..**)[١].

وعنه عليه السلام أيضا: (**..وما عين أحب إلى الله ولا عبرة، من عين بكت ودمعت عليه، وما من باك يبكيه الا وقد وصل فاطمة وأسعدها عليه، ووصل رسول الله صلى الله عليه وآله وأدى حقنا، وما من عبد يحشر الا وعيناه باكية الا الباكين على جدي، فانه يحشر وعينه قريرة، والبشارة تلقاه والسرور على وجهه، والخلق في الفزع وهم آمنون...**)[٢].

وعنه عليه السلام عندما سئل في زيارة قبر الحسين عليه السلام وانها عن بعضهم تعدل حجة وعمرة قال: «**لا تعجب، ما أصاب من يقول هذا كله**[٣]**، ولكن زره ولا تجفه فانه سيد شباب**

(١) بحار الأنوار: ج٤٥ ص٢٠١ - ٢٠٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٤٥ ص٢٠١ - ٢٠٧.
(٣) **لا تعجب بالقول هذا كله**..وقد قيل ان كلامه عليه السلام محمول على التقية...

**الشهداء، وسيد شباب أهل الجنة وشبيه يحيى بن زكريا وعليهما بكت السماء والأرض»**[١].

وتواترت أخبار كثيرة تروي قوله عليه السلام: «**ما لكم لا تأتونه - يعني قبر الحسين - فان أربعة آلاف ملك يبكون عنده إلى يوم القيامة**»[٢].

وعنه عليه السلام: «**..و لو يعلموا ما في زيارته من الخير، ويعلم الناس ذلك لاقتتلوا على زيارته بالسيوف، ولباعوا أموالهم في اتيانه...**»[٣].

وعن الباقر عليه السلام قوله: «**ثم ليندب الحسين ويبكيه، ويأمر من في داره بالبكاء عليه ويقيم في داره مصيبة باظهار الجزع عليه، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضا في البيوت، وليعز بعضهم بعضا في البيوت، وليعز بعضهم بعضا بمصاب الحسين عليه السلام...يقولون: عظم الله أجورنا بمصابنا بالحسين عليه السلام وجعلنا واياكم من الطالبين بثأره ومع وليه الامام المهدي من آل محمد..**»[٤] وتوجيه الامام عليه السلام يتعدى المطالبة بمجرد التلاقي والبكاء والتعزية إلى استنكار الظلم والدعوة إلى الله أن يجعلنا من الطالبين بثأره وأن نكون مع وليه الامام المهدي من آل محمد، انه يدعو إلى موقف وفعل لمواجهة الظلم والثأر من الظالمين.

### من ذكر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون

وعن الامام الرضا عليه السلام قوله: «**..من تذكر مصيبتنا، وبكى لما ارتكب منا كان معنا في درجتنا يوم القيامة، ومن ذكر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلسا يحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب...**»[٥].

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٥ ص٢١٢.
(٢) بحار الأنوار: ج٤٥ ص٢٢٢.
(٣) بحار الأنوار: ج٤٥ ص٢٢٥.
(٤) كامل الزيارات - باب ٧١ ص ١٧٤ - ١٧٥.
(٥) الصدوق - عيون أخبار الرضا - مطبعة دار العلم - محمد بن علي بن الحسين بن بابويه

وتتواتر أقوال عديدة عن أئمة أهل البيت تدعو الناس للتجمع وذكر مصيبة الحسين وواقعة الطف والبكاء وانشاد الشعر، وهي دعوة ايجابية تستهدف حث الناس على انتهاج خط آل البيت والتذكير بأمرهم وبخطهم الرسالي الصحيح...

ان تأكيد الأئمة على الشعر يأتي من كونه عنصرا اعلاميا موثراً ومادة يمكن حفظها وانتقالها وانشادها بنبرات عاطفية مؤثرة، كما أن القصيدة الواحدة منه قد تعيد بعض المواقف المهمة من واقعة الطف ويمكن أن يقوم الشاعر بدور القاص بعرض بعض تلك المواقف بأسلوب مؤثر يغني عن الكثير من الحديث..وهكذا حث الصادق عليه السلام الناس على انشاد الشعر في الحسين عليه السلام بقوله: «**ما قال فينا قائل بيتا من الشعر، حتى يؤيد بروح القدس..من قال فينا بيتا من الشعر بنى الله له بيتا في الجنة**»[1].وقد رأينا أن العديد من القصائد والمراثي تنقلت بين الناس بسرعة مدهشة أيام الأمويين والعباسيين، وكانت تعمل عمل البيانات والمنشورات الشاجبة والمعارضة للحكم، لأنها كانت تحفظ عن ظهر قلب وما كان يجد منشدوها حاجة لتدوينها، لذلك فان الشعراء قالوا كل ما أرادوا قوله دون خوف أو حذر زائد.

### الحزن على الحسين شجب لدول الظلم الأموية

كان الامام زين العابدين عليه السلام قد فتح الباب على مصراعيه أمام الناس لتذكر واقعة الطف ومصاب الحسين عليه السلام فيها، والحزن والتفجع بالمناسبة السنوية التي تمر عليها بل واستذكارها على الدوام، وجعل تلك الواقعة ماثلة أمام الجميع بتفاصيلها وأحداثها الكبيرة ومواقف الناس الذين شاركوا فيها وارخصوا نفوسهم دون الإسلام ودون الحسين عليه السلام ممثله الحقيقي وقائد الأمة الشرعي.ولم تدرك دولة الظلم الأموية الأبعاد

---

أبوجعفر المفتي، قم – ايران ١٣٧٧هـ: ج ٧ ص١.

(١) عيون أخبار الرضا: ج ١ ص ٧.

المقبلة لبكاء زين العابدين عليه السلام على والده الا في وقت متأخر، فمنعت كل مظهر للحزن على الحسين، اذ أن ذلك يعني شجبا لسياستها هي.أما الدولة العباسية فقد أفادت كثيرا من الدروس الأموية وعملت على اضطهاد آل البيت وأتباعهم منذ أن استقرت الأوضاع لصالحها، ورأت في مظاهر زيارة الحسين عليه السلام والحزن عليه وتذكر مصيبته ما يمكن أن يكون خطرا ماحقا عليها فعمدت إلى محاربة ذلك وذهبت إلى حد محاولة طمس القبر الشريف وتهديمه كما جرى في عهد الرشيد والمتوكل وغيرهما من ملوك بني العباس، الا أنها بعملها ذاك قد ساهمت - دون أن تعي ذلك - بتأجيج العواطف المؤيدة للحسين وآل البيت عليهم السلام وعواطف الشجب والأنكار لممارساتها المنحرفة التي هي امتداد لممارسات الأمويين والتي لم تكن تستهدف الا تثبيت عروشها ولم يكن يهمها مشروعية الوسائل التي تلجأ اليها طالما أنها تحقق أهدافها[1]...

**عبدالله بن جعفر: والله لو شهدته لأحببت ألا أفارقه حتى أقتل معه**

وكان عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، زوج زينب، وقد قتل له ابنان مع الحسين عليه السلام قد أقام مجلس العزاء على الحسين عليه السلام، وكان يرى أن خسارته في الحسين أجل وأكبر من خسارته بابنيه «...دخل عليه بعض مواليه والناس يعزونه...فقال: هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين.فحذفه عبدالله بن جعفر بنعله، ثم قال: يابن اللخناء أللحسين تقول هذا! والله لو شهدته لأحببت ألا أفارقه حتى أقتل معه، والله انه لما يسخي بنفسي عنهما،

(١) وقد ذكر ابن كثير ملاحظة طريفة ورد فيها أن النواصب من أهل الشام أعدوا حملات (فرح) معاندة لمظاهر (الحزن) التي عمت سائر المسلمين وليس لهم غرض من ذلك سوى معاكسة (الرافضة) وعنادهم «...وقد عاكس الرافضة والشيعة يوم عاشوراء النواصب من أهل الشام، فكانوا إلى يوم عاشوراء يطبخون الحبوب ويغتسلون ويتطيبون ويلبسون أفخر ثيابهم، ويتخذون ذلك اليوم عيدا يصنعون منه أنواع الأطعمة، ويظهرون السرور والفرح يريدون بذلك عناد الروافض ومعاكستهم»، البداية والنهاية ج٨ ص٢٠٤.

ويهون علي المصاب بهما، انهما أصيبا مع أخي وابن عمي مواسيين له، صابرين معه.ثم أقبل على جلسائه فقال: الحمدلله، عزوجل على مصرع الحسين، الا تكن آست حسينا يدي، آساه ولداي»(١).

ولا شك أن عمرو بن سعيد والي المدينة قد تساهل حول اقامة مثل هذي التعازي، ولم ير فيها خطرا على الدولة التي يمثلها، بل لعله كان يرى فيها تسلية كبيرة وشفاء لما في صدره المزدحم بالغيظ المكبوت والحقد الشديد على آل الرسول عليهم السلام..

ويدلنا كلام لعمر بن سعد، قاله لابن زياد، انهما يدركان أن المسلمين وأهل المدينة على الخصوص لن يكونوا راضين عن عملهما وما ارتكباه بحق الحسين وأصحابه، وأن كلاً منهما أراد القاء مسؤولية ذلك على الآخرين.

«قال عبيدالله بن زياد لعمر بن سعد بعد قتله الحسين: يا عمر أين الكتاب الذي كتبت به اليك في قتل الحسين؟

قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب.

قال: لتجيئن به.

قال: ترك والله يقرأ على عجائز قريش اعتذاراً اليهن بالمدينة.أما والله لقد نصحتك نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص، كنت قد أديت حقه.

قال عثمان بن زياد أخو عبيدالله: صدق والله، لوددت أنه ليس من بني زياد رجل الا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة وأن حسينا لم يقتل.

فو الله ما أنكر ذلك عليه عبيد الله»(٢).

---

(١) الطبري: ج٣ ص٣٤٢.

(٢) الطبري: ج٣ص٣٤٢.

ويبدو أن ابن سعد كان أكثر تحسسا بخصوص نقمة الناس عليه، أما ابن زياد فكان يبدو أقل تحسسا بخصوص ذلك، وان أراد تحسين صورته بنظر الناس.غير أننا نستنتج من حديثهما أن الناس وأهل المدينة خصوصا سيكونون ناقمين عليهما..وكان الأمر كذلك فعلا.اذ كان أحد أسباب ثورة المدينة، بل السبب الرئيسي لها، نقمة الناس على يزيد وادراكهم حقيقة ممارساته المنافية للإسلام، والتي لفت الحسين عليه السلام نظرهم اليها بشكل حاد...

**اسماء بنت عقيل: ماذا تقولون ان قال النبي لكم؟**

أما أسماء بنت عقيل بن أبي طالب فكان لها دور آخر في المدينة، عندما ورد نعي الحسين عليه السلام اليها، فقد «خرجت في جماعة من نسائها حتى انتهت إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فلاذت به وشهقت عنده، ثم التفتت إلى المهاجرين والأنصار وهي تقول:

«ماذا تقولون ان قال النبي لكم ... يوم الحساب وصدق القول مسموع
خذلتم عترتي أوكنتم غُيَّبا ... و الحق عند ولي الأمر مجموع
أسلمتموهم بأيدي الظالمين فما ... منكم له اليوم عند الله مشفوع
ما كان عند غداة الطف اذ حضروا ... تلك المنايا ولا عنهن مدفوع

فما رأينا باكيا ولا باكية أكثر مما رأينا ذلك اليوم..»[1].

---

(١)بحار الأنوار: ج٤٥ ص١٨٨ - ١٨٩ وروى الطبري: ج٣ ص٣٤٢ انها «خرجت ومعها نساؤها وهي حاسرة تلوي بثوبها وهي تقول:

ماذا تقولون ان قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم

وراجع الكامل في التاريخ: ج٣ص٤٤١.

**تأجيج مشاعر الحزن والنقمة**

ولا شك أن أسماء قد أججت مشاعر الحزن على الحسين وأصحابه ومشاعر النقمة على الحكام الأمويين وأعوانهم، ولا شك أنها قد جعلت الناس تستعيد كل ما ورد بحقه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وترى أنها قد ارتكبت خطأ عظيما بتخليها عنه وتسليمه ليزيد يفعل به تلك الفعلة المقيتة...

**تبريرات وتلفيقات لاخفاء الجريمة**

وكانت حملة (التبريرات) والتنصل من مسؤولية الجريمة، المضادة لحملة الاحتجاجات والشجب والاستنكار الصادرة من قبل الامة، قد أريد منها امتصاص الغضب من ذلك العمل الشائن والصاقه بشرذمة قليلة من أهل الكوفة، وتجريد يزيد من مسؤولية ذلك تماما حرصا على ان لا يقوم أحد بلعنه فيشمل ذلك أباه معاوية الذي يحرصون أشد الحرص على تجنيبه ذلك مع أنه كان أول من لجأ إلى أسلوب اللعن هذا بحق أميرالمؤمنين وفاطمة والحسن والحسين وشجع عليه ونظم لذلك حملة مدروسة استمرت في عهده وبعد ذلك لأكثر من نصف قرن..«و قد تأول عليه من قتله، انه جاء ليفرق كلمة المسلمين بعد اجتماعها.وليخلع من بايعه الناس واجتمعوا عليه.وقد ورد في صحيح مسلم الحديث بالزجر عن ذلك والتحذير منه والتوعد عليه، وبتقدير أن تكون طائفة من الجهلة قد تأولوا عليه وقتلوه، ولم يكن لهم قتلة.

فاذا ذمت طائفة من الجبارين، تذم الأمة كلها بكاملها وتتهم على نبيها صلى الله عليه وآله...! فليس الأمر كما ذهبوا اليه ولا كما سلكوه، بل أكثر الأئمة قديما وحديثا كاره ما وقع من قتله وقتل أصحابه، سوى شرذمة قليلة من أهل الكوفة قبحهم الله، وأكثرهم كانوا قد كاتبوه ليتوصلوا إلى أغراضهم ومقاصدهم الفاسدة...

فلما علم ذلك ابن زياد منهم بلغه ما يريدون من الدنيا، وأخذهم على ذل وحملهم عليه بالرغبة والرهبة فانكفوا عن الحسين وخذلوه ثم قتلوه، وليس كل ذلك الجيش كان راضيا بما وقع من قتله، بل ولا يزيد بن معاوية رضى بذلك، والله أعلم، ولا كرهه..

والذي يكاد يغلب على الظن أن يزيد لو قدر عليه قبل أن يقتل لعفا عنه، كما أوصاه بذلك أبوه، وكما صرح هو به مخبرا عن نفسه بذلك...وقد لعن ابن زياد على فعله وشتمه فيما يظهر ويبدو،و لكن لم يعزله على ذلك ولا عاقبه، ولا أرسل يعيب عليه ذلك، والله أعلم»[١]...ولا ندري لماذا لم يفعل ذلك مادام قد لعنه وشتمه...؟ ولا ندري لماذا غابت عن ذاكرة ابن كثير ما رواه هو لنا عن سروره برؤية رأس الحسين وانشاده الأشعار التي دلت على خروجه الصريح عن الإسلام وعدم اعترافه به.

ويبدو أن ردود فعل قوية تولدت من حملة شجب قتل الحسين وأصحابه بتلك الطريقة المروعة وامتد أثرها حتى في نفوس الحكام الأمويين أنفسهم، حتى لقد «كتب عبدالملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: جنبني دماء أهل هذا البيت، فإني رأيت بني حرب سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين...»[٢].

وقد أصبح يزيد بفعلته تلك مثال الإنسان المأفون المتهور غير المتبصر وغير العاقل،

(١) ابن كثير: البداية والنهاية: ج٨ ص٢٠٣ - ٢٠٤.
فقد ذكر لنا ابن كثير نفسه عن ابن عساكر في ترجمته ريا حاضنة يزيد بن معاوية: «ان يزيد حين وضع رأس الحسين بين يديه تمثل بقول ابن الزبعرى يعني قوله:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل..»

البداية والنهاية: ج٨ص ٢٠٦.
ومن المرجح انه لم يعلن استنكاره لعمل ابن زياد، والذي كان هو وأبوه السبب الأول والمباشر له الا بعد ازدياد النقمة الشعبية عليه وتحميله مسؤولية قتل الامام الحسين عليه السلام وكما قال الحافظ جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء: ص ١٩٤ «و لما قتل الحسين وبنو أبيه بعث ابن زياد برؤوسهم إلى يزيد فسر بقتلهم أولا، ثم ندم المسلمون على ذلك، وأبغضه الناس، وحق لهم أن يبغضوه..».
(٢) العقد الفريد: ج٥ ص١٢٦.

وحتى بنظر الحكام الأمويين أنفسهم الذين تنصلوا من فعلته، ربما ليتقربوا بذلك من الأمة..وقد خطب عبدالملك بن مروان هذا نفسه في أهل الشام بعيد استتباب الأمور لصالحه قائلا: «..أيها الناس، اني والله ما أنا بالخليفة المستضعف، يريد عثمان بن عفان، ولا بالخليفة المداهن، يريد معاوية بن أبي سفيان، ولا بالخليفة المأفون، يريد يزيد بن معاوية...»[١].

ووصل الأمر بأحد خلفاء بني أمية وأكثرهم عدالة ونصيحة للمسلمين أن أمر بضرب أحد الناس لأنه قال: «أمير المؤمنين يزيد بن معاوية»[٢].

**ثورة الحسين عليه السلام حضور دائم في الأذهان**

أحدثت ثورة الحسين هزة عنيفة جعلت الأمة الإسلامية تنتبه من رقدتها وتفكر بعواقب استسلامها لحكام الانحراف والجور وتبحث عن مخرج من الورطة التي رأت نفسها فيها وقد فقدت كل المكاسب التي حققتها في ظل الإسلام.ولعل ما شهدته من خوارق وعجائب حدثت أثر واقعة الطف[٣].وما حدث لأولئك الذين شاركوا بجريمة قتل الحسين وأصحابه «...فانه قل من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة وعاهة في الدنيا، فلم يخرج منها حتى أصيب بمرض، وأكثرهم أصابهم الجنون[٤] كان من آثار تلك الهزة التي صعقت الأمة عندما أدركت أنها بتخليها عن نصرة الحسين قد تخلت عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله ونصرة الإسلام...وانها قد أتاحت الفرصة ليزيد ومن سيأتي بعده للمزيد من العبث والاستبداد واللعب بمقدراتها.وهكذا شهدت على مر تاريخها

(١) العقد الفريد: ج٥ ص١٤١.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص١٩٤.
(٣) تحدثت كتب التاريخ دون استثناء عن الخوارق غير المألوفة التي حدثت بعيد واقعة الطف. ولعل هذا الأمر جدير بدراسة كاملة.
(٤) البداية والنهاية: ج٨ ص٢٠٣.

صحوة دائمية جعلتها تنتبه بحذر إلى تصرفات حكام الانحراف وترصدها وتنقدها وتسعى لتقويمهم أو استبدالهم.

# ثورة المدينة وواقعة الحرة

## ثورة المدينة وواقعة الحرة

### حاضرة المسلمين الأولى

كانت المدينة المنورة - مسقط رأس الحسين - إلى عهد قصير من هذه الأحداث، وقبل أن ينتقل منها أمير المؤمنين إلى الكوفة، عاصمة الدولة الإسلامية وحاضرتها الأولى التي كانت قد احتضنت رسول الله ﷺ واستجابت له ودعته للهجرة اليها، وجعل أهلها أنفسهم أنصارا له وأخوة للمسلمين المهاجرين معه، آخاهم رسول الله ﷺ وألف الله بين قلوبهم[1]. حتى أصبحت قريش العاتية المتغطرسة تحسب لها ألف حساب وهي تعد قوتها الكبيرة لمواجهتهم أو شن الحرب عليهم، حتى خابت في النهاية بعد كل جهودها ومناوراتها ودسائسها.

ولم تكن المدينة المنورة، قرية أو مدينة بعيدة في أقصى مكان من هذه الدولة، لا تعرف عن الإسلام شيئا، بل كان أهلها قد عاشوا مع الرسول ﷺ واختلطوا به وراقبوا سيرته وعاشوا دقائقها وتفصيلاتها، بعد أن عاش بينهم بقية حياته الحافلة بعطاء الرسالة وأنسام الوحي الأمين وهو يحمل رسالة الله اليه ليبلغها إلى الناس كافة عن طريق المؤمنين من المهاجرين والأنصار الذين التفوا حوله تغمرهم أطيابه وتعطرهم أنفاسه.

---

(١) قال ابن اسحاق: «...وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال:...«**تآخوا في الله أخوين أخوين**، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: **هذا أخي**، فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين، وامام المتقين، ورسول رب العالمين، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين..» - ابن هشام السيرة النبوية: ج١ ص٥٠٤.

وقد شهدت الدولة الإسلامية أدوار نموها ونهوضها واكتمالها في هذه المدينة المباركة التي أسماها رسول الله ﷺ (طيبة) بعد أن نورها بطلعته وطيبها بريحه وعبق الأنفاس المباركة، كما عاشت المراحل اللاحقة التي انتهت تلك النهاية المأساوية الأليمة، حينما رأت أعداد من المسلمين أن الخليفة الثالث لم يعد يستجيب لما كان ينبغي أن يستجيب له ولم يكن بنظرهم الممثل الحقيقي للخلافة، وانه آثر أقرباءه وبعض الشباب العابثين، من الذين سبق أن ناصبوا – هم وآباؤهم – رسول الله ﷺ العداوة وتربصوا به الدوائر وكانوا ملعونين منبوذين مطرودين أيام حكومته وبعد ذلك أيضا، وقد تمادى هؤلاء –في ظل قريبهم الخليفة الشيخ – الذي التزمهم ولم يسمع فيهم قول قائل، في سلوكهم المنحرف وابتعادهم المتعمد عن الإسلام بل حتى عن بعض الممارسات المظهرية التي كان ينبغي أن يكونوا هم أول المتمسكين، أو المتظاهرين بها على الأقل لتحسين صورهم بنظر أبناء الأمة، بحكم مراكزهم عمالا وولاة وقادة للأقاليم الإسلامية.

**الفتنة دمرت المدينة**

وانتهى الأمر بأن قتل الخليفة الشيخ تلك القتلة التي جرت الوبال والمصائب على المسلمين – كما ذكرنا – ومهدت لقيام دولة معاوية وآل مروان بعد ذلك.

وقد حفلت حاضرة الدولة الإسلامية هذه بقوى وأحزاب عديدة، كانت النزعة القرشية الأرستقراطية المتعالية تجمع أغلبها تحت وطأة شعورها بالتفوق على بقية الناس من العرب وغيرهم بالنسب والمال الموروث والمكتسب في ظل عثمان.

لقد شعرت قريش أن عليها أن توحد صفوفها وقواها وأن تكون حزبا يكون ولاؤه لقريش نفسها – تحت شعار العروبة – ثم للإسلام ظاهريا، ولم ترَ ضيراً في ذلك، بل رأت أنه أمر ضروري مادام يضمن لها السيطرة على مقدرات الأمة وعدم خروج

الأمر من يدها، وكانت لها أعذار وحجج ووسائل عديدة لتحقيق ذلك.

**قريش والأحزاب**

وكانت سياسة العدل والمساواة الصارمة التي أخذ بها أمير المؤمنين عليه السلام نفسه والأمة الإسلامية، مضافا اليها شعور قريش بسيطرة ذلك الذي أرادت أن تبعده عن الخلافة والحكم قبل اليوم بحجة عدم الرغبة بجعل النبوة والخلافة في ذلك الفرع من قريش الذي ينتمي اليه الرسول صلى الله عليه وآله وأخوه علي بن أبي طالب عليه السلام(١)، قد جعلت من هذا الحزب القرشي غير المعلن والمشدود بولاء وعهد غير مكتوب للأرستقراطية والامتيازات القرشية الهائلة في مقدمة المتصدين لأمير المؤمنين عليه السلام متذرعا بمختلف الحجج وسالكا مختلف الأساليب التي لا تمت للإسلام بصلة.

وإذا ما كانت النزعات الخاصة والمنافع الشخصية تجعل هؤلاء القرشيين يختلفون مع بعضهم أحيانا، فانهم رأوا أن من مصلحتهم أن يتحدوا ضد أمير المؤمنين ويشنوا الحرب عليه، وهذا ما فعلوه منذ اليوم الأول الذي تولى فيه مسؤولية خلافة الأمة الإسلامية.

لقد فعلت قريش مع علي عليه السلام ما لم تجرؤ على القيام به مع محمد صلى الله عليه وآله بعد أن استتبت له الأمور، مع أنها شنت الحرب عليهما معا بطرق وأساليب متعددة.انحنت لرسول الله صلى الله عليه وآله ولعاصفة الإسلام القوية الجارفة بعد أن أقبل الناس عليه دون تحفظ وبعد أن أيده الله بعنايته وعصمه من الناس، لم يجدوا ثغرة ينفذون منها اليه، فهو الرسول المسدد المؤيد من الله، زحفت اليه قريش في نهاية المطاف بعد أن التف جميع الناس حوله وأعلن

---

(١) قال ابن عباس: «ما شيت عمر بن الخطاب يوما، فقال لي: يابن عباس، ما يمنع قومكم منكم وانتم أهل النبي خاصة؟ قلت: لا أدري.قال: لكني أدري.انكم فضلتموهم بالنبوة فقالوا: ان فضلوا بالخلافة مع النبوة لم يبقوا لنا شيئا، وان أفضل النصيبين بأيديكم، بل ما أخالها الا مجتمعة لكم، وان نزلت على رغم انف قريش...» العقد الفريد: ج٥ ص ٣٠ - ٣١.

إسلامه حتى من لم يكن راغبا في ذلك في قرارة نفسه متحفظا متحرزا خائفا.

واذ أن أميرالمؤمنين قد اسْتُبْعِدَ منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة وأقصِيَ عن مركز المسؤولية المباشرة، فإن ذلك أصبح حجة يتاح لهم رفعها كل حين للمقارنة بينه وبين الآخرين ممن تولوا زمام مسؤولية الحكم، وبين الآخرين الذين لم يتولوا المسؤولية وكانوا يطمحون إلى ذلك.رأوا أنهم أصبحوا الآن في عهد أميرالمؤمنين قادرين على التخلي عن التحفظات والمخاوف بشأن التمسك بمنهج الإسلام الصائب في الحكم والحياة، وأعلنوا -بعد الفرصة التي منحها لهم أميرالمؤمنين حول حرية الاقامة، منهياً بذلك حظرا طويل الأمد من قبل الخلفاء السابقين- عداوتهم الصريحة له، وذهبوا إلى حد شن الحرب عليه منذ اللحظة الأولى التي استلم فيها مسؤولية الحكم المباشر بعد أن رفض مساومتهم واشراكهم في تلك المسؤولية التي سعوا اليها بأنفسهم.

وقد شعر عليه السلام أنه لا يستطيع بذلك الجو المشحون بالعداوة والكراهية والتحزب والذي اتحد فيه كل أعدائه - حتى أولئك الذين كانوا أعداء لبعضهم - وأعلنوا وقوفهم ضده بحجج ظالمة ما كان لها أن تصمد لو لم تجد لها بعض الآذان الصاغية، وكانت مقدمة حقدهم حرب الجمل، شعر أنه لا يستطيع أن يؤدي رسالته لاعادة الأمة إلى منهج الإسلام الصافي الصحيح ويربي أجيالا منها على خطه الواضح دون التعرض للأحزاب التي شنت الحرب عليه والتي أخذت تستجمع قواها ثانية لجولات جديدة معلنة وغير معلنة.

**اميرالمؤمنين: بعيداً عن المدينة إلى الكوفة لتربية الطليعة العقائدية**

وهكذا غادر المدينة إلى الكوفة ليتخذ منها حاضرة جديدة للدولة الإسلامية، وكان يريد أن يعد طليعة عقائدية من أهل العراق وأهل الكوفة بالذات، وهي مقر

المعسكر المتقدم للمسلمين، وهو المقر الذي نزحت اليه طلائع جند المسلمين منذ معركة القادسية واستقرت فيه مع أبنائها وعوائلها فلم تعش منذ البداية حياة قريش المتحزبة ذات المصالح والأهواء وكانت بعيدة عن عوامل الصراع والاختلاف والفرقة، وكانت تتطلع لمن يقودها لتحقيق المزيد من المكاسب للاسلام.وقد مالت جماعات كثيرة من أهل الكوفة إلى صفه ضد معاوية وحزبه والأحزاب المنظمّة اليه، وتبنت توجهاته لتكوين المجتمع المسلم على نفس الأسس الصحيحة الأولى التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وآله.

**الكوفة اقبال على أميرالمؤمنين عليه السلام**

ولعل اقبال هذه الفئات الكبيرة من العراقيين على أميرالمؤمنين وتفهمها مواقفه وقناعتها بتوجهاته الصحيحة مقابل ما شعروا به وشهدوه من انحراف وخلل سابق أثر على حياتهم وعلى حياة الأمة الإسلامية كلها، ولا يزالون يعانون منه ويشهدون آثاره، ومنها بروز معاوية والطبقات الطفيلية الجديدة كأثر واضح ونتيجة واقعة لذلك الانحراف، وشعورهم بضرورة القضاء على هذه الطبقة العدوة التي تكاد تستأثر بكل شيء، جعلت أعداء أميرالمؤمنين يركزون على الكوفة ويستهدفونها بالشر والأذى ويسعون لتفتيتها وتمزيق مجتمعها الذي صوروه للآخرين وخصوصا لأهل الشام بأنه شيعة خاصة لعلي خاصة يتبنون مواقفه وأطروحاته ويعرضون عن كل موقف آخر خاص بالخلفاء السابقين، ومن هنا جاءت حملتهم الأخرى المقصودة لحث الأمة على اعتبار مواقف الشيخين أو الخليفتين الأولين سنة، حتى ان ممثلهم دعا أمير المؤمنين للسير بسيرتهما في أعقاب الشورى التي عقدها عمر، ومن هنا كانت حملة معاوية المقصودة لحث الناس على الرواية بفضائل الخلفاء السابقين واغداقه الأموال على كل من يفعل ذلك مقابل حملته الأخرى استهداف أمير المؤمنين بالسباب من على المنابر والحملة الثالثة لوضع الأحداث بفضله هو وفضل آل أبي سفيان.

واذ أن معاوية صور الأمر وكأن أهل الكوفة انحازوا للامام علي وأصبحوا شيعة له لأسباب سياسية أو عاطفية أو نفسية بحتة لا لأسباب عقائدية، فانه جعل من أهل الكوفة الذين حاربوه تحت لواء الامام بالفعل هدفا لتحركاته وركز جهوده على اسكات كل صوت معارض له فيها..وهكذا رأينا حملة القمع الدموية الرهيبة التي قام بها والتي تولاها أشد قواده دموية وعسفا، زياد ابن أبيه، وقد ظلت الكوفة مستهدفة بالشر والأذى والمحاولات الدؤوبة للتفتيت والتمزق طيلة العهود الأموية وغيرها.

**معاوية استهدف الكوفة لكي تتحول عن الخط العلوي**

لقد علم معاوية أن من انحاز اليه لم يكن يفعل ذلك الا لكي يحصل على بعض المكاسب المادية وان أولئك الذين اقتنعوا به لم يجدوا الا سببا واحدا طرحه عليهم وهو المطالبة بدم عثمان أو تسليم قاتليه، ولا أحد يستطيع القول ان معاوية قد جعل الكثيرين ينحازون اليه لأنه كان يمثل الاتجاه الصحيح في الإسلام وانه كان الممثل الحقيقي لرسول الله ﷺ، كما أنه يدرك أنه لولا موقعه من أهل الشام واقتناعهم به لما استطاع أن يصمد في دعاواه وفي حروبه التي شنها على المسلمين وخليفتهم الشرعي أمير المؤمنين عليه السلام، وقد حاول أن يضفي على تصرفاته طابعا مسؤولا أمام أنصاره ومؤيديه بتصوير بقية الناس ممن يتابعون أمير المؤمنين ولا يخرجون عن طاعته أو حكومته انهم طائفة جديدة من الشيعة يختصون بعلي دون الرسول ﷺ ويسيرون وراءه دون بصيرة أو وعي ودون قضية عادلة.

وعبقرية معاوية في الشر ودأبه المستمر وحرصه على النيل من أمير المؤمنين وبقية المسلمين الذين يشايعونه ويرون في حكمه النمط الشرعي الصحيح، جعله ينجح في محاولاته تلك - وخصوصا مع أهل الشام إلى حد بعيد - فتتسع النظرة الخاطئة لأولئك الذين كانوا جنودا خلف الامام في كل معاركه إلى أن استشهد بعد مدة قصيرة من حكمه لم تصل إلى خمس سنوات، وتركهم دون أن يكمل مشواره معهم ويحقق

أمنيته في الدولة الإسلامية المنشودة والقائمة على خط الرسول صلى الله عليه وآله، في مهب التيارات والأحزاب والعواصف ومعاوية الذي انفرد بالحكم والسلطة المطلقة غير المقيدة الا بقانون مصالحه ورغباته وامتيازاته.

ورغم موقف معاوية وقرشيي المدينة وأعوانهم من أميرالمؤمنين، الا أن بقية المسلمين ظلت تنظر اليه والى آله عليهم السلام تلك النظرة التي تحفظ له مكانته، ولم يستطع حتى أعداؤه، رغم كل محاولاتهم للنيل منه سوى الادعاء بأنه تساهل مع قتلة عثمان، وربما ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فادعوا أمام أهل الشام أنه قد حرضهم على القتل، وهذا امر لم تسغه الامة ولم تقبله، سخفت من القائلين به لعلمها بموقف امير المؤمنين من عثمان، كما ذكرنا في هذا الكتاب.نقل عن ابن سيرين قوله: «ما علمت أن عليا اتهم في دم عثمان حتى بويع، فلما بويع اتهمه الناس»[1] ممن أضمروا له العداوة وحرصوا على ألا يتولى مسؤولية الحكم المباشرة.

وكان هذا هو واقع الحال الذي ذكرته لنا كتب التاريخ مجتمعة.

**ميل الناس للحسين عليه السلام**

وبعيد صلح الامام الحسن ومعاوية على الشروط التي اتفقا عليها ونكل عنها معاوية بعد ذلك، عاد الامام الحسن مع أخيه الحسين إلى المدينة ليعيشا فيها حياة حافلة، حيث تحلق حولهما آلاف من طلاب العلم ومنهم صحابة معروفون لكسب المزيد من العلم الالهي من مصدره الأصيل، آل البيت عليهم السلام، وبعد وفاة الحسن عليه السلام كان الحسين هو المصدر الأول لهذا العلم، والأمل الوحيد المتبقي أمام الأمة لانقاذها من الانحراف الأموي والورطة الكبيرة التي وجدت نفسها فيها...وكان «الناس انما ميلهم إلى الحسين، لأنه السيد الكبير، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فليس على وجه الأرض يومئذ

(١) العقد الفريد: ج٥ ص ٥٢.

أحد يساميه ولا يساويه، ولكن الدولة اليزيدية كانت كلها تناوئه»[١].

وقد رأينا كيف عملت هذه الدولة على قتله وقتل أصحابه تلك القتلة المأساوية، حاسبة أنها بذلك تستطيع القضاء على معارضة الأمة لها إلى الأبد بعد أن أسكتت الصوت الوحيد الذي ارتفع ضدها.

**يزيد قتل الحسين عليه السلام فأجج المعارضة ضده**

غير أن هذه المعارضة التي حسب يزيد أنه سيقضي عليها بقتل الحسين وأصحابه، قد ازدادت عنفا واتساعا وكانت لها مظاهر متعددة كما ذكرنا في هذا الفصل، على أن أهم شكل منظم لهذه المعارضة اتخذ صيغة الثورة الشعبية تمثل بثورة المدينة والكوفة ووقوف الناس في مكة موقفا معاديا ليزيد ودولته، وان كان ابن الزبير قد أراد استثمار ثورة مكة لصالحه.

وربما كان الثوار والرافضون عموما قد ندموا على موقفهم السابق من ثورة الحسين وتخليهم عنه، حتى انهم - في الكوفة - ذهبوا إلى حد تسمية أنفسهم بالتوابين.

وكما سبق أن قلنا، فان المدينة لم تكن بعيدة عن مواقع الأحداث ومعرفة أسبابها، ولم تكن مكانا نائيا مهملا لا أثر له في حياة المسلمين، وانما كانت احدى حواضر الإسلام المهمة ولا تزال تحتفظ بالعديد من آثار الرسول صلى الله عليه وآله، وفيها قبره ومسجده ولا يزال فيها العديدون من آله وصحابته من المهاجرين والأنصار، ولم تزل تتمتع بقدسيتها ومكانتها لدى المسلمين، ومن هنا يأتي تأثيرها على بقية المسلمين..فهي إذا ما وقفت موقفا مناهضا ليزيد، فلابد أنها ستحرك الناس في كل مكان ضده.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٥٤.

**ثاروا بعد أن أدركوا أبعاد الانحراف**

ولم يكن خروجها على سلطة يزيد مجرد رغبة أو نزوة في نفوس أشخاص معينين ذوي تأثير محدود على الآخرين، قاموا بثورتهم دون تحديد هدف لها كما حاول البعض تصوير ذلك، وكما فعلوه بشأن ثورة الحسين عليه السلام نفسها قبل ذلك في محاولة لتشويهها وتشويه أهدافها.

لقد كانت الأسباب التي دعت أهل المدينة للثورة على يزيد واخراج عامله وبني أمية منها- مع أن تلك الثورة جاءت متأخرة وفي وقت وجد النظام فيه أنه يستطيع اللجوء إلى أقصى الأساليب شدة ودموية - هي نفس الأسباب التي دعت الامام الحسين عليه السلام للثورة عليه ورفضه.

وقد كان قتل الحسين نفسه أحد الأسباب المضافة التي عززت ثقة أهل المدينة بموقفهم وتصميمهم على الثورة..وجعلتهم يدركون ضرورة ثورتهم بوجه الدولة الأموية التي أسفرت عن انحرافها وظلمها وخروجها المتعمد اللامبالي عن الإسلام، «...لما شمل الناس جور يزيد وعماله، وعمهم ظلمه، وما ظهر من فسقه، من قتله ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وأنصاره، وما أظهر من شرب الخمور، وسيره سيرة فرعون، بل كان فرعون أعدل منه في رعيته، وأنصف منه لخاصته وعامته، أخرج أهل المدينة عامله عليهم، وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وسائر بني أمية...»[1].

لقد فعل يزيد ما توقع الامام الحسين عليه السلام أن يفعله، فقد كان يرى فيه النتاج الكامل للانحراف، ولابد أن يفعل ما يفعله بل ويتمادى في انحرافه وشذوذه لأبعد إذا ما تولى قيادة الأمة الإسلامية..وقد دعا الأمة إلى الموقف الذي وقفته متأخرة بعد ذلك، وكانت استجابتها له ضعيفة تحت وطأة وجودها القريب في ظل معاوية وتأثرها به وبألاعيبه

(١) مروج الذهب: ج٣ ص٨٣-٨٤.

ومناوراته.

لقد أضيفت إلى الأسباب التي حذر الامام الحسين الأمة منها، أسباب أخرى منها قتله هو نفسه عليه السلام مما شكل نهاية التمادي بانتهاك كل مقدس لدى هذه الأمة وان كان الإسلام نفسه أو آل الرسول صلى الله عليه وآله (فقد انتهت محنة الحسين إلى الحجاز، فكانت صدمة لأهله وللصالحين منهم خاصة، وجعل الناس يتحدثون بها، فيكثرون الحديث، وجعلوا يعظمون أمرها.ما أكثر ما تحدثت قلوبهم اليهم، وما أكثر ما تحدث بعضهم إلى بعض حين كانوا يخلون، بأن سلطان يزيد قد أمعن في الخلاف عن أمر الله، فلم تصبح طاعته لازمة، بل أصبح الخروج عليه واجبا حين يمكن الخروج عليه..)[(١)].

**الأشدق يحرض يزيد على زينب**

ولا ننسى بهذا الخصوص جو الحزن الذي ساد المدينة اثر وصول خبر استشهاد الحسين وأصحابه، وموقف زينب التحريضي ضد السلطة التي حسبت أنها ستجد أناسا مقهورين مغلوبين حزانى، ولم تعتقد أن الأمر يمكن أن يصل إلى حد الثورة فيما بعد.

وقد شعر عمرو بن سعيد الأشدق بخطر تحركها وتحريضها أهل المدينة على يزيد وحكمه فكتب إلى يزيد يحذره من ذلك قائلا: «ان وجودها بين أهل المدينة مهيج للخواطر، وانها فصيحة، عاقلة، لبيبة، وقد عزمت هي ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين، فأتاه كتاب يزيد بأن يفرق بينها وبين الناس»[(٢)].

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى: ج٢ ص٢٤٦.

(٢) جعفر النقدي: زينب الكبرى: ط النجف الأشرف:ص ١٢٠- ١٢٢ نقلا عن العبيدلي في (أخبار الزينبات) - راجع ثورة الحسين محمد مهدي شمس الدين - دار التعارف للمطبوعات، بيروت- لبنان: ط ٦/ ١٤٠١ - ١٩٨١ م، وراجع الانتفاضات الشيعية: هاشم معروف الحسيني: ص ٢٦٩ - دار الكتب الشيعية، بيروت- لبنان ط١-٤٢١.

ولم يكن الجيل الذي ثار على يزيد في المدينة، جيلا منقطعا عن عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أو بعيد العهد به، ويكفينا عندما نذكر كم قتل من المهاجرين والأنصار في واقعة الحرة، دلالة.

## عودة الوعي

على أن أعدادا كبيرة من الأمة ممن لها وزن وثقل كبير فيها قد رفضت حالة الاستسلام التي ركنت اليها في السابق وعادت إلى حالة صحو ندمت فيها على تقاعسها عن الالتحاق بالحسين عليه السلام ورفض بيعة يزيد التي سيقوا اليها بالاكراه. فقد كان «من قتل يوم الحرة من الأنصار وقريش ثلاثمئة رجل وستة رجال من الموالي وغيرهم أضعاف هؤلاء...»[1]، فهي ثورة شيعية او ليست ثورة عبيد ورعاع أو أناس دون هدف أو وعي أو ارادة، كما حاولوا تصويرها وتصوير الثورات الأخرى اللاحقة ضد يزيد وغيره من الحكام الأمويين، كما أنها لم تتم في وقت أحست فيه الأمة بضعف يزيد، بل على العكس من ذلك، حيث كان يزيد يبدو في قمة ازدهاره وقوته، وكان يعتقد أنه قد أحرز نصرا مبينا على الحسين عليه السلام، وكان يبدي استعداده حينما أقدم على تلك المجزرة المروعة في الطف، على استئصال أو قمع أية شخصية أو فئة تقف موقفا معارضا له ولحكمه، ولم يتورع عن وصية قائده لقمع ثورة المدينة مسلم بن عقبة المري لاستعمال أشد الأساليب دموية وفتكاً، وكانت حصة بني هاشم وبني ابي طالب وقريش من هذه المقتلة عظيمة جدا «..فمن قتل من آل أبي طالب جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب، ومن بني هاشم من غير آل أبي طالب الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، وحمزة بن عبدالله بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب والعباس بن عتبة بن أبي لهب بن

(١) العقد الفريد: ج٥ ص ١٣٠ وذكر ابن كثير في تاريخه نقلا عن الزهري قوله: «أن القتلى يوم الحرة بلغوا سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ووجوه الموالي وممن لا أعرف من حر وعبد وغيرهم عشرة آلاف» هامش الكامل في التاريخ: ج٣ص٤٦٢ «وقتل يوم الحرة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ثمانون، ولم يبق بعد ذلك بدري» كتاب المحن: ج١ ص١٥٨، راجع معالم الفتن ج٢ص٣١٧.

عبدالمطلب وبضع وتسعون رجلاً من سائر قريش ومثلهم من الأنصار وأربعة آلاف من سائر الناس ممن أدركه الاحصاء دون من لم يعرف»[١].

**انفجار الموقف بعد أن عرف وفد المدينة حقيقة يزيد**

وقد انفجر الموقف عندما بعث عثمان بن محمد بن أبي سفيان وفدا من أهل المدينة إلى الشام، فيهم عبدالله بن حنظلة الغسيل الأنصاري وعبدالله بن أبي عمرو بن حفص ابن المغيرة المخزومي والمنذر بن الزبير ورجالا كثيرين من أشراف أهل المدينة، فقدموا على يزيد بن معاوية.

**محاولات يزيد لرشوة وفد المدينة**

وقد حاول يزيد رشوتهم وأعطاهم أموالا طائلة، وقد فعل ذلك بدافع شعوره بازدياد النقمة الشعبية عليه مما قد يؤدي إلى أن يتحول الموقف لغير صالحه..«فلما قدم أولئك النفر الوفد المدينة قاموا فيهم فأظهروا شتم يزيد وعتبة وقالوا: إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الخراب- وهم اللصوص- والفتيان وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه فتابعهم الناس»[٢].

وقال عبدالله بن حنظلة بن أبي عامر «وكان شريفاً فاضلاً سيداً عابداً معه ثمانية بنين له فأعطاه مائة ألف درهم وأعطى بنيه لكل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم فلما قدم المدينة عبدالله بن حنظلة أتاه الناس فقالوا ما وراءك قال جئتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلا بني هؤلاء لجاهدته بهم قالوا: قد بلغنا

(١) مروج الذهب:ج٣ ص٨٤ – ٨٥.

(٢)الطبري: ج٣ص٣٥٠، والكامل في التاريخ: ج٤ ص٤٥٠ وأخرج الواقدي من طرق انه عبدالله بن حنظلة.

أنه أجداك وأعطاك وأكرمك قال قد فعل وما قبلت منه إلا لأتقوى به وحضض الناس فبايعوه»(١). وقال المنذر بن الزبير: «إن يزيد والله لقد أجازني بمائة الف درهم وإنه لا يمنعني ما صنع إلي أن أخبركم خبره وأصدقكم عنه، والله إنه ليشرب الخمر، وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة وعابه بمثل ما عابه به أصحابه الذين كانوا معه وأشد»(٢).

وبعث يزيد النعمان بن بشير إلى المدينة في محاولة منه لتهدئة الأوضاع هناك، وقد هددهم النعمان بأهل الشام قائلا: «انه لا طاقة لكم بأهل الشام»(٣) وهو تلويح لابد أن يكون له أثره لأن تجربة المدينة معهم لم تكن مما تسرُّ لها، فقد أرسل معاوية اليهم سنة أربعين بسر بن أبي أرطأة فدخل المدينة وطارد الصحابة وأجبرهم على مبايعة معاوية وكاد أن يفتك بهم، وقد فعل بسر الأعاجيب ولم ير لمدينة رسول الله ولا لمنبره أو مسجده حرمة، وفي عام اثنين وأربعين عندما استتبت الأمور لصالح معاوية بعد استشهاد أميرالمؤمنين أرسل بسر إلى المدينة ثانية من محاولة منه للانتقام من أهلها وقد «أقام بسر بن أبي أرطاة بالمدينة شهرا يستعرض الناس ليس أحد ممن يقال: هذا أعان على عثمان إلا قتله»(٤).

**المدينة نقمة متراكمة على النظام الأموي**

لقد أقدمت المدينة على خلع يزيد بفعل نقمتها المتراكمة على النظام الأموي وعليه خاصة لتماديه في سلوكه الشائن المعلن، وعدم بذله حتى جهودا بسيطة للتستر على ممارساته اللاأخلاقية.

---

(١) الطبري: ج٣ص٣٥٩.
(٢) الطبري: ج٣ص٣٥٠-٣٥١.
(٣)الطبري: ج٣ص٣٥١ - السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص١٩٥.
(٤)الطبري: ج٣ص١٧٥.

### لا عذر في السكوت عن يزيد ودولته المنحرفة

لم يجد أهل المدينة عذرا للسكوت عن ذلك، حتى انهم -على حد تعبير عبدالله بن حنظلة الغسيل- خافوا أن يرموا بالحجارة من السماء ان هم سكتوا أكثر من ذلك. لم يكن سكوتهم عن يزيد بدافع من توقعهم أنه قد يحسن سلوكه في المستقبل ويكون على مستوى مسؤوليته كقائد للدولة الإسلامية، بل كان ذلك لأنهم لم يجدوا في أنفسهم القدرة على مواجهته ورفضه، وكانت نتيجة ذلك أنه تمادى في استهتاره إلى أبعد حد فأقدم على قتل الحسين وأصحابه وقطع رؤوسهم ومثل بجثثهم، في سابقة لم تعرف في الإسلام من قبل.

وكان استمرار يزيد وعماله وأتباعه وحاشيته على انتهاج ذلك السلوك المشين، أكبر حجة على هذه الأمة، تدينها، وتجعلها تدرك حقا انها قد أخطأت خطأ لا سبيل إلى اصلاحه الا بإزالة يزيد.

لم تكن المدينة – رغم وجود الأحزاب فيها – تنظر إلى الإسلام كما ينظر اليه أهل الشام، ولم يكن شعور أهلها بالمسؤولية تجاه ما يحدث أمامهم، كشعور أولئك الذين أرادهم معاوية أن يكونوا كيزيد بل وأسوأ منه.

لقد استدركت المدينة أمرها فوثب أهلها على «عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومن بالمدينة من بني أمية ومواليهم ومن رأى رأيهم من قريش فكانوا نحوا من ألف رجل فخرجوا بجماعتهم حتى نزلوا دار مروان بن الحكم فحاصرهم الناس فيها حصارا ضعيفا»[1].

ومن هذا نعلم أن المدينة لم تكن غاضبة من يزيد وحده، وانما كانت منزعجة من

---

(١) الطبري: ج٣ص٣٥٢.

هذا التيار الأموي الجامح الذي أخذ يشتد ويقوى على حساب المسلمين ومكتسباتهم التي تحققت في ظلال الإسلام.

وقد أرسل بنوأمية -الذين كان يوجههم مروان وابنه عبد الملك- كتابا إلى يزيد يستغيثون به فيه، وحدد عبد الملك موعدا لحامل الكتاب يلقاه فيه في مكان معين إذا ما عاد بجواب الرسالة التي جاء فيها، «أما بعد فإنه قد حصرنا في دار مروان بن الحكم ومنعنا العذب ورمينا بالجبوب فياغوثاه يا غوثاه»(١).

وقد أخبر رسول مروان وابنه، يزيد بأن الناس كلهم أجمعوا على بني أمية، «فلم يكن لهم بجمع الناس طاقة..»(٢).

**عمرو بن سعيد وعبيد الله بن زياد: لا طاقة لنا بغزو المدينة**

وتلفت أنظارنا هنا ظاهرة مهمة وهي: عدم قبول عمرو بن سعيد، والي الدولة السابق على الحجاز، وعبيد الله بن زياد والي العراق، بغزو المدينة ومكة بعد ذلك واعتذارهما ليزيد عندما كلفهما بذلك(٣)، ولعلهما حسبا أنهما سيجازفان إذا ما قبلا تلك المهمة، وربما حسبا أن سُحِبَ الثورة قد أخذت لتتجمع ضد يزيد في معظم أرجاء العالم الإسلامي وأخذت بوادر النقمة الشعبية تلوح في الأفق، وربما تنجح الثورة عسكرياً هذه المرة، ولم يكن امتناعهما لأنهما لم يكونا مقتنعين بضرورة قمع تلك الثورة، إلّا أنهما

---

(١) الطبري: ج٣ص٣٥٢.

(٢) الطبري: ج٣ص٣٥٢.

(٣) قال له عمرو بن سعيد: «قد كنت ضبطت لك البلاد وأحكمت لك الأمور فأما الآن إذ صارت إنما هي دماء قريش تهراق بالصعيد فلا أحب أن أكون أنا أتولى ذلك يتولاها منهم من هو أبعد منهم مني»، الطبري: ج٣ص٣٥٢.

وقال ابن زياد: «لا أجمعهما للفاسق أبدا أقتل ابن بنت رسول الله ﷺ، وأغزو البيت»، الطبري: ج٣ص٣٥٣.

أرادا أن يقوم غيرهما بذلك.

وقد التجأ يزيد إلى مسلم بن عقبة المري، وهو شيخ كبير مريض حاقد على أهل المدينة بشكل لا يوصف، حتى أنه قال قبيل موته بعد واقعة الحرة المروعة التي استباح فيها المدينة: «اللهم إني لم أعمل عملا قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أحب إلي من قتلي أهل المدينة ولا أرجي عندي في الآخرة»[١]، وكأن الله ورسوله صلى الله عليه وآله أوصياه باستباحة المدينة واجبار أهلها على مبايعة يزيد على أنهم عبيد له.

**وصية معاوية بشأن المدينة: ارمهم بمسلم بن عقبة**

وقد كان معاوية يدرك ان الأمة التي استسلمت له وقبلت أن تبايع يزيد، ربما ستتراجع عن ذلك بعد غيابه وموته، وكما توقع أن تظهر بوادر ذلك من الكوفة وأوصى يزيد بارسال عبيدالله بن زياد واليا عليها لقمع أي تحرك محتمل، فإنه احتمل أن تثور المدينة أيضا بوجه يزيد، وقد أوصاه أن يرسل مسلم بن عقبة لقمعها أيضا، وقد روي لنا «...أن معاوية لما حضرته الوفاة، دعا يزيد فقال له، ان لك من أهل المدينة يوما، فان فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة، فانه رجل قد عرفت نصيحته...»[٢].

وهكذا رمى أهل المدينة بمسلم تنفيذا لوصية والده الماكر الذي كان يتوقع رفض الناس لولده وثورتهم عليه، وقد استطاع مسلم بن عقبة بمعونة بني أمية المحصورين في المدينة الذين أعطوا أهلها عهدا بألا يدلوا مسلم على ثغراتها ثم نقضوا عهدهم، فعل ذلك عبدالملك بن مروان.ثم بفعل سياسة التهديد والعطاء التي اتبعها مع جنده[٣]، أن

---

(١) الطبري: ج٣ص٣٥٢.

(٢) الطبري: ج٣ص٣٥٩، والعقد الفريد: ج٥ ص ١٢٨، والبداية والنهاية : ج٧ص ٢٢٤، والزوائد: ج٧ص٢٥٠، وفتح الباري: ج١٣ص٧١.

(٣) عندما صدر أمر يزيد لمسلم بالتوجه نحو المدينة، خرج مناديه فنادى: «أن سيروا إلى الحجاز

يدخل المدينة بأولئك الجند الذين كانوا يتفوقون بعددهم على المحاربين من أهل المدينة كثيرا، بعد دفاع مستميت من قبل أهلها وفي مقدمتهم أولئك الرجال الذين قابلوا يزيد فهالتهم تصرفاته الماجنة البعيدة عن أدنى حدود الأدب والأخلاق الإسلامية، حتى خافوا أن يرموا بالحجارة من السماء ان هم سكتوا عنه.

**الأمويون ومروان: نقض العهود**

لم يكن بوسع مسلم بن عقبة أن يتغلب على أهل المدينة لولا نقض بني أمية العهد الذي قطعوه على أنفسهم أن لا يبغوهم غائلة، ولا يدلوا لهم على عورة ولا يظاهروا عليهم عدوا، وجعلوا ذلك شرطا للسماح لهم بالخروج من المدينة، غير أن عبدالملك بن مروان قدم خطة كاملة يستطيع بموجبها مسلم أن يقتحم المدينة ويتغلب على اهلها.

قال له عبدالملك: «أرى أن تسير بمن معك فتنكب هذا الطريق إلى المدينة حتى إذا انتهيت إلى ادنى نخل بها نزلت فاستظل الناس في ظله وأكلوا من صقره حتى إذا كان

---

على أخذ أعطياتكم كملا ومعونة مائة دينار توضع في يد الرجل من ساعته فانتدب لذلك اثنا عشر الف رجل»، الطبري: ج٣ص٣٥٣.

وقد نادى مسلم في أهل الشام، عند اشتداد القتال عندما قتل غلامه وحامل رايته: «يا أهل الشام أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم وأن يعزوا به نصر إمامهم قبح الله قتالكم منذ اليوم ما أوجعه لقلبي وأغيظه لنفسي أما والله ما جزاؤكم عليه إلا تحرموا العطاء وأن تجمروا في أقاصي الثغور شدوا مع هذه الراية ترَّح الله وجوهكم إن لم تعتبوا فمشى برايته وشدت تلك الرجال أمام الراية فصرع الفضل بن عباس فقتل وما بينه وبين أطناب مسلم بن عقبة إلا نحو من عشر أذرع..»، الطبري: ج٣ص٣٥٥.

الطبري: ج٣ص٣٥٤، وقال لهم محرضا: «يا أهل الشام، انكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها، ولا أكثرها عددا، ولا أوسعها بلدا، ولم يخصصكم الله بالذي خصكم به من النصر على عدوكم، وحسن المنزلة عند أئمتكم الا بطاعتكم واستقامتكم، وان هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيروا فخير الله بهم، فتموا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة، يتمم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والفلج...»، الطبري: ج٣ص٣٥٦.

الليل أذكيت الحرس الليل كله عقبا بين أهل العسكر حتى إذا أصبحت صليت بالناس الغداة ثم مضيت بهم وتركت المدينة ذات اليسار ثم أدرت بالمدينة حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقا ثم تستقبل القوم فإذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم وطلعت الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم وتقع في وجوههم فيؤذيهم حرها ويصيبهم أذاها ويرون ما دمتم مشرقين من ائتلاق بيضكم وحرابكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم وسواعدكم ما لا ترونه أنتم لشيء من سلاحهم ما داموا مغربين ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم فإن الله ناصرك إذ خالفوا الإمام وخرجوا من الجماعة فقال له مسلم لله أبوك أي امرئ ولد إذ ولدك لقد رأى بك خلفا...»[١].

**عبد الملك بن مروان أعد الخطة لمسلم بن عقبة لغزو المدينة اباحة الدماء والأعراض وقتل الصحابة**

وقد نفذ مسلم خطة عبدالملك، واستطاع التغلب على أهل المدينة بعد قتال ضار، وقد «أباح مسلم المدينة ثلاثا يقتلون الناس، ويأخذون الأموال، فأفزع ذلك من كان بها من الصحابة،... فدخل مسلم بن عقبة المدينة فدعا الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد ابن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء»[٢].

«...فَمَنِ امْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ قَتَلَهُ»[٣]، «قُتِلَ فيها خلق من الصحابة ومن غيرهم ونُهِبَت المدينة وافتُضَّ فيها ألف عذراء..»[٤] «...من بنات المهاجرين والأنصار...»[٥] «فقيل

---

(١) الطبري: ج٣ص٣٥٤.

(٢) الطبري: ج٣ص٣٥٧ - ٣٥٩ والبداية والنهاية: ج٨ص٢٢٠، والعقد الفريد: ج٥ ص١٣٠، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٦٠.

(٣) الكامل في التاريخ: ج٣ص٤٦٠.

(٤) تاريخ الخلفاء: السيوطي: ص١٩٤ - ١٩٥.

(٥) الفصول المهمة: الامام عبد الحسين شرف الدين الموسوي: ص١١٦-١١٧، والبداية والنهاية: ج٨ ص ٢٣٩ والحقائق الكبرى: ج٣ ص٢٤٠.

ان الرجل من أهل المدينة كان إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها، ويقول لعلها افتضت في وقعة الحرة»[١] «و قتل يومئذ من المهاجرين والأنصار وأبنائهم وسائر المسلمين اللائذين بضريح سيد النبيين صلى الله عليه وآله (١٠٧٨٠ رجلا)، ولم يبق بعدها بدري»[٢] «وقتل من النساء والصبيان عدد كثير، وكان الجندي يأخذ بِرِجْلِ الرضيع فيجذبه من أمه ويضرب به الحائط فينتثر دمه على الأرض وأمه تنظر اليه...»[٣].

«و لم يترك أولئك الغزاة حرمة من حرم الإسلام الا وانتهكوها، حتى ان المرأة والفتاة كانتا تلوذان بمحراب رسول الله صلى الله عليه وآله، فلا يتورع الغزاة من أن يرتكبوا معهن في مسجد الرسول ومحرابه ما يشتهون»[٤].

و«كان مسلم بن عقبة يقول: من جاء برأس فله كذا وكذا، ومن جاء بأسير فله كذا وكذا، وجعل يغري قوما لا دين لهم، فقتلوا ما لا يحصى ولا يعد»[٥]، «وقتل يوم الحرة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ثمانون ولم يبق بعد ذلك بدري»[٦].

وكما فعل ابن زياد برؤوس الحسين وأصحابه عليهم السلام، عندما بعث بها على الحراب إلى يزيد، قام ابن عقبة بفعل مماثل، اذ احتز رؤوس قادة الثورة في المدينة وأرسلها اليه أيضا وأصحابه، «..فلما ألقيت بين يديه جعل يتمثل ايضا بقول ابن الزبعرى يوم أحد:

ليت أشياخي ببدر شهدوا    جزع الخزرج من وقع الأسل

(١) ابن الطقطقي: الفخري: ص١٠٧.
(٢) الفصول المهمة: ص ١١٧ نقلا عن ابن قتيبة في الامامة والسياسة.
(٣) الفصول المهمة: ص ١١٧ والانتفاضات الشيعية عبر التاريخ: هاشم معروف الحسيني، دار الكتب الشعبية، بيروت – لبنان ط ١: ص ٤٢٥.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) معالم المفتي: ج٢ ص ٣١٧، عن كتاب المحن: ج١ ص١٥١.
(٦) المصدر نفسه.

لأهلوا واستهلوا فرحا ولقالوا يا يزيد لا تشل

فقال له رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: ارتددت عن الإسلام يا أمير المؤمنين؟

قال: بلى نستغفر الله.

قال: والله لاساكنتك أرضا أبدا، وخرج عنه»[١].

**اباحة المدينة: هل كان مجرد خطأ؟**

ونعود إلى ما ذكره المؤرخون حول اباحة المدينة، وتعليق بعض السلف على ذلك، «أباح مسلم بن عقبة الذي -يقول فيه السلف، مسرف بن عقبة - قبحه الله من شيخ سوء ما أجهله - المدينة ثلاثة أيام، كما أمره يزيد، لاجزاه الله خيرا، وقتل خلقا من أشرافها وقرائها وانتهب أموالا كثيرة منها، ووقع شر عظيم وفساد عريض على ما ذكر غير واحد، أباح المدينة يقتلون من وجدوا من الناس ويأخذون الأموال، ووقعوا على النساء، حتى قيل أنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج.

وقد أخطأ يزيد خطأ فاحشا في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأ كبير فاحش، مع ما انضم إلى ذلك من قتل خلق من الصحابة وأبنائهم، وقد تقدم أنه قتل الحسين وأصحابه على يدي عبيدالله بن زياد، وقد وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة من المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف مما لا يعلمه الا الله عزوجل. وقد أراد بارسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه ودوام أيامه من غير منازع، فعاقبه الله بقبض قصده وحال بينه وبين ما يشتهيه، فقصمه الله قاصم الجبابرة، وأخذه

---

(١) العقد الفريد: ج٥ ص ١٣٠ وقد ورد في عدة كتب تاريخية موثوقة انه قالها عند ورود رأس الحسين وأصحابه عليه السلام اليه في الشام، ومن المرجح أنه أخذ يردد الأبيات ثانية عند ورود رؤوس ثوار المدينة....

أخذ عزيز مقتدر»[(١)].

لقد انتفضت المدينة، غير أن انتفاضتها قمعت بقسوة، ولرب من يتساءل عن مشروعيتها ويقيسها بالمكاسب التي ربما قد حققتها.كما يقيس نجاحها بذلك أيضا، وطالما أن الثورة قد فشلت عسكريا، وبقي يزيد في الحكم خليفة (وأميرا للمؤمنين)، فانه لابد أن يكون على حق، ومن ثاروا عليه على باطل، ماداموا لم يستطيعوا تحقيق نصر عسكري وماداموا قد قتلوا وأرسلت رؤوس قادتهم إلى يزيد.

وبعد أن (جازفوا) بالتعرض لقوة أكبر من قوتهم، وهي قوة الدولة الأموية الكبيرة المستطيلة الممتدة.

**معاوية عراب غزو المدينة رغم تحذيرات رسول الله**

وإذا ما نظرنا نظرة جدية إلى الأحاديث التي رويت عن رسول الله ﷺ بشأن المدينة وأهلها[(٢)]، فإن جريمة يزيد ومعاوية - المسبب الحقيقي للكارثة التي لحقت بالمدينة

---

(١) البداية والنهاية: ج٨ ص٢٢٣ - ٢٢٥.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «**من أخافه أهل المدينة، أخاف الله عزوجل، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا**» أخرجوه أحمد من حديث السائب بن خلاد بطريقين - ص ٥٦ ج ٤ - مسند أحمد، والبداية والنهاية: ج٨ ص ٢٢٦.

وقال ﷺ: «**لا يريد أحد بالمدينة بسوء الا أذابه الله في النار ذوب الرصاص، أو ذوب الملح**». رواه البخاري الصحيح ج١ ص ٣٢٢.

وقال ﷺ: «**من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء**» صحيح البخاري: ج١ ص٣٢٢، وصحيح مسلم: ج٤ ص ١٢١.

وقال ﷺ: «**من أخاف أهل المدينة أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**».رواه أحمد: كنزل العمال: ج١٢ ص ٢٣٨.

وقال ﷺ: «**من أخاف أهل هذا الحي من الأنصار، فقد أخاف ما بين هذين**»، ووضع يديه على جنبيه، البداية والنهاية: ج ٨ ص٢٢٣ عن الدارقطني...

لأنه هو الذي أوصى بارسال مسلم بن عقبة لاباحتها - تتضاعف مرات عديدة، لأن الذي فعل بالمدينة ما فعل، وهي المدينة المقدسة ذات المكانة الخاصة من رسول الله ﷺ الذي حذر بشدة وبشكل صارم من اخافتها ونيلها بسوء، لابد أن يكون مستعدا لهتك أعراض جميع المسلمين واستباحتها إذا ما خرجوا عن طاعته وسلطانه.

كيف يستطيع أحد - مهما حاول تبرير أعمال معاوية وتوصيته ليزيد لارسال مسلم ابن عقبة لحرب المدينة - أن يوفق بين (اجتهاداته) و(اجتهادات) يزيد من بعده لغزو المدينة، وبين أحاديث الرسول ﷺ الواضحة بخصوص ذلك؟ أكان مقدرا أن تكون حياة معاوية وأفعاله، سلسلة من (الاجتهادات) المخالفة لنصوص القرآن ورسول الله ﷺ...؟ وهل تحصى مخالفات معاوية التي أعطاها أعوانه وتابعوهم اسم (الاجتهاد)، مع أنها كانت تبدو عبثا واضحا وخرقا صريحا للإسلام...؟

لقد كان أمرا مفزعا أن يقوم يزيد بما قام به في المدينة، وبذلك وسع الباب الذي فتحه والده لهتك حرمة المسلمين وأعراضهم وحرياتهم[٣]، وانه لأمر رهيب أن يتوقع أحد من المسلمين أن يحدث له ما حدث لأهل المدينة من قبل وأن يستباح ماله وعرضه ودينه.

ولابد أن المدينة كانت مستهدفة بالحقد الأموي، واذ أن أباسفيان لم ينجح في اقتحامها واباحتها، واكتفى معاوية - عندما أرسل بسر بن أبي أرطأة اليها بقتل العديد من أهلها واهانتهم - فان يزيد قد حقق كل ما كان البيت الأموي يطمح لتحقيقه وفعله بأهل المدينة، وأثبت أنه جدير حقا بالإنتماء لذلك البيت المعادي للإسلام منذ البداية.

---

(٣) كانت السابقة في ذلك لمعاوية الذي سبى نساء همدان، فأقمن في السوق، وكشف عن سوقهن، فأيتهن كانت أعظم ساقا اشتريت على عظم ساقها، فكن أول مسلمات سبين في الإسلام، الفصول المهمة: ص ١٣٣ عن ابن‌عبدالبر في الاستيعاب...

**هل مشكلة المسلمين الآن لعن يزيد؟ المائعون الراتعون**

ومع ذلك يأتي المائعون الراتعون في نعيم (أولياء الأمور وان كانوا فسقة) من (الخلفاء) و(أمراء المؤمنين) ممن هم على شاكلة (أميرالمؤمنين) يزيد ليعلنوا معارضتهم لمن قد يقوم بتوجيه اللوم إلى يزيد أو لعنه «لئلا يجعل لعنه وسيلة إلى أبيه أو أحد من الصحابة»[1].

أما أبوه، فانه – دون شك – لا يستحق ذلك..!! فكأنه لم يعد لهذه الجريمة بالذات ولم يبيّت لها مسبقا لأنه كان يعلم أن هذه الأمة لابد أن ترفض يزيد وتتصدى له بالسيف بعد أن تدرك الخطأ الفادح الذي استدرجت اليه فبايعته.

**هل يزيد من الصحابة؟**

ولا ندري ما علاقة الصحابة بيزيد، ثم ألم يقتل هو منهم في هذه الواقعة أكثر من ثمانين شخصا حتى لم يبق بدري؟

كيف يكون لعن يزيد وسيلة للعن الصحابة؟ أترى أنه صحابي أيضا كأبيه الصحابي..!!

وهذه من ألاعيب معاوية القديمة التي مررها من خلال رواة الأحاديث المأجورين الذين ادعوا أن كل من عاصر الرسول صلى الله عليه وآله ولو لساعة واحدة ولم تكن معه صحبة حقيقية، انما هو صحابي، ويكفيه أنه عاش في عصره ولابد أن تعود إلى ذاكرتنا محاولاته الدؤوبة لتمرير مخططاته وخلط أوراقه مع أوراق من سبقوه من الخلفاء، ويصور كل رافض له على أنه رافض دائمي حتى لمن سبقه منهم، وقد أراد بذلك وبالحديث الذي مرره بخصوص عدم التعرض لصحابة الرسول صلى الله عليه وآله باعتبار أنهم كالنجوم الزاهرة «**بأيهم**

(١) البداية والنهاية: ج٨ ص٢٢٧.

**اقتديتم اهتديتم**» منع نقده والتعرض له.اضافة لمحاولاته تأكيد صحبته للرسول ﷺ وانه من كتاب الوحي وخال المؤمنين...مع أنه لم يكن سوى كاتب عادي لمدة محدودة من الزمن..أما خؤولته للمؤمنين فما نحسب الا أنها من دعاباته التي كان مولعا ببثها ونشرها.

**تأول فأخطأ..الإمام اذا فسق لا يعزل**

ويروح أولئك الراتعون في خيرات الدولة ونعيمها وبحبوحتها يخففون من آثار الكارثة التي حلت بالمسلمين في واقعة الحرة، ويحملون (الرافضة) مسؤولية شن حملة ظالمة على يزيد الذي لم يكن (زنديقا)، وكان مجرد فاسق وعابث وشارب للخمر وتارك للصلاة، «...ولما خرج أهل المدينة عن طاعته وخلعوه وولوا عليهم ابن مطيع وابن حنظلة لم يذكروا عنه -وهم أشد الناس عداوة له- إلا ما ذكروه عنه من شرب الخمر وإتيانه بعض القاذورات لم يتهموه بزندقة كما يقذفه بذلك بعض الروافض»[1] أما هم، فقد «حملوا ما صدر عنه من سوء التصرفات على أنه تأول فأخطأ، وقالوا: انه كان مع ذلك اماماً فاسقاً، والامام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح قولي العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه، لما في ذلك من اثارة الفتنة ووقوع الهرج وسفك الدم الحرام ونهب الأموال وفعل الفواحش مع النساء وغيرهن وغير ذلك مما كل واحدة منها من الفساد اضعاف فسقه كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا...»[2].

---

(١) البداية والنهاية: ج٨ ص٢٢٧، ومع ذلك يقول عنه: «وقد روي أن يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغناء والصيد واتخاذ الغلمان والقيان والكلاب والنطاح بين الكباش والدباب والقرود، وما من يوم إلا يصبح فيه مخمورا، وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به، ويلبس القرد قلانس الذهب، وكذلك الغلمان، وكان يسابق بين الخيل، وكان إذا مات القرد حزن عليه.

وقيل: إن سبب موته أنه حمل قرده وجعل ينقزها فعضته.

وذكروا عنه غير ذلك»، البداية والنهاية: ج٨ ص٢٢٧.

(٢) البداية والنهاية: ج٨ ص٢٢٧.

وهكذا فان المسؤول الوحيد عما وقع لأهل المدينة هم أهل المدينة، ولا شأن لأحد سواهم بذلك، وأخرجوا لنا قصة جعلوا ابن عمر بطلا لها ورووا لنا عن لسانه أحاديث ادعى أنه سمعها من رسول الله ﷺ، ولربما ادعى ذلك فعلا لكسب ود يزيد أو دفع أذاه.

«لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم تشهد ثم قال: أما بعد، فانا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، واني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **ان الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان، وان من أعظم الغدر الا أن يكون الاشراك بالله أن يبايع رجل رجلا على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته...**»[(١)].

ويروون عن ابن عمر أيضا قوله عن رسول الله ﷺ: «**من نزع يدا من طاعة، فانه يأتي يوم القيامة لا حجة له، ومن مات مفارق الجماعة فانه يموت ميتة جاهلية**»[(٢)].

وهكذا جعلوا ليزيد الحق فيما فعل. ولعلهم حملوا ابن عقبة وحده مسؤولية ما وقع لأهل المدينة، الذين كانوا مسؤولين بدورهم لأنهم غدورا بيزيد الذي بايعوه على بيع الله ورسوله ثم نكثوا بيعتهم لمجرد أنه كان فاسقا.

**ماذا سيقولون لرسول الله ﷺ**

لو وقف هؤلاء أمام رسول الله ﷺ وادعوا ما ادعوه هنا، هل كانت ستصمد لهم حجة أو كذبة؟ وهل أن مجمل حياة رسول الله ﷺ وسيرته كانت تمهد للقيادات الفاسقة والمنحرفة؟ ألا تبدو هذه (الأحاديث) المدسوسة وكأنها موضوعة لتمرير جرائم يزيد وأشباهه ولإبعاد الإسلام والقيادة الشرعية للمسلمين عن الساحة نهائيا؟

هل تحمّل المسلمون ما تحملوا، وقتل منهم من قتل لتنتهي مسيرة الديانة الخاتمة هذه النهاية المفجعة، وليكون يزيد وريث آلاف الأنبياء والرسل وممثل رسول الله ﷺ

(١) البداية والنهاية: ج٨ ص٢٣٦.

(٢) البداية والنهاية: ج٨ ص٢٣٦.

نفسه وخليفته..؟

كيف حصل أن راجت أمثال هذه (الأحاديث)، ان لم تكن الأجواء التي قيلت وانتشرت فيها مشابهة لتلك التي كانت سائدة أيام يزيد، وكان هم الحكام منع الناس من الخروج عليهم وانتقادهم، أليس هذا هو الأمر الواقع.؟ من يجرؤ في ظل حكام كهؤلاء أن يكذب ابن عمر ما دام من مصلحتهم أن يصدق الناس جميعا بذلك..؟

هل يبدو أن هذا الأمر ممكن الحدوث في منطق الإسلام ومنطق رسول الله ﷺ؟ أن تقبل الأمة الفاسق والظالم والجائر والمنحرف لمجرد أنها تخاف الفتنة والهرج..؟ وهل فتنة أشد من أن يكون رأس هذه الأمة وامامها مثل يزيد...؟ ومع ذلك فان رسول الله ﷺ نفسه يطلب منها أن تطيعه وتخضع له وتسلمه قيادها وكل مقدراتها؟

كيف نستطيع أن نفهم هذا الأمروهو ان رسول الله ﷺ يدعو ليزيد.!

هل ان علماءنا يناقشون هنا موضوعا جديا.أم أنهم يعبثون..؟

ولنظل نستمع إلى أقوال أولئك العابثين اللاعبين.

**لماذا تساهمون في الجريمة وأنتم لم تشهدوها؟**

«...وأما ما يذكره بعض الناس من أن يزيد لما بلغه خبر أهل المدينة، وما جرى عليهم عند الحرة من مسلم بن عقبة وجيشه فرح بذلك فرحا شديدا، فانه كان يرى أنه هو الامام وقد خرجوا عن طاعته وأمّروا عليهم غيره، فله قتالهم حتى يرجعوا إلى الطاعة ولزوم الجماعة، كما أنذرهم بذلك على لسان النعمان بن بشير ومسلم بن عقبة كما تقدم، وقد جاء في الصحيح: «من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائنا من كان.

ليت أشياخي ببدر شهدوا　　جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حلت بفناهم ركبها　　و استجر القتل في عبد الأشل
قد قتلنا الضعف من أشرافهم　　و عدلنا ميل بدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا　　ملك جاء ولا وحي نزل

فهذا ان قاله يزيد بن معاوية فلعنة الله عليه ولعنة اللاعنين، وان كان لم يكن قاله فلعنة الله على من وضعه ليشنع به عليه..»(١).

ونتساءل: هل كان انذار يزيد أهل المدينة حجة عليهم ليكفوا عن ثورتهم ضده لمجرد أنهم كانوا قد بايعوه في عهد أبيه في ظل الارهاب والقسر والرشوة؟ وهل ان مجرد طلب الحاكم الفاسق الظالم الخارج عن الإسلام، أن تكف الأمة عن ثورتها واحتجاجها عليه وانتقاد تصرفاته وتصرفات عماله يبرر له أن يفعل ما فعل يزيد بأهل المدينة؟

**هل المشكلة فيما قاله يزيد أو فيما فعله؟**

ولنفترض أن يزيد لم يقل هذه الأبيات - مع أن العديد من المصادر التاريخية الموثوقة قد روت لنا أنه قال ذلك - هل يخفف هذا من جريمته مع أهل المدينة، ناهيك عن جرائمه الأخرى مثل قتل الحسين عليه السلام وأصحابه وضرب الكعبة الشريفة بالأحجار، وهل يبرئه ذلك عن ذنوبه العديدة الأخرى..؟

«والغريب المنكر من هذا كله هو تجاوز الحد والغلو في الاثم، فقد كانت السياسة تقتضي أن يقاتل الخارجون على يزيد حتى يقتلوا أو يفيئوا إلى طاعته، فأما المثلة وانتهاك الحرمات ففظائع لا ينكرها الدين وحده، وانما تنكرها السياسة أيضا.وتنكرها السنة العربية المعروفة، وهي بعد ذلك تحفظ الصدور وتملأ القلوب ضغينة وحقدا.وقد

(١) البداية والنهاية: ج٨ ص٢٢٧.

أحفظ يزيد أهل الجماعة أنفسهم...»[١].

**خصال يزيد: هل كانت تؤهله لحكم الأمة الإسلامية؟**

وإذا ما أراد أحد أن يقف في صف يزيد فانه لا يستطيع أن يقول فيه أحسن مما يقال فيه هنا، مع أن هذا لا يشرف صاحبه ولا يسعده، ان كان يشعر حقا أنه ينتمي للإسلام ويحمل هويته، فقد «كان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك، وكان ذا جمال حسن المعاشرة، وكان فيه أيضا اقبال على الشهوات وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات واماتتها في غالب الأوقات»[٢].

لا شيء ذو خطر كبير يدعو للقلق من سلوك قائد الأمة الإسلامية وامامها وقدوتها...! فهل كانت الأمة لا تجد فيها أحدا لا يملك هذه الصفات الفريدة كحد أدنى، لتلجأ إلى يزيد، ويزيد وحده لتنصبه خليفة للمسلمين..؟ وهل كانت هذه مواصفات (الخلفاء) من قبله، حتى تقر كمواصفات نموذجية ليزيد ولكل (خليفة) مرتقب؟

**مواصفات خليفة أم عامل صغير من عمال الخراج؟**

ونعيد هنا ما سبق أن أشرنا اليه من قبل: اننا نتكلم عن خليفة للمسلمين لا عن ساق للنبيذ في حانة من حانات الخمارين أو نديم للسكارى والعابثين والماجنين في عصر جاهلي بعيد عن قيم الإسلام وتصوراته ومواضعاته وأخلاقه، اننا نتحدث عن قائد المسلمين وقدوتهم ومثلهم الأعلى الشاخص الحي الماثل أمامهم وممثل وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) الفتنة الكبرى: ج٢ ص٢٤٧ - ٢٤٨.

(٢) البداية والنهاية: ج٨ ص٢٣٣.

هل يريد من يتكلم بهذه الطريقة العابثة اللاهية عن يزيد أن يثير أعصاب المسلمين..؟ هل يوجد حقا من يفكر بهذه الطريقة، اللهم الا اذا كان من يفعل ذلك قد تعرض لعملية غسيل دماغ كبرى زُجَّ فيها (السلف الصالح) كطرف غير معترض على يزيد، بل وراغب فيه باعتباره يحقق (وحدة الأمة) ويمنع الهرج والفوضى، وغالبا ما يجد في جعبته من هؤلاء السلف من يفعل ذلك ويقول به ما دام قد عاش في بحبوحة الدولة الغاشمة واستمتع بخيراتها وما منحته اياه من امتيازات، أو كان من أولئك الذين يرون مصلحتهم الوقوف في صف الدولة الظالمة، ولا يهم إذا ما ظلم غيره أو قتل أو أبيح عرضه أو ماله...ألسنا نجد في كل وقت العديد من أمثال هولاء؟

**ثورة المدينة - استنكار لتمادي الدولة في الانحراف**

كانت ثورة المدينة أحد ردود الفعل المفاجئة على سلوك القيادة الأموية المنحرفة بقيادة يزيد، وكانت ثورة متأخرة لم تستطع أن تكون بمستوى ثورة الحسين التي ألهبت المشاعر ولفتت الأنظار إلى الأخطار المحدقة بالأمة نتيجة وجود قيادة منحرفة كقيادة يزيد..ومع أن المدينة قد أدركت أن عملها هذا جاء في وقت متأخر، ورغم هزيمتها العسكرية وما لحق بها من شر وأذى على يد يزيد وقواده وأعوانه، فانها جعلت الأمة على يقين من انحراف القيادة الأموية نهائيا وان لا أمل في اصلاحها، وانها قد برهنت بأعمالها المشينة أنها بعيدة عن الإسلام، بل انها لا تمت اليه بأية صلة رغم ادعاءاتها الطويلة العريضة بأنها الممثل الوحيد للاسلام والجهة الوحيدة المخولة بالتصرف في شؤون الأمة والذي ينبغي عليها أن تقبله وتعلن تعلقها به.

لقد برزت حالات فردية نادرة أظهر فيها الثوار حماسا منقطع النظير للتصدي للجيش الأموي المبعوث من الشام، وعبروا عن انتمائهم الحقيقي للإسلام عندما أقدموا على الموت بنفس الحماس الذي أقدم عليه أصحاب الامام الحسين عليه السلام، واثبتوا ان

الحالات البطولية النادرة ممكنة التكرار في اي وقت، وأن من تصدو للظلم والانحراف والفساد في عهد قريب من عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يستطيعون القيام بذلك مرات ومرات وان امتد الزمن وبعدت المشقة عندما يستشري الظلم والانحراف والفساد في مجتمعهم وفي مجتمعات المسلمين عموما.

**اسفر الانحراف.. لا داعي للتستر**

غير أن حقيقة مهمة تبرز أمامنا، ونحن نتحدث عن الحقبة التاريخية التي وقعت فيها ثورة المدينة، وهي: ان الانحراف أسفر عن وجهه نهائيا الآن، ولم يعد قادة الدولة وفي مقدمتهم يزيد يرون أي حرج من اظهار ممارساتهم الشاذة التي لا تمت للإسلام بصلة بل وتلك التي يستهجنها ويدعو للابتعاد عنها.حتى ليذهب قائدهم إلى حد التمثل بأقوال أحد أعداء الإسلام القدامى التي يكذب فيها مسألة نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله.

ويمكن القول: ان الانحراف قد (ازدهر) وبلغ ذروته في أعقاب اقدامه على جريمة الطف في كربلاء، وذلك ما توقعه الحسين عليه السلام عندما خاطب الجيش الذي أرسل لقتاله: «...**أما انكم لن تقتلوا بعدي عبدا من عباد الله، فتهابوا قتله، بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم اياي**...»[١].

رأت الدولة أن جريمتها مرت دون عقاب، وحزمت أمرها على قمع أي صوت معارض آخر قد يجرؤ على انتقادها أو المطالبة بدم الحسين عليه السلام، وبدا الأمر لها وكأنها قد نجحت باسكات آخر صوت معارض لها عندما قتلت الحسين، رغم علمها بمكانته في الأمة ومنزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله، فأي امرئ مثل الحسين في مكانته حتى لا يتوقع أن يحل

(١) اللهوف: ص ٥٠.

به ما حل به عليه السلام ان هو هاجم الدولة واعترض على تصرفات قادتها وسلوكهم المشين..!

**بعد الطف: تمادي دولة الظلم في الجرائم**

كان الحسين عليه السلام يتوقع أن تتمادى دولة الظلم الأموية في جرائمها وانحرافها وأن تقدم على سفك المزيد من الدماء بعد أن لم تهب قتله ورأته أمرا عاديا وبعد أن تمر الجريمة دون ردع قوي من قبل الأمة؛ وهو ما حصل فعلا، مرت الجريمة دون عقاب وبدا أقطابها سعداء بما حققوه وبدوا مستعدين لارتكاب المزيد من الجرائم وحمامات الدم إذا ما بدا لأحد أن يقف في وجوههم ويعترض مسيرتهم التي بدت قوية كاسحة.

في ذلك الظرف، وفي غمرة شعور يزيد وأقطاب حكمه بالنشوة والقوة واستتباب الأمور لصالحهم، أعلن أهل المدينة ثورتهم ضده، وهو توقيت بدا غير موفق في ذلك الحين، لأن المدينة لم تكن تتمتع بالقوة التي كانت تتمتع بها الشام المتلهفة والمندفعة للبطش بكل أعدائها، والمدينة - لا شك - كانت في مقدمة قائمة الأعداء.

لم تكن الثورة مدروسة، كما أن نتائجها المتوقعة لن تبدو بمثل النتائج التي حققتها أو سوف تحققها ثورة الحسين، وكل ما حققته هو أنها أثبتت صحة ما رآه الحسين عليه السلام في دولة الظلم الأموية اليزيدية.

لقد أراد الحسين عليه السلام كشف انحراف تلك الدولة وابتعادها عن الإسلام وعداواتها له، وكان ثمن ذلك دمه ودماء أصحابه الزكية، وقد نجح في ذلك نجاحا باهرا، ونجح بعزل جماهير الأمة عن القيادة المنحرفة، وان بدت تلك الجماهير في الظاهر غير معترضة على ممارساتها وشذوذها.

**اباحة المدينة كشف واقع القيادة الأموية**

ان تنكيل يزيد بأهل المدينة بتلك الصورة المروعة التي تبعث الألم والاشمئزاز في

نفوس المسلمين على مر الأيام، كشف عن واقع القيادة الأموية المتسلطة على رقاب الناس، فهل حصل أن اغتصبت الآلاف من نساء المسلمين على أيدي أفراد الجيش الذي كان من المفترض أن يدافع عنهن ويحمي أعراضهن لأن ذلك كان ضروريا لبقاء الإسلام والدولة الإسلامية.أم أن ذلك قد حدث وحدث معه المزيد من سفك دماء النساء والأطفال - الذين لم يشاركوا في القتال دون شك - لأن ارادة شريرة أرادت ارهاب الأمة إلى الأبد والتلويح لها أن ما يحصل مع أهل المدينة يمكن أن يحدث بسهولة لكل من تحدثه نفسه بالوقوف بوجهها، ولأن تلك الارادة الشريرة أرادت اشعار الجميع أن دولة الظلم التي ولدت في أيام معاوية وجدت لتبقى وتعيش في عهد يزيد وفي العهود اللاحقة وأنها ستتصدى بمثل العنف الذي تصديا به للأمة المسلمة في عهديهما؟

ولئن وجد معاوية نفسه غير قادر - عندما أرسل بسر بن أبي أرطأة لغزوها - على استباحتها بالشكل الذي حققه يزيد، لأنه كان يحاول الظهور بمظهر الحريص على الإسلام وكان يخدع بذلك فئات عديدة من المسلمين، فانه وجد أن يزيد المكشوف للأمة والذي فرض عليها وأصبح خليفة له، كان يستطيع تحقيق ما عجز هو عنه، وهكذا أوصاه أن يرمي المدينة بمسلم بن عقبة، وربما كانت له وصايا سرية أخرى لم تكشف للناس، وكانت حجته التي أعدها وراح يرددها وراءه فقهاء الدولة المأجورون وواضعو الحديث وصناعه.لماذا تحرشتم بيزيد وأنتم تعلمون فسقه وعدم تورعه عن فعل أي شيء مع أن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصاكم بعدم التعرض للحاكم الفاسق لما ينشأ عن ذلك من شرور وأذى ومنكرات وتفرقة.

وهكذا حُمِّل أهل المدينة مسؤولية ما حصل لهم وقد استمعنا إلى طرف من الآراء التي رددت أكاذيب محدثي معاوية وأظهرت أهل المدينة بصورة المجرمين الناكثين

الغادرين وبررت ليزيد فعلته، وحملت مسؤولية القذارات التي فاحت رائحتها فأزكمت الأنوف، مسلم بن عقبة وجنده، أما يزيد فخرج من المسألة كلها بريئا نقي الثوب[١] رغم كل ما فعله في سنوات حكمه الثلاث القصيرة.

**مهمة الأئمة: تعبئة الأمة ضد الانحراف**

كانت مهمة الأئمة عليهم السلام تسير منذ البداية، ومنذ أن تسلم زمام قيادة التجربة الإسلامية أناس غيرهم لم يعدوا اعدادا خاصا من قبل الرسول صلى الله عليه وآله، لمنع الانحراف الموجود في تلك التجربة وارجاع المسيرة إلى وضعها الطبيعي «وذلك باعداد طويل المدى، وتهيئة للظروف الموضوعية التي تتناسب وتتفق مع ذلك، فحتى كانت الظروف الموضوعية مهيئة لذلك، كان الأئمة عليهم السلام على استعداد لأن يمارسوا ارجاع التجربة إلى الوضع الطبيعي..»[٢].

**لماذا لم يتزعم الامام زين العابدين عليه السلام ثورة المدينة..؟**

وهنا يثار سؤال: لماذا لم يتزعم الامام زين العابدين ثورة المدينة، ولم يشارك بها على الأقل وترك المدينة قبيل المواجهة مع جند يزيد؟

وهو سؤال شبيه بذلك الذي أثير حول عدم قيام الامام الحسن عليه السلام بثورة ضد

---

(١) ومن الطريف ان يذهب بعض أعوان الدولة، وهو قاضي البحرين، أبوالفضل محمد بن محمد بن الفضل بن المظفر العبدي الى حد ادخال يزيد الجنة وحسم المسألة نهائيا، فقد حدث عنه ابن‌عساكر «من لفظه وكتبه لي بخطه قال: رأيت يزيد بن معاوية في النوم فقلت له: أنت قتلت الحسين، فقال: لا.فقلت له: هل غفر الله لك؟ قال: نعم، وأدخلني الجنة.قلت: فالحديث الذي يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه رأى معاوية يحمل يزيد فقال: رجل من أهل الجنة يحمل رجلا من أهل النار.؟ فقال: ليس بصحيح» البداية والنهاية: ج٨ ص٢٤٠ وهكذا أدخلهما كليهما الجنة بضربة معلم حاذقة ماهرة...

(٢) أهل البيت: الشهيد المصدر: ص١٣١.

معاوية، وقد تناولنا الجواب عنه في هذا الكتاب، وقد رأينا أن الحسينعليه السلام لم يقم هو أيضا بثورته ضد معاوية، لأن الظروف الموضوعية لم تكن مهيئة لذلك، ولم تكن الأمة مستعدة للتجاوب معهما لخوض تجربة الثورة.

وعلى ذلك فان مهمتهما في ذلك الوقت كانت مكرسة لـ «تعميق الرسالة فكريا وروحياً وسياسياً بعد تردي التجربة وسقوطها، وايجاد قواعد واعية في الأمة وايجاد روح رسالية فيها وايجاد عواطف تجاه هذه الرسالة في الأمة...»[١].

أما في عهد يزيد وبعد أن أسفر الانحراف عن وجهه - ومع وجود الناصر- المتمثل بأهل العراق الذين أبدوا استعدادهم أمام أبناء الأمة للمسير وراء الحسينعليه السلام ومناهضة دولة يزيد، فان الامام الحسينعليه السلام رغم معرفته بالنتائج المتوقعة من وراء ثورته ومسيره للعراق، كان يرى أن السبيل الوحيد أمامه هو اكمال هذا المسير وعدم التراجع عنه مهما بدت الصعوبات والمخاطر كبيرة - وقد تحدثنا عن ذلك باسهاب في هذا الكتاب - لأنه لو تراجع لتحمل المسؤولية التاريخية لسقوط الامة كلها، ولقيل بعد ذلك ان أهل الكوفة كانوا صادقين في مزاعمهم لنصرته، غير أنه هو الذي لم يقبل ذلك ورضي أن يضع يده بيد يزيد أو يهرب إلى مأمنة في الأرض، ولفسح المجال لدولة الظلم الأموية للتحدث عن مشروعية وجودها وبقائها والتمادي في عبثها إلى أقصى حد.

وكان الامام زين العابدين شاهدا رئيسيا على ما حصل لوالده وأصحابه في واقعة الطف، وكان يتابع مجريات الأحداث متابعة دقيقة ويرى الظرف الذي قام به الامام الحسينعليه السلام بثورته، وقد تحمل هو وحيدا مسؤولية اعادة موكب النساء والأطفال سالما إلى المدينة ولقي مشاق جمة عديدة.

---

(١) أهل البيت: الشهيد المصدر: ص١٣١.

وخلال مقابلاته مع ابن زياد ويزيد واستماعه لأقوالهما وما تمثل به يزيد من شعر ينكر فيه رسالة الإسلام جملة وتفصيلا، أدرك أن دولة الظلم هذه، من خلال شعور قادتها بالنشوة والنصر، ستقدم على ارتكاب المزيد من الجرائم لتثبيت نفسها، وانها ستعمد إلى معاقبة آلاف الناس، ومدن بأكملها إذا ما خرج بعضهم عليه.

**اليد التي امتدت لقتل الحسين عليه السلام لم تتورع عن غيره**

ان اليد التي امتدت للحسين عليه السلام بتلك الجرأة لم تكن لتتورع عن ضرب غيره مهما بلغ مركزه، وهو لن يبلغ مركز الحسين على أية حال.

وهكذا فان الامام زين العابدين رأى أن الدور الذي كان جديرا أن يمارسه في تلك المرحلة هو تعميق الرسالة فكريا وروحيا للأمة وتحصينها وحفظها من الانهيار.

وهكذا جعل من نفسه مدرسة تلقى عنها آلاف الطلبة علومهم الإسلامية وتحلقت حوله مجموعة منهم أشرنا إلى بعضهم في هذا الفصل، وقد كانت تلك العلوم كفيلة بترسيخ وتوضيح نهج الرسول وآل بيته عليهم السلام بعيدا عن مطبات مرتزقة الدولة من (العلماء والفقهاء والمحدثين..)، وكانت أساسا لجامعة إسلامية كبرى ازدهرت في عهدي الباقر والصادق عليهما السلام وبقية أئمة آل البيت، وكانت كفيلة بحفظ تراث الرسول صلى الله عليه وآله والإسلام من الضياع والاندثار.

كما كانت حياته طافحة بترسيخ ثقافة الدعاء والمناجاة الحميمة لله سبحانه وتعالى وهو أمر من شأنه ضخ قوة روحية كبرى يتحصن بها المسلم من الانحراف والخطأ، ويشكل مراجعة يومية مستمرة يقوم بها نفسه ويحميها من الزلل والظلم، ويدرك معها أن القوة الوحيدة التي يجب الخضوع لها واحترامها هي القوة الالهية المطلقة العادلة التي جسدها الإسلام المحمدي لا الإسلام الأموي الذي يقوم على حماية العصبة الحاكمة

من آل أبي سفيان وأعوانهم، وان الحاكم الجدير بالاحترام والحب هو الذي يقترب من خط محمد وآله عليهم السلام، ويعاملهم بالاحترام الجدير بهم.

وقد أشرنا في هذا الفصل إلى نهجه بتذكير الناس بثورة الحسين ومحاولة ربط الناس بها من خلال قيامه بعقد مجالس العزاء بين خاصته وفي بيوت آل أبي طالب، وقد أخرج تلك المجالس من الطابع الشخصي - باعتبار أنه هو الذي أصيب بمصيبة والده عليه السلام - إلى الطابع الجماهيري العام عندما جعل قطاعات واسعة من المسلمين تتعاطف مع الحسين وتحزن عليه وتذرف الدموع في مناسبات ذكرى استشهاده، وكان ذلك الربط العاطفي كفيلا بجعلهم يستعيدون فصول تلك الثورة والظرف الذي تمت فيه، بل وضرورة قيامها على يد الحسين عندما كانت الاجراء الوحيد الذي كان يستطيع القيام به لمواجهة الانحراف.

**الامام زين العابدين عليه السلام حياة حافلة بالعطاء**

ونظرة سريعة إلى حياة الامام زين العابدين عليه السلام ترينا أنها كانت مزيجا من ذلك كله ومن فعاليات أخرى حافلة بالعطاء والعمل اليومي الدؤوب الذي ترك طابعه وآثاره فيما بعد وجعل المسلمين ينظرون اليه بتقدير واحترام جديرين به رغم أنه لم يتزعم قيادة التجربة الإسلامية، وكان هاجس دولة الظلم في عهد يزيد وفيما بعد اقصاءه عن الحكم والعمل على جعله بعيدا عن الوصول إلى سدته وتحجيم دوره ليقتصر على الممارسات الشخصية التي اعتقدت أنها لن تضرها ولن تنال منها.

وكان شأنه شأن الأئمة الآخرين من آل البيت عليهم السلام الذين كانوا «بالرغم من التآمر على اقصائهم عن مجال الحكم، يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها ضد التردي إلى هاوية الانحراف والانسلاخ من

مبادئها وقيمها انسلاخا تاما، فكلما كان الانحراف يطغى ويشتد وينذر بخطر التردي إلى الهاوية، كان الأئمة يتخذون التدابير اللازمة ضد ذلك.

وتمثل الدور الايجابي للأئمة أيضا في تلك المعارضة القوية العميقة التي كان الأئمة يواجهون بها الزعامات المنحرفة، بارادة صلبة لا تلين وقوة نفسية صامدة لا تتزعزع، فان هذه المعارضة بالرغم من أنها اتخذت مظهر السلبية والمقاطعة في أكثر الاحيان بدلا من مظهر الاصطدام الايجابي والمقابلة المسلحة، غير أن تلك المعارضة -حتى بصيغتها السلبية- كانت عملا ايجابيا عظيما في حماية الإسلام والحفاظ على مثله وقيمه.لأن انحراف الزعامات القائمة كان يعكس الوجه المشوه للرسالة، فكان لابد للقادة من أهل البيت أن يعكسوا الوجه النقي المشرق لها وأن يؤكدوا عمليا وباستمرار المفارقات بين الرسالة والحكم الواقع.وهكذا خرج الإسلام على مستوى النظرية سليما من الانحراف وان تشوهت معالم التطبيق.

وتمثل الدور الايجابي للأئمة في تكوين الأمة العقائدية بشخصيتها الرسالية والفكرية من ناحية، ومقاومة التيارات الفكرية التي تشكل خطرا على الرسالة وضربها في بدايات تكونها من ناحية أخرى...»[١].

**بين استلام السلطة وبناء القواعد الشعبية المؤمنة**

ان تأكيد الامام زين العابدين في عمله اليومي والاستراتيجي على تحصين طليعة واعية من الأمة بالعلوم والدعاء والبناء العقائدي ومقاطعة الزعامات المنحرفة جعل بعض الباحثين يعتقدون، «ان أئمة الشيعة الامامية في أبناء الحسين عليه السلام، قد اعتزلوا -بعد مذبحة كربلاء- السياسة، وانصرفوا إلى الارشاد والعبادة والانقطاع عن الدنيا»[٢] مع

(١) أهل البيت: ص١١ - ١٥.

(٢) بحث حول الولاية: السيد محمد باقر الصدر: ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م - دار التوحيد: ٤٩.

أن حياتهم كانت حافلة بالممارسات الاجتماعية الهادفة التي كان من شأنها تعميق ممارسة عملية التغيير التي بدأها رسول الله صلى الله عليه وآله لتكميل بناء الأمة على أساس الإسلام...«فليس من الممكن أن نتصور تنازل الأئمة عليهم السلام عن الجانب الاجتماعي الا إذا تنازلوا عن التشيع.

غير أن الذي ساعد على تصور اعتزال الأئمة عليهم السلام وتخليهم عن الجانب الاجتماعي من قيادتهم، ما بدا من عدم اقدامهم على عمل مسلح ضد الوضع القائم»[1]، وهو أمر له مبرراته، فالسعي لاستلام الحكم من قبل الامام - ونتحدث هنا عن الإمام زين العابدين عليه السلام - دون وجود قواعد شعبية واعية صلبة، تدرك هدفه وتؤمن بنظريته في الحكم وتعمل على حمايته وتصمد بوجه أعدائه، من شأنه خلق مأساة جديدة لا مبرر لها يكون ضحاياها هو وما تبقى من عائلته وأنصاره وتلامذته المقربين.

كانت ثورة المدينة رد فعل سريع غاضب على سلوك يزيد، ولم يكن للثوار خطط مدروسة أو منهج ثابت لمواجهة دولة الظلم القوية المزدهرة المنتشية (بنصرها) على الحسين عليه السلام وأسلوب قمعها لثورته، وكان هم الثوار أن يستشهدوا لأنهم اعتقدوا أنه لم يعد بوسعهم السكوت عن الممارسات المنحرفة أكثر من ذلك..خصوصا وأنهم لم يبادروا من قبل بالثورة، وربما كان الشعور بالذنب أحد العوامل التي دفعتهم للثورة بعد أن تقاعسوا قبل ولم يبدوا أي رد فعل ولو كان ضعيفا ضد دولة الظلم.

كانت نتائج ثورة المدينة متوقعة، وكان يزيد سيستنفر أعوانه لقمعها بأشد الأساليب وحشية، وكانت اجراءات الثوار لا تتسم بالحذر والصلابة الكافيين تجاه الطابور الأموي المتبقي بالمدينة ولم تقم حتى بتشديد الرقابة عليه.

---

(١) بحث حول الولاية: ص ٥١.

«ان أهل المدينة لما بايعوا عبدالله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد بن معاوية، وثبوا على عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومن بالمدينة من بني أمية ومواليهم ومن رأى رأيهم من قريش، فكانوا نحوا من ألف رجل، فخرجوا بجماعتهم حتى نزلوا دار مروان بن الحكم، فحاصرهم الناس فيها حصاراً ضعيفا»[١] مما جعلهم ينجحون بارسال ممثل عنهم إلى يزيد وتدبير خطة ناجحة لادخال جنوده إلى المدينة واقتحامها بسهولة.

ولم يكن أحد ليعذر أهل المدينة في ثورتهم، وسيحملهم الجميع مسؤولية ما حل بهم[٢]...وكان الامام زين العابدين عليه السلام -لو أنه شارك بتلك الثورة- لحمل كامل المسؤولية عما وقع لأهل المدينة وله أيضا، اذ سيكون في مقدمة المقتولين الذين تستباح حرمتهم ولقيل لنا: ألم يكن في ثورة أبيه عليه السلام وما حل به زاجر له..؟

وبقتله ستزداد المأساة اتساعا اذ ستختفي القيادة المؤهلة لتحصين الكتلة العقائدية ولا نقطع خط أهل البيت الذي كان من المفترض استمراره وديمومته لبناء هذه الكتلة على الدوام ودعمها بعناصر البقاء والديمومة،و تربية الأمة على تخليص التجربة الإسلامية من أيدي المنحرفين وأعداء الإسلام وتحريك ضميرها وارادتها والاحتفاظ بهما «بدرجة من الحياة والصلابة تحصن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين»[٣].

---

(١) الطبري: ج٣ص٣٥٢.

(٢) ومن الغريب ان الضمير (الإسلامي) الموالي لدول الظلم لم يهتز لتلك المأساة، وقد استمعنا الى العديد من الآراء التي حملتهم المسؤولية وما حل بهم على يد أعوان يزيد وحاولت تبرئته منها باعتبار انه مجرد حاكم فاسق ولم يكن زنديقا، وانه قد أنذرهم بعدم الثورة عليه ولم تستبح المدينة الا بعد الانتهاء من مدة الإنذار.

(٣) بحث حول الولاية: ص ٥٣.

### ملاحظات جديرة بالنظر

ومع ذلك لم يشر أي نص تاريخي إلى لجوء أهل المدينة للامام زين العابدين لتزعم ثورتهم، وحتى لو فعلوا ذلك وأبدوا استعدادهم لجعله يستلم الحكم في المدينة، فلعلهم لن يكونوا مستعدين للسير وراءه إلى نهاية المطاف ولن يمكنوه من تحقيق عملية التغيير اسلامياً، وربما ستنهار القاعدة الشعبية التي ستنضم اليه لأنها لا تعي كل أهدافه وتطلعاته ولن تصمد بوجه العواصف المرتقبة وردود الفعل العنيفة من قبل الدولة.

ومع أن الامام زين العابدين عليه السلام لم يشارك بتلك المواجهة العسكرية التي قمعت بسرعة وبشدة الا أنه لم يشارك الآخرين بادانتها، وكان قلبه يفيض حزنا وأسى على الثوار وهم يلاقون البلاء الشديد مع أهل المدينة على يد أعوان الطغمة الحاكمة، وقد بذل جهده لتخليص العديد منهم مع عوائلهم، وقد روي أنه ضم اليه أربعمائة امرأة (منافية: من آل عبد مناف) مع أزواجهن أو أبنائهن إلى أن تفرق الجيش الأموي وقام بنفقتهن واطعامهن خلال تلك الأيام واستمر فيما بقي من أيام حياته يعول مائة عائلة من فقراء المدينة، في كل بيت جماعة، كان يفعل ذلك في السر.

### اخلاق أهل البيت

ويدل حادث فريد على كرم أخلاقه واستجابته المطلقة للخير، فقد سأله عدو آل البيت اللدود مروان بن الحكم -عندما أخرج أهل المدينة عثمان بن محمد منها- أن يضم اليه عياله بعد أن رفض ذلك ابن عمر، فقبل الامام بذلك وخرج بحرمه وحرم مروان حتى وضعهم بينبع، ولابد أنه أخذ معه عوائل أهل المدينة الذين أشرنا اليهم سالفا، وأرسل ولده عبدالله مع عائشة بنت عثمان، زوج مروان، إلى الطائف للمحافظة عليها هناك وفي الطريق، اذ أن عموم أهل الحجاز في المدينة ومكة كانوا ضد الحكومة الأموية وآل أمية عموما.

وقد بهر موقفه هذا مروان، فهذه الأخلاق الفريدة لم تكن تخطر بباله على الاطلاق، خصوصا وان العداوة القديمة المتأصلة بين بيتيهما جعلته لا يطمع باستجابة الامام لمطلبه في حماية عائلته(١)..

**بين زين العابدين ومسلم بن عقبة**

وقد روى عوانة بن الحكم، قال: «لما أتي بعلي بن الحسين إلى مسلم قال: من هذا؟ قالوا: هذا علي بن الحسين، قال: مرحبا وأهلا، ثم أجلسه معه على السرير وألطفه، ثم قال: ان أمير المؤمنين أوصاني بك قبلا، وهو يقول: ان هؤلاء الخبثاء شغلوني عنك وعن وصلتك، ثم قال لعلي: لعل أهلك فزعوا؟ قال: **اي والله**، فأمر بدابة فأسرجت ثم حمله فردَّه عليها...»(٢).

وقد روي أيضا: «ان مسلم بن عقبة، أتي بعلي بن الحسين، فتبرأ منه ومن آبائه، ثم أقعده وقال له: سلني حوائجك، فلم يسأله في أحد ممن قدم إلى السيف الا شفعه فيه، ثم انصرف عنه، فقيل لعلي: رأيناك تحرك شفتيك، فما الذي قلت؟ قال: **قلت: اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، رب العرش العظيم، رب محمد واله الطاهرين، أعوذ بك من شره، وأدرأ بك من نحره، أسألك أن تؤتيني**

---

(١) يذكر الطبري في تاريخه نقلا عن محمد بن عمر قوله: «...وكان مروان شاكرا لعلي بن الحسين، مع صداقة كانت بينهما قديمة»، ج٣ ص٣٥٣ - ٣٥٤، وليس هناك ما يشير إلى هذه الصداقة، بل ان مروان كان من أشد الحقودين على أمير المؤمنين عليه السلام وكانت له مواقف معروفة بذلك وكان يحرض عليه عثمان واشترك ضده في حرب الجمل وصفين بعد ذلك، كما حاول تحريض الوليد بن عتبة على الحسين عليه السلام وأبدى فرصته وشماتته عند رؤية رأس الحسين عند يزيد، ولا نعتقد ان الأيام امتدت بعد ذلك بما فيه الكفاية لعقد مثل تلك الصداقة، غير ان كرم الامام واخلاقه الرفيعة جعلته يقدم على حماية أهل عدوه.

(٢) الطبري: ج٣ ص٣٥٨.

خيره وتكفيني شره».

وقيل لمسلم بن عقبة: «رأيناك تسب هذا الغلام وسلفه، فلما أتى رفعت منزلته؟ فقال: ما كان ذلك الرأي مني، لقد ملئ قبلي منه رعبا»[١].

**فضل مروان**

غير أن رواية أخرى أرادت أن تنسب لمروان فضلا وحرصا على رد الجميل لزين العابدين عليه السلام، وأرادت بنفس الوقت أن تظهره بمظهر الخائف الذي ترعد كفاه من الرعب، وبمظهر الموالي للدولة الممالئ لها ضد أعدائها والذي كاتب يزيد في السر لكي يحافظ على حياته ولا يمكن أن تنسجم هذه الرواية مع الموقف العام لزين العابدين عليه السلام الذي يتقاطع بشكل تام مع مواقف يزيد وأعوانه.

قال لنا عبد الملك بن نوفل بن مساحق: «ثم ان مروان أتي بعلي بن الحسين، وقد كان علي بن الحسين، حين أُخرِجَت بنو أمية منع ثقل مروان وامرأته وآواها، ثم خرجت إلى الطائف، فهي أم أبان ابنة عثمان بن عفان، فبعث ابنه عبدالله معها[٢]، فشكر ذلك له مروان، وأقبل علي بن الحسين يمشي بين مروان وعبد الملك يلتمس بهما عند مسلم الأمان، فجاء حتى جلس عنده بينهما، فدعا مروان بشراب ليتحرم بذلك من مسلم، فأتي له بشراب[٣]، فشرب منه مروان شيئا يسيرا، ثم ناوله عليا، فلما وقع في يده قال له مسلم: لا تشرب من شرابنا، فأرعدت كفه ولم يأمنه على نفسه، وأمسك القدح بكفه لا

(١) مروج الذهب: ج٣ص ٨٥.

(٢) من المعلوم ان لزين العابدين ولداً وُلِدَ قبل واقعة الطف بثلاث سنين وهو محمد الباقر عليه السلام فيكون عمره في واقعة الحرة ست سنين.

(٣) المراد بالشراب هنا ما يتخذ من الثمار والفواكه والعسل ولا يقصد به الخمرة أو النبيذ.مع أن الأمويين لم يكونوا يتورعون عن تعاطيهما في مجالسهم الخاصة وخصوصا يزيد.

يشربه ولا يضعه.

فقال: انما جئت بين هؤلاء لتأمن عندي، والله لو كان الأمر اليهما لقتلتك، ولكن أمير المؤمنين أوصاني بك، وأخبرني أنك كاتبته، فذلك نافعك عندي، فإن شئت فاشرب شرابك الذي في يدك، وان شئت دعونا بغيره.

فقال: هذه التي في كفي أريد. قال: اشربها، ثم قال: إلي هاهنا، فأجلسه معه...»(١).

لا شك أن علي بن الحسين قد أحضر أمام ابن عقبة، وأن هذا كان حاقدا عليه، وربما اعتقد يزيد أن لا خطر منه على دولته بعد أن قُتِلَ أبوه تلك القتلة الفظيعة، خصوصا وأنه لم يقم بنشاط سياسي ظاهر مناهض لدولته فأوصى ابن عقبة بعدم قتله وقد استجاب هذا لأوامر سيده فلم يقتل الامام رغم كراهيته له ولأهل بيته.

وإذا ما حاول أحد مؤاخذة الامام زين العابدين عليه السلام، كما فعل آخرون مع الامام الحسن، بحجة أنه هادن دولة الظلم ولم يشهر سيفه عليها، بغض النظر عن الظروف والملابسات التي كانت تحيط بذلك - وقد استعرضناها في دراستنا هذه - فان عليه أن يلتفت إلى نقطة جديرة بالاهتمام وهي: بقاء المنزلة الرفيعة للامام في نفوس أهل المدينة وأهل الحجاز عامة وعدم مؤاخذتهم اياه على عدم المشاركة السياسية الواضحة بمعركة الحرة رغم أنهم أقرب عهدا منه وأشد فهما ووعيا لملابسات الحادث وظروفه وتفاصيله...وكان أحرى بهم أن يقفوا منه موقفا سلبيا ولقاطعوه لو أنهم لمسوا منه تقصيرا أو تهاونا ولو أنهم لم يفهموا موقفه فهما صحيحا.

وقد تجلى احترامهم الكبير له ولمنزلته حضور مئات العلماء والتابعين مجالسه ودروسه واجماعهم واجماع من عاصره على تقديره والاشادة به.

---

(١) الطبري: ج٣ ص٣٥٨.

كما تجلى ذلك في أكثر الأماكن حساسية وخطرا – في بيت الله العتيق – وقد حج، بعد سنوات وحج ذلك الموسم هشام بن عبدالملك الذي لم يستطع –رغم جنوده وخدمه– الوصول إلى الحجر الأسود واستلامه، حتى إذا جاء زين العابدين عليه السلام تنحى له الناس حتى استلمه، وقد تساءل هشام عن هوية ذلك الذي هابه الناس وتنحوا له بذلك الاحترام الملفت للنظر، وقد رد الفرزدق على تساؤل هشام بقصيدة مشهورة من عيون الشعر العربي لا زال الناس يتداولونها إلى يومنا هذا[(١)].

**لابد من النظر قبل النقد**

على أن آخرين ممن ينظرون إلى الأمور بمعزل من مسبباتها ونتائجها الطبيعية وينصبون من أنفسهم حكاما ونقادا على أعمال الناس دون وعي أو معرفة أو كتاب مبين، أدلوا بدلوهم في هذا المضمار أيضا، فقد (لقي عباد البصري علي بن الحسين في طريق مكة، فقال له: يا علي بن الحسين، تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحج ولينه وان الله عزوجل يقول: ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون. إلى قوله وبشر المؤمنين، فقال علي بن الحسين: **إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد أفضل من الحج**)[(٢)].

فلم تكن حول الامام طليعة عقائدية واعية ثابتة مدركة ذات امتداد وتأثير

---

(١) ومطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته     والبيت يعرفه والحل والحرم

وقد حبسه هشام على قصيدته هذه، ثم أطلق سراحه فيما بعد.

(٢) سير الأئمة عليهم السلام السيد محسن الأمين: ج٣ ص٢٠٧ عن المناقب لابن شهر اشوب والاحتجاج للطبرسي. وتمام الآية ﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ التوبة: ١١١.

واسعين، وكانت المدينة معرضة لأن تدمر وتستباح لأنها خرجت عن طاعة يزيد وأمره، لقد كشفت واقعة الطف نواياه الحقيقية ولم يستسلم الحسين عليه السلام له لأنه أدرك أنه يريد منه استسلام العبيد وولاء العبيد ونوم العبيد، لم يطلب منه أن يستسلم ويضع يده في يده لنصرة الإسلام وعزه واعلاء شأنه، وهكذا صرح الآن بما لم يصرح به من قبل: أراد الناس أن يبايعوه على أنهم خول له وعبيد، فلم يجد ما يدعوه للتكتم على نواياه بعد أن وجد نفسه قويا بمواجهة الأمة المظلومة المستضعفة.فهل يواجه هذا الحاكم بالطريقة التي واجهه فيها اهل المدينة؟ أم أن لذلك أسلوبا آخر ينسجم مع ذلك الظرف الدقيق الذي كانت تمر به الأمة...؟ أسلوب يبتعد عن المواجهة المسلحة، لأن العدو هو الذي كان يريد تلك المواجهة ويسعى لها لأنه أحكم قبضته وأكمل استحكاماته.

والى هذا الأسلوب البعيد عن المواجهة المسلحة والصراع السياسي المكشوف لجأ الامام زين العابدين، وهو ما أشرنا اليه في هذا الفصل.

# ابن الزبير...وثورة مكة

**ابن الزبير: استغل الغضبة الجماهيرية ضد يزيد لصالحه**

مكة لا تعني ابن الزبير، وثورة أهلها بوجه النظام الأموي لا تعني أنها استجابت له شخصيا لأنه الشخص الوحيد المؤهل لقيادتها، بل لأنه الشخص الوحيد الذي كان موجودا على ساحتها في ذلك الحين بعد غياب الامام الحسين عليه السلام ورفض الشخصيات الموجودة فيها بالقيام بأي عمل لمواجهة الدولة.

**قضية أموية وشعارات علوية**

ومهما تكن طموحاته وتطلعاته الشخصية، فان ابن الزبير قد رفع الشعارات التي من شأنها أن تدعم موقفه وتقويه أمام الأمة، وتبنَّى في البداية - ولكن بأسلوب مراوغ ملتو - نفس القضية التي رفعها الامام الحسين[1]، وان كان قد تم ذلك بدوافع

(١) فقد روي أنه حاول التحدث باسم نخبة من الشخصيات التي طلب منها معاوية مبايعة يزيد، فقال لمعاوية: «نخيرك بين احدى ثلاث، أيها أخذت فهي لك رغبة وفيها خيار: ان شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وآله، قبضه الله ولم يستخلف![أحدا، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبابكر]، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم، وان شئت فما صنع أبوبكر، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهطه الادنين من كان لها أهلا، وان شئت فما صنع عمر، صيرها إلى ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم وترك ولده وأهل بيته، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلا.» مروج الذهب: ج٥ص ١٢٠-١٢١، والكامل في التاريخ: ج٣ص٣٥٤.ولا شك أن معاوية كان يعلم ما في هذا الكلام من المغالطات والأكاذيب التي لم تكن سوى مناورة لجأ اليها ابن الزبير مع مناورات أخرى منها قوله لمعاوية: «ان كنت قد مللت الامارة فاعتزلها، وهلم ابنك فلنبايعه، أرأيت إذا بايعنا ابنك معك لأيكما نسمع ونطيع؟ لا تجتمع البيعة لكما أبدا» تاريخ الخلفاء: ص١٨٤ كما

مغايرة لدوافع الامام عليه السلام، وكانت قضية انحراف الدولة التي كان ينبغي أن تكون دولة إسلامية حقا، واستخلاف يزيد، هو ما طرحه داعيا إلى ايقاف ذلك كله، والعودة إلى بعض الصيغ التي اتبعت في عهود بعض الخلفاء السابقين، وهي صيغ لم تكن تحظى بقبول وترحيب جميع المسلمين وكانت لها ملابساتها الخاصة، وكان معاوية يرى معها أنه يستطيع أن (يجتهد) بدوره ويخرج على المسلمين بصيغة مبتدعة جديدة، مادام الآخرون قد (اجتهدوا)، وهكذا خرج بمقولته الشهيرة: «انه لم يبق الا ابني وأبناؤهم وابني أفضل من أبنائهم» (و ابني أحق) وكان يعرض بذلك بأبناء بعض الخلفاء والصحابة المشهورين، وعرض المسألة على أنها مسألة منافسة على السلطة لا غير، رأى أن الغلبة لابد أن تكون فيها لابنه خصوصا وأنه هو - معاوية - يتربع على سدة الحكم بعد معارك طاحنة، حسب أنه قد انتصر فيها بدهائه وذكائه.

وقد رأينا ملابسات استخلاف يزيد ودعوة معاوية لذلك وبذله جهودا كبيرة طوال عدة سنوات، نجح بعدها في تهيئة الجولة وترويض الأمة المسلمة المستضعفة لقبول ذلك، بعد أن أسكت الأصوات المعارضة وجعلها ترضخ لما قرره ورآه[1].

---

كان معاوية يعرف حقيقة دوافعه وحرصه على أن يؤول الأمر اليه، والعديد من جوانب أخلاقه ومنها بخله وحرصه رغم محاولاته التظاهر بالزهد والورع وكثرة العبادة وهكذا أوصى ابنه يزيد بالحذر من ابن الزبير والايقاع به وقتله إذا استطاع ذلك، وقال في وصيته: «..فأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فاذا امكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فان فعلها بك فظفرت به فقطعه اربا اربا....»، الكامل في التاريخ: ج٣ص٣٦٩ وقال لابن الزبير: «انما أنت ثعلب روّاغ كلما خرج من جحر دخل في جحر...»، السيوطي ١٨٥.

(١) فقد روي أنه جمع ابن الزبير وابن‌عمر وابن‌أبي‌بكر في مجلس عام ووضع على رؤوسهم حراسا مسلحين أمرهم بقتلهم إذا ما عارضوا كلامه، ثم صعد المنبر وألقى خطبة جاء فيها: «انا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار، زعموا ان ابن‌عمر وابن‌أبي‌بكر وابن الزبير لن يبعايعوا يزيد، وقد سمعوا وأطاعو وبايعوا له، فقال أهل الشام: والله لا نرضى حتى يبايعوا له على رؤوس الأشهاد، والا ضربنا أعناقهم، فقال: سبحان الله، ما اسرع الناس إلى قريش بالشر، لا أسمع هذه المقالة من

وقد رأينا كيف امتنع الحسين عليه السلام عن مبايعة يزيد بعد هلاك معاوية وكيف خرج إلى مكة متنكبا الطريق الأعظم. أما ابن الزبير فقد خرج بدوره من المدينة بعد مطالبته بالبيعة من قبل وكيل يزيد على المدينة سالكا طريقا جانبية لتفادي الصدام مع أعوان السلطة.

**وجود الحسين في مكة سلب منه الأضواء**

وفي مكة – امام قائد الأمة الحقيقي، الحسين بن علي عليه السلام – لم يستطع أن يجعل الناس تلتف حوله وتطمئن إلى دوافعه ونواياه، فهو لا يمتلك الرصيد الذي يمتلكه الامام.

وقد وجد ابن الزبير أنه ليس بمستوى الامام حقا، وانه في موقف لا يستطيع معه تكوين أي رصيد شعبي أو أن يحشد أية جماعة إلى صفه مما جعله يخفي نواياه الحقيقية التي أعلنها فيما بعد، وهي المطالبة بالخلافة لنفسه، فوجود الامام هناك كان يضعف مركزه ويجعل الناس لا يبايعونه ولا يتابعونه، فعندما أقبل الامام الحسين إلى مكة «...أقبل أهلها يختلفون اليه ويأتونه، ومن كان بها من المعتمرين وأهل الآفاق، وابن الزبير بها قد لزم الكعبة، فهو قائم يصلي عندها عامة النهار ويطوف، ويأتي حسينا فيمن يأتيه، فيأتيه اليومين المتوالين، ويأتيه بين كل يومين مرة، ولا يزال يشير عليه بالرأي، وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير، قد عرف أن أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه أبدا مادام حسين بالبلد، وأن حسينا أعظم في أعينهم وأنفسهم منه، وأطوع في الناس

---

أحد منكم بعد اليوم، ثم نزل. فقال الناس: بايع ابن عمر وابن أبي بكر وابن الزبير، وهم يقولون: لا والله ما بايعنا، فيقول الناس: بلى وارتحل معاوية فلحق بالشام»، السيوطي ١٨٤ وواضح من هذه الرواية ان الحسين عليه السلام لم يكن معهم كما حاول البعض ادعاء ذلك. كما ان سكوتهم – حذر الموت – والذي دفع المسلمين لمبايعة يزيد يدل على عدم توجههم الصادق لنصرة الإسلام والا لاستمروا على موقفهم السابق مهما كانت العواقب. وقد دلت الأحداث اللاحقة على تخاذل ابن عمر واستسلامه وسعى ابن الزبير للدعوة إلى نفسه وعدم مبدئيته وصدقه في العديد من الأمور والمواقف.

منه»[١].

وقد كشف حوار دار بينه وبين الامام الحسين عن تلهفه لرحيل الامام عليه السلام حتى يخلو له الجو ويمهد لحملة يقوم فيها بالدعوة لنفسه.

**حسب أنه يخدع الحسين عليه السلام بتشجيعه على ترك مكة**

قدم اليه بعد خروج ابن عباس منه «..فحدثه ساعة ثم قال: ما أدري ما تَرْكُنا هؤلاء القوم وقد كففنا عنهم، ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم.خبرني ما تريد أن تصنع؟

فقال الحسين: **لقد حدثت نفسي باتياني الكوفة، ولقد كتبت إلى شيعتي بها، واشراف الناس واستخير الله.**

فقال له ابن الزبير: أما لو كان لي بها مثل شيعتك لما عدلت عنها[٢].ثم خشي أن يتهمه، فقال: أما انك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر ها هنا لما خالفنا عليك، وساعدناك، وبايعناك ونصحنا لك.

فقال له الحسين: **إن أبي حدثني أن لها كبشا به تستباح حرمتها فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش.**

قال: فأقم ان شئت وتوليني أنا الأمر فتطاع ولا تعصي.

قال: **ولا أريد هذا أيضا.**

ثم انهما أخفيا كلامهما فالتفت الحسين إلى من هناك وقال: **أتدرون ما يقول؟**

---

(١) الطبري: ج٣ص٢٧٧.

(٢) وورد في تاريخ الإسلام للذهبي: ج٢ ص٢٦٨ وانه قال له: «ما يمنعك من شيعتك وشيعة أبيك؟ فو الله لو ان لي مثلهم ما توجهت الا اليهم».

قالوا: لا ندري جعلنا الله فداءك.

قال: **انه يقول: أقم في هذا المسجد أجمع لك الناس،** ثم قال له الحسين: **والله لأن أقتل خارجا منها بشبر أحب الي من أن أقتل فيها، ولأن أقتل خارجا منها بشبرين أحب الي من أن أقتل خارجا منها بشبر، وأيم الله لو كنت في حجر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتهم، والله ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في السبت.**

فقام ابن الزبير فخرج من عنده»(١).

**محاولة ماكرة لخلط الأوراق**

كان ابن الزبير - بمحاولة ماكرة منه - يريد خلط أوراقه مع أوراق الحسين عليه السلام باعتبار أن كليهما من (أولاد المهاجرين) و(ولاة الأمر).

ولم تفت كلماته الامام الحسين، الذي كان يشعر أنه أشد الناس رغبة لخروجه من مكة وترك الجو له..ولابد أن حديث أبيه أمير المؤمنين عليه السلام هو علم من العلم الذي زوده به رسول الله صلى الله عليه وآله...«**ان لها كبشا تستحل به حرمتها**».

لم يرد للكعبة أن تكون ساحة معارك ولم يرد لها أن تحرق أو ترمى بالأحجار وتسال على أرضها دماء المسلمين، واذ أن دولة الظلم الأموية لا تتحرج من ذلك ولا ترى منه بأساً، فان على من له حريجة في الدين ويرى للكعبة حرمة وقداسة أن لا يفسح المجال لها وأن يتجنب الكعبة.

هكذا أكد الامام الحسين لابن الزبير، ولم يكن في كلامه ما يمكن تأويله أو تجاهله... لم يخرج الامام لتكوين دولة أو اقتسام مغانم، وكان يعلم أنه مقتول ومعتدى عليه ولو كان في مكان خفي أو جحر هامة لوجده أعداؤه وقتلوه، غير أنه كان يريد أن ينتصر

(١) الكامل في التاريخ: ج٣ ص٣٩٩- ٤٠٠، والطبري: ج٣ص٢٩٤ - ٢٩٥.

للإسلام ويواجه أعداءه بدمه ودماء أصحابه، ولم يكن أمامه طريق آخر لذلك.اما أن تكون الكعبة المكان الذي ستسال عليه الدماء، فذلك ما رفضه بشدة، فالكعبة يجب أن تظل مكانا آمنا ومثابة للناس كما أراد الله ورسوله... ومن أجدر بالالتزام بأوامر الله ورسوله من الحسين الذي يذهب إلى حد تقديم دمه في سبيلهما.

ولم يبد أن ابن الزبير كان يتحرج مما كان يتحرج منه الحسين ويرفضه، فالأمر لديه سيان مادام يسعى لمملكة معاوية والاستيلاء عليها.

**الامام الحسين عليه السلام...لم تنطل عليه نوايا ابن الزبير**

كان الامام الحسين - بما له من معرفة بابن الزبير وطموحاته ومواقفه في السابق- يدرك كل ما تنطوي عليه كلماته وكان يعلم رغبته الشديدة لخروجه من مكة، وقد صارح جلساءه ممن حضروا حديثه مع ابن الزبير برأيه حول ذلك بقوله: «**ها ان هذا ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحب اليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق، وقد علم أنه ليس له من الأمر معي شيء، وأن الناس لن يعدلوه بي، فود أني خرجت منها لتخلو له**»[1].

وبذلك نرى أنه كان متنبهاً لما كان يسعى له ابن الزبير ويخطط له، وليس من المعقول أن يكون قد خدع به وبما حاول تزيينه له، كما اعتقد البعض.

**يا لك من قبرة بمعمر**

وقد أوحت لهم كلمات ابن عباس - عندما حاول منع الامام من الخروج إلى العراق بقوله: «أقررت عين ابن الزبير بخروجك من الحجاز، وهو اليوم لا ينظر اليه أحد معك»[2]، وقوله لابن الزبير: «قرت عينك يا بن الزبير، ثم أنشد قائلا:

---

(١) الطبري: ج٣ص٢٩٤ - ٢٩٥.

(٢) الكامل في التاريخ: ج٣ ص ٤٠١ والطبري: ج٣ ص٢٩٥.

يـا لـك مـن قـبرة بمعمر خلا لكِ الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري»(١).

وهكذا نعلم أن ابن الزبير لم يكن له أثر في دفع الامام إلى الخروج أو ابقائه في مكة لأن الأسباب والدوافع الكافية قد توفرت لديه وجعلته يقر الخروج دون الالتفات إلى بعض (النصائح) والانذارات الموجهة اليه، لأنه رأى أن ذلك أمر لابد منه كما أنه الأمر الوحيد الذي لابد له من القيام به.

**هل أدرك ابن عباس ما لم يدركه الحسين عليه السلام**

وكلام ابن عباس – على رواية الطبري – يؤكد أنه قد أدرك عزم الامام على الخروج وأنه لا يمكن أن يتوقف عن ذلك أو يؤجله لأي سبب من الأسباب وبذلك فانه يتيح فرصة ذهبية لابن الزبير الذي سيظل بمفرده في مكة في غياب (منافسة) القوي، ونعيد هنا، رواية الطبري عن عقبة بن سمعان، «...قال ابن عباس: لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك اياه والحجاز والخروج منها، وهو اليوم لا ينظر اليه أحد معك، والله الذي لا اله الا هو، لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علي وعليك الناس أطعتني لفعلت ذلك»(٢).

ولم تكن تلك المرة الأولى التي يحذر فيها ابن عباس الامام من الخروج، وبالتأكيد فانه يعلم حق العلم أن اصراره على ذلك لم يكن بدافع من قناعة الامام (بنصائح) ابن الزبير، التي تخلى عنها حالا، عندما علم أنه قد كشف بها نواياه الحقيقية وتقدم (بنصائح) جديدة دعا فيها الامام للبقاء في مكة وقتال يزيد فيها.

---

(١) الكامل في التاريخ: ج٣ ص ٤٠١ والطبري: ج٣ ص٢٩٥.

(٢) الكامل في التاريخ: ج٣ ص ٤٠١ والطبري: ج٣ ص٢٩٥.

ولعل ابن الزبير أدرك أن الحسين عليه السلام إذا ما قتل في العراق، فان يزيد لن يتورع عن قتاله وقتله هو، حتى ولو كان عائذا بالبيت الحرام، خصوصا وان الامام ألمح إلى أنه سيقتل حتما وسيعتدى عليه كما اعتدت اليهود في السبت.

فيزيد لم يطلب البيعة على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وحتى سيرة (الخلفاء) من قبله، وان ادعى في الظاهر أنه يطلب ذلك، وانما طلب البيعة حاكما مطلقا لا حق لأحد أن يشاركه في السلطان والرأي، وأراد الناس أن يكونوا عبيدا له، واذ أنه لم يكشف نواياه في البداية فانه كشفها في واقعة الحرة، وكان جزاء الذين أرادوا مبايعته على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله أن ضربت أعناقهم صبرا.

**ماذا لو بقي الحسين في مكة**

وبقاء الحسين عليه السلام في مكة سيتيح ليزيد الاعتداء لا عليه وحده شخصيا وانما على حرمة البيت المقدس أيضا، وهكذا خرج على رؤوس الأشهاد من أهل مكة وزوارها وحجيجها، حاملا قضية الأمة كلها لا فتا نظرها إلى خروجه المتحدي، مصرحا أمامهم أنه سائر للموت والشهادة وأنه آثر ذلك على أن لا يظل بمكة - التي لا تزال حرما آمنا - فتستباح حرمتها بقتله، أما ابن الزبير فكان يرى فيها درعا قد يحميه بعض الوقت ويمنع عنه أعداءه.

وإذا ما كان ابن الزبير قد سُرَّ بخروج الامام من مكة، فان أعدادا غفيرة من أهل مكة وحجيجها قد افتقدوه وحزنوا لذهابه، وان لم يجدوا في أنفسهم القوة اللازمة لمتابعته ومرافقته إلى ساحة النزال المقبلة في العراق، والموت معه هناك، ولم يذهب معه الا من امتلك قناعة أكيدة بضرورة مواجهة دولة الظلم، فليس من الهين على كل شخص أن يمضي إلى حد الموت بنفس الجرأة التي مضى اليها الامام الحسين عليه السلام وأصحابه عندما

لايكون متيقنا أن المهمة التي يمضي اليها هي أثمن من حياته...وهذا ما رآه الحسين وأصحابه فعلا حينما حثوا الخطى نحو العراق.

ما الذي كان يمنع ابن الزبير، لو كان - كما حاول أن يبين للامام - يتبنى نفس قضيته، وهي ازالة الانحراف وايقافه ومنع الأمة من الاستسلام والهزيمة، من المضي معه، وهو يعرف صدق نواياه وتوجهاته، ولو أنه فعل ذلك لكان قد سجل موقفا كبيرا لن تنساه له الأمة، ولعلمت أنه دافعه كان حقا القضاء على الانحراف، على أننا قلنا ان الدوافع لم تكن واحدة، غير أننا لابد أن نذكر في هذا البحث أن ابن الزبير كان له حضور كبير في أحداث، مكة، وأنه كان بغياب الحسين عليه السلام، الشخصية الرئيسية التي أثرت في تلك الأحداث فيما بعد...واذ لم يستطع الاقدام على الذهاب مع الحسين عليه السلام لاختلاف قضيتهما ودوافعهما، فانه استطاع أن يكتسب رصيدا لدى البعض باعتباره أحد المعارضين الصامدين بوجه السلطة، وقد أتاح له استشهاد الحسين وأصحابه فرصة ذهبية للتنديد بيزيد وأركان حكمه، ودعوة الأمة للالتفاف حوله، وكانت الفائدة ذات أثر مزدوج لابن الزبير عندما قتل الامام الحسين، فقد خلا له الجو أولا من الامام وذهب من لا يستطيع منافسته أو الصمود بوجهه، واستغل قضية استشهاده ليعرضها على الأمة كدليل على وحشية النظام واستبداده واستهتاره بالقيم والمثل الإسلامية الخيرة.

**بعد واقعة الحرة، أدرك المسلمون حقيقة الخطر الأموي**

بعيد واقعة الحرة قدم على ابن الزبير «كل أهل المدينة، وقد قدم عليه نجدة بن عامر المنفي في أناس من الخوارج يمنعون البيت»[1]...وقد قاتلوا جيش الشام الذي كان يقوده حصين بن نمير السكوني بعد هلاك مسلم بن عقبة المري بعد خروجه من

(١) الطبري: ج٣ص٣٧١، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٦٤.

المدينة[1]، واستمر القتال حتى الليل في اليوم الأول منه في آخر المحرم، وقد بقوا يقاتلون جيش الشام بقية المحرم وصفر وربيع الأول حتى جاءهم نعي يزيد لهلال ربيع الآخر.

في بداية ربيع الأول، سنة أربع وستين «قذفوا البيت بالمجانيق، وحرقوه بالنار وأخذوا يرتجزون ويقولون:

خطارة مثل الفنيق المزبد نرمي بها أعواد هذا المسجد

..وجعل عمرو بن حوط السدوسي يقول:

كيف ترى صنيع أم فروة تأخذهم بين الصفا والمروة

يعني بأم فروة المنجنيق»[2].

ويدل تهديدهم لهذا الرجز (الفكاهي) على أنهم لا يرون للبيت حرمة وأنه مجرد أحجار لا قيمة لها، ويذهبون إلى حد التغزل بأحجارهم التي يرمون بها «أعواد هذا المسجد» الذي خص بالكرامة وسعوا هم لامتهانه والنيل منه، ولا نعتقد أن شاعراً جاهلياً مستهتراً يجرؤ على ترديد ما ردده غزاة البيت المسلمون!، فله حرمته في نفوس الجاهليين أيضا وله قداسته التي حرصوا على أن تظل قائمة، غير منتهكة.

---

(١) وقد أوصى حصيناً بقوله: «...انظر يا برذعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به عم الأخبار ولا ترع سمعك قريشا أبدا ولا تردن أهل الشام عن عدوهم ولا تقيمن إلا ثلاثا حتى تناجز ابن الزبير الفاسق، ثم قال: اللهم: إني لم أعمل عملا قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أحب إلي من قتلي أهل المدينة ولا أرجى عندي في الآخرة» الطبري: ج٣ص٣٦٠، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٦٣.

(٢)الطبري: ج٣ص٣٦١، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٦٣.

**ابن الزبير: دعا لنفسه بعد غياب الحسين عليه السلام عن الساحة**

أظهر ابن الزبير الدعوة لنفسه بعد قتل الحسين عليه السلام، فقد قام اثر ذلك «..في أهل مكة وعظم مقتله، وعاب أهل الكوفة خاصة، ولام أهل العراق عامة، فقال: «إن أهل العراق غدر فجر إلا قليلا وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق وإنهم دعوا حسينا لينصروه ويولوه عليهم فلما قدم عليهم ثاروا إليه فقالوا له إما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد ابن سمية سلما فيمضي فيك حكمه وإما أن تحارب، فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير وإن كان الله عز و جل لم يطلع على الغيب أحدا أنه مقتول ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة فرحم الله حسينا وأخزى قاتل حسين، لعمري لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ما كان في مثله واعظ وناه عنهم، ولكنه ما هم نازل وإذا أراد الله أمرا لن يدفع أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهدا لا ولا نراهم لذلك أهلا أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه كثيرا في النهار صيامه أحق بما هم فيه منهم وأولى به في الدين والفضل أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ولا بالصيام شرب الحرام ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في تطلاب الصيد -يعرض بيزيد- ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[(١)] [(٢)].

**كلمة حق أريد بها باطل**

كانت كلمة حزينة جديرة بمحب للحسين غيور على قضيته..ولا شك أنه أراد استمالة المسلمين باظهار حزنه الشديد عليه وتبيان صفاته العظيمة والمهمة الكبيرة التي تصدى لها وقدم دمه لأجلها، ولعله كان يبدو في تلك اللحظات كما لو كان يريد السير

(١) مريم: الآية ٥٩.

(٢) الطبري: ج٣ص٣٤٦-٣٤٧.

على نفس خطه، وانه لم يرد الا ما أراده وسعى اليه.

وقد «ثار اليه أصحابه فقالوا له: أيها الرجل أظهر بيعتك، فانه لم يبق أحد اذ هلك حسين ينازعك هذا الأمر، وقد كان يبايع الناس سرا، ويظهر أنه عائذ بالبيت، فقال لهم: لا تعجلوا، وعمرو بن سعيد بن العاص يومئذ عامل مكة، وقد كان أشد شيء عليه وعلى أصحابه، وكان مع شدته عليهم يواري ويرفق.

وعلا أمر ابن الزبير بمكة، وكاتبه أهل المدينة، وقال الناس: أما اذ هلك الحسين عليهم السلام، فليس أحد ينازع ابن الزبير»[١].

وكان موقف عمرو بن سعيد من ابن الزبير قد أزعج يزيد فاستبدله بالوليد بن عتبة، وعندما عاتبه على موقفه من ابن الزبير أجابه عمرو: «...ان جل أهل مكة وأهل المدينة قد كانوا مالوا اليه وهووه وأعطوه الرضا، ودعا بعضهم بعضا سرا وعلانية، ولم يكن معي جند أقوى بهم عليه لو ناهضته، وقد كان يحذرني ويتحرز مني، وكنت أرفق به وأداريه لأستمكر منه فأثب عليه، مع أني قد ضيقت عليه، ومنعته من أشياء كثيرة لو تركته واياها ما كانت له الا معونة، وجعلت على مكة وطرقها وشعابها رجالا لا يدعون أحدا يدخلها حتى يكتبوا الي باسمه واسم أبيه، ومن أي بلاد هو، وما جاء به وما يريد، فان كان من أصحابه أو ممن أرى أنه يريده رددته صاغرا، وان كان ممن لا أتهم، خليت سبيله..»[٢].

وقد علم ابن الزبير أن يزيد قد عزل عمرو بن سعيد عن الحجاز بسببه، وقد أصبح أكثر حذرا من خليفته الوليد بن عتبة، فعندما (ولي الوليد الحجاز) أقام يريد غرة ابن الزبير فلا يجده الا متحرزا ممتنعا.

(١) الطبري: ج٣ص٣٤٦ - ٣٤٧، والكامل في التاريخ: ٤٤٦ - ٤٤٧.

(٢) الطبري: ج٣ص٣٤٩.

**ثورة نجدة بن عامر النخعي في اليمامة**

وثار نجدة بن عامر النخعي باليمامة حين قتل الحسين، وثار ابن الزبير بالحجاز، وكان الوليد يفيض من المعرَّف ويفيض مع سائر الناس، وابن الزبير واقف في أصحابه، ونجدة واقف في أصحابه، ثم يفيض ابن الزبير بأصحابه ونجدة بأصحابه.وكان نجدة يلقى ابن الزبير فيكثر حتى ظن أكثر الناس أنه سيبايعه...»[١].

كان نجدة بن عامر الحنفي أحد الخوارج الذين لا يرون قتال أمير المؤمنين عليه السلام ويخطئون من قاتله وقد عزم مع جماعة من أصحابه على التوجه إلى المدينة لحمايتها من جيش الشام، فسبقهم اليها، فذهبوا إلى مكة وقد توقعوا ذهابه اليها.

وقد أراد نجدة وأصحابه امتحان ابن الزبير، فان كان على رأيهم بايعوه...«فلما صاروا إلى ابن الزبير عرفوه بأنفسهم، فأظهر لهم أنه على رأيهم، حتى أتاهم مسلم بن عقبة وأهل الشام، فدافعوهم، ولم يبايعوا ابن الزبير»[٢].

في الجولة الأولى من الحوار، وقد دخلوا عليه وهو متبذل وأصحابه متفرقون عنه قالوا له: «انا جئناك لتخبرنا رأيك، فان كنت على الصواب بايعناك، وان كنت على غيره دعوناك إلى الحق.ماذا تقول في الشيخين؟ قال: خيرا.

قالوا: فما تقول في عثمان الذي أحمى الحمى وآوى الطريد[٣]، وأظهر لأهل مصر شيئا وكتب بخلافه، وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس، وآثرهم بفيء المسلمين، وفي الذي بعده الذي حكم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير نائب ولا نادم، وفي أبيك

(١) الطبري: ج٣ص ٣٤٩- ٣٥٠، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٤٩.

(٢) الكامل للمبرد: ج٣ص١٥٥.

(٣) المقصود به الحكم بن أبي العاص -والد مروان -الذي طرده رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الطائف فرده عثمان أيام خلافته وآواه.

وصاحبه، وقد بايعا عليا، وهو امام عادل مرضي لم يظهر منه كفر، ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا، وأخرجا عائشة تقاتل، وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن في بيوتهن، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة، فان أنت قلت كما نقول فلك الزلفة عند الله والنصر على أيدينا ونسأل الله لك التوفيق، وان أبيت الا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولي في السنين الست التي أحلت دمه ونقضت أحكامه وأفسدت امامته، خذلك الله وانتصر منك بأيدينا»[١].

**ابن الزبير: أموي من لون آخر**

واذ أن ابن الزبير لم يستطع ابداء رأيه الصريح وهو غير مستعد لمواجهتم إذا ما قاتلوه، فانه حاول مداراتهم وأجابهم أجوبة فضفاضة ودعاهم لملاقاته عشاء وليفصل لهم رأيه في كل ما طرحوه من أمور وآراء، وعندما حضروا في الموعد المحدد خرج اليهم وقد لبس سلاحه مما لفت نظر نجدة الذي قال لأصحابه: «هذا خروج منابذ لكم»[٢]، وحاول في هذه المقابلة الثانية تبرير أعمال عثمان وبدا أنه كان متحيزا له بشكل واضح، وأشاد بأبيه وطلحة وعائشة وبعد هلاك يزيد قال له نافع بن الأزرق: «يا بن الزبير، اتق الله ربك، وابغض الخائن المستأثر - يريد بذلك عثمان - وعاد أول من سن الضلالة، وأحدث الأحداث وخالف حكم الكتاب، فانك ان تفعل ذلك ترض ربك، وتنج من

(١) الكامل للمبرد: ج٣ص١٥٥ - ١٥٦، ومروج الذهب: ج٢ص٢٣٥- ٢٣٦، ومذاهب الخوارج مذاهب عجيبة غريبة، وكان مبدأ أمرهم ان أجبروا أمير المؤمنين عليه السلام على قبول التحكيم رغم انه رفض ذلك في البداية، وعندما أخل الحكمان بالحكم وكان لصالح معاوية طلبوا من الامام رفضه، فلم يتسن له ذلك بعد ظهور الفتن والخلافات بين جيشه، وقد حاربهم الامام، وأعد حملة كبيرة لقتال معاوية وأهل الشام، الا أنه اغتيل على يد خارجي في مؤامرة غامضة، وقد نهى الامام عن قتالهم بعد وفاته، عالما أن القوى التي ستتصدى لهم لن يكون دافعها الحفاظ على الإسلام وانما على عروشها.

(٢) الكامل للمبرد: ج٣ص١٥٦.

العذاب الأليم نفسك وان تركت ذلك فأنت من الذين استمتعوا بخلاقهم، واذهبوا في الحياة الدنيا طيباتهم وعرضوا عليه (نافع وأصحابه) رأيهم في عثمان قائلين: «ثم ان الناس استخلفوا عثمان بن عفان فحمى الأحماء وآثر القربى، واستعمل الفتن ورفع الدره، ووضع السوط ومزق الكتاب وحقر المسلم وضرب منكري الجود، وآوى طريد الرسول صلى الله عليه وآله وضرب الاسبقين بالفضل، وسيرهم وحرمهم، ثم أخذ فيء الله الذي أفاءه عليهم فقسمه بين فساق قريش، ومجان العرب، فسارت اليه طائفة من المسلمين اخذ الله ميثاقهم على طاعته.لا يبالون في الله لومة لائم، فقتلوه، فنحن لهم أولياء، ومن ابن عفان وأوليائه براء.فما تقول أنت يابن الزبير؟ وقد رد عليهم ابن الزبير قائلاً «وقد فهمت الذي ذكرت به عثمان بن عفان رحمة الله عليه، واني لا أعلم مكان أحد من خلق أعلم بابن عفان وامره مني.كنت معه حيث نقم القوم عليه، واستعتبوه، فلم يدع شيئا استعتبه القوم فيه الا أعتبهم منه.ثم أنهم رجعوا اليه بكتاب له يزعمون انه كتبه فيهم، يأمر فيه بقتلهم فقال لهم: ما كتبته، فإن شئتم فهاتوا بينتكم، فان لم تكن حلفت لكم، فو الله ما جاؤوه ببينة، ولا استحلفوه، ووثبوا عليه فقتله.وقد سمعت ما عبته، فليس كذلك، بل هو لكل خير أهل، وأنا أشهدكم ومن حضر أني ولي لابن عفان في الدنيا والآخرة، وولي أوليائه وعدو أعدائه.قالوا: فبرئ الله منك يا عدو الله.قال: فبرئ الله منكم يا أعداء الله..»[١].

ولعله ما كان بامكان أي أموي الدفاع عن عثمان بأفضل مما دافع عنه ابن الزبير، واذ أنه كان على الخط المعادي لأهل البيت منذ البداية ومن المناوئين لهم، فانه اعتقد أنه يستطيع استقطاب بقية السائرين على هذا الخط واستمالتهم، وهم شرائح كبيرة أعدها معاوية ورباها وضللها في حملة دؤوبة مدروسة طوال حوالي ربع قرن؛ وبالفعل كان

(١) الطبري: ج٣ص٣٩٨، والكامل في التاريخ : ج٣ص١٩٠.

معظم هؤلاء أميل اليه بعد هلاك يزيد، وكاد الأمر أن يستتب له لو لا أن تغلب مروان وولده عبدالملك عليه في النهاية.

وكان ابن الزبير بعثمانيته يضع القواعد ويمد الجسور بينه وبين كل (العثمانيين) بما فيهم الموالون للخط الأموي برمته؛ فعندما سيصير خليفة -وهو قد دعا إلى نفسه فعلا- فان الأوضاع لن تتغير وان الموالين للخط الأموي سيظلون في مراكزهم ولن تتأثر مكاسبهم أو امتيازاتهم التي تحققت في ظل النظام السابق، وكل ما في الأمر أنهم سيعيشون في ظل حاكم (عثماني)، أموي بعد أن كانوا يعيشون في ظل حاكم أموي (عثماني)، كانت الأموية، وستعود العثمانية، ومنبعهما واحد وتوجههما واحد، وان كانت الأموية أقل حياء وأكثر تجاهرا بالمنكر وجرأة على ارتكابه، وهكذا وجدنا ترحيبا بابن الزبير لدى أوساط الأمويين وفي مقدمتهم حصين بن نمير، قائد جيشهم في مكة، حال هلاك يزيد، وكاد مروان وكبار آل أمية يبايعونه لو لا قدوم عبيدالله بن زياد وتحريضه مروان على طلب الأمر لنفسه.

**منهج ابن الزبير: عداوة أهل البيت عليهم السلام**

وأثبت ابن الزبير بادعائه سلامة خط عثمان ودفاعه عنه انه إنسان دون مبادئ وانه لم يكن سوى ساع للحكم والسلطان، فليس من المعقول وقد كان في مركز أتيح له فيه الاطلاع على العديد من خفايا الأمور والأحداث، أن يجهل الانتهاكات الكبيرة التي حدثت في عهد عثمان والتي كان السبب في معظمها عدوه اللدود مروان[١].

كما أثبت أنه على خطه الأول في عداوة أهل البيت وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام،

---

(١) «روى هشام بن عروة عن أبيه قال: كان عثمان استخلف عبدالله بن الزبير على الدار يوم الدار فبذلك أدعى ابن الزبير الخلافة»، مروج الذهب: ج٥ ص ١٦٦.

فهو «من المبغضين لأهل البيت.فكان ينال من علي بن أبي طالب في خطبه..»[١] وبذلك يمهد لنيل ود أهل الشام وكسب رضاهم منذ البداية.

كان واضحا للجيل الذي عاصر ابن الزبير أنه لم يكن يستهدف من حركته تصحيح الانحراف وتقويم الأوضاع واعادتها حتى إلى ما كانت عليه في عهدي الشيخين... وانه كان يعد بالسير على خط عثمان، فقد زين للناس سيرته وكان مدافعا قويا عنه، كان - بكلمة - أحد الساعين للسلطان وكان توجهه دنيويا بحتا وان غلفه بالدين وجعل الكعبة حصنا له.

لقد أدرك ابن عمر وابن عباس وأبوبرزة الأسلمي وجميعهم في مكة، ان ابن الزبير كان يسعى للدنيا ويقاتل عليها...

ورغم أن ابن عمر كان يتحاشى الصدام مع أية جهة ذات نفوذ، فانه صرح برأيه حول بيعة ابن الزبير، حينما طالبته بها زوجته (صفية بنت أبي عبيدة الثقفي) أخت المختار وقال لها: «أما رأيت بغلات معاوية التي كان يحج عليها، فان ابن الزبير لا يريد غيرها»[٢]، فابن عمر وان كان يتظاهر بالابتعاد عن الحياة العامة فانه كان خبيرا بقومه يرصد تصرفاتهم ويتابع تحركاتهم، وله في خلفياتهم وماضيهم معرفة كبيرة.

**شهادة (أبو برزة الأسلمي) بحق ابن الزبير: «ان ذاك الذي بمكة، والله ان يقاتل الا على الدنيا...»**

أما أبو برزة الأسلمي - أحد الصحابة المعروفين فقد كان يتذمر من الصراع الذي

(١) مروج الذهب: ج٣ص ٩٧.
(٢) الانتفاضات الشيعية: ص٤١٣.
وقال ابن عباس بعد وفاته «..مازلت أخاف عليه منذ رأيته تعجبه بغلات معاوية الشهب» العقد الفريد: ج٥ ص ١٦٨.

يشهده بين يزيد وابن الزبير، ويرى أنهما يسعيان للدنيا، وان الضمانة الوحيدة لسلامة المسلمين هي التمسك بالخط الذي سار عليه أهل البيت مع أنه لم يذكر اسمهم صراحة لجلّاسه.

روى البخاري عن أبي المنهال قال: «لما كان ابن زياد ومروان بالشام، ووثب ابن الزبير بمكة، ووثب الفراء بالبصرة، انطلقت مع أبي إلى أبي برزة الأسلمي، حتى دخلنا عليه في داره.فقال أبي: يا أبابرزة، ألا ترى ما وقع فيه الناس؟

فقال: اني احتسبت عندالله، كأني أصبحت ساخطا على احياء قريش، انكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذلة، والقلة والضلالة وان الله أنقذكم بالإسلام، وبمحمدﷺ، حتى بلغ بكم ما ترون، وهذه الدنيا التي أفسدت بينكم.ان ذاك الذي بالشام والله إن يقاتل الا على الدنيا، وان هؤلاء الذين بين أظهركم والله إن يقاتلون الا على الدنيا، وان ذاك الذي بمكة، والله إن يقاتل الا على الدنيا»(٣).

وقد روى الحاكم تكملة لأقوال أبي برزة قائلا: «...فقيل له: فما تأمرنا؟ قال: لا أرى غير الناس الا عصابة ملبدة، خماص البطون من أموال الناس، خفاف الظهور من دمائهم»(٤).

**بين ابن الزبير وابن عباس عندما قطع ابن الزبير ذكر رسول اللهﷺ في الصلاة**

أما الموقف بين ابن الزبير وابن عباس - الذي لم يبايعه أيضا - فكان متواترا على الدوام وقد جرت خصومات وألقيت خطب وبلغ العداء بينهما أن ابن الزبير قطع ذكر رسول اللهﷺ في خطبة وهاجم بني هاشم(٥)، وقد جرت بينهما خصومات ومساجلات

(٣) صحيح البخاري: ط ٢٣٠ ك الأحكام.
(٤) المستدرك: للحاكم: ج٤ ص٤٧١.
(٥) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ج٥ ص٨٢١.

عديدة بسبب رفض ابن عباس ابن الزبير وتنديده به[١]، كما كان ينتقص ابن عباس[٢] كما كان الجو متوترا بين ابن الزبير ومحمد بن الحنفية بعد أن رفض هذا الأخير مبايعته وأبى ابن الزبير الا ذلك وألقى خطبة نال فيها من أميرالمؤمنين ورد عليه ابن الحنفية بخطبة أخرى في المسجد الحرام، واستمر الموقف كذلك حتى بعد وفاة يزيد واشتداد أمر ابن الزبير، وقد ذهب إلى حد سجنه مع جماعة من بني هاشم رفضوا مبايعته كذلك في أحد سجون مكة ناويا احراقهم فيه لولا أن خلصهم المختار بن ابي عبيد الثقفي[٣].

ولابد للمرء أن يتساءل: فما فرق ابن الزبير عن غيره من الأمويين وقد تولى عثمان؟ ولابد أننا قد أشرنا إلى بعض دوافعه من ذلك، ولا نرى بأسا من الاشارة إلى بعض مواقفه وأقواله، ومنها نرى أنه طالب ملك لا مدافع عن الإسلام كما ادعى ذلك وحاول الظهور بمظهر الإنسان الورع التقي الذي لزم البيت للعبادة والنسك، ولم ينس التاريخ محاولته الوقوف مع الخوارج وادعاءه أنه منهم، حتى إذا تولى عثمان تفرقوا عنه «...لما سمع ابن الزبير للخوارج في القول، وأظهر أنه منهم قال له رجل يقال له قيس ابن همام بن رهط الفرزدق:

يابن الزبير أتهوى عصبة قتلوا ظلما أباك ولما تُنزع الشكك
ضحوا بعثمان يوم النحر ضاحية ماأعظم الحرمة العظمى التي انتهكوا

فقال ابن الزبير: لو شايعتني الترك والديلم على قتال أهل الشام لشايعتها، فتفرقت الخوارج عن ابن الزبير لما تولى عثمان..»[٤].

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ج٥ ص٨١٨.
(٢) مروج الذهب: ج٣ص ٩٧.
(٣) تاريخ اليعقوبي: ص٢٦١ - ٢٦٢، ومروج الذهب: ج٢ص٨٦.
(٤) الكامل في اللغة والأدب للمبرد: ج٣ ص١٥٨.

كما لم ينس محاولاته استمالة المختار بن ابي عبيد الثقفي ثم تخليه عنه ومحاربته بعد أن اعتقد أن الأمور كادت أن تستتب لصالحه.

**ابن الزبير: تكلف في العباس لكسب الناس**

ومهما يتحدث نقلة الأخبار والمؤرخون عن صفاته الحسنة، فانك تلمح تكلفا من جانبه لعرض مثل هذه الصفات على الناس، فبها يستطيع استمالتهم بعد أن لم يجدوها في قادة الدولة ورعاة الناس وساستهم.

ترك يزيد الصلاة وشرب الخمر وتمادى في الاستهانة بالحرمات والحدود، وأبرز ابن الزبير نفسه كأكبر حريص على اقامة الشعائر التعبدية الظاهرية بشكل لا يقدر عليه كل إنسان..«قال عمرو بن دينار: ما رأيت مصليا أحسن صلاة من ابن الزبير، وكان يصلي في الحجر - والمنجنيق يصيب طرف ثوبه - فما يلتفت اليه.

وقال مجاهد: ما كان باب من العبادة يحجز الناس عنه الا تكلفة ابن الزبير، ولقد جاء سيل طبق البيت فجعل يطوف سباحة..وكان صواما قواما، طويل الصلاة وصولا للرحم عظيم الشجاعة، قسم الدهر ثلاث ليال: ليلة يصلي قائما حتى الصباح، وليلة راكعا، وليلة ساجدا حتى الصباح...»[1].

ولعله اراد بهذا التكلف الذي ألزم به نفسه أن يظهر كبديل مقبول لآل البيت عليهم السلام الذين اشتهروا بالعبادة والعلم، لم يتكلفوا بذلك ولم يتظاهروا به، وكان سلوكهم أصيلا منسجما مع استجابتهم للإسلام وفهمهم له...اضافة لما أراد ابرازه من تناقض بين اداءاته العبادية الطقوسية التي تستغرق وقتا طويلا منه والاداءات العبادية الطقوسية للحكام التي بلغت الحضيض ولم يعودوا يكلفوا أنفسهم مشقة التظاهر بها أمام المسلمين.

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص١٩٧ - ١٩٨.

وقيل انه «أول من كسا الكعبة الديباج، وكان كسوتها المسوح والأنطاع»(١) فهل كانت تغيب عن ذاكرته تحذير الحسين عليه السلام له أن لا يكون سببا لانتهاك حرمتها، وقيامه بتركها وقد رفض أن تكون درعا له، وقوله له: انه يجب أن يقتل خارجا عنها، لأنه حُدِّثَ أن كبشا سيقتل بها ولا يجب أن يكون ذلك الكبش؟

وما قيمة أن يكسوها بالديباج أو أن يوسع بناءها وقد جعلها هدفا من أهداف العدو المرصودة بالشر والعدوان، وكان السبب أن يقدم أعداء الإسلام على ضربها وحرقها كلما أرادوا ذلك؟

هل ان الديباج الذي كسا به الكعبة يزيل المرارة من نفوس المسلمين وهم يرون بيت الله العتيق ينتهك بتلك الطريقة الفظة الغليظة المستهينة التي لا تقيم أي وزن للحرمات والمقدسات.؟

أقدم كثيرون على كسوة الكعبة الشريفة بالديباج وبأرقى أنواع الأقمشة، قام بذلك عبدالملك بن مروان وملوك أمية من ولده وملوك بني العباس، فهل كانت تلك مآثر تذكر لهم، وقد انتهكوا الإسلام وحرمة المسلمين.؟

**دينه كره محمد وآله صلى الله عليه وآله**

كان ابن الزبير أحد الذين نصبوا العداوة لأهل البيت ولأميرالمؤمنين عليه السلام خاصة، حتى أنه هو الذي حرض أباه الزبير على منابذته ومناوئته، مما لفت ذلك نظر أميرالمؤمنين عليه السلام فقال في ذلك قولته المعروفة: «..**مازال الزبير رجلا منا أهل البيت،**

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص ١٩٨، وذهب آخرون – كالواقدي – إلى نسبة قول للباقر عليه السلام ان أول من كسا الكعبة الديباج يزيد بن معاوية، وهو أمر لا يشرفه حتى ولو كان قد قام به فعلا، فما أهمية ذلك وهو قد أقدم على انتهاك حرمتها وقد ضربها بالاحجار وأحرق أستارها...؟ وقيل ان أول من كساها بالديباج عبدالملك بن مروان، تاريخ الخلفاء: ص ٢٠٤.

**حتى أدركه ابنه عبدالله فلفته عنا»**[١] وقد أدى ذلك إلى أن يقتل الزبير بيد عمرو بن جرموز المجاشعي غيلة بعد أن أدرك خطأه واعتزل يوم الجمل..وقد كاد عبدالله بن الزبير نفسه أن يقتل في تلك المعركة بيد مالك الأشتر لو لا أن عفا عنه مالك[٢].

ودوافع كراهية ابن الزبير للنبي صلى الله عليه وآله ولأميرالمؤمنين وأولاده من بعده تكاد تكون معروفة لدى الجميع[٣] تضاف اليها رغبته في استمالة كل المناوئين له عليه السلام بما فيهم السائرون على خط الحزب الأموي كما أسلفنا..

**تحذيرات الرسول صلى الله عليه وآله من ابن الزبير: «ويل للناس منك وويل لك من الناس...»**

غير أن المؤرخين وكتاب السيرة أسهبوا في الحديث عن شخصية ابن الزبير وحياته...فقد ذكر هو نفسه أن الرسول صلى الله عليه وآله قد حذر منه كما حذره هو نفسه.

«أخرج أبويعلى في مسنده عن ابن الزبير أن النبي صلى الله عليه وآله احتجم، فلما فرغ قال له: **يا عبدالله، اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد**، فلما ذهب شربه، فلما رجع قال: **ما صنعت بالدم؟** قال: عمدت إلى أخفى موضع فجعلته فيه، قال: **لعلك شربته؟** قال: نعم.قال: **ويل للناس منك وويل لك من الناس**.فكانوا يرون أن القوة التي به من ذلك

---

(١) مروج الذهب: ج٥ص ٦٤.

(٢) مروج الذهب: ج٥ص ٧٥.

(٣) «لما توطد لابن الزبير أمره وملك الحرمين والعراقين، أظهر بعض بني هاشم الطعن عليه وذلك بعد موت الحسن أو الحسين، فدعا عبدالله بن عباس ومحمد ابن الحنفية وجماعة من بني هاشم إلى بيعته، فأبوا عليه، فجعل يشتمهم ويتناولهم على المنبر، واسقط ذكر النبي صلى الله عليه وآله من خطبته فعوتب في ذلك فقال: والله ما يمنعني من ذكره علانية أني أذكره سرا وأصلي عليه.ولكن رأيت هذا الحي من بني هاشم إذا سمعوا ذكره اشرأبت أعناقهم، وأبغض الاشياء إلي ما يسرهم.ثم قال لتبايعن أو لأحرقنكم بالنار، فأبوا عليه.فحبس محمد ابن الحنفية في خمسة عشر من بني هاشم في السجن...» العقد الفريد: ج٥ ص١٦١.

الدم»[١].

ومهما يكن من أمر هذه الرواية التي كان مصدرها وراويتها الأول هو ابن الزبير نفسه، فانها تشير إلى أمور عديدة...منها أنه أراد أن يبين للناس أنه قوي قوة استثنائية لا يبلغها أحد من الناس[٢]، وأن لا أحد يستطيع أن ينال منه لأن قوته مستمدة عن رسول الله، وقد جرت دماؤه في عروقه! ولا ندري لم لا تكون كذلك في أجسام كل الذين جرت دماء النبي في عروقهم، لا الدماء التي نبذها جسمه ورماها بعد الحجامة.

وتعيد قصته إلى الأذهان قصة معاوية التي احتفظ بقلامات من أظفار رسول الله ﷺ وشعره، وقد أمر بسحقها ووضعها في عينيه وفمه لتنجيه من الهلاك ومن النار بزعمه، ناسيا أنه انتهك حرمة الرسول ﷺ وحاربه وكان من أشد أعداء الذين يتمون اليه انتماء صحيحا وهم من لحمه ودمه، فلا ندري كيف يعتقد من يقدم على قتال آل الرسول ﷺ وسفك دمائهم، أن أظفاره وما فضل من شعره ستنجيه من الهلاك.

وإذا ما كان ابن الزبير قد ولد بعد عشرين شهرا من الهجرة[٣]، فلابد أنه كان طفلا صغيرا حتى وفاة النبي ﷺ نفسه، ولا يعلم أحد كيف توصل إلى ادراك ما سينجم عنه شربه لدم رسول الله ﷺ الذي أمره أن يهرقه.

ثم ألا يدل عصيانه لأوامر رسول الله ﷺ وهو لا يزال صبيا صغيرا على استعداد لعصيانه في كل ما أمر به ونهى عنه؟

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء:ص ١٩٨.
(٢) مع أن المؤرخين رووا أن محمد ابن الحنفية كان يتمتع بقوة بدنية تتفوق على قوته كثيرا مما أثار حسده وغيظه عليه.
(٣) تاريخ الخلفاء:ص ١٩٧.

**اول ما أفصح به وهو صغير: السيف**

لعل هذه القصة من موضوعات ابن الزبير نفسه أراد نشرها بين الناس للغاية التي ذكرناها أو لأمر قد أضمره في نفسه.

«أخرج عن هشام بن عروة قال: كان أول ما أفصح به عمي عبدالله بن الزبير -وهو صغير-السيف، فكان لا يضعه من فيه، فكان أبوه إذا سمع ذلك منه يقول: أما والله ليكونن لك منه يوم ويوم ويوم»[١].

ولابد أن خبرا ما عن رسول الله ﷺ بشأن ولده قد وصل اليه فصرح بما صرح به بشأن هذا الغلام الجامح الطموح الذي كان له من السيف يوم في الجمل كاد أن يقتل فيه وآخر في حصار مكة الأول في دولة يزيد ثم ثالث في دولة عبد الملك في حصار مكة التالي...وقد قضى عليه الحجاج في هذا اليوم الثالث.

وقد روى لنا المؤرخون قصصا عديدة عن بخل ابن الزبير ومنها قصص طريفة ذكرت لغرابتها[٢]، وقد عد من البخلاء المشهورين، كما ذكرت عن ذلك أبيات من الشعر اشتهرت وذاعت بين الناس[٣]...وهي صفة لا يحملها إنسان يريد التقرب إلى الله حقا، كما أنها غير لائقة بمن يتصدون لقيادة الناس وتزعمهم، فكيف بمن يدعي خلافة رسول الله ﷺ..

**بخيل حسود**

وقد انزعج مصعب من بخل أخيه عبدالله فكتب اليه: «...من سألك شيئا فاكتب الي به، فان أعطيته كان حمده لك، وان منعته كان ذمه علي.

(١)تاريخ الخلفاء:ص ١٩٩.
(٢) تاريخ الخفاء:ص ١٩٩.
(٣) راجع العقد الفريد: ج ٧ ص١٩٦- ١٩٧ وج٨ ص١٢، وراجع تاريخ الخلفاء:ص ١٩٩.

فلم يكتب لأحد اليه الا أعطاه، فأمسك عن الكتابة لأحد اليه»[١].

وقد رويت قصص عن حسده، وخصوصا لابن الحنفية الذي تفوق عليه بقوته البدنية...

ورويت قصص عن سوء خلقه وخصوصا مع أهل العراق بعيد قتل المختار، وقد حسب أن الأمور قد استتبت لصالحه نهائيا وأصبح بامكانه القضاء على خصومه في الشام...«قتل مصعب من أصحاب المختار ثلاثة آلاف، ثم حج في سنة احدى وسبعين فقدم على أخيه عبدالله بن الزبير ومعه وجوه أهل العراق.فقال: يا امير المؤمنين قد جئتك بوجوه أهل العراق، ولم أدع لهم نظيرا، فأعطهم من المال، قال: جئتني بعبيد أهل العراق لا اعطيهم من مال الله، وددت أن لي بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام صرف الدينار بالدرهم.

فلما انصرف مصعب ومعه الوفد من أهل العراق، وقد حرمهم عبدالله بن الزبير ما عنده فسدت قلوبهم، فراسلوا عبدالملك بن مروان حتى خرج إلى مصعب فقتله»[٢].

ولا شك أن ابن الزبير لم يكن يتمتع بكياسة وحسن تصرف في المواقف الحاسمة، واذ أن بخله غلبه، فلم ير لأحد من وجوه أهل العراق حقا من أعطياته، فانه أراد تلافي ذلك بتوجيه الذم اليهم وتحميلهم مسؤولية ما حدث من مشاكل، ولعله دغدغ بذلك مشاعر أهل الشام.

واذ لم ير أهل العراق الا وجها أمويا ادعى كره آل أمية، واذ أنه وعد بالسير على خط عثمان وتبنى الدفاع عنه، فانهم رأوا أن الأمر سيان أن يحكمهم ابن الزبير أو ابن مروان،

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف: ج٥ص ١٩٦.

(٢) العقد الفريد: ج٥ ص ١٥٤.

وليكن الذي يدفع لهم ويعاملهم بأكثر قدر من الاحترام هو الجدير بمبايعتهم وولائهم الذي أصبح سلعة في سوق الحكم والمصالح بعد غياب القيادة الحقيقية عن الساحة.

**كاد أن يتغلب لولا مشورة ابن زياد على مروان**

ولا نريد استقصاء قضية ابن الزبير إلّا إلى المدى الذي يفيدنا في هذا البحث، كالحوادث التي رافقت حياته وكان له دور بارز فيها تحتاج إلى دراسة واسعة قد يتصدى لها بعض المختصين ليعرضوا علينا دوافع هذا الرجل الطموح الذي سعى لنيل منصب (الخلافة) بجد ومثابرة وعناد وكان سببا لحرف أبيه عن أميرالمؤمنين عليه السلام ثم مقتله فيما بعد، وكان سببا لأكبر انتهاك نال الكعبة على يد الحكام الأمويين رغم تحذيره من القيام بالقتال هناك.غير أننا لابد أن نشير إلى بعض الحوادث التي رافقت خروج ابن الزبير وأهل مكة على حكومة يزيد والمطالبة لنفسه بالخلافة بعد هلاكه ومنها ضرب الكعبة من قبل حصين بن نمير، وموت يزيد ودعوة حصين اياه للذهاب معه إلى الشام واعلان نفسه خليفة هناك، وعزم مروان ووجوه بني أمية على مبايعته، وهروب عبيدالله بن زياد من البصرة إلى الشام وتحريضه مروان إلى المطالبة بالخلافة لنفسه بعد أن كاد يستسلم لابن الزبير الذي بويع بالخلافة في معظم الحواضر الإسلامية المهمة، ثم استتباب الأمر في النهاية لعبد الملك بعد موت مروان والقضاء على منافسيه في الشام والعراق..ثم القضاء على ابن الزبير وضرب الكعبة ثانية بشكل أشد على يد الحجاج بن يوسف الثقفي.

على أن ما يلفت نظرنا في كل تلك الوقائع، أن الحروب المعلنة بين الفرق المتصارعة لم تعد ترفع فيها الشعارات الإسلامية البراقة التي كانت ترفعها في السابق في محاولة لايهام الأمة أن هدفها الكبير هو حماية الإسلام وتأمين وحدة المسلمين، كما فعل ذلك معاوية وجماعة من الطامحين للحكم، فلم تعد المسألة تعرض الآن كمسألة إسلامية

وخلافة إسلامية بقدر ما أصبحت قضية ملك عقيم لا يريد أحد أن يتنازل عنه للآخرين...وأصبح هم المتكلمين عن الشرعية أن يبينوا (شرعية) حكم من بويع أولا، وعدم شرعية منافسيه لأنهم لم يسبقوه إلى ذلك وشرعية حكمهم بعد أن مات هذا، وأصبحنا نسمع أقوالا وفلسفات غريبة طلع بها علينا أناس مرموقون من السلف الصالح الذي ظل يحظى بمكانة مرموقة لدى أجيال عديدة من المسلمين إلى يومنا هذا.

يقول السيوطي في (تاريخ الخلفاء)، عند استعراض أمر ابن الزبير:

«... وكان ممن أبى البيعة ليزيد بن معاوية وفر إلى مكة ولم يدع إلى نفسه لكن لم يبايع فوجد عليه يزيد وجداً شديداً فلما مات يزيد بويع له بالخلافة وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان وجدد عمارة الكعبة فجعل لها ما بين على قواعد إبراهيم وأدخل فيها ستة أذرع من الحجر، ولم يبق خارجاً عنه إلا الشام ومصر فإنه بويع بهما معاوية بن يزيد فلم تطل مدته فلما مات أطاع أهلهما ابن الزبير وبايعوه ثم خرج مروان ابن الحاكم فغلب على الشام ثم مصر واستمر إلى أن مات سنة خمس وستين وقد عهد إلى ابنه عبد الملك.

**بين الذهبي وابن خلدون...حكايات وأساطير**

والأصح ما قاله الذهبي أن مروان لا يعد في أمراء المؤمنين، بل هو باغ خارج على ابن الزبير، ولا عهده إلى ابنه بصحيح، وانما صحت خلافة عبدالملك من حين قتل ابن الزبير، وأما ابن الزبير فانه استمر بمكة خليفة إلى أن تغلب عبدالملك فجهز لقتاله الحجاج في أربعين ألفا، فحصره بمكة أشهرا، ورمى عليه بالمنجنيق...فظفر به وقتله وصلبه...»[1].

---

(١) تاريخ الخلفاء: ص ١٩٧- ١٩٨.

وإذا كانت بداية عبدالملك غير مشروعة عندما خرج على ابن الزبير، فكيف صحت خلافته بعد أن تغلب عليه بعد ذلك...؟ لا شك أن من يقول بذلك يريد أن يقول أيضا: ان الحق مع القوي وان لا شريعة أو قانون الا شريعة القوة أو قانونها.

واذ تغلب من تغلب...فلا بأس أن نذهب إلى حد تمجيده وتبرئته من العيوب والمساوئ وتحسين صورته، لأن قانون الغلبة هو السائد ومن يحكمون الآن لا يختلفون عمن حكموا من قبل.

يقول ابن خلدون عن مروان وابنه اللذين عدا باغيين على ابن الزبير قبيل مقتله، ربما حتى برأي ابن خلدون نفسه، مبررا سعيهما لاستلام الحكم «...وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وان كانوا ملوكا، لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي انما كانوا متحرين لمقاصد الحق الا في ضرورة تحملهم على بعضها، مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد...»[1].

وإذا كانت (الضرورات) التي تحمل مروان وابنه على انتهاج مذهب أهل البطالة والبغي كثيرة ماداما يريدان توطيد سلطانهما، فلابد أن يقال انهما كانا يخشيان افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد كما يقول ابن خلدون، ولابد أن تسوى المسألة لمقاصد الحق، وانهم اجتهدوا، فأصاب من أصاب منهم وأخطأ من أخطأ والجميع في نهاية المطاف مثابون مأجورون، وفي جنات النعيم..أما الملايين من أبناء الأمة الذين كانوا ضحايا مباشرة وغير مباشرة لصراعاتهم وأطماعهم، فلابد أنهم هم الذين سيكون حسابهم عسيرا وسيلقون أشد الجزاء والعقوبات في نار جهنم إذا ما (أخطؤوا) أو رفضوا الانصياع للسلطان (العادل المجتهد المتحري مقاصد الحق والعدالة)...فجهنم ليست الا لأمثال هؤلاء...!

(١) ابن خلدون: المقدمة: ص٢٢٨.

أما (أقطاب) الحكم فلا بأس أن يحارب بعضهم بعضا ويبغي بعضهم على بعض، ماداموا يتحرون مقاصد العدل والحق، ولابأس أن يسب بعضهم بعضا أو يخطئه أو يكفره أو يشن الحرب عليه.

ويهمنا أن نذكر هنا أن يزيد أصبح لا يذكر بعد موته - حتى من قبل الحكام الأمويين أنفسهم -الا بكل سوء، وقد تنكر له من كان يدين له بالولاء بالأمس كمروان وعبدالملك ابنه، وقد عملوا على فضح أعماله وكأنهم لم يكونوا راضين بل ومشاركين في جرائمه وانحرافاته(١).

**مسلم بن عقبة المري: بذَّاء فاحش، عبد فرعون**

سار مسلم بن عقبة إلى مكة، بعد أن أباح المدينة - كما رأينا - وقد هلك في الطريق، وكان مريضا، وقد عين محله الحصين بن نمير بأمر مسبق من يزيد ليكمل المسير إلى مكة ويفعل فيها فعله في المدينة.

وقد دل سلوك مسلم بن عقبة على قناعة وايمان مطلقين بمعاوية وابنه يزيد، وتحيز ظاهر اليهما، رأى معه أنه قد قام بفعل يرضي الله مادام أنه سيرضي سيده يزيد...وقد رأينا أنه قد عمد إلى ألفاظ نابية وسلوك خشن أراد أن يظهر به ازدراءه للإسلام ورسوله ﷺ حتى أنه أمر أفراد جيشه بربط خيولهم بمسجد رسول الله ﷺ، وقد عرضت لقطات تجسد بذاءته وفحش قوله مع أهل المدينة ومع قادته ومع وجوه بني أمية الموجودين في

---

(١) مع أن تلك شهادات حق أريد به باطل...واذ أصبح يزيد حفرته وخبرا من أخبار الماضي فان الطعن عليه من قبل عبدالملك وعبيدالله بن زياد وأمثالهما أصبح وسيلة للتقرب من الناس يريدان بها توطيد سلطانهما...ولسنا بحاجة لذكر دوريهما في قمع ثورة الحسين وأهل المدينة وموالاتهما ليزيد والعمل على التقرب منه بكل طريقة ولو على حساب أرواح الناس ومصائرهم، على أننا لا ننكر أهمية شهادات حقيقية كشهادة عمر بن عبد العزيز بن مروان، وقد أشرنا اليها في كتابنا هذا...

المدينة، وقد كان عادلا في توزيع شتائمه وبذاءاته عليهم جميعا دون استثناء، حتى أنه سمى وكيله لغزو مكة حصين بن نمير برذعة الحمار.

**يتباهى باستباحة المدينة ((...لم أعمل عملا أحب الي من قتلي أهل المدينة..))**

وقد استمعنا لوصيته اياه حين استخلفه، وكلماته التي ختمها بها «...اللهم اني لم أعمل عملا قط بعد شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله أحب الي من قتلي أهل المدينة ولا أرجى عندي في الآخرة»[1].

وقد بدا أنه كان مسرورا بفعلته مع أهل المدينة الذين كان يحقد عليهم ذلك الحقد الشديد لمجرد أنه لمس ذلك الحقد لدى معاوية ويزيد والأمويين، ولم تكن تخفى عليه المشاعر الحقيقية لأسياده.

**لا حرمة للكعبة...كيف ترى صنيع أم فروة..تأخذهم بين الصفا والمروة»!**

وقد دارت معركة بين قوات حصين من أهل الشام وبين قوات ابن الزبير وأهل مكة ونجدة الخارجي ومن التحق بهم من أهل المدينة...وكان الدفاع عن مكة وبيتها الحرام هدفا مشتركا للمدافعين وان تباينت أهدافهم الأخرى.واذ أن أهل المدينة والخوارج انسحبوا بعد انتهاء المعركة الأولى بعد وفاة يزيد، فان ابن الزبير بقي وحده هناك يحاول استقطاب الناس حوله وقد أمره وطلب من الناس مبايعته.

استمرت تلك المعركة الأولى عدة أشهر، رمى أهل الشام خلالها «البيت بالمجانيق، وحرقوه بالنار، وأخذوا يرتجزون ويقولون:

خطارة مثل الفنيق المزبد     نرمي بها أعواد هذا المسجد

وجعل عمرو بن حوط السدوسي يقول:

---

(١) الطبري: ج٣ص٣٦٠ – ٣٦١، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٦٣ – ٤٦٤.

كيف ترى صنيع أم فروة　　تأخذهم بين الصفا والمروة

يعني بأم فروة المنجنيق»[١].

«وكان حصين بن نمير قد نصب المجانيق على أبي قبيس وعلى قعيقعان، فلم يكن أحد يقدر أن يطوف بالبيت...وكان ابن الزبير قد ضرب فسطاطا في ناحية، فكلما جرح رجل من أصحابه أدخله ذلك الفسطاط، فجاء رجل من أهل الشام بنار في طرف سنانة فأشعلها في الفسطاط، وكان يوما شديد الحر، فتمزق الفسطاط فوقعت النار على الكعبة فاحترق الخشب والسقف، وانصدع الركن والحترقت الأستار وتساقطت إلى الأرض...»[٢].

«نصب أهل الشام المجانيق والعرادات على مكة والمسجد من الجبال والفجاج،فتواردت أحجار المجانيق والعرادات على البيت، ورمي مع الأحجار بالنار والنفط، ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات وانهدمت الكعبة واحترقت البنية»[٣].

**احرق الكعبة فأهلكه الله**

وانتهت هذه المعركة والحصاد الاول بهلاك يزيد، والذي قصمه الله قصم الجبابرة على حد تعبير ابن كثير. وقد عرض حصين بن نمير على الزبير أن يبايعه ويخرجا معاً الى الشام وقال له بعد أن انفردا عن اصحابهما: «أنا سيّد أهل الشام لا أدافَع، وأرى أهلَ الحجاز قد رَضُوا بك، فتعالَ أُبايعْك الساعةَ ويهدر كل شيء أصبناه يومَ الحَرّة، وتَخرج معي إلى الشام، فإني لا أحب أن يكون المُلك بالحجاز. فقال: لا واللّه لا أفعل ولا أمنُ مَن أخافَ الناسَ وأحرق بيتَ اللّه وانتهك حُرمته. قال: بل فافعل على أن لا يَختلف عليك اثنان. فأبي ابنُ الزبير. فقال له حُصين: لَعنك اللّه ولَعن

(١) الطبري: ج٣ص٣٦١.

(٢) العقد الفريد: ج٥ ص ١٤١.

(٣) مروج الذهب: ج٣ص ٨٦.

مَن زعم أنك سيّد! واللهّ لا تُفلح أبداً! اركبوا يا أهل الشام. فركبوا وانْصرفوا.»[١].

**حسب أنه قوي... فهدد وأوعد**

وبذلك فان ابن الزبير قد ضيع فرصة كبيرة على نفسه بعدم قبول ما عرضه عليه ابن نمير، ولم تكن غايته من ذلك الرفض الاقتصاص من المجرمين الذين أباحوا المدينة وضربوا مكة، وانما حسب نفسه القوة الوحيدة المسيطرة على الساحة، ويؤيد ما نقوله هنا ندمه بعد ذلك على الذي صنع حيث أرسل ابن نمير بعد خروجه...«أما أن أسير إلى الشام فلست فاعلا وأكره الخروج من مكة ولكن بايعوا لي هنالك فإني مؤمنكم وعادل فيكم، فقال له الحصين: أرأيت إن لم تقدم بنفسك ووجدت هنالك أناسا كثيرا من أهل هذا البيت يطلبونها يجيبهم الناس فما أنا صانع»[٢].

وقد أثبت ابن الزبير بتسرعه في الاجابة وحسم الموقف خطلا في الرأي وبعدا عن الكياسة، فمن كان في مثل موقفه وعلى مثل رأيه لا يتورع عن الوصول إلى غايته بأية طريقة، غير أن تقديره للأمور لم يكن سليما وكان قاصرا في سياسته وتبصره ونظرته للأمور وقد أدرك ذلك سعيد بن عمرو الذي كان حاكما لمكة من قبل يزيد وقال عن موقف ابن الزبير هذا: «ما منعه أن يبايعهم ويخرج إلى الشام الا تطير...وان عبدالله،

---

(١) العقد الفريد: ج٥ ص ١٤٢ والطبري: ج٣ ص٢٦٣ وقد أورد أنه قال لحصين: أنا أهدر تلك الدماء، أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة.وأخذ الحصين يكلمه سرا وهو يجهر جهرا.وأخذ يقول: لا والله لا أفعل.فقال له الحصين بن نمير: قبح الله من يعدك بعد هذه داهيا قط أو أريبا.قد كنت أظن أن لك رأيا.الا أراني أكلمك سرا وتكلمني جهرا.وأدعوك إلى الخلافة وتعدني القتل والهلكة».

(٢) والطبري: ج٣ ص٢٦٣ وروى الكامل في التاريخ: ج٣ص٤٦٧ أن حصيناً أجاب ابن الزبير بقوله: «قبح الله من يعدك بعد ذاهبا وآيبا قد كنت أظن أن لك رأيا وأنا أكلمك سرا وتكلمني جهرا وأدعوك إلى الخلافة وأنت لا تريد إلا القتل والهلكة».

والله لو سار معهم حتى يدخل الشام ما اختلف عليه منهم اثنان»[١].

**بين حصار وحصار...كادت الأمور أن تستتب له**

وقد وقعت أحداث عديدة بين حصار مكة الأول سنة أربع وستين وحصارها الثاني الذي انتهى عام ثلاثة وسبعين وقتل فيه ابن الزبير، وقد كادت الأمور تستتب لصالحه وكان مؤيدوه حتى في الشام نفسها أكثر عَدَداً وعِدَداً وقد دانت له الحجاز والعراق وقسم من بلاد الشام وجل أهل دمشق من أهل اليمن وغيرهم...وقد كان الضحاك بن قيس في دمشق والنعمان بن بشير وهو على حمص وزفر بن الحارث وهو على قنسرين وناتل بن قيس وهو على فلسطين، إلى جانبه.ولو أن حصين بن نمير انحاز اليهم - وكان قد دعا ابن الزبير للقدوم معه لمبايعته - ثم رأى بعد ذلك أن تكون الخلافة لمروان ابن الحكم، لكان ميزان القوى الأموي قد مال لجانبه، فقد تدهورت أوضاع بني أمية وارتبكوا ووقعوا في اشكال شديد حتى ان مروان نفسه لم يفكر بالأمر لنفسه وقرر مبايعة ابن الزبير لولا أن ثناه عن ذلك عبيد الله بن زياد وقد قدم من البصرة.

كانت (جرأة) أهل الشام على دماء الناس مقرونة بجرأة (الخليفة الحاكم) وارادته، وكانت جرأتهم على دماء أهل الحجاز خاصة واستباحتهم المدينة وضربهم البيت المقدس دون وجل أو تردد وانشادهم الرجز بلا مبالاة وكأنهم يقومون بضرب معبد وثني يدل على عدم وجود أية روابط روحية قائمة على أساس الإسلام بينهم وبين بقية المسلمين، وان ولاءهم كان لشخص الخليفة الأموي وحده، وقد كانوا نتاج تربيته واعداده دون شك، كما رأينا عند دراسة (معاوية).

لم يكونوا يحملون قضية يدافعون عنها، بل كانوا يحملون ولاء أعمى لولي نعمتهم

(١)الطبري: ج٣ص٣٦٣.

والهم ومصدر (رزقهم وكسبهم وحياتهم)، وقد قاتلوا تحت شعور الخوف من زوال كل ذلك، إذا ما ترددوا في طاعته أو طاعة ولاته وقواده...وهو ما كان معلوما لديه ولدى أعوانه مثل ابن عقبة الذي هددهم تهديداته المشهورة في واقعة الحرة، والذي لوح لهم بالعطاء وزيادة الأرزاق قبل استنفارهم لتلك الواقعة الهمجية.

**ذلة بعد عنجهية**

ولو أن ذلك الجيش الذي أباح المدينة وضرب مكة يدافع عن قضية من قضايا الإسلام الحقيقية ويشعر بالانتماء الحقيقي له، لما شعر بالذل أمام أهل المدينة عند عودته إلى الشام بعيد ورود أخبار هلاك يزيد، فقد «اجترأ أهل المدينة وأهل الحجاز على أهل الشام، فذلوا حتى كان لا ينفرد منهم رجل الا أخذ بلجام دابته ثم نكس عنها، فكانوا يجتمعون في معسكرهم فلا يفترقون، وقالت لهم بنوأمية: لا تبرحوا حتى تحملونا معكم إلى الشام، ففعلوا، ومضى ذلك الجيش حتى دخل الشام»(١).

لقد نسي يزيد ودولته التي مهدها له معاوية حالا، بل ان أقرب المقربين اليه عرضوا بثلبه كما فعل ابن زياد الذي أراد أن يدلي بدلوه ويدعو أهل البصرة لنفسه -كما ذكرنا-، واذ أنه فشل في مهمته فانه هرب إلى الشام ومروان يريد أن يركب إلى ابن الزبير فيبايعه بالخلافة ويأخذ منه الأمان لبني أمية، فأقنعه بالتخلي عن ذلك والدعوة لنفسه...

**مسرحية أخرى لمروان «لما رأيت الأمر أمرا نهبا    يسرت غسانا لهم وكلبا»**

وقد فعل مروان ذلك، وأعد مع أعوانه مسرحية أخرى كتلك التي أعدها معاوية لمبايعة يزيد واستأثر بالأمر دون أولاد يزيد، بعد أن تخلى أولهم، معاوية بن يزيد عنها

(١)الطبري: ج٣ص٣٦٤ وروى ابن‌الأثير...«فاجترأ أهل المدينة على أهل الشام، فكان لا ينفرد منهم أحد الا أخذت دابته..وخرج معهم بنوأمية من المدينة إلى الشام، ولو خرج معهم ابن الزبير لم يتخلف عليه أحد» الكامل في التاريخ: ج٣ص٤٦٨.

وعرض بثلب والده أيضا.

ولا شك أن مروان عندما يرى أمثال ابن زياد يتطلعون لمنصب الخلافة،فإنه يرى نفسه أجدر الناس بذلك خصوصا وأنه ينتمي للبيت الأموي المالك، وقد بويع بالخلافة سنة أربع وستين، وقد قال حين بويع له:

«لما رأيت الأمر أمرا نهبا يسرت غسانا لهم وكلبا
والسكسكيين رجالا غلبا و طيئا يأباه الا ضربا
والقين يمشي في الحديد نكبا و من تنوخ مشمخرا صعبا
لا يأخذون الملك الا غصبا فان دنت قيس فقل لا قربا»[1].

**تلاقفوها يا آل مروان**

وأصبح الذي سعى له معاوية ومهد له لقمة سائغة في فم مروان وآله بعد ذلك والى زوال الحكم الأموي...

وكانت وقعة كبيرة بينه وبين الضحاك بن قيس - داعية ابن الزبير الذي بايعه جل أهل دمشق من أهل اليمن وغيرهم، انتصر فيها مروان عليه بخديعة أخرى من خدعه المشهورة...

ولم يدم حكم مروان سوى أشهر معدودات - **كلعقة الكلب أنفه**، على حد تعبير أمير المؤمنين عليه السلام - قتل بعدها خنقا بيد زوجته أم خالد بن يزيد، اثر اهانة ألحقها بخالد في مجلس الأمويين، تولى ابنه عبدالملك بعده الحكم، وقد خاض معارك عديدة مع أعدائه ومنافسيه على السواء في الشام والعراق والحجاز...وقد حاصر قائد عبدالملك الحجاج ابن يوسف مكة سنة اثنتين وسبعين وقتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين بعد حصار دام

(١) الكامل في التاريخ: ج٣ص٤٨٠.

ثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة.وبعد أن تخلى عنه أصحابه وبعض أقاربه وأولاده

شارك الحجاج في القتال بنفسه، رفع حجر المنجنيق فوضعه فيه، عندما تردد أهل الشام في القتال بعد أن رعدت السماء وبرقت وعلا صوت الرعد والبرق على الحجارة ونزلت عليهم الصواعق.

وقد أعطى الحجاج الناس الأمان فخرج اليه نحو من عشرة آلاف متخلين عن ابن الزبير «و ذكر أنه كان ممن فارقه وخرج إلى الحجاج ابناه حمزة وخبيب»(١).

وبقي ابن الزبير في جماعة قليلة من أصحابه وأبى أن يستسلم وقاتل بشجاعة وجلد وصبر، ولم يقدر عليه أعداؤه الا بعد أن رمى بآجرة فأصابته في وجهه فأرعش لها ودمى وجهه(٢)...وقد قطع رأسه وأرسل إلى المدينة فنصب فيها...وقيل ان الحجاج «..حز رأسه هو بنفسه في داخل مسجد الكعبة»(٣).

ونستعيد ما قاله ابن عباس عندما عثر على خشبة ابن الزبير التي صلب عليها: «...أما والله ما عرفتهُ إلا صَوّاماً قَوّاماً، ولكنني ما زلتُ أخاف عليه منذ رأيتهُ أن، تُعجبه بَغلاتُ معاوية الشُهب»(٤).

**ذبح الكبش فهدأت مكة**

هدأت مكة بعد أن ذبح (الكبش)، واستسلمت ثانية لحكم الأمويين، ولم يعد أحد يفكر بابن الزبير، لأنه لم يحمل قضية المسلمين ولم يسع لمقاومة الانحراف الا بانحراف مماثل..وكانت شعارات أصحابه في بعض مراحل القتال في مكة أو الكوفة «يا لثارات

(١)الطبري: ج٣ص٥٣٨.
(٢) الطبري: ج٣ص٥٤١.
(٣) العقد الفريد: ج٥ ص ١٦٦.
(٤) العقد الفريد: ج٥ ص ١٦٨.

عثمان) تؤكد نزعته الأموية العثمانية مقابل النزعة الأموية (المعاوية) أو المروانية وكلها تعود لمصب واحد اتخذ اتجاهه المنحرف أيام عثمان..وهو اتجاه أحنق المسلمين وجعلهم يقدمون على معاقبة الخليفة وقتله.

لم يكن ابن الزبير يريد سوى أن يكون واجهة جديدة تحل محل الواجهات القديمة، أما المحتوى فيبدو أنه لم يكن يسعى لتغييره أو استبداله بمحتوى جديد، واذ أنه سعى لنفسه ولمصلحته فقط فان قضيته انتهت بموته دون أن يحزن عليه أحد ودون أن يؤثر في مجال الحياة الإسلامية والفكر الإسلامي، ودون أن يكون رائد مدرسة في علوم الإسلام...وكل ما يؤثر عنه - ولعله يولد في نفسه أشد السرور اذ يرى الناس يراقبونه- هو اشتهاره بطول الصلاة والمظاهر الشكلية للعبادة...

وقد تمادى الحكم الأموي في استهتاره عقيب التغلب عليه، حتى ان الحجاج ختم على أيدي وأعناق بعض الصحابة احتقارا لهم لأنهم كانوا مقربين من رسول الله صلى الله عليه وآله.

ربما استغل ابن الزبير غضبة الأمة المسلمة لمقتل الحسين عليه السلام، وتزعم من يريد الدفاع عن الكعبة لأنها بيت الله المقدس، الا أن نواياه الحقيقية كطالب للخلافة والملك بدت واضحة بعد ذلك...

وقد طال النزاع بعد ذلك بين الأمة والأمويين وكانت لها جولات عديدة معهم سقطت في نهايتها لتبدأ جولات جديدة من أنماط عديدة من الحكام، من النماذج المعادة المكررة تتخذ اسم (أميرالمؤمنين) تارة و(خليفة الله) تارة أخرى و(ولي أمر المسلمين) تارة ثالثة..وتتكرر الأسماء والواجهات ويظل الانحراف هو الأساس في خضم عملية التزوير المستمرة للإسلام وأحكامه.

# ثورات الكوفة

# التوابون بين سليمان بن صرد الخزاعي

# والمختار

## ثورات الكوفة

## التوابون بين سليمان بن صرد الخزاعي والمختار بن أبي عبيد الثقفي

### رد فعل أهل الكوفة

كان رد فعل العراقيين في الكوفة على استشهاد الامام الحسين وأصحابه سريعا.. وقد تمثل رد الفعل ذاك بثورات من الندم والغضب على أنفسهم وعلى من شارك بشكل فعلي بهذه المجزرة وقام بأي دور فيها، مهما كان بسيطا، سواء قام بالقتل أو الجرح أو النهب أو التمثيل بالجثث أو غير ذلك.

وقد بدا موقفهم العاطفي المنحاز لآل البيت عليهم السلام بعد عودة بقايا موكب الحسين عليه السلام وفيه نساؤه وأطفاله إلى الكوفة بمعية جيش ابن سعد، حيث تجمعوا على جانبي الطرقات يبكون ويأسفون على ما حل بالحسين وأصحابه في المجزرة التي نظمها ابن زياد في كربلاء، ويبدون استعدادهم للوقوف إلى جانب من يريد أن ينهض مرة أخرى ضد حكم يزيد.

وقد رأينا أن ردود الفعل الأولية الحزينة والشاجبة لما قام به يزيد وأعوانه، والتي تحدث المؤرخون عنها باسهاب، لم تكن رهينة بأهل الكوفة وحدهم وانما انتشرت في كافة أرجاء العالم الإسلامي، وشملت حتى أناسا مقربين من يزيد نفسه وأفرادا من عائلته...وان يزيد نفسه رغم سعادته الغامرة بمصرع الحسين والمظاهر الاحتفالية التي أمر باقامتها في دمشق، أجبر نزولا على الموقف الغاضب لفئات عديدة من أبناء الأمة، على أن يدعي تنصله من الجريمة، وينفي عدم قيامه باعطاء الأوامر بقتل الحسين، ويحمل

ابن زياد مسؤولية ذلك ويقوم بشتمه في مجلسه، مما جعل بعض الباحثين والكتاب القدماء والمحدثين يصدقون ادعاءاته بخصوص براءته من دم الحسين، ويحاولون ايهام الناس بأن ندمه ذلك كان حقيقياً، وانه لو كان حاضرا في كربلاء لما سمح لأحد بقتله... ومن ثم راحوا يشجبون الطعن فيه أو تناول سلوكه المشين بأي شكل من الأشكال، كما رأينا فيما سبق، وهي محاولات يبدو التكلف فيها ظاهرا اذ ما من شيء في يزيد يشجع على الدفاع عنه والوقوف إلى جانبه...وقد رأينا كيف أنه تمادى في جرائمه ضد قطاعات أوسع من المسلمين واستباح مدينة رسول الله ﷺ نفسها، وهي جريمة لابد أن يندى لها جبين كل غيور خجلا وقلبه حزنا وألماً، ولابد أن يجد أن وراءها من لا يقيم وزنا لشريعة أو قانون[1]...

**يزيد: بين التبرئة من دم الحسين ودخول الجنة**

ويبدو أن هؤلاء قد تناولوا المسألة من جانبين.فالقسم الاول منهم برأ يزيد نهائيا من دم الحسين، واستند إلى أقواله التي ذكرناها في هذا الفصل، والتي قال فيها انه لم يكن راغبا بقتل الحسين، والقسم الثاني برر قيام يزيد بجريمة القتل بحرصه على المحافظة على وحدة المسلمين واجتماعهم وعدم السماح للفتن والمشاكل بالظهور، وانه قد (اجتهد)

---

(١) صنف عبد المغيث بن زهير الحري - (و كان من أعيان الحنابلة، قد سمع الحديث الكثير) - كتابا في فضايل يزيد بن معاوية، أتى فيه بالعجائب، وقد رد عليه أبوالفرج بن الجوزي) ابن‌الأثير ج١٠ ص١٦٥ وروى ابن‌تيمية أن قوما من الجمهور اعتقدوا أن يزيد كان من أولياء الله، وأن من توقف فيه أوقفه الله على نار جهنم (الرسائل الكبرى - ابن‌تيمية - الرسالة ٧ ج ١ ص ٣٠٠).وفي ارشاد الساري في شرح صحيح البخاري ج٦ ص٢٣٠ عن المهلب أنه كان يقول بثبوت خلافة يزيد وأنه من أهل الجنة.وقال القاضي أبوبكر بن العربي ما معناه: ان الحسين قتل بشرع جده - مقدمة ابن‌خلدون ٢٤٠ وراجع ماذكرناه بخصوص حرص بعض الناس على تبرئة يزيد وادخاله الجنة في نهاية المطاف.وقد ذهب بعض المعاصرين إلى اعتياد يزيد أحد قادة المسلمين الكبار وانه أحد الممهدين لقيام دولة العرب الكبرى...

في أمر القضاء على الحسين، كما أن الحسين قد (اجتهد) في الخروج عليه، رغم أن من يخرج عليه يكون مخطئا لما روي عن نهي رسول الله ﷺ من الخروج على الامام الفاسق! وأظهر هذا القسم موقفا متحيزا ناشئا على عوامل عدة منها تبني مواقف مسبقة قائمة على فهم قاصر لطبيعة الدولة الأموية وتصوراتها بخصوص السياسة والحكم والخلافة، وهي تصورات بعيدة عن تصورات الإسلام الحقيقية وان حاولت عرضها على أنها هي التصورات الصحيحة...وذلك في حملة مدروسة دؤوبة جند لها معاوية كل امكانات دولته...ومنها أمور أخرى تتعلق بقصور واضح في فهم طبيعة الإسلام ومناقشة مسائله بوجهات نظر غير إسلامية وبأدوات غريبة عنه..وربما تأثر بعض الباحثين بنظريات المستشرقين التي غالبا ما تكون بعيدة عن الفهم الواقعي للإسلام، وربما اندفع بعضهم في حملات مغرضة مقصودة تهدف إلى تهديم الإسلام وزرع الفرقة والشقاق بين المسلمين وخصوصا في القرن الأخير الذي ظهرت فيه النزعة القومية على يد جماعة من المسيحيين العرب في كل أنحاء البلاد العربية وخصوصا في مصر والشام،وكما يحدث ايضا من قبل بعض الطوائف التي تدعي الانتماء للاسلام باثارة الخلافات وتضخيمها وصولا الى تأجيج صراعات مذهبية دائمية يكون ضحيتها المسلمون جميعا.

**تلاوموا بعد قتل الحسين واتفقوا على قتل قتلته**

وكان لابد أن يتطلع من ندم على تخاذله أو سكوته أو بعده عن نصرة الحسين أو الذب عنه إلى شركاء يبثهم غضبه وحزنه، ولابد أن يتطلع إلى استجابة مماثلة من شريك مماثل، وهكذا تجمعت مراجل الغضب الشخصي لتكون مرجلا شعبياً ضخما انفجر في مراحل عديدة تهيأت الظروف فيها لذلك بعد أن لم يتحمل عبء الضغط الشعبي الكبير المتصاعد المتفجر على الدوام.

وكان رد الفعل قد بدأ – كما قلنا – بين جنود ابن زياد أنفسهم، ومنذ الانتهاء

من مجزرة الطف مباشرة، فعندما «قتل الحسين بن علي ورجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة، فدخل الكوفة، تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم، ورأت أنها قد أخطأت خطأ كبيرا بدعائهم الحسين إلى النصرة وتركهم اجابته، ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه، ورأوا أنه لا يغسل عارهم والاثم عنهم في مقتله الا بقتل من قتله، أو القتل فيه...»(١).

وقد نستنتج من هذا النص أن ثمة موالين عديدين لآل البيت وللحسين خاصة ثبتوا على ولائهم وحبهم لهم غير أن الفرصة لم تتح لهم لنصرته اما لأنهم سجنوا أو اختفوا أو انسحبوا تحت تأثير أقاربهم وزعمائهم...وإن غالبيتهم لم يشاركوا الجيش الذي أعده ابن زياد لقتل الحسين، ولو أنهم شاركوا في قتله لما رفعوا دعوة الثأر له وقتل من قتله ولم يتبين لنا – من خلال استعراض الأسماء البارزة لقادتهم، واستعراض مسيرتهم الملحمية لمقاومة الدولة الأموية ثانية – ان أحدا منهم كان مشاركا بالقتال ضد الحسين، غير أنهم حملوا أنفسهم مسؤولية التراجع والاختفاء.وحتى أولئك الذين سجنوا لم يكونوا يريدون – وقد أفرج عنهم – أن يضيع دم الحسين عليه السلام هدراً، وأن تضيع قضيته لمواجهة دولة الظلم دون أن تنال من تلك الدولة وتقضي عليها أو تضعفها.

**شيعة الحسين بين الواقع وما رسمته الريشة الأموية**

وهنا لابد لنا من الاشارة إلى أمر ذي حساسية بالغة، وقد يكون له أثر كبير في تشكيل تصورات بعض المؤرخين وتكوين بعض الأفكار الخاطئة لديهم عن طبيعة دورهم في بعض الأحداث، وهي مسألة (شيعة الحسين) التي أخذوا يذكرونها متزامنة مع أحداث الكوفة والطف و(شيعة علي أميرالمؤمنين)، التي شايعته خاصة في عهده و(الشيعة) بشكل عام وكأنهم فئة من الأمة لها تصورات وآراء خاصة بها بعيدة عن تصورات وآراء عموم المسلمين وان تلك التصورات والآراء الغريبة! لم يقرها أو يقبل

(١)الطبري: ج٣ص٣٩٠، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٨٦.

بها حتى أميرالمؤمنين نفسه! وان مصدرها يهودي يدعى عبدالله بن سبأ، و أنه كان ابن يهودية..!

ومادام عدد هذه الفئة قليلاً بالنسبة لعموم المسلمين (أبناء السنة والجماعة!)، وتصوراتها وآرائها في العديد من الأمور والمواقف تتعارض مع بعض آراء وتصورات الأغلبية فلا شك أن عوامل الخطأ والانحراف تكمن فيها هي، فكأن الخطأ والصح مرهون بكثرة الاعداد أو قلتها.

وإذا ما علمنا أن معظم اللوحات المشوهة التي رسمت للشيعة ولأميرالمؤمنين والأئمة من أهل البيت عليهم السلام هي من ابداع الريشة الأموية المعادية لأميرالمؤمنين والإسلام، وقد عملت مؤسسات دولة الظلم المتعاقبة على عرضها، علمنا كيف حصل ذلك التشويه والتزوير، سواء في ظل الحرب التي خاضها أميرالمؤمنين وطلائع أهل العراق وصفوة الصحابة معه، أو بعد ذلك عندما استتبت الأمور لصالحهم، حيث وضعوا كل مناصري أميرالمؤمنين في معسكر وبقية المسلمين الآخرين، حتى الذين لا يميلون اليهم ولكنهم لم يكونوا ذوي مواقف حاسمة، في معسكر آخر، وكأن بقية المسلمين الآخرين واهل المذاهب يتفقون في الرأي والمواقف اتفاقا تاما ولا يوجد بينهم أي نزاع أو خلاف وكأنهم فرقة واحدة وأهل مذهب واحد.وفي حملة الترويج لصحة (اجتهادات) معاوية التي لم تبن على أي أساس من التشريع أو الفقه الإسلامي، عرضوه وكأنه لم يكن باغيا على أميرالمؤمنين وخارجا عليه، وكأنه ممثل الشرعية الإسلامية التي تمثل أغلبية المسلمين، وكأن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى به خاصة وأوصى باتباعه وطاعته واتباع وطاعة خلفائه من بعده، وكأنه لم يقم بعشرات الانتهاكات المعروفة والمكشوفة والمتعمدة للإسلام...فاعلا ذلك باستهتار لا يجرؤ عليه أشد المعادين المجاهرين بعداوتهم للإسلام والمسلمين.

وكان تصوير حق معاوية وشرعيته في الحكم! يقوم على أساس القدرات التي أبداها في لمّ شمل الأمة! وجمعها حول عرشه، والقضاء على أعدائه، فكأنه بذلك أثبت حقه وصدقه مادامت الأمة قد انقادت له في النهاية واستسلمت وأقرت كل ما كان يقوم به...ولا يهم كيف فعل ذلك، ولا تهم الأساليب التي لجأ اليها، والتي غالبا ما تموه وتخفى عن الأمة، مادام قد نجح في حماية عرشه واقام دولة أموية قوية...

**رسول اللهﷺ وأميرالمؤمنينعليه السلام منهج واحد**

ولا جدال في أن منهج أميرالمؤمنينعليه السلام هو منهج رسول اللهﷺ نفسه.وإذا ما أردنا التعرض للأحاديث الصحيحة الثابتة لدى المسلمين والواردة عن رسول اللهﷺ وفيها يؤكد على حبه وتقديره الشديدين لعليعليه السلام واعتباره على الحق يدور معه أنى دار ويطلب من المسلمين موالاته وحبه، فان رسول اللهﷺ يكون بالمعنى اللغوي شيعة لعلي، كما أن علياً نفسه كان أول شيعته وأنصارهﷺ وأول من استجاب له وصلى معه، وكان نتاج تربيته واعداده منذ طفولته المبكرة.

كما أن أولئك الذين عرفوا منهج أميرالمؤمنين وتطابقه مع المنهج النبوي وتطابق التصورات والأفكار والمواقف، وفهمه الاستثنائي للرسولﷺ ووعيه المتفهم لكل ما كان يقوم به، والذين استمعوا إلى أقوال الرسولﷺ وشهاداته وشهادات القرآن بحقه، وهم مجموعة من الصحابة الذين شهد لهم رسول اللهﷺ بالعدالة والكفاءة وكانوا في مقدمة أنصار رسول اللهﷺ نفسه وكانت لهم مواقف معروفة لنصرة الإسلام إلى أن استشهدوا أو توفوا، يرون أنهم بوقوفهم إلى جانب أميرالمؤمنينعليه السلام، يكونون شيعة لرسول اللهﷺ نفسه وللإسلام، مادام أميرالمؤمنين هو الممثل الواقعي والجدير بحمل راية الرسولﷺ...ومواقف هؤلاء الصحابة العدول وشهاداتهم وكونهم شيعة لعلي

ينبغي أن يلتفت اليه بوضوح ويؤخذ بنظر الاعتبار[1]...

**انحازوا إلى المنهج العلوي المحمدي و تركوا المنهج الأموي**

لذلك فان الكلام هنا عن قيام الشيعة في الكوفة بالتلاوم أثر مقتل الامام الحسين عليه السلام ينبغي أن لا يفهم فيه أن أولئك الشيعة كانت فئة قد اختارات الانفصال عن الإسلام لرسم منهج خاص بها قائم على تصورات وقيم خاصة، بل ان الأمر يعني من واقع حالهم والتزامهم وتمسكهم الكبير بالإسلام وسلوكهم الشخصي الدال على ذلك، انهم كانوا مجموعة من المسلمين الواعين غير المتأثرين بالتصور والدجل الأموي المنحرف، والذين طالبوا بالعودة الى خط رسول الله وخط أميرالمؤمنين عليه السلام الذي عاش بين ظهرانيهم وأرشدهم الى ذلك الخط المستقيم، والعودة الى التصورات والقيم الإسلامية الأصيلة التي جسدها الأئمة الثلاثة من أهل البيت وعرضوها خير عرض بسلوكهم المتوافق والمتطابق مع سلوك رسول الله صلى الله عليه وآله والنابع منه.

غير أن لفظة (الشيعة) بمرور الزمن اتخذت معنى غير المعنى الحقيقي لها، وألصقت بكل أهل الفرق الإسلامية التي لا تتطابق آراؤها مع آراء أهل المذاهب الشائعة، وحتى مع مذهب أهل البيت عليهم السلام أنفسهم، لغرض تشويه مذهب أهل البيت والتقليل من

---

(١) ذكر الامام عبد الحسين شرف الدين الموسوي قدس سره في كتابه القيم (الفصول المهمة في تأليف الأمة) أسماء الصحابة الذين كانوا يشايعون أميرالمؤمنين عليه السلام وعد منهم أكثر من مائتين (ص ١٩٠- ٢٠٠) وهو جهد كبير لابد من متابعته لنجد مئات أخرى من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله شيعة لعلي، عدا من لم يتطرق التاريخ لذكرهم.«و هكذا نرى أن الشيعة ولدوا منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله مباشرة، متمثلين في المسلمين الذين خضعوا عمليا لأطروحة زعامة الامام علي عليه السلام وقيادته التي فرض النبي الابتداء بتنفيذها في حين وفاته مباشرة.و قد تجسد الاتجاه الشيعي منذ اللحظة الاولى في انكار ما اتجهت اليه السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الامام علي عليه السلام واسناد السلطة إلى غيره» بحث حول الولاية : السيد محمد باقر الصدر ١٣٩٧هـ ١٩٧٧ م ص ٤٦.

أهميته وصرف أنظار الناس عنه.

لقد اتخذ الأمر بمرور الزمن طابعا سياسيا واجتماعيا خاصا، نابعا من مصالح وأهداف الطبقات الحاكمة التي اعتلت العروش من الأمويين والعباسيين وغيرهم، وأصبح تبني مواقف وآراء ومنهج أميرالمؤمنين عليه السلام التي هي مناهج رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، يصور لبقية المسلمين وكأنه أمر يستهدف من ورائه أمورا وأغراضا خفية لا علاقة لها بالإسلام لا يعلم بها الا الشيعة أنفسهم، وان التشيع كان منذ البداية حركة سياسية باطنية وجدت تحت ظروف معينة، وان مفاهيم الشيعة وآراءهم تختلف عن المفاهيم والآراء الإسلامية الاخرى، وان أفكارا وعناصر غريبة يهودية وغيرها قد دخلت فيها، وقد تبنى الحنابلة منهج الطعن بشيعة اهل البيت واشتهر منهم جماعة في العصر العباسي ثم في عهد المماليك مثل ابن تيمية ومن تابعه فيما بعد.

**دولة الظلم: فلنشوه صورتهم ماداموا يريدون الاطاحة بنا**

«...والشيء الذي ليس فيه شك...هو أن الشيعة، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة عند الفقهاء والمتكلمين ومؤرخي الفرق، لم توجد في حياة علي، وانما وجدت بعد موته بزمن غير طويل.

وانما كان معنى كلمة الشيعة أيام علي هو نفس معناها اللغوي القديم الذي جاء في القرآن في قول الله عزوجل من سورة القصص ﴿**وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ**﴾[1] وفي قول الله عزوجل..﴿**وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ**﴾[2].

(١) القصص: ١٥.

(٢) الصافات: ٨٣.

فالشيعة في هاتين الآيتين وغيرهما من الآيات معناها الفرقة من الأتباع والأنصار الذين يوافقون على الرأي والمنهج ويشاركون فيهما.

فشيعة علي أثناء خلافته هم أصحابه الذين بايعوه واتبعوا رأيه، سواء منهم من قاتل معه ومن لم يقاتل.ولم يكن لفظ الشيعة أيام علي مقصورا على أصحابه وحدهم، وانما كان لمعاوية شيعته أيضا، وهم الذين اتبعوه من أهل الشام وغيرهم من الذين كانوا يرون المطالبة بدم عثمان والحرب في ذلك حتى يقام الحد على قاتليه...»[1].

كان وجود أمير المؤمنين عليه السلام بين أهل الكوفة التي جعلها عاصمة للمسلمين وايثاره البقاء هناك لتنفيذ برنامجه التربوي الشامل وتشكيل طليعة عقائدية تكون نواة لأمة إسلامية قائمة على نفس الأسس والقواعد التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا اليها... واختيار معظم أفراد الجيش من بينهم وقيامه بهم لحرب معاوية والأحزاب، قد جعلهم أقرب الناس اليه وأكثرهم تفهما لبرنامجه الاصلاحي الشامل وأكثرهم استعداد للسير وراءه لتنفيذ ذلك البرنامج الكبير الذي يحقق طموح عموم المسلمين ويعيد المياه إلى مجاريها ويرفع عن كواهلهم عبء التفرقة والطبقية الجديدة والتمييز على أساس العرق واللون.

وهذا ما جعل نظام الحكم الأموي بقيادة معاوية يصور أهل العراق وكأنهم نسيج خاص أو كيان خاص يختلف عن بقية المسلمين، وقد جعل هذا النظام من أولوياته العمل على تفتيت أهل الكوفة وزعزعتهم والعمل على التفريق بينهم واستهدافهم بكل أساليب الشر والأذى والأضطهاد، وكان ما كان مما ذكرنا بعضه في هذه الدراسة...وقد رأينا أسباب ذلك ودوافعه..

---

(١) الفتنة الكبرى – طه حسين: ج٢ ص ١٧٣ – ١٧٤.

غير أن المرء يستطيع الرد على هذا الادعاء الباطل، اذ ما لاحظ عدد الصحابة والتابعين الذين حاربوا مع أمير المؤمنين، ممن هم ليسوا من أهل الكوفة، وكانوا يعتبرون التفافهم حوله وقيامهم بنصرته والقتال بين يديه، نصرا لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ فلا فرق في القتال تحت راية محمد صلى الله عليه وآله أو علي عليه السلام مادام هذا يكمل مسيرة ذاك ويتوخى العدل والصدق في تعامله ومنهجه... «...ومعنى هذا أن عليا لم تكن له شيعة ممتازة من الأمة قبل الفتنة ولم تكن له شيعة بالمعنى الذي يعرفه الفقهاء والمتكلمون أثناء خلافته، وانما كان له أنصار وأتباع، وكانت كثرة المسلمين كلها له أنصارا وأتباعا..»(١).

**مهمة الأئمة عليهم السلام اقامة كيان إسلامي متكامل قائم على الأسس التي أرساها النبي صلى الله عليه وآله**

ولو تتبعنا الحوادث التاريخية ابتداء من تلك التي حدثت في نهاية عهد عثمان، وتلك التي حدثت في أيام أمير المؤمنين عليه السلام والحسن عليه السلام وما رافقها من ملابسات عديدة، وقيام الحسين عليه السلام ضد الدولة الأموية التي يقودها يزيد، رأينا أن الأئمة لم يكونوا يستهدفون انشاء كيان مستقل عن الأمة أو انشاء كيان غريب منها، بل كانوا يستهدفون اعادة بناء كيان الأمة على الأسس الأولى التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وآله بعيدا عن عوامل الانحراف والخطأ.لقد فهم ذلك من ساروا على خط الأئمة عليهم السلام وقاتلوا معهم، وأدركوا أن معاركهم كانت معارك مؤيدي الإسلام وأنصاره وممثليه ضد أعدائه ومناوئيه والذين أرادوا أن يستأكلوا الناس به ويستأثروا بخيرات المسلمين ومكاسبهم التي تحققت لهم في ظل الإسلام...

**حذار من أئمة الكفر..فانهم ان يظهروا يفسدوا الدين والدنيا**

وكان أصحاب الأئمة وجنودهم من رهافة الحس وسلامة البصيرة وقوة الوعي ما

---

(١) الفتنة الكبرى:ج٢ ص١٧٥.

جعلهم يدركون أن معاركهم مع أعدائهم انما كانت تستهدف ايقاف الانحراف الذي بدأ يستشري في جسم الأمة نتيجة وجود الطبقة التي بدأت تظهر في عهد عثمان والتي أبت أن تتنازل عن المكاسب التي حققتها في ظله والتي أرادت أن تستأثر بكل شيء.

قال يزيد بن قيس الأرحبي وهو يحرض الناس على قتال أصحاب معاوية في صفين: «ان المسلم السليم من سلم دينه ورأيه، وان هؤلاء القوم والله ان يقاتلوننا على اقامة دين رأونا ضيعناه، وأحياء دين حتى رأونا أمتناه، وان يقاتلوننا الا على هذه الدنيا ليكونوا جبابرة فيها ملوكا. فلو ظهروا عليكم - لا أراهم الله ظهورا ولا سرورا - لزموكم بمثل سعيد والوليد وعبدالله بن عامر السفيه الضال، يخبر أحدهم في مجلسه بمثل ديته ودية أبيه وجده، يقول: هذا لي ولا اثم علي، كأنما أعطى تراثه عن أبيه وأمه، وانما هو مال الله عزوجل، أفاءه علينا بأسيافنا وأرماحنا، فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين، الحاكمين بغير ما أنزل الله، ولا يأخذكم في جهادهم لوم لائم، فانهم ان يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينكم ودنياكم، وهم من قد عرفتم وخبرتم، وأيم الله ما ازدادوا إلى يومهم هذا الا شرا...»[(١)].

وكان ما قاله الأرحبي هو الحقيقة مع الأسف...اذ لم يكن في سلوك أقطاب الانحراف ما يدل على أنهم سيتراجعون عنه في يوم من الأيام...بل انهم كانوا يتمادون في انحرافهم ويستهترون بشكل علني مكشوف بكل قيم الإسلام ومبادئه.

وما قاله الأرحبي كان يؤكده الأئمة عليهم السلام على الدوام ويحذرون الناس من نتائجه الخطيرة ومن الاستسلام له على أساس أنه (واقع) بدأ يثبت وجوده.

لم يكن من سار خلف أميرالمؤمنين أو الحسن أو الحسين عليهم السلام يرى أنه شيعة لهم

---

(١) الطبري: ج٣ص٨٥ - ٨٦، والكامل في التاريخ: ج٣ص١٧٨.

خاصة لأنهم علي والحسن والحسين ولانتمائهم الفريد لرسول الله ﷺ وحسب، بل ان من أصبحوا شيعة وأنصارا وموالين لهم كانوا يرون أنهم الممثلون الحقيقيون للإسلام والجديرون بحفظه من كل انحراف أو تشويه أو دس، وانهم الوحيدون القادرون على مواجهة الانحراف المتفاقم وأولئك الذين يحاولون السطو على الإسلام وسرقة مكاسب المسلمين وجهودهم وتضحياتهم الجليلة العظيمة، كمعاوية وحزبه ومن التف حوله.

**بين الاكاذيب وثقافة السب**

ولو درسنا دوافع أصحاب الحسين وأنصاره وشيعته الذين قاتلوا معه واستشهدوا بين يديه وأدوا دورهم ببسالة منقطعة النظير، وهم المعنيون أكثر من غيرهم بهذه الدراسة، ومنهم من لم يكن قبل ذلك يتبنى مواقف أمير المؤمنين بل لعله كان يقف على النقيض منها ويعاديها إلى أن استبان له الحق وأدركته بصيرة الإسلام الصافية، لرأينا أنهم ساروا خلفه حتى نهاية المطاف انتصارا لله ولرسوله ﷺ، ولم يكونوا يتبنون موقفا فكريا وعقائديا مغايرا لما كان يتبناه عموم أبناء الأمة...ولم يؤاخذوا على شيء من ذلك القبيل خلال حواراتهم ونقاشهم مع أفراد من جيش ابن زياد...وكان التحيز لصف الحسين يعني لديهم التحيز إلى صف الإسلام.

وطبيعي أن الدولة الأموية التي أمسكت بزمام الأمور حاولت أن تصور موقفه وثورته وتعرضهما عرضا مشوها وكأنه خروج عن ولي الأمر الحقيقي الجدير بالطاعة والاحترام...و عرضت قضية المنتصرين للحسين وقضيته والمستشهدين بين يديه والسائرين على خطه والموالين له، كقضية ذات مدلولات لا علاقة لها بالإسلام، تماما كما شوهوا قضية أمير المؤمنين عليه السلام نفسه وجعلوا جماهير المسلمين في الشام يتبنون -بقناعة مطلقة- مواقف الدولة المعادية له ويذهبون إلى حد اعتبار سبه سنة لابد منها، وان تركها جريمة لا تغتفر، كما أسلفنا في فصول هذا الكتاب.

ان الذي يقدم على ترسيخ ثقافة السب بين جماهير المسلمين ويحثهم عليه ضد أقدس شخصية إسلامية بعد رسول الله ﷺ لا يتورع عن اللجوء إلى أشد الأساليب تضليلا للتقليل من شأن أعدائه...وهم -بلا شك- السائرون على خط أمير المؤمنين، ومن أدركوا أنه الخط الحقيقي الذي يقودهم إلى رسول الله ﷺ نفسه.

**التشيع: الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ**

كان التشيع هو الاتجاه الوحيد الذي دعا إلى الرجوع إلى ما كان يدعو اليه رسول الله ﷺ نفسه، وفي الوقت الذي رفض فيه (الاجتهاد) لنبذ النصوص أو التعليمات النبوية فانه دعا (لاجتهاد) مغاير يقوم على قابلية استنباط الحكم الشرعي من النصوص التي يرى أن لا حق لأحد برفضها أو الغائها مادامت قد وردت في القرآن أو على لسان الرسول ﷺ...«ان الاجتهاد الذي يمارسه الشيعة ويرونه جائزا بل واجبا وجوبا كفائيا هو الاجتهاد في استنباط الحكم والنص الشرعي لا الاجتهاد في رفض النص الشرعي لرأي يراه المجتهد أو لمصلحة يخمنها.فان هذا غير جائز والاتجاه الشيعي يرفض أي ممارسة للاجتهاد بهذا المعنى»[1].

**الشيعة هم أهل السنة: التشيع أطروحة لحماية مستقبل الدعوة بعد النبي ﷺ**

اننا إذا ما صورنا، ثورة الكوفة - فيما بعد - وكأنها ثورة (شيعية) تختص بمذهب معين من مذاهب المسلمين - التي لم تكن قد وجدت بعد، رفعنا مسؤولية المشاركة فيها عن غير الشيعة، بل وربما وجدنا لهم عذرا من عدم المشاركة فيها أو المشاركة بقمعها مادام الأمر أمر فرق إسلامية تختلف فيما بينها بالآراء والمواقف ووجهات النظر...وذلك تجن واضح على الحقائق لأن المذاهب الإسلامية المعروفة اليوم لم تظهر الا في وقت متأخر في

---

(١) بحث حول الولاية: ص ٤٧.

العصر العباسي...فالشيعة الامامية لم يشكلوا مذهبا خاصا بهم دون عموم المسلمين، وانتماؤهم إلى جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فيما بعد عند تبلور المذهب الجعفري وازدهار ورواج علوم أهل البيت عليهم السلام بمواجهة المذاهب والتيارات المختلفة، يعني انتماءهم إلى علي بن أبي طالب عليه السلام والى رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه...فالتشيع لم يكن في يوم من الأيام منذ ولادته مجرد اتجاه روحي او عقائدي مختلف، وانما ولد التشيع في أحضان الإسلام بوصفه أطروحة مواصلة الامام علي بعد النبي صلى الله عليه وآله قيادته الفكرية وقيادته الاجتماعية للدعوة على السواء.

فـ«التشيع إذاً لا يمكن أن يتجزأ الا إذا فقد معناه كأطروحة لحماية مستقبل الدعوة بعد النبي صلى الله عليه وآله وهو مستقبل بحاجة إلى المرجعية الفكرية والزعامة الاجتماعية للتجربة الإسلامية معا»[1].

لقد سعت الدولة الأموية وشيعتها ومناصروها للنيل من أميرالمؤمنين عليه السلام ومن آل البيت عليهم السلام، لأنهم القوة المؤهلة الوحيدة القادرة على التصدي لانحرافها وكل انحراف قد يحصل في المستقبل وحماية التجربة الإسلامية، فحاولوا الصاق مختلف التهم بهم وبأنصارهم وشيعتهم، فكانت السبئية هي التهمة الاولى التي ألصقوها بالشيعة، يريدون بذلك أن يوهموا الناس أن توجههم منذ البداية لم يكن توجها إسلاميا خالصا، وانه توجه مستحدث وطارئ وغريب بفعل شخصية كان لها تأثير اسطوري هائل .

ومن العجيب أنهم ذكروا أن ابن السوداء أو عبدالله بن سبأ كانت له اليد الطولى في قتل عثمان وتحريض الناس عليه وتشكيل جماعة الشيعة، ولم يذكروا ابن السوداء بعد ذلك على الاطلاق، وكأنه قد اختفى أو ابتلعته الأرض...«..وأقل ما يدل عليه اعراض المؤرخين عن السبئية وابن السوداء في حرب صفين، ان أمر السبئية وصاحبهم

(١) بحث حول الولاية: ص ٤٩.

ابن السوداء انما كان متكلفا منحولا، قد اخترع بأخرة حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الإسلامية.أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول هذا المذهب عنصرا يهوديا امعانا في الكيد لهم والنيل منهم.ولو قد كان أمر ابن السوداء مستندا إلى أساس من الحق والتاريخ الصحيح لكان من الطبيعي أن يظهر أثره وكيده في هذه الحرب المعقدة المعضلة التي كانت بصفين، ولكان من الطبيعي أن يظهر أثره حين اختلف أصحاب علي في أمر الحكومة، ولكان من الطبيعي بنوع خاص أن يظهر أثره في تكوين هذا الحزب الجديد الذي كان يكره الصلح وينفر منه ويكفر من مال اليه أو شارك فيه.

...ان ابن السوداء لم يكن الا وهما، وان وجد بالفعل فلم يكن ذا خطر كالذي صوره المؤرخون وصوروا نشاطه أيام عثمان وفي العام الأول من خلافة علي.وانما هو شخص ادخره خصوم الشيعة للشيعة وحدهم ولم يدخروه للخوراج»[1].

وقد أصبح من الواضح أن الشيعة المذكورين في هذه الدراسة، يقصد بهم الشريحة الواعية من أبناء الكوفة التي تطلعت للسير على خط أميرالمؤمنين عليه السلام الذي يعلمون حقا أنه الخط الوحيد الموصل إلى خط رسول الله صلى الله عليه وآله والمتصل به..وأخيرا لا يمكن لأحد أن يدعي أن يزيد وأشباهه وشيعته هم ممثلو خط الرسول حقا، وانهم شيعته وأنصاره وانهم هم اهل السنة والجماعة كما يحاول البعض الادعاء.

**اجتماعات في الكوفة**

لقد خرج أهل الكوفة «ففزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة، إلى سليمان بن صرد الخزاعي وكانت له صحبة مع النبي صلى الله عليه وآله وإلى المسيب بن نجبة

---

(١) الفتنة الكبرى: ج٢ ص٩٠ – ٩١.

الفزاري وكان من أصحاب علي وخيارهم، وإلى عبدالله بن سعد بن نفيل الأزدي، وإلى عبدالله بن وال التيمي وإلى رفاعة بن شداد البجلي، ثم إن هؤلاء النفر الخمسة اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد وكانوا من خيار اصحاب علي ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم»(١).

ولم نقع على خبر أحد من هؤلاء خلال أحداث الكوفة عند مقدم مسلم عليها وما جرى فيها بعد ذلك...وتدل بعض الوقائع أن العديدين من أهل الكوفة ومن كان يحتمل أن ينضموا إلى مسلم أو الحسين عليه السلام قد سجنوا أو طوردوا وروقبوا، وربما انسحب بعضهم أو هرب تحت ضغط الرقابة الصارمة التي أقامها ابن زياد عقيب مقدمه المتزامن تقريبا مع مقدم مسلم بن عقيل عليه السلام.

ويدل رد فعلهم السريع لما أصاب الحسين وأهله وأصحابه عليهم السلام في الطف وخطبهم التي ألقوها في بيت سليمان بن صرد أنهم كانوا يحملون أنفسهم مسؤولية التقاعس عن نصرة الحسين وانهم كانوا يشعرون بذنب كبير، لم يكن يكفره الا موتهم الميتة التي مات بها الحسين وأصحابه أو قتل قَتَلَتِهِ.

**لا عذر لنا عند الله ورسوله بالتخلي عن الحسين**

بدأ المسيب بن نجبة الفزاري، صاحب أمير المؤمنين عليه السلام الكلام «فتكلم فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وآله ثم قال: أما بعد فإنا قد ابتلينا بطول العمر والتعرض لأنواع الفتن فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غدا ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ**﴾(٢) فإن أمير المؤمنين قال: **العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة**، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا

(١) الطبري: ج٣ ص٣٩٠.
(٢) فاطر: ٣٧.

وتقريظ شيعتنا حتى بلا الله أخيارنا فوجدنا كاذبين في موطنين من مواطن ابن ابنة نبيناﷺ وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه وقدمت علينا رسله وأعذر إلينا يسألنا نصره عودا وبدءا وعلانية وسرا فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل إلى جانبنا لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جادلنا عنه بألسنتنا ولا قويناه بأموالنا ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا فما عذرنا إلى ربنا وعند لقاء نبيناﷺ وقد قتل فينا ولده وحبيبه وذريته ونسله لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه أو تقتلوا في طلب ذلك فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك، وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن. أيها القوم، ولوا عليكم رجلا منكم فانه لابد لكم من أمير تفزعون اليه، وراية تحفون بها...»(١).

وبدا المسيب كأنه يلوم نفسه وأصحابه وكل أهل الكوفة الذين وعدوا الحسين النصر، ثم تراجعوا بتأثير ضغوط ابن زياد...ومع أنه لا يبدو من كلامه أن أحدا من الحاضرين وربما غالبية شيعة آل البيت عليهم السلام قد انحاز إلى صف العدو وشارك في الجريمة، الا ان المسيب كان يعبر عما كان يجول بأذهان الحاضرين ويحمل نفسه وأصحابه مسؤولية التخاذل، فلا عذر لهم ما لم يقتلوا قاتليه أو يقتلوا دون ذلك، وهو أمر بدا أن رأيهم قد استقر عليه قبل عقد تلك الجلسة..

**سليمان بن صرد الصحابي المحمود في بأسه ودينه، والموثوق بحزمه**

وقد تلاه رفاعة بن شداد، فبادر القوم الكلام فحمد الله واثنى عليه وصلى على النبيﷺ ثم قال: « أما بعد فإن الله قد هداك لأصوب القول ودعوت إلى أرشد الأمور بدأت بحمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيهﷺ ودعوت إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم فمسموع منك مستجاب لك مقبول قولك قلت ولوا أمركم رجلا منكم تفزعون إليه وتحفون برايته وذلك رأي قد رأينا مثل الذي رأيت فإن تكن

---

(١) الطبري: ج٣ ص٣٩٠-٣٩١، و الكامل في التاريخ: ج٣ ص٤٨٦-٤٨٧.

أنت ذلك الرجل تكن عندنا مرضيا وفينا متنصحا وفي جماعتنا محبا وإن رأيت رأي أصحابنا ذلك ولينا هذا الأمر شيخ الشيعة صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وذا السابقة والقدم سليمان بن صرد المحمود في بأسه ودينه والموثوق بحزمه...»[١]. وقد تكلم عبدالله بن وال وعبدالله بن سعد بنحو من كلام رفاعة وأشادا بفضل المسيب وسابقة سليمان ورضاهما بتوليته، وقد أيدهما المسيب في ذلك وقال: «أصبتم ووفقتم وأنا أرى مثل الذي رأيتم فولوا أمركم سليمان بن صرد»[٢].

وولوا أمرهم سليمان بن صرد في ذلك المجلس الحاشد الذي ضم أكثر من مائة رجل من فرسان الشيعة ووجوههم[٣]، وكانوا يبدون، رغم الجو الذي لا زال خانقا ومشحونا بالعداء لكل من يشايع آل الرسول صلى الله عليه وآله أو يبدي استعدادا لنصرهم أو الأخذ بثأرهم، خصوصا وان ابن زياد كان يحسب أنه يجني ثمار نصر كبير أراد أن يتباهى به أمام الجميع وأن يخيف به كل أعداء الدولة، مستعدين لخوض معركة فاصلة ضد الفاسقين على حد تعبير رفاعة بن شداد، وهؤلاء الفاسقون يمتدون على رقعة تتيح لهم قيادة المسلمين، وقد وضعت لهم أحاديث مزورة تمنع الناس من التعرض لهم، وتبيح لهم التصرف بعيدا عن حدود الإسلام وشريعته وأحكامه.

ويبدو أن ذلك لم يكن الاجتماع الوحيد الذي عقدوه لتدبير أمرهم واتخاذ الخطوات المناسبة للقتال، وانما كانوا يجتمعون كل يوم جمعة يلقي فيهم سليمان بن صرد خطبة مكرورة المضامين والمعاني مشابهة لتلك التي ألقاها في اجتماعهم الأول الحاشد.

---

(١) الطبري: ج٣ ص٣٩١، و الكامل في التاريخ: ج٣ ص٤٨٧.
(٢) الطبري: ج٣ ص٣٩١، و الكامل في التاريخ: ج٣ ص٤٨٧.
(٣) ينظر الطبري: ج٣ ص٣٩١.

**الا لا تهابوا الموت، فوالله ما هابه امرؤ قط الا ذل**

كانت خطبة سليمان في ذلك الاجتماع وفيما بعد: «أثني على الله خيرا وأحمد آلاءه وبلاءه وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله، أما بعد فإني والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا الدهر الذي نكدت فيه المعيشة وعظمت فيه الرزية وشمل فيه الجور أولي الفضل من هذه الشيعة لما هو خير، إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ونمنيهم النصر ونحثهم على القدوم فلما قدموا ونينا وعجزنا وادهنا وتربصنا وانتظرنا ما يكون حتى قتل فينا ولد نبينا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه إذ جعل يستصرخ فلا يصرخ ويسأل النصف فلا يعطاه اتخذه الفاسقون غرضا للنبل ودرية للرماح حتى أقصدوه وعدوا عليه فسلبوه ألا انهضوا فقد سخط ربكم ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله والله ما أظنه راضيا دون أن تناجزوا من قتله أو تبيروا ألا لا تهابوا الموت فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذل كونوا كالأولى من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم ﴿**إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ**﴾[(١)] فما فعل القوم؟ جثوا على الركب والله ومدوا الأعناق ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعي القوم إليه، اشحذوا السيوف وركبوا الأسنة ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**﴾[(٢)] حتى تدعوا حين تدعون تستنفرون»[(٣)].

ان كلمة هذا الصحابي الشيخ الذي أشرف على التسعين ودعوته لمناجزة قتلة الحسين أو الموت دون ذلك جديرة بالتأمل.فلقد شخص بدقة حال أهل الكوفة من موالي آل البيت عليهم السلام، عندما تعرضوا لضغوط ابن زياد.فقد وضعوا أنفسهم على التل

(١) البقرة: ٥٤.

(٢) الانفال: ٦٠

(٣) الطبري: ج٣ ص ٣٩١ وابن الاثير ج٣ ص٤٨٧-٤٨٨.

ووقفوا يتفرجون على الموقف وونوا وعجزوا وادهنوا وتربصوا وانتظروا ما سوف يحدث.وما سوف يحدث كان معروفا لديهم بالتأكيد، فهم على دراية تامة بنزعة قيادة الانحراف وميلها للبطش والانتقام والكيد.

كيف يمكن تبرير موقفهم المتخاذل هذا فيما بعد وكيف سيواجهون ربهم وحسابه، ونبيهم وعتابه..؟ كانت كلمة سليمان مشحونة بالولاء التام لآل البيت وقضيتهم والعداء التام لأعدائهم الذين عاملوا الحسين تلك المعاملة القاسية.

وكان تصميمه على مواجهة أولئك الأعداء يبدو نهائياً لا رجعة فيه مهما كانت العواقب وكان الموت أقل الأخطار التي كانوا يخشون مواجهتها، وكان الخطر الحقيقي الذي يخشونه حقا هو مواجهة الحساب العادل على تخاذلهم وتراجعهم وعدم وقوفهم مع الحسين منذ البداية والاستشهاد بين يديه أو تحقيق النصر على عدوه.

كانت وقفة الحسين وأصحابه بوجه آلاف الجند المتحفزين لقتلهم، تشكل ادانة كبيرة لأولئك الذين تخلوا عن نصرته في ذلك الوقت العصيب، فقد رأوا فيها الوقفة التي كان ينبغي أن يقفها كل واحد منهم، وملأت صدورهم بالخزي على موقفهم المتخاذل والندم عليه، وجعلتهم يسعون للشهادة كما سعى اليها أنصار الحسين الذين لم يتراجعوا رغم صعوبة الموقف وشدته تكفيرا عن تقصيرهم وتخاذلهم وخوفهم من ابن زياد.

وقد أثارت كلمة سليمان عواطف الحب والولاء لأهل البيت وجعلت الحاضرين يبدون استعدادهم لبذل أرواحهم وأموالهم لنصرة قضية الحسين ومعاقبة قاتليه وأعدائه، وقد عين سليمان، عبدالله بن وال التيمي مسؤولا عن الأموال التي يتبرع بها الناس لتجهيز ذوي الخلة والمسكنة من أشياعهم.فكان بذلك يمهد لتحرك حقيقي ضد

الدولة لا يقتصر على اثارة العواطف وابداء الندم وحسب وانما الأعداد لمعركة مقبلة ربما علم أنها ستكون خاسرة وانه سيكون أول المقتولين فيها، لأن دولة الظلم لم تكن لتتنازل بسهولة أمام أي مناوئ لها وستتصدى بعنف وقوة لكل من يريد النيل منها أو الاطاحة بها.

**إلى الشهادة لنلتحق بركب الحسين عليه السلام**

وهنا قد يبدو لنا أن دوافع الثائرين لم تكن بمستوى القضية التي حملها الحسين عليه السلام منذ البداية ولم تتح لهم الفرصة للمشاركة فيها.وأن طموحاتهم أصبحت الآن الالتحاق بموكب الشهداء من أصحابه، وان كانوا في موقف لا يستطيعون فيه النيل من الدولة التي بدت قوية مزدهرة بعد مجزرة الطف أو القضاء عليها.كانوا يريدون تدارك ما فاتهم ولو بذهاب حياتهم وأرواحهم.

غير أنهم خططوا لمعركة مع الدولة في المستقبل - في غرة ربيع الآخر سنة خمس وستين، وهي مدة قد تبدو طويلة..ويبدو أنهم أرادوا الاستعداد لمعركة كبيرة، ومن رسالة سليمان إلى حذيفة بن اليمان بالمدائن ندرك أن موت يزيد لم يكن هو الذي حرك الثوار، وانما كان عاملا مساعدا لبذل استعدادات أكبر للثورة.

كما أن الرسالة تدل على تحرك الثوار المسلح لمواجهة الدولة وضرب أعوانها مهما كانت النتائج وأنهم كانوا يعدون العدة لتحرك سري مدروس يقومون في نهايته بثورتهم ضد الدولة الأموية.وان أصبح التحرك فيما بعد علنيا بعد هلاك يزيد وانضمام الكوفة لابن الزبير الذي دعا لنفسه بالخلافة ودعا الناس إلى مبايعته وكاد أن ينتصر على الأمويين.

**وثيقة تسجل أهداف الثوار**

كتب سليمان إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن هذه الرسالة التي تعد وثيقة مهمة تسجل أهداف الثائرين جاء فيها: «...ان أولياء من أخوانكم، وشيعة آل نبيكم نظروا لأنفسهم فيما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبيهم الذي دعي فأجاب، ودعا فلم يجب، وأراد الرجعة فحبس، وسأل الأمان فمنع، وترك الناس فلم يتركوه، وعدوا عليه فقتلوه، ثم سلبوه وجردوه ظلما وعدوانا وغرة بالله وجهلا، وبعين الله ما يعلمون، والله ما يرجعون ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**﴾(١). فلما نظر أخوانكم وتدبروا عواقب ما استقبلوا رأوا أن قد خطئوا بخذلان الزكي الطيب وإسلامه وترك مواساته والنصر له، خطأً كبيراً ليس لهم منه مخرج ولا توبة، دون قتل قاتليه أو قتلهم حتى تفنى على ذلك أرواحهم.

فقد جد أخوانكم فجدوا، وأعدوا واستعدوا، وقد ضربنا لأخواننا أجلا يوافوننا اليه، وموطناً يلقوننا فيه، فأما الأجل فغرة ربيع الآخر سنة خمس وستين، وأما الموطن الذي يلقوننا فيه فالنخيلة. أنتم الذين لا تزالون لنا شيعة وأخوانا، والا وقد رأينا أن ندعوكم إلى هذا الأمر الذي أراد الله به أخوانكم فيما يزعمون، ويظهرون لنا أنهم يتوبون، وأنكم جدراء بتطلاب الفضل، والتماس الأجر والتوبة إلى ربكم من الذنب، ولو كان في ذلك حز الرقاب، وقتل الأولاد واستيفاء الأموال، وهلاك العشائر.

ما ضر أهل عذراء الذين قتلوا الا يكونوا اليوم أحياء عند ربهم يرزقون، شهداء لقوا الله صابرين محتسبين، فأثابهم ثواب الصابرين - يعني حجرا وأصحابه - وما ضر أخوانكم المقتلين صبرا، المصلبين ظلما والممثل بهم، المعتدى عليهم ألا يكونوا أحياء مبتلين بخطاياكم، قد خير لهم فلقوا ربهم، ووفاهم الله، ان شاء الله أجرهم، فاصبروا

---

(١) الشعراء: ٢٢٧.

رحمكم الله على البأساء والضراء وحين البأس، وتوبوا إلى الله عن قريب، فوالله انكم لأحرياء الا يكون أحد من أخوانكم صبر على شيء من البلاء ارادة توابة الا صبرتم التماس الأجر فيه على مثله، ولا يطلب رضاء الله طالب بشيء من الأشياء ولو أنه القتل الا طلبتم رضا الله به.ان التقوى أفضل الزاد في الدنيا وما سوى ذلك يبور ويفنى، فلتعزف عنها أنفسكم، ولتكن رغبتكم في دار عافيتكم، وجهاد عدو الله وعدوكم، وعدو أهل بيت نبيكم حتى تقدموا على الله تائبين راغبين.أحيانا الله واياكم حياة طيبة، وأجارنا واياكم من النار، وجعل منايانا قتلا في سبيله على يدي أبغض خلقه اليه وأشدهم عداوة له، انه القدير على ما يشاء»(١).

وقد لقيت رسالة سليمان بن صرد صدى طيبا لدى سعد بن حذيفة وأهل المدائن، التي كانت مقرا لمجموعات كبيرة من الموالين لأهل البيت عليهم السلام وقد جعلوها وطناً لهم وسكنا.وقد أعرب هؤلاء عن استعدادهم لإجابة أهل الكوفة والقتال معهم حالا الا أن سعداً طلب منهم التريث ريثما يستعدون في الموعد الذي ضر به لهم سليمان.... وقد رد سعد على رسالة سليمان برسالة أو ضح له فيها أنهم جادون مجدون، معدون مسرجون ملجمون ينتظرون الأمر ويستمعون الداعي، فاذا جاء الصريخ اقبلوا ولم يعرّجوا - على حد تعبيره.

وكتب سليمان نسخا مماثلة من كتابه إلى شخصيات عديدة من التي كان يحتمل أن تستجيب لدعوته ومنهم المثنى بن مخربة العبدي فابدوا استعدادهم للقيام معه وموافاته بالأجل الذي ضرب والمكان الذي ذكر.

وهكذا «كان أول ما ابتدعوا به من أمرهم سنة احدى وستين، وهي السنة التي قتل فيها الحسين رضي الله عنه، فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال،

(١)الطبري: ج٣ص٣٩٢ - ٣٩٣.

ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها إلى الطلب بدم الحسين، فكان يجيبهم القوم بعد القوم، والنفر بعد النفر.

فلم يزالوا كذلك، حتى مات يزيد بن معاوية لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين...»[١].

**مرحلة الاعداد تهيئة الرأي العام لقبول فكرة الثورة**

وكانت مرحلة الاعداد تلك التي استمرت أكثر من ثلاث سنين بقليل، وهي الفترة الممتدة بين استشهاد الحسين عليه السلام وموت يزيد حافلة بالكثير من الأعمال التي كان أهمها تهيئة الرأي العام لقبول فكرتهم واعداد الأسلحة والأموال.

أما بعد وفاة يزيد وضعف الدولة الأموية وطرد عاملها من الكوفة.فان هناك من استعجلوا القيام بالثورة وقد طلب منهم سليمان التأني ريثما يجمع العدد الكافي من الأنصار والأسلحة، وكان مما قاله لهم: «رويدا لا تعجلوا، اني قد نظرت فيما تذكرون، فرأيت أن قتلة الحسين هم اشراف أهل الكوفة، وفرسان العرب، وهم المطالبون بدمه، ومتى علموا ما تريدون، وعلموا أنهم المطلوبون، كانوا أشد عليكم، ونظرت فيمن تبعني منكم فعلمت أنهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم، ولم يشفوا أنفسهم ولم ينكوا في عدوهم، وكانوا لهم جزرا.ولكن بثوا دعاتكم في المصر، فادعوا إلى أمركم هذا شيعتكم وغير شيعتكم، فاني أرجو أن يكون الناس اليوم حيث هلك هذا الطاغية أسرع إلى أمركم استجابة منهم قبل هلاكه.

ففعلوا، وخرجت طائفة منهم دعاة يدعون الناس، فاستجاب لهم ناس كثير بعد

(١) الطبري: ج٣ص٣٩٤، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٨٨.

هلاك يزيد بن معاوية أضعاف من كان استجاب لهم قبل ذلك»[١].

**عمل في السر**

ويبدو أنهم قد نجحوا في أمرهم إلى حد بعيد، اذ لم يلفتوا اليهم أنظار الدولة خلال حكم يزيد، كما أنهم لم يلفتوا اليهم أنظار القتلة من الأشراف وغيرهم، فلو أن هؤلاء انتبهوا اليهم لأفسدوا أمرهم ووشوا بهم واستأصلوهم قبل أن يستعدوا وتتكاثر أعدادهم.

وقد ظهر من بين الثوار خطباء مؤثرون مثل عبيدالله بن عبدالله المري الذي كان يلتقي بعامتهم كل يوم فيلقي فيهم خطبة بليغة يشيد فيها بمحمد وأهل بيته صلى الله عليه وآله ومكانتهم من المسلمين ويتعرض لما جرى على الحسين في كربلاء. وكان مما يرد في خطبه:

«...فهل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقا على هذه الأمة من نبيها؟

وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقا على هذه الأمة من ذرية رسولها؟

لا والله. ما كان ولا يكون.

لله أنتم، ألم تروا ويبلغكم ما اجتُرِم إلى ابن بنت نبيكم!

أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمته، واستضعافهم وحدته، وترميهم اياه بالدم، وتجرارهموه على الأرض!

لم يرقبوا فيه ربهم، ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وآله.

اتخذوه للنبل غرضا، وغادروه للضباع جزرا، فلله عينا من رأى مثله، ولله حسين

---

(١) الطبري: ج٣ص٣٩٤.

ابن علي، ماذا غادروا به ذا صدق وصبر، وذا أمانة ونجدة وحزم ابن أول المسلمين إسلاما، وابن بنت رسول رب العالمين قلت حماته، وكثرت عداته حوله، فقتله عدوه، وخذله وليه، فويل للقاتل، وملامة للخاذل ان الله لم يجعل لقاتله حجة، ولا لخاذله معذرة الا أن يناصح لله في التوبة، فيجاهد القاتلين، وينابذ القاسطين فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة، ويقيل العثرة.

انا ندعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيه، والطلب بدماء أهل بيته، والى جهاد المحلين والمارقين، فان قتلنا فما عندالله خير للأبرار، وان ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبينا»[١].

«..ولم يزل أصحاب سليمان بن صرد يدعون شيعتهم وغيرهم من أهل مصرهم حتى كثر تبعهم وكان الناس إلى اتباعهم بعد هلاك يزيد بن معاوية أسرع منهم قبل ذلك»[٢].

«وعظم الشيعة مع سليمان بن صرد»[٣].

وقد حاول بعض أهل الكوفة مثل يزيد بن الحارث، تحريض عبدالله بن يزيد الأنصاري عامل ابن الزبير على الكوفة، على سليمان بن صرد وأنصاره بحجة أنهم سيخرجون عليه ودعوه إلى مقاومته وقتاله قبل أن يستفحل أمره وتشتد شوكته، وأخبروه أن سليمان وأصحابه يطلبون بدم الحسين عليه السلام.

الا أن عبدالله بن يزيد لم يستجب لتلك الدعوة، ويبدو أنه كان يتمتع بقدر من الفطنة والحذر والتعقل ولم يكن يميل لاثارة الناس ضده، وقد رأى أن يستثمر مشاعر

(١) الطبري: ج٣ ص٣٩٤ - ٣٩٥.
(٢) الطبري: ج٣ ص ٣٩٤.
(٣) الطبري: ج٣ ص٣٩٤.

الغضب لدى الناس لكي يتوجهوا لمقاتلة المجرم الرئيسي، عبيدالله بن زياد.وبذلك يكون هو وابن الزبير الرابحين الوحيدين إذا ما خسر أحد طرفي النزاع، أو كلاهما الحرب، فابن زياد وابن صرد كانا عدوين للدولة الزبيرية الناشئة.وقد ألقى خطبة حرض فيها الناس على مقاتلة ابن زياد، الا أن أحد أصحابه..ابراهيم بن محمد بن طلحة (و هو أمير الخراج) لم يرقه كلام العامل وقد أرعد وأبرق وهدد بكلمات مثل تلك التي كان يستعملها زياد وابنه في خطبهما مثل أخذ الوالد بولده والمولود بوالده، والحميم بالحميم والعريف بما في عرافته، وقد هدده برفع كلامه إلى ابن الزبير، الا أن هذا أقنعه بأنه كان يريد ألا تختلف الكلمة، ولا تتفرق الألفة.

«ثم ان أصحاب سليمان بن صرد خرجوا ينشرون السلاح ظاهرين، ويتجهزون يجاهرون بجهارهم وما يصلحهم»[١].

**يا لثارات الحسين**

وقد خرج سليمان في وجوه أصحابه عندما استهل هلال شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وهو الموعد الذي حددوه سنة احدى وستين وعسكر بالنخيلة، فلم يعجبه عدة الناس فبعث جماعة من أصحابه لينادوا في الكوفة (يا لثارات الحسين)، وكانت تلك أول مرة ينادى فيها بذلك الشعار الذي كان تأثيره كبيرا في أهل الكوفة حيث التحق اثر سماعه بسليمان نحو ممن كان في عسكره حين دخله..ومع ذلك فان من التحقوا به لم يتجاوزوا أربعة آلاف من ستة عشر ألفا كانوا قد بايعوه قبل ذلك وأحصاهم ديوانه، وقد آلمه ذلك، وبعث إلى الكوفة ثانية ببعض ثقاته من أصحابه إلى من تخلف عنه يذكرهم الله وما أعطوه من أنفسهم، فخرج اليه نحو من ألف رجل، فأصبح عدد أصحابه خمسة آلاف.

(١) الطبري: ج٣ ص ٣٩٧.

ويبدو أنه كان ينتظر أعدادا أخرى تلتحق به الا أن المسيب بن نجبة أقنعه بعدم انتظار المزيد منهم اذ لا ينفع الكاره ولا يقاتل الا من نوى حقا على القتال وأخرجته النية. وقد ألقى سليمان خطبة قصيرة في أصحابه أوضح فيها الغاية من خروجهم قائلا:

«أيها الناس: من كان انما أخرجته ارادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحن منه، فحرمة الله عليه حيا وميتا، ومن كان انما يريد الدنيا وحرثها، فو الله ما نأتي فيئا نستفيئه، ولا غنيمة نغنمها، ما خلا رضوان الله رب العالمين، وما معنا من ذهب ولا فضة، ولا خز ولا حرير، وما هي الا سيوفنا في عواتقنا، ورماحنا في أكفنا، وزاد قدر البلغة إلى لقاء عدونا، فمن كان غير هذا ينوي فلا يصحبنا»(١).

ويبدو أن أولئك الذين كانوا معه كانوا على نفس نيته ورأيه وكانوا يتوقون لملاقاة عدوهم، وتكبيده أفدح الخسائر وان كانوا لا يتوقعون القضاء عليه قضاء تاما. وقد أعربوا عن رأيهم ذاك بخطابات وهتافات مؤيدة.

**قصدوا الشام لمعاقبة المجرم الرئيسي**

وقبيل المسير أشار على سليمان أحد أصحابه بالرجوع إلى الكوفة، مادام هدفهم الثأر للحسين عليه السلام، والقضاء على قتلته، وكلهم فيها، منهم عمر بن سعد ورؤوس الأرباع وأشراف القبائل، وقد أيد ذلك الاقتراح كثيرون. من أصحابه، اذ أنهم لو مضوا نحو الشام فلن يجدوا هناك غير قاتل واحد هو ابن زياد، بينما يتجمع كل القتلة في الكوفة.

غير أن سليمان رأى أن يسيروا لمعاقبة القاتل الرئيسي، ابن زياد، الذي قتل الحسين وعبأ الجنود اليه وقال: لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأمضي فيه حكمي... فاذا ما

---

(١) الطبري: ج٣ ص٤٠٩، والكامل في التاريخ: ج٤ ص ٣.

ظهروا عليه كان الآخرون أهون شوكة منه، وسيكون ظفرهم عاملا يجعل الناس تنضم اليهم، وحينذاك يتسنى لهم قتل ومعاقبة كل من شرك في دم الحسين....وحذرهم من القيام بحرب أهلية في الكوفة تكون عواقبها وخيمة، اذ أنهم منها وقتلة الحسين من أقاربهم وعشائرهم، وسيفتح ذلك الباب لحملة من الثارات والعداوات بين الناس. ولعل عددهم القليل هو الذي جعل سليمان يتوقع فشل مهمتهم في الكوفة، اذ أن الذين يجدون أنفسهم مستهدفين بالحرب والقتل ممن شاركوا بقتل الحسين ومنهم أناس ذوو تأثير قوي من مجتمعهم من رؤساء الأرباع وأشراف القبائل، سيحشدون قواهم لمواجهتهم ومقاومتهم، وعند ذاك لن يجنوا غير اثارة المزيد من النزاعات والعداوات وسيظل قتلة الحسين يمرحون دون وجل وسيكون ابن زياد الرابح الوحيد من كل ذلك.

**ابن الزبير لم يحرك ساكنا: عصفوران بحجر واحد**

وقد رأى عبدالله بن يزيد، عامل ابن الزبير على الكوفة، أن تطوع هذا العدد لمقاتلة ابن زياد سيكون ورقة رابحة في يده، إذا ما بقي هؤلاء في الكوفة للدفاع عنها بوجه ابن زياد القادم اليها من الشام، وانهم سيكونون نواة لجيش قوي يستطيع تجريده على جيش الشام، وبذلك يحقق مكسبا مجانيا كبيرا لابن الزبير.

وقد عرض على سليمان الاقامة حتى يتهيؤوا، فاذا علموا أن عدوهم المشترك قد شارف بلده خرجوا اليه بجماعتهم فقاتلوهم.

وعندما رفض سليمان ذلك عرض عليه ابن يزيد أن يقيموا حتى يعبئ معهم جيشاً كثيفا حتى يلقوا عدوهم بكثف وجمع واحد؛ وعلى أن يخص سليمان وأصحابه بخراج احدى المدن، دون الناس؛ وقد رفض هذا العرض الأخير.

**سليمان بن صرد: ان للدنيا تجارا وللآخرة تجارا ان الجهاد سنام العمل**

ورغم أن أهل البصرة وأهل المدائن لم يوافوا سليمان وأصحابه في الموعد المضروب، الا أنهم أزمعوا على الشخوص واستقبال ابن زياد، وقد ألقى سليمان خطبة جاء فيها: «أما بعد أيها الناس، فان الله قد علم ما تنوون، وما خرجتم تطلبون، وان للدنيا تجارا، وللآخرة تجارا. فأما تاجر الآخرة فساع اليها، متنصب بتطلابها، لا يشتري بها ثمنا، لا يرى الا قائما وقاعدا، وراكعا وساجدا، لا يطلب ذهبا ولا فضة، ولا دنيا ولا لذة، وأما تاجر الدنيا، فمكب عليها، راتع فيها، لا يبتغي بها بدلا، فعليكم يرحمكم الله في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل، وبذكر الله على كل حال، وتقربوا إلى الله، جل ذكره بكل خير قدرتم عليه، حتى تلقوا هذا العدو المحل القاسط فتجاهدوه. فان تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثوابا من الجهاد والصلاة، فان الجهاد سنام العمل، جعلنا الله واياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين على اللأواء»[(١)].

وأعلمهم أنهم مدلجون تلك الليلة، فأدلجوا عشية الجمعة لخمس مضين من شهر ربيع الآخر، سنة خمس وستين للهجرة، وهو الموعد الذي حددوه قبل ذلك بأربع سنين.

وقد تخلف نحو ألف رجل من أصحاب سليمان عنه، فلم يزعجه ذلك، لأنه رأى أنهم سيقومون بتخذيل بقية أصحابه عند مواجهة جيش ابن زياد، واعتبر أن ذلك فضل من الله يستحق الحمد...

**عند قبر الحسين عليه السلام توبة وعزيمة**

وقد «صبَّحوا قبر الحسين، فأقاموا به ليلة ويوما يصلون عليه، ويستغفرون له، فلما انتهى الناس إلى قبر الحسين صاحوا صيحة واحدة، وبكوا. فما رئي يوم كان أكثر باكيا

---

(١) الطبري: ج٣ ص٤١١.

منه.

فقال سليمان: اللهم ارحم حسينا الشهيد ابن الشهيد، المهدي ابن المهدي، الصديق ابن الصديق، اللهم انا نشهدك أنا على دينهم وسبيلهم، وأعداء قاتليهم، وأولياء محبيهم.

ونادوا صحيحة واحدة: يا رب انا قد خذلنا ابن بنت نبينا، فاغفر لنا ما مضى منا، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم، وارحم حسينا وأصحابه الشهداء الصديقين، وانا نشهدك يا رب أنا على مثل ما قتلوا عليه، فان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين فأقاموا عنده يوما وليلة يصلون عليه ويبكون ويتضرعون، فما انفك الناس من يومهم ذلك يترحمون عليه وعلى أصحابه.حتى صلوا الغداة من الغد عند قبره، وزادهم ذلك حنقا.ثم ركبوا، فأمر سليمان الناس بالمسير، فجعل الرجل لا يمضي حتى يأتي قبر الحسين فيقوم عليه، فيترحم عليه ويستغفر له؛ وازدحموا على قبره أكثر من ازدحام الناس على الحجر الأسود...»[١].

وكان سليمان آخر من بقي عند القبر في نحو من ثلاثين من أصحابه وقد أحاطوا بالقبر فقال سليمان: «الحمد لله الذي لو شاء أكرمنا بالشهادة مع الحسين، اللهم اذ حرمتناها معه فلا تحرمناها فيه بعده»[٢].

وألقى الجميع كلمات في ذلك الموقف، كانت آخرها كلمة المثنى بن مخربة صاحب أحد الرؤوس والأشراف وقد جاء فيها: «...ان الله جعل هؤلاء الذين ذكرتهم بمكانهم من نبيهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أفضل ممن هو دون نبيهم، وقد قتلهم قوم نحن لهم أعداء، ومنهم براء، وقد خرجنا من الديار والأهلين والأموال ارادة استئصال من قتلهم، فوالله لو أن القتال فيهم بمغرب الشمس أو بمنقطع التراب يحق علينا طلبه حتى نناله، فان ذلك هو الغنم،

(١) الطبري: ج٣ ص٤١١، والكامل في التاريخ: ج٤ ص ٤ – ٥.
(٢) الطبري: ج٣ ص٤١١، والكامل في التاريخ: ج٤ ص ٤ – ٥.

وهي الشهادة التي ثوابها الجنة...»[١].

**إلى العدو في عقر داره**

ثم ساروا نحو الشام، وفي القيَّارة وصلهم رسول ابن يزيد، عامل ابن الزبير على الكوفة يدعوهم للرجوع، اذ أنهم بعددهم القليل لن يستطيعوا التغلب على الجيش الأموي، وإذا ما أصيبوا فان ذلك الجيش سيطمع بالكوفة نفسها وسيستهدفها بعدوانه وأذاه؛ وأعرب عن استعداده للوقوف معهم إذا ما رجعوا لتجتمع كلمتهم وأيديهم على عدوهم.

ويبدو أن مخاوف ابن يزيد والي الكوفة لم تكن على الثوار بقدر ما كانت على سلطان وأعوان الدولة الزبيرية، في الكوفة، وقد أدرك سليمان وأصحابه ذلك، وقد علموا أنهم يختلفون عن الزبيريين اختلافهم عن الأمويين، وان هؤلاء لو ظهروا لدعوهم إلى القتال مع ابن الزبير والتخلي عن آل البيت، وهو ما كانوا يرونه ضلالا، لأن لهم شكلا ولابن الزبير شكلاً، على حد تعبير سليمان[٢]، الذي رفض عرض عامل الكوفة ورد عليه برسالة دقيقة الا أنها حازمة أنبأه فيها أنهم قد توجهوا إلى الله وتوكلوا عليه ورضوا بما قضى.

وقد توقع ابن يزيد قتلهم بعد أن تشتد شوكتهم وينالوا من عدوهم، وقد صحت

(١) الطبري: ج٣ ص٤١١، والكامل في التاريخ: ج٤ ص ٤ – ٥.

(٢) قال سليمان لأصحابه مبديا رأيه برسالة ابن يزيد: «...والله انكم لم تكونوا قط أقرب من احدى الحُسْنَيين منكم يومكم هذا، الشهادة والفتح، ولا أرى أن تنصرفوا عما جمعكم الله عليه من الحق، وأردتم من الفضل، انا وهؤلاء مختلفون. ان هؤلاء لو ظهروا دعونا إلى الجهاد مع ابن الزبير، ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير الا ضلالا، وأنا ان نحن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهله، وان أصبنا فعلى نياتنا تائبين من ذنوبنا...» الطبري: ج٣ ص٤١٢ – ٤١٣ ويبدو من حديث سليمان بن صرد هذا ان غرضهم لم يكن الثأر للحسين وأصحابه وحسب وانما اعادة الأمر إلى أهله، أي أهل البيت عليهم السلام.

توقعاته تماما.

**الشهادة أولا، لا قيمة للسلامة**

وقد عرض عليهم زُفَر بن الحارث الكلابي أمير قرقيسيا -الذي تحصن منهم في البداية ولم يخرج اليهم لأنه لم يكن يعلم بحقيقة نواياهم ودوافعهم للخروج، بعد أن علم أنهم كانوا يريدون قتال ابن زياد وجيش الشام- أن يقيموا في مدينته أو على بابها فيقاتلوا العدو سوية إذا ما قصدهم، وعندما رفضوا عرضه، عرض عليهم خطة حربية يستطيعون بها جعل زمام الموقف في أيديهم في البداية، وقد أخذوا بها عند وصولهم عين الوردة قبيل وصول جيش الشام بخمسة أيام.

وقبيل وصول جيش الشام بيوم وليلة ألقى سليمان خطبة مؤثرة دعاهم فيها إلى الصبر وأوصاهم فيها بمثل ما كان يوصي به رسول صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام أصحابهما في مثل تلك المواقف، لا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يقتلوا أسيرا، وأوصى بمن يكون عليهم بعده إذا ما قتل، ثم من بعده إذا قتل ذاك ومن بعده.

وبعث المسيب بن نجبة في أربعمائة فارس للقيام بغارة مفاجئة على طلائع العدو وكانت بقيادة ابن ذي الكلاع، وقد حملوا عليهم وهزموهم وأصابوا منهم رجالا وجرحوا فيهم فأكثروا الجراح، وأصابوا لهم دواب وأخرجوهم عن معسكرهم وأخذوا منه ما خف عليهم.

وقد أسرع ابن زياد، عندما بلغته هزيمة أصحابه بتسريح الحصين بن نمير اليهم في اثني عشر ألفا، فعبأ سليمان جنوده لمواجهتهم.

**ادفعوا الينا ابن زياد**

وعندما دعاهم أهل الشام لبيعة عبدالملك والدخول في طاعته، دعاهم هؤلاء إلى

أن يدفعوا اليهم عبيدالله بن زياد – قائد جيشهم – ليقتلوه ببعض من قتل من أخوانهم، وأن يخلعوا عبد الملك بن مروان، وإلى أن يخرج من ببلادهم من آل ابن الزبير، ثم يقومون برد الأمر إلى أهل البيت عليهم السلام، وهي شروط بدت مستحيلة التنفيذ بالنسبة للجيش الأموي.

**انتصروا في البداية رغم قلة عددهم**

وقد بدأت المعركة التي انهزم فيها هذا الجيش الذي كان يتفوق عليهم بالعدة والعدد، فعاد إلى معسكره، فكان الظفر لأصحاب سليمان عليهم حتى حجز الليل بينهم؛ وكان سليمان يحارب في القلب رغم شيخوخته وعمره الذي ناهز التسعين عاما.

وقد أمد ابن زياد جيشه بثمانية آلاف مقاتل فأصبح عشرين ألفاً بمواجهة جيش سليمان الصغير، فدار قتال هائل بين الجيشين لم ير مثله، وقد كثرت الجراح بين الطرفين، وذلك في اليوم الثاني من المعركة.

كما اقتتلوا في اليوم الثالث قتالاً شديداً إلى ارتفاع الضحى، إلى أن تكثر أهل الشام أصحاب سليمان وتطفوا عليهم من كل جانب، عندما نزل سليمان وكسر جفن سيفه «ونزل معه ناس كثير فكسروا جفون سيوفهم ومشوا معه وانزوت خيلهم حتى اختلطت مع الرجال فقاتلوهم حتى نزلت الرجال تشتد مصلتة بالسيوف وقد كسروا الجفون فحمل الفرسان على الخيل ولا يثبتون فقاتلوهم وقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة وجرحوا فيهم فأكثروا الجراح»[1].

**شيوخ يقاتلون أعداء الإسلام**

...إلى أن بعث الحصين بن نمير الرجال ترميهم بالنبل واكتنفتهم الخيل والرجال،

---

(١) الطبري: ج٣ص٤١٧، والكامل في التاريخ: ج ٤ ص٧.

وقد قتل سليمان بن صرد بعد ان رمي بسهم فوقع، ثم وثب ثم وقع، وقتل بعد المسيب ابن نجبة بعد أن أخذ الراية فشد بها عدة مرات.والمسيب كان شيخا طاعنا في السن أيضا، وقد قاتل قتالاً شديداً لم يظن أن رجلا واحدا يقدر عليه وقتل من أعدائه رجالاً عديدين.

وقد استلم الراية بعده عبدالله بن سعد بن نفيل، وخلال ذلك جاءتهم نجدة صغيرة من أهل المدائن أرسلها سعد بن حذيفة، وكان مجيؤها متأخرا، فأعداؤهم الذين كانوا يتفوقون عليهم كثيرا قد قتلوا منهم مقتلة كبيرة.

وقد قتل عبدالله بن وال التيمي بعد أن قاتل قتالاً شديداً.

وإذ لم تبق منهم الا اعداد قليلة مصيرها القتل لا محالة رأى رفاعة بن شداد البجلي، وهو خامس قادة التوابين أن يرجعوا إلى الكوفة ويعيدوا تجميع قواهم مرة أخرى، بعد أن قاتلوا حتى العشاء واستطاعوا صد عدوهم.

**الانسحاب للم الشمل ثانية**

وكانت شجاعتهم قد لفتت اليها أنظار أعدائهم الشاميين الذي أعجبوا بهم ايما اعجاب، حتى انهم أعطوهم الآمال وأسفوا أن يُقتلوا وهم على ما هم عليه من شجاعة وبأس.وقد انسحبوا عند حلول الظلام حاملين جرحاهم ومضوا لا يمرون بمعبر الا قطعوه، وخلفوا وراءهم سبعين فارسا يسترون الناس.

وفي قرقيسيا بعث اليهم زفر من الطعام والعلف مثل ما كان بعث اليهم في المرة الأولى وأرسل اليهم الأطباء، فأقاموا عنده ثلاثا، ثم زود كل امرئ منهم ما أحب من الطعام والعلف.

وقد عاد سعد بن حذيفة بن اليمان بعد أن وصله خبر أصحابه والتقى بالمثنى بن

مخربة فأخبره بخبرهم؛ وقد استقبلا رفاعة وأصحابه العائدين من الحرب «فسلم الناس بعضهم على بعض وبكى بعضهم إلى بعض وتناعوا إخوانهم»[١] ثم انصرفوا إلى مدنهم، «أهل المدائن إلى المدائن، وأهل البصرة إلى البصرة، وأهل الكوفة إلى الكوفة»[٢].

ولم تكن عودتهم دون فائدة فيما بعد؛ ولم يكن استبسالهم غير ذي جدوى...فقد برهنوا أنهم قادرون على التصدي للقوات الأموية الكبيرة، وقادرون على التغلب عليها لو أن كل الذين بايعوا سليمان قد ساروا معهم.

**لم يخب حماس بقيتهم رغم الخسارة الفادحة**

كان جذوة الحماس التي أججتها ثورة الحسين فيهم وميتته البطولية في كربلاء جعلتهم ينادون منذ اللحظات الأولى لاستشهاده عليه السلام بالثأر له وقتل عدوه، وكانوا يرون أنهم قادرون على التصدي لأي قوة مهما بلغت والتغلب عليها، غير أن أوان الجد عندما حان، ولم يسر منهم الا ربع عددهم، عادت إلى نفوس الباقين ممن تخلفوا عوامل الخوف واليأس واعتقدوا أنهم كانوا يجازفون بحياتهم ولن يتمكنوا من تحقيق أهدافهم.مع أنهم لو ساروا جميعا وامتلكوا نفس يقين وعزيمة أخوانهم السائرين لكانوا قوة ضاربة لا تستطيع أية قوة أخرى أن تقف بوجهها، ولما استطاع أحد أن يقول انهم كانوا ينتحرون.

لم يرد أولئك الذين ساروا لمواجهة ابن زياد أن يتراجعوا ثانية بعد أن تراجعوا عن الحسين عليه السلام في المرة الأولى.ولم يرغبوا أن يرى الناس فيهم كذابين مدعين، ورأوا أن قضيتهم أغلى من أرواحهم، وان غلت تلك الأرواح وعزت.

لقد سر عبد الملك بن مروان عندما حملت اليه رؤوس سليمان وأصحابه، ويبدو أنه

---

(١) الطبري: ج٣ ص٤٢٠، والكامل في التاريخ: ج٤ ص ٩.

(٢) الطبري: ج٣ ص٤٢٠، والكامل في التاريخ: ج٤ ص ٩، ومروج الذهب: ج٣ ص١١٤.

كان يحسب لهم ألف حساب رغم قلتهم وكثرة أعداد جيشه الذي أرسله اليهم بقيادة ابن زياد، وقد بلغت ثلاثين ألفا...وقد رأى أنه قد حقق فتحا في (عين الوردة).جمع الناس وألقى فيهم خطبة قال فيها: «أما بعد فإن الله قد أهلك من رؤوس أهل العراق ملقح فتنة ورأس ضلالة سليمان بن صرد ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاريف ألا وقد قتل الله من رؤوسهم رأسين عظيمين ضالين مضلين عبدالله بن سعد أخا الأزد وعبدالله بن وال أخا بكر بن وائل فلم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفاع ولا امتناع»[١] ثم أمر فعلقت الرؤوس بدمشق[٢].

لم يجد عبدالملك شيئاً سيئاً يقوله عن هؤلاء، كما قال عن الثائرين عليه فيما بعد بأنهم من الموالي أو العبيد، وهم طبقة استحدثتها الدولة الأموية بنفسها عندما فرقت بينهم وهم مسلمون ينبغي أن يكون لهم ما لبقية المسلمين وعليهم ما عليهم...فأصحاب سليمان كانوا كلهم من قبائل العرب المعروفة، غير أنه أخذ يردد هنا ما اعتاد معاوية أن يردده من قبل ناشرا مذهبه الجديد في القدر.فالله هو الذي أهلك سليمان وأصحابه كما أنه هو الذي مكن لمعاوية ويزيد من قبل وقتل علياً والحسين عليهم السلام...! كان الأمويون بذلك يحذرون الناس ويجعلونهم يعتادون هذا النمط من التفكير المستسلم الراضي بكل شيء مادامت الدولة تقول بذلك ومادام فقهاؤها وقصاصوها وشعراؤها ومحدثوها يقولون بذلك، وهم (من أعدل الناس وأنزه الناس) ومن (المشهود لهم بالأمانة والاخلاص للإسلام)، كما اريد دائماً عرضهم بهذه الصورة من قبل الدولة.

وكانت حركة سليمان ستعطي أفضل النتائج لو قدر لمن ساندوها منذ البداية أن

(١)الطبري: ج٣ص٤٢٠، والكامل في التاريخ:ج٤ص١٠ ويتحفظ ابن الأثير هنا على كلمة مروان لأن أباه كان حيا وكان أحرى به أن يلقي هو الخطبة.ولا منافاة في ذلك فربما كلف مروان ابنه عبد الملك باستقبال مبعوثي ابن زياد وحملة الرؤوس إليه وإلقاء تلك الخطبة.

(٢) البداية والنهاية: ج٨ ص٢٥٤ – ٢٥٥.

يسيروا معه إلى نهاية الشوط، غير أن الشهادة في سبيل الحق والإسلام لا تستهوي الجميع وروادها قليلون مادامت الأغلبية لا تمتلك البصيرة التي يمتلكها المتفانون في الله. ومادام رواد الأحزاب المعادية لآل البيت يتغلغلون بين شيعتهم ومحبيهم ويعملون على تخذيلهم واثارة المخاوف في نفوسهم.

**المختار مرحلة جديدة من العمل**

وبقدوم المختار إلى الكوفة بدأت مرحلة جديدة من العمل؛ والمختار ابن أبي عبيد من الشخصيات التي كثر الجدل والنقاش حولها، فهو قد ظهر في الوقت الذي كانت الدولتان المروانية والزبيرية تعملان فيه على تثبيت أقدامهما، وبدا كأنه قد أفسد مخططاتهما للسيطرة والنمو، بل انه ألحق أشد الخسائر بهما وأذل كبرياء قادتهما بعد أن قتل وطرد العديدين من ممثليهما وأعوانهما.

**اذل الأمويين والزبيريين فحاولوا تشويه سمعته**

وقد استهدف بحملة اعلامية شنها عليه الطرفان المتنافسان، آل مروان وآل الزبير وقذف بشتى الاتهامات التي انطلت على العديد من المسلمين إلى يومنا هذا، حتى الذين يوالون آل البيت عليهم السلام(١). وإذا ما علمنا أن من شن حربا اعلامية على المختار لم يكن

(١) يقول العلامة المجلسي بعد أن استعرض جملة من أخبار المختار «..بأنه وان لم يكن كاملا في الايمان واليقين، ولا مأذونا فيما فعله صريحا من أئمة الدين، لكن لما جرى على يديه الخيرات الكثيرة، وشفى بها صدور قوم مؤمنين كانت عاقبة أمره آئلة إلى النجاة، فدخل بذلك تحت قوله سبحانه: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى الله أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ التوبه: ١٠٢. وانا في شأنه من المتوقفين. وان كان الأشهر بين أصحابنا انه من المشكورين» ولعل الأخبار الكثيرة التي نقلها عنه في موسوعته البحار قد جعلته يتوقف بشأن ابداء رأي صريح فيه. خصوصا وان بعض الأقوال الواردة فيها منسوبة إلى بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام بحار الأنوار: ج٤٥ ص٣٣٩.

يمثل القيادة الشرعية للمسلمين، وانه كان مجرد طالب للحكم والسلطة، أصبح من حقنا أن نتأمل قليلا ونتدبر أمر الاتهامات التي قذف بها، فهل ان من قذفوه بها كانوا خلواً منها؟

ان جمهور المسلمين يشكون في صحة توجهات ابن الزبير وصدق نواياه، كما أنهم اعتبروا مروان باغيا عليه، مادام ذلك قد طلب المبايعة لنفسه قبله، فكيف يقبلون تخرصاتهما بشأن المختار...

كانت فترة عاصفة لم يجد فيها المسلمون قيادة حقيقية تمثلهم غير تلك التي أجبرت على الانزواء والابتعاد عن مركز الحكم، وهي قيادة أهل البيت المتمثلة في الامام زين العابدين عليه السلام...وقد اشترك طرفا الصراع باعلان كراهيتهما ورفضهما لهذه القيادة، التي لو كانت قد طالبت بحقها في الحكم وادارة شؤون المسلمين، لكانت قد تعرضت للاستئصال النهائي دون أن يعترض أحد هذه المرة، ولكان ذلك منها مجازفة حقيقية شبيهة بالانتحار غير المبرر.

وقد رأينا كيف أعلن الانحراف عن نفسه بشكل مكشوف اثر فاجعة الطف، وكيف بدت دولة الظلم مزدهرة قوية في الظاهر وكيف تمادت في جرائمها إلى حد استباحة أقدس مدينة عرفها المسلمون وأشرف بقعة خصها الله بالكرامة والمجد...

**تحفظ الامام زين العابدين عليه السلام في التعامل الظاهري مع شيعة أهل البيت لا ينفي صحة توجهاتهم**

وهكذا نرى تحفظ الامام زين العابدين في تعامله مع المختار وكل شيعة آل البيت عليهم السلام في الكوفة بما فيهم (التوابون)، ونرى التعامل المشوب بالحذر معه من قبل محمد ابن الحنفية الذي يعلم حق العلم مكانة الإمام زين العابدين عليه السلام والذي لم يكن

ليتصرف دون توجيهاته غير المعلنة في أغلب الظن لدقة الظرف الذي كانوا يمرون به...

**هل كان ساذجا للدرجة التي يدعي فيها النبوة أكاذيب ومزاعم**

وقد استطاع أعداء المختار استغلال ذلك لعرضه وكأنه يعمل بمفرده دون رضا زين العابدين عليه السلام أو محمد ابن الحنفية على الأقل... وانه كان يستغل الأمر في النهاية لاعلان نبوته[1]...ولا نعتقد أن أحدا كان سيتبعه لو فعل ذلك، ولا نعتقد أنه كان من البلاهة وقصر النظر، وهو يعيش في مجتمع الكوفة الذي يتمتع بقدر لا بأس به من الوعي والمعرفة والذي يميل ميلا واضحا لآل البيت عليهم السلام، أن يعلن نبوته كما أن مجمل سيرته منذ مطلع حياته وانحداره من عائلة مجاهدة، استشهد منها أبوه.وأخوه، واستماتته

(١) في معرض الطعن بأهل الكوفة، ذكر انه «ادعى النبوة منهم غير واحد، منهم المختار بن أبي‌عبيد.وكتب المختار إلى الأحنف، بلغني انكم تكذبونني وتكذبون رسلي.وقد كذبت الأنبياء من قبلي، ولست بخير من كثر منهم» العقد الفريد ٧/ ٢٧٧.
وعن أبي‌بكر بن أبي‌شيبة قال: «...ولم يكن صادق النية، ولا صحيح المذهب، وانما أراد أن يستأصل الناس، فلما أدرك بغيته أظهر للناس قبح نيته، فادعى أن جبريل ينزل عليه ويأتيه بالوحي من الله، وكتب إلى أهل البصرة: بلغني أنكم تكذبونني وتكذبون رسلي، وقد كذبت الأنبياء من قبلي، ولست بخير من كثير منهم، فلما انتشر ذلك عنه، كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير، وهو بالبصرة فخرج اليه، وبرز اليه المختار فاسلمه ابراهيم بن الاشتر ووجوه أهل الكوفة، فقتله معصب وقتل أصحابه» العقد الفريد: ج٥ ص ١٥٤ - ١٦٣ وهي مغالطات تاريخية مفضوحة، اذ لم يتصد له من أهل الكوفة الا أنصار الأمويين والزبيريين ومن شاركوا بقتل الحسين من اشرافها وزعمائها ولم يفعلوا ذلك لانه ادعى النبوة، وانما بسبب الشعارات التي رفعها وبسبب اعلانه الحرب عليهم ومجابهتهم، وقد روى أبوبكر بن أبي‌شيبة انه قيل لعبدالله بن عمر: «ان المختار ليزعم أنه يوحي اليه.قال: صدق الشياطين يوحون إلى أوليائهم» العقد الفريد: ج٥ ص ١٥٤ وابن‌عمر من أعرف الناس بالمختار وهو صهره وقد توسط لدى يزيد مرة ولدى عامل ابن الزبير ثانية لاخراجه من سجونهم.ولا شك ان هذا القول موضوع على لسان ابن‌عمر بعد ان توفي.ويبدو ان ابن‌أبي‌شيبة كان من الحاقدين على المختار فوضع هذه المزاعم مستغلا سجع المختار، وهو لون من ألوان الخطابة، أراد به التأثير على الناس لا غير وليس فيه سحر وادعاء نبوة.

في الدفاع عن الكعبة في الحصار الأول، وتأييده لمسلم بن عقيل والامام الحسين عليه السلام ووقوفه بحزم ضد أنصار الدولتين الزبيرية والمروانية، وقتله قتلة الحسين وصدقه في القتال رغم قلة أنصاره في النهاية وطوافه حول البيت وحسن صلاته المشهود بها من قبل من عرفوه، يجعل من يقول بنبوته المزعومة مجرد مدَّعٍ أخرق تكذب ادعاءه كل ما عرف من سيرة المختار وهي سيرة جديدة أن ينتبه اليها جيدا وتدرس بدقة ووعي.

وجدير بنا - ونحن نستعرض حركته هنا - أن نشير إلى بعض جوانب حياته، ونلقي الضوء على ما قام به في الكوفة ومكة قبل ذلك...

**سيرته الشخصية الحافلة حيرت الكثيرين**

ولد المختار عام الهجرة، وقتل وهو ابن سبع وستين سنة، لأربع عشرة خلت من شهر رمضان في سنة سبع وستين[١]...وكانت حياته منذ طفولته حافلة بالجليل من الأعمال حتى غدت أسطورة تحير الكثيرون بشأنها...

وأبوه أبوعبيد بن مسعود بن عمير الثقفي، وقد استشهد في معركة جرت بين المسلمين والفرس مع ابن له يدعى جبر، وقد حضر المختار مع أبيه وقعة قس الناطف وهو ابن ثلاث عشرة سنة، «و كان يتفلت للقتال، فيمنعه سعد بن مسعود عمه، فنشأ مقداما شجاعا لا يتقي شيئا، وتعاطى معالي الأمور، وكان ذا عقل وافر...»[٢].

«و روي عن الأصبغ بن نباتة أنه قال: رأيت المختار على فخذ أمير المؤمنين عليه السلام وهو يمسح رأسه يقول: **يا كيس يا كيس**، فسمي كيسان...»[٣].

(١)الطبري: ج٣ص٤٩٦، والمجلسي: ج٤٥ ص٣٥٠.
(٢) المجلسي: ج٤٥ص٣٥٠.
(٣) المجلسي: ج٤٥ص٣٥١.

«وولى علي عليه السلام عمه على المدائن عاملا والمختار معه، فلما وُلِّي المغيرة بن شعبة الكوفة من قبل معاوية رحل المختار إلى المدينة...»[١]...اذ أنه ربما سيكون مستهدفا هناك كما حال الموالين لأمير المؤمنين عليه السلام والسائرين على خطه...

ويبدو أنه عاد للكوفة لعلاقة القرابة بينه وبين المغيرة الذي اشتهر بمناوراته الشيطانية وتحيزه لمعاوية وحرصه على نيل المزيد من المكاسب غير المشروعة ولو على حساب المسلمين ومصلحتهم، وقد تحدثنا عن شخصيته في هذه الدراسة، وهي شخصية مدمرة وخطرة قلما شهد تاريخ المسلمين لها مثيلا.وقد رأينا أنه أول من وضع فكرة مبايعة يزيد خليفة للمسلمين بعد معاوية وأول من دعا لمبايعته في العراق حاسبا بذلك أنه قدم لنفسه خدمة جليلة اذ أقره معاوية على ولاية العراق.وانه قد (ورط) معاوية بذلك وحسب، ولم يحسب حساب الاذى الذي حصل للمسلمين بسبب حرصه على ذلك المنصب رغم شيخوخته وعدم بقائه فيه فعلا الا مدة قصيرة مات على أثرها وترك عبئا أثقل ظهر الأمة ولا تزال تعاني منه حتى الآن.

واذ أن المغيرة كان يمتلك ذلك الدهاء الشيطاني الذي جعله يقرن بمعاوية وعمرو ابن العاص.وكان ممثل معاوية في الكوفة في الوقت الذي عاد فيه اليها المختار إلى الكوفة بعد استتباب الأمور فيها لصالح معاوية، ولأنه يمت بصلة قربى للمختار، فان رواية ظهرت علينا حول اهتمام المختار لرأي من آراء المغيرة بشأن مجتمع الكوفة، وانه قد أضمر العمل بذلك الرأي.

**موضوعات أموية**

فقد روي أنه لما عاد إلى الكوفة «ركب مع المغيرة يوما فمر بالسوق، فقال المغيرة: يا

---

(١) المجلسي: ج٤٥ص٣٥٢.

لها غارة، ويا له جمعا! اني لأعلم كلمة لو نعق لها ناعق، ولا ناعق لها لاتبعوه، ولا سيما الأعاجم الذين اذ ألقي اليهم الشيء قبلوه!

فقال له المختار: وما هي يا عم؟

قال: يستأدون بآل محمد!

فأغضى عليها المختار، ولم يزل ذلك في نفسه. ثم جعل يتكلم بفضل آل محمد وينشر مناقب علي والحسن والحسين عليهم السلام، ويسيِّر ذلك ويقول: انهم أحق بالأمر من كل أحد بعد رسول الله. ويتوجع لهم مما نزل بهم»[١].

ودلائل الحال تشير إلى أن هذه الرواية موضوعة. فالمختار كان مع عمه، عامل أميرالمؤمنين على المدائن، وعندما استشهد أميرالمؤمنين عليه السلام واستتب الوضع لصالح معاوية، وعين المغيرة على الكوفة رحل المختار إلى المدينة، اذ ربما يستهدف بالأذى أو القتل. ويبدو أن سياسة المغيرة التي اتسمت (بالمرونة) في الكوفة جعلته يعود اليها، وما نحسب أنه كان على علاقة وثيقة به بحيث يفضي اليه هذا أفكاره على انفراد ويحفزه على أمر من شأنه الاضرار بدولة معاوية التي يمثلها هو.

وما نحسب أن المختار كان مجرد شاب قليل التجربة يتلقى الأفكار الجاهزة ليضمر العمل بها في المستقبل؛ فهو قد تجاوز الأربعين من عمره في الفترة التي كان فيها المغيرة واليا على الكوفة. «و كان يجالس محمد بن الحنفية، ويأخذ عنه الأحاديث»[٢]. وكلنا نعلم أن محمدا كان من الداعين لنهج والده وأخويه عليهم السلام واستمر على ولائه لهم ولابن أخيه زين العابدين عليه السلام، ولم يكن ينادي بالأمر لنفسه أو يطمح بأمر من أمور

---

(١) المجلسي: ج٤٥ ص٣٥٢.

(٢) المجلسي: ج٤٥ ص٣٥٢.

الخلافة والحكم..وكانت جميع مواقفه منذ مطلع حياته تدل على استيعابه لنهج والده وطاعته الكبيرة له.ولابد أنه كان مصدرا موثوقا لعلوم أهل البيت عليهم السلام طالما أنه كان نتاج تربيتهم واعدادهم، ولعل الفترة التي أمضاها معه المختار ويجالسه ويأخذ عنه الأحاديث، قد جعلت هذا الأخير بما يتمتع به من ذكاء كبير، دلت عليه مواقفه فيما بعد، اذ لم يشر أحد اشارة واضحة إلى ماضيه، سوى النتف القليلة التي ذكرت لنا والتي لا تكاد تعيننا إذا ما أردنا دراسة حياته الماضية، يستفيد إلى حد بعيد من ذلك ويدرك أن منهج أهل البيت عليهم السلام هو المنهج الوحيد الجدير بالاتباع، لأنه يعبر عن منهج رسول الله صلى الله عليه وآله ويوصل اليه.كما أن الفترة التي أمضاها مع عمه، ممثل أميرالمؤمنين في المدائن، وهو من محبيه والداعين اليه، لم تكن لتذهب عبثا دون أن يعرف المختار شيئا من فضائل أهل البيت عليهم السلام....وتجعل دوافعه لنشر فضائلهم هو تلميحات المغيرة بن شعبة وحسب.

**اكاذيب وأضاليل**

ونحسب أن ما يقال هنا هو احدى الحلقات التي يراد منها اكمال السلسلة التي أريد بها تطويق المختار الذي كان ضحية للدعايات الأموية والزبيرية طيلة فترة طويلة، حتى أصبح الكثيرون من المحدثين -ومنهم من الموالين لأهل البيت عليهم السلام- يعتقدون بصحتها ويترددون بشأن سلامة مواقفه وولائه لأهل البيت.

على أن تلك لم تكن المرة الأولى التي يتعرض فيها المختار للطعن والتشويه، فقد وردت رواية أخرى يبدو الضعف فيها ظاهرا، ولعل واضعها لم يعتن بمسألة عُمْرِ المختار وقد ذكر أنه كان غلاما شابا مع أن عمره كان أربعين عاما، لأن الزمن الذي ذكر أنها وقعت فيه سنة أربعين للهجرة.

فقد روي أن الحسن عليه السلام عندما كان في المدائن أثر تفرق جيشه ومحاولة بعض الناس نهب سرادقه حتى نازعوه بساطا كان تحته (و كان عم المختار بن أبي عبيد عاملا على المدائن، وكان اسمه سعد بن مسعود، فقال له المختار وهو غلام شاب: هل لك في الغنى والشرف؟ قال: وما ذاك؟

قال: توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية.

فقال له سعد: عليك لعنة الله، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فأوثقه، بئس الرجل أنت»[1].

هل يعقل أن يقترح المختار هذا الاقتراح، ثم يذهب ليجالس محمد بن الحنفية ويأخذ عنه الأحاديث؟ وهل وجد في سيرته ما يؤيد هذا التوجه الغادر؟

كان ذلك الفعل أجدر بالمغيرة بن شعبة أو عمرو بن العاص أو مروان، أما أن يقوم به رجل أعلن ولاءه لأهل البيت عليهم السلام وحزنه الكبير لمصرع الحسين ثم مات تلك الميتة البطولية وهو يقاوم أعداءهم وقتلتهم مع أن بامكانه أن يساوم وينجو، فذلك أمر بعيد عن التصديق.

أترى أنه يقدم على ذلك ثم يترحم عليه الامام زين العابدين وبعض الأئمة عليهم السلام؛ بعد وفاته وميتته الكريمة تلك في الكوفة...؟

---

(١)الطبري: ج٣ص١٦٥ وورد في الكامل في التاريخ: ج٣ص٢٧١ ان المختار قال لعمه: «تستوثق من الحسن وتستأمن به إلى معاوية...» ومن المعلوم ان معظم روايات ابنالأثير مأخوذة من الطبري.وقد أو ضحنا بطلان المزاعم الواردة في هذه الرواية.

روي عن النضر بن صالح قال: «كان الشيعة تشتم المختار وتعتبه لما كان منه في أمر الحسن بن علي يوم طعن في مظلم ساباط، فحمل إلى أبيض المدائن...»الطبري: ج٣ص٤٠٠ وهو خبر لابد من تأمله أيضاً، اذ أنهم لو كانوا قد شتموه، لما ساروا وراءه ولما لقي منهم ذلك التأييد الكبير.

**استقامة وثبات على الحق**

انه – حتى قبل أن يشتهر بمكة أو الكوفة بعد ذلك – لم يعرف عنه الا اصراره على الاستقامة والثبات على الحق، وله موقف مشهود رفض فيه الانصياع لأوامر زياد ابن أبيه للشهادة زورا على حجر بن عدي، مع أن سبعين رجلا من وجهاء الكوفة وأشرافها فعلوا ذلك وشهدوا (ان حجر بن عدي خلع الطاعة، وفارق الجماعة، ولعن الخليفة، ودعا إلى الحرب والفتنة، وجمع اليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة وخلع أميرالمؤمنين معاوية، وكفر بالله عزوجل كفرة صلعاء»[١].وهو الأمر الذي لم يقتنع به معاوية نفسه، وقد ندم على قتله حجراً ندما كبيرا حتى في لحظات نزعه وصراعه مع الموت، ولو كان متيقنا من شهادات أولئك الشهود لما ندم ذلك الندم الكبير.فقد دعا زياد «المختار بن أبي عبيد وعروة بن المغيرة بن شعبة ليشهدوا عليه فراغا...»[٢].

ولو أن المختار كان ممن ينتهز الفرص لكان قد استجاب لزياد متقربا اليه...لكنه لم يفعل ذلك رغم صرامة زياد وقسوته.

**المختار: لم يكن المتهم الوحيد**

على أننا لو درسنا تاريخنا دراسة متتبعة مستفيضة لوجدنا أن المختار لم يكن الشخص الوحيد الذي اتهم بالكذب والطمع والحسد وغير ذلك مما لم يكن فيه فعلا، بل ان رجالا في مقام عال لا يمكن أن يتطرق اليهم الشك مطلقا كأميرالمومنين عليه السلام وأولاده عليهم السلام قد تعرضوا لحملة من التشويه والاتهامات الظالمة، وهو أمر لا نستغرب حدوثه في جو مشحون بالأطماع والدسائس والولاءات المتنافرة.

«...حدث الأعمش قال: رأيت عبدالرحمن بن أبي ليلى ضربه الحجاج وأوقفه على

(١)الطبري: ج٣ص٢٢٦.

(٢)الطبري: ج٣ص٢٢٦.

باب المسجد، فجعلوا يقولون له: إلعن الكاذبين: علي بن أبي طالب وعبدالله بن الزبير والمختار بن أبي عبيد.

فقال: لعن الله الكاذبين، عليٌّ بن أبي طالب وعبدُالله بن الزبير والمختارُ بن أبي عبيد - بالرفع - فعرفت حين سكت، ثم ابتدأ فرفع انه ليس يريدهم....»(١).

فالحجاج كان يريد بأية وسيلة الصاق تهمة الكذب بأعداء الأمويين، ولا فرق عنده في ذلك بين أميرالمؤمنين أو ابن الزبير أو المختار، فالكل أعداء يجب النيل منهم والتقليل من أهميتهم بنظر المسلمين، والوحيد الذي يجب أن ينظر اليه بعين الاحترام هو سيده الحاكم الأموي.

وموضوع الصاق الاتهامات وتوجيهها لمن لا يستحقها ليست أمرا جديدا غير معروف وانما هو أمر مألوف أصبح مستساغا لدى العديدين وقد ألفوه واعتادوا عليه، بل وربما برروه بمقتضيات السياسة وضرورة حفظ السلطان.

ومهما يكن من أمر، فلابد من تدبر أمر الروايات التي أرادت الطعن بالمختار وتشويه سمعته، لابراز حركته في النهاية وكأنها حركة انتهازية لم يقم بها سوى هذا (الكذاب) وسوى حفنة من (و ضعاء اهل الكوفة وسفلتها من الموالي وأعداء العرب)، ومن ثم التقليل من أهمية انتفاضة الكوفة بوجه قتلة الحسين عليه السلام ومحاولتها العودة إلى خط أهل البيت عليهم السلام رغم وجود طرفي النزاع القويين نسبيا المرواني والزبيري، وتنحي الامام زين العابدين عليه السلام عن الصراع السياسي في تلك الفترة العاصفة.

**قدوم المختار إلى الكوفة ونزول مسلم بن عقيل في بيته**

قدم المختار الكوفة، وقد كان بها في السابق لأن له دارا فيها نزلها مسلم بن عقيل

(١) العقد الفريد: ج٥ ص ٢٩١.

عندما قدم الكوفة داعيا للحسين عليه السلام[١]، ولم يكن معقولا أن ينزل مسلم دار المختار دون أن يدعوه هذا أو يكون موجودا معه. ولا بد أن المختار كان داعية نشيطا من دعاة آل البيت عليهم السلام حتى يختار مسلم النزول في داره، قبل أن ينتقل إلى دار هانئ بن عروة عندما انكشف أمر وجوده في هذه الدار، وقد أقبلت الناس تختلف اليه فيها.

ولعل خبر وجود مسلم في بيت المختار قد طرق أسماع ابن زياد، فجعل ذلك المختار يختفي عن الأنظار لحين اعلان الثورة واكمال الاستعدادات لها. واذ أن مسلماً اضطر للخروج قبل الوقت المحدد لمحاصرة قصر ابن زياد الذي احتجز هانئ بن عروة، فان الأحداث تسارعت بشكل غير طبيعي، دون اكمال تلك الاستعدادات ودون اعلام كل من بايع مسلماً ليلتحق بالثوار الذين حاصروا القصر ثم سرعان ما تفرقوا بعد أن قام الأشراف ورؤساء الأرباع والقبائل بتخذيلهم وبث المخاوف في نفوسهم من السلطة الأموية الغاشمة وجيشها القادم من الشام كما زعموا، «...حتى خرج ابن عقيل يوم خرج والمختار في قرية له بخطرنية تدعى لقفا فجاءه خبر ابن عقيل عند الظهر أنه قد ظهر بالكوفة فلم يكن خروجه يوم خرج على ميعاد من أصحابه إنما خرج حين قيل له إن هانئ بن عروة المرادي قد ضرب وحبس فأقبل المختار في موال له حتى انتهى إلى باب الفيل بعد الغروب وقد عقد عبيدالله بن زياد لعمرو بن حريث راية على جميع الناس وأمره أن يقعد لهم في المسجد فلما كان المختار وقف على باب الفيل مر به هانئ بن أبي حية الوادعي فقال للمختار: ما وقوفك ها هنا لا أنت مع الناس ولا أنت في رحلك، قال: أصبح رأيي مرتجا لعظم خطيئتكم فقال: له أظنك والله قاتلا نفسك...»[٢].

(١) «عندما بعث الحسين مسلم بن عقيل إلى الكوفة، نزل دار المختار. فبايعه المختار بن أبي عبيد فيمن بايعه من أهل الكوفة، وناصحه، ودعا اليه من أطاعه..» الطبري: ج٣ص٤٠٠.

(٢) الطبري: ج٣ص٤٠٠، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٩٢ – ٤٩٣.

**اراد الوقوف مع مسلم ففاته الوقت**

وجد المختار الوضع إذاً ليس في صالح مسلم، اذ أنه وصل بعد الغروب، وهو الوقت الذي تفرق فيه معظم أصحابه، ومع ذلك فانه وقف على باب الفيل، ولعله المكان الذي اتفق عليه قبل ذلك مع مسلم، وربما توقع أن تأتيه أوامر أو تعليمات منه. واذ أنه لم يتلق أي شيء ووردته انذارات تحذره مغبة وقوفه هناك. وقد عرض عليه أحد قادة ابن زياد الشفاعة له لديه وناشده بالله ألا يجعل على نفسه سبيلا.

**المخبرون يشون بالمختار لدى ابن زياد**

وقد كان عمل المختار هذا سببا لحديث الناس، وقد مشى أحد أعوان الدولة عمارة بن عقبة بن أبي معيط إلى عبيدالله وأخبره خبر المختار، وقد استدعاه «فقال له: انت المقبل في الجموع لتنصر ابن عقيل؟

قال له: لم أفعل، ولكني أقبلت ونزلت تحت راية عمرو بن حريث، وبت معه وأصبحت.

فقال له عمرو: صدق أصلحك الله. فرفع القضيب فاعترض به وجه المختار فخبط عينه فشترها، وقال: أولى لك، أما والله لو لا شهادة عمرو لك لضربت عنقك.

انطلقوا به إلى السجن، فانطلقوا به إلى السجن فحبس فيه، فلم يزل في السجن حتى قتل الحسين»[1].

---

(١) الطبري: ج٣ص ٤٠٠، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٩٢ - ٤٩٣ وذكر عن عيسي بن زيد «أن المختار بن أبي عبيد وعبدالله بن الحارث بن نوفل كانا خرجا مع مسلم، خرج المختار براية خضراء وخرج عبدالله براية حمراء وعليه ثياب حمر وجاء المختار برايته فركزها على باب عمرو بن حريث وقال: إنما خرجت لأمنع عمرا وإن ابن الأشعث والقعقاع بن شور وشبث بن ربعي قاتلوا مسلما وأصحابه عشية سار مسلم إلى قصر ابن زياد قتالا شديدا وأن شبثا جعل يقول: انتظروا

**في السجن، مع ميثم التمار**

وفي السجن التقى المختار بميثم التمار، أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام المقربين، الذي أعدمه ابن زياد قبل مقدم الحسين الكوفة بعشرة أيام.

وكان أمير المؤمنين يسر اليه بالكثير من الأحداث والوقائع التي ستحصل، وكان علمه عليه السلام من علم رسول الله صلى الله عليه وآله...لقد أخبره أنه سيصلب ويقتل في الكوفة وكان مستعدا لملاقاة مصيره دون خوف، بل كان يبدو مستبشرا بذلك، طالما أنه أمضى حياته لمرضاة الله وفي سبيله.

«...قال ميثم للمختار وهما في حبس ابن زياد: انك تفلت وتخرج ثائرا بدم الحسين عليه السلام، فتقتل هذا الجبار الذي نحن في حبسه وتطأ بقدمك هذا على جبهته وخديه»[1] ولابد أنه أخبره بتفصيلات كثيرة عن ذلك وعن بعض الأحداث الأخرى، مما صرح به المختار بعد ذلك، لما دعا منتقديه لاتهامه بالنبوة، وهو امر سخيف ماكان يقدم المختار عليه للأسباب التي ذكرناها في هذا المبحث.

---

بهم الليل يتفرقوا فقال له القعقاع: إنك قد سددت على الناس وجه مصيرهم فافرج لهم ينسربوا وإن عبيدالله أمر أن يطلب المختار وعبدالله بن الحارث وجعل فيهما جعلا فأتي بهما فحبسا» الطبري: ج٣ ص٢٩٣-٢٩٤ ولا تكاد هذه الرواية تختلف عن تلك، وكلتاهما أجمعتا على أن المختار قد خرج برايته لنصرة مسلم، الا أن الظروف لم تواته، وقد بلغ أمره ابن زياد فأمر بحبسه حيث لم يمكنه الفرار منه. قال أمير المؤمنين عليه السلام **«لما تفرس في قوم من عسكره انهم يتهمونه فيما يخبرهم به عن النبي صلى الله عليه وآله من أخبار الملاحم والغائبات، وقد كان شك جماعة منهم في أقواله ومنهم من واجهه بالشك والتهمة» «أتراني أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله. والله لأنا أول من صدقه فلا أكون أول من كذب عليه...»** ابن أبي الحديد ٢٠٧ - ٢٠٨ و قد كان أمير المؤمنين عليه السلام قد أطلع ميثماً على علم كثير وأسرار خفية من أسرار الوصية فيشك فيه قوم من أهل الكوفة... ابن أبي الحديد ٢١٠.

(١) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد ص ٢١١، والبحار: ج٤٥ ص ٣٥٣ مع بعض الاختلافات.

### ابن عمر يتوسط لاطلاق سراح المختار

وكان الأمر كما قال ميثم بعد ذلك، فقد بعث المختار إلى ابن عمر يسأله أن يكتب إلى يزيد لاطلاق سراحه، وكانت صفية أخت المختار زوجا لابن عمر. وكتب ابن عمر إلى يزيد طالبا اطلاق سراح المختار من سجن ابن زياد، وقد استجاب يزيد لطلب ابن عمر لموقفه من مبايعته وسكوته عن انتهاكاته، وكتب إلى ابن زياد يأمره باخلاء سبيل المختار. واستجاب هذا لأوامر سيده وأطلق سراحه الا أنه أمره أن لايبقى بالكوفة أكثر من ثلاثة أيام؛ وقد خرج المختار في اليوم الثالث إلى الحجاز.

### اقوال تحققت

وقد روى أحد الذين لقوه في الطريق إلى الحجاز انه سأله عن سبب شتر عينه، فأخبره أن ابن الزانية ويقصد به ابن زياد قد خبطها بالقضيب، ثم قال له: «قتلني الله إن لم أقطع أنامله وأباجله وأعضاءه إربا إربا»[1] وطلب منه أن يحفظ ذلك عنه حتى يرى مصداقه، وقال له انه إذا ما أتيحت له الفرصة، فسيظهر «في عصائبه في المسلمين يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول بالطف، سيد المسلمين، وابن سيدها، الحسين بن علي»[2].

وقال: «فو ربك لأقتلن بقتله عدة القتلى التي قتلت على دم يحيي بن زكريا عليه السلام»[3]، وعندما تعجب مستمعه من كلامه، قال له ان الأمر كما أخبره.

وفكر ابن العرق وهو مولى لثقيف، وكان هو الذي لقي المختار وروى لنا ذلك، «...هذا الذي يذكر لي هذا الإنسان يعني المختار مما يزعم أنه كائن أشيء حدث به نفسه والله ما أطلع الله على الغيب أحدا وإنما هوشيء يتمناه فيرى أنه كائن فهو

(١)الطبري: ج٣ص٤٠١ - ٤٠٢، والكامل في التاريخ: ٤٩٣ باختصار.
(٢) الطبري: ج٣ص٤٠١.
(٣) الطبري: ج٣ص٤٠١.

يوجب رأيه فهذا والله الرأي الشعاع فوالله ما كل ما يرى الإنسان أنه كائن يكون قال فوالله ما مت حتى رأيت كل ما قاله قال فوالله لئن كان ذلك من علم ألقى إليه لقد أثبت له ولئن كان ذلك رأيا رآه وشيئا تمناه لقد كان...»[١].

**تعلم من ذي علم...المختار أدهش الجميع**

لم يثر هذا الأمر دهشة ابن العرق وحده، بل أثار دهشة آخرين حتى ممن كانوا يعادون المختار أمثال الحجاج، وهو من ثقيف أيضا، وقد ضحك عندما روى له ابن العرق قصة لقائه بالمختار وما قاله له، وقال له بدوره: ان المختار كان يقول:

«و رافعة ذيلها و داعية ويلها
بدجلة أو حولها»[٢].

ويشير فيها إلى ما سيحدث لابن زياد قرب دجلة...

وقد سأل ابن العرق الحجاج: «أترى هذا شيئا كان يخترعه، وتخرصا يتخرصه، أم هو من علم كان أوتيه؟

فقال: والله ما أدري ما هذا الذي تسألني عنه، ولكن لله دره، أي رجل دنيا، ومسعر حرب، ومقارع أعداء كان!»[٣].

لم يستطع الحجاج أن يقول عنه الا ما قال، غير أنه في مناسبات أخرى رماه بالكذب كما تجرأ ورمى به حتى أمير المؤمنين عليه السلام نفسه. ومن المؤكد أنه لم يصدق أن أحدا سيصدق مزاعمه.

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٠١ – ٤٠٢.
(٢)الطبري: ج٣ ص٤٠٢.
(٣)الطبري: ج٣ ص٤٠٢.

**المختار فاق منافسيه**

كان المختار يرى أنه لا يقل أهمية عن الذين أخذوا يمدون أعناقهم لنيل الحكم أمثال ابن الزبير، وفي ذلك الجو العاصف المضطرب الذي صعد فيه يزيد إلى سدة حكم جميع المسلمين وأصبح فيه أمثال ابن زياد قادة وأمراء، وأبعدت القيادة الحقيقية عن الحكم، بل وتصدت دولة الظلم الأموية للحسين عليه السلام بالسيف، وأبدت استعدادها للقيام بمزيد من حمامات الدم ضد كل منافس أو عدو محتمل، كانت مهمة الحفاظ على الامام والقائد الحقيقي وأتباعه وشيعته تبدو مهمة أساسية على غاية من الأهمية. ولم يكن بامكان الامام الاتصال بكل ثائر على دولة الظلم وكل منكر لسياساتها وأعمالها وممارساتها غير المشروعة، وكان ينبغي التعامل بحذر مع كل من يريد الاطاحة بتلك الدولة، وكان لابد من وجود حلقة مقربة من الامام، تبدو في الظاهر وكأنها تتصرف بدافع من أرادتها المستقلة عن الامام مع أنها في واقع الحال ترتبط به ارتباطا صميميا، لتتعامل وبحذر أيضا مع أعداء تلك الدولة وأعداء الدولة الأخرى - الزبيرية - التي بدأت تظهر وتمتد بعد هلاك يزيد.

**محمد بن الحنفية : حلقة الوصل بين الامام زين العابدين عليه السلام وأتباع خط أهل البيت**

وكان محمد ابن الحنفية هو حلقة الوصل تلك بين الامام زين العابدين الذي بدا وكأنه قد انصرف تماما لارساء دعائم مدرسة أهل البيت التي توشك أن تختفي تحت وطأة أعدائهم، وأنه انصرف للدعاء والحزن على أبيه وأصحابه عليهم السلام.

وكان ابن الحنفية يدرك ضرورة تجنيب الامام ذلك الجو العاصف الذي ما كان يتورع فيه أعداء أهل البيت من الأمويين والزبيريين عن الحاق أشد الأذى به، بل وقتله واستئصاله وملاحقة كل شيعته وأتباعه.وقد بدا وكأنه يدعو لنفسه ويتزعم جماعة قد

تبنت مذهبا خاصا به وقد دعت نفسها بالكيسانية[١]...وقد رأينا كيف أنه وابن عباس قد واجها ابن الزبير تلك المواجهة العاصفة التي انتهت بأن وضع ابن الزبير محمد

(١) وقد ذكر ان «المختار هو الذي دعا الناس إلى محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام ابن الحنفية وسموا الكيسانية وهم المختارية، وكان لقبه (كيسان)، ولقب بكيسان لصاحب شرطه المكنى أبا عمرة، وكان اسمه (كيسان) وقيل إنه سمي كيسان بكيسان مولى علي بن أبي طالب وهو الذي حمله على الطلب بدم الحسين عليه السلام ودله على قتلته، وكان صاحب سره والغالب على أمره، وكان لا يبلغه عن رجل من أعداء الحسين أنه في دار أوفي موضع إلا قصده وهدم الدار بأسرها...» البحار: ج٤٥ص٣٤٥ وذكر غير ذلك.ومن المعلوم ان الكيسانية لم تكن فرقة أو مذهبا ذا أثر معروف، ولعل موالاة المختار لمحمد بن الحنفية، وخطه الأكثر ظهورا وكانت له مواقف معروفة ضد ابن الزبير، هو الذي جعل الناس تعتقد ان ابن الحنفية كانت له دعاة من أمثال المختار.وقد حير موقف الامام زين العابدين عليه السلام المعلن من المختار، وكذلك موقف محمد بن الحنفية العديدين من الكتاب والمؤرخين ورأوا ان المختار كان (كاذبا فاجرا) طالما ان الامام لم يؤيده صراحة ولم تصدر منه تصريحات واضحة بحقه الا فيما بعد، كما حيرهم عدم تصريح محمد بن الحنيفة بحقيقة رأيه فيه وغموض موقفه حوله: «حاول المختار أن يضع على حركته رداء أهل البيت، فكتب إلى علي بن الحسين يريد أن يبايعه، ولكن علي بن الحسين ابى ان يقبل منه ذلك، وأظهر كذبه وفجوره ودخوله على الناس باظهار الميل الى آل أبي‌طالب فلما يئس المختار من علي بن الحسين، كتب إلى عمه محمد ابن الحنفية يريده على مثل ذلك، فأشار عليه علي بن الحسين ألا يجيبه إلى شيء من ذلك، فإن الذي يحمله على ذلك اجتذابه لقلوب الناس بهم، وتقربه اليهم بمحبتهم، وباطنه مخالف ظاهره في الميل اليهم والتولي لهم والبراءه من أعدائهم بل هو من أعدائهم لآمن أوليائهم والواجب عليه ان يشهر أمره ويظهر كذبه، وأتى محمد بن الحنفية ابن عباس يستشيره في هذا الأمر فأوصاه بالسكوت» معالم الفتن: ج٢ص ٣٢٨ - ٣٢٩، وحركة المختار دليل عظيم على أن آل البيت لا يركبون باطلا ليصلوا به إلى حق، فلو كانوا طلاب دنيا لهرولوا إلى المختار، في وقت كان البيت الأموي يعيد ترتيب أوراقه وأوتاده، لكنهم لم يفعلوا ذلك، لان الدين لا يخضع للتجارة» معالم الفتن: ج٢ص ٣٢٩ - ٣٣٠ وربما فاتت الكاتب الأسباب التي دعت الامام علي بن الحسين عليه السلام لرفض المواجهة السياسية والعسكرية مع الدولتين الأموية والزبيرية وقد تحدثنا عنها في هذا الفصل من الكتاب وذكرنا بعضها، ولم يشر اي مصدر تاريخي الى ان الامام زين العابدين(اظهر كذبه وفجوره ودخوله على الناس باظهار الميل الى آل ابي طالب وانه اشار على محمد ابن الحنفية الا يجيبه الى شيء)

ابن الحنفية في سجن عارم وقد أراد احراقه عليهم وعلى بعض أصحابه من العلويين وغيرهم لو لم يرسل المختار من يخرجهم منه بالقوة.

**هل كان المختار يسعى للسلطة؟**

ويحاول بعض من كتبوا عن المختار وتحدثوا عنه تصويره وكأنه ساع للسلطة أو طالب انتهازي يسعى لها مع أي طرف كان، ويتحدثون عن طلبات قدمها لابن الزبير وافق عليها هذا باعتبار أنه قبل نصيحة من أشار بأن يشتري من المختار دينه.ولم يتحدث هؤلاء عن موقف ابن الزبير الانتهازي حين قبل بشروط المختار، هذا إذا صح أن للمختار شروطاً خاصة اشترطها عليه.

والسؤال الجدي الذي ينبغي أن يطرح هنا: من حاول أن يتقرب إلى من؟

المختار لابن الزبير؟ أم ابن الزبير للمختار؟

**لا تناقض في المواقف الهدف النهائي الأخذ بثأر الحسين عليه السلام، لابد من معاقبة المعتدي**

ورغم أن المختار كان يقدر امكانات ابن الزبير وقوة تأثيره في أوساط كبيرة من المسلمين في الحجاز وغيرها الذين لم يلمسوا في (الخليفة) الحالي وهو يزيد أية جدارة لمنصبه وآلمهم ايغاله في الانحراف والشذوذ والجريمة، وكان يرى فيه رجل الساعة بعد هلاك يزيد...الا أنه وقد آثر أتباع خط آل البيت عليهم السلام والانتقام من قتلة الحسين وأصحابه، وهي غاية اعتبرها نبيلة وجديرة بالتضحية والكفاح، اعتبر نفسه لا يقل عن الطالبين الآخرين بالخلافة كابن الزبير ومروان وغيرهما.وكان يتفوق عليهما فعلا بكثير من المؤهلات والصفات الجيدة مما وصل الينا عنه رغم محاولات تشويه صورته وعرضه كمتمرد وطالب للحكم ومتنبئ وكاذب.

في طريقه إلى الحجاز بعد اخراجه من السجن اثر وساطة ابن عمر وأوامر يزيد

طفق يسأل مولى لثقيف عن عبدالله بن الزبير، فقال له هذا بأنه لجأ إلى البيت وادعى أنه عائذ برب هذه البنية والناس يتحدثون أنه يبايع سرا، «..ولا أراه لو قد اشتدت شوكته، واستكثف من الرجال الا سيظهر الخلاف.

قال: أجل، لا شك في ذلك، أما انه رجل العرب اليوم، أما انه أن يخط في أثري، ويسمع قولي أكفه أمر الناس، وألا يفعل، فوالله ما أنا بدون أحد من العرب.ان الفتنة قد أرعدت وأبرقت، وكأن قد انبعثت فوطئت في خطامها...»[1] وأخبره أنه عند ذلك سيطلب بدم الحسين عليه السلام ويقتل عدة القتلى التي قتلت على دم يحيى بن زكريا.

**اراد أن يستفيد من حرص ابن الزبيرعلى السلطة ومنافسته للأمويين**

ربما كان المختار يتمنى أن يطيعه ابن الزبير ويقبل مشورته للقضاء على الدولة الأموية التي كان يحقد عليها حقدا شديدا، غير أنه كان عالما بطبيعة ابن الزبير وكرهه لأهل البيت، ويعلم أنه سيدعو لنفسه.واذ أنه يعلم من هو وما هي مؤهلاته وأنه لا يتفوق عليه شخصيا، صرح أمام محدثه بأنه ليس دون أحد من العرب كابن الزبير وغيره، بل ربما كان أفضل منهم، ومادام أهل البيت لا يدعون لأنفسهم صراحة ولم يعلنوا عن عزمهم للمطالبة بدم الحسين عليه السلام.فأي خطأ يرتكبه من يدعو اليهم ويطالب بثأرهم مادام يواجه قيادات ودول ظلم غير شرعية.؟

ان الخطأ الوحيد الذي ارتكبه المختار -بنظر البعض- هو استقلاليته وعدم تبنيه لاحدى الخطوط الرئيسية التي كانت تظهر في الساحة سوى ما أعلنه من حب وولاء لأهل البيت واستعداد للأخذ بثأرهم.واذ أنه نجح في تحقيق مسعاه ووقف وقفة حاسمة بوجه الزبيريين والأمويين وأذل كبرياء قادتهما، فان حملة مسعورة من الشتائم والهياج

---

(١)الطبري: ج٣ ص٤٠١.

والأكاذيب المفضوحة قد أثيرت ضده وملأت كتب التاريخ المأجورة والمكتوبة في ظل حكام الظلم المعادين لأهل البيت والذين أقاموا دعائم حكمهم على أسس مشابهة لتلك التي أقامها معاوية من قبل.

**معرفة النوايا**

وقد أراد المختار معرفة نوايا ابن الزبير عند مقدمه مكة «فكتم عنه ابن الزبير أمره ففارقه وغاب عنه سنة»[(١)] وقد زعم بعض أهل الطائف أنه قدم عليهم هناك، وأنه أعلن عن نواياه الحقيقية رغم أن حكومة يزيد لا تزال قائمة وكانت تبدو في أوج قوتها، وأنه قال انه: «صاحب الغضب ومبير الجبارين»[(٢)]، وقد أزعج ذلك ابن الزبير، فقال لمن حدثه عن ذلك: «قاتله الله لقد انبعث كذابا متكهنا إن الله إن يهلك الجبارين يكن المختار أحدهم»[(٣)]. ولابد أن ابن الزبير كان يتابع حركات المختار وأقواله لمعرفة نواياه

(١) الكامل في التاريخ: ج٣ ص٤٩٣ وروى عباس بن سهل بن سعد قال: «قدم المختار علينا مكة فجاء إلى عبدالله بن الزبير وأنا جالس عنده فسلم عليه فرد عليه ابن الزبير ورحب به وأوسع له ثم قال: حدثني عن حال الناس بالكوفة يا أبا إسحاق، قال: هم لسلطانهم في العلانية أولياء وفي السر أعداء فقال له ابن الزبير: هذه صفة عبيد السوء إذا رأوا أربابهم خدموهم وأطاعوهم فإذا غابوا عنهم شتموهم ولعنوهم قال فجلس معنا ساعة ثم إنه مال إلى ابن الزبير كأنه يساره فقال له ما تنتظر ابسط يدك أبايعك وأعطنا ما يرضينا وثب على الحجاز فإن أهل الحجاز كلهم معك وقام المختار فخرج فلم ير حولا» الطبري: ج٣ص٤٠٢ ومقولة ابن الزبير عن أهل الكوفة مأخوذة عن مقولة أميرالمؤمنين في احدى خطبه التي حذرهم فيها ظلم معاوية وبني أمية وقد تطرقنا اليها عند الحديث عن مجتمع الكوفة، وإذا ما صحت هذه الرواية فربما كان المختار يريد أن يكشف أمر ابن الزبير، وربما أراد أن يضرب به يزيد فيكونا الخاسرين الوحيدين، ومن مجمل الأحداث نرى ان ابن الزبير كان متلهفا على انضمام المختار اليه ولم يحاربه الا بعد أن حسب نفسه قويا وبعد ان كشف المختار عن أهدافه الحقيقية.

(٢) الطبري: ج٣ص٤٠٢.

(٣) الطبري: ج٣ص٤٠٢.

ولابد أنه كان يحسب له حسابا كبيرا بل ويخشاه[١].

وفي مقدمه الثاني إلى مكة لم يأت ابن الزبير رغم أنه طاف بالبيت أسبوعا وصلى عند الحجر واستقبل جماعة من أهل الطائف وغيرهم من أهل الحجاز، وقد استبطأ ابن الزبير قيامه اليه وأرسل أحد أصحابه لاستطلاع الأمر.

وقد حاول هذا - وهو عباس بن سهل بن سعد - أن يستميل المختار إلى جانب ابن الزبير قائلا له: «مثلك يغيب عن مثل ما قد اجتمع عليه أهل الشرف وبيوتات العرب من قريش والأنصار وثقيف لم يبق أهل بيت ولا قبيلة إلا وقد جاء زعيمهم وعميدهم فبايع هذا الرجل فعجبا لك ولرأيك ألا تكون أتيته فبايعته وأخذت بحظك من هذا الأمر.

فقال لي: وما رأيتني أتيته العام الماضي فأشرت عليه بالرأي فطوى أمره دوني وإني لما رأيته استغنى عني أحببت أن أريه أني مستغن عنه إنه والله لهو أحوج إلي مني إليه، فقلت له: إنك كلمته بالذي كلمته وهو ظاهر في المسجد وهذا الكلام لا ينبغي أن يكون إلا والستور دونه مرخاة والأبواب دونه مغلقة القه الليلة إن شئت وأنا معك، فقال لي: فإني فاعل إذا صلينا العتمة أتيناه واتعدنا الحجر، قال: فنهضت من عنده فخرجت ثم رجعت إلى ابن الزبير فأخبرته بما كان من قولي وقوله فسر بذلك فلما صلينا العتمة التقينا بالحجر»[٢].

---

(١) عن أبي‌معشر قال: «لما بعث مصعب برأس المختار إلى عبدالله بن الزبير فوضع بين يديه، قال: ما من شيء حدثنيه كعب الأحبار الا قد رأيته، غير هذا، فانه قال لي: يقتلك شاب من ثقيف فأراني قد قتلته» العقد الفريد: ج٥ ص ١٥٤، أو لم يعلم أنه سيقتل بيد الحجاج أو على حد تعبير محمد بن سيرين لما بلغه الحديث «لم يعلم ابنُ الزبير أنّ أبا محمد قد خُبىء له» العقد الفريد: ج٥ ص ١٥٤ ويبدو اهتمام ابن الزبير بأقوال وتكهنات كعب الأحبار اليهودي وأمثاله واضحا....

(٢)الطبري: ج٣ص٤٠٣، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٩٣ - ٤٩٤.

وقد سر ابن الزبير بذلك وقابله وأخذ بيده فصافحه ورحب به فسأله عن حاله وأهل بيته، ثم قال له المختار بعد فترة صمت ليست طويلة وبعد أن حمد الله وأثنى عليه: «...إنه لا خير في الإكثار من المنطق ولا في التقصير عن الحاجة إني قد جئتك لأبايعك على ألا تقضي الأمور دوني وعلى أن أكون في أول من تأذن له وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك.

فقال له ابن الزبير أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله.

فقال: وشر غلماني أنت مبايعه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله ما لي في هذا الأمر من الحظ ما ليس لأقصى الخلق منك لا والله لا أبايعك أبدا إلا على هذه الخصال.

قال عباس بن سهل فالتقمت أذن ابن الزبير فقلت له اشتر منه دينه حتى ترى من رأيك فقال له ابن الزبير: فإن لك ما سألته فبسط يده فبايعه ومكث معه حتى شاهد الحصار الأول»[1]، ان من يريد ان يشتري دين الاخرين لابد انه على استعداد لبيعه وهو ما دلت عليه مواقف ابن الزبير التي تدل على تلهفه للسلطة.

**ادانة لابن الزبير لا للمختار**

وإذا صحت رواية ابن سهل الذي يبدو من كلامه أنه كان مقربا من ابن الزبير، فان ما ورد فيها يشكل ادانة لابن الزبير لا للمختار، فالمختار لم يؤمر بمبايعة امام من أهل البيت وهو السجاد عليه السلام الذي لم يكن يواجه دولة يزيد سياسيا أو عسكريا. كما أنه لم يبايع يزيد وكان ممن يريدون المشاركة مع مسلم بن عقيل والحسين عليه السلام للاطاحة بيزيد لو لم تفشل انتفاضة الكوفة ويسجن عند مقدم الامام الحسين عليه السلام واذ أن ابن الزبير تصدى لطلب البيعة، فان المختار وافق على مبايعته على شرط أن يكون شريكا في الحكم.

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٠٣، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٩٤.

وإذا ما كان ابن الزبير قد أضمر الغدر منذ البداية حتى يقوى ويشتد أمره ليكون هو الشخص الذي باع دينه وفرط فيه لا المختار الذي اشترط عليه أن لا يقضي شيئا دونه، والذي لم ينقلب عليه الا بعد أن قلب هذا ظهر المجن لآل البيت وأظهر كراهيته لهم وموالاته لعثمان وكان أمويا بلباس حجازي زبيري.ولعله كان يريد منه تصحيح موقفه من آل البيت عليهم السلام والموافقة على الانتقام من قتلة الحسين وأصحابه خصوصا وأنه يعلم حق العلم أنه يسعى للثأر لهم ويجعل من ذلك الهدف الرئيسي في حياته.

**كان المختار من أشد المدافعين عن البيت الحرام في حصار مكة الأول**

وفي حصار مكة الأول رويت حكايات عديدة عن استبسال المختار في الدفاع عن بيت الله الكريم، فعند اشتداد الحصار ومقتل بعض المدافعين عن البيت أخذ ينادي «يا أهل الإسلام اليّ اليّ.أنا ابن أبي عبيد بن مسعود، وأنا ابن الكرار لا الفرار، أنا ابن المقدمين غير المحجمين، الي يا أهل الحفاظ وحماة الأوتار، فحمي الناس يومئذ وأبلى وقاتل قتالا حسنا.

ثم أقام مع ابن الزبير في ذلك الحصار حتى كان يوم أحرق البيت، سنة أربع وستين، فقاتل المختار يومئذ في عصابة معه نحو من ثلاثمائة أحسن قتال قاتله أحد من الناس، ان كان ليقاتل حتى يتبلد، ثم يجلس ويحيط به أصحابه، فاذا استراح نهض فقاتل، فما كان يتوجه نحو طائفة من أهل الشام الا ضاربهم حتى يكشفهم...

فما كان يومئذ رجل أحسن بلاء من المختار»[1]، فهل كان من يقاتل عن البيت الحرام بهذا الاستبسال مدعياً للنبوة كما يتخرص عليه البعض؟

---

(١)الطبري: ج٣ص٤٠٣، والكامل في التاريخ: ج٣ص٤٩٤ وذكرانه «كان أشد الناس على أهل الشام».

وقد بايع ابن الزبير على الموت دفاعا عن الكعبة كما فعل آخرون معه، إلى أن هلك يزيد وفر أهل الشام من مكة[1]، وبعد فرار أهل الشام لم يجد المختار في ابن الزبير قائدا شرعياً جديرا بأن يتولى أمور المسلمين، وكان موقفه من حصين بن نمير الذي عرض عليه أن يذهب معه إلى الشام فيبايعه ويبايعه أهل الشام هناك، قد لفت أنظار المختار، وكان جوابه الذي لا يدل على فطنة ووعي قد أثبت له أنه أمام إنسان اهوج عصبي المزاج لا يتمتع بأقل قدر من الكياسة وبعد النظر، وانه جدير بالفشل والسقوط السريع، وان كان يبدو في تلك اللحظات وكأنه يجني ثمار نصر على يزيد الذي مات حتف أنفه، وحتى طريقة الجواب كانت جديرة بأن تجعله يعتقد بأنه إنسان لا يصلح لما كان يطمح اليه بل حتى لأقل منه.

**ابن الزبير: شعارات أموية المضمون عثمانية الهوى**

وكان تخلي ابن الزبير السريع عن شعاراته السابقة للمطالبة بدماء الحسين عليه السلام وأهل المدينة ورفعه شعارات جديدة، أموية المضمون، عثمانية اللباس والهوى، قد جعل الناس تدرك – وربما كان المختار أحدهم – ان هناك نية مصممة على العودة إلى نهج الانحراف الأول الذي بدأ في عهد عثمان بشكل واضح ووضع معاوية له قواعد واسساً ومناهج. وان الشيء الوحيد الذي كان يستهويه هو الرئاسة وطلب الملك، اذ «كان عبدالله بن الزبير قبل موت يزيد يدعو الناس إلى طلب ثأر الحسين وأصحابه

---

(١) روى أبوعبيد في الحجاج عن أبيمعشر قال: «حدثنا بعض المشيخة الذين حضروا قتال ابن الزبير، قال: غلب حصين بن نمير على مكة كلها الا الحجر، فوالله اني لجالس عنده ومعه نفر من القرشيين: عبدالله بن مطيع، والمختار بن أبيعبيد، والمسور بن مخرمة، والمنذر بن الزبير، اذ هبت رويحة، فقال المختار: والله أني لأرى في هذه الرويحة النصر، فاحملوا عليهم، فحملوا عليهم حتى أخرجوهم من مكة، وقتل المختار رجلا، وقتل ابن مطيع رجلا. ثم جاءنا على اثر ذلك موت يزيد بعد حريق الكعبة باحدى عشرة ليلة...» العقد الفريد: ج٥ ص ١٤٢.

ويغريهم بيزيد، ويوثبهم عليه، فلما مات يزيد أعرض عن ذلك القول، وبان أنه يطلب الملك لنفسه لا للثأر.

وذكر المدائني عن رجاله ان المختار لما قدم على عبدالله بن الزبير لم ير عنده ما يريد فقال:

ذو مخاريق وذو مندوحة و ركابي حيث وجهت ذلل

لا تبيتن منزلا تكرهه و إذا زلت بك النعل فزل

فخرج المختار من مكة متوجها إلى الكوفة...»[1].

وقد رأينا عند الحديث عن سيرة ابن الزبير، كيف أنه حاول رفع قضية استشهاد الحسين عليه السلام واستغلالها أمام جمهور المسلمين في مكة.

### لم يجد عنده توجهاً صحيحاً فتركه

فالمختار لم ير عنده توجها صحيحا لأهل البيت أو رغبة فيهم، بل وجد منه عداوة مقيتة لهم، وهكذا تركه ولم يتركه لأنه لم يستعمله أو يشركه في أمره ولم يحصل منه على امتيازات ومكاسب شخصية.ان هذا أقرب تفسير يمكن أن نوضح به موقف المختار من ابن الزبير بعد أن أيس منه وبعد أن رأى انقلابه وتراجعه عن الأهداف التي نادى بها من قبل.وهو تفسير تدعمه الحقائق التاريخية ويتوافق مع شخصية المختار ومزاجه وانحيازه المعلن لأهل البيت عليهم السلام.

### دراسة حال الكوفة في ظل المتغيرات الجديدة

أخذ المختار يسأل عن حال الناس في الكوفة وهيئتهم قبل أن يقرر العودة اليها ثانية، وقد اختمرت في رأسه فكرة الثأر الآن وأصبحت هدفا وحيدا رأى أن يكرس له

---

(١) المجلسي: ج٤٥ ص١٥٥.

بقية حياته، حتى إذا فعل ذلك لم يكبر عليه زوال الدنيا ولم يحفل بالموت إذا أتى، على حد تعبيره.

ومن المؤكد أنه كان يعلم بتوجهات أهل الكوفة وميولهم منذ البداية وكان يعلم أنهم قد غلبوا على أمرهم وأجبروا على الاستجابة لدولة الظلم والخضوع لها، حتى أنها جعلت منهم أداة لتنفيذ جريمتها في كربلاء.رغم أنهم كانوا على وشك النهوض والثورة بوجهها مع الامام الحسين عليه السلام.

ولم تكن هذه الجريمة لتمر دون أن يراجع أهل الكوفة أنفسهم ويحاسبوها ويعلنوا ندمهم السريع في أعقابها مباشرة واستعدادهم للتكفير عنها ولو بقتل أنفسهم، كما مر بنا في حالة التوابين الذين أقدموا بجرأة رغم قلة عددهم على مواجهة الجيش الأموي الذي كان يتفوق عددا وعِددا ونالوا منه وأوقعوا خسائر جسيمة في صفوفه رغم أنهم استشهدوا في النهاية ولم يعد منهم الا عدد قليل واصل المسيرة مع المختار فيما بعد.

وكان الوقت الذي ظهر فيه المختار يشير إلى عدم وجود قيادة حقيقية متمكنة تستطيع جمع المسلمين تحت مظلتها رغم وجود قيادتين طموحتين أرادتا جذب الناس اليهما وان بدتا في الواقع تعملان لصالح نفسيهما وليس لصالح المسلمين وان رفعتا بعض الشعارات البراقة، وخصوصا قيادة ابن الزبير الذي بدا زاهدا مترهبا مع أن طموحاته لم تكن تختلف عن طموحات من سبقوه وعاصروه من الحكام الأمويين...

لم يجد المختار نفسه مضطرا للسكوت أو الاستسلام إذا ما أتيحت له فرصة مواجهة هاتين القيادتين غير الشرعيتين، قيادة ابن الزبير التي تخلت عن أهدافها وشعاراتها الأولى وقيادة مروان وابنه عبدالملك التي لم تكلف نفسها حتى عناء التباكي على مصلحة المسلمين ورفعة الإسلام.بل وجد أن من واجبه أن يدعم القيادة الحقيقية المتمثلة بأهل

البيت عليهم السلام وان لم يكلفه أحد في الظاهر للقيام بمجابهة عسكرية أو سياسية مع أي من القيادتين للظرف الدقيق الذي كان يمر به الامام علي بن الحسين عليه السلام ومواله وللمهمات الدقيقة التي أخذ على عاتقه القيام بها لانقاذ الإسلام واستمرار ديمومته وبقائه بعيدا عن الانحراف والتزوير.

**المختار في الكوفة ثانية: مرحلة جديدة من العمل**

وبقدوم المختار إلى الكوفة بدأت مرحلة جديدة من العمل، على أنها مرحلة لم يقتصر العمل فيها على المختار وحده، فقد سبقه إلى العمل سليمان بن صرد وجماعته، وقد قدم الكوفة أيضا عبدالله بن يزيد الأنصاري عاملا على الكوفة من قبل عبدالله بن الزبير.

واذ أن المختار كان شخصية مؤثرة وعلى دراية كبيرة بأساليب الحرب والسياسة وكان داهية حازما شجاعا حذرا، وقد وصفه عدوه العتيد ابن الزبير، وقد شاهده يطوف البيت قائلا: «فو الله لهو أحذر من ذئب قد أطافت به السباع»[1]، فقد حاول التصدي لأعدائه بمختلف الأساليب التي فوجئوا بها والتي لم يكونوا قد حسبوا حسابا لها من قبل، واستمال اليه عددا كبيرا من الناس وأوشك أن يتغلب ويظهر أمره بعيد مقدم عبدالله بن يزيد.

**لابد من الاستعداد قبل المواجهة**

ويبدو أن عبدالله بن يزيد قد راقت له فكرة تصدي سليمان بن صرد وأصحابه لابن يزيد للأسباب التي ذكرناها من قبل، وقد خرج سليمان وأصحابه ظاهرين ينشرون السلاح وواجهوا جيش ابن زياد تلك المواجهة الباسلة التي انتهت باستشهاد معظمهم،

---

(١) الطبري: ج٣ ص ٤٠٤ .

وعودة أعداد قليلة منهم إلى الكوفة انضموا للمختار فيما بعد.

ومن خلال تصريحات المختار في رحلة العودة إلى الكوفة نجد تصميما على مواجهة قتلة الحسين واستئصالهم، رغم بعض (التحذيرات والنصائح) التي تلقاها والتي دعته إلى عدم تعكير الجو الهادئ، الذي لم يكن هادئا الا في الظاهر ولبعض الوقت.قال ملمحا إلى مهمته مع أهل الكوفة: «... أنا أجمعهم على مر الحق وأنفي بهم ركبان الباطل وأقتل بهم كل جبار عنيد، فقال له هانئ بن أبي حية: ويحك يا بن أبي عبيد إن استطعت ألا توضع في الضلال ليكن صاحبهم غيرك فإن صاحب الفتنة أقرب شيء أجلا وأسوأ الناس عملا، فقال له المختار: إني لا أدعو إلى الفتنة إنما أدعو إلى الهدى والجماعة .

أنا الذي أحسن رعايتها، وأبلغ نهايتها.

ابشروا بالنصر والفلج، أتاكم ما تحبون.

وبلغ أهل مسجدكم هذا عني أنهم قوم أخذ الله ميثاقهم على طاعته يقتلون المحلين ويطلبون بدماء أولاد النبيين ويهديهم للنور المبين، أبشروا فإني قد قدمت عليكم بما يسركم...»[(١)].

وكان خلال مسيره يدعو الناس لنصرته، وحال وصوله إلى داره في الكوفة، أخذت الناس تختلف اليه؛ وقد صرح أمامهم بأن «محمد بن علي بعثني إليكم امينا ووزيرا ومنتجبا وأميرا وأمرني بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته والدفع عن الضعفاء»[(٢)] وقد بايعه كثير من الناس في اليوم الأول الذي وصل فيه الكوفة...

---

(١) الطبري: ج٣ ص ٤٠٥.

(٢) الطبري: ج٣ ص٤٠٥.

**مقرب من أهل البيت...قريب من أهل الكوفة**

واذ أن المختار كان شخصية مرموقة، وقد عرف أنه كان يجالس محمد بن الحنفية ويأخذ عنه فان ادعاءه أنه ممثله ومبعوثه ووزيره قد وجدت لها صدى عند أهل الكوفة،.؛ ولسنا نعتقد أن أولئك الذين بايعوه والتفوا حوله كانوا لا يصدقون ادعاءه بخصوص ارسال ابن الحنفية اياه اليهم، وهو ما لم ينفه ابن الحنفية بعد ذلك ولم يؤيده صراحة، ومرد ذلك كما يبدو حذره من الوضع السياسي المتقلب.ولعل موقف ابن الزبير المتشدد منه وكرهه البالغ له ولأهل البيت عليهم السلام عموما يرجع إلى أن ابن الزبير يجد فيه معارضا كبيرا لحكمه والحذر كما كان يجد في ابن عباس ذلك، حتى ان يزيد قبل وفاته كان يعتقد أن رفض ابن عباس لابن الزبير مرده اعتقاده بضرورة تمسكه ببيعته، وكان ابن الزبير يجد في ابن الحنفية شخصا ذا أثر في النيل منه ومن سلطته المتنامية خصوصا إذا ما التف حوله أشخاص مثل المختار.

**هل يجهل أهل الكوفة امام المسلمين الحقيقي**

وليس من المعقول أن أهل الكوفة ومنهم شيعة موالون لأهل البيت، لا يدركون من هو الامام الحقيقي بعد الحسين عليه السلام، غير أن اشارة واحدة من أي شخص من أولاد أميرالمؤمنين تجعلهم يندفعون تحت وطأة شعورهم بالذنب ورغبتهم في عودة العدالة التي شهدوها في عهد أميرالمؤمنين عليه السلام لمواجهة أعدائهم وقتلتهم ومناوئيهم.

**استمالة أصحاب سليمان بن صرد**

وقد استمال المختار بعض أصحاب سليمان بن صرد، الذي كان يعمل واياه لهدف واحد،الا أنهما كما يبدو كانا يختلفان في طريقة الأداء والعمل.

ويقال انه بعث يقول لهم: «إني قد جئتكم من قبل ولي الأمر ومعدن الفضل ووصي

الوصي والإمام المهدي بأمر فيه الشفاء وكشف الغطاء وقتل الأعداء وتمام النعماء، إن سليمان بن صرد يرحمنا الله وإياه إنما هو عشمة من العشم وحفش بالٍ، ليس بذي تجربة للأمور ولا له علم بالحروب إنما يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم، إني إنما أعمل على مثال قد مثل لي وأمر قد بين لي فيه عز وليكم وقتل عدوكم وشفاء صدوركم فاسمعوا مني قولي وأطيعوا أمري ثم أبشروا وتباشروا فإني لكم بكل ما تأملون خير زعيم»[1].وإذا ما صح أن هذا ما قاله المختار، فانه يحمل تأويلات عديدة، اذ لم يصرح فيه باسم الامام الذي تلقى منه الأوامر والتوجيهات والأخبار، وقد دل بكلامه هذا على ثقة كبيرة بالنفس ويقين كبير بالنصر، وقد صحت توقعاته بخصوص خروج سليمان ومواجهته الانتحارية للجيش الأموي الذي كان يتفوق عليه كثيرا، والذي قد يشجع ذلك الجيش على التمادي وخصوصا مع أهل الكوفة إذا ما حقق (نصرا) على سليمان.

**الطابور الخفي مستعد دائما للوقوف إلى جانب دولة الظلم**

ان الطابور الخفي المستعد للوقوف إلى جانب دولة الظلم ومساعدتها موجود في الكوفة، وقد سبق أن قدم خدمات كبيرة لابن زياد عندما استُخْدِمَ لقتل الحسين تلك القتلة الشنيعة، كما أن أفراد هذا الطابور هم المطلوبون وهم المستهدفون بالعقوبة والحساب.

ان أيا من أفراد جيش ابن زياد، بما فيهم قائد هذا الجيش عمر بن سعد والقادة الآخرون، لم يحقق مكسبا شخصيا كبيرا يتناسب وعظم الجريمة التي قام بها، كما أن بعض من اندفعوا بشكل استثنائي ضد الحسين قد لقوا ما يستحقونه حالا، وقد أفردنا بحثا مستقلا عن حالة هؤلاء في هذا الكتاب.

(١) الطبري: ج٣ ص ٤٠٦.

ومن الممكن في ظل دولة الظلم التي لا تعرف الا قانونها ومصالحها أن يكرر هؤلاء عملهم الاجرامي بوجه أي داعية حقيقي للإسلام ويكونوا عونا للظلمة ويندفعوا إلى أبعد غاية إذا ما مرت جريمتهم الأولى دون عقاب أو ردع، مع أن العقاب الحقيقي لن يكون هنا على أية حال، بل سيكون يوم الحساب، عندما يواجهون رسول الله صلى الله عليه وآله وأوصياءه.

**لابد من ردع المعتدين حتى لا يتكرر العدوان**

واذ أن هذه حالة مرضية خطيرة، بل سرطان ينمو في جسم الأمة وعلى حساب صحتها بل حياتها، فان ردعا من قبل الأمة لهؤلاء وأمثالهم، سيجعل الآخرين يفكرون كثيرا قبل أن يندفعوا في أحضان ظالمين جدد وينفذوا مخططاتهم ويكونوا أداة لجرائمهم وانتهاكاتهم ضد الإسلام وضد الأمة المسلمة.

ماذا حقق الذين قتلوا الامام الحسين لأنفسهم سوى القتل؟

ماذا سيحقق كل من يعين ظالما على ظلمه، انه حتى إذا ما نجا من كل مصير مؤسف في هذا الدنيا، فانه لن ينال سوى فتات مائدة الظالم، ولن يكون أفضل من الكلب أو القرد أو القط الذي يلاعبه وقد ينبذه في أي وقت مستبدلا اياه بكلب أو بقرد أو بقط آخر.

ومن هنا أدرك المختار ضرورة معاقبة هؤلاء الذين شاركوا بقتل الحسين عليه السلام، ومن هنا بارك الامام زين العابدين عليه السلام ومحمد بن الحنفية، بل وجميع بني هاشم من الرجال والنساء خطوة المختار وأثنوا عليه عندما أرسل رؤوس قادة الجريمة بعد أن انتصر على جيوشهم بمعارك ملحمية قل أن يرى لها نظير...وسنرى كيف كانت ردود افعالهم في نهاية هذا البحث، بعد أن استطاع القضاء على أغلبية رؤوس الجريمة والمشاركين فيها.

**قتلة الحسين أدركوا دوافع المختار**

وقد أدرك هؤلاء، عندما بقي المختار في الكوفة ولم يذهب مع سليمان، أنهم كانوا مستهدفين بالدرجة الأولى وانهم بمواجهة خطر حقيقي سيؤدي إلى ابادتهم والقضاء عليهم وانهم أمام عدو حاذق يعرف كيف يتصرف وكيف يوجه الضربات المميتة.

واذ أن المختار كان في المراحل الأولى من العمل، ولم يتسنَّ له الوقت الكافي لجمع أنصاره وأعوانه، فقد ذهب قسم من قتلة الحسين ومنهم عمر بن سعد وشبث بن ربعي ويزيد بن الحارث بن رويم لعبد الله بن يزيد، عامل ابن الزبير على الكوفة ومساعده ابراهيم بن محمد بن طلحة لتحريضهما على المختار باعتبار أنه أشد عليهم من سليمان ابن صرد الذي خرج لقتال عدوهم المشترك واضعافه، وانه يريد أن يثب عليه واقترحوا عليهما وضعه في السجن حتى تستتب الأمور لصالح ابن الزبير.

وهنا نلاحظ الانتقال المفاجئ من ولاء الدولة الأموية إلى ولاء الدولة الزبيرية، فلم يكن يهم هؤلاء شخصية الحاكم بقدر ما كانت تهمهم سلامتهم ومصالحهم الشخصية، وهو أمر نراه يتكرر لدى أعوان الظلمة من الانتهازيين والنفعيين الذي لا يحملون قيما حقيقية يدافعون عنها.

**وشوا به وأدخلوه السجن خوفا منه**

وقد أحاط عامل ابن الزبير وأعوانه بالمختار وأدخلوه السجن؛ وقد أبدى المختار أنفة واباء عند اعتقاله ومكوثه في السجن، حيث كان يؤكد عزمه واصراره على الأخذ بثأر الحسين عليه السلام، وقد أخذ عليه بعض المؤرخين كلماته المسجوعة التي قالها في السجن والتي كانت تبدو أمامهم لغزا، اذ كيف له بالتيقن من قتل قتلة الحسين، الأمر الذي تم فعلا بعد ذلك، وقد نسبوا اليه الشعوذة والدجل، ولم يأخذوا بعين الاعتبار اليقين الذي

رسخ في نفسه، في غمرة حبه وميله لأهل البيت عليهم السلام، وعلى أنه قادر فعلا على انجاز ما وعد به لوضوح قضية الحسين، وللشكل العدواني الذي تم به قتله وقتل أصحابه عليهم السلام في فاجعة كربلاء، ورأى البعض في كلماته نوعا من سجع الكهنة والعرافين والمتبنين[1]، مع أن طريقته تلك ربما كان قد عمد اليها ليؤكد يقينه في عدالة القضية التي حملها، وعزمه على انجازها. ولعله كان يريد بذلك ايجاد نوع من الخطاب المؤثر على الناس في مواجهة الأساليب الدعائية والاعلامية التي عمدت اليها الدولة كالقصص واختراع الحديث والأكاذيب. وربما أراد لخطابه أن يكون غير تقليدي وغير مألوف لبث الثقة في نفوس عامة الناس ومنهم الذين اعتادوا أن ينساقوا وراء كبرائهم وأشرافهم ومتنفذيهم دون وعي أو ارادة، وقد نجح بأسلوبه هذا إلى حد بعيد في استمالة الناس وبث الثقة في نفوسهم، خصوصا وان المعروف عنه أنه من المقربين من محمد بن الحنفية.

**اسلوب خطابي مؤثر يخيف الأعداء**

ولو أخذنا أقواله كأسلوب من أساليب الخطابة غير المألوفة لا غير وجردناه مما أراد البعض الصاقه به، لرأينا أنه نوع من الخطاب ركز عليه المختار بعد أن رأى نجاحه وتأثيره على بعض الناس، وانه لا يشير إلى أنه يرى أمورا غيبية ستحدث بقدر ما كان متيقنا أنه سيرى هذه الأمور ستحدث لعدالة القضية التي وعد أن يكون في مقدمة السائرين لحملها مهما كان الثمن، حتى وان كان قتله هو ذلك الثمن.

وهذا نموذج لأقواله أمام جماعة من زائريه في السجن وهو مقيد:

«...أما ورب البحار، والنخيل والأشجار، والمهامة والقفار، والملائكة الأبرار والمصطفين الأخيار، لأقتلن كل جبار، بكل لدن خطار ومهند بتار، في جموع من

(١) مع ان بعض أعدائه ربما وضعوا على لسانه بعض تلك الأقاويل التي نسبت اليه والغرض من ذلك واضح، كما هو معلوم.

الأنصار، ليسوا بميل أغمار، ولا بعزل أشرار.حتى إذا أقمت عمود الدين، ورأبت شعب صدع المسلمين، وشفيت غليل صدور المؤمنين، وأدركت بثأر النبيين، ولم يكبر على زوال الدنيا ولم أحفل بالموت إذا أتى...»[١].

ان قوله هذا إذا ما جردناه من الموثرات والمحسنات اللفظية والخطابية لا يتعدى هذه الكلمات: «و الله لأقتلن كل جبار بكل رمح وسيف، حتى إذا فعلت ذلك وأدركت بالثأر هان عليَّ الموت...»، أو من قبيل هذا المعنى.

غير أنه إذا ماقالها بأسلوب عادي، فانه ربما لن يستطيع أن يجعلها ذات وقع قوي في نفوس السامعين، وهو صاحب قضية يريد اللجوء إلى كل الأساليب لتحشيدها في معركته...وكما أنه يسعى للجوء إلى السيف ويريد لضرباته أن تكون قوية موثرة فانه يلجأ إلى القلم والكلمة والأساليب الخطابية الموثرة التي كان يرى وقعها الأكيد على الناس.

ويهمنا أن نشير هنا إلى أن سليمان كان يدرك أن المختار لم يكن السبب في تثبيط الناس عنه، فهما يسعيان لقضية واحدة غير أن أسلوبيهما كانا مختلفين، وقد جعله ذلك يقول لمن زعم له ذلك: «وهب أن ذلك كان، فأقام عنا عشرة آلاف...»[٢] وكان يشير إلى من بايعوه ثم نكصوا عنه، ويجعل قيامه بتخذيل الناس مجرد فرض...مع أن أعداءهما أرادوا جعل ذلك حقيقة من الحقائق.

**توقعات مدروسة**

وعندما عاد بقية أصحاب سليمان بن صرد من التوابين إلى الكوفة بعد أن استشهد

(١)الطبري: ج٣ص٤٠٦.

(٢)الطبري: ج٣ص ٤٠٩.

بقية أصحابهم في عين الوردة، كان المختار لا يزال في السجن.

وربما حسب المختار المدة الزمنية التي كان يقتضيها وصول سليمان وأصحابه لموقع النزال المحتمل والمدة التي تستغرقها وصول من يتبقى منهم إلى الكوفة؛ وعلى ذلك الأساس صرح في السجن[١].«عدّوا لغازيكم هذا أكثر من عشر، ودون الشهر، ثم يجيئك نبأ هر، من طعن نتر، وضرب هبر، وقتل جم وأمر رجم.فمن لها؟ أنا لها.لا تكذبن، أنا لها»[٢].

لم تكن توقعات المختار هذه تحتاج إلى براعة فائقة.وانما كانت توقعات محسوبة، فالذين ذهبوا من أهل الكوفة بقيادة سليمان لابد أن يواجهوا جيش الأمويين، ولابد أن تحصل مواجهة عنيفة يقتل فيها العديدون من الطرفين.أما بطل المواجهة المقبل الذي سينتصر على عدوه، فهو المختار الذي عزم على ذلك وأعد له نفسه منذ الآن.

**التوابون خميرة الأنصار للأخذ بالثأر**

وهكذا كتب وهو في السجن إلى قائد التوابين العائد من عين الوردة، رفاعة بن شداد: «...أما بعد، فمرحبا بالعصب الذين أعظم الله لهم الأجر حين انصرفوا، ورضي انصرافهم حين قفلوا.أما ورب البنية التي بنى، ما خطا خط منكم خطوة، ولا رتا رتوة، الا كان ثواب الله له أعظم من ملك الدنيا.

ان سليمان قد قضي ما عليه، وتوفاه الله فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين،ولم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون.اني أنا الأمير المأمور،

(١) نحن نفترض هنا صحة الأقوال المنسوبة للمختار ونناقشها على هذا الأساس، وهي الأقوال التي أريد بها توجيه الطعون اليه واتهامه بالسحر وادعاء النبوة، مع انها أقوال عادية صيغت بأسلوب خطابي مسجوع أريد به التأثير على السامعين.

(٢)الطبري: ج٣ص٤٢٠.

والأمين المأمون، وأمير الجيش، وقاتل الجبارين والمنتقم من أعداء الدين، والمقيد من الأوتاد، فأعدوا واستعدوا، وأبشروا واستبشروا.أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ والى الطلب بدماء أهل البيت والدفع عن الضعفاء، وجهاد المحلين...»[١].

وهي رسالة من شأنها أن تطيب خواطر العائدين المنكسرين الذين واجهوا عدوهم تلك المواجهة الانتحارية الباسلة، فأبيدوا ولم يبق منهم الا هذه القلة العائدة.

ولعلهم، ومن بقي من التوابين الذين لم يلتحقوا بسليمان، حينما يطمئنون إلى وجود قيادة حاذقة قوية مثل قيادة المختار، سيفكرون بالالتحاق به حينما يقرر الوثوب بوجه دولتي الظلم القائمتين وسيكونون نواة لجيش قوي جدير بالمواجهة المقبلة.

أية سعادة سيشعر بها أولئك العائدون عندما يجدون أمامهم قيادة حازمة تفكر تفكيرا عمليا واعيا وتدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ والطلب بدماء أهل البيت والدفع عن الضعفاء وجهاد المحلين.

وهي دعوة ستجد صداها أيضا بين طبقة مستضعفة واسعة، هي طبقة الموالي والعبيد الذين رفعهم الإسلام وأراد تحريرهم من قيود الفقر والتفرقة والعبودية الا أنهم رزحوا في ظل الدولة الأموية تحت العديد من القيود التي أعدتها لهم هذه الدولة، وكانت دعوة المختار لانصافهم والدفع عنهم جديرة بجعلهم يقفون في صفه، كما فعلوا، وأبلوا بلاء حسنا في المعارك التي خاضها ضد أعدائه.

ولا يوجد في رسالته ما يدل على أنه كان يحاول أن يوحي اليهم أنه يعلم الغيب، كما يروج لذلك الناقمون عليه من الحزبين الأموي والزبيري مما انتشر بعد ذلك بين أوساط الناس، ولا يوجد فيها الا الحماس والثقة بعدالة قضيه، وهو ما أراد أن ينقله

---

(١) الطبري: ج٣ ص٤٢١.

إلى الآخرين.

**تكاتف القتلة في الآراء والمواقف**

وربما عاب كثيرون على المختار اندفاعه للأخذ بالثأر والكيفية التي قام بها بعد ذلك، اذ أن هؤلاء رأوا أن قتلة الحسين وأصحابه عليهم السلام انما نفذوا أمرا واجبا كان من المفروض عليهم تنفيذه استجابة لرغبة (ولي أمرهم) و(خليفتهم) الواجب عليهم طاعته...وانهم كانوا بذلك يتقربون إلى الله بهذه الطاعة العمياء التي روج لها فقهاء الدولة وقصاصوها ومحدثوها ومؤولو الكتاب وقادتها ووجهاؤها ودعوا الناس إلى التمسك بطاعة (الخليفة) لضمان رضا الله، دون النظر إلى كون الخليفة فاسقا أو زنديقا أو منحرفا أو شاذا، فهذا لا يطعن في سلامة حكمه وولايته كما رأينا فيما مر بنا في غضون هذا الكتاب.

ولذا فانهم عدوا المختار متجاوزا ومعتديا على هؤلاء الذين أطاعوا امامهم، وانه قام بقتلهم دون ذنب جنوه سوى تلك الطاعة للحفاظ على الجماعة.!

وقد رأينا كيف عبر أحد هؤلاء الذين شاركوا بقتل الحسين عن ذلك بعد فترة طويلة من المجزرة، معتبرا قيامه بتنفيذ أوامر يزيد وفاء منه لسيده المفروضة عليه طاعته وطلب من الله أن يثيبه على ذلك الوفاء قائلا: «يا رب انا قد وفينا، فلا تجعلنا يا رب كمن غدر»[1] وقال لمن عاتبه على فعلته الشريرة..«اني لم أكسب لنفسي شرا ولكني كسبت لها خيرا»[2].

---

(١)الطبري: ج٣ ص٣٢٣.

(٢)الطبري: ج٣ ص٣٢٣.

**الهدف النهائي ليس مجرد الثأر من قتلة الحسين**

لم يكن هدف المختار كما بدا من أقواله ورسائله مجرد أخذ الثأر من قتلة الحسين، وانما كان يمهد لارجاع الحكم لآل البيتعليهم السلام، وقد رأى أن مما يساعده في ذلك هو الدعوة للأخذ بثأرهم...فليس من المعقول أن تنجح دعوته اليهم في الوقت الذي لا يزال قتلتهم يسرحون ويمرحون بين الناس.ولم يبد في أقواله بأي حال من الأحوال انه كان يتنبأ أو يدعو إلى نفسه أو يتبنى دعوة خارجة عن الإسلام؛ وكل ما في الأمر أنه كان قد تطوع لجعل الثأر من قتلة الحسين والدعوة لآل البيتعليهم السلام بعد ذلك هدفه الرئيسي في هذه الحياة وتزعم الناقمين على حكام الجور الذين كشفوا عن خططهم ونواياهم الشريرة بمواجهة الإسلام للقضاء عليه ودثره إلى الأبد.

**كتب تشجع العائدين وتشد ازرهم**

وقد كتب المختار ثانية - وهو في السجن - للعائدين من أصحاب سليمان بن صرد يهوّن عليهم ما أصابهم في عين الوردة ويعدهم النصر على عدوهم،و قد جاء في كتابه: «أما بعد فإن الله أعظم لكم الأجر وحط عنكم الوزر بمفارقة القاسطين وجهاد المحلين، إنكم لم تنفقوا نفقة ولم تقطعوا عقبة ولم تخطوا خطوة إلا رفع الله لكم بها درجة وكتب لكم بها حسنة إلى ما لا يحصيه إلا الله من التضعيف، فأبشروا فإني لو قد خرجت إليكم قد جردت فيما بين المشرق والمغرب في عدوكم السيف بإذن الله فجعلتهم بإذن الله ركاما وقتلتهم فردا وتؤاما فرحب الله بمن قارب منكم واهتدى ولا يبعد الله إلا من عصى وأبى والسلام يا أهل الهدى»[1].

وقد لقيت رسالته استجابة وقبولا لدى العائدين بعد أن سربت اليهم، وأبدوا استعدادهم لاخراجه من السجن بالقوة، الأمر الذي سره؛ غير أنه طلب اليهم التريث

(١) الطبري: ج٣ ص٣٣٣.

وأخبرهم أنه سيخرج في أيامه تلك.

وكان خبر اعتقاله قد وصل عبدالله بن عمر بن الخطاب، زوج أخته صفية.وقد توسط هذا لاطلاق سراحه لدى والي الكوفة ومساعده اللذين حاولا أخذ ضمانات منه أن لا يبغيهما غائلة ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان.

وعند خروجه قوي أمره واشتد وأخذت الناس تختلف اليه وتبايعه وقد كثر أصحابه ومؤيدوه.

وربما أدرك ابن الزبير أن عامله على الكوفة ومساعده لم يكونا مؤهلين للوقوف بوجه المختار، فبدا له أن يعزلهما وعين بدلهما عبدالله بن مطيع، وقد حسب أنه قادر على التصدي له وقهره.

ومن الطريف أن ابراهيم بن محمد بن طلحة مساعد عبدالله بن يزيد عامل ابن الزبير على الكوفة، كسر على ابن الزبير الخراج عند خروجه من الكوفة، وعندما هدده ابن الزبير قال: انما كانت فتنة، فكف عنه ولم يطالبه بالأموال التي سرقها.

**عبدالله بن مطيع...نسخة باهتة لعبيد الله بن زياد**

ويبدو أن عبدالله بن مطيع رغم ما كان يتمتع به من الحزم والشجاعة، كان يفتقر إلى الكياسة والذكاء اللازمين لمواجهة عدوه المختار، رغم أنه وضع نصب عينيه أن يجعل الكوفة تستجيب كلها لابن الزبير الذي طلع عليهم بلباس أموي عثماني مستعار.

وقد خلت خطبته الأولى التي أرادها أن تبدو مؤثرة ومخيفة كخطب زياد ابن ابيه وعبيد الله ابنه، من كل تقدير سليم لواقع الكوفة وأهلها مع أنه استعار كلمات عديدة من خطب الطاعنيين خلال حكمهما الكوفة.قال لهم فيها: «...ان أمير المؤمنين عبدالله ابن الزبير ولاني على مصركم وثغوركم، وأمرني بجباية فيئكم والا أحمل فضل فيئكم

عنكم الا برضا منكم، ووصية عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته، وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بها في المسلمين، فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا، وخذوا على أيدي سفهائكم، والا تفعلوا فلوموا أنفسكم ولا تلوموني، فو الله لأوقعن بالسقيم العامي، ولأقيمن درء الأصعر المرتاب...»(١).

ومع أنه حاول في بداية هذه الخطبة التلويح بالمال، الا أن ما قاله بخصوص وصية عمر وسيرة عثمان أثار مستمعيه، وقد قال له أحدهم: «...أما أمر ابن الزبير اياك ألا تحمل فضل فيئنا عنا الا برضانا، فانا نشهدك أنا لا نرضى أن تحمل فضل فيئنا عنا، وألا يقسم الا فينا، وألا يسار فينا الا بسيرة علي بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه، ولاحاجة لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا، فانها انما كانت أثرة وهوى، ولا في سيرة عمر بن الخطاب في فيئنا، وان كانت أهون السيرتين علينا ضرا...»(٢).

**تراجع في الحال، نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها**

وقد أيد بقية المستمعين هذا المعترض قائلين انه صدق وبر وان رأيهم مثل رأيه وقولهم مثل قوله، مما جعل ابن مطيع يتراجع حالا ويقول لهم:

«...نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وهويتموها...»(٣)، وهو الأمر الذي أضعف أمره منذ البداية رغم تهديداته المبرقة المرعدة، وقوّى موقف أعدائه الموالين لأهل البيت والذين كان يقودهم المختار في الكوفة.

واذ أن ذلك الموقف أصاب ابن مطيع باحباط شديد - كما بدا - فان بعض الموالين للنظام الزبيري أشار عليه بخطة لاستدراج المختار إلى القصر وحبسه حتى تستتب

(١) الطبري: ج٣ص٤٣٥.
(٢) الطبري: ج٣ ص ٤٣٥.
(٣) الطبري: ج٣ص٤٣٥.

الأمور لصالح ذلك النظام وخوفه مغبة تركه طليقا يجمع الناس حوله للوثوب بالمصر، الا أن أحد رسولي ابن مطيع للمختار حذره من الذهاب، فلم يذهب.

**تحديد تاريخ الثورة - محمد بن الحنفية لا ينفي أدعاءات المختار**

وقد حدد المختار شهر المحرم من سنة ست وستين تاريخا لثورته في الكوفة، الا أن بعض مؤيديه شكوا في أن محمد بن الحنفية قد أرسله اليهم، وعزموا على الذهاب اليه للاستفسار منه عن ذلك، وقد أخبروه بما جاؤوا من أجله، وتم اللقاء بينه وبينهم سرا، وكان مما قاله له أحدهم: «... أما بعد فإنكم أهل بيت خصكم الله بالفضيلة وشرفكم بالنبوة وعظم حقكم على هذه الأمة فلا يجهل حقكم إلا مغبون الرأي مخسوس النصيب قد أصبتم بحسين رحمة الله عليه عظمت مصيبة اختصصتم بها بعدما عم بها المسلمون وقد قدم علينا المختار بن أبي عبيد يزعم لنا أنه قد جاءنا من تلقائكم وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله والطلب بدماء أهل البيت والدفع عن الضعفاء فبايعناه على ذلك ثم إنا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه وندبنا له فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه وإن نهيتنا عنه اجتنبناه...»(١).

وكان جوابه لهم اشارة واضحة إلى أنه يؤيد ما كان المختار يدعو اليه، وان كانت

(١) الطبري: ج٣ ص ٤٣٦ وقد روى ابن نما عن والده أنه قال لهم: «قوموا بنا الى امامي وامامكم علي بن الحسين، فلما دخل ودخلوا عليه أخبر خبرهم الذين جاؤوا لأجله، قال: يا عم.لو أن عبدا زنجيا تعصب لنا أهل البيت، لوجب على الناس مؤازرته، وقد وليتك هذا الأمر، فاصنع ما شئت، فخرجوا وقد سمعوا كلامه وهم يقولون: اذن لنا زين العابدين عليه السلام ومحمد بن الحنفية..» البحار: ج٤٥ ص٣٦٤ - ٣٦٥..فزين العابدين عليه السلام لم يصدر هنا أمرا صريحا بضرورة الخروج مع المختار ولعله أوكل مثل هذه المسائل العامة لمحمد بن الحنفية الذي كان يعلم حق العلم منزلته وانه هو ولي الدم والامام الواجبة طاعته، فأخذ على عاتقه مهمة التصدي للدولتين القائمتين وأخذ ينسق مع المختار لاضعافهما والقضاء على أعوانهما المتحيزين اليهما تحيزا ظاهرا ومعظمهم من قتلة الحسين عليه السلام....

تعفيه من مسؤولية تكليفه المباشر بذلك، وربما أراد بذلك اجتناب رد الفعل الذي لابد أن يكون شديدا من قبل الفئتين المتنافستين على حكم المسلمين في ذلك الوقت إذا ما بدا لهم أن يدققوا بكلماته ويحاسبوه عليها، وهو أمر متوقع في ذلك الحين.

قال لهم: «..أما ما ذكرتم مما خصصنا الله به من فضل، فان الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم، فلله الحمد.وأما ما ذكرتم من مصيبتنا بالحسين، فان ذلك كان في الذكر الحكيم، وهي ملحمة كتبت عليه، وكرامة أهداها الله له، رفع بما كان منها درجات قوم عنده، ووضع بها آخرين، وكان أمر الله مفعولا، وكان أمر الله قدرا مقدورا.وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا، فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه...»[١].

**محمد بن الحنفية دعا أهل الكوفة لمناصرة المختار**

وقد رجع أولئك النفر إلى الكوفة يخبرون الناس بموقف محمد بن الحنفية ودخلوا على المختار قبل دخولهم إلى رحالهم وأخبروه بما تم بينهم وبينه وأنه أمرهم بمظاهرته ومؤازرته واجابته إلى ما دعاهم اليه، ثم عقدوا اجتماعا عاما أعلموا الناس فيه ثانية بموقف محمد بن الحنفية من حركة المختار قائلين: «فإنا قد كنا أحببنا أن نستثبت لأنفسنا خاصة ولجميع إخواننا عامة فقدمنا على المهدي بن علي فسألناه عن حربنا هذه وعما دعانا إليه المختار منها فأمرنا بمظاهرته ومؤازرته وإجابته إلى ما دعانا إليه فأقبلنا طيبة أنفسنا منشرحة صدورنا قد اذهب الله منها الشك والغل والريب واستقامت لنا بصيرتنا في قتال عدونا فليبلغ ذلك شاهدكم غائبكم واستعدوا وتأهبوا..»[٢].

وعندما استكمل للمختار أمره واجتمعت عليه الناس اقترح عليه بعض أصحابه

(١) وراجع البلاذري: أنساب الأشراف: ج٥ص ٢٢١ -٢٢٢، والبحار: ج٤٥ ص ٣٦٤- ٣٦٥.
(٢) الطبري: ج٣ ص٤٣٧.

أن يدعو ابراهيم بن الأشتر للانضمام اليهم لما كان يتمتع به من مركز وصيت وقوة، وكان أبوه من المقاتلين الشجعان وقد وقف في صف أميرالمؤمنين عليه السلام في حروبه مع مناوئيه إلى أن استشهد أثر جرعة من السم دسها اليه أحد أعوان معاوية.

وقد نجح المختار في استمالة ابراهيم إلى جانبه، ودعاه إلى ما أجمع عليه الملأ من أهل الكوفة، إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله والطلب بدماء أهل البيت وقتال المحلين والدفع عن الضعفاء.

**استجابة ابراهيم بن الأشتر وانضمامه لحركة المختار**

وكانت استجابة ابراهيم بن الأشتر للمختار نصرا كبيرا لحركته الشعبية المتنامية، وقد أخذ يدبر معه أمور تلك الحركة استعدادا لساعة الصفر التي جعلوا موعدها ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ست وستين.

غير أن تحرك المختار وصلت أخباره مسامع ابن مطيع فحشد قواته في أماكن حساسة من الكوفة قبل ليلة من الموعد المقرر الذي حدده المختار، وقد جعله ذلك يقدم الموعد قبل أن يفلت زمام المبادرة من يده.

وكانت فئة القادة والأشراف وزعماء القبائل التي استنفرها ابن زياد من قبل لمقاومة مسلم وقتال الحسين مستعدة الآن للوقوف إلى جانب القيادة الزبيرية والدفاع عنها بنفس الهمة والحماس اللذين أبدتهما من قبل عندما وقفت مع القيادة الأموية اليزيدية.

**اشراف الكوفة: دائما إلى جانب دولة الظلم**

فهنا نرى أيضا عبدالرحمن بن سعيد بن قيس وكعب بن أبي كعب الخثعمي وزحر ابن قيس وشمر بن ذي الجوشن ويزيد بن الحارث بن رويم وشبث بن ربعي في مقدمة القادة الذين يؤازرون ابن مطيع ويقفون إلى جنبه لقتال المختار، وكانوا بدفاعهم عن ابن

مطيع انما يدافعون عن أنفسهم وامتيازاتهم التي أو شكت الآن أن تفلت من بين أيديهم وقد هالتهم دعوة المختار للمطالبة بثأر أهل البيت وقتال المحلين والدفع عن الضعفاء، ورغم علمهم بعداوة ابن الزبير ودولته لدولة بني أمية التي دافعوا عنها من قبل، فانهم رأوا أن وقوفهم إلى جانب هذه الدولة التي تشارك أختها بعداوتها لآل البيت وكل من يدعو اليهم، هو الضمانة الوحيدة التي تحفظ لهم حياتهم ومصالحهم، ولا يهم من يكون رأس تلك الدولة وكيف تكون توجهاته، وعساها أن تكون حتى دولة الرومان أو الفرس..فليست المبادىء هي التي تحركهم هنا.كما لم تكن المبادىء هي التي حركتهم من قبل لمقاومة مسلم وقتال الحسين عليه السلام وقتله.

**تحرك سريع من الكوفة**

كان ابن مطيع قد حشد رجاله وشرطه في الجبابين والسوق والقصر لتطويق أي تحرك محتمل من قبل المختار ورجاله ولامساك زمام المبادرة قبل أن يفلت من يده.

وقد تعرض أمير شرطه - اياس بن مضارب - مع رجاله المدججين بالسلاح لابراهيم بن الأشتر المعروف بشجاعته، في محاولة منه لمنعه من الذهاب لزيارة المختار وألح على أخذه لابن مطيع ليرى فيه رأيه على حد تعبيره؛ غير أن ابراهيم حمل عليه فطعنه وصرعه وأمر أحد أصحابه فاحتز رأسه، وتفرق أصحابه ورجعوا إلى ابن مطيع الذي بادر فعين ابنه - راشد بن اياس - مكان أبيه على الشرطة.

وقد أوضح ابراهيم ملابسات الموقف للمختار عند لقائه به والسبب الذي دعاه لمقاتلة اياس وشرطه وقتله، فسر المختار بذلك وأمر باشعال النيران في الهرادي والمناداة بشعارات الثورة: «يا منصور أمت»[1] و«يا لثارات الحسين»، ووضعا خطة من شأنها

(١) وهو مشابه لشعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد: «أمت، أمت».ابن هشام: ج٣ ص ٦٨.

انزال الهزيمة بقواد ابن مطيع.

**يا شرطة الله انزلوا...**

كانت الدولة تجند أعوانها شرطة يدافعون عن خليفتهم رئيس الدولة الذي يرون أنه ولي نعمتهم ومصدر رزقهم وسبب حياتهم، لأنه يدفع لهم أجورهم بسخاء..وقد اتسع اعتماده عليهم واعتمادهم عليه، وكان ارتباطهم به يفوق ارتباطهم بقبائلهم وعقيدتهم، وكانت المسألة، مسألة ارتزاق وتبادل خدمات ومنافع.

ومقابل شرطة الدولة، نزلت (شرطة الله)، وهي تسمية ربما كان أول من أطلقها ابراهيم بن الأشتر على المقاتلين الذين واجهوا أعوان ابن مطيع، اي المرتزقة الذين وقفوا في صف ابن زياد لمواجهة الامام الحسين عليه السلام وقتله.أهاب بهم ابن الأشتر في احدى المواجهات الحاسمة قائلا: «يا شرطة الله، انزلوا، فانكم أولى بالنصر من الله من هؤلاء الفساق الذين خاضوا دماء أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله...»[١] وهو نداء لقي نجاحا واستحسانا من أولئك المقاتلين الشجعان الذين اندفعوا بحماس لقتال عدوهم وطرده، وظلت تلك التسمية (شرطة الله) تطلق على مناصري المختار، ولعلها كانت رد فعل على من جعلوا أنفسهم شرطة للظالم، يطيعونه اطاعة عمياء دون نقاش أو تأمل مادام يدفع لهم.أما هؤلاء فقد جعلوا من أنفسهم شرطة لله لا يريدون الا وجهه وجزاءه ومثوبته.

ونلاحظ أن هذه التسمية (شرطة الله) قد سادت أيام المختار وشملت كل من انضموا اليه وقاتلوا تحت لوائه، وقد وجدوا فيها من الطرافة قدرا يفوق ذلك الذي وجدوه من المرارة والألم والقسوة التي لقوها في ظل دولة الظلم الأموية التي استدعت

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٤١.

عليهم أعوانها ومرتزقتها وشرطتها....وقد أخذوا يواجهونهم الآن هذه المواجهة الحاسمة التي ستزيح كل هذه المرارة والألم من قلوبهم.

استطاع المختار وصاحبه ابن الأشتر أن يتغلبا على أعدائهما من قادة ابن مطيع الزبيري اليوم وقادة ابن زياد الأموي بالأمس مثل شبث بن ربعي وحجاز بن أبجر وشمر بن ذي الجوشن والتف حول ابن مطيع كل قادته المهزومين الذين بذلوا كل جهودهم لنصرته وجعله يتغلب على عدوه وعدوهم المختار وحشدوا آلافا من أنصارهم ومؤيديهم للتصدي له في ليلة بدت حاسمة.

غير أن المختار بالأعداد القليلة التي كانت معه استطاع وضع خطط محكمة والصمود بوجوه أعدائه والتغلب عليهم بعد ذلك.

**قانون دولة الظلم**

وكان ضمن قادته رجال حاذقون أدركوا أن الظلم الذي لحق بالناس على أيدي الطغمة الأموية بالأمس والتي انقلبت اليوم إلى زبيرية، سيكون هو دافعهم للتخلص منها ومواجهتها بصلابة وثبات[1]؛ وقد أكدوا بخطبهم الحماسية التي ألقوها خلال

---

(١) ومن هؤلاء يزيد بن أنس الذي ولاه المختار خيله، حيث خطب في أصحابه قائلا: «يا معشر الشيعة، قد كنتم تقتلون وتقطع أيديكم وأرجلكم، وتسمل أعينكم، وترفعون على جذوع النخل في حب أهل بيت نبيكم، وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدوكم. فما ظنكم بهؤلاء القوم ان ظهروا عليكم اليوم! إذا والله لا يدعون منكم عينا تطرف، وليقتلنكم صبرا، ولترون منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خير منه. والله لا ينجيكم منهم الا الصدق والصبر والطعن الصائب في أعينهم، والضرب الدارك على هامهم فتيسروا للشدة وتهيئوا للحملة...» الطبري: ج٣ص٤٤٣ - ٤٤٤ وهي اشارات دقيقة تكشف حقيقة الظلم الذي تعرضوا له من قبل مع أنهم لم يواجهوا دولة الظلم الأموية أو يحاربوها، وكان كل ذنبهم انهم يكنون الحب والولاء لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، وقد فعلت أمثال هذه الخطب فعلها في حثهم وتشجيعهم على القتال.

المعركة هذا المعنى مما كان له أكبر الأثر في لفت جماهير الكوفة إلى حقيقة الظلم الذي تعرضت له من قبل ويحتمل أن تتعرض له فيما بعد.

وكانت اشارة ابن أنس الذكية الحاذقة تشير إلى حالة تتكرر في دول الظلم المختلفة مهما كان لونها وشكلها والعصر الذي تشكلت فيه.انها دول تحاول حماية مصالح أسيادها وملوكها بشتى الأساليب والمتهم بنظرها مجرم ولا داعي لاثبات براءته، بل ان القضاء على من تشك بولائهم لها يمثل أسهل وأسلم الطرق بنظرها؛ وهكذا تعتمد قانون الشك والظن وأخذ القريب بالبعيد والولي بالولي وتعمد إلى قانون العسف المنفلت والبعيد عن القوانين السماوية أو حتى تلك التي تنسجم مع العدالة الإنسانية.

وفي ظل (قانون) كهذا يتعرض فيه المرء في كل لحظة للدمار والاهانة حتى ولو لم يواجه سلطة الظلم مواجهة عسكرية أو سياسية أو فكرية، ماذا يملك أن يفعل إذا ما أتيحت له فرصة الخلاص والثورة؟ انه سيثور حتما، خصوصا إذا ما وجد أمامه قضية عادلة واضحة، وأية قضية أعدل وأوضح من تلك التي رفعها المختار وأصحابه بمواجهة العصابة التي أقدمت على قتل الحسين عليه السلام تلك القتلة المريعة وأباحت دمه وماله وسبت عياله رغم علمها بموقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن المسلمين؟

ان تلك العصابة توشك أن تتغلب ثانية على الكوفة وتلبس رداء زبيريا بدل الرداء الأموي ريثما تستجمع أنفاسها وترى من توالي في النهاية بعد انكشاف الوضع، ولابد للمظلومين من كل فئات المسلمين العرب وغيرهم أن يثوروا عليها لتخليص أنفسهم منها.لأنها ستعاقب الجميع إذا ما استتبت الأوضاع لصالحها، وعقوبة القائم يوجهها كعقوبة القاعد، فعلامَ القعود إذا؟!

**اصحاب ابن الزبير اليوم أصحاب ابن زياد بالأمس**

وإذ أن أصحاب ابن مطيع اليوم، أصحاب ابن زياد بالأمس لم يكونوا يحملون قضية عادلة واضحة يدافعون عنها ويقاتلون إلى النهاية من أجلها، فانهم تخاذلوا أمام أصحاب المختار وانهزموا مرعوبين.

فقد تفرق أصحاب راشد بن أياس بمجرد أن قتل، وكان أبوه قد قتل من قبل. وانهزم أصحاب حسان بن فائد، أحد قادة ابن مطيع، وهو في جيش كثيف، نحو من ألفين.

وانهزم شبث بن ربعي بأصحابه حتى انتهوا إلى أبيات الكوفة.

وحاول عمرو بن الحجاج الزبيدي أحد أصحاب ابن زياد، وكان له دور معروف في قتل الحسين عليه السلام والتحريض عليه، أن يشجع ابن مطيع للتصدي للمختار وأصحابه وذلك بالتهوين من شأنهم أمامه.

وقد حاول ابن مطيع أن يحث جماعته على الوقوف بوجه المختار وأصحابه وأبدى استغرابه من عجزهم على مواجهته، وأمرهم بالخروج اليه بدعوى الدفاع عن حريمهم ومصرهم وفيئهم والا شاركوهم فيه، وأبلغهم أن من جملة أصحاب المختار خمسمائة رجل من محرريهم عليهم أمير منهم، وأنذرهم مغبة ترك هؤلاء يتكاثرون والا كان في ذلك ذهاب عزهم وسلطانهم وتغير دينهم(١)...!!

وعندما توجهت طلائع جيش المختار تجاه القصر انهزم أمامها عمرو بن الحجاج وشمر بن ذي الجوشن وشبث بن ربعي ونوفل بن مساحق وكل أعوان ابن مطيع،

(١)الطبري: ج٣ص٤٤٥ ومن الطريف ان دعاوى الدفاع عن العرض والوطن والمكاسب التي تزعم دولة الظلم انها حققتها تتكرر دائما وتتردد بأساليب مظللة ملتوية عديدة، حيث تبدي هذه الدولة حرصا مزعوما على حماية أعراض الناس وأوطانهم.

وازدحموا على فم السكة متوجهين إلى القصر حيث ابن مطيع.

**المختار يحاصر قصر الامارة**

وكما كان أشراف الكوفة من قبل - محصورين في القصر مع ابن زياد - وقوات مسلم تحيط بهم، وهم يقلبون الرأي ويلتمسون أفضل الطرق لفك الحصار عنهم حتى نجحوا في ذلك، صاروا الآن محصورين مع ابن مطيع وقوات المختار تحيط بهم، وما استطاعوا تحقيقه لمواجهة أصحاب مسلم من قبل لم يستطيعوا تحقيقه مع أصحاب المختار الآن...ولم يستطيعوا الا أن يشيروا على ابن مطيع بالاستسلام وأخذ الأمان له ولأنفسهم من المختار، وقد تقدم بهذا الاقتراح شبث بن ربعي وأيده في ذلك أسماء بن خارجة وعبدالرحمن بن مخنف وعبدالرحمن بن سعيد بن قيس وأشراف أهل الكوفة.

وبعد حصار دام ثلاثة أيام استجاب ابن مطيع لرأيهم بعد أن وجه اليهم كلمة مدحهم فيها وحمل مسؤولية الثورة «الأراذل والسفهاء والطغام والأخساء»[1] وخرج من القصر حتى أتى دار أبي موسى، وفتحوا باب القصر طالبين الأمان من ابن الأشتر الذي كان يتولى عملية الحصار، وخرجوا إلى المختار فبايعوه ماداموا قد حسبوا أنهم ضمنوا سلامتهم.

لقد بايعوا من قبل أمير المؤمنين عليه السلام، ثم بايعوا معاوية ويزيد، ثم بايعوا الحسين عليه السلام ونكصوا عنه وجددوا البيعة ليزيد وبايعوا ابن الزبير ثم ها هم يبايعون المختار.كانت

(١) وهي دعاوى تتردد في كل وقت يثور فيه الناس على حكامهم الفاسدين الذين يتهمونهم بأنهم من الغوغاء والرعاع وغير ذلك من النعوت التي يقصدون بها الحط من شأنهم وشأن ثوراتهم، أما الحكام المتنعمون المترفون الذين لا يسمعون الا كلمات الاطراء والمديح فهم بنظر أنفسهم طبقة منتقاه من السادة المهذبين الطيبين جديرة بأن تبقى تحكم وتستأثر بكل شيء.وان الخارج عليهم خارج على الشريعة والقانون.

بيعتهم سلعة يتداولونها ولم يكونوا حريصين على الوفاء بها الا بالقدر الذي يحرصون فيه على مصالحهم وامتيازاتهم الخاصة.

وما نحسب أن المختار لم يكن بعيد النظر او وعلى درجة متدنية من الوعي لا تتيح له تفهم موقف هؤلاء والتعامل معهم وفق ما كان يمليه الظرف الدقيق الذي كان يمر به.

**استيلاء المختار على قصر الامارة وعلى الكوفة**

استولى المختار على قصر الامارة العتيد الذي كان مقرا للحكام الأمويين في الكوفة، وبات فيه، والتف الناس، بما فيهم الأشراف، حوله وتجمعوا في المسجد وعلى باب القصر، وقد ألقى فيهم خطبة من خطبه المعروفة ذات التأثير الخاص والايقاع المعروف جاء فيها: «الحمد لله الذي وعد وليه النصر، وعدوه الخسر، وجعله فيه إلى آخر الدهر، وعدا مفعولا، وقضاء مقضيا، وقد خاب من افترى.أيها الناس: انه رفعت لنا راية، ومدت لنا غاية، فقيل لنا في الراية: أن ارفعوها ولا تضعوها، وفي الغاية: أن أجروا اليها ولا تعدوها، فسمعنا دعوة الداعي، ومقالة الواعي، فكم من ناع وناعية، لقتلى في الواعية، وبعدا لمن طغى وأدبر، وعصى وكذب وتولى.ألا فادخلوا أيها الناس فبايعوا بيعة هدى.فلا والذي جعل السماء سقفا مكفوفا، والأرض فجاجا سبلا، ما بايعتم بعد بيعة علي بن أبي طالب وآل علي أهدى منها...»[1].

**المبايعة على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلّين والدفاع عن الضعفاء**

وطلب منهم مبايعته على كتاب الله وسنة نبيه، والطلب بدماء أهل البيت، وجهاد

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٤٧.

المحلين، والدفع عن الضعفاء، وهي الأمور التي كانت تشكل اهم اهدافه منذ البداية، وكانت تبدو معقولة في مجتمع انتشر فيه الظلم والفوضى وكانت حكومة الظلم أول خارج عن الإسلام.

**لماذا التريث في تنفيذ شعاراته؟**

ورغم وضوح أهداف المختار وشعاراته الا أنه آثر التريث قبل القيام بتنفيذها وخصوصا ذلك الشعار المتعلق بجهاد المحلين والطلب بدماء أهل البيت وذلك لكثرة من شارك بتلك المجزرة المروعة والقوة الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها واحتمال تكاتفهم وقيامهم بوجهه إذا ما شعروا بخطر حقيقي، وهو ما فعلوه بعد ذلك فعلا، كما سنذكر ذلك بعون الله.

وهكذا..«أقبل المختار يمني الناس ويستجر مودتهم ومودة الأشراف ويحسن السيرة جهده...»[1].

**العدل وحسن السيرة**

وقد سمح المختار لابن مطيع بالخروج من الكوفة سالما واستولى على بيت مال الكوفة وفيه تسعة ملايين فوزعها على أصحابه الذين قاتلوا معه وهم حوالي عشرة آلاف رجل، «واستقبل الناس بخير ومناهم العدل وحسن السيرة وأدنى الأشراف فكانوا جلساءه وحداثه...»[2].

ولم يذكر لنا أحد أسماء الأشراف الذين قربهم المختار، وفي أغلب الظن أنه لم يقرب أحداً ممن شارك بدم الحسين عليه السلام سوى عمر بن سعد، ولعله أراد بذلك طمأنة من قد

---

(١) الطبري: ج٣ص ٤٤٧.

(٢) الطبري: ج٣ص ٤٤٨.

يفلت من العقاب إذا ما حاسب أحد رؤوس الجريمة عمر، وأرادهم أن يبقوا في الكوفة لحين استتباب الأمور لصالحه.وكان في كل وقت من أوقات حكمه القصير في الكوفة وبعد ذلك يؤكد على عزمه على الأخذ بثأر الحسين وأصحابه عليهم السلام، غير أنه لم يحدد وقتا لذلك...وقد أثار تأخره عن الحاق العقوبة بالمجرمين وتقريب الأشراف غيظ بعض أصحابه، فشكوا الأمر لصاحب شرطته عبدالله بن كامل الشاكري وكيسان ابي عمرة مولى عُرينة، ولم يفت أمرهم المختار فأسر لأبي عمرة أن يطمئنهم ثم قرأ قوله تعالى، ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾[1] مما جعلهم ينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذي يلقى فيه المجرمون جزاءهم.

**دولة جديدة تنافس الدولتين الزبيرية والمروانية**

وبعث المختار من قبله قادة وعمالا على أرمينية وأذربيجان والموصل والمدائن وأرض جوخى وبهقباذ الأعلى وبهقباذ الأوسط وبهقباذ الأسفل وحلوان وأقبل يجلس للناس ويقضي بين الخصمين الا أن مشاغله حالت دون ذلك فيما بعد، فعين قضاة من قبله.وقد سبب بعض أصحابه بعض المشاكل التي من شأنها أن تعمل على اثارة الخلافات والفرقة فيما بينهم الا أنه عالجها بحكمة وكياسة وقضى على تلك المشاكل منذ البداية، ومنها المشكلة التي أثارها الشاعر عبدالله بن همام الذي كان عثمانيا ثم مال إلى صف المختار ومدحه بعد أن رأى أن الرياح تسير لصالحه.

**اشراف الكوفة: نهج الخيانة**

قرر (أشراف) الكوفة ممن كانوا قد شايعوا ابن زياد من قبل، أن يثبوا بالمختار بعد أن حسبوا أن أمره قد ضعف، الا أن الدائرة دارت عليهم ووثب بهم المختار فقتل من

(١) السجدة: ٢٢.

قدر عليهم منهم، وهرب بعضهم ملتحقين بابن الزبير.

وقد أضافوا لجرائمهم السابقة جريمة الغدر الجديدة التي لم يوفقوا بها وأعطت للمختار مبررا حقيقياً لاستئصالهم والقضاء عليهم عندما بدؤوا هم الحرب وأسفروا عن نواياهم الشريرة ضده.

كان المختار خبيرا بطبيعة المجتمع الذي يعيش فيه ويتعامل معه، فالأشراف كانوا يجرون لاهثين وراء مصالحهم وامتيازاتهم ولا يهمهم من يكون حاكما عليهم مادام يدفع لهم ويضمن لهم تلك المصالح والامتيازات وان كانت على حساب الآخرين.

وقد ظهرت مقابل تلك الطبقة المترفة المتنفذة الحريصة على مصالحها وحياتها طبقة أخرى من المسلمين المسحوقين الذين أصبح حرمانهم من الحياة الكريمة أمرا واقعا وقانونا عاما غير مكتوب، فلم يمنع كون هؤلاء مسلمين، تحرروا أو تحرر آباؤهم من عبوديات سابقة، أن يتعرضوا للأذى والاضطهاد على يد نظام أخذ يتبنى العروبة تبنيا عنصريا حتى جعلها فوق الإسلام، لأنه وجد فيها ما يضمن بقاءه واستمراره، فليس فيه من الإسلام ما يضمن بقاءه على نهج الإسلام.غير أن شعارات الولاء للعروبة و(أمجادها ومفاخرها وعزها) وقد نهضت وعزت في ظل الإسلام وتغلبت على غيرها على هذا الأساس، أخذت ترتفع على أساس جاهلية جديرة برأس النظام معاوية ومن جاء بعده، حتى انه فكر في وقت ما باستئصال وقتل نصف المسلمين من غير العرب وتسخير الآخرين للخدمات الدنيا، لكي يقوي نفوذ دولته (العربية) ويستقطب حول عرشه كل أولئك الذين كانوا يجدون في الإسلام حاجزا دون طموحاتهم ومصالحهم غير المشروعة.

وقد وجد هؤلاء دائما المبررات التي يحاربون بها المسلمين من غير العرب

ويضطهدونهم وهيؤوا الاتهامات الكاذبة ضدهم وهو ما أوجد ثغرة كبيرة ظلت باقية إلى الآن بين المسلمين العرب وغيرهم وسببت انشقاقا غير مبرر بينهم، وهو مسعى خبيث لعب دوره في شق وحدة المسلمين وصفوفهم على امتداد التاريخ.

ولسنا بصدد بحث تاريخي حول هذا الموضوع، مع ان دولا مستحدثة تدعي أن دستورها اسلامي لا زالت ترفع الشعارات الأموية العروبية وتصم غيرها من دول الإسلام وشعوبه بصفات تبدو فيها وكأنها بعيدة عن الإسلام وانها لا زالت على دياناتها القديمة التي انقرضت وبادت(١).

**اوامر مروان لابن زياد: افعل بالكوفة ما فعله مسرف بالمدينة أباحها ثلاثة أيام**

وقد حاول أعداء المختار، من فلول الأشراف الموالين للأمويين، أن يلموا شمل أتباعهم برفع الشعارات المضللة الكاذبة ضد أعدائهم في سعي محموم للم الشمل هذا وتحشيد أكبر قوة مستطاعة لشن هجوم شامل عليهم.

وبدأ الأمر عندما أصدر مروان أوامره لابن زياد، عندما أرسله لحرب الكوفة، أن ينهبها إذا هو ظفر بأهلها ثلاثا ويعيد ما سبق أن فعله يزيد بأهل المدينة في واقعة الحرة المشؤومة، وجعل له ما غلب عليه.

وفي طريقه إلى الكوفة انشغل ابن زياد بأرض الجزيرة بحرب قيس عيلان التي

---

(١) وفي مقدمة هذه (الدول) النظام البعثي في العراق الذي لم يقم على أي أساس إسلامي وجاء يحارب الإسلام على أسس متطورة زوده بها أعداء الإسلام، فقد حاول ان يصم المسلمين ممن يعيشون في الجمهورية الإسلامية الايرانية بأنهم من (الفرس المجوس) وهي كذبة يدل عليها انقراض المجوسية عند مجيء الإسلام، غير ان هذا الاتهام يبدو سلعة ذات فائدة كبيرة عند غياب الوعي والفهم الصحيح للإسلام، وهو ما سعى له البعثيون اذ عملوا على ابعاد الاسلام عن الحياة تماما وعاقبوا كل من يتمسك به عن وعي.

كانت على طاعة ابن الزبير وقد أصابهم مروان يوم مرج راهط وقتل منهم أعدادا كبيرة، وظل ابن زياد محتبسا بأرض الجزيرة مشتغلا بقيس عن العراق نحوا من سنة، ثم أقبل بعد ذلك إلى الموصل، وفيها عبدالرحمن بن سعيد بن قيس عاملا للمختار عليها والذي انحاز إلى تكريت بعد أن أوضح طبيعة الموقف للمختار...وقد حبذ المختار موقف عامله هذا وأمره بالبقاء في تكريت ريثما تصله أوامر لا حقة منه.

**المختار يقرر مواجهة الجيش الأموي بقيادة ابن زياد**

كان المختار قد قرر مواجهة ابن زياد رغم علمه بتفوقه الكبير عليه...وإذا ما درس امرؤ الأمر دراسة ميدانية فانه سيدرك أن المختار كان يجازف مجازفة كبيرة بذلك، غير أن المختار لم يكن يسير وفق الحسابات العادية، وكان يرى أنه منتصر على ابن زياد لا محالة، وكان يرى أن المواجهة الحاسمة بينه وبين أعدائه لابد أن تتم، سواء كانت في الموصل أو في الكوفة، فهؤلاء الأعداء لن يدعوه يحقق أهدافه بمثل السهولة والسرعة اللتين كان يحققهما فيهما قبل ذلك.

وربما كانت دلائل حاله تشير إلى علمه ببعض الوقائع، وهو علم ربما وصل اليه من مصادر موثوقة على صلة وثيقة بآل البيت عليهم السلام الذين تلقوا علومهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله. فيقينه بالنصر على أعدائه من قتلة الحسين وأصحابه عليهم السلام كان يبدو واضحا في كل مرحلة من المراحل التي كان يخوض فيها حربه ضدهم.

**إنَّا المؤمنون الميامين، الغالبون المساليم**

وقد استدعى أحد قواده يزيد بن أنس بعد أن وصله كتاب عامله على الموصل وقال له: «يا يزيد بن أنس إن العالم ليس كالجاهل وإن الحق ليس كالباطل وإني أخبرك خبر من لم يكذب ولم يكذَّب ولم يخالف ولم يرتب وإنا المؤمنون الميامين

الغالبون المساليم وإنك صاحب الخيل التي تجر جعابها وتضفر أذنابها حتى توردها منابت الزيتون غائرة عيونها لاحقة بطونها اخرج إلى الموصل حتى تنزل أدانيها فإني ممدك بالرجال بعد الرجال...»[١].

وقد خرج هذا بعد أن انتخب ثلاثة آلاف فارس من تميم وهمدان ومذحج وأسد وربيعة وكندة وغيرها من قبائل العرب المعروفة اضافة لبعض سكان الكوفة الآخرين الذين قد يكونون من غير العرب، وهذا أمر يفند ادعاءات من زعم أن المختار كان يحارب بالموالي فقط وان الذين التحقوا به من العرب كانوا قلة قليلة، وسار بعزيمة ثابتة لملاقاة عدوه في الموصل، وقد تمنى قبيل مسيره ذاك أن يكتب الله له الشهادة إذا ما فاته النصر.

ولم يفت ابن زياد أمر القوة التي أرسلها المختار لقتاله، فبعث اليها ضعف عددها غير أن أصحاب يزيد بن أنس قد تغلبوا على أعدائهم رغم مرض قائدهم الذي اشفى به على الموت...وقد كان يحمل على سرير لغلبة آلام الموت عليه.

وقد ألقى في أصحابه خطبة حماسية قصيرة مؤثرة وأمرهم أن يقدموا سريره امامهم...وانتهت المعركة قبل أن يرتفع الضحى بهزيمة أصحاب ابن زياد هزيمة منكرة تاركين قتلاهم وجرحاهم وعسكرهم.

وكان مصير المدد الذي بعث به ابن زياد مشابها لمصير القوة الأولى التي أرسلها في اليوم السابق.

**الاعلام الأموي: دور تحريضي لتفرقة الناس**

وهنا يبدو أن الاعلام الأموي قد عاد إلى دوره التحريضي المضلل حيث كان قائد

(١) الطبري: ج٣ص٤٥١-٤٥٢.

الحملة الأولى - ربيعة بن المخارق - الذي أرسله ابن زياد لقتال يزيد بن أنس يحث جند الشام على مواجهة (أعداء) من العبيد الاباق المتمردين الذين تركوا الإسلام ولا يحسنون النطق بالعربية.

كان أهل الكوفة بنظر أهل الشام عبيدا متمردين من غير العرب كما حاول هذا القائد أن يصفهم، والا فما عسى أن يقول فيهم بعد أن استهلكت الأكاذيب الأموية بشأنهم.

أراد هذا الاعلام في هذه المرحلة من حكم الأمويين المتذبذب الضعيف وهو يتقاسم النفوذ مع ابن الزبير وهما يواجهان سوية المختار الذي تنمو قوته بشكل متسارع مخيف، أن يبين لأهل الشام (أهل السمع والطاعة)، على حد تعبير أحد قادة ابن زياد - أن من يواجهونهم الآن هم ليسوا العرب من أبناء الجزيرة العربية وما حولها، وانهم ليسوا حتى مسلمين أصلا.

**الاعلام الأموي: ثورة العبيد، «انكم انما تقاتلون العبيد الاباق وقوماً قد تركوا الإسلام»**

وقد خاطب أحد قادة ابن زياد جنوده وهو يعدهم لمنازلة جيش المختار بقوله: «يا أهل الشام، انكم انما تقاتلون العبيد الاباق، وقوما قد تركوا الإسلام وخرجوا منه، ليست لهم تقية ولا ينطقون بالعربية»[1].

ويبدو أن مثل هذه الأكاذيب كانت تنطلي على أهل الشام، وقد قال أحد أفراد الجيش الشامي تعقيبا على افتراءات قائده هذا: «فو الله ان كنت لأحسب أن ذلك كذلك حتى قاتلناهم. فوالله ما هو الا أن اقتتل الناس إذا رجل من أهل العراق يعترض الناس بسيفه وهو يقول:

برئت من دين المحكمينا و ذاك فينا شر دين دينا»[2].

ومن الطريف أن نذكر أن أهل الشام تناسوا أصل ابن زياد وعدم انتمائه للعرب وانه نفسه لم يكن ينطق العربية نطقا سليما – وقد سبق لنا الحديث عن ذلك عند تناول سيرته – وصدقوا افتراءات معاوية وادعاءاته بشأن انتساب زياد لأبي سفيان بعد أن حملت به أمه سمية سفاحا منه في العهد الجاهلي، وهي قصة مخجلة يندى لها جبين كل عربي ومسلم غيور.

مني أصحاب ابن زياد بهزيمة محققة رغم كثرة عددهم، ورغم مرض يزيد بن أنس الذي أشفى به على الموت، فما أمسى حتى مات.

وكان لموته أثر محزن في نفوس أصحابه الذين بلغهم اقبال ابن زياد اليهم في ثمانين ألفا من أهل الشام، فتسلل بعضهم وتراجعوا عائدين إلى الكوفة. وقد اقترح قائدهم ورقاء بن عازب الأسدي في اجتماع عقده مع رؤوس أصحابه أن يتراجعوا من تلقاء

(١) الطبري: ج٣ص٤٥٣.
(٢) الطبري: ج٣ص٤٥٣.

أنفسهم قبل أن يلقوهم، فيكون موت قائدهم عذرا لهذا التراجع لأن في لقاء ابن زياد وجنده مخاطرة كبيرة قد تسبب قتلهم جميعا، وقد وافق الجميع على ذلك.

### جيش آخر بقيادة ابراهيم بن الأشتر

غير أن الاشاعات والأراجيف التي سبقتهم إلى الكوفة جعلت الناس يتخبطون في أمرهم وأمر قائدهم المتوفى. على أن المختار علم بتفاصيل الأمر كله عن طريق بعض عيونه فدعا ابراهيم بن الأشتر فعقد له على سبعة آلاف رجل وأمره أن يرد معه من تبقى من جيش ابن أنس ثم يسير حتى يلقى ابن زياد وجيشه فيناجزهم.

وهكذا خلت الكوفة من كتلة قوية من المقاتلين كانوا يشدون أزر المختار ويقاتلون معه، وكانت فرصة ثمينة لأعدائه من (أشراف الكوفة) الذين أيقنوا أن الدائرة ستدور عليهم بعد ذلك، فأرادوا استغلال ذلك ومناجزة المختار، ولم ينتظروا حتى يذهب ابراهيم بعيدا بل كانوا متلهفين للقضاء على المختار بأقرب فرصة ممكنة، رغم أنه كان حتى ذلك الحين يقربهم اليه ويدنيهم من مجلسه، كما ذكرنا.

### اشراف الكوفة : شيمتهم الغدر

وأجمع رأي أشراف الكوفة على قتال المختار وأخذوا يحرضون الناس على ذلك، وقد تزعم تلك الحملة شبث بن ربعي وشمر بن ذي الجوشن ومحمد بن الأشعث وعبدالرحمن بن سعيد بن قيس وحجار بن أبجر وزحر بن قيس ويزيد بن الحارث وعمرو بن الحجاج الزبيدي واستمالوا اليهم بعض الأشراف الآخرين، وكانت حجتهم أنه - أي المختار «تأمرَّ علينا بغير رضا منا، وزعم أن ابن الحنفية بعثه الينا، وقد علمنا أن ابن الحنفية لم يفعل، وأطعم موالينا فيئنا، وأخذ عبيدنا، فحرب بهم يتامانا وأراملنا،

وأظهر هو وسبئيته البراءة من أسلافنا الصالحين...»[١].

وقد حاول عبدالرحمن بن مخنف أن يثنيهم عن قرارهم ذاك الا أنهم أبوا الا الغدر بالمختار بعد أن بايعوه وأعلنوا طاعتهم له.

كانت مسألة مساواة الموالي لهم بالفيء تشكل أكبر همومهم، فقد كان التصور الجاهلي الذي جعلهم يعتقدون أن جميع الناس دونهم وأنهم يتفوقون على الكل حتى في ظل الإسلام وأحكامه وقيمه، لا يزال يتحكم في عقولهم، وقد أرساه فيها معاوية مرة أخرى مستندا إلى تصرفات سابقة من خلفاء سابقين[٢]، فتمادى في التفرقة بين العرب وغيرهم إلى حد جعل من تلك التفرقة أمرا مقدسا وسنة واجبة.وهو أمر لم تكن دوافعه تخفى على متتبعي حياة معاوية ودارسي آثاره وسيرته.

وقد أرسلوا شبث بن ربعي لمفاوضة المختار حول هذه المسألة وغيرها، فذهب ولقيه وذكر له كل ما أنكره أصحابه وخصوصا مسألة مشاركة الموالي لهم بالفيء، وكان المختار في غاية الذكاء عندما أجاب شيئاً، الذي كان يتمتع بمنزلة كبيرة بين اشراف الكوفة: (ان أنا تركت لكم مواليكم، وجعلت فيئكم فيكم، أتقاتلون معي بني أمية وابن الزبير، وتعطون على الوفاء بذلك عهد الله وميثاقه وما اطمئن اليه من الايمان؟

فقال شبث: ما أدري حتى أخرج إلى أصحابي فأذاكرهم ذلك.فخرج فلم يرجع إلى المختار.

وأجمع رأي أشراف أهل الكوفة على قتال المختار»[٣].

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٥٥.

(٢) أول من فرق في العطاء عمر بن الخطاب..«ففضل السابقين على غيرهم، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضل العرب على العجم، وفضل الصريح على المولى...» شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد: ج٨ص ١١١.

(٣) الطبري: ج٣ص٤٥٤.

**خرج ابراهيم فخرجوا على المختار**

وقد بيتوا الغدر به بمجرد أن وصل ابراهيم بن الأشتر ساباط ووثبوا به واتخذوا لهم مراكز في أهم مواقع الكوفة وجباناتها. وبذلك أضافوا جريمة جديدة إلى جرائمهم السابقة.وكانت نتيجة غدرهم وبالا عليهم.وكانت اجراءات المختار في ذلك الموقف الصعب الذي اصطف فيه أعداؤه لمقاتلته تتسم بالدقة والمهارة، فقد أرسل من يومه من يعلم ابن الأشتر بطبيعة الموقف ويطلب منه الرجوع اليه بمن معه حال وصول رسوله اليه، كما طلب من أعدائه (أشراف الكوفة) ارسال وفد من قبلهم ليقوم بمفاوضة وفد يبعثه هو ليقدموا مطاليبهم، كما أمر أصحابه بعدم التعرض لهم إذا ما بدؤوا هجومهم، وكان يريد بذلك كسب الوقت لحين رجوع ابراهيم مع قواته مع أنه كان يتعرض لمضايقات شديدة.

**كسب الوقت بالتفاوض**

وكان المختار مصيبا بخطته تلك اذ كسب الوقت الثمين الذي كان يريده والذي كشف عن طبيعة أعدائه المتلونة وخلافهم وسعيهم لمكاسب تافهة ولو على حساب بعضهم البعض، كما كان ذلك الوقت كافيا لعودة ابن الأشتر بقواته اليه مما جعل كفة الحرب بينه وبين أعدائه تميل لصالحه، ووضع خطة حربية ناجحة وقاتلهم قتالا عنيفا رغم قلة عدد أصحابه وتفوق أعدائه بالعدد عليهم كثيرا..وقد شدد من عزائمهم ترديد شعارهم المعروف «يا لثارات الحسين».

**((يا لثارات عثمان)) جعلت بعض معارضي المختار ينسحبون عن القتال**

ومن الطريف أن نذكر هنا أن شعارا مقابلا لم يكن من المتوقع أن يرتفع في ذلك الوقت وفي الكوفة نفسها وهو «يا لثارات عثمان»، صاح به رجل من أعداء المختار، قد جعل بعض الناس ينسحبون من مقاتلة المختار وكان من هؤلاء رفاعة بن شداد الذي

قال: «ما لنا ولعثمان، لا أقاتل مع قوم يبغون دم عثمان، فقال له أناس من قومه: جئت بنا وأطعناك، حتى إذا رأينا قومنا تأخذهم السيوف، قلت: انصرفوا ودعوهم. فعطف عليهم وهو يقول:

أنا ابن شداد على دين علي ... لست لعثمان بن أروى بولي

لأصلين اليوم فيمن يصطلي ... بحر نار الحرب غير مؤتل»

فقاتل حتى قتل...»[١].

**مطاردة قتلة الحسين**

وعندما استعرض المختار الأسرى بعد أن تغلب على أعدائه أمر بقتل من شارك بقتل الحسين عليه السلام منهم، ثم أمر مناديه فنادى: «من أغلق بابه فهو آمن، الا رجلا شرك في دم آل محمد صلى الله عليه وآله...»[٢].

وبدأت حملة مطاردة قتلة الحسين وأصحابه. وقد هرب العديد من قادتهم للالتحاق بابن الزبير، منهم يزيد بن الحارث وحجار بن أبجر وعمرو بن الحجاج الزبيدي الذي لم يعرف مصيره بعد ذلك.

**قصة مقتل شمر**

وكانت قصة مقتل شمر- أشهر مجرمي واقعة الطف- مثيرة حقا، فقد بدا وكأنه هو الذي كان يسعى إلى حتفه بعد هزيمة الأشراف وهربه مع بعض أصحابه من الكوفة.

فقد روي أن المختار بعث غلامه للبحث عن شمر، وقد استدرج شمر هذا الغلام بعد أن استطرد له وجعل نفسه يبدو كالهارب منه، ثم قتله عندما خلا به، وقد جعله

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٥٨ - ٤٥٩.

(٢) الطبري: ج٣ص٤٥٨ - ٤٥٩.

ذلك لا يمعن في الهرب بعيدا ويغتر بقوته، فنزل في قرية من الكوفة يقال لها الكلتانية على شاطئ نهر إلى جانب تل، فأخذ أحد سكانها من غير العرب فضربه وأمره أن يسلم كتابا كتبه إلى مصعب بن الزبير، وعليه عنوانه واضح (للأمير مصعب بن الزبير من شمر بن ذي الجوشن)، وقد أخذ الرجل الكتاب مرغما فمر بقرية أخرى فيها أحد أصحابه، فأقبل يشكو اليه ما لقيه من شمر والكتاب بيده واسم شمر عليه واضح.

كانت تلك القرية مسلحة فيما بين المختار وأهل البصرة، وكان أبوعمرة أحد أشهر أصحاب المختار وأشدهم مطالبة بدم الحسين عليه السلام هو القائم على شؤون المقاتلين في تلك القرية، وقد رأى أحد أصحابه الكتاب مع الرجل وعنوانه (لمصعب من شمر) فأخبر أباعمرة وسألوا الرجل عن مكان شمر فأخبرهم، ولم يكن يبعد عنهم كثيرا، فذهبوا لمحاصرته.

وقد حذر شمرا أحد أصحابه من البقاء في تلك القرية وطلب منه الانتقال منها، الا أن شمراً ربما حسب أن المختار سيبعث اليه أحد غلمانه ليقتله كما قتل صاحبه وقد رفض اقتراح صاحبه وأقسم أن لا يتحول عن المكان الذي فيه ثلاثة أيام، فلم يشعر الا وقد أحيط به وقد أعجلوه أن يلبس سلاحه وثيابه، وقد قاتلوه بعد أن خرج اليهم وطاعنهم برمحه ثم أخذ سيفه وقاتلهم، بعد لحظات ارتفعت صيحات مكبرة: الله أكبر، قتل الله الخبيث[1].

مضى شمر دون أن يحقق غاية معينة في حياته، وكان أكبر همه أن يكون مقربا من السلطة الحاكمة ولا يهم أن يكون رأسها يزيد أو ابن الزبير، فهاجس التقرب ممن قد يمنحه الجاه والمال هو الهدف الرئيسي في حياته.

---

(١)الطبري: ج٣ص٤٥٩ - ٤٦٠ ، والبحار: ج٤٥ ص ٣٧٣ - ٣٧٤، والكامل في التاريخ: ج٤ص٤٣ - ٤٤.

**اقاصيص وحكايات - سراقة بن مرداس**

ومن بين ركام الأحداث والوقائع التي دارت بين المختار وأعدائه، طلع علينا أولئك الأعداء بقصة افْتُعِل قسم منها لكي يدللوا على (كذب) المختار وبطلان (ادعاءاته) بخصوص (الوحي والملائكة)، وهي قصة تدلل على بطلان راويها وكذبه هو، ولعله افتعل ما افتعل منها ليتنصل مما فعله في بداياتها، وهو أمر لابد أن يؤاخذه عليه أعداء المختار لو لم يقم بذلك.

وملخص القصة أن المختار أخذ بعد انتصاره على أشراف الكوفة وأعوانهم في الكوفة سراقة بن مرداس أسيرا إلى القصر بعد أن أسمعه هذا أبياتا يشيد فيها به[1]. وحبسه ليلة، ثم أخرجه من الغد.فأقبل اليه وجعل ينشد:

ألا أبلغ أبااسحاق أنا ... نزونا نزوة كانت علينا
خرجنا لا نرى الضعفاء شيئا ... و كان خروجنا بطرا وحينا
نراهم في مصافهم قليلا ... و هم مثل الدبي حين التقينا
برزنا إذا رأيناهم فلما ... رأينا القوم قد برزوا الينا
لقينا منهم ضربا طلحفا ... و طعنا صائبا حتى انثنينا
نصرت على عدوك كل يوم ... بكل كتيبة تنعى حسينا
كنصر محمد في يوم بدر ... و يوم الشعب اذ لاقى حنينا
فأسجح اذ ملكت فلو ملكنا ... لجرنا في الحكومة واعتدينا

---

(١) وهي:

امنن علي اليوم يا خير معد ... وخير من حل بشحر والجند
وخير من حيا ولبى وسجد

الطبري: ج٣ ص٤٦٠.

تقبل توبة مني فإني سأشكر ان جعلت النقد دينا»[١].

والقصة تبدو - إلى هنا - عادية لا لبس فيها.فهذا الشاعر كان في صف أعداء المختار وقتلة الحسين.وقد وصف خروجهم على المختار بأنه نزوة وبطر وحَين مستهينين بالضعفاء من الناس الذين كان يقودهم.

وعندما أصبحت الكفة إلى جانب المختار وتغلب على أعدائه، أخذ هذا الشاعر يمدحه ويصف نصره على عدوه كنصر الرسول صلى الله عليه وآله على عدوه يوم بدر وحنين، وهي صورة شعرية تتكرر دائما على ألسنة الشعراء، وقد وعد هذا الشاعر بالتوبة والكف عن نصرة أعداء المختار، ثم أخلى المختار سبيله وأتاح له فرصة الذهاب حيث أحب «..فلحق بعبد الرحمن بن مخنف عند مصعب بن الزبير بالبصرة»[٢] حيث التحق هناك كل الفارين من أشراف الكوفة ووجهائها.

ولابد أن أبيات سراقة قد فشت بين الهاربين، ولابد أنه كان سيعاقب عليها ولن يتيحوا له فرصة الانضمام اليهم، لو لا أنه زاد في قصته فصلا كاذبا.

وهنا يقول راوية آخر لهذه القصة، ان سراقة لما انتهى إلى المختار قال له: «...سراقة ابن مرداس يحلف بالله الذي لا اله الا هو لقد رأى الملائكة تقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض.

فقال له المختار: فاصعد المنبر فأعلم ذلك المسلمين، فصعد فأخبرهم ثم نزل.فخلا به المختار، فقال، اني قد علمت أنك لم تر الملائكة، وانما أردت ما قد عرفت الا أقتلك، فاذهب عني حيث أحببت، لا تفسد عليَّ أصحابي»[٣].

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٦٠ - ٤٦١.
(٢) الطبري: ج٣ص٤٦١.
(٣) الطبري: ج٣ص٤٦١.

**هل رأى ابن مرداس ما لم يره الصحابة في بدر..وهل يصدق أهل الكوفة ذلك؟**

أي مجتمع هذا يصدق ما سيدعيه ابن مرداس.فالملائكة قاتلت مع الرسولﷺ في بدر، ثم جعل الله النصر رهينا بمجهود المسلمين وسيوفهم وحدها بعد ذلك، ولم يدع أحد -مهما سما مقامه وكان مقربا من الرسولﷺ- بأن الملائكة كانت تقاتل في غير بدر فكيف يجرؤ المختار على الادعاء - في مجتمع واع ناقد -بأن الملائكة قاتلت معهم؟

لابد أنه أراد أن يرى الناس من هم أعداؤه، وكيف يكذبون وينافقون لمجرد تخليص أنفسهم من الموت.

يشهد بذلك ابن مرداس الكاذب نفسه الذي ارادوا أن يجعلوه أداة للطعن في المختار.يقول ابن مرداس: «ما كنت في ايمان حلفت بها قط، أشد اجتهادا ولا مبالغة في الكذب مني في أيماني هذه التي حلفت لهم بها أني قد رأيت الملائكة معهم تقاتل»[1].

من الذي أجبره على تلك الايمان التي حلف لهم بها غير جبنه وفراره من الموت؟ ومع ذلك فان هذا الكاذب المتعمد يدعي بأنه عندما أسر على يد أصحاب المختار قال لهم: «و أنتم أسرتموني اما أَسَرَني إلا قوم على دواب بلق عليهم ثياب بيض، فقال المختار: أولئك الملائكة، فأطلقه»[2] بهذه البساطة، وبشهادة هذا الكاذب، يصدق أهل الكوفة بأن الملائكة كانوا يقاتلون معهم وتنطلي عليهم كذبة ابن مرداس؟

**روايات واهية**

ولو تتبعنا مصدر هذه الرواية، أبا السائب، سلم بن جنادة، محمد بن براد من ولد أبي موسى الأشعري، شيخ (غير معروف الهوية) لأدركنا كيف أنها رواية واهية لا يصح

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٦١.

(٢) الطبري: ج٣ص٤٦١.

الاستناد عليها ورواياتها، اللهم الا لمجرد جمع كل ما قيل بحق المختار، ثم تترك حرية التقويم والنقد للقارئ المتتبع الواعي. وهكذا ذيلوا تلك القصة الغريبة ببيتين من الشعر نسبوهما لسراقة للتدليل على عدم شرعية دعاوى المختار، كما هو حالهم مع كل من التزم خط آل البيت عليهم السلام بل مع آل البيت عليهم السلام أنفسهم، فقالوا ان سراقة قال بعد فراره والتحاقه بمصعب وأشراف أهل الكوفة الهاربين.

«ألا أبلغ أبا اسحاق أني رأيت البلق دهما مصمتات
أُري عيني ما لم ترأياه كلانا عالم بالترهات»[1].

وبهذين البيتين (دللوا) على قوة الحبك والنسج في هذه الرواية التي أضافوها إلى تلفيقاتهم الشائنة بحقه.

## وقعة جبانة السبيع

كانت وقعة جبانة السبيع التي حدثت في ذي الحجة سنة ست وستين معركة فاصلة بذل فيها أشراف الكوفة الخائنون كل جهدهم للقضاء على المختار رغم أنهم بايعوه وأعلنوا موالاتهم له. الا أنهم سرعان ما غدروا به بعد أن حسبوا أن بامكانهم القضاء عليه، فلم يعد لهم الآن عهد ولا ذمام وأصبح الانتصاف منهم واجباً بعد فعلهم مع الامام الحسين عليه السلام في الطف ونواياهم الشريرة لموالاة أعداء أهل البيت عليهم السلام مهما كانت هوياتهم وغدرهم بمن يطالب بدم الحسين عليه السلام ووجوب الانتصاف للمظلومين والضعفاء.

وهكذا «تجرد المختار لقتلة الحسين، فقال: ما من ديننا ترك قوم قتلوا الحسين يمشون أحياء في الدنيا آمنين. بئس ناصر آل محمد أنا أذاً في الدنيا! أنا إذاً الكذاب كما

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٦١.

سموني! فإني بالله أستعين عليهم. الحمد لله الذي جعلني سيفا ضربهم به، ورمحا طعنهم به، وطالب وترهم، والقائم بحقهم، انه كان حقا على الله أن يقتل من قتلهم وأن يذل من جهل حقهم. فسموهم لي ثم اتبعوهم حتى تفنوهم.

اطلبوا لي قتلة الحسين، فانه لا يسوغ لي الطعام والشراب حتى أطهر الأرض منهم، وأنفي المصر منهم...»[١].

لقد صرح أخيرا بما لمح به من قبل أمام الآخرين وان كان لم يخف ذلك عن خواصه. وكان الظرف الدقيق الذي مر به من قبل لم يتح له تحقيق غرضه واعلان أهدافه، حتى أن بعض أعدائه اعتقدوا أنه انما كان يتاجر بشعارات لا ينوي تطبيقها ومنها شعار الثأر لآل محمد ﷺ حتى سماه بعضهم (الكذاب)، وذلك ضمن الحملة المحمومة لتشويه سمعته للأغراض التي ذكرناها من قبل...

أما الآن، وبعد أن كشف أولئك الأعداء عن نواياهم المعادية لخط آل البيت عليهم السلام ولكل من ينادي بحقهم ويعرف حقيقة مقامهم ومركزهم، وبدؤوا هم العدوان أولا، فلم يعد من سبب يدعو المختار للسكوت واخفاء نواياه التي كانت معروفة على أية حال، وبدأ حملة استئصال وقتل قتلة الحسين وأصحابه. و بدأ فصل جديد من فصول المعركة بين المختار وأعدائه، فالاصرار على الجريمة لابد أن يقابل بالاصرار على العقوبة.

**اين الحسين، محاسبة القتلة**

وكان لعبدالله بن أسيد الجهني ومالك بن النسير البدي وحمل بن مالك المحاربي دور كبير في معركة الطف حيث شاركوا بقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام وحرضوا الناس عليهم وكانوا يبدون حماسا كبيراً في واقعة الطف. كانوا قتلة مباشرين ومنفذين للجريمة،

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٦٢.

ولم يكن هناك من سبب يدعوهم لذلك، فهم من عوام الناس المغمورين، ولم يكن أحد من أقطاب الدولة وزعمائها يلتفت اليهم لو لا ما قاموا به. ولم تكن لهم امتيازات خاصة يخافون فقدانها عندما تصدى الحسين عليه السلام لدولة الظلم التي كانت تستعبدهم هم أيضا مع عموم جماهير المسلمين.

وكان اندفاعهم وتحيزهم الواضح ضد الحسين وأصحابه غير مبرر ولم يكن هناك ما يدعون اليه... فهل كانوا من آل أبي سفيان أو آل زياد أو آل مروان حتى يبدوا ذلك الاندفاع وذلك الحماس اللذين ظهروا بهما أمام الناس؟

ان ظاهرة ابن أسيد وابن النسير وابن مالك تتكرر وتظهر في ظل دول الظلم المتعاقبة إلى يومنا هذا، وفي الوقت الذي ترى فيه هذه الدول ضرورة تشجيع هذه النماذج لتحقيق أهدافها ومآربها، فإن أي رافض للظلم يرى ضرورة القضاء على هذه الفئة واستئصالها، ليس بدنياً وحسب وانما يلفت نظر المجتمع اليها وتحذير الناس منها وتوعيتهم بضرورة التزام خط الإسلام الذي يقود لدولة العدالة حتما، وحتى جزاء هؤلاء ينبغي أن يكون بمستوى الجرائم التي يرتكبونها.

بعث المختار مَنْ أخذ القتلة الثلاثة، «حتي أدخلهم عليه عشاء، فقال لهم المختار: يا أعداء الله وأعداء كتابه وأعداء رسوله وآل رسوله، أين الحسين بن علي؟ أدوا إليَّ الحسين، قتلتم من أمرتم بالصلاة عليه في الصلاة.

فقالوا: رحمك الله، بعثنا ونحن كارهون، فامنن علينا واستبقنا.

قال المختار: فهلا مننتم على الحسين ابن بنت نبيكم واستبقيتموه وسقيتموه؟

ثم قال المختار للبدي: أنت صاحب برنسه؟

فقال له عبدالله بن كامل: نعم هو هو.

فقال المختار: اقطعوا يدي هذا ورجليه، ودعوه فليضطرب حتى يموت، ففعل ذلك به وترك، فلم يزل ينزف الدم حتى مات.

وأمر بالآخرين فقدما[١].

يتكرر عذر القتلة المندفعين والسائرين بركاب حكام الجور دائما عندما تطالهم يد العدالة ويتخلى عنهم من كانوا يحمونهم.«بعثنا ونحن كارهون» «كنا مجبرين على ذلك»، غير أن الكاره والمجبر لا يندفع ذلك الاندفاع الطائش المسعور الذي اندفع به هؤلاد، وكأنهم يقتلون قتلة آبائهم أو أخوانهم أو أبنائهم أو كأنهم يدافعون عن ملكهم وسلطانهم لا عن ملك وسلطان من لا يمت اليهم بصلة ومن يقوم بقهرهم واستعبادهم.

لقد تحدثنا عن هذه الظاهرة التي تتكرر دائماً في ظل دول الظلم ولا تزال تتكرر إلى يومنا هذا[٢]، واستمعنا إلى نفس الأعذار التي يبديها جنود مغمورون مندفعون وراء شعارات الحكام وأكاذيبهم المضللة، بعد أن يقعوا في الأسر.

وتكرر الأمر مع آخرين شاركوا بقتل الحسين عليه السلام وأصحابه أو أعانوا على قتلهم

(١)الطبري: ج٣ص٤٦٢ – ٤٦٣

وقد مر بنا ما قام به مالك بن النسير البدي مع الحسين وأصحابه عليه السلام من قبل.

(٢) راجع ما كتبنا عن ذلك في هذا الكتاب، الطبري: ج٣ص٤٦٣– ٤٦٤ ، والبحار: ج٤٥ ص٣٢٢ – ٣٢٣ وقد ذكر نقلا عن أمالي الطوسي عن المنهال بن عمرو قال: «دخلت على علي ابن الحسين عند منصرفي من مكة، فقال لي: **يا منهال:ما فعل حرملة بن كاهل الأسدي؟** فقلت: تركته حياً بالكوفة، فرفع يديه جميعا فقال: **اللهم أذقه حر الحديد، اللهم أذقه حر الحديد، اللهم أذقه حر النار**».قد لقي المنهال المختار في الكوفة وكان قد أخبر بمكان حرملة فوجه من يأتي به اليه ثم أمر بمن قطع يديه ورجليه ثم أمر بالقائه في النار.وقد أخبر المنهال المختار بدعوة الامام علي بن الحسين عليه السلام على حرملة فنزل عن دابته وصلى ركعتين فأطال السجود ثم صام يومه ذاك شكراً لله عزوجل على فعله.

مثل زياد بن مالك وعمران بن خالد وعبدالرحمن بن أبي خشكارة البجلي وعبدالله بن قيس الخولاني وعبدالله وعبدالرحمن ابني صلخب وعبدالله بن وهب بن عمرو وعثمان ابن خالد بن أسيد الدهماني وبشربن سوط القابضي وخولي بن يزيد الأصبحي «و هو صاحب رأس الحسين الذي جاء به» وحرملة بن كاهل الأسدي(١) وحكيمبن الطفيل السنبسي «وكان قد أخذ سلب العباس ورماه بسهم» وعمرو بن صبيح الصيداوي وزيد بن رقاد الذي قتل عبدالله بن مسلم بن عقيل وبجدل بن سليم الكلبي، الذي سلب خاتم الحسين وقطع اصبعه؛ وغيرهم.

ولم يزل المختار يتتبع قتلة الحسين وأصحابه حتى قتل منهم أعدادا كبيرة وهدم دور من انهزموا منهم ملتحقين بمصعب بن الزبير.

**لابد من تتبع القتلة**

وكان لابد من تتبع القتلة الرئيسيين والقضاء عليهم، فلم يكن من ذكرنا من قبل سوى قتلة ثانويين أرادوا ارضاء أسيادهم والظهور أمامهم بمظهر المنحاز للدولة الحريص عليها، والقتلة الرئيسيون أمثال ابن سعد وابن زياد كانوا يحرصون على رضا سيدهم يزيد وقد حسبوا أن حياتهم بيده ومستقبلهم وسعادتهم، وكانوا يريدون ثمنا مقابل تنفيذ جريمتهم، بل كانوا أحرص الناس على نيل ذلك الثمن.

**ابن سعد: خوف دائم من المختار**

ولم تكن نوايا المختار لاستئصال قتلة الحسين وأصحابه عليهم السلام مما يخفى عن ابن سعد الخائف الذليل، والذي أخذ منذ ظهور حركة التوابين بقيادة سليمان بن صرد،

---

(١) الطبري: ج٣ص ٤٦٣.

يبيت في قصر الامارة خوفا من أن يقتل في بيته(١)، وقد سعى للحصول على الأمان من المختار الذي كان جادا بتنفيذ ما أعلنه منذ البداية وكان يبدو صادقا وحريصا على المضي إلى النهاية في ما أعلنه، وهو الأمر الذي أرعب كل من ساهم بجريمة قتل الحسين وأصحابه، ولابد أن ابن سعد، قائد جيش الجريمة - كان أكثر الجميع خوفا من المختار...وقد استغل حرص هذا الأخير على تألف الناس وجمعهم حوله، كما استغل احترامه وتقديره لعبد الله بن جعدة بن هبيرة، قريب أميرالمؤمنين عليه السلام، لأخذ ذلك الأمان الذي كتبه المختار بصيغة التأويل.

**صيغة أمان تحتمل التأويل**

وقد كان تلميح المختار الواضح إلى عزمه على قتل ابن سعد هو الذي جعله يسعى لأخذ الأمان منه..

فقد حدث المختار جلساءه ذات يوم قائلا: «لأقتلن غدا رجلا عظيم القدمين، غائر العينين، مشرف الحاجبين، يسر مقتله المؤمنين والملائكة المقربين»(٢) وهي اشارة واضحة لابن سعد، ما كانت تخفى عن جلسائه، الذين سارع أحدهم باخبار ابن سعد حول نيته الواضحة تلك.

وهكذا سارع ابن سعد للاحتماء بعبدالله بن جعدة بن هبيرة وحثه على أخذ الأمان له من المختار الذي ما كانت لتفوقه مساعي ابن سعد واحتمال محاولاته حماية نفسه بمثل هذا الأمان، وكان يتوقع سعيه هذا فكتب صيغة تحتمل تأويلا آخر لمعناها الظاهري اذ أنه نوى حقا الايقاع به وقتله في الوقت المناسب.

---

(١) راجع ما كتبناه عن عمر بن سعد في هذا الكتاب وفيه تفصيل واسع عنه.
(٢) الطبري: ج٣ص٤٦٤ والبحار: ج٤٥ ص٣٧٧ - ٣٧٨.

وكانت صيغة الأمان الذي كتبه المختار لابن سعد: «هذا أمان المختار بن أبي عبيد لعمر بن سعد بن أبي وقاص، انك آمن بأمان الله على نفسك ومالك وأهل بيتك وولدك، لا تؤاخذ بحدث كان منك قديما ما سمعت وأطعت ولزمت رحلك وأهلك ومصرك.

فمن لقي عمر بن سعد من شرطة الله شيعة آل محمد ومن غيرهم من الناس فلا يعرض له الا بخير.

وجعل المختار على نفسه عهد الله وميثاقه ليفينَّ لعمر بن سعد بما أعطاه من الأمان. الا أن يحدث حدثا..»(١).

وقد ورد قول مهم نسب للامام محمد بن علي عليه السلام يشير إلى قصد المختار بقوله: «**الا أن يحدث حدثا، فانه كان يريد به إذا دخل الخلاء فأحدث**»(٢).

ولا نعتقد، من اطلاعنا على سيرة المختار، أنه كان يقصد بالحدث، الخروج عليه، بل نرجح هذا الأمر الثاني، لأنه كان منذ بداية أمره يكنُّ كرها شديدا لقتلة الحسين عليه السلام ويرى قتالهم والقضاء عليهم كما رأينا بوضوح عند استعراض حركته، ولعل توريته بـ(الحدث) الدخول إلى بيت الخلاء، يؤكد استهانته بشخصية ابن سعد المهزوزة، وعدم اكتراثه به، وقد تركه إلى النهاية، لاعتقاده أنه لن يجرؤ على الهرب، وسيقنع نفسه بصيغة الأمان التي تحتمل التأويل(٣).

(١) الطبري: ج٣ص٣٦٤، والبحار: ج٤٥ ص ٣٧٨.
(٢)الطبري: ج٣ص٣٦٤، والبحار: ج٤٥ ص ٣٧٨.
(٣) وقد ورد خبر آخر، مفاده: ان الذي جعل المختار يقدم على قتل ابن سعد، ان أحد أهل الكوفة التقوا بمحمد بن الحنفية، «فجرى الحديث، إلى أن تذكروا المختار وخروجه، وما يدعو اليه من الطلب بدماء أهل البيت.فقال محمد بن الحنفية: على أهون رسله، يزعم أنه لنا شيعة، وقتلة الحسين جلساؤه على الكراسي يحدثونه...» الطبري: ج٣ص٤٦٥.وقد أخبر الرجل المختار بذلك، فعمد إلى قتل عمر بن سعد وابنه، وبعث برأسيهما إلى ابن الحنفية، وكتب اليه رسالة ورد فيها: «فان الله

**هروب ابن سعد ورجوعه إلى الكوفة «..ان في عنقه سلسلة ستردّه»**

حاول ابن سعد الهرب، وخرج من داره، ثم عاد اليها، وبخروجه عن (رحله وأهله) كما ورد بوثيقة الأمان، خرق ظاهريا بنود الأمان الذي حصل عليه من المختار.

وتفصيل الأمر: ان أحد جلساء المختار، بعث ابنه لابن سعد، محذرا اياه من عزم المختار على قتله.وعندما علم بذلك «...خرج من تحت ليلته حتى أتى حمامه، ثم قال في نفسه: انزل داري.فرجع، فعبر الروحاء، ثم أتى داره غدوة، وقد أتى حمامه.

فأخبر مولى له بما كان من أمانه وبما أريد به.فقال له مولاه: وأي حدث أعظم مما صنعت؟ انك تركت رحلك وأهلك وأقبلت إلى هاهنا.ارجع إلى رحلك، لا تجعلن للرجل عليك سبيلا.فرجع إلى منزله.

وأتي المختار بانطلاقه، فقال: كلا، ان في عنقه سلسلة ستردّه.ولو جهد أن ينطلق ما استطاع...

وأصبح المختار فبعث اليه أباعمرة، وأمره أن يأتيه به.فجاءه حتى دخل عليه، فقال: أجب الأمير.فقام عمر، فعثر في جبة له، ويضربه أبوعمرة بسيفه، فقتله، وجاء برأسه في أسفل قبائه حتى وضعه بين يدي المختار.

فقال المختار لابنه حفص بن عمر بن سعد وهو جالس عنده: أتعرف هذا الرأس؟ فاسترجع وقال: نعم، ولا خير في العيش بعده.قال له المختار: صدقت، فانك لا تعيش

---

بعثني نقمة على أعدائكم، فهم بين قتيل وأسير، وطريد وشديد، فالحمد لله الذي قتل قاتليكم، ونصر مؤازريكم، وقد بعثت اليك برأس عمر بن سعد وابنه، وقد قتلنا من شرك في دم الحسين وأهل بيته - رحمة الله عليهم - كل من قدرنا عليه، ولن يعجز الله من بقي.ولست بمنجم عنهم حتى لا يبلغني ان على أديم الأرض منهم أديما» الطبري: ج٣ص٤٦٥.

بعده، فأمر به فقتل، وإذا رأسه مع رأس أبيه.

ثم ان المختار قال: هذا بحسين، وهذا بعلي بن حسين. ولا سواء. والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله...»[١].

وهكذا انتهت حياة ذلك العبد الذليل من عبيد دولة الظلم الأموية، وما كان لها أن تذكر أو تلفت نظر التاريخ اليها، لو أن صاحبها لم يكن له ذلك الدور المقيت في جريمة قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام وكان هو قائد الجيش الذي نفذ تلك الجريمة، وقد ضاعت أمنياته هباء بعد أن لم يف له أميره بما وعده به، كما ضاعت حياته هباء، وأمامه الآن حساب عسير عليه أن يواجهه، وأنى له الخلاص منه.

**ادعاء النبوة.. افتراء وكذب على المختار**

وبعد أن استتم للمختار القضاء على المشاركين بقتل الحسين وأصحابه في الكوفة، ووصل خبر ذلك إلى بعض أصحابه في البصرة وكان يقودهم المثنى بن مخربة العبدي، دعا المثنى إلى البيعة للمختار بالبصرة أهلها، الا أن القيادة الزبيرية في البصرة وأعوانها تصدت لهم بشدة واستمالت إلى جانبها رؤساء القبائل الذين كانوا يحسبون لكل شيء حسابه ويميلون مع الكفة التي يظنون أنها ستنتصر في النهاية، اذ لم يبد لهم المختار أنه الذي سينتصر، خصوصا وان الدولتين المتنافستين الأموية والزبيرية تحاربانه بنفس الحماس الذي تحاربان به بعضهما البعض.

وقد فشل المثنى في محاولاته واستطاع الوصول إلى الكوفة في نفر يسير من أصحابه وأخبر المختار عن محاولاته دعوة أهل البصرة اليه ونصرة بعضهم اياه دون أن يكونوا

---

(١) الطبري: ج٣ ص٤٦٥، وورد في البحار أنه قال: «و الله لا قتلن سبعين ألفا، كما قتل يحيي بن زكريا» بحار الأنوار: ج٤٥ ص٣٧٩.

قد استجابوا لتلك الدعوة.

ومن الطبيعي أن تتوقف مساعي المختار لاستمالة أهل البصرة وغيرهم اليه ليتسنى له الصمود بوجه الدولتين الزبيرية والمروانية اللتين كانتا تبذلان جهودا جبارة للقضاء عليه.

وهنا تثار حملة من الافتراءات الظالمة ضده باعتبار أنه احد مدعي النبوة، وانه قد ذكر ذلك برسالتين أرسل احداهما لمالك بن مسمع وزياد بن عمر - اللذين نصرا المثنى - وفيها يقول لهما - على حد ناقل الرواية: «...أما بعد فاسمعا وأطيعا أوتكما من الدنيا ما شئتما، وأضمن لكما الجنة..»[1]، ويدل جوابهما الذي ننقله في الهامش أن المختار لم يعرض عليهما شيئا محددا، ولعله كان يعتقد أن من ينصر قضيته التي كان يعتقد أنها قضية عادلة حقا سينال الجنة دون شك، وهنا نتساءل: ما هي الوسائل والادعاءات التي عمدت اليهما القيادتان الزبيرية والمروانية وغيرهما من القيادات غير الشرعية سوى التلويح بالدنيا ومكاسبها والآخرة التي ادعوا ضمان الجنة فيها الناس إذا ما أطاعوهم باعتبار أنهم (أُلو الأمر) الذين أمر الله باتباعهم وطاعتهم،! مستفيدين بذلك من الأحاديث الموضوعة على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله كذبا وزورا.

ولو كان المختار قد نجح حتى النهاية واستولى على السلطة في كافة أرجاء الوطن الإسلامي أو معظمه وأخضع الناس لقيادته، ألم يكن يجد العديدين ممن يطبلون ويزمرون له باعتبار أن قيادته هي القيادة الشرعية الوحيدة الجديرة بأن تسير وراءها

(١) وهي رواية وردت عن طريق رجلين من أهل البصرة لم يكونا من أصحاب المختار أو ممن يواليه أو يميل اليه وقد ورد فيها أيضا ان مالكاً قال لزياد (..يا أباالغيرة، قد أكثر لنا أبواسحق اعطاءنا الدنيا والآخرة، فقال زياد لمالك مازحا، أما أنا فلا أقاتل نسيئة، من أعطانا الدراهم قاتلنا معه)الطبري: ج٣ص٣٦٨ وهو جواب لا نستدل منه ان المختار حاول رشوتهما، كما نلمس منه الميل العام للقتال تحت راية من يدفع أكثر من غيره.

الأمة، مادام قد تغلب وأصبح وجوده أمرا واقعا..؟

وتمضي الرواية لتأكيد تخرصات المدعين حرص المختار على ادعاء النبوة برسالته التي أرسلها للأحنف والتي جاء فيها بزعمهم: «...أما بعد، فويل أم ربيعة من مضر، فان الأحنف مورد قومه سقر، حيث لا يستطيع لهم الصدد، واني لا أملك ما خط في القدر، وقد بلغني أنكم تسمونني كذابا، وقد كُذِّبَ الأنبياء من قبلي، ولست بخير من كثير منهم»[١].

وهنا ينبغي أن لا يغيب عن البال موقف بعض الشعراء المنحازين لدولتي ابن الزبير وابن مروان، وحرصهم على تسميته بـ (الدجال) اذ لم يجدوا وقد مرغ كرامتهم وكبرياءهم بالوحل غير هذه الوصمة يلصقونها به بعد أن أعياهم أمره وكاد أن يفضحهم بين جماهير المسلمين ويكشف أساليبهم الملتوية لنيل السلطة والاستحواذ على مقدرات المسلمين.

ان أبياتاً من الشعر يقولها أحد الشعراء الموالين لدولة الزبيريين أو المروانيين ليست حجة يتخذها مدعو البحث والدراسة للنيل من عدوهم المختار الذي بدا أنه كان يسعى لهدف واحد وهو الاطاحة بدولتي الظلم المذكورتين والثأر للحسين عليه السلام والتمهيد لحكومة آل محمد صلى الله عليه وآله من ولد الحسين.

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٦٨ وقد ورد نص آخر للرسالة نفسها جاء فيه «...فان الأحنف مورد قومه سقر. حيث لا يقدرون على الصدر، واني لا أملك ما خط في القدر، وقد بلغني انكم تكذبوني، وان كذبت فقد كذب رسل من قبلي، ولست أنا خيرا منهم». الطبري: ج٣ ص٤٧٩ وقد ورد ان هذه الرسالة المفتعلة قد أبرزها الأحنف بعد ان غير من قبل أحد الشعراء الكوفيين الذي ذم بقصيدته أهل البصرة وذكرهم بهزيمتهم يوم الجمل، مما أثار حفيظته وأمر بابراز تلك الرسالة المفتعلة، التي يطبل ويزمر لها من يريد النيل من المختار، ويدلنا الاختلاف في النصَّين ان الرسالة لم تكن مكتوبة وانها قد لفقت على المختار.

**المختار: لا لابن الزبير لا لآل مروان**

ان الوقائع التاريخية - حتى تلك التي وصلت الينا من مصادر خبرية مناوئة للمختار -تؤكد حقيقة واحدة مهمة وهي عدم استعداده للسير خلف قيادة ابن الزبير، ناهيك عن القيادة المروانية، رغم ما قيل عن استعداده لقبول ابن الزبير اذا ما قبل هذا بدوره أن يشركه في الحكم.

وقد تعرضنا لهذا البحث من قبل، الا أن الوقائع التي ترد هنا تؤكد تلك الحقيقة، كما تؤكد أن المختار كان يعرف استعدادات خصمه للمراوغة والخديعة فأعد للأمر عدته، بل انه أرهقه بما أعده هو من خطط وأساليب من شأنها أن تبعد أذاه وشره.

وقد رأينا معركته مع ابن مطيع وأشراف الكوفة الذين انحازوا اليه بعد أن كانوا يقفون في صف الدولة الأموية.والذين قاموا بقتل الحسين عليه السلام استجابة لأوامرها، وشهدنا المعارك الملحمية التي خاضها ضدهم بعد أن ظلوا مصرين على مواقفهم بمناوئة أهل البيت والوقوف إلى جانب دولة الظلم مهما كان شكلها واتجاهها، وكيف أنه انتصر عليهم في النهاية وهزمهم هزيمة ساحقة وألجأ ابن مطيع وبعض أشراف الكوفة إلى الهرب إلى البصرة بعد أن لم يستطيعوا الثبات بوجهه وبعد أن قتل أعدادا كبيرة منهم في معارك طاحنة جرت في ساحات الكوفة وأزقتها.

وفي هذا الوقت الذي صفا له فيه جو الكوفة، وهو الأمر الذي سيزعج عدويه اللدودين - ابن الزبير وابن مروان - أيما ازعاج حاول القيام بعملية من شأنها الاطاحة بابن الزبير أولاً، الا أن محاولته تلك لم تنجح بسبب مكيدة قام بها القائد الذي أرسله ابن الزبير إلى المدينة.

وتفصيل الخبر: أن ابن الزبير أرسل عمر بن عبدالرحمن بن هشام واليا من قبله على

الكوفة لمعرفة نوايا المختار الحقيقية تجاهه، وقد كان من الفطنة والعلم بشؤون المختار ما ادعاه للتشكك بأمره والخوف منه رغم الرسائل التي كان يبعث بها المختار اليه ويحاول طمأنته بها(١).وهو يحاول مخادعته وكفه عنه حتى يستجمع له الأمر، على حد تعبير الطبري.

**تكتيك في أيام الحرب**

وقد استطاع المختار منع (الوالي) الجديد من دخول الكوفة.الا أن حدثا آخر بدأ يلوح في الأفق، فقد أُخْبِرَ المختار (أن أهل الشام قد أقبلوا نحو العراق، فعرف أنه به يُبْدَأ، فخشي أن يأتيه أهل الشام من قبل المغرب، ويأتيه مصعب بن الزبير من قبل البصرة، فوادع ابن الزبير وكايده.وكان عبدالملك بن مروان قد بعث عبدالملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص إلى وادي القرى، والمختار لابن الزبير مكايد موادع.

فكتب المختار إلى ابن الزبير:

أما بعد، فقد بلغني أن عبدالملك بن مروان قد بعث اليك جيشا، فان أحببت أن أمدك بمدد أمددتك»(٢).

(١) ومن الرسائل التي كتبها اليه: (أما بعد، فقد عرفت مناصحتي اياك وجهدي على أهل عداوتك وما كنت أعطيتني إذا ما فعلت ذلك من نفسك، فلما وفيت لك وقضيت الذي كان علي، خست بي، ولم تف بما عاهدتني عليه، ورأيت مني ما قد رأيت، فان ترد مراجعتي أرجعك وأن ترد مناصحتي أنصح لك.وهو يريد بذلك كفه عنه، حتى يستجمع له الأمر...» الطبري: ج٣ص٤٧٠، والكامل في التاريخ:ج٤ص٥٠ والبلاذري: أنساب الأشراف: ج٥ص٢٤٣.

(٢)الطبري: ج٣ص٤٧١ والبلاذري: أنساب الأشراف ذ - ٢٤٦ وذكر ابن الأثير: ان المختار كتب إلى ابن الزبير: اني قد اتخذت الكوفة دارا.فإن سوغتني ذلك وأمرت لي بألف ألف درهم سرت إلى الشام فكفيتك ابن مروان، فقال ابن الزبير: إلى متى أماكر كذاب ثقيف ويماكرني ثم تمثل شعرا:

عادي الجواعر من ثمود أصله عبد ويزعم انه من يقدم

وكان ابن الزبير من أعلم الناس بنوايا المختار تجاهه، وما كانت لتفوته مناورته تلك بعد أن خبره وعلم حقيقته وحبه آل البيت عليهم السلام وسعيه الحثيث للأخذ بثأر الحسين عليه السلام الذي جعله هدفه الأول والأخير.

وقد كتب اليه قاتلا: «فإن كنت على طاعتي فلست أكره أن تبعث الجيش إلى بلادي وتبايع لي الناس قبلك فإذا أتتني بيعتك صدقت مقالتك وكففت جنودي عن بلادك وعجل علي بتسريح الجيش الذي أنت باعثه ومرهم فليسيروا إلى من بوادي القرى من جند إلى ابن مروان فليقاتلوهم والسلام»(١).

ويبدو من مضمون هذه الرسالة أن ابن الزبير كان ينوي مقاومة المختار وارسال جيش لاحتلال الكوفة، وهو مالم يكن ليفوت المختار على أية حال.

**مناورات ومناوشات**

وقد عجل المختار بارسال الجيش إلى المدينة لمخادعة ابن الزبير وايهامه أنه انما كان يستجيب لمطاليبه، غير أنه أوصى قائد الجيش المؤلف من ثلاثة آلاف أن يكتب اليه متى ما وصل هناك، ليتسنى له أن يرسل أميرا من قبله عليها وليمضي هذا القائد إلى مكة لمحاصرة ابن الزبير واجباره على الاستسلام.

وكانت مناورة بارعة لم تفت ابن الزبير أيضا، وقد سارع فبعث بدوره جيشا إلى المدينة في الفين وأمر قائده أن يستنفر الأعراب وقال له: «ان رأيت القوم في طاعتي

---

وكتب اليه: والله ولا درهم:

ولا أمتري عبد الهوان ببدرتي وإني لآتي الحتف ما دمت أسمع»

الكامل في التاريخ: ج٤ص٥٠ ونرجع إلى أن يكون المختار قد كتب النص الذي ذكره الطبري الذي عني بذكر معظم التفاصيل عن المختار وحركته.

(١) الطبري: ج٣ص٤٧١، والكامل في التاريخ: ج٤ ص٥١ مع بعض الاختلاف اليسير في النص.

قأقبل منهم، والا فكايدهم حتى تهلكهم..»[١].

وكان قائد ابن الزبير بمستوى المهمة التي بعثه بها سيده، إذ استطاع القضاء على الجيش الذي بعث به المختار بطريقة ماكرة وقتل معظمهم رغم أنه رفع راية أمان لهم. وقد آلم ذلك المختار، الا أنه تجلد، وحاول أن يعيد الكرة ويبعث جيشا آخر إلى المدينة، يؤازره في ذلك محمد بن الحنفية نفسه، اذ طلب منه أن يبعث رسلا اليها انه في طاعته وانه انما بعث الجند عن أمره[٢]..

غير أن ابن الحنفية الحذر والحريص على عدم استفزاز عدو آل البيت اللدود، ابن الزبير، الذي ما كان ليتورع عن استئصالهم وقتلهم والذي كان يضمر لهم حقدا عميقا، لم يستجب استجابة ظاهرية للمختار، مع أنه كان يتمنى أن ينشغل ابن الزبير بحروب ومشاكل تقي الناس شره وتدفع أذاه.

وقد كتب رسالة للمختار لا توحي بأنه كان يريد منعه من مواجهة ابن الزبير غير أنها تشير إلى أنه كان يريد أن يظل بمعزل من الصراعات الدائرة، وجاء في رسالته: «... وإن أحب الأمور كلها إلي ما أطيع الله فيه فأطع الله ما استطعت فيما أعلنت وأسررت واعلم أني لو أردت لوجدت الناس إلي سراعا والأعوان لي كثيرا ولكني أعتزلهم واصبر حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين»[٣].

---

(١)الطبري: ج٣ص٤٧١، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٥١.

(٢) وكتب اليه «أني كنت بعثت جندا ليحوا لك البلاد، ويدوخوا الأعداء، فلما صاروا بطيبة لعبتهم جند الملحد فخدعوهم وغروهم، فان رأيت أن أبعث إلى المدينة خيلا وجندا كثيفا، وتبعث من قبلك رسلاً يعلمونهم اني في طاعتك واني بعثت من بعثت عن امرك فافعل فإنك ستجدهم بحقك اعرف، وبكم اهل البيت أرأف منهم بآل الزبير الظلمة الملحدين» البلاذري: أنساب الأشراف: ج٥ص٢٤٧، والطبري: ج٣ ص٤٧٢، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٥٢ مع اختلافات يسيرة في النصوص.

(٣)الطبري: ج٣ ص٤٧٢، والكامل في التاريخ: ج٤ص٥٢ مع بعض الاختلافات اليسيرة في

**ابن الزبير: أساليب ومواقف أموية**

ورغم موقف محمد بن الحنفية الواضح، وعدم سعيه الظاهري لمنافسة ابن الزبير وعرقلة مشروعه لنيل السلطة، فان هذا الأخير لم يكتف بذلك وانما أراد اجباره على مبايعته، وقد «حبس محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته وسبعة عشر رجلا من وجوه أهل الكوفة بزمزم، كرهوا البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة، وهربوا إلى الحرم، وتوعدهم بالقتل والاحراق. وأعطى الله عهدا ان لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ما توعدهم به، وضرب لهم في ذلك أجلا»[1].

وربما كان موقف ابن الزبير ذاك من محمد بن الحنفية «انه خاف أن يتداعى الناس إلى الرضا به، فألح عليه وعلى أصحابه في البيعة له»[2] بعد أن استولى المختار على الكوفة وأفصح عن شعاراته وقتل من شاركوا بقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام.

وهنا، وأمام عزم ابن الزبير تنفيذ ما وعد بتنفيذه واصراره على تنفيذ عقوباته، لم يجد محمد بن الحنفية بدا من الاستنجاد بالمختار لانقاذه وأصحابه مما قد يحل بهم، وقد أرسل اليه هذه الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن علي ومن قبله ومن آل رسول الله إلى المختار ابن أبي عبيد ومن قبله من المسلمين.

أما بعد: فان عبدالله بن الزبير أخذنا وحبسنا في حجرة زمزم، وحلف بالله الذي لا اله الا هو لنبايعنه أو ليضرمنها علينا بالنار. فيا غوثاً»[3].

---

النص.

(١) الطبري: ج٣ص٤٧٣، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٥٢.

(٢) الكامل في التاريخ: ج٤ص٥٢.

(٣) اليعقوبي: ٢٦١ وذكر الطبري ان محمد بن الحنفية «وجه ثلاثة نفر من أهل الكوفة حين نام

وقد سارع المختار بارسال نجدات متتابعة لانقاذه وتخليصه من ابن الزبير، ووصل أكثر من خمسمائة فارس إلى مكة منادين: يا لثارات الحسين حتى انتهوا إلى زمزم حيث حُبِسَ محمد بن الحنفية وأصحابه، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم وقد خلصوهم وطلبوا من ابن الحنفية السماح لهم بمقاتلة ابن الزبير، الا أنه رفض ذلك قائلا: «اني لا أستحل القتال في حرم الله»[(١)] و«خرج محمد بن الحنفية ومن معه إلى شعب علي وهم يسبون ابن الزبير ويستأذنون ابن الحنفية فيه، فيأبى عليهم، فاجتمع مع محمد بن علي في الشعب أربعة آلاف رجل»[(٢)].

وبهذا ينتهي فصل مهم من أحداث تاريخنا لعبه المختار بمهارة ووعي وحسم.

### المعركة الحاسمة مع ابن زياد

ويبدأ هنا أهم فصول معارك المختار مع أعدائه، فصل معركته الحاسمة مع جيش الشام الكبير بقيادة عبيدالله بن زياد وكبار أقطاب النظام الأموي أمثال الحصين بن نمير السكوني وعمير بن الحباب السلمي وشرحبيل بن ذي الكلاع وغيرهم.

ومن الغريب أن هذه المعركة غير المتكافئة من حيث العدد بين جيشي المختار بقيادة ابراهيم بن الأشتر وجيش ابن زياد الذي كان يقوده هو بسمعته المرعبة المعروفة، قد انتهت نهاية سريعة لصالح ابن الأشتر الذي كان عدد أفراد جيشه لا يتجاوز عشرة

---

الحرس على باب زمزم وكتب معهم إلى المختار وأهل الكوفة يعلمهم حاله وحال من معه، وما توعد به ابن الزبير من القتل والتحريق بالنار ويسألهم الا يخذلوه كما خذلوا الحسين وأهل بيته. فقدموا على المختار»الطبري: ج٣ص٤٧٣.

(١)الطبري: ج٣ص٤٧٣، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٥٣ ومن الطريف ان هؤلاء سموا بـ(الخشبية) لانهم دخلوا مكة وبأيديهم الخشب كراهة اشهار السيوف في الحرم، وقيل أنهم أخذوا الحطب الذي أعده ابن الزبير لاحراق ابن الحنفية وأصحابه.

(٢)الطبري: ج٣ص٤٧٣. الكامل في التاريخ: ج٤ص٥٣.

آلاف مقاتل، بينما كان عدد أفراد جيش ابن زياد يتجاوز ثمانين ألف مقاتل جاء بهم من الشام هذه المرة، ولم يكن وحيدا كما كان في المرة الأولى حين قدم الكوفة للتصدي للامام الحسين عليه السلام، وتغلب على أهل الكوفة بأهل الكوفة.

كان ابن زياد منقذ العرش الأموي للمرة الثانية، مرة عندما كاد أن يتهاوى بخروج الامام الحسين عليه السلام إلى الكوفة، ومرة عندما كاد الأمويون يستسلمون لابن الزبير ويبايعونه، وكان يبدو أمام الجميع الرجل الذي لا يغلب، وقد عزز من سمعته الأسطورية تفوقه في (معركة عين الوردة) وحمام الدم الذي أعده للتوابين هناك، رغم أن هؤلاء – مع أن عددهم كان قليلا جدا ولا يقاس بجيشه الجرار – قد ألحقوا بذلك الجيش خسائر فادحة وقتلوا منه أضعاف عددهم.

وربما كان غضب ابن زياد هذه المرة وحقده على الكوفة عنيفا لا يخفف منه الا مشاهدته أنهار الدم تسيل هناك، فهو ما كان ليتسامح مع من رفضوه ثانية بعد موت يزيد، وثالثة بعد تغلب المختار وأصحابه، وحتى مع أولئك الذين هادنوا المختار ولم يحاربوه، اذ أن موقفهم المائع والمتردد بنظره يجعلهم موضع شكه، وقد يستهدفهم بقمعه كما يستهدف اعداءه الظاهرين أيضا.

انشغل ابن زياد عن الكوفة نحوا من سنة بأرض الجزيرة للقضاء على قيس عيلان الذين كانوا على طاعة ابن الزبير.ثم دخل الموصل التي كانت تابعة للمختار، فانحاز عاملها إلى تكريت وكتب للمختار بذلك، فوجه المختار جيشا صغيرا إلى الموصل قوامه ثلاثة آلاف فارس، فأرسل اليهم ابن زياد ستة آلاف، غير أن جيش المختار هزمهم هزيمة منكرة رغم مرض قائده الشديد واشرافه على الموت، وقد مات بعد تلك المعركة فعلا.

وقد رأى القائد الذي خلفه الأثر السلبي الذي يمكن أن تتركه مواجهة جيشه المرهق الصغير لجيش ابن زياد الجرار الذي تجاوز ثمانين ألف مقاتل.فآثر الانسحاب بعد النصر الذي حققوه على طليعة ذلك الجيش.

وقد رأينا في غضون هذا الفصل كيف أن المختار دعا ابراهيم بن الأشتر، فعقد له على سبعة آلاف رجل وأمره أن يناجز ابن زياد بهم وببقية الجيش المنسحب من الموصل.

كما رأينا كيف حاول أشراف الكوفة، بزعامة شبث بن ربعي -الشريف المتقلب- استغلال غياب حوالي عشرة آلاف مقاتل من أصحاب المختار عن الكوفة، للوثوب عليه، والقضاء على ثورته وأجمعوا على قتاله...وانتظروا، حتى إذا بلغ ابراهيم ساباط وثبوا بالمختار.

وقد استطاع المختار أن يشاغلهم وأرسل يستدعي ابراهيم بن الأشتر الذي عاد مسرعا، فكانت الدائرة على أشراف الكوفة، وقد أتيحت للمختار فرصة قتل الكثير ممن اشتركوا بقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام في كربلاء.

وعاد ابن الأشتر للمهمة التي انتدبه لها المختار وهي مواجهة ابن زياد وحربه، وكان هاجس جيش الكوفة الانتقام من ابن زياد شخصيا، وقد بدا لكل فرد من أفراد ذلك الجيش أنه عدو شخصي له وأنه قد ناله شخصيا بالاذى والشر، فقضية الحسين عليه السلام ظلت ساخنة متجددة في نفوسهم وضمائرهم.ولعلها القضية الأولى الكبيرة التي كان يحملها أفراد ذلك الجيش لمواجهة الجيش المرواني الأموي الذي تزعمه ابن زياد، ولو أن غير ابن زياد كان يقود ذلك الجيش الذي تجاوز ثمانين ألف جندي، لما استطاع جيش المختار الذي لم يبلغ عشره أن يتغلب عليه ويهزمه تلك الهزيمة المنكرة.

**تعليمات المختار لابن الأشتر**

اتخذ خروج ابراهيم بن الأشتر من الكوفة لقتال أهل الشام مظهرا احتفاليا جميلا «..وأخرج المختار معه من وجوه أصحابه وفرسانهم وذوي البصائر منهم: ممن قد شهد الحرب وجربها..ومضى معه يشيعه إلى قناطر رأس الجالوت»(١)، وقد أوصاه حين أراد أن ينصرف قائلا:

«خذ عني ثلاثا: خف الله في سر أمرك وعلانيته، وعجل السير، وإذا لقيت عدوك فناجزهم ساعة تلقاهم، وان لقيتهم ليلا فاستطعت ألا تصبح حتى تناجزهم، وان لقيتهم نهارا فلا تنتظر بهم الليل حتى تحاكمهم إلى الله»(٢).

وهي وصايا التزم بها ابن الأشتر غاية الالتزام، وكانت كفيلة بتحقيق النصر على عدوه فيما بعد.

**قصة الكرسي..من نسج الخيال الأموي الخصب**

وهنا تطلع علينا قصة الكرسي المزعومة، وأغلب الظن أنها من نتاج الخيال الأموي الخصب أو نتاج خيال أعداء المختار، وقد زعم رواة القصة أن أصحاب المختار رفعوا كرسيا وقد عكفوا حوله وقد رفعوا أيديهم يستنصرون وإن ابراهيم استنكر فعلهم وانهم انصرفوا عائدين.

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٧٦، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٥٧ مع اختلاف يسير في نص الوصية وذكر المجلسي ان المختار عندما خرج في تشييع ابراهيم بن الأشتر قال: «اللهم انصر من صبر، واخذل من كفر ومن عصى وفجر، وبايع وغدر، وعلاوتجبر، فصار إلى سقر، لا تبقي ولا تذر، ليذوق العذاب الاكبر..» البحار: ج٤٥ص٣٧٩ وهو اسلوب بلاغي معروف ربما كان يريد به استنهاض همم أصحابه ممن ساروا مع ابراهيم.

(٢) الطبري: ج٣ص٤٧٦.

ولو أن أصحاب المختار كانوا يعتقدون (بكرامة) ذلك الكرسي الذي زعم أصحاب الروايات أن المختار قد حاول ايهام الناس بأنه الكرسي الذي كان يجلس عليه أميرالمؤمنين عليه السلام، لأخذوه معهم إلى حيث قابلوا ابن زياد ليرفعوا معنوياتهم بوجوده، ولكنها كانت أسطورة غبية لفقها أشراف الكوفة المهزومون كشبث بن ربعي، حيث روى أحد أصحابه معبد بن خالد الجدلي، قال: «انطلق بي وباسماعيل بن طلحة بن عبيدالله وشبث بن ربعي والناس يجرون إلى المسجد، فقال المختار: انه لم يكن في الأمم الخالية أمر ألا وهو كائن في هذه الأمة مثله، وانه كان في بني اسرائيل التابوت فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، وان فينا مثل التابوت.اكشفوا عنه، فكشفوا عنه أثوابه، وقامت السبئية فرفعوا أيديهم، وكبروا ثلاثا، فقام شبث بن ربعي وقال: يا معشر مضر لا تكفرن، فنحوه فذبوه وصدوه وأخرجوه»[1].

أحقيقة أن أمر الكرسي قد هال شبثاً ولم يكن هاله من قبل قتل الحسين والجريمة التي شارك فيها هو بنفسه؟

**دعايات وافتراءات...أضاليل وأباطيل**

ثم ما قصة هؤلاء السبئية الذين يظهرون ويختفون حسب مزاج الراوة ذوي الخيال الواسع؟

انك إذا ما رميت رواية على لسان أحد هؤلاء في بطن كتاب من كتب التواريخ وشاءت احدى قوى الشر أن تستغلها دون أن تدع لأحد فرصة التمحيص والتدقيق والنظر، فان أحدا لن يستطيع أن يقف بوجهها دون أن يناله أذاها وشرها...

أحقيقة أن الإسلام وأن رسوله صلى الله عليه وآله بالذات لم يتعرضا لحملة التشهير والدس

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٧٦ – ٤٧٧، والكامل في التاريخ: ج٤ص٥٧ – ٥٨.

والأكاذيب الأموية وغيرها... فرموه بالسحر والجنون وقول الاساطير وغير ذلك؟

وهل نجا آل البيت عليهم السلام وأتباعهم من حملات الأكاذيب المغرضة التي عرضتهم كخارجين عن الإسلام، مع أنهم الحملة الحقيقيون له؟

وهل من المعقول أن يمر حال المختار الذي مرغ كبرياء آل أمية وآل الزبير هكذا دون أن يتعرض لحملات التشويه المغرضة كتلك التي قيلت بشأن الكرسي المزعوم؟

اننا لا نعطي الدعاية الأموية حقها ولا نقدرها حق قدرها إذا ما حسبنا أنها تغفل عن أعدائها وأنها لا تعمد معهم إلى ما عمدت اليه مع أميرالمؤمنين عليه السلام نفسه، فاستهدفته بأكبر حملة تشويه ودس ظالمة.

وإذا ما رأى محبذو تلك الدعايات المغرضة أن للأمويين أن يلجؤوا إلى مختلف الوسائل والأكاذيب لتثبيت عروشهم وتوهين عدوهم، فلماذا يأخذون على غيرهم أن يقوم بأمور من شأنها أن تثبت معنوياتهم وترفعها، إذا صح أن هؤلاء الأعداء قد قاموا بتلك الأمور فعلا؟

ولم نكن نعني بالاشارة إلى قصة هذا الكرسي لولا أن عقولاً عديدة تبدو مستعدة لقبولها.

ان الموالين لآل البيت عليهم السلام لم يشركوهم مع الله عزوجل ولم يجعلوا منهم آلهة أو أصناماً تُعْبَدُ دون الله..غير أن من أطاع فراعنة أمية وكل فراعنة الظلم على مر العصور لمجرد أنهم تغلبوا وسادوا، هو الذي جعل من هؤلاء أصناما يعبدون دون الله العزيز الجبار.

كما أن أولئك الذين بذلوا دماءهم لنصرة آل البيت والأخذ بثأرهم لم يكن يبهرهم منظر كرسي قيل أن أميرالمؤمنين عليه السلام كان قد جلس عليه يوما من الأيام، ولو طلبوا

أمثال هذه الأمور لوجدوها عند ورثته عليهم السلام، ولاستغنوا بها منذ البداية عن ذلك الكرسي المزعوم[١].

**معركة خازر**

وقد نفذ ابن الأشتر أوامر المختار، فخرج بأصحابه مسرعين يريدون ملاقاة ابن زياد قبل أن يدخل أرض العراق وتوغلوا في أرض الموصل حتى لقوه بخازر –بينها وبين الموصل خمسة فراسخ– وجعل على مقدمته الطفيل بن لقيط، رجلا من قومه شجاعا بئيسا، وأخذ لا يسير الا على تعبيته وضم أصحابه كلهم اليه بخيله ورجاله، فأخذ يسير بهم جميعا لا يفرقهم، الا أنه يبعث الطفيل بن لقيط في الطلائع حتى نزل بخازر[٢].

وقد وصل ابراهيم بن الأشتر خازر – موقع معركته مع ابن زياد – في مطلع سنة سبع وستين، ووصلت قبله سمعته وسمعة أصحابه الأسطورية التي جعلت جيش الشام يمتلئ منهم رعبا قبل أن ينازلهم، على حد تعبير أحد قادة ذلك الجيش نفسه، وهو عمير بن الحباب السلمي الذي أراد الانحياز بأصحابه والانضمام للمختار.

**رأي في الحرب**

وهنا يتطابق رأي عمير السلمي مع رأي المختار بشأن ساعة الشروع بالقتال.فقد رأينا أن المختار أوصى ابراهيم أن يعجل المسير وأن يناجز القوم ساعة يلقاهم وأكد عليه

(١) ثم: ألم يعمد معاوية إلى الاحتفاظ بقميص كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وقلامات من أظافره وأمر بالباسه القميص إذا ما مات وسحق القلامات ووضعها في عينيه وفي فيه ليرحمه الله ببركتها على حد زعمه،الطبري: ج٣ص٢٦٢ ومع ذلك فانه يعمد إلى أذى الرسول وآله عليهم السلام بتلك الطريقة المخزية متمسكا بخزعبلاته التي يمر عليها المؤرخون مر الكرام؛ ولو ان أحد أصحاب آل البيت فعل ذلك لوجدنا من يطبل ويزمر ويثير الضجيج ويتحدث بأسف عن الإسلام المنتهك والبدع التي تقوم مقام العبادات الصحيحة!!.

(٢)الطبري: ج٣ص٤٧٩، والكامل في التاريخ: ٤ج ص ٦٠ ، والبحار: ج٤٥ ص ٣٨٠.

أن يلتزم بوصيته تلك وأن لا يحيد عنها، وعند وصوله - ربما حاول ابراهيم جس نبض عمير ومعرفة حقيقة نواياه وموقفه -فسأله ان كان يرى أن يخندق عليه ويتريث يومين أو ثلاثة، وقد بدا عمير وكأنه أصيب بصدمة من ذلك الرأي الذي أبداه ابراهيم، وكأنه قد فزع منه، فقال له: «لا تفعل، انا لله، هل يريد القوم الا هذه! ان طاولوك وما طلوك فهو خير لهم، هم كثير أضعافكم، وليس يطيق القليل الكثير في المطاولة، ولكن ناجز القوم فانهم قد ملئوا منكم رعبا، فأتهم فانهم ان هم شاموا أصحابك وقاتلوهم يوما بعد يوم، ومرة بعد مرة أنسوا بهم، واجترؤوا عليهم.

قال ابراهيم: الآن علمت أنك لي مناصح.صدقت، الرأي ما رأيت، أما ان صاحبي بهذا أوصاني، وبهذا الرأي أمرني.

قال عمير: فلا تعدوا رأيه، فان الشيخ قد ضرسته الحروب، وقاسى منها ما لم نقاس.أصبح فناهض الرجل»(١).

وشهادة عمير بشأن المختار وخبرته في الحروب شهادة لها شأنها وجديرة أن تشير إلى حقيقة ذلك الرجل المكافح الذي لم يخضع للظلم ولم يتنازل عن أهدافه وشعاراته.

**ابراهيم بن الأشتر، كفاءة وقوة في الحرب**

وتتجلى صلابة ابراهيم بن الأشتر وكفاءته وقوته الخارقة، بتلك المعركة الحاسمة التي خاضها مع جيش ابن زياد، فبعيد المسيرة السريعة من الكوفة إلى الموصل مباشرة، وفي نفس الليلة التي وصل فيها أذكى حرسه، ولم يدخل عينه غمض، حتى إذا كان في السحر الأول عبأ أصحابه، وكتب كتائبه، وأمر أمراءه، وبعد أن صلى الغداة بأصحابه بغلس عندما انفجر الفجر، خرج بهم فصفَّهم، ووضع أمراء الأرباع في مواضعهم،

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٧٩.

وألحق أمير الميمنة بالميمنة، وأمير الميسرة بالميسرة، وأمير الرجالة بالرجالة، وضم الخيل اليه، ثم نزل يمشي وأمر الناس بالزحف معه على رسلهم رويدا حتى أشرف على جيش ابن زياد الذي لم يكن قد تهيأ لذلك اللقاء بعد.

**جدل بيزنطي**

ويكشف حوار بين مقاتل عراقي وآخر من أهل الشام طبيعة العقلية الشامية التي ترى ضرورة القتال مع (إمام) حتى ولو كان امام باطل...وعدم القتال مع غير إمام[1]، مع ان امام أهل الشام (عبدالملك)، لم يكن يتمتع بالشرعية بعد، لوجود (الامام الشرعي) الذي سبقه للدعوة إلى نفسه وهو ابن الزبير.«و لم تعزز هذه المقولة الا بعد هلاك ابن الزبير وتغلب عبدالملك واستتباب الأمور لصالحه».

قال عبدالله بن زهير السلولي، الفارس العراقي الذي ذهب يستطلع أخبار جيش ابن زياد قبيل هجوم ابن الأشتر، وكان أفراده قد فوجئوا بجيش ابن الأشتر فخرجوا على دهش وفشل...«لقيني رجل منهم فما كان له هجيري الا يا شيعة أبي تراب، يا شيعة

(١) ووفق المفهوم الأموي للامام أو الخليفة، فان عبدالملك بن مروان الذي بويع بعهد من أبيه في خلافة ابن الزبير لما تصح خلافته وكان مجرد متغلب على مصر والشام ثم غلب على العراق وما والاها إلى ان قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين، فصحت خلافته من يومئذ واستوثق له الأمر، (السيوطي: تاريخ الخلفاء:ص٢٠٠)، وقال السيوطي أيضا: «و الأصلح ما قال الذهبي ان مروان لا يعد في أمراء المؤمنين، بل هو باغ خارج على ابن الزبير، ولا عهده إلى ابنه بصحيح.وانما صحت خلافة عبدالملك من حين قتل ابن الزبير.وأما ابن الزبير فانه استمر بمكة خليفة إلى ان تغلب عبدالملك.» تاريخ الخلفاء: ص١٩٧- ١٩٨ ولو أن ابن الزبير تغلب على عبدالملك لمات عبدالملك باغيا وفق هذا المنطق الذي يجعل الحق مع الأقوى ومع من يسبق غيره لأخذ البيعة لنفسه، ولا ندري كيف صحت خلافة ابن الزبير اللهم الا لأنه بادر عند هلاك يزيد بالدعوة لنفسه ولم يكن مروان قد فكر قبله بذلك، ولو انه بادر قبله بذلك لكانت خلافته قد صحت، ولا ندري كيف يكون مروان ثقة عندهم مع انه باغٍ خارج على امام زمانه (ابن الزبير).

المختار الكذاب!

فقلت: ما بيننا وبينكم أجل من الشتم.

فقال لي: يا عدو الله، الام تدعوننا! أنتم تقاتلون مع غير امام.

فقلت له: بل يا لثارات الحسين بن رسول الله.ادفعوا الينا عبيدالله بن زياد، فانه قتل ابن رسول الله وسيد شباب أهل الجنة، حتى نقتله ببعض موالينا الذين قتلهم مع الحسين، فانا لا نراه لحسين ندا فنرضى أن يكون منه قودا، وإذا دفعتموه الينا فقتلناه ببعض موالينا الذين قتلهم، جعلنا بيننا وبينكم كتاب الله، أو أي صالح من المسلمين شئتم حكما.

فقال لي: قد جربناكم مرة أخرى في مثل هذا - يعني الحكمين - فغدرتم.

فقلت له: وما هو؟

فقال: قد جعلنا بيننا وبينكم حكمين فلم ترضوا بحكمهما.

فقلت له: ما جئت بحجة، انما كان صلحنا على أنهما إذا اجتمعا على رجل تبعنا حكمهما، ورضينا به وبايعناه، فلم يجتمعا على واحد، وتفرقا، فكلاهما لم يوفقه الله لخير ولم يسدده.

فقال: من أنت؟ فأخبرته، فقلت له: من أنت؟

فقال: عدس - لبغلته ليزجرها -

فقلت له: ما أنصفتني، هذا أول غدرك»[1].

كان الشامي مكلفا بحفظ هذه الأقوال وترديدها كما يقوم بذلك الببغاء، لا التفكير

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٨٠ ولم يذكر ابن الأثير في تاريخه سوى بداية هذه القصة: ج ٤ ص٦١.

بمعناها او مناقشة الآخرين بها.أما العراقي فكان على وعي تام بمجريات الأمور ويعلم ما يقول ويدرك السبب الذي يقاتل من أجله.

### كلام الببغاوات

كان الاعلام الأموي يؤكد على النقطة الأولى التي ذكرها الشامي وهي عدم جواز القتال مع غير امام.أما مع (الامام) -ولا يهم ان كان هذا اماما شرعيا أو غير شرعي- فلا بأس بذلك، ووضعوا لذلك أطروحات تطرقنا إلى بعضها في غضون هذا الكتاب - لا تمت للإسلام أو لقواعد الخلافة التي أمر الله بها، بأية صلة، وراحوا - على أساس ذلك فيما بعد - يشنعون على كل خارج وثائر عليهم وينعتونه بشتى النعوت والصفات. وكان للمختار من نعوتهم وتخرصاتهم النصيب الأكبر، كما لم يسلم من ذلك كل من رفض دولة الظلم الأموية أو ما شابهها على مر العصور.

### نداءات ابن الأشتر: يا أنصار الدين وشيعة الحق وشرطة الله، هذا عبيدالله بن مرجانة

كان ابن الأشتر يشد عزيمة أصحابه، وقد ركب فرسا له ثم مر بأصحاب الرايات كلها وكان يخطب فيهم بهذا الخطاب: «يا أنصار الدين، وشيعة الحق، وشرطة الله، هذا عبيدالله بن مرجانة قاتل الحسين بن علي، ابن فاطمة بنت رسول الله، حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يشربوا منه، وهم ينظرون اليه،[و منعه أن يأتي ابن عمه فيصالحه][1]، ومنعه أن ينصرف إلى رحله وأهله، ومنعه الذهاب في الأرض

(١) تحدثنا عن هذه الزيادة التي وردت في بعض الروايات والتي قيل فيها ان الحسينعليه السلام طلب أن يذهب إلى يزيد فيضع يده في يده ورفض ابن زياد ذلك، وقد فندنا هذه الزيادة، بمبحث صغير مستقل في هذا الكتاب وبينا الأسباب التي تجعل مثل ذلك اللقاء مستحيلا وعدم امكانية صدور مثل ذلك الطلب من الحسينعليه السلام في تلك اللحظات التي وقف فيها أمام الأمة كلها رافضا حكومة يزيد رفضا باتا ومستعدا للتضحية بدمه لوقف الانحراف والتردي، وهو الموقف الوحيد الذي بدا ان الحسين لابد ان يقفه، وربما وردت هذا الزيادة بسبب بعض المصحفين والكتاب والمحررين،

العريضة حتى قتله وقتل أهل بيته، فو الله ما عمل فرعون بنجباء بني اسرائيل ما عمل ابن مرجانة بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

قد جاءكم الله به، وجاءه بكم، فو الله اني لأرجو ألا يكون الله جمع بينكم في هذا الموطن وبينه الا ليشفي صدوركم بسفك دمه على أيديكم، فقد علم الله أنكم خرجتم غضبا لأهل بيت نبيكم»(١).

وكان ابن الأشتر يسير فيها بين الميمنة والميسرة، بل وفي الناس كلهم يرغبهم في الجهاد ويحرضهم على القتال، ثم رجع حتى نزل تحت رايته وزحف القوم اليه.

وقد جعل ابن زياد كبار قادته، الحصين بن نمير السكوني وعمير بن الحباب السلمي وشرحبيل بن ذي الكلاع على الميمنة والميسرة والخيل، وهو يمشي في الرجال، وبدأت معركة ضارية بين الطرفين، كانت الغلبة فيها في البداية لجيش ابن زياد الذي دحر ميسرة بن الأشتر وقتل قائدها. الا أن ابن الأشتر ثبت في ذلك الموقف، وقد كشف عن رأسه وأخذ ينادي: «يا شرطة الله، إليَّ، أنا ابن الأشتر، ان خير فرَّاركم كرَّاركم، ليس مسيئا من أعتب: فثاب اليه أصحابه»(٢).

---

اذ لا يمكن ان تخفى حقيقة الحسين عليه السلام ومواقفه وأقواله عن قائد مثل ابن الأثير الذي لابد انه كان يتابع الأحداث ويطلع عليها اطلاعا واعيا، ولا يمكن ان يفوته افتراء عمر بن سعد / قاتل الحسين، والمصدر الوحيد لتلك الرواية المزورة.

(١) الطبري: ج٣ص٤٨٠.

(٢) الطبري: ج٣ص٤٨١، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٦١ وروى المجلسي انه قال بعدها: «ألا يا شيعة الحق ألا يا أنصار الدين، قاتلوا المحلين وأولاد القاسطين. لا تطلبوا أثرا بعد عين. هذا عبيد الله بن زياد، قاتل الحسين» البحار: ج٤٥ ص٣٨٢ وذكر انه جرت منازلات فردية قبل المعركة دخل منها على أهل الشام من أهل العراق مدخل عظيم والذي نرجحه أن تلك المنازلات الفردية كانت قليلة لان ابن الأشتر استخدم عنصر المباغتة والمفاجأة ولم يرد لأهل الشام ان يلتقطوا أنفاسهم.

وقد اتجه ابراهيم إلى قلب جيش ابن زياد الذي كان ابن زياد نفسه يقوده قائلا: «أموا هذا السواد الأعظم، فوالله لو قد فضضناه لا نجفل من ترون منهم يمنة ويسرة انجفال طير ذعرتها فطارت»(١).

وكان الأمر كما ذكر: مشوا اليهم فاطَّعنوا بالرماح قليلا، ثم صاروا إلى السيوف والعمد فاضطربوا بها مليا من النهار، ثم ان أهل الشام انهزموا ومنحوهم أكتافهم، فكان صاحب راية ابراهيم ينغمس برايته فيهم حتى لا يعود له متقدم وابراهيم يشد بسيفه فلا يضرب به رجلا الا صرعه «وكرد ابراهيم الرجال من بين يديه كأنهم الحملان، وإذا حمل براية شد أصحابه شدة رجل واحد»(٢).

**هزيمة جيش الشام ومقتل ابن زياد**

وقد استمرت المعركة حتى الليل كانت الوقعة فيها على أصحاب ابن زياد، وقد انهزموا بعد قتال شديد وقتلى كثيرة بين الفريقين، وقتل في المعركة كبار أصحاب ابن زياد وقادته مثل الحصين بن نمير وشرحبيل بن ذي الكلاع وابن حوشب وغالب الباهلي، وكان من غرق من أصحاب ابن زياد - بعد الهزيمة - أكثر ممن قتل، وأصاب أصحاب ابراهيم معسكرهم، فيه من كل شيء(٣). وذكر أحد أصحاب المختار ممن شهدوا المعركة

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٨١، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٦١-٦٢، وقد شبه أحد أصحاب ابراهيم صوت اضطراب الرماح والسيوف والعمد ووقع الحديد على الحديد كصوت مياجن قصار في دار الوليد بن عقبة بن أبي‌معيط، يشير بذلك إلى بذخ واسراف تلك الأسرة المتسلطة التي كان أفرادها أبعد الناس عن الإسلام ثم صاروا سادة وقاده ذوي ترف وجاه في ظل دولة الانحراف الأموية.

(٢) الطبري: ج٣ص٤٨١.

(٣) وما أجمل قول عمير بن حباب السلمي في جيش ابن زياد:

وما كان جيش يجمع الخمر والزنا    محلاً إذا لاقى العدو لينصرا

الكامل في التاريخ: ج٤ص ٦٣.

مع ابراهيم أنهم عدوا القتلى بالقصب لكثرتهم، قيل كانوا سبعين ألفا.

أما ابن زياد، فقد قُتِلَ في تلك المعركة، بعد أن حسب أنه سيتغلب حتما على من كانت له الغلبة عليهم بالأمس، كان يقاتل بضراوة مدافعا عن الملك الطويل العريض الذي أصبح له اليوم بعد أن أبدى حرصا واضحا على خدمة الدولة الأموية التي ما كانت لتقوم لها قائمة لولا سيفه ورأيه، وكان يبدو أكبر شخصية في تلك الدولة بعد عبدالملك.

قال غلام له هرب إلى الشام، يصف آخر مشهد له: «لما جال الناس تقدم فقاتل، ثم قال: ائتني بجرة فيها ماء، فأتيته فشرب وصب الماء بين درعه وجسده، وصب على ناصية فرسه، ثم حمل، فهذا آخر عهدي به»[١].

كان ابن زياد يقاتل بشراسة، وقد حاول بث العزيمة في جيشه المتخاذل عندما حاول الاستهانة بقائد الجيش المقابل.

تساءل ابن زياد: «من هذا الذي يقاتلني؟

قيل له: ابراهيم بن الأشتر.

قال: لقد تركته أمس صبيا يلعب بالحمام».

ولم يحسب أن مثل هذا الصبي يمكن أن يكبر ويذيقه الحِمام.

فالأمس غير اليوم، والصبي يمكن أن يكبر ويصبح رجلا شديد البأس.

صرعه ابراهيم،و لم يحسب أن من صرعه كان ابن زياد نفسه.وقد فكر بعد المعركة، بأن من صرعه وقده نصفين قد يكون هو ذلك الطاغية.

---

(١) البحار: ج٤٥ ص٣٨٤.

واذ أن الأعداد التي قتلت من جيش الشام كانت كبيرة، كما أن عدد الغرقى الهاربين من القتال كان كبيرا أيضا، فان أحدا ما لم يعثر على جثة ابن زياد لو لم ينتبه ابراهيم نفسه إلى أنه قد يكون قد قتل ابن زياد، اذ عاد إلى ذهنه مشهد خاطف.

قال ابراهيم لأصحابه بعد انجلاء المعركة: «وأقبل رجل أحمر في كبكبة يغري الناس كأنه بغل أقمر لايدنو منه فارس إلا صرعه، ولاكمي إلا قطعه، فدنا مني فضربت يده فأبنتها وسقط على شاطئ الخازر، فشرقت يداه، وغربت رجلاه فقتلته، ووجدت رائحة المسك تفوح منه، وجاء رجل نزع خفيه، وظنوا أنه ابن زياد من غير تحقيق، فطلبوه فإذا هو على ما وصف إبراهيم فاحتزوا رأسه، واحتفظوا طول الليل بجسده، فلما أصبحوا عرفه مهران مولى زياد، فلما رآه إبراهيم قال: الحمد لله الذي أجرى قتله على يدي»[1].

---

(١) البحار: ج٤٥ص٣٨٣ وذكر الطبري، والكامل في التاريخ: رواية مماثلة اذ نسبوا الى ابن الأشتر قوله: «قتلت رجلا وجدت منه رائحة المسك شرقت يداه وغربت رجلاه تحت راية منفردة على شاطىء نهر خازر فالتمسوه فإذا هو عبيد الله بن زياد قتيلا ضربه فقده بنصفين..»الطبري: ج٣ص٤٨١، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٦٢ وقد ذكر ان الذي قتل ابن زياد هو شريك بن جدير التغلبي أحد أتباع أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه، وكانت عينه قد أصيبت في احدى المعارك التي خاضها الامام ضد أعدائه، وقد لحق بعد وفاته عليه السلام ببيت المقدس، وقد وصله نبأ مقتل الحسين عليه السلام. وهو هناك فقال: «أعاهد الله إن قدرت على كذا وكذا -يطلب بدم الحسين- لأقتلن ابن مرجانة أو لأموتن دونه فلما بلغه أن المختار خرج يطلب بدم الحسين أقبل إليه، فكان وجهه مع إبراهيم ابن الأشتر وجعله على خيل ربيعة فقال لأصحابه إني عاهدت الله على كذا وكذا فبايعه ثلاثمائة على الموت فلما التقوا حمل فجعل يهتكها صفا صفا مع أصحابه حتى وصلوا إليه وثار الرهج فلا يسمع إلا وقع الحديد والسيوف فانفرجت عن الناس وهما قتيلان ليس بينهما أحد، التغلبي وعبيدالله بن زياد» الطبري: ج٣ص٤٨١-٤٨٢ ويضيف ابن الأثير قوله: (...الأول أصح): ج٤ص٦٢، مشيرا إلى انه يرجح قيام ابراهيم بقتل ابن زياد وهو ما ترجحه معظم الروايات.

### وفي عاشوراء قُتِلَ ابن زياد أيضا

ومن الغريب أن نذكر هنا أن ابن زياد قُتِلَ في عاشوراء سنة سبع وستين(١) بعد ست سنين من اقدامه على جريمة قتل الحسين عليه السلام في عاشوراء سنة احدى وستين. قتل بعد أن تيقن أن كل شيء لا يمكن أن يسير دونه، وبعد أن منحته الدولة الأموية بقيادة عبدالملك ثقتها المطلقة وأباحت له التصرف في الأرض التي يمتد سلطانه عليها وفي كل شيء حملت تلك الأرض، وبعد أن جاء مغيرا على الكوفة ثانية ليستأصل من أهلها كل من يمت إلى أهل البيت عليهم السلام بود أو ولاء... وصل رأسه إلى الكوفة مع رؤوس قواده فألقيت في القصر الذي كان مقرا لجرائمه التي استنكرها الجميع حتى أمه التي قالت له: «يا خبيث، قتلت ابن رسول الله صلى الله عليه وآله! لا ترى الجنة أبدا»(٢).

وكان عبيدالله نتاجا للدنس والخطيئة، ونتاجا لولادة غير طبيعية لنظام التعسف والظلم والجور المنافي لقيم الإسلام وحدوده وأحكامه، بل لكل قيمة بشرية تحترم الإنسان وحقه في الحياة والحرية، وكان وجوده رفضا لأي تعامل طبيعي أرساه الإسلام، وكان مثالا مشوها للشر والجريمة والشك وسوء الظن والغدر أفرزته فلسفة معاوية في الحياة والحكم، ونسجته عقلية زياد الملتوية المتقلبة الحقودة، وكان نسخة منه، أشبهه من بين من وطئ الحصى، ولم ينتزعه شبه خال ولا ابن عم، كما قال هو عن نفسه، وشهد بذلك عليها(٣).

(١) أورد ذلك الشعبي: البحار: ج٤٥ ص٣٨٥.

(٢) الكامل في التاريخ: ج٤ ص٦٣.

(٣) ورحم الله ابن مفرغ حينما يقول فيه:

ان المنايا إذا مازرن طاغية ... هتكن أستار حجَّابٍ وأبوابِ
أقول بعدا وسحقا عند مصرعه ... لابن الخبيثة وابن الكودن الكابي
لا أنت زوجمت عن ملك فتمنعه ... و لا متتت إلى قوم بأسباب
لا من نزار ولا من جذم ذي يمن ... جلمود ذا ألقيت من بين الهاب

أورد ابن الأثير عن الترمذي في جامعه أن ابراهيم بن الأشتر «أنفذ رأس عبيدالله ابن زياد إلى المختار ومعه رؤوس قواده، فألقيت في القصر، فجاءت حية دقيقة، فتخللت الرؤوس حتى دخلت في فم عبيدالله بن زياد ثم خرجت من منخره، وخرجت من فيه، فعلت هذا مرارا...»(١).

**محمد بن الحنفية يدعو للمختار: جزاه الله خير الجزاء**

وقد بعث المختار رأس ابن زياد ورؤوس قادة جيشه إلى مكة، إلى محمد بن الحنفية، وقد خر ساجدا لله عندما رآها ودعا للمختار وقال: «جزاه الله خير الجزاء فقد أدرك لنا ثأرنا، ووجب حقه على كل من ولده عبدالمطلب بن هاشم...»(٢).

**الامام زين العابدين يدعو للمختار «..جزى الله المختار خيرا»**

وبعث بدوره الرأس إلى علي بن الحسين عليه السلام، فأدخل عليه وهو يتغدى فسجد شكرا لله تعالى وقال: «**الحمد لله الذي أدرك لي ثاري من عدوي. وجزى الله المختار خيرا. أدخلت على عبيدالله وهو يتغدى ورأس أبي بين يديه، فقلت: اللهم لا تمتني حتى تريني**

---

لا تقبل الأرض موتاهم إذا قبروا و كيف تقبل رجسا بين أثواب

الكامل في التاريخ: ج٤ص٦٣

وأورد الأندلسي بيتا منسجما مع هذه الأبيات عن لسان نفس الشاعر:

ان الذي عاش ختارا بذمته و مات عبدا قتيل الله بالزاب

العقد الفريد: ج٥ ص ١٥٣

وقد أورد المجلسي الأبيات عن ابن نما بشكل مختلف قليلا.

(١) الكامل في التاريخ: ج٤ص٦٣ وروي عن أبي الطفيل عامر بن واثلة الكناني قال: «وضعت الرؤوس عند السدة بالكوفة عليها ثوب أبيض، فكشفنا عنها الثوب، وحية تتغلغل في رأس عبيدالله ونصبت الرؤوس في الرحبة. قال عامر: ورأيت الحية تدخل في منافذ رأسه وهو مصلوب مرارا» البحار: ج٤٥ ص٣٨٥.

(٢) البحار: ج٤٥ص٣٨٦.

**رأس ابن زياد)**[١].

وروى الأندلسي أن الامام زين العابدين قال عندما أدخل عليه رأس ابن زياد عند انتصاف النهار وهو يتغدى قال: «**سبحان اللّه! ما اغتر بالدنيا إلا مَن ليس للّه في عُنقه نِعْمة! لقد أدخل رأس أبي عبدِ اللّه على ابن زياد وهو يتغدّى**»[٢].

**فصول جديدة من الصراع**

ولم تنته فصول صراع المختار مع أعدائه الا باستشهاده وميتته ميتة كريمة وهو يحمل على أولئك الأعداد بالنفر الذين بقوا معه رافضين الاستسلام رغم كثرة الأعداء وشراستهم.

وكان سبب مقتله أشراف الكوفة الخائنون أنفسهم، ولعلنا لا نجد في تاريخ الإسلام كله من تعرض للخيانة والدس والتشويه، مثل المختار الثقفي، الذي كان عارفا بطبيعة مجتمع الكوفة وأشرافه، ومع ذلك فانه لم يتراجع أمام أولئك الأشراف وطموحاتهم ورغباتهم الشريرة في الوقوف إلى جانب دولة الظلم مهما كان شكلها ومهما كانت شعاراتها.

فبعد انصراف ابراهيم بن الأشتر لقتال ابن زياد وتغلبه عليه وعند خلو الكوفة من معظم أنصاره وجنوده، خرج أعداؤه الذين كان قد قاتلهم وهزمهم ملتحقين بمصعب ابن الزبير في البصرة الذي حاول التشبه بابن زياد عندما قدم عليها واليا من قبل يزيد، وسمى نفسه الجزار في محاولة منه لارهابهم.

---

(١) البحار: ج٤٥ ص٣٨٦.

(٢) العقد الفريد: ج٥ ص ١٥٢.

**الغدر ثم الغدر**

وكان ممن التحق بمصعب، شبث بن ربعي، أحد أبطال جريمة كربلاء وأحد الأشراف الخونة الذين كادوا للمختار فحبطت مكائدهم، وقد جاء هذا بشكل مضحك باعثا تقليدا جاهليا قديما للاستجاره بمن ظن أنه يحميه[١] كما قدم عليه محمد بن قيس بن الأشعث وغيره وبينوا له حالهم مع المختار وبما اجتمعوا له وما أصيبوا به وتغير حالهم مع عبيدهم ومواليهم وسألوه النصر لهم والمسير لمقاتلة المختار معهم.

وقد اشترط مصعب أن لا يسير لقتال المختار حتى يأتيه المهلب بن أبي صفرة، وقد حاول هذا أن يعتذر في بداية الأمر الا أن مصعب الحَّ عليه وبعث محمد بن الأشعث يستحثه على القدوم، ويبدو أن الكفة قد مالت إلى جانب مصعب بعد التحاق المهلب به والذي أقبل «بجموع كثيرة وأموال عظيمة معه في جموع وهيئة ليس بها أحد من أهل البصرة»[٢].

واذ أن الأعداد التي التحقت بمصعب كانت كبيرة، فانه أمر الناس أن يعسكروا عند الجسر الأكبر ودعا عبدالرحمن بن محنف -وهو شريف كوفي متمرد على المختار- للذهاب إلى الكوفة لاخراج من يقدر على اخراجه للالتحاق به ودعوتهم إلى بيعته سرا والى تخذيل أصحاب المختار، وهو أسلوب بدا ناجحا مثلما نجح أسلوب سلفه ابن زياد الذي دعا أشراف الكوفة لتخذيل الناس عن مسلم - كما رأينا في هذا الكتاب.

وجعل مصعب على قيادة جيشه أناسا مجربين معروفين مثل المهلب بن أبي صفرة وعمر بن عبيدالله بن معمر ومالك بن مسمع ومالك بن المنذر والأحنف بن قيس وزياد

---

(١) ذكر الطبري «..قدم شبث على مصعب بن الزبير البصرة وتحته بغلة له قد قطع ذنبها، وقطع طرف أذنها وشق قباءه وهو ينادي يا غوثاه يا غوثاه» ج٣ ص٤٨٣، والكامل في التاريخ: ج٤ ص٦٤

(٢) الطبري: ج٣ص ٤٨٤، والكامل في التاريخ: ج٤ ص ٦٥- ٦٦.

ابن عمر الأزدي وقيس بن الهيثم، ومعظم هؤلاء من رؤساء أخماس أهل البصرة ولهم نفوذ كبير في قبائلهم.

**مصعب بن الزبير يحارب المختار**

واذ بلغ المختار أمر الاستعدادات القائمة ضده في البصرة، فانه استعد بدوره وقام في أصحابه خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«يا أهل الكوفة يا أهل الدين وأعوان الحق وأنصار الضعيف وشيعة الرسول وآل الرسول إن فُرَّاركم الذين بغوا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين فاستغووهم عليكم ليمصح الحق وينتعش الباطل ويقتل أولياء الله والله لو تهلكون ما عبد الله في الأرض إلا بالفري على الله واللعن لأهل بيت نبيه انتدبوا مع أحمر بن شميط فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قتل عاد وإرم»[1].

وهي خطبة لا تشبه خطب المختار السابقة - التي ربما نسب اليه بعضها ولم يقلها فعلا - وقد خلت من السجع الذي عرفت به تلك الخطب...كما أنها خطبة جديرة أن ينتبه اليها فعلا، وجديرة أن تكون صادرة عن المختار فعلا.

فحملة الافتراء على الإسلام وعلى رسول الله صلى الله عليه وآله قد بلغت ذروتها وقد ضاع الحق وانتعش الباطل وقتل أولياء الله في ظل حكام الجور والانحراف.

كان المختار يدرك أنه شوكة تقذي أعين طلاب الحكم الجدد الذين يحاولون الانتزاء على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله والسيطرة على مقدرات المسلمين، ويعلم أن من يقاتلون معه كانوا آخر عصبة منظمة معبأة تقوم بوجوه هؤلاء، وانهم إذا ما قتلوا فان قيادات الانحراف ستشعر بالمزيد من الحرية لاعلان انحرافها الذي تكون قد تسترت عليه حتى

(١) الطبري: ج٣ص ٤٨٤.

ذلك الحين، وستقوم بتزوير الإسلام، واستبداله باسلام آخر لايشبهه الا بالاسم.

وهو ما كان فعلا بعد ذلك، عندما قتل المختار وسيطرت قيادات الانحراف مقتسمة السلطة فيما بينها، لحين تسوية الحسابات النهائية في آخر المطاف.

**مستشار خائن**

بعث المختار أحد قواده المعروفين - أحمر بن شميط - لملاقاة مصعب وجيشه، فعسكر بحمام أعين، ثم سار إلى (المزار) وعسكر قريبا من معسكر مصعب.

وقد سببت (نصيحة) مغرضة تقدم لها قائد ميسرة ابن شميط، هزيمة جيشه هزيمة منكرة.

وضع ابن شميط عبدالله بن وهب بن أنس الجشمي، مقدم هذه (النصحية) على ميسرته، وجعل كيسان أباعمرة على الموالي، وكان معهم رجال كثير على الخيل، وكان ابن شميط سينتصر على مصعب لو أنه ظل على تعبئته، غير أن ابن وهب حسد الموالي على ذلك النصر الذي حسب أنه سيتحقق في النهاية، فطلب من ابن شميط أن يدعوهم لكي ينزلوا للقتال معه ويتركوا خيولهم.

وقد استجاب ابن شميط وطلب منهم ذلك، واستجابوا له، كانت مطاليب جيش مصعب «ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله والى بيعة الأمير عبداللهبن الزبير»[(١)].

أما مطاليب جيش ابن شميط: «...ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله وإلى بيعة الأمير المختار وإلى أن نجعل هذا الأمر شورى في آل الرسول، فمن زعم من الناس أن أحدا ينبغي له أن يتولى عليهم برئنا منه وجاهدناه»[(٢)].

(١)الطبري: ج٣ص٤٨٥، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٦٥.
(٢)الطبري: ج٣ص٤٨٥، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٦٥.

وقد صمد أصحاب ابن شميط أمام جند مصعب في البداية ولم يزل منه أحد، الا أن المهلب حمل عليهم حملة منكرة بعد ذلك فولوا الا جماعة منهم مثل ابن كامل في رجال من همدان وابن شميط نفسه الذي قاتل حتى قتل، وكان المهلب يثبط عزائم أصحاب المختار ويدعوهم للفرار، ومالت الخيل على رجالة ابن شميط فافترقت فانهزمت وأخذت الصحراء فبعث مصعب عباد بن الحصين على الخيل، وسرح محمد ابن الأشعث في خيل عظيمة من أهل الكوفة ممن كان المختار طردهم وممن هربوا منه وطلب منه القضاء على كل من يلقونه من الأسرى، فكان أهل الكوفة أشد عليهم من أهل البصرة ولم ينجح من ذلك الجيش الا طائفة من أصحاب الخيل، وأما رجالتهم فأبيدوا الا قليلا.

**انهزام جيش المختار أمام مصعب**

وكان لذلك الحدث صداه المحزن في الكوفة وخصوصا لدى الموالي الذين علموا أنهم سيستهدفون بحملة قمع كبيرة إذا ما نجح مصعب في تلك الحرب ضد المختار ولابد أن معنوياتهم قد أصيبت بانهيار كبير اثر سماعهم أخبار هزيمة جيش ابن شميط وانكساره.

**المختار: سأمضي إلى نهاية الشوط**

أما المختار فقد وطن نفسه على المضي إلى النهاية في الشوط الذي اختاره وفي سبيل تحقيق الشعارات التي رفعها منذ البداية[1].

---

(١) روى من نقل للمختار خبر موت ابن‌شميط وابن‌كامل وغيرهما ان المختار قال: «ما من الموت بد وما من ميتة أموتها أحب إلي من مثل ميتة ابن شميط حبذا مصارع الكرام قال فعلمت أن الرجل قد حدث نفسه إن لم يصب حاجته أن يقاتل حتى يموت..» الطبري: ج٣ص٤٨٦، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٦٦.

وقد حاول اعاقة الجيش الزاحف اليه من البصرة والحيلولة دون وصوله الكوفة، ونزل بحروراء وقد استعمل على الكوفة عبدالله بن شداد.

كما كان يقود جيشه بنفسه ويعيد ترتيب ذلك الجيش الذي كان يقل بكثير عن جيش مصعب، وكانت الهزيمة التي ألحقت بمن واجهوا مصعبا في المعركة الأولى قد جعلت الأغلبية تصاب بالاحباط وتتوقع هزيمة مماثلة رغم وجود عدد كبير من الرجال الأشداء من أهل الحفاظ معه.

وقد وضع مصعب أهل الكوفة المناوئين للمختار بقيادة محمد بن الأشعث بين جيشه وجيش المختار، وقد واجه المختار الموقف بحزم وثبات وتقدم أصحابه للمعركة بحماس منقطع النظير جعل مصعبا يستنجد بالمهلب ويأمره أن يحمل بأصحابه، وانتهى أصحاب المختار إلى مصعب الذي صمد لهم وتداعى له أصحابه، ولم ينقذه من أصحاب المختار سوى أصحاب المهلب الذين كانوا كثيري العدد الفرسان، وقد حملوا عليهم حملة منكرة فكشفوهم «و انقصف أصحاب المختار انقصافة شديدة كأنهم أجمة فيها حريق»[١].

وقد استطاع مالك بن مسمع البكري، أحد قادة جيش المختار بمساعدة خمسين من أصحابه أن يقتلوا محمد بن الأشعث وعامة أصحابه من أهل الكوفة.غير أن الغلبة كانت في النهاية لجيش مصعب الذي كان يتفوق عليهم كثيرا.وصمد قادة جيش المختار في جمع من أصحابهم الا أنهم قتلوا في تلك المعركة.وقد «قاتل المختار على فم سكة شبث ونزل وهو يريد ألا يبرح فقاتل عامة ليلته حتى انصرف عنه القوم وقتل معه ليلتئذ رجال من أصحابه من أهل الحفاظ»[٢].

---

(١) الطبري: ج٣ص٤٨٧، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٦٧.

(٢) الطبري: ج٣ص٤٨٧، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٦٧.

**حصار القصر**

وانصرف إلى قصره في الكوفة عندما تفرق عنه أصحابه وقتلوا، وقد زحف اليه مصعب بمن معه من أهل البصرة ومن خرج اليه من أهل الكوفة فنزل السبخة وحاصر المختار وأصحابه في القصر والمناطق المجاورة له وقطع عنهم الماء والمادة.وقد استغل المغامر المشهور عبيدالله بن الحر الذي عرف بعدم انضباطه والتزامه بأي مبدأ في ظل ظروف الانفلات والتنافس التي شهدتها تلك الفترة، استغل الفرصة بعد أن رأى أن الرياح لا تجري لصالح المختار هذه المرة، فألحق أذى كبيرا بأصحاب المختار بعد أن كان قد انضم اليه في فترة من الفترات، ولم تكن دوافعه دوافع عقائدية بحتة وانما كان يتحرى النفع في كل فترات حياته، شارك ابن الحر في حصار المختار ومنع الماء والغذاء عنه.

**الكوفة تنقلب ثانية**

لقد انقلبت الكوفة تحت الارهاب الزبيري ومعونة الأشراف السابقين لهذا النظام وأصبحت ضد المختار ثانية «و كان المختار ربما خرج هو وأصحابه فقاتلوا قتالاً ضعيفاً، ولا نكاية لهم، وكانت لا تخرج له خيل الا رميت بالحجارة من فوق البيوت ويصب عليهم الماء القذر، واجترأ عليهم الناس، فكانت معايشهم أفضلها من نسائهم...»[1].

**شجاعة المختار**

وقد بلغ مصعباً قيام النساء بالدخول على أزواجهن وأخوانهن بالطعام فمنعهن من ذلك - وأحكم الحصار احكاما تاما - حتى اضطر المختار وأصحابه للاستقاء من ماء البئر المالح الموجود في القصر، ومع ذلك فان المختار خرج إلى المحاصرين في أكثر من مرة وهزم طائفة منهم، ركب بعضهم بعضا بعد أن كر عليهم وشدخ نحوا من مائة،

---

(١) الطبري: ج٣ص ٤٩٠، والكامل في التاريخ: ج٤ ص ٦٨.

ثم قتل رجلا منهم، شديد البأس كانت له وطأة شديدة على أصحابه وكان قد قتل بعضهم، وقد «حمل عليه فضربه ضربة على جبهته، فأطار جبهته وقحف رأسه وخر ميتا»[١].

**المختار: لا للحصار، انزلوا بنا فلنقاتل**

وعندما اشتد الحصار أكثر من ذي قبل، قال المختار لأصحابه: «ويحكم إن الحصار لا يزيدكم إلا ضعفا انزلوا بنا فلنقاتل حتى نقتل كراما إن نحن قتلنا والله ما أنا بآيس إن صدقتموه أن ينصركم الله، فضعفوا وعجزوا، فقال لهم المختار: أما أنا فوالله لا أعطي بيدي ولا أحكمهم في نفسي..».وقد كان قال لأصحابه حين أبوا أن يتابعوه على الخروج معه: «إذا أنا خرجت إليهم فقتلت لم تزدادوا إلا ضعفا وذلا فإن نزلتم على حكمهم وثب أعداؤكم الذين قد وترتموهم، فقال كل رجل منهم لبعضكم هذا عنده ثأري فيقتل وبعضكم ينظر إلى مصارع بعض فيقولون: يا ليتنا أطعنا المختار وعملنا برأيه، ولو أنكم خرجتم معي كنتم إن أخطأتم الظفر متُّم كراما وإن هرب منكم هارب فدخل في عشيرته اشتملت عليه عشيرته أنتم غدا هذه الساعة أذل من على ظهر الأرض فكان كما قال.»[٢].

**الشيخ البطل يضارب بسيفه حتى الموت**

وقد تخلى بعض أصحابه عنه عندما رأوا اصراره على المقاومة والقتال حتى آخر نفس.وأزمع الخروج إلى أعدائه، وقد اغتسل وتحنط ووضع طيبا على رأسه ولحيته وخرج في تسعة عشر رجلا رافضا أن يحكِّمهم في نفسه فضارب بسيفه حتى قتل وهو ابن سبع وستين سنة، لأربع عشرة خلت من شهر رمضان في سنة سبع وستين، اذ أنه

(١)الطبري: ج٣ص٤٩١.

(٢) الطبري: ج٣ص٤٩١، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٦٨.

ولد في السنة الأولى من الهجرة النبوية الشريفة.

وكان أمر أصحابه كما كان، أمكنوا أعداءهم من أنفسهم ونزلوا على الحكم، فكانوا يخرجون مكتَّفين فيُقَتلون، وقد كاد مصعب أن يعفو عن كثير منهم الا أن أشراف الكوفة وأهلها الذين وترهم المختار قد احتجوا على ذلك، فقتل بقيتهم وكانت مجزرة دامية ذهب ضحيتها آلاف الناس دون مبرر قيل ان عددهم بلغ سبعة آلاف[١].

وأمر مصعب بكف المختار فقطعت ثم سمرت بمسمار من حديد إلى جنب المسجد، وتظل الحكايات تدور، ويحاول أصحابها دس جملة أو جملتين في كل واحدة منها للتشنيع والطعن على تلك الشخصية الفذة التي دوخت زعيم قريش المنطلق للزعامة على العرب والأمة كلها، ولا يهم من يكون الزعيم، ابن الزبير أو ابن مروان، مادامت منطقة النفوذ محصورة فيها.

**عودة للحكايات الأموية**

وتقول احدى تلك الحكايات ان المختار، لما خرج من القصر بالقلة القليلة من أصحابه،قال للسائب بن مالك الأشعري، زوج عمرة بنت أبي موسى الأشعري، وكان من أقرب أصحابه: «ماذا ترى، قال: الرأي لك فماذا ترى؟ قال: أنا أرى أم الله يرى؟ قال: الله يرى، قال: ويحك أحمق أنت إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز ورأيت نجدة انتزى على اليمامة ومروان على الشام فلم أكن دون أحد من رجال العرب فأخذت هذه البلاد فكنت كأحدهم إلا أني قد طلبت بثأر أهل بيت

---

(١) روى الطبري «أن مصعبا لقي عبدالله بن عمر فسلم عليه وقال له: أنا ابن أخيك مصعب فقال له ابن عمر: نعم أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة عش ما استطعت، فقال مصعب: إنهم كانوا كفرة سحرة، فقال: ابن عمر والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا»: ج٣ص٤٩٤.

النبي صلى الله عليه وآله إذ نامت عنه العرب فقتلت من شرك في دمائهم وبالغت في ذلك إلى يومي هذا فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية»[1].

فالمختار هنا، كما أرادت هذه الحكاية أن ترينا، لم يكن الا طالب زعامة كالاخرين وان قتاله كان في سبيل الحفاظ على تلك الزعامة أو الكرامة الشخصية أو الحسب. أما النية في مواجهة الظلم والانحراف والعدوان على بيت رسول الله صلى الله عليه وآله فربما كانت آخر شيء يفكر فيه، مع أن سيرة حياته ترينا أنه قد كرس كل تلك الحياة لرد العدوان ومعاقبة المعتدين الذين ما كان لهم أن يتجاوزوا ذلك التجاوز الكبير على رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه بقتل ولده الحسين وآل بيته وأصحابه، تلك القتلة الفاضحة واعداد حمام الدم لهم في كربلاء على رؤوس الأشهاد من المسلمين في كل أقطار الإسلام، وكان مرور تلك الجريمة -بلا عقاب- سيفتح الباب على مصراعيه للتنكيل ببقية آل الرسالة، بل وكل شخصية تتصدى للانحراف والظلم والشرك، وسيكون بداية النهاية للإسلام كله.

فلم يكن من المعقول أن يترك المختار الذي نجح بانزال أشد العقوبات بمرتكبي جريمة الطف، دون أن يمس ودون أن تثار حول شخصيته الأكاذيب والأقاويل والمزاعم، ويزحم الضجيج الآذان إلى يومنا هذا، فعمله قد عرقل كل مشاريع التسلط وأرغم المنزعجين الآخرين على التظاهر بما كان يتظاهر به معاوية على الأقل من حرص على الإسلام وتمسك ببعض طقوسه الظاهرية، ولم يتح لهم فرصة التمادي باستهتارهم وخروجهم العلني عن الدين كما كان يفعل يزيد.

---

(١) الطبري: ج٣ص ٤٩٠، والكامل في التاريخ: ج٤ ص ٦٨.

**محاولات زبيرية ومروانية لاستمالة ابن الأشتر**

وقد حاول الطرفان المتنافسان الباقيان بعد موت المختار أن يستميلا ابن الأشتر إلى جانبيهما، ولعلهما فعلا ذلك بعد معركة نهر الخازر التي قتل فيها ابن زياد ومعظم جيش أهل الشام، اذ بدا ابن الأشتر بعد تلك المعركة (كالمتهاون بأمر المختار)، حتى ان بعض أصحابه تركوه اثر ذلك.

وكانت الرشوة التي قدمها كلاهما باهظة عظيمة، فمصعب وعده بالشام وأعنة الخيل وما غلب عليه من أرض المغرب مادام لآل الزبير سلطان، وعبدالملك وعده بالعراق كله.أما هو فقد آثر أن ينضم لابن الزبير اذ أنه قد وتر كل قبائل أهل الشام، وكانوا بالتأكيد يكنون عداوة شديدة له، وهكذا انضم إلى مصعب مع من انضم اليه من أهل الكوفة الآخرين، بعد أن استتب له أمر العراق.

وفي المواجهة الأخيرة بين مصعب وعبدالملك بعد أن خذل أهل الكوفة مصعبا وانحاز عنه المروانية من أهلها وأضمروا الشر والخيانة وراسلوا عبدالملك، كان ابن الأشتر ممن صمد مع ابن الزبير، وكان له موقف فريد معه اذ أتاه بكتاب كتبه اليه عبدالملك قال له: كتب اليَّ أنا يدعوني اليه مع أنه أشد الناس يأسا مني، فلابد أنه كتب إلى الآخرين يدعوهم كذلك، فلماذا لم يخرجوا رسائلهم وأخفوها لو لم يكونوا قد أضمروا الخيانة! واقترح عليه أن يضرب أعناقهم أو يوقرهم حديدا ويحبسهم ريثما تنجلي المعركة ويأمر بقتلهم إذا ما غُلِبَ والعفو عنهم واعادتهم إذا ما غَلب.

**مقتل مصعب وابراهيم بن الأشتر**

ولم يستجب مصعب، اذ كان في شغل شاغل عن ذلك على حد قوله، وفي تلك المعركة قتل ابراهيم بن الأشتر مع مصعب الذي قتله زائدة بن قدامة ثأرا للمختار،

وكان ذلك سنة احدى وسبعين، بعد حوالي أربع سنوات من مقتل المختار، وقيل ان ذلك سنة اثنتين وسبعين[1].وطويت صفحة أخرى لثائر استجاب للمختار ثم بقي في مهب الريح بعد أن قتل هذا الاخير واختار وضع يده بيد ابن الزبير، وقد وجد أن ذلك أهون شرا مع انه شر محقق بكل تأكيد.

### وفاء زوجة المختار

لم تنج امرأة المختار عمرة بنت النعمان بن بشير من سطوة أعداء المختار -بعد أن قتلوه- لمجرد أنها ترحمت عليه وقالت انه كان عبدا من عباد الله الصالحين، وادعى مصعب أنها كانت تزعم أنه نبي.وهي نفس التهمة القديمة الجديدة التي يرمى بها المختار دائما بعد أن لم يجد أعداؤه تهما أخرى يرمونه بها.

### المختار: تصدى لدول الظلم بنفس أساليبها

وهكذا انطوت صفحة الحوادث التي كان المختار بطلها وقتل فيها وهو يشهر سيفه بهمة شاب شديد مع أنه تجاوز السبعين من عمره، ولابد أن يكون خروجه وتصديه للقوتين المتنافستين اللتين أقامتا دولتين لا تمتان للإسلام بصلة، وأسلوبه في العمل وسلوكه مدعاة لتأمل عميق ودراسات جادة من قبل الباحثين والدارسين لا تنساق فيها مع العواطف والأوهام والأكاذيب التي قيلت بشأنه.

ولعل أصح ما يمكن أن يقال فيه أنه تصدى لدولتي الظلم المتنافستين بنفس أساليبهما، وإذا ما أخذ أحد عليه خروجا عن المألوف في حربه وعقوبة المجرمين الذين شاركوا بمجزرة كربلاء وقتاله من اعتبرهم أعداء له فأولى بهذا أن يؤاخذ الآخرين الذين لجؤوا إلى أبشع الأساليب الشريرة في حربهم معه.

---

(١)الطبري: ج٣ص٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٣.

ان حركة المختار أظهرت حال الأمة المضطرب وانقسامها الشديد وظهور النزعات العرقية الحادة وبينت كيف أنه حاول الانتصار للمسلمين غير العرب من الآخرين الذين رفعوا شعارات العروبية وتمسكوا بالعصبية القبلية التي حاربها الإسلام ثم ظهرت بشكل حاد ونمت وقويت مع ظهور الدولة الأموية، وأبانت كيف أن هذه الأمة أصبحت رهن أطماع قوى سياسية شريرة لا ترى الا مصالحها وامتيازاتها، ولا نكاد نلمح في لجة الصراع طيفا لتطلع إسلامي حقيقي يعيد للأمة كيانها القائم على الإسلام والإسلام وحده، كما كشفت عن انحدار الأمة وضعفها ووقوعها فريسة لمفاهيم وآراء وقوى غريبة عنها وعن عقيدتها الإسلامية التي كادت أن تختفي خلف الركام الهائل لتلك المفاهيم والآراء والقوى.

**المجرمون يخافون من قصاص مرتقب.. لابد لهم من «مختار» يقتص منهم...**

لقد جعل المختار كل من يحاول الاقدام على جريمة جديدة وكل أعوان الظلمة يحسبون ألف حساب لقصاص متوقع في هذه الدنيا وآخر في دار الحساب، وإذا كان لم يستطع ايقاف الجرائم إلى الأبد، فانه جعل من عقوبته لقتلة الحسين وأصحابه درسا يتأمله الجميع حتى القتلة الحاليون ليعلموا أنه من الحماقة حقا أن ينساقوا خلف الظلم وينفذوا مشاريعه وقد يجنون من ذلك العار واحتمال القصاص في هذه الدنيا وقصاص أكيد في الاخرة، ويعلموا أن جرائمهم لا يتحمل وزرها أحد غيرهم ولابد ان يدفعوا الثمن.

**حركة المختار امتداد لواقعة كربلاء**

حركة المختار لم تكن مجرد رد فعل سريع على واقعة كربلاء بل يمكن القول ان بعض فصولها كانت امتدادا لها، فقد رأينا كيف اندفع عشرات الرجال الذين لم تتح

لهم المشاركة بتلك الواقعة وأولئك الذين منعوا أو كانوا بعيدين عن موقع المعركة أو كانوا صبيانا صغارا، بنفس حماسة أصحاب الحسين الذين فدوه بأرواحهم وتقدموا يواجهون الجيش الضخم الذي أعدته الدولة لقمعهم، وكان من بين أصحاب المختار من اعتبر الموت بمواجهة الظلم سعادة حقيقية، وهكذا أقدموا على مواجهته بفرح وبهجة، وقد أيقنوا أن طريق كربلاء هو الطريق الوحيد الموصل لها حتى وان لم تتح لهم فرصة تحقيق أهدافهم في الحال، فالمسيرة تتطلع اليها كل الأجيال ويكمل مشوارها أنصار جدد يرعف بهم الزمان مادامت على هذه الأرض حياة.

# نتائج الثورة الحسينية

## حركة مطَرّف بن المغيرة بن شعبة

كان المغيرة بن شعبة أحد مؤسسي الحكم الوراثي الظالم الذي أقامه معاوية، وكان هو الذي اقترح أن يكون يزيد ولياً للعهد، والداعية الأول لذلك في الكوفة، وسبباً للكوارث التي ألمت بالمسلمين وقيادتهم الحقيقية المتمثلة بآل البيت عليهم السلام، والتي انتهت إحداها بأكبر فاجعة في التاريخ قتل فيها الحسين وآله وأصحابه في معركة غير متكافئة، أريد لها أن تظل مثالًا في القمع يضعها نصب عينيه كل من يفكر بالتصدي لدولة الظلم الأموية أو معارضتها.

ولم يكن المغيرة- وهو يساوم معاوية على إبقائه حاكماً على الكوفة- يفكر أنه أو أحد أولاده سيكون ضحية للكيان الذي ساهم بتأسيسه، وأن هذا الولد- مُطرف- سيكون أحد الثائرين على تلك الدولة الأموية المروانية التي هي امتداد للدولة الأموية السفيانية أو المعاوية[1] إن صح التعبير... كما لم يفكر أصلاً بجدوى تلك المساومة الشريرة وقد كان شيخاً فانياً أشرفت سنوات عمره على الانقضاء، وقد مات بعدها بزمن قصير وكانت صفقته خاسرة جداً[2]...

### رافضون لدولة الظلم- يخرج الطيّب من الخبيث

وفي السنوات التي أعقبت موت المغيرة[3]، وحتى خروج ابنه مطرف سنة سبع

---

(١) نسبة إلى معاوية بن أبي سفيان...

(٢) راجع ما كتبناه عنه في هذا الكتاب.

(٣) مات المغيرة سنة إحدى وخمسين ولعله دعا معاوية لبيعة ولده يزيد تلك السنة نفسها...

وسبعين، وهي تتجاوز ربع قرن بقليل كما أنها كانت مزدحمة بالحوادث الخطيرة، وخصوصاً في الكوفة، لم يكن لأولاد المغيرة شأن أو حضور في الحياة العامة أو الحوادث التي وقعت فيها، ولعلهم خلال النصف الأول من تلك الفترة كانوا صغاراً ولعلهم خلال النصف الثاني منها كانوا مشغولين بأمورهم الخاصة وتقوية كيانهم الشخصي المبني على كيان أبيهم الذي عرف بـ (دهائه) و(تسامحه) مع أهل الكوفة، وكانوا بالتأكيد قد كونوا خبرات جيدة باوضاع مجتمعهم أتاحها لهم انتماؤهم للأشراف واطلاعهم على حقيقة الأحداث وأوضاع صنّاع القرار وذوي الرتب العالية من القواد والحكام...

وهكذا روي لنا «أن بني المغيرة بن شعبة كانوا صلحاء نبلاء، أشرافاً بابدانهم سوى شرف أبيهم ومنزلته في قومهم. فلما قدم الحجاج فلقوه وشافههم علم أنهم رجال قومه وبنو أبيه، فاستعمل عروة بن المغيرة على الكوفة ومطرف بن المغيرة على المدائن، وحمزة ابن المغيرة على همدان»[1].

**أراد الحجاج رشوتهم فخرجوا عليه**

وربما أراد الحجاج دعم وتقوية نفوذه الشخصي بتقريب هؤلاء وجعلهم في مراكز السلطة والنفوذ غير أنه كان مخطئاً في ذلك... إذ يبدو أن هؤلاء- وخصوصاً مطرف- لم يكونوا مستعدين لتنفيذ برامجه وخططه الشريرة رغم أنهم استجابوا في البداية لأمر التعيين ومارسوا مهماتهم في الحكم والإدارة.

وأعطى مطرف أهل المدائن عهداً أن يحكم فيهم بالحق والعدل في السيرة، وأخبرهم أنه جالس لهم العصرين ليرفعوا إليه حوائجهم ويشيروا عليه بما يصلحهم ويصلح بلادهم وأنه لن يألوهم خيراً ما استطاع...

---

(١) الطبري: ج٣ ص٥٩٢، والكامل في التاريخ: ج٤ ص١٧٨.

وكان مطرف «.. من خير عامل قدم عليهم قط، أقمعه لمريب وأشدّه إنكارا للظلم...»(١).

وفي بداية توليته على المدائن قدم شبيب الخارجي عليها، فطلب من الحجاج أن يمدّه برجال لضبطها باعتبارها باب الكوفة وحصنها على حد تعبيره، فارسل إليه الحجاج أربعمائة مقاتل.. وعندما نزل شبيب أحد جانبي المدينة، قطع مطرف الجسر الذي يصل بين الجانبين، وبعث إليه لكي يرسل إليه رجالًا من صلحاء أصحابه يدارسهم القرآن وينظر ما يدعون إليه...

**رفض مطاليب الخوارج**

وقد أخبره موفدو شبيب أنهم يدعون إلى كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وآله. وإن الذي نقموه على قومهم الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية.. وقد أجابهم مطرف بانهم لم يدعوا إلا إلى حق وما نقموا إلا جوراً ظاهراً وأخبرهم أنه يؤيد ما يدعون إليه وطلب منهم أن يتابعوه إلى ما يدعوهم إليه ليجتمع أمره وأمرهم وتكون يده وأيديهم واحدة، وقال إنه يدعوهم لمقاتلة الظلمة العاصين على إحداثهم الذي أحدثوا وأن يدعوا هؤلاء الظلمة إلى كتاب الله وسنة نبيه وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين، يؤمرون عليهم من يرضون لأنفسهم(٢)...

ولم يتفقوا على شيء في تلك المقابلة الأولى، وطلب منه مبعوث آخر من شبيب في مقابلة أخرى أن يتبعهم، وله ما لهم وعليه ما عليهم والا فإنه سيكون كبعض من يعادون ويقاتلون من المشركين...

---

(١) الطبري: ج٣ ص٥٩٢.

(٢) الطبري: ج٣ ص٥٩٣- ٥٩٤.

وقد رفض مطرف ما دعاه إليه الخوارج وأخبر بعض خواص أصحابه بالمباحثات التي جرت بينهم وقال: «... والله مازلت لأعمال هؤلاء الظلمة كارها أنكرها بقلبي وأغيرها ما استطعت بفعلي وأمري فلما عظمت خطيئتهم ومر بي هؤلاء القوم يجاهدونهم لم أر أنه يسعني إلا مناهضتهم وخلافهم إن وجدت أعوانا عليهم وإني دعوت هؤلاء القوم فقلت لهم كيت وكيت وقالوا لي كيت وكيت فلست أرى القتال معهم ولو تابعوني على رأيي وعلى ما وصفت لهم لخلعت عبد الملك والحجاج ولسرت إليهم أجاهدهم...»[1].

فهو هنا يرفض دولة عبد الملك وخادمه الحجاج، ولا يبدو من كلامه أنه يشك بانحرافهما كلية عن الإسلام، غير أنه يرفض- بنفس الوقت- أن يقاتل تحت شعار او راية الخوارج الذين يرون أنهم أحق الناس بالخلافة، لأنهم أول من قاوموا الظلم على حد زعمهم.

**ابحث عن المخبرين**

وفي غمرة حماسه لمقاومة دولة الظلم الأموية المروانية ورغبته في مقاومتها، فقد فاته أن يحيط مفاوضاته مع الخوارج وآراءه في دولة الظلم بالسرية التي يتطلبها الموقف، ومن شأن ذلك أن يعرضه لأشد المخاطر والعقوبات على يد الحجاج الذي سيسعى إليه السعاة والواشون يزيدون على كل كلمة عشرة أمثالها- على حد تعبير مولاه ابن أبي زياد- الذي طلب منه أن يهرب من المدائن مادام لا يملك القوة الكافية لمواجهة الحجاج.

وقد اتفق مطرف مع أصحابه أن يرحلوا معه، ثم أدلج وخرج أصحابه معه إلى

---

(١) الطبري: ج٣ ص٥٩٤- ٥٩٥، والكامل في التاريخ: ج٤ص١٧٩.

الدسكرة، وقبل أن يرتحل منها أعلم أصحابه ما يريد فجمع إليه رؤوسهم «فذكر الله بما هو أهله، وصلى على رسوله ثم قال لهم: أما بعد، فإن الله كتب الجهاد على خلقه، وأمر بالعدل والإحسان، وقال فيما أنزل علينا: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ**﴾(١) إني أشهد الله أني قد خلعت عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف، فمن أحب منكم صحبتي، وكان على مثل رأيي فليتابعني، فإن له الأسوة وحسن الصحبة، ومن أبى فليذهب حيث شاء، فإني لست أحب أن يتبعني من ليست له نية في جهاد أهل الجور، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى قتال الظلمة، فإذا جمع الله لنا أمرنا كان هذا الأمر شورى بين المسلمين يرتضون لأنفسهم من أحبوا...»(٢).

**جهاد دولة الظلم أول واجب شرعي. انتماء للإسلام لا لدولة الظلم**

ولا بد أن مطرفاً كان ذا حسٍ عالٍ ووعي استثنائي بواجباته كمسلم حقيقي يشعر أن عليه جهاد دولة الظلم ومواجهتها مواجهة حقيقية رغم أنه يتوقع رد فعلها العنيف وعدم تسامحها تجاهه وأنها ستلجأ إلى أشد الأساليب وحشية معه، ولا بد أن من تابعه من أصحابه على ذلك كانوا في مثل حسه ووعيه وإدراكه كما أنهم كانوا يعلمون حقيقة القوة الغاشمة التي كانوا يواجهونها، ومع ذلك لم يترددوا في الإنضمام إليه لمواجهة الدولة الظالمة وإعلان الحرب عليها.

كان مطرف في موقع السلطة كما كان من عائلة مرموقة اختير أبناؤها الثلاثة لإشغال أهم المناصب الحساسة في الدولة، ولعله لو كان ذا طموح شخصي للزعامة والسلطان، لجعل السلّم إلى ذلك السلطان التفاني والاندفاع لخدمة الدولة التي وظفته

---

(١) المائدة: ٢.

(٢) الطبري: ج٣ ص٥٩٥، والكامل في التاريخ: ج٤ص١٧٩ باختصار.

وجعلته حاكماً على المدائن. ومن هنا لا يمكن القول أن الذي دفعه لمواجهة الدولة كان طموحاً شخصياً لنيل درجة أعلى فيها، كما لا يمكن اتهام الجماعة الذين شايعوه بذلك، فقد كان يمكن ان يتبوأ مراكز عليا في الدولة اذا مابدى استعداداً اكبر لخدمتها وتمرير مشاريعها.

ولا بد أن انتماءه للإسلام كان أقوى من انتمائه للدولة التي وظفته لخدمتها ورفعت شعارات مزيفة ادعت أنها إسلامية وادعت أنها تحكم باسم الإسلام وتحرص عليه...

وقد توجّه مطرّف بمن بايعه من أصحابه نحو حلوان، فخرج لقتاله عاملها من قبل الحجاج الذي لم يكن يرغب رغبة حقيقية في قتاله، وقد تواطأ معه سراً على الذهاب دون قتال، وإنما أخرج جيشه ليعذر أمام الحجاج.

**الأخ ينصر أخاه**

وعندما اقتربوا من همدان كره مطرّف أن يدخلها لئلا يُتَّهَم أخوه حمزة واليها عند الحجاج وبعث إليه يطلب إليه أن يمده بما كان يقدر عليه من مال وسلاح وقد بعث إليه سراً بما طلب، وشاع أمر ذلك حتى وصل الحجاج.

وتكشف محاورة بين حمزة بن المغيرة ومبعوث أخيه مطرف عن استعداد الأول لنصرة أخيه وقضيته رغم علمه بعاقبة ذلك...

دفع الرسول كتاب مطرف إليه «فقرأه ثم قال: نعم وأنا باعث إليه بمال وسلاح، ولكن أخبرني ترى ذلك يخفى لي؟ قال: ما أظن أن يخفى..

فقال له حمزة: فوالله لئن أنا خذلته في أنفع النصرين له، نصر العلانية، لا أخذله في أيسر النصرين، نصر السريرة»[1].

(١) الطبري: ج٣ ص٥٩٦.

وسار مطرف باصحابه حتى نزل قم وقاشان وأصبهان، وبعث عماله ثم أرسل من يدعو أهل الري لمتابعته وكتب إليهم:

**«إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه»**

«أما بعد، فإنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإلى جهاد من عَنِد عن الحق، واستأثر بالفيء، وترك حكم الكتاب، فإذا ظهر الحق ودفع الباطل، وكانت كلمة الله هي العليا، جعلنا هذا الأمر شورى بين الأمة يرتضي المسلمون لأنفسهم الرضا، فمن قبل هذا منا كان أخانا في ديننا، وولينا في محيانا ومماتنا، ومن رد ذلك علينا جاهدناه، واستنصرنا الله عليه فكفى بنا عليه حجة، وكفى بتركه الجهاد في سبيل الله غبنا، وبمدافعة الظالمين في أمر الله وهناً.

إن الله كتب القتال على المسلمين وسماه كرهاً، ولن ينال رضوان الله إلا بالصبر على أمر الله، وجهاد أعداء الله، فاجيبوا رحمكم الله إلى الحق، وادعوا إليه من ترجون إجابته، وعرَفوه ما لا يعرفه، وليقبل إليَّ كل من رأى رأينا، وأجاب دعوتنا، ورأى عدوَّه عدونا، أرشدنا الله وإياكم، وتاب علينا وعليكم، إنه هو التواب الرحيم»[١].

وإثر ذلك التحق به نحو مائة شخص من أهل المدائن...

وتعبّر هذه الوثيقة عن توجّه ثوري حسيني يرفض الظلم والإنحراف، لم يعد مألوفاً في ظل دولة الظلم بعد أن عاشت الأمة حياة الذل والخنوع، وبدا كانه نشاز في غمرة الأصوات الخانقة التي عبرت عن استعدادها للخضوع إلى الأبد، وكان كحجر ثقيل ألقي في بحيرة ساكنة لم يرد أحد تحريكها.

إننا نلمح في حركة مطرف - رغم التعتيم الذي جرى عليها، ورغم أنها لم تدعُ

(١) الطبري: ج٣ ص٥٩٧.

لآل البيت صراحة- حساً صافياً يدعو لرفض الظلم وعودة الإسلام إلى خطه الأصيل بعيداً عن التشويه والتزوير والإنحراف، ولا بد انها كانت بنظر الحكام الجائرين والأمة الخانعة تعدّ أمراً متهوراً لا يقدم عليه إلا المغامرون أو الطائشون... وما كان أي داعية لآل البيت عليهم السلام يرفع غير تلك الشعارات التي رفعها مطرّف وأصحابه. ولعل أهداف وشعارات ثورة الحسين عليه السلام ظلت ماثلة في أذهانهم إذ لم يكونوا بعيدي عهد بها.

ولقد ألقت حركة مطرف ظلّا ثقيلًا على جهود أركان دولة الظلم الأموية الذين حسبوا أنهم قد روّضوا الأمة كلها وجعلوها تستسلم لهم إلى الأبد، اذ جعلتهم موقنين هذه المرة أنهم كانوا مخطئين وإن حساباتهم لم تكن صحيحة وأنهم ينبغي أن يواجهوا الأمة بأساليب جديدة من شأنها أن تجعلها جثة هامدة بين أيديهم الى الابد، وقد استفزتهم إلى أبعد حد.

**حيلة ومكيدة**

فقد سارع الحجاج حال علمه بها بالسعي لإلقاء القبض على حمزة خوفاً من تمرده المحتمل. «وقد كان حمزة بهمذان أثقل ما خلق الله على الحجاج مخافة أن يمد أخاه بالسلاح والمال، ولا يدري لعله يبدو له فيعق، فلم يزل يكيده حتى عزله، فاطمأن وقصد قصْد مطرف»[1] وقد تم ذلك بحيلة دبرها الحجاج وصنائعه، ثم سارع لتحشيد جيش لمواجهة مطرف الذي أخذ جيشه يتكثف ويكثر تبعه على حد تعبير البراء بن قبيصة عامل الحجاج على أصبهان، وكاد أن ينجح لولا أن الأقدار غالبة على حد تعبير أحد معاصريه.

وكان الحجاج متلهفاً لإرسال الجند بسرعة حتى أنه «جعل يسرح إلى [عامله]،

(١) الطبري: ج٣ ص٥٩٨.

البراء بن قبيصة الرجال على دواب البريد عشرين عشرين عشر وخمسة عشر خمسة عشر، وعشرة عشرة حتى أسرح إليه نحواً من خمسمائة وكان في ألفين...»[١].

«ثم أمر بتعبئة ثلاثة أرباع جنود أهل الري وهم ثلاثة الاف مقاتل، وأرسل معهم تسعمائة من أهل الشام وألف مقاتل من أهل الكوفة انضموا إلى البراء ومعه ألف مقاتل وألف رجل من أهل أصبهان والاكراد»[٢]... واستعد مطرف لمواجهتهم رغم أن عدد أصحابه كان يقل عن أعداد هؤلاء بكثير.

**قبيل المعركة**

وقبل بدء المعركة والزحف طلب مطرف إلى أحد قادة جيشه الصغير- بكير بن هارون البجلي- أن يخرج إليهم فيدعوهم إلى كتاب الله وسنّة نبيه، وبكتْهم بأعمالهم الخبيثة فخرج إليهم ونادى بصوت له عال رفيع:

«يا أهل قبلتنا، وأهل ملتنا وأهل دعوتنا، إنا نسألكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي علمه بما تسرّون مثل علمه بما تعلنون لما أنصفتمونا وصدقتمونا، وكانت نصيحتكم لله لا لخلقه، وكنتم شهداء الله على عباده بما يعلمه الله من عباده.

خبروني عن عبد الملك بن مروان، وعن الحجاج بن يوسف، ألستم تعلمونهما جبارين مستأثرين يتبعان الهوى، فيأخذان بالظنة ويقتلان على الغضب؟

فتنادوا من كل جانب: يا عدو الله كذبت، ليسا كذلك..!

فقال لهم: ويلكم ﴿**لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى**﴾[٣] ويلكم، أو تعلمون من الله ما لا يعلم، إني قد استشهدتكم، وقد قال الله في

(١) الطبري: ج٣ ص٥٩٧.
(٢) الطبري: ج٣ ص٥٩٨.
(٣) طه: ٦١.

الشهادة: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾.[١]....»[٢]

**نهاية مروعة**

وقد جرى قتال عنيف ... «اقتتلت الفرسان أشد قتال رآه الناس قط[٣].

وقد كان مطرف ينادي فيهم قبل مقتله بقول الله تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾»[٤]

وبقتله وقتل صفوة أصحابه الذين استبسلوا معه في تلك المعركة الحامية انتهت حركته لتظل شاهداً على أن إنكار الظلم والإنحراف والمنكر لم يقف عند حدود الإنكار بالقلب، بل تعداه إلى اليد وإن كان ثمن ذلك غالياً...

---

(١) البقرة: ٢٨٣.

(٢) الطبري: ج٣ص٥٩٩، وقد شهدنا موقفاً مماثلًا في واقعة كربلاء إذ خطب زهير بن القين في جيش الكوفة قائلاً: «يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله نذار. إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن أخوة، وعلى دين واحد وملة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتم أمة. إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون. إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلا بسوء عمر سلطانهما كله، ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهانيء بن عروة وأشباهه... فسبوه وأثنوا على عبيد الله بن زياد، ودعوا له، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلماً...»: الطبري: ج٣ ص٣١٩- ٣٢٠، وهو موقف مشابه لهذا، إذ ما عسى أن يقول من يشهر سيفه مع الحاكم الظالم غير ما يقول هؤلاء..!

(٣) الطبري: ج٣ ص٦٠٠.

(٤) آل عمران: ٦٤، (الطبري: ج٣ ص٦٠٠).

## حركة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

### آل الأشعث وعداوتهم لأهل البيت عليهم السلام

عُرف الأشعث وبنوه بمناوءتهم وكرههم الشديد لآل البيت عليهم السلام. وكان لمحمد ابن الأشعث، أبو عبد الرحمن هذا دور كبير في القضاء على ثورة مسلم في الكوفة وفي واقعة الطف وفي التحرك المضاد للمختار حتى قتل في المعركة الأخيرة الفاصلة التي جرت بين جيش المختار وجيش ابن الزبير[1] وقبل أن يقتل المختار بمدة قصيرة.

وقد ذكرت رواية أن مولى لمحمد بن الأشعث أخبره بمكان مسلم بن عقيل فانطلق محمد إلى عبيد الله فأخبره، فبعث عبيد الله عمرو بن حريث المخزومي - وكان صاحب شرطه- إليه ومعه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وأن عبد الرحمن هو الذي أعطى الأمان لمسلم، ثم غُدر به بعد ذلك[2] وذكرت رواية أخرى أن مولى ابن الأشعث ذهب إلى عبد الرحمن فأخبره بمكان مسلم وأن هذا أتى أباه عند ابن زياد وأخبره بذلك، وأن ابن زياد بعث محمد بن الأشعث وعمرو بن عبيد الله بن العباس السلمي لقتال مسلم أو إحضاره أمامه، وأن محمداً هو الذي أعطاه الأمان ثم لم يستطع أن يفي به حتى قتله ابن زياد[3]...

ومهما يكن من أمر فإننا نرى هنا حضوراً لعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث زمن

(١) تحدثنا بإسهاب عن هذه الأدوار في فصول هذا الكتاب...

(٢) الطبري: ج٣ ص٢٧٦.

(٣) الطبري: ج٣ ص ٢٨٩.

وقوع هذا الحدث سنة ستين للهجرة، ولا بد أنه كان شاباً يافعاً له دور في صنع الأحداث لانتمائه لعائلة الأشعث الكوفية ذات المكانة الخاصة من معاوية ويزيد لمواقفها المناوئة لآل البيت عليهم السلام والتي اسست لحكم يزيد قبل هلاك معاوية بعشر سنين.

**مكتمل الرأي والقوة لم تخدعه الأضاليل الأموية فثار عليها**

ويمكن القول أنه كان- عند خروجه على الدولة الأموية المروانية سنة إحدى وثمانين- رجلًا مكتمل القوة والرأي حازماً مقداماً لم ترهبه سطوة عبد الملك والحجاج، ولم تخدعه الشعارات البراقة المزيفة التي رفعتها الدولة وحاولت بها حفظ كيانها ووجودها.

**سار حيناً في ركاب دولة الظلم**

حاول عبد الرحمن أن يثأر لأبيه الذي قتله أصحاب المختار، وكان أشد الناس عليهم وكان يدعو للانتقام حتى من أولئك الذين نزلوا على حكم مصعب بعد مقتل المختار وقد قتل بعضهم بيديه...

**قاتل الخوارج بناء على أمر الحجاج**

بعث به بشر بن مروان- بناء على أوامر من عبد الملك في خمسة آلاف من أهل الكوفة سنة اثنتين وسبعين- لمقاومة الخوارج في الأهواز وقتالهم مع المهلب، وقد قاتلوهم وهزموهم.

وقد دعاه الحجاج ثانية سنة ست وسبعين لقيادة جيش آخر لقتال جيش الخوارج الذي كان يقوده شبيب، ويبدو أن الحجاج كان منزعجاً غاية الإنزعاج من شبيب الذي كان يقلق الدولة ويثير مخاوفها.

ويلفت النظر هنا أسلوب الحجاج الشديد لدعوة الناس للحرب(١)، وهو أسلوب طالما لجأ إليه من قبل، فلغة الإرهاب هي اللغة التي يلجأ إليها الطغاة وهم يحسبون أن الناس ينبغي أن يخشوهم أشد من خشيتهم لله...

**مقاتلون بالإكراه- مقاتلون بلا قضيّة**

وأصدر الحجاج أوامره لابن الأشعث أن يخرج عند طلوع الشمس وينادي في الناس: «أن برئت الذمة عن رجل من هذا البعث وجدناه متخلفاً»(٢).

هرب شبيب من عبد الرحمن إلى الموصل، فلم يتبعه عبد الرحمن فأمره الحجاج أن يسلك في أثره ففعل وأخذ يطارده إلّا أنه لم يكن يرغب رغبة حقيقية في قتاله، وقد دعا ذلك الحجاج أن يؤمر على الجيش غيره.. وقد قتل هذا في أول منازلة له مع الخوارج وكان ذلك بسبب عجلته وسوء تصرفه وقد كان يريد أن ينال منزلة مرموقة من الحجاج باندفاعه... هرب جيشه وكان فيهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بعد أن قُتِلَ منه أكثر من ألف رجل، وقد اختبأ عبد الرحمن في الكوفة خوفاً من الحجاج حتى أخذ الأمان بعد ذلك.

**خطب نارية للحجاج**

وأرسل الحجاج جيشاً آخر مؤلفاً من خمسين ألف مقاتل ولم يدع قرشياً ولا رجلًا

(١) فقد كتب الحجاج إلى أهل العراق: «أما بعد، فقد اعتدتم عادة الأذلاء، ووليتم الدبر يوم الزحف، وذلك دأب الكافرين، وإني قد صفحت عنكم مرة بعد مرة، ومرة بعد مرة، وإني أقسم لكم بالله قسماً صادقاً لئن عدتم لذلك لأوقعن بكم إيقاعاً أكون أشد عليكم من هذا العدو تهربون منه في بطون الأودية والشعاب، وتستترون منه باثناء الأنهار وألواذ الجبال فخاف من له معقول على نفسه ولم يجعل عليها سبيلاً. وقد أعذر من أنذر»، الطبري: ج٣ ص٥٧٢ وهو أسلوب طالما لجأ إليه زياد وعبيد الله وطالما يلجأ إليه الطغاة في كل وقت.

(٢) الطبري: ج٣ ص٥٧٢.

من بيوتات العرب إلا أخرجه لمقاتلة شبيب، وقد هددهم بإحدى خطبة المرهبة المهددة قائلًا:

«يا أهل الكوفة اخرجوا مع عتَّاب بن ورقاء بأجمعكم ولا أرخص لأحد من الناس في الإقامة إلا رجلا وليناه من أعمالنا، ألا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة ألا وإن للناكل الهارب الهوان والجفوة، والذي لا إله غيره لئن فعلتم في هذا الموطن كفعلكم في المواطن التي كانت لأولينّكم كنفا خشنا ولأعركنكم بكلكل ثقيل...»[١].

**انتصار شبيب الخارجي ودخوله الكوفة**

وكان ذلك الجيش الضخم لا يحمل قضية ما لمواجهة الخوارج الذين لم يتجاوز عددهم ستمائة رجل، وكان يعلم أنه يقاتل من أجل قضية خاسرة في الحالين سواء انتصر أو انهزم وأنه ينساق لإرادة شخص واحد يريد الجميع أن يخضعوا له ويطيعوه ولا يرون سواه. ومن هنا فقد بدا متخاذلًا رغم كثرة أعداده، وكان أحد أصحاب الحجاج قد قال له: «.. إنك لم تنصح لله ولا لأمير المؤمنين في قتالهم [الخوارج] تبعث الرجل الشريف وتبعث معه رغاما من الناس فينهزمون عنه، فيستحي فيقاتل حتى يُقْتَل».[٢]

وقد انهزم فعلًا بعد مقتل قادته وكان عبد الرحمن بن محمد من الذين انهزموا ولم يقاتلوا شبيبا.

وتبع شبيب المنهزمين إلى الكوفة وعزم على مقاتلة الحجاج هناك، مما دعا هذا الأخير إلى استنفار جيش الشام الذي أرسله عبد الملك لإسعافه، وكان عدد أفراده ستة آلاف مقاتل، وعدم الاعتماد على أهل الكوفة الذين كان يتبادل الكراهية وإياهم ويعلم

---

(١) الطبري: ج٣ ص ٥٨١.

(٢) الطبري: ج٣ص ٥٨٧.

أنهم لا يحاربون عن رغبة حقيقية في القتال وأنهم ربما ينقلبون عليه، وهكذا منعهم من القتال معه وألقى بهم هذه الخطبة:

«أما بعد يا أهل الكوفة، فلا أعز الله من أراد بكم العز، ولا نصر من أراد بكم النصر، اخرجوا عنا، ولا تشهدوا معنا قتال عدونا، إلحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى، ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملًا، ومن لم يكن شهد قتال عتاب بن ورقاء»(١)، وهو قائد الجيش الذي قتله شبيب.

**طرد شبيب من الكوفة**

ولم ير الحجاج بداً من التقدم بنفسه لقتال شبيب وقد دخل هذا الكوفة، واستطاع بمن معه من أهل الشام وأهل الكوفة الذين كانوا خائفين منه ومن أهل الشام إن لم يقاتلوا شبيباً، أن ينتصر على شبيب ويطرده من الكوفة بعد أن قتل جماعة كبيرة من أصحابه منهم أخو شبيب وزوجته.

**عبد الرحمن بن الأشعث: انهزم أوتهازم.. عدم قناعة بأهداف الدولة**

كانت تجربة الحجاج مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لا تدعو للارتياح، بل لعله كان يشعر بالمرارة لمواقفه في الحروب التي أرسله فيها لقتال الخوارج، فقد انهزم أو تهازم منهم أكثر من مرة، وبدا كأن ذلك كان مقصوداً، ولعل سببه عدم قناعة عبد الرحمن بمواقف أطراف الصراع كلها «وكان الحجاج وليس بالعراق رجل أبغض إليه من عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث وكان يقول ما رأيته قط إلا اردت قتله ...(٢)».

وصرح مرة أمام جلاسه عندما رآه: «أنظر إلى مشيته، والله لهممت أن أضرب

---

(١) الطبري: ج٣ ص ٥٨٣.

(٢) الطبري: ج٣ ص٦١٧.

عنقه»[١].

ويبدو أن الكره كان متبادلًا بينهما ولم يكن الذي يكنّه عبد الرحمن أقل من ذلك الذي كان يكنّه الحجاج، فقد قال عبد الرحمن لمن نقل إليه قول الحجاج وحذره منه: «... وأنا كما زعم الحجاج إن لم أحاول أن أزيله عن سلطانه، فأجهد الجهد إذا طال بي وبه بقاء...»[٢].

**.. ومع ذلك فقد ولّاه أحد جيوشه رغم تحذير إسماعيل بن الأشعث**

ورغم ذلك الكره فقد بدا للحجاج أن يبعثه على رأس جيش مؤلف من أربعين ألف مقاتل من أهل البصرة وأهل الكوفة لقتال رُتبيل الذي كان مصالحاً ويدفع خراجاً ثم امتنع فلم يفعل ثم قتل جماعة كبيرة قدموا لمقاتلته... أرسله الحجاج رغم تحذير عمه إسماعيل بن الأشعث وقوله له: «لا تبعثه، فإني أخاف خلافه، والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطاناً»[٣] وأجابه بغرور الطغاة الذي عرف به: «ليس هناك، هو لي أهيب وفيَّ أرغب من أن يخالف أمري أو يخرج من طاعتي»[٤].

**نجاح في المهمة واستيلاء على غنائم هائلة**

وقد أنجز عبد الرحمن مهمته بنجاح واستطاع طرد عدوه إلى أقصى بلاده ووضع عمالًا على الأرض التي افتتحها وكانت أرضاً عظيمة واستولى على غنائم هائلة من الأنعام والأموال، ورأى أن يتوقف عن إكمال زحفه حتى يعتاد المسلمون على طرقها ويتعرفوا عليها جيداً ثم يعاود الزحف ويستطيع في بضع سنين أن يستولي عليها كلها، وبدت

(١) الطبري: ج٣ ص٦١٧.
(٢) الطبري: ج٣ ص٦١٧.
(٣) الطبري: ج٣ ص ٦١٨.
(٤) الطبري: ج٣ ص ٦١٨.

خطته هذه معقولة للجيش العراقي المنهك، وكتب يخبر الحجاج بذلك، إلا أن الحجاج رفض أن يتوقف عبد الرحمن عن القتال وأمره بمواصلته، ومواصلة التقدم في أرضه والإقامة بها. وقد شدد عليه في رسائل متلاحقة أن ينفذ أوامره وهدده بالطرد وتعيين أخيه إسحاق بن محمد أميراً على الناس، وهي خطة أراد بها التفريق بين الأخوين، طالما لجأ إليها الحجاج مع ابن الأشعث وغيره.

**عبد الرحمن يستشير أصحابه في إكمال الغزو: (كره متبادل بين الحجاج وعبد الرحمن وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم)**

وقد رأى عبد الرحمن أن يواجه أصحابه بطلبات الحجاج التي ستؤدي إلى إهلاكهم، وكان واضحاً له ولهم أنه يريد ذلك فعلًا بعد إنهاكهم وتجميرهم في البعوث والفتوحات العشوائية ذات الامتداد السطحي الهش، وهم لم يكادوا يضعون سيوفهم حتى يرفعوها ثانية في سبيل أهداف توسعية لا يقصد منها خدمة الإسلام بقدر ما يقصد توفير مصادر جديدة للثروة تدخل جيوب الطبقة الحاكمة وفي مقدمتها الحجاج نفسه... وكان مما قاله لهم:

«... إني لكم ناصح، ولصلاحكم محب، ولكم في كل ما يحيط بكم نفعة ناظر، وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأي استشرت فيه ذوي أحلامكم، وأولي التجربة للحرب منكم، فرضوه لكم رأياً، ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحاً. وقد كتبت إلى أميركم الحجاج، فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعّفني، ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس، وإنما أنا رجل منكم، أمضي إذا مضيتم، وآبى إذا أبيتم...

**لا طاعة للحجاج**

فثار إليه الناس فقالوا: لا، بل نأبى على عدو الله، ولا نسمع له ولا نطيع ...»[(١)].

ولعل عبد الرحمن كان يعرف حقيقة رأي الناس بذلك الزحف المرهق الذي يقصد منه إتعابهم لأقصى غاية ممكنة بينما كانوا يرون جند الشام قد أقاموا في مواطنهم في الكوفة وغيرها مرتاحين آمنين، وكان بالإمكان أن يسيروا معهم ويشاركوهم متاعب تلك الفتوحات السريعة المتلاحقة، وكانوا يعلمون أنهم كانوا مستهدفين بذلك لإبعادهم عن أوطانهم- هم خاصة- خوفاً من ثورتهم المحتملة بوجه النظام الحاكم.

**إخلعوا عدوّ الله الحجاج**

وقد عبر أحد أصحاب عبد الرحمن عن حقيقة الحجاج وعما يريده بهم بكلمة قالها إثر خطابه جاء فيها: «أما بعد فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه: أحمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. إن الحجاج والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثير اللهوب واللصوب، فإن ظفرتم فغنمتم أكل البلاد وحاز المال، وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذي لا يبالي عنتهم، ولا يبقي عليهم. إخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا عبد الرحمن، فإني أشهدكم أني أول خالع...

**الأبناء يخالفون الآباء: عبد المؤمن بن شبث بن ربعي: (إنكم إن أطعتم الحجاج، جمَّركم تجمير فرعون الجنود)**

فنادى الناس من كل جانب فعلنا فعلنا، قد خلعنا عدو الله، وقام عبد المؤمن بن

---

(١) الطبري: ج٣ ص٦٢٢، والكامل في التاريخ: ج٤ ص١٩٨.

شبث بن ربعي[١]... فقال: «عباد الله، إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم، وجمركم تجمير فرعون الجنود، فإنه بلغني أنه أول من جمر البعوث - ولن تعاينوا الأحبة فيما أرى، أو يموت أكثركم. بايعوا أميركم، وانصرفوا إلى عدوكم فانفوه عن بلادكم».

**مبايعة عبد الرحمن على خلع الحجاج ونفيه من أرض العراق**

«فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه، فقال: تبايعوني على خلع الحجاج عدو الله وعلى النصرة لي وجهاده معي حتى ينفيه الله من أرض العراق. فبايعه الناس. ولم يذكر خلع عبد الملك إذ ذاك بشيء...»[٢] مع أنه كان يعلم أنه بخلعه الحجاج كان يخلع عبد الملك نفسه.

ولم يكن أمره هذه المرة أمر من يعصي ويفر، وإنما كان هنا يريد مواجهة عدوه الحجاج والكرّة عليه، وكان يجد في أصحابه عزيمة صادقة لمهاجمة الحجاج وطرده من العراق. فقد رأوا منه ما جعلهم مقتنعين بضرورة إعلان الحرب عليه قبل أن يشتد أمره ويجعلهم على أطراف المملكة الأموية الآخذة بالاتساع حراساً منسيين مهملين.

**إلى العراق لمواجهة الحجاج والدولة الأموية «.. إني خلعت أبا ذبان كخلعي قميصي»**

سار ابن الأشعث من سجستان لمواجهة الحجاج في العراق، وقبيل وصولهم أدرك من معه أنهم بمسيرهم ذاك كانوا يواجهون الدولة الأموية وعبد الملك لا الحجاج وحده، وقد أعلنوا عن عزمهم ذاك بوضوح لخلع عبد الملك عندما بادر أحدهم بقوله:

---

(١) وهو من كان أبوه أحد الذين كتبوا للحسين عليه السلام ثم غدروا به وأعانوا على قتله في كربلاء.

(٢) الطبري: ج٣ ص٦٢٢- ٦٢٣، والكامل في التاريخ: ج٤ ص١٩٨.

«إني خلعت أبا ذبان[١] كخلعي قميصي، فخلعه الناس إلا قليلاً منهم...»[٢].

**مبايعة كاملة (.. على كتاب الله وسنّة نبيّه وخلع أئمة الضلالة)**

وقد بايعوا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، «وكانت بيعته: تبايعون على كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلّين»[٣].

وهي صيغة طموحة تهدف إلى التخلص من فراعنة الأمة الجدد الذين ادعوا الحرص على الإسلام ووحدة المسلمين، ومع أن مواجهتهم لم تكن بالأمر الهين إلا أن إدراك الناس لحقيقتهم المفضوحة جعلهم يقدمون على ذلك رغم المخاطر المحتملة والتعرض للموت... ولا بد أن حساً جديداً ودافعاً قوياً من الشعور بالمسؤولية جعلهم يندفعون تلك الاندفاعة للإطاحة بالعرش الأموي وأركانه.

وقد فزع الحجاج من خروج ابن الأشعث عليه ومطاوعة جيش العراق له واستنجد بعبد الملك طالباً منه أن يعجل بعثة الجنود إليه.

وكعادة (الأشراف) في الرغبة في الاستقرار وثبات الأوضاع التي تضمن مصالحهم وامتيازاتهم، وهو أمر نشهده في ظل مختلف دول الظلم، فإن أحد الأشراف، المهلب، بعث إلى عبد الرحمن يحذره عاقبة الخروج على عبد الملك ونكث بيعته والخروج على الجماعة! كما بعث بنصيحة للحجاج من شأنها أن تغير مسيرة الحرب بينهما لو أنه أخذ بها، إلا أنه لم يأخذ بها، وأعتقد أن المهلب كان يريد نصرة عبد الرحمن.

فقد كتب المهلب إلى الحجاج: «أما بعد فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل

(١) كان عبد الملك يدعى «أبو الذبان لبخر في فمه ودم في لثته كما كان يدعى رشح الحجر لبخله».
(٢) الطبري: ج٣ ص٦٢٤، والكامل في التاريخ: ج٤ ص١٩٩.
(٣) الطبري: ج٣ ص٦٢٤ وذكر ابن الأثير في الكامل في التاريخ: أنها كانت: «تبايعون على كتاب الله وسنة نبيه وعلى جهاد أهل الضلالة وخلعهم وجهاد المحلّين» ج٤ ص١٩٩.

السيل المنحدر من عل، وليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره، وإن لأهل العراق شرة في أول مخرجهم وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم، ويشمّوا أولادهم، ثم واقفهم عندها، فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله»[١].

**خوف عبد الملك من ثورة عبد الرحمن وقيامه بتحريض أهل الشام على أهل العراق**

وكان لخبر خروج عبد الرحمن على الدولة الأموية وقع الصاعقة على عبد الملك، إذ أنه هاله حتى نزل عن سريره وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية فاقرأه كتاب الحجاج، وحاول هذا طمأنته لما رأى ما به من الجزع، ثم ألقى عبد الملك خطبة تدل على مدى مخاوفه من خروج عبد الرحمن وحاول تحريض أهل الشام على أهل العراق مستغلًا العداوة التي زرعها معاوية بينهم وأتت أكلها لصالح الدولة الأموية على مر الأيام.

قال لهم: «إن أهل العراق طال عليهم عمري فاستعجلوا قدري. اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك»[٢].

كان ذلك هو المبرر الوحيد الذي قدمه عبد الملك لأهل الشام، وكان مظهر التقوى الذي ظهر به أمامهم ودعاؤه أن يسلط الله أهل الشام على أهل العراق حتى يبلغوا رضا الله فلا يتجاوزوه إلى سخطه، من شأنه أن يؤثر في أهل الشام (أهل الطاعة) ويدفعهم للقتال معه ضد (أعدائهم) العراقيين. وهذا الأسلوب الوعظي من حكام الجور المتسلحين بأسلحة الدجل المناسبة يظهر في كل مناسبة يتعرضون فيها للمخاطر واحتمال إزاحتهم عن عروشهم[٣].

(١) الطبري: ج٣ ص٦٢٤، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٢٠٠.
(٢) الطبري: ج٣ ص٦٢٤.
(٣) وهو ما نشهده في أيامنا هذه إذ يعمد حكام الجور إلى الظهور بمظهر الوعاظ الزاهدين ويجمعون حولهم وعاظ السلاطين في مؤتمرات إسلامية حتى يبدوا كانهم المدافعون الحقيقيون عن

**الحجاج يقيم في البصرة**

وأقام الحجاج بالبصرة وتجهز ليلقى ابن الأشعث، وكان يرسل بأخباره المتتابعة إلى عبد الملك وكان هذا بدوره يرسل إليه الفرسان، في كل يوم مائة وخمسون وعشرة على البُرد كلما أتيحت له الفرصة وبأقصى سرعة ممكنة إذ يبدو أن الموقف قد تفاقم إلى أبعد حد واحتمال نجاح ابن الأشعث كاد أن يكون قريباً.

**هرب الحجاج في المواجهة الأولى رغم ضخامة جيشة واستعداداته**

ورغم كثافة جيش الحجاج وقيادته المباشرة لذلك الجيش ومبادرته لملاقاة ابن الأشعث في تُستَر، فإنه هُزم هزيمة ساحقة بعد أن ألْحقت بجيشه خسائر فادحة واضطر للهرب إلى البصرة مبرراً هزيمته بأن ذلك المكان الذي كانوا فيه لا يحمل الجند وإن البصرة معسكر ومقاتل وطعام ومادة، ولحقت به خيول أهل العراق، حتى مضى لا يلوي على شيء حتى نزل الزاوية تاركاً البصرة لأهل العراق غير أنه عمد إلى مصادرة طعام التجار، وهي خطوة متوقعة منه.

**هدفنا غزو عبد الملك**

وفي البصرة خطب ابن الأشعث أصحابه قائلًا: «أما الحجاج فليس بشيء، ولكنا نريد غزو عبد الملك»[1]...

وهنا يبدو واضحاً أن الأمر ليس أمر تمرد على الحجاج وإنما هو رفض تام للنظام القائم. وقد أصبح ابن الأشعث في موقف يتيح له التعبير عن أهدافه بوضوح، وهذا ما

---

الإسلام ويلقون فيهم كلمات تدعو إلى التمسك بإطاعة الله ورسوله وأولي الأمر (هم طبعاً) وعدم المخالفة والخروج عن حبل الله! والتمسك بوحدة الجماعة... ويظهرهم الوعاظ أمام الأمة وكأنهم فعلاً حماة الإسلام وممثلوه الشرعيون، وما أكثر النماذج التي نشهدها..

(١) الطبري: ج٣ ص٦٢٥.

فعله في البصرة.

ولعل خطوة بسيطة كان أحد أهل البصرة يزمع القيام بها، وهي أن يقطع الجسر دون الحجاج، ستغير مجرى المعارك اللاحقة كلها مستقبلًا وتغير مصير الحجاج وعبد الملك نفسه، غير أن عامل الحجاج رشاه بمائة ألف فكف عن ذلك، ثم أن الحجاج انتزع النقود منه بعد ذلك.

ونلاحظ أن مصير معارك كبرى ربما كان يتوقف على مثل تلك الخطوة البسيطة، ويحفل التاريخ بأمثلة عديدة على ذلك.

### إجتياح البصرة خلع عبد الملك جميع أهلها من قرائها وكهولها

«فلما دخل عبدالرحمن بن محمد البصرة بايعه على حرب الحجاج وخلع عبدالملك جميع أهلها من قرائها وكهولها، وكان رجل من الأزد من الجهاضم يقال له عقبة بن عبدالغافر له صحابة، فنزا فبايع عبدالرحمن مستبصرا في قتال الحجاج وخندق الحجاج عليه وخندق عبدالرحمن على البصرة...»[(١)].

### تصرف عن وعي وبصيرة

وإجماع أهل البصرة كلهم الإنضمام لابن الأشعث مستبصرين واعين بحقيقة الخطوة التي يقدمون عليها لمحاربة دولة الظلم الأموية، أمر له مغزاه، ولم يسبق أن حدث من قبل.. وكان يعني أن هذه الشريحة من الأمة في هذا المصر من العالم الإسلامي تدرك حقيقة ما يجري في ظل تلك الدولة وتدرك حقيقة خروجها السافر عن الإسلام وإن بررت وجودها وظلمها بأمور وحجج وذرائع نسبتها للإسلام، وكان يعني أن

(١) الطبري: ج٣ ص٢٦٥ وأورد ابن الأثير: «فبايعه جميع أهلها وقراؤها وكهولها مستبصرين في قتال الحجاج ومن معه من أهل الشام»،ج ٤ ص٢٠٠.

ذلك كان الأمر الوحيد الذي ينبغي أن تقوم به لمواجهة تلك الدولة خصوصاً وانه تم إثر خطوة ظالمة أقدم عليها الحجاج مستهدفاً جمع الأموال دون وجه حق، فقد ذكر أن سرعة إجابة أهل البصرة لبيعة ابن الأشعث «أن عمال الحجاج كتبوا اليه أن الخراج قد انكسر وان أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار فكتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل من قرية فليخرج إليها فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية فجعلوا يبكون وينادون يا محمداه يا محمداه ولا يدرون أين يذهبون، وجعل قراء البصرة يبكون لما يرون فلما قدم ابن الأشعث عقيب ذلك بايعوه على حرب الحجاج وخلع عبد الملك»[1].

كانت خطوة الحجاج لجمع (الجزية) من المسلمين وإرجاعهم عن الإسلام وإعادتهم كفاراً رغم أنوفهم تعد استهانة بالغة بالإسلام جملة وتفصيلًا. إذ أن المتوقع في ظل دولة تدعي شرعيتها على أساس الإسلام أن يعمد المسؤولون فيها إلى كسب المزيد من الناس إلى جانبه.

وإن أدّى ذلك إلى حرمان ميزانية الدولة من (الجزية) التي يدفعونها، لا أن يقوموا بتحرك مضاد من شأنه تقوية معسكر الكفر لمجرد أن ذلك يؤدي إلى انتفاخ جيوبهم بالمال الحرام، وكان من شأن ذلك أن يجرح مشاعر المسلمين الواعين ويستفز الأمة بأسرها، وهو قد استفز أهل البصرة وفي مقدمتهم (القرّاء) الذين كانوا يشكلون شريحة واسعة ويعتبرون من أكثر الناس إدراكاً لما كان يدور حولهم ووعياً بطبيعة الممارسات المعادية للإسلام والتي تقوم بها الدولة علانية، دون تحرج أو خجل.

**هزيمة ثانية للحجاج انتهت بتراجع ابن الأشعث- حارب أهل البصرة رغم تراجع عبد الرحمن**

وفي الحرب الثانية التي جرت بين ابن الأشعث والحجاج بالزاوية، هزم أهلُ

(١) الكامل في التاريخ: ج٤ص٢٠٠، والطبري: ج٣ ص٦٤٨.

العراق أهلَ الشام حتى انتهوا إلى الحجاج «وحتى قاتلوهم على خنادقهم، وانهزمت عامة قريش وثقيف»[١].. وكان ذلك في بداية محرم سنة اثنين وثمانين، وفي النهاية بدت المعركة وكأنها لصالح الحجاج الذي حشد خلال ذلك الشهر جيشاً كثيفاً استطاع التغلب على ابن الأشعث الذي تراجع إلى الكوفة بجيشه ومن لحقه من أهل البصرة. واستمرت المعركة بعده بين أهل البصرة الذين بايعوا عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وأمروه عليهم، وبين جيش الحجاج خمس ليال قاتلوا فيها أشد قتال رآه الناس، ثم انه التحق مع طائفة أخرى من أهل البصرة بابن الأشعث. «وقتل الحجاج يوم الزاوية بعد الهزيمة أحد عشر ألفاً خدعهم بالأمان، وأمر منادياً فنادى: لا أمان لفلان بن فلان فسمى رجالًا، فقال العامة: «قد أمَّن الناس. فحضروا عنده فأمر بهم فقتلوا»[٢].

وخدعة الحجاج هذه ليست الوحيدة التي لجأ إليها وإنما حفل سجله بالعديد من أمثالها لم يتحرج من اللجوء إليها وهو يسعى لتثبيت حكم أسياده الأمويين. وهي حيلة مألوفة في سجلات أمثاله من الطغاة ممن لا حريجة لهم في الدين.

**العودة إلى الكوفة واستقبال حافل وهزيمة منكرة لجيش الشام**

وفي الكوفة استطاع ابن الأشعث التغلب على عامل الحجاج عليها الذي استسلم واستسلم معه أربعة آلاف من جيش الشام كانوا معه على أن يخرجوا ويخلّوه والقصر.

وجرى استقبال حافل لابن الأشعث «فلما دخل الكوفة مال إليه أهل الكوفة كلهم وسبقت همدان إليه فحفت به، ودخل الناس إليه فبايعوه وسقط إليه أهل البصرة

(١) الطبري: ج٣ ص٦٢٧، والكامل في التاريخ: ج٤ص٢٠٢.
(٢) الكامل في التاريخ: ج٤ص٢٠٣.

وتقوضت إليه المسالح والثغور...»[١].

وحاول الحجاج اللحاق بابن الأشعث، إلا أن هذا أرسل إليه عبد الرحمن بن عباس في خيل عظيمة فمنعوه من نزول القادسية وسايروه حتى نزل دير قُرَّة ثم نزل ابن الأشعث دير الجماجم واستعد كل منهما لصاحبه.

**استعداد للمواجهة الحاسمة**

واجتمع أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم والقراء من أهل المصرين، فاجتمعوا جميعاً على حرب الحجاج، وجمعهم عليه بغضهم والكراهية له، وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء، ومعهم مثلهم من مواليهم.

«وجاءت الحجاج أيضا أمداده من قبل عبدالملك من قبل أن ينزل دير قرة...»[٢]. ويبدو أن قوة الحجاج لم تكن بمستوى قوة ابن الأشعث، فلم تتح له فرصة التغلب عليه في المعارك المستمرة طوال عدة أشهر حتى شهر شعبان من ذلك العام، حين جرت المعارك النهائية الطاحنة بينهما.

**الحجاج: كاد أن يخلعه عبد الملك عن العراق لاستمالة أهلها.**

ولنا أن نتصور الموقف جيداً، فمقابل جيش ابن الأشعث الذي يقارب ربع مليون شخص جمع بينهم بغض الحجاج والكراهية له بعد أن استهدفتهم دولة الظلم الأموية بأذاها وشرها، وكانوا في موقف جيد وهم «ذوو العدد الكثير، والسعر الرفيع والمادة القريبة» على حد تعبير أحدهم[٣]، يقف أعوان الدولة المستميتون في الدفاع عنها لأنها

---

(١) الطبري: ج٣ ص٦٢٩، والكامل في التاريخ: ج٤ص٢٠٣.

(٢) الطبري: ج٣ ص٦٣٠، والكامل في التاريخ: ج٤ص٢٠٣.

(٣) الطبري: ج٣ ص٦٣١، والكامل في التاريخ: ج٤ص٢٠٤.

وحدها التي تكفل مصالحهم وامتيازاتهم، وكانوا أقل من أولئك عدداً ومادة، فكان الوضع يشير إلى احتمال نجاح ابن الأشعث في أية معركة كبرى مترقبة، خصوصاً وأن الحجاج لم يستطع النيل منه في الوقائع العديدة التي جرت بينهما، وهو الأمر الذي أقلق رؤوس قريش وأهل الشام قبل عبد الملك ومواليه، وقد اقترحوا عليه، للخروج من ذلك المأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه أن ينزع الحجاج عن العراق لكي تخلص له طاعتهم وتحقن به دماء الجميع على حد تعبيرهم.

ويبدو أن عبد الملك قد وجد أن ذلك كان حلًا مناسباً وإن لم يكن مطمئناً إلى قبول أهل العراق به، لأن الحجاج لم يكن سوى أداة من الأدوات الأموية المسخرة، ولعلهم لا يطمئنون إليه ويثقون بوعوده إذ طالما غدر من قبل ولم يعد أمره خافياً عنهم.

وأرسل عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان في جنديهما وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجاج عنهم، وأن يجري عليهم أعطياتهم كما تجري على أهل الشام[١]، وأن ينزل [عبد الرحمن][٢] بن محمد أي بلد من العراق شاء، يكون عليه والياً مادام حياً، وكان عبد الملك والياً...»[٣].

**فزع وتنازل**

كان هذا التنازل من عبد الملك يدل على فزعه الشديد من ثورة العراقيين التي توشك أن تطيح بعرشه، فلم يسبق لمثل هذه الأعداد أن اجتمعت على مقاومة الدولة الأموية، ولا شك أن ما يثيرها الآن تفاقم الظلم في العراق والذي بلغ ذروته بوجود

---

(١) وفي ذلك اعتراف بقيام الدولة بالتمييز في العطاء بين أهل العراق وأهل الشام، وهو أمر اتبع منذ عهد معاوية لاستقطاب الشاميين حول العرش الأموي وجعلهم جنوداً مخلصين له.

(٢) زائدة- للتوضيح.

(٣) الطبري: ج٣ ص٦٣٠، والكامل في التاريخ: ج٤ص٢٠٤.

الحجاج حاكماً هناك.

وإذ أن الحجاج لم يكن سوى آلة طيعة من أدوات الظلم فإن سحبها من العراق وإشهارها في مكان آخر قد يحتمل أن تقوم فيه ثورة أخرى، بدا مفتاحاً لحل تلك المشكلة الكبيرة التي واجهت عبد الملك.

وهو الأمر الذي أفزع الحجاج وجعله يكتب لعبد الملك لكي يتراجع عن قراره[١]، فلم يأته أمر قط كان أشد عليه ولا أغيظ له ولا أوجع لقلبه منه مخافة أن يقبل أهل العراق فيعزل عنهم، فلم يكن يخدم الدولة لأنها تحقق العدالة لعموم المسلمين ولأنها تمثل التوجهات الحقيقية للإسلام، بل لأنه وجد له مكاناً فيها يتيح له تحقيق أطماعه وطموحاته الشخصية، ويجعله في الصدارة من الحكام والمتنفذين، ولنا أن نتصور حزنه وغيظه إذا ما أطاح به مولاه بقرار سريع لكي يرضي أعداءه.

**عرض عبد الملك أوجد انشقاقًا في صفوف العراقيين**

وقد رفض عبد الملك التماس الحجاج لإبقائه في مركزه طالما أن مركزه هو كان عرضة للإنهيار، وأمر ابنه وأخاه أن يعرضا على أهل العراق ما سبق أن أمرهما...

**كاد أن يقبل بتنازلات عبد الملك لولا رفض العِراقيين**

وقد اقترح ابن الأشعث في اجتماع حاشد عقده مع قواده ورؤساء جيشه أن يقبلوا بعروض عبد الملك التي بدت معقولة وتحقق الحد الأدنى من مطاليبهم لأن قبولهم بها وهم في حال القوة التي بدوا بها، سيجعلهم أعزاء مهابين يحسب لهم عدوهم ألف حساب في المستقبل قبل الإقدام على أية ممارسة ظالمة[٢].

---

(١) الطبري: ج٣ ص٦٣٠.

(٢) قال لهم ابن الأشعث: «أما بعد فقد أعطيتم أمرا انتهازكم اليوم إياه فرصة ولا آمن أن يكون

وربما أدرك ابن الأشعث أن عرض عبد الملك قد أوجد تيارين متناقضين في جيشه بمجرد طرحه، إذ أن هناك من يميل إلى السلم والموادعة طالما أن مطلباً رئيسياً من مطالبه قد تحقق، وهو تنحية الحجاج عن عرش العراق، وربما وجدت الثغرة منذ ذلك الحين في صفوف ذلك الجيش الذي بدا متماسكاً إلى تلك اللحظة التي طُرِحَ عليه فيها عرض عبد الملك.

وربما أراد ابن الأشعث إنتهاز فرصة أخرى مناسبة للوثوب بعبد الملك وخلعه خصوصاً وأنه لم يستطع خلال أشهر عديدة وجيشه يتفوق على جيش الحجاج أن يزيحه عن مواضعه ويلحق به هزيمة حقيقية منذ معركة تستر، مع أن «أهل العراق تأتيهم موادهم من الكوفة ومن سوادها فيما شاؤوا من خصبهم وإخوانهم من أهل البصرة وأهل الشام في ضيق شديد قد غلت عليهم الأسعار وقل عندهم الطعام وفقدوا اللحم وكانواكأنهم في حصار وهم على ذلك يغادون أهل العراق ويراوحونهم فيقتتلون أشد القتال...»[1].

غير أن العراقيين رفضوا ما عرضه عليهم عبد الملك وما اقترحه عليهم قائدهم ابن الأشعث، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أمرين:

الأول: قناعتهم بضعف الجبهة المقابلة وقوة جبهتهم، مما حسبوا معها أن تفوقهم على عدوهم سيكون أمراً مؤكداً، وقد جعلهم ذلك يثبون من كل جانب إثر سماعهم اقتراح ابن الأشعث «وقالوا: إن الله قد أهلكهم فأصبحوا في الأزل والضنك والمجاعة

---

على ذي الرأي غدا حسرة وإنكم اليوم على النصف وإن كانوا اعتدوا بالزاوية فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر فاقبلوا ما عرضوا عليكم أنتم أعزاء أقوياء والقوم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون فلا والله لا زلتم عليهم جراء ولا زلتم عندهم أعزاء إن أنتم قبلتم أبدا ما بقيتم» الطبري: ج٣ ص٦٣١، والكامل في التاريخ: ج٤ص٢٠٤.

(١) الطبري: ج٣ ص٦٣١، والكامل في التاريخ: ج٤ص٢٠٥.

والقلة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرفيع والمادة القريبة لا والله لا نقبل»[١]. وهذه القناعة العامة قد تجعل حتى أولئك الذين يميلون للمسالمة والموادعة يرفضون إيقاف الحرب طالما حسبوا أن نصرهم مؤكد على عدوهم.

الثاني: وجود طائفة من ذوي البصيرة والدين في جيش ابن الأشعث ممن أدركوا حقيقة انحراف النظام الأموي وعلموا أن قتالهم إياه غير قابل للمساومة خصوصاً وأنه استمر على انحرافه المعلن كما كان أيام يزيد، وهؤلاء هم طائفة القراء وعليهم جَبَلَة بن زَحر بن قيس الجعفي، وكان معه خمسة عشر رجلًا من قريش وكان فيهم عامر الشعبي وسعيد بن جبير وأبو البختري الطائي وعبد الرحمن بن أبي ليلى وكميل بن زياد النخعي الذي كان يتزعم كتيبة أخرى للقراء.

ويمكن أن نضيف لهذين السببين سبباً ثالثاً وهو أن الموالي الذين كان عددهم يقارب عدد المقاتلين الذين يأخذون العطاء قد يرون باستمرار الحكم الأموي، الذي استهدفهم خاصة مع أنهم من المسلمين، استمراراً لاضطهادهم ومعاملتهم معاملة غير المسلمين، وهو ما كان الحجاج ناوياً أن يفعله بفرض الجزية عليهم في البصرة، وربما ارتفع صوت هؤلاء في تلك اللحظات رافضاً إيقاف الحرب.

### كتيبة القراء.. مركز القوة في جيش ابن الأشعث

ومهما يكن فقد رُفِضَت عروض عبد الملك وكان اجتماع الناس على خلعه بالجماجم أجمع من خلعهم إياه بفارس... وبقي الحجاج قائداً أعلى لجيش الدولة، وقد أدرك الحجاج أن مكمن القوة في جيش ابن الأشعث هو كتيبة القراء، وانه إذا ما استطاع النيل من هذه الكتيبة كسر بأس عدوه وأتيحت له فرصة التغلب عليه وقد عبأ لها ثلاث

(١) الطبري: ج٣ ص٦٣١، والكامل في التاريخ: ج٤ ص٢٠٥.

كتائب حملت عليها ثلاث حملات كل كتيبة تحمل حملة فلم تستنقص منها شيئاً[١].

**روح كربلاء**

وقد أوضح بيان ألقاه عبد الرحمن بن أبي ليلى في القرّاء السبب الذي دعاهم لقتال جيش عبد الملك، وهو نفس السبب الذي دعا الحسين عليه السلام لمواجهة الدولة الأموية بقيادة يزيد من قبل، فروح كربلاء بدت متوهجة في تلك المعركة الطويلة، ومقاومة الظلم بدت مطلباً دائمياً لا يمكن إسكات صوت المنادين به إلى الأبد.

قال ابن أبي ليلى:

يا معشر القراء إن الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه بكم، إني سمعت علياً رفع الله درجته في الصالحين وأثابه أحسن ثواب الشهداء والصديقين يقول يوم لقينا أهل الشام: **أيها المؤمنون إنه من رأى عدوانا يُعْمَل به ومنكراً يُدْعَى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ ومن أنكر بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه ومن أنكر بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى ونور في قلبه اليقين فقاتلوا هؤلاء المحلين المحدثين المبتدعين الذين قد جهلوا الحق فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه**».

وقال أبو البختري: «أيها الناس قاتلوهم على دينكم ودنياكم فوالله لئن ظهروا عليكم ليفسدن عليكم دينكم وليغلبن على دنياكم.

وقال الشعبي: يا أهل الإسلام قاتلوهم ولا يأخذكم حرج من قتالهم فوالله ما أعلم قوما على بسيط الأرض أعمل بظلم ولا أجور منهم في الحكم فليكن بهم البدار.

وقال سعيد بن جبير: قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم بنية ويقين وعلى آثامهم قاتلوهم

(١) الطبري: ج٣ ص٦٣١، والكامل في التاريخ: ج٤ ص٢٠٦.

على جورهم في الحكم وتجبّرهم في الدين واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة»[١].

**مقتل قائد كتيبة القراء زلزل الكتيبة بعد صمود مائة يوم**

صمدت كتيبة القراء بوجه الكتائب المعادية الثلاث، إلا أنها كانت تعوّل- فيما يبدو في نصرها- على شخصية قائدها جبلة بن زحر، وكانت بقية جيش ابن الأشعث تعوّل على هذه الكتيبة، لذلك فإن مقتل هذا القائد قد زلزل أركان هذه الكتيبة وجعل معنويات أفرادها تتراجع بعد صمود دام مائة يوم، كما جعل ذلك معنويات أهل الشام تتصاعد بشكل استثنائي بعد أن كاد يصيبهم الفشل والوهن وقد استطاعوا إلحاق الهزيمة بجيش ابن الأشعث في رأس المائة وفي يوم لم يكن أهل العراق أجرأ عليهم ولا أهل الشام أهون على أهل العراق من ذلك اليوم وبعد أن حسب أهل العراق أن نصرهم مؤكد على جنود الحجاج وهم آمنون من الهزيمة عالون للقوم.

**خيانة الأبرد بن قرّة التميمي- انهزم لتخذيل الجيش العراقي**

وقد ساعد على تلك الهزيمة خيانة الأبرد بن قرة التميمي الذي كان على ميسرة ابن الأشعث وقد انهزم بعد قتال يسير، وكان شجاعاً ولم يكن الفرار له بعادة قبل ذلك «فظن الناس أنه قد كان أومن وصولح على أن ينهزم بالناس فلما فعلها تقوضت الصفوف من نحوه وركب الناس وجوههم وأخذوا في كل وجه»[٢] ولم تنفع نداءات وصيحات ابن الأشعث فيهم أن يصمدوا معه، بعد أن صمد هو لجيش الشام الذي أصبح قريباً منه

---

(١) الطبري: ج٣ ص٦٣٥، والكامل في التاريخ: ج٤ص٢١٠ ويذكرنا قول أمير المؤمنين عليه السلام الذي ردده ابن أبي ليلى في قراء الكوفة والبصرة بخطب الإمام الحسين عليه السلام التي ألقاها في أصحاب الحر وأصحاب عمر بن سعد قبيل مواجهته لجيش ابن زياد واستشهاده في كربلاء. كما أن في أقوال البقية قبسات من أقوال الحسين عليه السلام التي رددها في كربلاء وقبلها.

(٢) الطبري: ج٣ ص٦٣٨، والكامل في التاريخ: ج٤ص٢١١-٢١٢.

وكاد أن يصل إليه، واضطر للانسحاب بالبقية الباقية من أصحابه بعد أن مالت الكفة إلى جانب عدوه الحجاج آملًا أن يجمع له جمعاً آخر ينتصر به عليه.

ولا يفوتنا أن نذكر أن حالات بطولية نادرة قد حصلت في تلك المعركة ثبت فيها أناس لم يردهم عن القتال إلا الموت رغم شراسة عدوهم وغلبته فيما بعد ورغم شيخوخة بعضهم وهرمهم وضعفهم الشديد، وهي حالات جديرة أن تسجل ويُنظر إلى مواقف أبطالها الرافضة للظلم، باحترام لأنها تنم عن وعي رسالي جدير بصحابة الرسول صلى الله عليه وآله وأصحاب الحسين عليه السلام.

### مقتل كميل بن زياد وسعيد بن جبير

ورغم أن منادي الحجاج نادى أن من رجع فهو آمن، إلا أنه استمر بعد ذلك لعدة سنوات بمطاردة وقتل من شاركوا بثورة ابن الأشعث، وليست تخفى عنا قصة مقتل كميل بن زياد النخعي[١] وسعيد بن جبير[٢] وغيرهما، وكان لا يقبل مبايعة إلا من شهد

(١) دعا الحجاج «كميل بن زياد النخعي فقال له أنت المقتص من عثمان أمير المؤمنين قد كنت أحب أن أجد عليك سبيلاً، فقال: والله ما أدري على أينا أنت أشد غضبا عليه حين أقاد من نفسه أم علي حين عفوت عنه ثم قال: أيها الرجل من ثقيف لا تصرف علي أنيابك ولا تهدم علي تهدم الكثيب ولا تكشر كشران الذئب والله ما بقي من عمري إلا ظمء الحمار فإنه يشرب غدوة ويموت عشية ويشرب عشية ويموت غدوة اقض ما أنت قاض فإن الموعد الله وبعد القتل الحساب... قال الحجاج: فإن الحجة عليك قال: ذلك إن كان القضاء إليك» الطبري: ج٣ ص٦٣٩، والكامل في التاريخ: ج٤ص٢١٢ فأمر به فقتل. وكان كميل من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) كان سعيد في مكة مختفياً عن الحجاج فوشي به إلى الحجاج فبعث به عامل مكة إليه. وفي الطريق طلب منه حراسه أن يهرب فابى وقد التقى بقراء أهل الكوفة قبل أن يؤخذ به إلى الحجاج وكان ضاحكاً مستبشراً... وقد روي أنه لما قتل سعيد بن جبير فندر رأسه لله هلل ثلاثاً، مرة يفصح بها، وفي الثنتين يقول مثل ذلك لا يفصح..

وقد التبس الحجاج عند قتله سعيداً، وعندما هدده بالقتل قبل أن يقتله قال له: «إني إذا لسعيد كما

على نفسه بالكفر، وهو أمر غريب إذ كيف يطلب مدّعي الإيمان مبايعة الكافر- بزعمه- له؟ وقد قتل بعد ذلك مائة وثلاثين ألفاً صبراً[1]...

وقد جرت وقعة أخرى بمسكن بين الحجاج وابن الأشعث الذي استولى ثانية على البصرة وقد التحقت به فلول جيشه، وتلاوم الناس على الفرار، وقد سار إليه الحجاج بقواته فقاتله خمس عشرة ليلة، فاقتتلوا أشد القتال. وفي تلك المعركة قتل أحد قادة جيش الحجاج، فهده ذلك وأصحابه هداً شديداً، وهنا عاد يستعمل أسلوبه الوعظي لابساً مسوح الزاهد المؤمن بالله، وكأنه لم يكن الحجاج الطاغية الذي لا يقيم وزناً أو حرمة لدين أو قيم إلهية حقاً، وكأنه لم يكن أبعد الناس عن الإسلام وأقربهم للكفر والطاغوت.

قال متملقاً لأفراد جيشه ومتخلياً عن أسلوب العنجهية الذي عرف به:

**أهل الشام.. أهل الطاعة**

«إنكم أهل الطاعة وهم أهل المعصية وأنتم تسعون في رضوان الله وهم يسعون في سخط الله وعادة الله عندكم فيهم حسنة ما صدقتموهم في موطن قط ولا صبرتم لهم إلا أعقبكم الله النصر عليهم والظفر بهم فأصبحوا إليهم عادين جادين إني لست أشك في النصر إن شاء الله»[2].

لقد صُمِّمَ أهل الشام ليكونوا (أهل طاعة) وينظروا بعين حاكمهم و (خليفتهم)،

---

سمتني أمي قال فقتله فلم يلبث بعده إلا نحوا من أربعين يوما فكان إذا نام يراه في منامه يأخذ بمجامع ثوبه فيقول يا عدو الله لم قتلتني فيقول ما لي ولسعيد بن جبير ما لي ولسعيد بن جبير الطبري: ج٤ ص٢٥، والكامل في التاريخ: ج٤ص٢٨٠- ٢٨١.

(١) الطبري: ج٣ ص٦٤٨.

(٢) الطبري: ج٣ ص٦٤٠.

وقد تحدثنا من قبل في هذا الكتاب كيف سعى معاوية قرابة أربعين عاماً ليجعلهم كذلك، راضين عن أنفسهم طالما أن أحاديث مزوّرة قد لفقت وانطلت عليهم إمرتهم باتباع الحاكم (ولي الأمر) وإن كان فاسقاً أو مفضولًا، وتعهدت لهم بالجنة باعتبار أنهم يسعون في رضوان الحاكم الذي هو رضوان الله.

**المعركة الأخيرة.. تفوق في العدد والعدّة**

وكان جيش الحجاج هذه المرة يتفوق على جيش ابن الأشعث كثيراً، ومع ذلك فإن القتال استمر خمسة عشر يوماً أشد قتال، ويكفي أن ندلل على كثرة جيش الحجاج بمشهد من تلك المعركة مشى فيه بسطام بن مصقلة بن هبيرة في أربعة الاف فارس من شجعان أهل الكوفة والبصرة فكسروا جفون سيوفهم وحث أصحابه على القتال فحملوا على أهل الشام فكشفوهم مراراً، وهنا أمر الحجاج الرماة فرموهم، ولنا أن نتصور عدد الرماة الذين استطاعوا التغلب على أربعة الاف فارس شجاع مستميت حتى قُتلوا إلا قليلًا منهم بعد أن أحاط بهم الناس.

**إطمأنوا إلى نجاحهم في البداية فأمنوا وألقوا السلاح**

وفي بداية المعركة تغلب ابن الأشعث على الحجاج الذي انهزم «وعبر السيب ورجع ابن الأشعث إلى عسكره آمنا ونهب عسكر الحجاج فأمنوا وألقوا السلاح فلم يشعروا نصف الليل إلا والسيف يأخذهم من تلك السرية فغرق من أصحاب عبد الرحمن أكثر ممن قتل ورجع الحجاج في عسكره على الصوت فقتلوا من وجدوا فكان عدة من قتل أربعة آلاف»[1].

(١) الكامل في التاريخ: ج٤ ص٢١٣.

**إلى سجستان.. غدر وخيانة**

وهكذا اضطر ابن الأشعث للهروب مرة أخرى وسار إلى سجستان، وهناك غَدَر به عماله وقبض عليه أحدهم بعد أن أخذه غدراً وأراد أن يسلمه إلى الحجاج لو لم ينقذه رتبيل، ملك الترك من قبضته..

وعندما وصل سجستان، كان معه من أصحابه من الرؤوس والقادة الذين لم يقبلوا أمان الحجاج ونصبوا له العداوة في كل موطن، وفي الطريق إلى خراسان هرب من أصحابه عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة القرشي في ألفين فأخذ طريقاً سوى طريقهم. وهنا أدرك عبد الرحمن أن معظم أصحابه سيتخلون عنه بالتدريج بعد أن يحصلوا على كتب أمان من الحجاج خصوصاً وأن آمالهم بالتغلب عليه قد خابت بعد أن تغلب عليهم عدة مرات...

وقد ألقى كلمة في أصحابه جاء فيها: «أما بعد فإني شهدتكم في هذه المواطن وليس فيها مشهد إلا أصبر لكم فيه نفسي حتى لا يبقى منكم فيه أحد فلما رأيت أنكم لا تقاتلون ولا تصبرون أتيت ملجأ ومأمنا فكنت فيه فجاءتني كتبكم بأن أقبل إلينا فإنا قد اجتمعنا وأمرنا واحد لعلنا نقاتل عدونا فأتيتكم فرأيت أن أمضي إلى خراسان وزعمتم أنكم مجتمعون لي وأنكم لن تفرقوا عني ثم هذا عبيدالله بن عبدالرحمن قد صنع ما قد رأيتم فحسبي منكم يومي هذا فاصنعوا ما بدا لكم أما أنا فمنصرف إلى صاحبي الذي اتيتكم من قبله فمن أحب منكم أن يتبعني فليتبعني ومن كره ذلك فليذهب حيث احب في عياذ من الله»[1].

---

(١) الطبري: ج٣ ص٦٤٢، والكامل في التاريخ: ج٤ص٢١٥.

**مات غريباً بعد أن كاد يطيح بالعرش الأموي**

ذهب عبد الرحمن إلى رتبيل من هراة وبقي هناك سنتين غَدَر به أحدُ أصحابه بعدها واتفق مع رتبيل أن يقتله ويسلم رأسه للحجاج، وقيل أنه أصيب بالسل.. ومات هناك بعد أن انتهت ثورته التي كادت أن تودي بالعرش الأموي وقد زلزلته، وجعلت الناس يفكرون بحقيقة الدولة الظالمة التي تسلطت على مقدرات المسلمين بالإكراه وكانت امتداداً لدولة يزيد التي انحرفت عن الإسلام بصورة سافرة متعمدة وأعلنت رفضها لكل قيمه الحقيقية بل وكفرها به إلا ضمن الحدود التي أتيح لها التسلط والبقاء بعد أن مهدت لذلك بحملة منظمة من الافتراء والدس والأحاديث الموضوعة بدأها معاوية وحبذ لها عشرات (المحدثين) والقصاص ووعاظ السلاطين ومن لف لفهم، وقد تحدثنا عن ذلك بإسهاب في غضون هذا الكتاب.

## ٩- ثورة زيد بن علي بن الحسين

**عالم صالح**

عاصر زيد (رضوان الله تعالى عليه) فترة طويلة حياة أبيه زين العابدين عليه السلام وأخيه محمد الباقر عليه السلام وابن أخيه جعفر الصادق عليه السلام[(١)]، وامتاز بميزات فريدة وشعور عال بالمسؤولية أهّله للقيام بثورته العاصفة بوجه دولة الظلم الأموية التي خرجت عن العديد من قيم الإسلام ومبادئه خروجاً سافراً متعمداً واستهدفت خط آل البيت وأنصارهم بالشر والأذى باعتبار أنه الخط الوحيد المؤهل لكشفها وتعريتها أمام الأمة مما قد يؤدي إلى الإطاحة بها واستبعادها عن الحكم، وهو ما لم تكن لتسمح به في أي حال من الأحوال.

إذ أن زيداً نشأ في ظل تلك العائلة الفريدة وعُرف بالعلم والتقوى ورجاحة العقل ونكران الذات، فإن واقع حاله يدل دلالة أكيدة على أنه لم يكن يدعو إلى نفسه ولم يكن طالب ملك أو منافساً على منصب الإمامة. ولو أنه كان كذلك- كما حاولت روايات هزيلة أشارت إلى محاورة مفتعلة بينه وبين أخيه الباقر- لطبَّلت أجهزة الدعاية الأموية والعباسية ولما اكتفت بتلك الروايات الهزيلة، فالنيل من آل البيت بدا هدفاً مركزياً لكلا

---

(١) ولد الإمام زين العابدين سنة ٣٨ هـ وتوفي سنة ٩٥هـ.

أما زيد الذي قتل -في أصح الروايات- سنة ١٢٢ وعمره ٤٢ سنة وقيل ٤٥ وقيل ٤٧ سنة فلا بد أنه ولد إما سنة ٨٠ أو ٧٧ أو ٧٥ فيكون قد عاش مع أبيه ما بين خمس عشرة إلى عشرين سنة. وولد الإمام الباقر سنة ٥٧ وتوفي سنة ١١٤ من الهجرة فيكون زيد قد عاش معه أكثر من ٣٤ عاماً. أما الصادق فقد ولد سنة ٨٣ هـ وتوفي سنة١٤٨هـ من الهجرة فيكون قد قد عاش حياته كلها معه.

الدولتين لم تتهاونا فيه في أي يوم من الأيام، وخلاف واضح مدعم بروايات وأسانيد صحيحة لم يكن مما يمكن أن تتغاضى عنه ولا تذيعه بين الناس.

**شعور بمظلومية المسلمين**

كان شعور زيد بمظلومية المسلمين وقيادتهم الحقيقية المبعدة عن المسؤولية، شعوراً مريراً، يُزيد من مرارته وجود الطغمة المتنكرة للإسلام على رأس السلطة الحاكمة وعبثها بمقدرات المسلمين واستهتارها بكل قيم الإسلام الحقيقية.

ولعل الأحداث التي ذكرها المؤرخون وذكروا أنه ثار بسببها، لم تكن سوى عوامل مساعدة أججت من تلك الثورة التي لم تكن دوافعها شخصية بأي حال.

**عوامل أججت نار الثورة**

إذا ما استعرضنا تلك الأحداث التي ذكرت لنا ذكراً مبتوراً منقوصاً ولم تتح للكتب والمصادر التاريخية نقلها كلها نقلًا وافياً، فإن تلك الأحداث المقطوعة عن مسبباتها الحقيقية قد لا تكون سبباً وحيداً لثورة إنسان عُرِفَ بعلمه وورعه وتقواه كزيد ابن علي بن الحسين وقد تكون سبباً لوصم تلك الثورة بأنها كانت مجرد رد فعل لبعض الإهانات التي أُلْحِقَت بشخصه من قبل الحاكم الأموي وأعوانه، وهو الأمر الذي ما كان يقدم عليه زيد لو أنه كان كذلك ولما عرّض المئات من أصحابه للموت قتلًا لو أنه كان يريد الانتقام ممن آذوه وحاولوا إلحاق الإهانة به، ومن هنا كان الاختلاف في سبب ثورته.

فأما الرواية التي تنسب لعبد الله بن عياش فتذكر أن زيد بن علي ومحمد بن عمر ابن علي بن أبي طالب وداوود بن علي بن عبد الله بن عباس قدموا على والي العراق من

قبل هشام بن عبد الملك، خالد بن عبد الله القسري[1]، فقدم لهم جوائز ورجعوا إلى المدينة. فلما عُزل خالد وولي يوسف بن عمر كتب إلى هشام باسمائهم وبما أجازهم به وادّعى أن خالداً ابتاع من زيد بن علي أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار ثم رد الأرض عليه، ولما كان يوسف بن عمر الذي اشتهر بقسوته وكراهيته لآل البيت عليهم السلام قد أراد أن يتقرب من هشام بادعاء الحرص على إرجاع الأموال التي سرقها سلفه من المسلمين وأراد انتزاعها منه بالقوة، فإنه عمد إلى تلك الوشاية للتنكيل بخصومه جميعاً، وقد كتب هشام إلى عامل المدينة أن يسرحهم إليه ففعل، فسألهم هشام فاقروا بالجائزة، وأنكروا ما سوى ذلك، فسأل زيداً عن الأرض فانكرها، وحلفوا لهشام فصدقهم[2]..

وتضيف رواية أخرى عن هشام بن محمد الكلبي: إن الذي ادعى مالًا قبلهم هو يزيد بن خالد- الذي ربما كان قد فعل ذلك تحت تهديد يوسف بن عمر- الذي كتب إلى هشام بذلك، فبعث إليهم فذكر لهم ما كتب به يوسف، فانكروا، فبعث بهم هشام إلى الكوفة ليجتمعوا بيزيد بن خالد ويثبتوا براءتهم هناك.. إذ أن يوسف بن عمر كان متحاملًا عليهم فإن زيداً طلب من هشام ألا يبعث بهم إلى هناك لئلا يعتدي عليهم يوسف إن هشاماً طمأنهم وأرسل معهم رسالة أمر فيها يوسف أن يجمع بينهم وبين

(١) أصبح خالد القسري أيام ولايته من الأثرياء المشهورين حتى بلغت غلته عشرين مليوناً كل عام، وكان نهر خالد الذي حفره يغل خمسة ملايين كما أن غلة ابنه قد زادت على عشرة ملايين. وقد كتب إليه هشام أن لا يبيع غلاته حتى تباع غلاته هو ويبدو أنهما كانا يتنافسان على احتكار السوق في العراق. وقد صادر خلفه على ولاية العراق، يوسف بن عمر الذي كان أبوه بائعاً للخمر- أمواله التي بلغت مائة مليون ثم قتله أيام الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ. ويوسف بن عمر هذا الذي اشتهر بهديته الأسطورية للوليد التي ضمنت خمسمائة وصيفة وأباريق الذهب والفضة وتماثيل الظباء ورؤوس السباع والأبايل، أرسل إليه مع تلك الهدية برابط وطنابير وصناجات وكل بازي وبرذون فارة. وقد قتل بعد ذلك بأمر يزيد بن الوليد الناقص.

(٢) الطبري: ج٤ص١٩٣، والكامل في التاريخ: ج٤ص٤٤٣.

يزيد بن خالد القسري، فإن هم أقروا بما ادعى عليهم فليسرح بهم إليه، وإن هم أنكروا فليس له بينة، فإن هو لم يقم البينة فليستحلفهم بعد العصر، ما استودعهم يزيد ولا له قبلهم شيء ثم يخلي سبيلهم.

وتختلف الروايات حول الشخص الذي استودعهم مالًا، هل هو خالد القسري أو ابنه يزيد، ويذكر عن عطاء بن مسلم «أن زيد بن علي لما قدم على يوسف قال له يوسف: زعم خالد أنه قد أودعك مالا قال: أنى يودعني مالاً وهو يشتم آبائي على منبره، فأرسل إلى خالد فأحضره في عباءة فقال له: هذا زيد زعمت أنك قد أودعته مالاً وقد أنكر فنظر خالد في وجهها ثم قال أتريد أن تجمع مع إثمك فيَّ إثما في هذا وكيف أودعه مالا وأنا أشتمه وأشتم آباءه على المنبر قال فشتمه يوسف ثم رده»[1] ويبدو واضحاً أن الأمويين وصنائعهم أرادوا تلفيق هذه التهمة لزيد وإجباره على دفع الأموال التي ادعوا أنه احتفظ بها لخالد بزعمهم.

وفي الكوفة أنكر زيد أن يكون له قبلهم شيء ثم استحلفهم يوسف فحلفوا له، فكتب إلى هشام بذلك فأمره هشام أن يخلي سبيلهم فخلى عنهم، فلحقوا بالمدينة عدا زيد فإنه أقام بالكوفة[2]...

**إهانة مقصودة**

واستناداً إلى هذه الروايات التي أكدت أن زيداً الذي أُلحِقَت به هذه الإهانة من الأمويين حينما لفقت له تهمة الاحتفاظ بوديعة خالد القسري المزعومة، ذكرت أنه قد تأذى من تلك الإهانة، وأنه بقي بسببها في الكوفة يدعو لنفسه ويروم الإطاحة بالعرش الأموي وأنه استجاب لدعوات (الشيعة) التي أخذت تختلف إليه وتطلب منه

(١) الطبري: ج٤ ص١٩٦.

(٢) الطبري: ج٤ ص١٩٤، والكامل في التاريخ: ج٤ص٤٤٣- ٤٤٤.

الخروج، وأن ذلك لفت أنظار الحاكم الأموي في الكوفة حتى بعث من يخرجه منها، وأن (الشيعة) لحقته «فقالوا له: أين تذهب عنا ومعك مائة ألف رجل من أهل الكوفة يضربون دونك بأسيافهم غدا وليس قبلك من أهل الشام إلا عدة قليلة لو أن قبيلة من قبائلنا نحو مذحج أو همدان أو تميم أو بكر نصبت لهم لكفتهم بإذن الله تعالى فننشدك الله لما رجعت فلم يزالوا به حتى ردوه إلى الكوفة»[1].

**ثورة زيد لم تكن رد فعل على إهانة أُلْحِقَت به**

فهذه الروايات قد حاولت أن تصور ثورة زيد بأنها مجرد رد فعل على إهانة شخصية أُلْحِقَت به، وأنه لم يستوعب الدروس السابقة التي تلقاها أسلافه من أهل الكوفة الذين غدروا بآله وذويه عدة مرات، وأنه أساء تقدير قوة أهل الشام مستجيباً لما ذكره أهل الكوفة عنهم وأنهم قادرون على مواجهتهم إذا ما جد الجد وقامت الثورة. وقد أُلْحِقَت بهذه الأسباب، أسباب أخرى لثورة زيد، أريد منها أيضاً أن تدلل على أنه قام بها انتقاماً لإهانات شخصية أُلْحِقَت به وباخيه الباقر عليه السلام... ومع أننا نحتمل أن تلك الإهانات قد وجهت فعلًا، إلا أن شخصاً مثل زيد له تلك العقلية الرسالية وذلك الوعي الواضح بالإسلام، ما كان ليثور انتقاماً لنفسه وذويه، ولم يكن ليدفعه لتلك الثورة غير خروج السلطة السافر عن الإسلام واستهانتها بالمسلمين وعبثها بهم وبمقدراتهم وأموالهم.

**هشام والحقد على أهل البيت عليهم السلام**

وتذهب رواية أخرى- يختلف ناقلوها ورواتها في أقوالهم- إلى أن هشاماً طلب من زيد أن يقدم عليه إلى الشام فلما فعل ألَحَّ عليه في الذهاب إلى يوسف في العراق، وإذ أن زيداً يعرف عداوة يوسف وحقده على آل البيت فإنه طلب من هشام أن لا يلح عليه في

(١) الطبري: ج٤ ص١٩٦.

ذلك وأن يتركه لكي يعود إلى المدينة وقال فيما قال له: «... فوالله ما آمن إن بعثتني إليه ألا أجتمع أنا وأنت حيين على ظهر الأرض بعدها فقال الحق بيوسف كما تؤمر فقدم عليه»[١].

ومهما يذهب النقاد والمؤرخون في تفسير كلمة زيد هذه، فإنهم يظلون بعيدين عن الذهاب إلى أنها كانت كلمة تهديد لهشام، إلا أنها كانت إشارة واضحة على ظلم عامله على العراق الذي ربما لن يتورع عن إلحاق الأذى به وقتله بمختلف الذرائع والحجج، وربما لفق له قصة أشهد عليها شهود السوء لينال منه.

**خصومات ملفقة**

وقد تحدث المتحدثون عن خصومات زيد لابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسن ابن علي في وقوف لجدهما علي عليه السلام وذكروا أنهما كانا يتبالغان بين يدي الوالي في خطبهما وحججهما فلا يعيدان مما كان بينهما حرفاً[٢]... ونتساءل: هل كان النقاش بينهما عقائدياً أو فكرياً أو أمراً يتعلق بالفلسفة والمنطق حتى يذهبا إلى ذلك الحد، أو أنه مجرد (خلاف) على وقف لا يحتاج إلا لإبراز حجج وإثباتات وشهادات شهود لكي يقر لكل واحد حقه، وربما يتم ذلك في جلسة أو جلستين وتنتهي المسألة.. ثم: أين كان الثقاة الأئمة من آل البيت عليهم السلام حتى لا يرجع إليهم الآخرون من ذويهم حول هذا الموضوع! ألم يكن الباقر والصادق عليهما السلام موجودين، وقولهما الفصل، حتى يحسما مسألة الخلاف المزعومة هذه؟

(١) الطبري: ج٤ ص١٩٥، والكامل في التاريخ: ج٤ص٤٤٤.
(٢) الكامل في التاريخ: ج٤ص٤٤٤، والطبري: ج٤ ص١٩٤.

**فوت الفرصة على من أراد استغلال قضية الخلاف**

ومهما يكن من أمر فإن المتحدثين ذكروا أن زيداً فوت فرصة كبيرة على الوالي الأموي في المدينة الذي كان يحاول استغلال قصة الخلاف على الوقف لإلحاق الإهانة بالطرفين العلويين، عندما طلب من ابن عمه التريث ليحسما المسألة فيما بينهما دون الرجوع للوالي الذي بدا له غرضه من جمعهما واضحاً.

وقال زيد للوالي: «أما والله لقد جمعتنا لأمر ما كان أبو بكر ولا عمر ليجمعانا على مثله وإني أشهد الله ألا أنازعه إليك محقاً ولا مبطلا ما كنت حيا ثم قال لعبد الله انهض يابن عم فنهضا وتفرق الناس»[١].

وإذ أن الفرصة قد فوتت على ذلك الوالي الحاقد، فإنه حاول تحريض الناس على زيد، فانبرى أحدهم يشتم أمير المؤمنين والحسين عليهما السلام، وهو أمر لم يكن غير مألوف في ظل الدولة الأموية، لذلك فإن زيداً قال له أن يسكت فهم لا يجيبون مثله... وقد استفز ذلك الرجل فأجابه «ولم ترغب عني؟ فوالله إني لخير منك وأبي خير من أبيك وأمي خير من أمك. فتضاحك زيد وقال: يا معشر قريش، هذا الدين قد ذهب فذهبت الأحساب، فوالله ليذهب دين القوم وما تذهب أحسابهم.. فتكلم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، فقال: كذبت والله أيها القحطاني فوالله لهو خير منك نفساً وأماً وأباً ومحتداً، وتناوله بكلام كثير وأخذ كفاً من حصباء وضرب بها الأرض، ثم قال: إنه والله ما لنا على هذا من صبر»[٢].

---

(١) الطبري: ج٤ ص١٩، وشرح ابن أبي الحديد: ج١ص ٣١٥ مع بعض الاختلاف في النص.

(٢) الكامل في التاريخ: ج٤ص٤٤٤- ٤٤٥، الطبري: ج٤ ص١٩، وشرح ابن أبي الحديد: ج١ص ٣١٥.

**تصعيد (ثقافة) السب**

كانت (ثقافة) سب آل البيت والنيل منهم والتي أرساها ووضع دعائمها معاوية منذ مطلع حكمه، قد اقترنت (بثقافة) الولاء الأعمى للسلطان مهما كان لونه ومشربه، فما دام السلطان قد عرض نفسه للناس على أنه جامعهم ومحقق وحدتهم والقيّم على أمورهم ووليهم، فإنه جعل طاعة الله من طاعته، ومنع أي خروج عليها وعلى أحكامه وجعل السيف فيصلًا بينه وبين مناوئيه.

أراد الجميع أن يحبوا من أحبَّ وأن يكرهوا ويسبّوا من كره وسب، وكان القيام بسب أعدائه (علي وبنيه) مقياساً للطاعة والاستقامة، فمن يستجيب له ويسب أعداءه، عُدَّ خير الناس بما فيهم أولئك الذين يقوم بسبّهم.، ولا شك أن ذلك القحطاني الذي شتم أمير المؤمنين عليه السلام والحسين عليه السلام تقرباً للوالي الأموي اعتبر نفسه خيراً منهما ما دام أن الذي أمره بذلك، ورضي بذلك منه هم أسياده الذين اعتبر إمامتهم وولايتهم وطاعتهم طوقاً في عنقه وأمانة عنده.

وكانت تلك حالة منكرة تدل على تردي أوضاع المسلمين في ظل دولة الظلم التي لم تعد تهتم بإخفاء إنحرافها وشذوذها عن عموم المسلمين. فهل أن الدين قد ذهب ولم يعد له وجود في ظل دولة الظلم؟ وهل أن هذه حالة يمكن السكوت عنها؟ وهل أن ما أثار عبد الله بن واقد بن الخطاب، لم يكن ليثير زيداً؟

**رافض للذل والعبودية :- ((والله لايحب الدنيا أحد إلا ذلّ))**

ومهما يكن السبب الذي أقدم زيداً على هشام، فإن هذا الأخير أراد امتهانه بشتى الأساليب، فبينما هو لا يسمح له بمقابلته ويأمره بالعودة إلى المدينة، ثم يضطره لرقى علية له طويلة حتى يلقاه، ثم يواجهه مواجهة فظة يقول له فيها أنه لا يصدقه ويتهمه

بأنه يذكر الخلافة ويتمناها، فإنه يعمد آخر الأمر إلى طرده بعد أن رأى صلابته وعدم استعداده للتنازل أمامه[1]... وهو الأمر الذي يسند إليه بعضهم سبب ثورة زيد على

---

(١) «شخص زيد إلى هشام بن عبد الملك فجعل هشام لا يأذن له فيرفع إليه القصص فكلما رفع إليه قصة كتب هشام في أسفلها ارجع إلى أميرك فيقول زيد: والله لا ارجع إلى خالد أبدا وما أسأل مالا إنما أنا رجل مخاصم ثم أذن له يوما بعد طول حبس...»الطبري: ج٤ ص١٩٦.

لما قدم زيد بن علي على هشام بن عبد الملك أعلمه حاجبه بمكانه فرقي هشام إلى علية له طويلة ثم أذن له وأمر خادما أن يتبعه وقال لا يرينك واسمع ما يقول قال فأتبعه الدرجة وكان بادنا فوقف في بعضها فقال والله لا يحب الدنيا أحد إلا ذل فلما صار إلى هشام قضى حوائجه ثم مضى نحو الكوفة ونسي هشام أن يسأل الخادم حتى مضى لذلك أيام ثم سأله فأخبره فالتفت إلى الأبرش فقال والله ليأتينك خلعة أول شيء وكان كما قال.

وذكر عن زيد أنه حلف لهشام فقال له لا أصدقك فقال يا أمير المؤمنين إن الله لم يرفع قدر أحد عن أن يرضى بالله ولم يضع قدر أحد عن ألا يرضى بذلك منه، فقال له هشام: لقد بلغني يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها ولست هناك وأنت ابن أمة فقال زيد: إن لك يا امير المؤمنين جوابا قال تكلم قال: ليس أحد أولى بالله ولا أرفع عنده منزلة من نبي ابتعثه، وقد كان إسماعيل من خير الأنبياء وولد خيرهم محمداﷺ وكان إسماعيل ابن أمة، وأخوه ابن صريحة مثلك فاختاره الله عليه وأخرج منه خير البشر وما على أحد من ذلك جده رسول الله ﷺ ما كانت أمه (أمة)، فقال هشام: اخرج قال أخرج ثم لا تراني إلا حيث تكره، فقال: له سالم يا أبا الحسين لا يظهرن هذا منك.

فقال له: خرج بنا أسرى على غير ذنب من الحجاز إلى الشام ثم إلى الجزيرة ثم إلى العراق إلى قيس ثقيف يلعب بنا وقال:

بكرت تخوفني المنون كأنني ... أصبحت عن عرض الحياة بمعزل
فأجبتها إن المنية منهل ... لا بد أن أسقى بكأس المنهل
إن المنية لو تمثل مثلت ... مثلي إذا نزلوا بضيق المنزل
فاقني حياءك لا أباً لك واعلمي ... أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

أستودعك الله وإني أعطي الله عهداً إن دخلت يدي في طاعة هؤلاء ما عشت، وفارقه وأقبل إلى الكوفة». الطبري: ج٤ ص١٩٦، والكامل في التاريخ: ج٤ص٤٤٥ وروى المسعودي قسماً من هذه القصة: ج٣ص٢٠٦، وكذلك اليعقوبي: ج٢ص٣٢٥، والعقد الفريد: ج٤ص١١٧، وج٥ص٢٢٥، و٣٤٧، وج٧ص١٣٩ مع بعض الاختلاف، وشرح ابن أبي الحديد: ج١ص٣١٥.

دولة هشام الأموية.

**توجهات معروفة من قبل القيادة الأموية**

ويروي لنا آخرون قصة مشابهة لهذه... «دخل زيد على هشام، فلما مثل بين يديه لم ير موضعاً يجلس فيه، فجلس حيث انتهى به مجلسه، وقال: يا أمير المؤمنين، ليس أحد يكبر عن تقوى الله، ولا يصغر دون تقوى الله، فقال هشام: اسكت لا أم لك، أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة، وأنت ابن أمة، قال: يا أمير المؤمنين، إن لك جوابا إن أحببت أجبتك به، وإن أحببت أمسكت عنه، فقال: بل أجب، قال: إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات، وقد كانت أم إسماعيل أَمَةً لأم إسحاق صلى الله عليهما وسلم، فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبياً، وجعله للعرب أبا، فأخرج من صُلْبه خير البشر محمداً صلى الله عليه وسلم، فتقول لي هذا وأنا ابن فاطمة وابن علي وهو يقول:

شَرَّدَهُ الخوف وأزرى به ... كذاك من يكره حرّ الجلاد
منخرق الكفين يشكو الجوى ... تنكثه أطراف مَرْوٍ حداد
قد كان في الموت له راحة ... والموت حتم في رقاب العباد
إن يحدث الله له دولة ... يترك آثار العدا كالرماد»[1]

---

(١) المسعودي: ج٣ص٢٠٦، واليعقوبي: ج٢ص٣٢٥، وقد ذكرنا بعض المصادر التي ذكرت قصصاً مشابهة لهذه. ويروي ابن أبي الحديد أن هشاماً قال له: «فما يصنع أخوك البقرة؟ فغضب زيد حتى كاد يخرج من أهابه، ثم قال: سماه رسول الله صلى الله عليه وآله الباقر وتسميه أنت البقرة. لشد ما اختلفتما. لتخالفنه في الآخرة كما خالفته في الدنيا، فيرد الجنة وترد النار. فقال هشام: خذوا بيد هذا الأحمق المائق فأخرجوه. فأخذ الغلمان بيده فاقاموه. فقال هشام: إحملوا هذا الخائن الأهوج إلى عامله. فقال زيد: والله لئن حملتني إليه، لا أجتمع أنا وأنت حيين وليموتن الأعجل منا». ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ج١ص٣١٥، «فخرج زيد من عند هشام وهو يقول: ما كره قوم قط حر السيوف إلا ذلوا». خطط المقريزي: م٤ ص ٣٠٩.

ولا شك أن الحكام الأمويين وأعوانهم كانوا يحاولون دائماً النيل من آل علي عليه السلام حتى ذهبوا في ذلك إلى حد السباب المقذع، وقد واجهوا زيداً ببعضه كما واجهوا العديدين من آل البيت عليهم السلام، ولا شك ان إلحاق الإهانة بهم والتقليل من قيمتهم وأهميتهم بنظر المسلمين بدا أمراً ضرورياً وملحاً بنظر القيادة الأموية، إلا أننا لا نعتقد من خلال اطلاعنا على سيرة زيد ومزاياه الشخصية الفريدة ومعرفته التامة بتوجهات الأئمة من آل البيت، والده علي زين العابدين، وأخوه الباقر وابن أخيه الصادق عليه السلام إنه يمكن أن يستدرج إلى موقف إنفعالي يعبر فيه عن غضبه على من وجّه الإهانة له ولذويه، بتلك الثورة التي أريق فيها دمه ودماء أصحابه.

وإنما نعتقد أنه ثار لجملة من الأسباب الموضوعية رأى معها أنه لا بد له من تلك الثورة، وإذا ما صدرت منه بعض العبارات والجمل التي تدل على تذمره من وجود العائلة الأموية على سدة الحكم، فإننا لا ينبغي أن نحمل ذلك على أنه الأمر الوحيد الذي أثاره، وإن الأمر الآخر هو إبعاده عن مجلس الخليفة أو إلحاق بعض الغبن أو الأذى الشخصي به.

فالقصص التي رويت لنا والأحداث التي ذكرت لا يمكن أن تكون هي دافع زيد للثورة حتى ولو كانت قد وقعت فعلًا.

**إنحراف بلغ الذروة.. علامات على نهاية حياة دولة الظلم الأموية**

لم يدم عمر الدولة الأموية بعد مقتل زيد أكثر من عشر سنين، إذ هُزم آخر خليفة أموي مروان بن محمد الحمار في الزاب سنة إثنتين وثلاثين ومائة أمام القوات العباسية التي كانت ترفع شعارات علوية وتدعو للرضا من آل البيت، وهي دعوة طالما رفعها الثوار العلويون في مقدمتهم زيد رضوان الله عليه فاستهوت الناس وجعلتهم يلتحقون

بركب الثوار، وكانت سبباً رئيسياً لانتصار العباسيين على الأمويين. فالدولة الأموية كانت عند ثورة زيد قد أشرفت على شيخوختها، بل موتها، وكان انحراف الحكام الأمويين ومرتزقتهم قد بلغ ذروته بعد أن تجاوز عمر تلك الدولة- التي قامت على أسس بعيدة عن الإسلام بل ومناقضة له- أكثر من ثمانين سنة، ولم يكن من المعقول أن لا يتصدى أحد لتلك الدولة التي بدأت علامات الموت تلوح عليها، وإن بدت مزدهرة في الظاهر، وبدا قادتها- وفي مقدمتهم هشام- وكأنهم وصلوا إلى ذروة القوة والمنعة والثراء... وكان التعرض لها يعني مجازفة كبيرة بنظر أولئك الذين ألفوا الخضوع والاستسلام والارتماء باحضان الحاكم الظالم وإطاعته طاعة عمياء.

**لن تغني الأموال**

وإذ أن هشاماً البخيل الذي استأثر بالأموال الأسطورية التي حصلها له عماله بمختلف الأساليب بدا وكأنه يعيش حالة زهد تجاه ما يشهده الناس من تمادي أفراد عائلته وعماله في الإفراط في الترف والملذات وصرف الأموال الطائلة، فإنه جعل الأمة كلها محرومة من أبسط حقوقها في المال، واستمرت حملة القمع في عهده لإسكاتها عن المطالبة بحقوقها أو لرفع الغبن والضيم وإقامة الحدود العادلة التي تضمن سلامتها وصلاحها كأمة إسلامية تفترض ممن يحكم باسم الإسلام أن يسير فيها سيرة عادلة صالحة.

فكانت سياسة التجويع والحرمان تبدو سلاحاً ناجحاً بوجه من يُحتمل أن يقوم بوجه دولة الظلم المتمادية وفي مقدمة أولئك آل البيت ومن ينتمي إليهم بنسب أو قرابة أو ولاء، حتى «أن أهل هذا البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً، حتى كانت همة أحدهم قوت عياله»[1] على حد تعبير يوسف بن عمر الوالي الأموي على الكوفة الذي

(١) الطبري: ج٤ ص٢٤٨.

تصدى لقمع ثورة زيد في الكوفة.

**ثورة بوجه الانحراف: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين»**

كانت بيعة زيد التي بايع عليها الناس: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء ورد الظالمين وإقفال المجمّر ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا»[1].

لم يكن من المعقول أن تقوم دولة في ظل الإسلام وتدعي شرعيتها على أساسه، بذلك الخرق الفاضح لحدود الإسلام وقوانينه وأحكامه وأن تبتعد عن القرآن وتزوّر أقوال النبي وتسير بسيرة الفراعنة المستبدين الذين لا يحكّمون إلا مصالحهم وأهواءهم وأن تعمد إلى شتى ضروب الأذى والتنكيل بعموم أبناء الأمة وكأنهم من ممتلكاتها الخاصة. ولم يكن من المعقول أن لا تنتبه القيادة الحقيقية المتمثلة بآل البيت عليهم السلام إلى ذلك وأن لا تقوم بأية مساع لإزالة سلطان البغي عن الأمة ورفع الحيف والأذى عنها، وقد رأينا الأدوار التي لعبوها في هذا المجال.

**طليعة رسالية بقيادة آل البيت عليهم السلام**

إن الطليعة الرسالية المنتمية لآل البيت عليهم السلام والتي كانت تتمتع بوعي استثنائي بحكم ذلك الانتماء وبحكم الفهم الحقيقي للإسلام المأخوذ عنهم- ومنها زيد رضوان الله عليه- كانت تدرك ضرورة التغيير الملحّ وإزالة القيادات العدوانية التي تسلطت بالمكر والإكراه على مقدرات المسلمين، والتي لم تحتفظ من الإسلام إلا ببعض مظاهره

(١) الطبري: ج٤ ص١٩٩.

الخارجية الطقوسية التي كانت تريد بها إثبات إنتمائها للاسلام وقيمومتها على المسلمين.

كان القرآن يُقرأ إلا أنه كان يفسر على هوى الحاكمين، وكان سيل الأحاديث المزورة يطغى على الأحاديث الصحيحة، وكانت موجة الظلم تعلو على عدالة الإسلام، وحتى الفتوحات التي كان ينبغي لها أن تتم بشكل مدروس وأن تكون محصلتها لمصلحة المسلمين كانت تجري بشكل عشوائي لا يقصد منه ضم الناس للإسلام بقدر ما كان يقصد منه ضم المزيد من الثروات لخزينة الحاكم[١] وإبعاد المقاتلين الذين لا يضمن ولاءهم إلى تخوم المملكة بينما يظل الجنود الموالون وجلّهم من أهل الشام يعبثون بمقدرات المسلمين ويسلطون على أموالهم وأعراضهم ويستنفرون لقمع كل حركة معارضة في الداخل[٢]...

**لا بد من تعرية السلطة وكشف توجهاتها المعادية للإسلام**

لم يكن هناك بد من تعرية السلطة الحاكمة وكشف توجهاتها المعادية للإسلام، والسعي لإبعادها عن المركز القيادي الذي استولت عليه بأساليبها العدوانية الماكرة. ولم يكن أسلوب الحكم الذي أراده رسول الله ودعا إليه ومهد له بخافٍ على الفئة التي استخلفها رسول الله صلى الله عليه وآله من بين جميع المسلمين، وإن استبعدت عن القيادة الفعلية لهم، كما أن الفئة الطليعية التي تنتمي لآل البيت إما بالنسب أو الولاء والعقيدة كانت تدرك

(١) وقد رأينا إقدام الحكام الأمويين على طرد غير العرب من المسلمين وإلحاقهم بقراهم ومدنهم السابقة لاستحصال الجزية منهم مع أنهم بنظر الإسلام يتساوون في الحقوق والواجبات مع غيرهم من العرب المسلمين.

(٢) وقد رأينا في هذا الفصل عند استعراض ثورتي مطرف بن المغيرة وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ان من الأسباب التي دعت لتينك الثورتين، إبعاد المقاتلين المسلمين من أهل العراق إلى أطراف الدولة، وبث المقاتلين من أهل الشام في عواصم الدولة وخصوصاً في الكوفة التي كانت مصدر قلق دائم للدولة الأموية.

إدراكاً حقيقياً طبيعة توجهات الإسلام لإرساء الحكم القائم على مبادئه الحقيقية لا ذلك الذي يقوم على الرغبات والغرائز المتدنية للفئة التي حاربت الإسلام منذ البداية ولم تنتم إليه إلا مكرهة بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، ثم استطاعت التسلط عليهم واستغلالهم وإعلان حكمها، لا حكم الإسلام عليهم. كان تشبيه رسول الله لآل بيته ﷺ بسفينة نوح[1] وجعلهم بمنزلة القرآن وإقرانهم به[2] له دلالته الواضحة على تلك الفئة المنتقاة والمعدة لقيادة المسلمين وتجنيبهم المزالق والمهالك والأخطار والانحرافات، فقد كانوا هم القرآن الناطق وأقدر الناس على فهم كتاب الله وترجمته وتفسيره والعمل به، وكانوا أجدر الناس الذين كان ينبغي على الأمة أن تتمسك بهم وتضعهم على رأس السلطة لضمان سلامتها من كل انحراف أو خطأ، فقد أعلن رسول الله من قبل أن الإسلام والسلطان إخوان توأمان، لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه، فالإسلام أس والسلطان حارث، وما لا أس له يهدم، وما لا حارثاً له ضائع»[3]... ومن هنا كانت المطالبة بالخلافة أو السلطة أمراً لا يدخل في دائرة الرغبة الشخصية لأصحاب الحق فيها حتى يحصلوا على امتيازات وحقوق استثنائية بقدر ما كانت استجابة لأمر إلهي يدعو إلى أن يكون السلطان حارثاً، لا مجرد مستفيد من مكاسب جاهزة يشقى بها الآخرون ويستغلها هو، وأن يحقق عدالة الإسلام بوعي من يمتلك الفهم الحقيقي له ويبدو وكأنه هو الإسلام ذاته.

---

(١) وهو حديثه ﷺ «**مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق**».

(٢) وهو حديث: «**إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض، وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض**». وقد أشرنا إلى مصادر هذين الحديثين.

(٣) كنز العمال: ج١٠ ص ٦ (رواه الديلمي).

**الصراع المكشوف ليس في صالح الأئمة عليهم السلام**

وكان ما يعلمه أهل البيت عن حقهم الأكيد في الخلافة والسلطة يعلمه الآخرون ومنهم مغتصبو السلطة أنفسهم، الذين كانوا يراقبون الأئمة عليهم السلام مراقبة دقيقة لإلحاق أشد ضروب الأذى والتنكيل بهم عند ظهور أدنى بادرة للمطالبة بالخلافة أو السعي لها، فلم يكن أمراً وارداً بنظرهم أن يتنازلوا طواعية عما شيدوه وأقاموه ليبقى إرثاً لأبنائهم وأحفادهم إلى الأبد، وكانوا سيلجؤون إلى التصفيات الجسدية التي طالما لجؤوا إليها من قبل للاحتفاظ بسلطانهم وملكهم، وسيكون الأئمة أول المستهدفين بتلك التصفيات. وقد رأينا كيف لجأ معاوية إلى دس السم للامام الحسن عليه السلام لكي يخلو له الجو من بعده ويقيم ابنه يزيد ولياً للعهد، وكيف لجأ هذا الأخير إلى تنظيم أبشع مجزرة في كربلاء قتل فيها الحسين عليه السلام ومجموعة من أهل بيته وأصحابه آزروه في وقفته الباسلة بوجه الإنحراف الأموي المكشوف.

ولم يكن أمثال هشام ليتورعوا عن اللجوء إلى ما لجأ إليه أسلافهم من قبل، وكان لا بد للأئمة من انتهاج طرق للعمل تنسجم وطبيعة المراحل التي كانوا يعيشونها في ظل القيادات المنحرفة، وكانوا بسعيهم إلى إعداد فئات رسالية طليعية من بين أبناء الأمة وتربيتها على نهجهم السليم يجعلون الأمة متحفزة دائمة لمواجهة الانحراف والانقضاض على دولة الظلم وإن لم يكونوا يبدون في الظاهر ساعين للسلطة أو لتغيير نظام الحكم. إذ أن من شأن ذلك يفسح المجال لدولة الظلم لكي تنكل بهم وتنال منهم بل وتبيدهم ثم تعمد بعد ذلك إلى إخفاء جريمتها بعد أن تعرضهم على المسلمين كمنافسين على السلطة طامعين بالمكاسب والامتيازات التي توفرها للحاكمين أمثالهم هم.

إن الصراع المكشوف بين الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وبين خصومهم وخصوم

المسلمين الذين تسلطوا على مقدراتها بالإكراه والمكر لن يكون في صالح الأئمة، بينما يتمتع الخصوم بالقوة والسلاح الذي لن يتورعوا عن استخدامه بطريقة غادرة تلحق أشد الأذى بهم وبالمسلمين عموماً، ولم يكن معنى ذلك أن يسكت الأئمة عن أعداء الأمة أو يقروا أفعالهم أو تصرفاتهم ولم يكن من المعقول أن لا تكون هناك مواجهة بينهم وإن تكن حذرة أو سرية ولا تكون باسم الإمام نفسه.

كان واقع الأمة في ظل الحكم الأموي المنحرف يحتم القيام بعملين في وقت واحد: «أحدهما: العمل من أجل بناء القواعد الشعبية الواعية التي تهيىء أرضية صالحة لتسلم السلطة، والآخر: تحريك ضمير الأمة الإسلامية وإرادتها، والاحتفاظ بالضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية بدرجة من الحياة والصلابة تحصن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين. والعمل الأول هو الذي مارسه الأئمة بأنفسهم، والعمل الثاني هو الذي مارسه ثائرون علويون كانوا يحاولون بتضحياتهم الباسلة أن يحافظوا على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية. وكان الأئمة عليهم السلام يسندون المخلصين منهم...

فترك الأئمة عليهم السلام إذاً العمل المسلح بصورة مباشرة ضد المنحرفين لم يكن يعني تخليهم عن الجانب السياسي من قيادتهم وانصرافهم إلى العبادة، إنما كان يعبر عن اختلاف صيغة العمل السياسي التي تحددها الظروف الموضوعية وعن إدراك معمق لطبيعة العمل التغييري وأسلوب تحقيقه»[(١)].

ولم نجد إماماً ندد بثورة قام بها أحد ذويه أو أصحابه للنيل من دولة الظلم المتجاهرة بالانحراف، بل وجدنا على العكس من ذلك من أشاد من الأئمة بتلك الثورات والقائمين عليها، ووجدنا أنهم كانوا يحثون الناس على الالتحاق بها وتأييد

(١) الشهيد الصدر- بحث حول الولاية ص٥٣-٥٤.

الثوار، طالما أن محصلتها النهائية ستكون لصالح المسلمين.

**لم يكن يطالب بالأمر لنفسه**

وقد روي أن طائفة ممن بايعوا زيداً «مرّوا إلى جعفر بن محمد بن علي، فقالوا له: إن زيد بن علي فينا يبايع، أفترى لنا أن نبايعه؟ فقال لهم: **نعم بايعوه، فهو والله أفضلنا وسيدنا وخيرنا...**»(١).

وروي أن الإمام الباقر عليه السلام ضرب على كتفه وقال له: «**هذا سيد بني هاشم، إذا دعاكم فاجيبوه وإذا استنصركم فانصروه**»(٢).

فهو بإطرائه زيداً بتلك الدرجة كان يريد أن يزيل كل تحفظ بشأنه وكان يريد لهم أن يندفعوا وراءه دون حدود أو قيود.

وقد روي أيضاً أن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال للمأمون في معرض حديثهما عن زيد: «**إنه كان من علماء آل محمد غضب لله فجاهد أعداءه حتى قتل في سبيله، ولقد حدثني أبي موسى بن جعفر عليه السلام أنه سمع أباه جعفر بن محمد عليه السلام يقول: «رحم الله عمي زيداً، إنه دعا إلى الرضا من آل محمد، ولو ظفر لوفى لله في ذلك، إنه قال: أدعوكم إلى الرضا من آل محمد**»(٣).

وروي أن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام سئل عن خروج زيد، فقال: «**خرج على ما خرج عليه آباؤه**»(٤).

---

(١) الطبري: ج٤ ص٢٠٤.

(٢) حياة الإمام الباقر: القرشي: ص ٦٧ نقلاً عن عمدة الطالب: ج٢ص١٢٧، من مصدرات مكتبة الإمام الحكيم ت ٢٤.

(٣) عادل أدهم: الأئمة الإثنا عشر: ص ١٧٩.

(٤) خطط المقريزي: ج٤ ص٣٠٧.

**حركة رسالية- واجهة لأئمة أهل البيت عليهم السلام**

لقد رويت لنا أخبار عديدة عن حزن وتألم الإمام الصادق عليه السلام لمقتل زيد وقيامه بتفريق بعض الأموال على عيال من أصيب معه من أصحابه، كما أنه عليه السلام أثنى على حركته والحركات اللاحقة التي كان من شأنها الإطاحة بدولتي الظلم الأموية والعباسية، وفي ذلك دليل كبير على صحة توجهات هذه الحركات وعلى أن القائمين بها لم ينطلقوا من دوافع وأطماع شخصية وإنما كانوا يهدفون إلى إعادة الأمور إلى نصابها وتسليم القيادة إلى أئمة آل البيت عليهم السلام وإبعاد أنظار الحكم القائم عنهم لئلا ينالهم بالأذى والعدوان، وإنهم كانوا واجهات غير معلنة لأئمتهم الذين يمتون إليهم بقرابة وثيقة ونسب من الولاء الكبير الذي عزّز من فهمهم الواعي للإسلام وواجباتهم في ظله، وفي مقدمتها التصدي للظلم والعدوان الذي كانت تتعرض له الأمة باستمرار.

**تحركات مرصودة**

كانت تحركات زيد مرصودة من قبل أعدائه، وكانوا يرون أنه إذا أكمل استعداداته في الكوفة فإن عواقب ذلك ستكون وخيمة عليهم، فحاولوا معرفة قوته الحقيقية ومكان تواجده وقتلوا رجلين اتُهِما بأنهما آوياه، وكان الغرض من ذلك إما دفعه للهرب، وهذا ما لم يكن يفعله زيد، أو إعلان ثورته قبل أن يكمل الاستعدادات اللازمة، وهو ما فعله، لأنه كان الأمر الوحيد الذي كان عليه القيام به، وهو ما جعله يفشل في معركته رغم بسالته وقوة بأسه.

وقد جعل ذلك بعض المؤرخين والناقدين يتهمونه بالعجلة، رغم أنه كان يعرض نفسه وأصحابه للإبادة والقتل السريع دون أن يحقق شيئاً لو لم يبادر بالخروج لإمساك زمام المبادرة ومفاجأة أعدائه، ومن هؤلاء الناقدين الزهري الذي علق عند مشاهدته

رأس زيد في الشام بقوله: «أهلك أهل هذا البيت العجلة»[١].

وتبرز ظواهر إجتماعية عديدة جديرة بالانتباه إليها، شبيهة بتلك التي برزت خلال ثورة الحسين عليه السلام وظهور مسلم بن عقيل في الكوفة، وفي مقدمتها حرص أناس مغمورين لا ينتمون للسلطة ولا يحسبون من قيادات المجتمع لإظهار تحيزهم الواضح للحكم وقيامهم بالوشاية والدس والوقيعة وإظهار بطولة مفتعلة لكي يراهم حاكم الكوفة ويرضى عنهم، مع أنهم قد لا يجنون أية ثمار لأعمالهم تلك سوى احتمال لفتة بسيطة قد يثيبهم الحاكم فيها بضعة دريهمات. وقد لا يكون جزاء ذلك سوى نظرة احتقار يوجهها الحاكم إليهم، فالخيانة واختيار طريق الوشاية والدس والوقيعة قد ينكرها حتى الذي يستفيد منها مع أنه لا يحرم نفسه من الإفادة من أولئك الخونة والوشاة والنمامين الذين يعرضون أنفسهم دون مقابل.

**محاولة للاستدراج**

وهذه الظواهر تبرز في ظل دول الظلم التي غالباً ما تلجأ إلى أشد الأفعال ظلامية وشراً لتحقيق مآربها وأغراضها الشريرة، وإن حاول أقطابها الظهور بمظهر الورعين والحريصين على مصالح الأمة لا مصالحهم هم.

إن أولئك الذين حسبوا أن ثورة زيد لم تكن سوى مغامرة مصيرها الفشل المحقق أمام الدولة القوية المزدهرة ذات الثراء الأسطوري، وأولئك الذين حاولوا التخلي عنه بعد أن بذلوا وعودهم لنصرته في البداية، برروا تخفيهم عنه بمبررات تختلف عن تلك التي لجأ إليها أسلافهم عندما عزموا التخلي عن مسلم- وقد سبق أن أشرنا إليها في هذا الكتاب- ولجؤوا إلى أسلوب لئيم، علموا معه أن استقامة زيد وحرصه على وحدة

(١) الأصفهاني مقاتل الطالبيين: ص ١٤٣.

المسلمين وألفتهم، ستساعدهم على بلوغ غرضهم للتشنيع عليه وعزله عن جماهير الكوفة المتعبة المستهدفة بالظلم والشر، ولعلهم قد فعلوا ذلك بإيعاز من الوالي الأموي يوسف بن عمر، أو بعض من كانوا يوالونه.

فقد جاءه نفر منهم بعد أن علموا جدّ يوسف بن عمر في طلبه وطلب أصحابه، يسألونه رأيه في أبي بكر وعمر..! وبالتأكيد فإن رأيه لم يكن ليخالف رأي الأئمة من أهل البيت فيهما، والذين لم يتعرضوا بالنقد العنيف أو السب للشيخين رغم علمهم باستئثارهما وقيامهما بإبعادهم عن حقهم في الخلافة بعد وفاة رسول الله مباشرة، فلم يكن من شأن أي موقف متشنج معادٍ للشيخين سوى أن يثير مشاعر العداوة والخلافات بين المسلمين الذين أصبحوا شيعاً وأحزاباً منذ ذلك الحين، ثم تعمقت خلافاتهم عند حكم أمير المؤمنين عليه السلام، عندما كشفت قوى النفاق عن وجهها القبيح وواجهت خليفة رسول الله الذي كان ينبغي أن يتسلم القيادة الفعلية للمسلمين منذ البداية، بجملة من المشاكل والحروب عمل على تأجيجها مؤسس الدولة الأموية معاوية نفسه الذي قام فيها بعد بأكبر عملية تزوير للحديث الشريف تستهدف النيل من أمير المؤمنين والحط من منزلته أمام المسلمين(١) وإبراز منافسيه القدامى وفي مقدمتهم الشيخان كأعظم شخصيتين بعد رسول الله، ولم يكن دافعه لذلك ولاءه للشيخين أو محبته لهما، غير أنه فعل ذلك في غمرة سعيه المحموم للقضاء على منافسه إلى الأبد والقضاء على أي تطلع من أبنائه أو أحفاده في المستقبل لمنصب الخلافة الذي عده مكسباً شخصياً وملكاً خاصاً ينبغي عليه أن لا يتنازل عنه ما دام قد حصل عليه بكده وجهده..!

«روى المدائني: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: برئت الذمة

---

(١) وقد رأينا حملة السباب التي استهدفته عليه السلام طيلة حكم الدولة الأموية عدا الأيام التي حكم فيها عمر بن عبد العزيز.

ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته، فقام الخطباء من كل كورة، وعلى كل منبر، يلعنون علياً ويبرؤون منه، ويوقعون فيه وفي أهل بيته»(١).

ثم كتب إلى عماله في جميع الآفاق: «لا تجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة»(٢).

وكتب إليهم: «أن أنظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه، فادنوا مجالسهم، وقربوهم وكرموهم، واكتبوا لي كل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته»(٣).

وكتب إليهم بعد ذلك بعد أن كثرت الأحاديث عن فضائل عثمان: إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إلي وأقر لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته)(٤). ولا يخفى ما في هذه الأوامر من إشارات واضحة تدعو لوضع الأحاديث المكذوبة في الصحابة لكي لا يبدو علي وكأنه تفرد بميزات لم تكن موجودة عند غيره من الصحابة وليبدو الجميع أمام المسلمين وكأنهم حالات فريدة.

ومن هنا حدث الالتباس عندما زاحمت الأحاديث الكثيرة الموضوعة في فضل الصحابة تلك الأحاديث الصحيحة التي رويت في فضائل أمير المؤمنين علي وأهل

(١) ابن أبي الحديد: ج٤ص٥٩٥- وقد تطرقنا إلى ذلك عند استعراضنا جانباً من شخصية أمير المؤمنين عليه السلام وشخصية معاوية.
(٢) ابن أبي الحديد: ج٣ص٥٩٥.
(٣) ابن أبي الحديد: ج٣ص٥٩٥.
(٤) ابن أبي الحديد: ج٣ص٥٩٥.

بيته عليهم السلام.

**تفويت الفرصة على من أراد استغلال الخلاف**

فهل يمكن لأي إنسان يتمتع بقدر محدود من الوعي والحرص على مصالح المسلمين، وفي ظل الدولة الأموية التي اعتمدت خلط الأوراق وجعلت لمعاوية قضية مزعومة قرنتها مع قضية مزعومة أخرى للخلفاء الأوائل بمواجهة أمير المؤمنين وادعت أنه كان يناوىء الجميع ويعادي الجميع وينظر إليهم نفس النظرة[1]، أن يثير قضية تؤدي إلى المزيد من الفرقة والشحناء والتباغض..؟ ناهيك عن أناس يتمتعون بوعي رسالي فريد أمثال زيد بن علي- رضوان الله عليه- يدركون أن الدولة الأموية لم يكن يهمها سمعة الشيخين بقدر ما يهمها استغلال الاختلاف بشأنهما وشأن الخلافة وحكم الدولة الإسلامية بشكل عام لإثارة المعارك الجانبية بين المسلمين وتكون هي الرابح الوحيد في نهاية المطاف.

كانت محاولة طرح مسألة الحكم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ورقة حسب حامليها أنها رابحة حتماً، إذا ما استطاعوا إحراج زيد أمام جماهير الكوفة الذين كان يتصرف بعضهم بدافع رد فعل شديد للظلم الذي كانوا يشهدونه ويعزون أسبابه إلى خطأ تركيبة الحكم منذ البداية أي منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، خصوصاً وأن دولة الظلم كانت تعلن تحيزها الظاهر للخلفاء الأوائل مع أنها كانت تقف مواقف مغايرة لمواقفهم، وكانت هذه الدولة تريد قيام حملة سباب وتشنيع على الشيخين مساوية لتلك التي تقوم بها هي ضد أمير المؤمنين وغرضها أن تكون هي المستفيد الوحيد من الخصومات التي كانت تحاول أن تؤججها دائماً، مثلما يفعل أعداء الإسلام- حتى يومنا هذا- لإثارتها كلما رأى أن

(١) وقد تطرقنا إلى رسالة معاوية التي يتهم فيها أمير المؤمنين بأنه كان يحسد الجميع ويبغي على الجميع، وفيها يحشر نفسه مع الشيخين ويضعها بمستواهما..

الجو أصبح صافياً والمسلمين أوشكوا أن يتوحدوا ويحلوا بعض مشاكلهم وخلافاتهم.

**الإنشقاق**

اجتمعت إلى زيد جماعة من رؤوس أهل الكوفة، وكان قد بايعه منها خمسة عشر ألف رجل سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان، والري وجرجان[١]، فقالوا: «ما قولك في أبي بكر وعمر؟

قال زيد: رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت أحدا من أهل بيتي يتبرأ منهما ولا يقول فيهما إلا خيرا.

قالوا: فلم تطلب إذاً بدم أهل هذا البيت إلا أن وثبا على سلطانكم فنزعاه من أيديكم؟

فقال لهم زيد: إن أشد ما أقول فيما ذكرتم أنا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين، وإن القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا وقد ولوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة، قالوا: فلم يظلمك هؤلاء وإن كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين، فقال: وإن هؤلاء ليسوا كأولئك إن هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن أنتم أجبتمونا سعدتم وإن أنتم أبيتم فلست عليكم بوكيل ففارقوه ونكثوا بيعته...»[٢].

وإذا ما صحت هذه الرواية، فإنها تشير إلى أن محاورين نكدين، بل خصوماً ألداء جاؤوا زيداً لمحاولة إحراجه في تلك اللحظات الدقيقة التي كان يستعد فيها لمواجهة

(١) الأصفهاني/ مقاتل الطالبيين: ص ١٣٥، والطبري: ج٤ص١٩٩.
(٢) الطبري: ج٤ ص٢٠٤، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٤٥٢.

دولة الظلم الأموية، وتشير إلى أنه قد استطاع ببراعة أن يفوت الفرصة عليهم، لأنه لو لم يجبهم بتلك الطريقة، لفتح باباً آخر للخلافات والمشاكل بين المسلمين حاول أئمة أهل البيتعليهم السلام إغلاقه منذ البداية لضمان وحدتهم وجماعتهم، ولم تبلغ أشد خطبة ألقاها أمير المؤمنينعليه السلام بشأن اغتصاب حقه في خلافة المسلمين، مبلغ الذهاب إلى السباب والطعن بمن فعل ذلك[1]، وقد بدا حريصاً في مناسبات متعددة الا ينالهم أذى كما بدا حريصاً على التفاف الناس حولهم ما داموا قد تعهدوا بحسن السيرة وألزموا أنفسهم بذلك، وما دام ذلك يضمن ألا يفترق الناس أو يرتدوا بعد وفاة رسول الله خصوصاً وأن العوامل التي كانت تساعد على الردة عديدة ومتنوعة والعهد بالجاهلية قريب جداً..

صحيح أن التجربة الإسلامية بعد رسول الله تعرضت لانحراف خطير في مجال الحكم وفي مجالات عديدة أخرى، غير أن تلك الإنحرافات كانت مبطنة بالإيمان ولم تكن مبطنة بالكفر كتلك التي وصل إليها الحال لدى الحكام الأمويين ولم تكن محسوسة

---

(١) وقد جاء في خطبة الإمام المعروفة بالشقشقية قوله: «**أَمَا ، وَ اللهِ ، لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبي قُحَافَةَ، وَ إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحى ، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَ لا يَرْقى إِلَيَّ الطَّيْرُ. فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً ، وَ طَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً.**
**وَطَفِقْتُ بُرْهَةً أَرْتَئي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ ، يَهْرَمُ فيهَا الكَبيرُ، وَ يَشيبُ فيهَا الصَّغيرُ، وَ يَكْدَحُ فيهَا مُؤْمِنٌ حَتّى يَلْقَى اللهَ رَبَّهُ.**
**فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلى هاتَا أَحْجى، فَصَبَرْتُ وَ فِي العَيْنِ قَذىً، وَ فِي الحَلْقِ شَجاً، لَمَّا أَرى تُرَاثي نَهْباً.**
**حَتَّى مَضَى الأَوَّلُ لِسَبيلِهِ فأدلى بها إلى ابن الخطّاب بَعْدَهُ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا... فَمُنِيَ النَّاسُ فيهَا، لَعَمْرُ اللهِ ، بِخَبْطٍ وَ شِمَاسٍ ، وَ تَلَوُّنٍ وَ اعْتِرَاضٍ، فَصَبَرْتُ عَلى طُولِ الْمُدَّةِ، وَ شِدَّةِ المِحْنَةِ....**»، شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ج١ص٥٠- ٥٤ ولا يخفى تألم أمير المؤمنين من سلبه حقه، غير أنه آثر الصبر الطويل رغم شدة المحنة والنتائج المفجعة التي تلتها والتي ألحقت أشد الأضرار بالمسلمين.

لدى الأمة، فيما عدا فئة قليلة منها، لذلك فإن أي تصد لتلك التجربة المنحرفة سيفسر على أنه تنافس على السلطة ولم يكن ليفهم على وجهه الصحيحٍ من جانب الأغلبية من أبناء الأمة التي لم تكن تفكر بعقلية إسلامية بحتة وخصوصا تلك الأغلبية التي لم تلتحق إلا مؤخراً بالإسلام أو التي التحقت به عندما لم تر بداً من ذلك.

غير أن أمير المؤمنين رفض خط تلك التجربة المنحرفة عندما عُرِضَ عليه كشرط لاستلامه الحكم بعد وفاة عمر، عندما قيل له أن عليك أن تعمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين، قال: أعمل بكتاب الله وسنة نبيه واجتهادي(١)...

**إثارة الخلاف.. إثارة الفرقة**

ولو أنه ألزم نفسه بخط التجربة المنحرفة كشرط لاستلامه الحكم، مع كل الوعي الصحيح والفهم الدقيق للإسلام الذي كان يتمتع به، لكان معنى ذلك أنه يساوم على مصالحه الشخصية، وهذا ما لم يكن ليفعله بأي حال من الأحوال لأنه (كان يريد أن تكون المعارضة في إطارها الرسالي وأن ينعكس هذا الإطار على المسلمين، أن يفهموا أن هذه المعارضة ليست لنفسه وإنما للرسالة، وحيث أن أبا بكر وعمر كانا قد بدآ الإنحراف، ولكن الإنحراف لم يكن قد تعمق بعد، والمسلمون قصيرو النظر الذين قدموا أبا بكر على علي، ثم قدموا عمر على علي، هؤلاء المسلمون قصيرو النظر لم يكونوا يستطيعون أن يعمقوا النظر إلى هذه الجذور التي نشأت أيام أبي بكر وعمر، فكان معنى مواصلة المعارضة بشكل جديد أن يفسر من أكثر المسلمين بأنه عمل شخصي وأنها منافسة شخصية مع أبي بكر وعمر. وإن بدأت بذور الانحراف في عهدهما، إلا أنه

---

(١) قال عبد الرحمن بن عوف لعلي: «هل أنت يا علي مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: **اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي**». الطبري: ج٢ص ٥٨٦، فهو كان حريصاً على التخلص من التجربة المنحرفة ولم يلزم نفسه بها حتى ولو كان الثمن هو الحكم.

حتى هذه البذور كانت على الأغلب مصبوغة بالصبغة الإيمانية، كانا يربطانها بالحرارة الإيمانية الموجودة عند الأمة، وحيث أنها حرارة إيمانية بلا وعي، ولهذا لم تكن الأمة تميز هذا الانحراف»[1].

وإذ أن وضع الأمة ذاك كان بعد عهد رسول الله ﷺ مباشرة، فلنا أن نتصوره بعد مائة سنة، وبعد أن شهدت الأمة سلسلة من الحكام، بدا لها معها أن عهد عثمان كان عهداً ذهبياً فكيف بعهد الخليفتين الأولين[2]، كما أن هذه الأمة قد تعرضت لأكبر عملية غسيل للأدمغة عندما شن معاوية الماكر الذكي وعبقري الشر المتفرد أكبر حملة لمسح الإسلام وتزوير أحكامه ومفاهيمه وتاريخه، ورسخ في عقول الناس أن الإنحراف والابتعاد عن الدين أمر لا بد منه في النهاية.

فهل يجد امرؤ رسالي ينشد التغيير وتخليص الأمة من واقعها المؤلم في ظل الحكم الأموي الجائر والمولع في الانحراف سبيلًا إلى إثارة أمور تتعرض لانحراف سابق مستور غير واضح لدى فئات عديدة من هذه الأمة؟ لمجرد أنه يريد أن يسترضي جماعة يريد منهم أن يقوموا معه لمقاومة دولة الظلم، وما جدوى إثارة أمثال هذه المسائل في تلك اللحظات الحاسمة التي كانت المواجهة فيها مع هذه الدولة؟

ألا نرى أن هذه المسألة تثار دائماً من قبل أولئك الذين يريدون العمل على تفرقة المسلمين، مع أنهم أبعد الناس ميلًا عن الطرفين بل عن المسلمين عموماً وأن من يثيرها الآن بشكل خفي أو مكشوف أشد القوى عداء للإسلام، فهل أن دوافع أعداء الإسلام

(١) أهل البيت: ص ٦٢- ٦٣.

(٢) ونعيد إلى الأذهان هنا النادرة الطريفة التي رويت عن معاوية ويزيد، عندما قال الأول للثاني «كيف تراك فاعلاً إن وليت؟ قال: كنت والله يا أبه عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب، فقال معاوية: سبحان الله يا بني، والله لقد جهدت على سيرة عثمان، فما أطقتها فكيف بك وسيرة عمر» االبداية والنهاية: ج ٦ص١٦٨.

تستهدف مصلحة الإسلام؟

**لم يدعُ إلى سنّة الشيخين ولم يسبّهما**

لم يكن بإمكان زيد أن يجيب محاوريه بغير ما أجابهم به، وقد بدت إجاباته في غاية الكياسة، وقد ذكرهم بأن أسلافه لم يذكروا الشيخين بسوء وإنه مقتد بأسلافه، الذين ظلموا وأبعدوا عن مراكز القيادة مع أنهم كانوا أحق بسلطان رسول الله وأن القوم استأثروا عليهم ودفعوهم عنه، وأنهم رغم انحرافهم غير الملموس وخصوصاً في مجال الحكم والمصبوغ بصبغة إيمانية والذي لم تدرك الأمة أبعاده ونتائجه الخطيرة، يظلون بنظرهم مسلمين، فانحرافهم المرتبط بالحرارة الإيمانية للأمة يختلف عن الانحراف المكشوف الذي يتحدى مصالح الأمة «ولهذا استطاعت الأمة أن تلتفت إلى انحراف عثمان[1] بينما لم تلتفت بوضوح إلى انحراف أبي بكر وعمر، وبهذا بدأ علي بن أبي طالب معارضته لأبي بكر وعمر في الحكم بشكل واضح بعد أن مات أبو بكر وعمر، ولم يكن من المعقول تفسير هذه المعارضة على أنها معارضة شخصية بسبب طمع في سلطان»[2].

لقد أوضح زيد لمنافسيه أن الأمويين ليسوا كأبي بكر وعمر اللذين يتمتعان بمكانة عالية لدى فئات واسعة من الأمة.

وأوضح لهم زيد أن الجدير بهم أن يعودوا لرفع مطاليب الأمة المسلمة الأساسية، العودة إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى السنن والبدع أن تطفأ.. لم يدعهم كما لم يدعهم جده أمير المؤمنين من قبل إلى سنة الشيخين، إذ لم يجد أنها سنة أساسية ترتبط بالتجربة الإسلامية منذ البداية وإن على المسلمين الأخذ بها، بل دعا إلى السنن والبدع أن تطفأ وهي دعوة لا مجال معها للقول بأن زيداً كان يرى تفضيل الشيخين على علي، بل يمكن

(١) ناهيك عن انحراف الأمويين المعلن والسافر.

(٢) أهل البيت: ص ٦٣.

الجزم أنه أراد الأمور أن تعود إلى نصابها الطبيعي كما كانت في عهد رسول الله.. ومن هنا فلا مجال لاتهامه بأنه كان يقر حكم الشيخين. إلا أن ذلك ما دام قد كان أمراً واقعاً قد حدث وانتهى ولقي قبولًا من فئات عديدة من المسلمين وما دام الخوض فيه بأسلوب متشنج غير عملي وغير واضح يثير الفرقة والحساسيات بين المسلمين، فإن زيداً لم ير من موجب لتقليب الصفحات التي تسبب ذلك.

وحسب أهل الكوفة أن يلتفتوا إلى بيانه الواضح حول أحقية أهل البيت عليهم السلام بالقيادة والحكم، فلا ينزعجوا من دعوته للتمييز بين الأمويين المنحرفين وبين من سبقوهم من الخلفاء ويفوتوا عليهم فرصة خلط الأوراق التي لجأ إليها معاوية منذ البداية.

### أقصى الإجراءات لمواجهة الثورة

لقد حشدت السلطة أعوانها لمواجهة زيد والقضاء على ثورته واتخذت جملة من الاجراءات منها جمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم لحصرهم فيه ومنع التحاقهم بزيد وتطويقهم بالعرفاء والشرط والمناكب والمقاتلة، وقد تم ذلك قبل خروج زيد بيوم، إذ غلقت أبواب المسجد عليهم كما غلقت دروب السوق واستنفر أشراف الكوفة الذين كانوا يبدون استعدادهم لنصرة الظلم دائماً وخرجوا برجلهم وخيلهم لمواجهة زيد الذي لم يوافه من أصحابه ليلة المعركة سوى مائتي وثمانية عشر رجلًا، وقد آلمه أن يحبس الناس رغم أعدادهم الكبيرة في المسجد الجامع[1]، وأن يتقبلوا الوضع رغم أنهم

(١) كان مسجد الكوفة الجامع واسعاً جداً، وفي بداية تخطيطه أوقف أحد رماة السهام الأشداء وطلب منه أن يرمي باتجاه الجهات الأربع، وقد رمى السهم بنصف كيلومتر تقريباً فيكون طول كل ضلع من أضلاعه كيلومتر ومساحته مليون متر مربع، وقد بني على هذا الأساس، ليسع ربما مليون شخص.

قادرون عملياً على التخلص من سجانيهم.

ولم يتح لمن بايعوا زيداً من أبناء المدائن والبصرة والحيرة وغيرها أن يلتحقوا به لتغيير توقيت الثورة، وربما لم يتح للعديدين- بسبب ذلك- فرصة الالتحاق به وربما لم يستعدوا للموعد الجديد، وهذا ما جعل موقفه ضعيفاً بمواجهة جند الشام وأشراف الكوفة ومرتزقة الدولة من العرفاء والشرط والمناكب والمقاتلة... ولم يستطع بمن بقي أن يستنهض همم من حبسوا في المسجد وكانوا بالتأكيد عزلًا من السلاح ومطوقين بأعوان السلطة.

**معارك عديدة وانتصارات على الجيش الأموي رغم قلة العدد**

وقد جرت معارك قبيل المعركة النهائية استطاع فيها زيد وأصحابه دحر قوة من أهل الشام تفوق قوتهم كما استطاعت مجموعة صغيرة أن تقتل صاحب شرطة حاكم الكوفة وتلحق الهزيمة برجاله، كما دارت معركة أخرى بين زيد وجماعة من أهل الشام، ألحق زيد الهزيمة بهم في النهاية. كان الوالي الأموي يرى أمامه جماعة مستبسلة لم تكن تعتزم الاستسلام أو التراجع، وربما تميل الرياح لصالحها في النهاية، خصوصاً وأن زيداً استطاع التغلب على أشد مجموعات أهل الشام كرهاً لأهل الكوفة الذين كان يقودهم عبيد الله بن العباس الكندي والذين كانوا يطوقون المسجد استعداداً لملاقاة زيد ولإرهاب من حبس من المسجد ومنعهم من الخروج بالقوة منه.

**في المسجد: «اخرجوا من الذل إلى العز.. اخرجوا إلى الدين والدنيا»**

وصل زيد وأصحابه المسجد وجعلوا «يدخلون راياتهم من فوق الأبواب، ويقولون: يا أهل المسجد اخرجوا، وجعل نصر بن خزيمة[1] يناديهم ويقول: يا أهل

(١) وهو من أصحاب زيد المخلصين، وهو الذي اقترح عليه فك حصار المسجد الأعظم.

الكوفة، اخرجوا من الذل إلى العز، أخرجوا إلى الدين والدنيا، فإنكم لستم في دين ولا دنيا. فاشرف عليهم أهل الشام فجعلوا يرمونهم بالحجارة من فوق المسجد - وكان يومئذٍ جمع كبير بالكوفة في نواحيها...»[١].

كانت محاولات إدخال الرايات المسجد رغم وجود أعداد أهل الشام الكبيرة التي تصدت لهم بعنف تستهدف رفع معنويات المحاصَرين وتشجيعهم على الالتحاق بصفوف الثوار إلا أن القوة الأموية الموجودة يبدو أنها قد أحكمت الطوق حولهم ومنعتهم من أي تحرك مضاد، وكانت لصيحات نصر بن خزيمة مدلولاتها الواقعية في تلك الظرف، فماذا كَسَبَ المستضعفون في ظل دولة الظلم؟ لقد ذهب بدنياهم أقطاب تلك الدولة وأعوانها الكبار واستأثروا دونهم بكل شيء وجعلوا منهم مجرد أدوات لتنفيذ أغراضهم وطموحاتهم الشخصية... وقد بلغ انحراف الدولة مداه في كل مجال. وسلخت الأمة من كل تطلع قد يعيدها إلى خطها الرسالي المشرّف، وأصبحت ألعوبة بيد أمراء السوء الذين لم يؤمنوا بأية قيم سماوية عليا رسخها أو أرساها الإسلام. وها هي قد فقدت كل شيء.

إن عودتها للإسلام تعني حصولها على كل شيء، على الدين وعلى الدنيا، على قيم الإسلام الحقيقية وممارساته العادلة التي تعيد إليهم ما اغتصب منهم في ظل دولة الظلم، لأن ذهاب تلك الدولة يعني العودة إلى دولة الإسلام التي تحقق لهم ممارسات حياتية من شأنها أن تجعلهم يتذوقون حلاوته ويتفانون فيه ويحققون في ظله طموحاتهم المشروعة الصحيحة المبنية على عدالته وشريعته لا شريعة الغاب التي طلع بها عليهم حكام السوء.

وكان أحرى بتلك الصيحة أن تصل إلى كل الأسماع وأن تعيها كل القلوب التي

(١) الطبري: ج٤ ص٢٠٦ ، والكامل في التاريخ: ج٤ص ٤٥٤.

ترفض الظلم وتعاني منه، غير أن نطاق القوة المستكبرة في الكوفة قد اشتد، ولم يتح للثوار تحقيق النصر رغم استبسالهم وثباتهم.

بعد انصراف زيد من المسجد ونزوله دار الرزق، تصدى له أحد القادة الأمويين بجمع من فرسان أهل الشام «.. فقاتله قتالاً شديداً فجرح من أهل الشام وقتل منهم ناس كثير وتبعهم أصحاب زيد من دار الرزق حتى انتهوا إلى المسجد فرجع أهل الشام مساء يوم الأربعاء أسوأ شيء ظنا»(١) بعد أن دارت الدائرة عليهم هذه المرة.

وقد أنّب عمر بن يوسف ذلك القائد واستبدله بآخر بعثه لمواجهة زيد وجرت معركة شديدة بينهما «.. ثم إن زيدا ظهر لهم فيما بين بارق ورؤاس فقاتلهم هنالك قتالا شديدا وصاحب لوائه يومئذ رجل يقال له عبد الصمد بن أبي مالك بن مسروح من بني سعد بن زيد حليف العباس بن عبد المطلب وكان مسروح السعدي تزوج صفية بنت العباس بن عبد المطلب فجعلت خيلهم لا تثبت لخيله ورجله»(٢).

كان يبدو أن لا مجال للتغلب على زيد في مثل تلك المواجهات، بل إنه هو الذي انتصر عليهم رغم قلة رجاله وتجهيزاته، وكان الأمر ينذر بمخاطر عديدة قد تنشأ عن انتصار كبير يحققه عليهم، وقد تميل الكفة إلى جانبه نهائياً، وهو الأمر الذي كان عليهم اجتنابه والحيلولة دون تحقيقه، فالكوفة لا يمكن أن تظل متجاهلة انتصارات زيد ولا بد أن تنتفض كلها معه في نهاية المطاف إذا ما استمرت هذه الانتصارات.

**الغدر والمكر**

وكان لا بد لقيادة الغدر والسوء أن تلجأ إلى أسلوب من أساليبها الماكرة لتجنب

---

(١) الطبري: ج٤ ص٢٠٦- ٢٠٧، والكامل في التاريخ: ج٤ص٤٥٤.

(٢) الطبري: ج٤ ص٢٠٧، والكامل في التاريخ: ج٤ص٤٥٤.

مواجهة الرجال المستبسلين في سبيل الإسلام ودفع الشر والأذى عن المسلمين، فبعث يوسف بن عمر إلى الناشبة، وهم رماة السهام والنشاب وأمرهم بالمشاركة في المعركة.

وإذ أن هؤلاء يقفون عادة بعيدين عن مكان المبارزة والصراع في أماكن حساسة تبعد عشرات الأمتار عنها فيظلون بمنأى عن المخاطر التي يتعرض لها الفرسان والمشاة الآخرون أو تتاح لهم فرصة رمي عدة نبال في الدقيقة الواحدة، وعادة ما يكونون ذوي مهارة في عملهم، فإن عدداً كبيراً منهم إذا ما اشترك في معركة بمواجهة فرسان قليلين مثل أصحاب زيد فإن مهمتهم ستكلل بالنجاح حتماً خصوصاً إذا ما اتخذوا أماكن حساسة محتمين بالجدران وجذوع النخل وغيرها.

### إصابة زيد بسهم غادر

ثبت رجال زيد بمواجهة هذه القوة الجديدة، إلا أن سهماً أصاب جانب جبهته اليسرى فثبتت في الدماغ، جعلهم يرجعون «ولا يظن أهل الشام أنهم رجعوا إلا للمساء والليل»[1] ولم يحسبوا أنهم قد أصابوا منه مقتلاً، وأنه سيموت عما قليل...

### قطعوا الرأس وصلبوا البدن

ودفنه أصحابه في حفرة في نهر صغير لكي لا تؤخذ جثته ويُمثل بها، إلا أن عبداً سندياً دلَّ عليه[2]، فاستخرجوا الجثة وقطعوا الرأس وأرسلوه إلى يوسف بن عمر الذي بعثه بدوره إلى هشام «فأمر به فنصب على باب مدينة دمشق ثم أرسل به إلى المدينة ومكث البدن مصلوبا حتى مات هشام ثم أمر به الوليد فأنزل وأحرق»[3].

---

(١) الطبري: ج٤ ص٢٠٧، والكامل في التاريخ: ج٤ص٤٥٤.

(٢) وقيل إن الذي دل عليه عبد قصّار.

(٣) الطبري: ج٤ ص٢٠٩، والكامل في التاريخ: ج٤ص٤٥٥.

وكعادة الطغاة عندما يتنفسون وتتاح لهم فرصة القضاء على أعدائهم بمختلف الأساليب غير المشروعة، فإنهم يلجؤون إلى السباب والشتيمة والتهديد، ويظهرون بمظهر الأبطال الذين لا يغلبون، وقد رأينا عبيد الله بن زياد وقبله زياداً أباه ومعاوية سيدهما وغيرهم من الطغاة الذين تسلطوا على رقاب الأمة بالقهر والإكراه يلجؤون إلى هذا الأسلوب[١].. ولا عجب أن يعمد ممثل هشام في العراق إلى ما عمد إليه أسلافه فيأتي الكوفة بعد أن قتل زيد ليلقي هذه الخطبة التي تدل على أنه كان مقتنعاً بانحياز أهل العراق عنه وعن أسياده في الشام وكره الشعب المسلم للأمويين.

**تهديدات لأهل الكوفة**

«يا أهل المدرة الخبيثة، إني والله ما تقرن بي الصعبة، ولا يقعقع لي بالشنان، ولا أخوف بالذنب، هيهات، حُييت بالساعد الأشد. أبشروا يا أهل الكوفة بالصغار والهوان. لا عطاء لكم عندنا ولا رزق. ولقد هممت أن أخرب بلادكم ودوركم، وأحرمكم أموالكم. أما والله ما علوت منبري إلا أسمعتكم ما تكرهون عليه، فانكم أهل بغي وخلاف، ما منكم إلا من حارب الله ورسوله، إلا حكيم بن شريك المحاربي ولقد سألت أمير المؤمنين أن يأذن لي فيكم، ولو أذن لقتلت مقاتلتكم، وسبيت ذراريكم»[٢]...

ثم «بعث أهل الشام، يطلبون الجرحى في دور أهل الكوفة، فكانوا يخرجون النساء إلى صحن الدار، ويطوفون البيت يلتمسون الجرحى»[٣].

---

(١) ولا تغيب عن البال خطب الحجاج النارية عندما تنفرج الأزمات وكلماته الوعظية الرقيقة أيام الأزمات والشدائد...

(٢) الطبري: ج٤ ص٢١٠.

(٣) الطبري: ج٤ ص٢٠٨.

كان أهل الكوفة كلهم بنظر الولاة الأمويين أهل بغي وخلاف، بل أهل المدرة الخبيثة على حد تعبير الطاغية يوسف بن عمر الذي لم يستثن منهم سوى شخص واحد سماه لهم، وحتى أولئك الذين ساعدوه ووقفوا إلى جانبه لم يسلموا من ذلك التقريع وتلك الشتائم.

ولعل هؤلاء لو كانوا قد وقفوا موقفاً مشرفاً مسانداً لزيد لما لحقتهم من إهانات كتلك التي صبّها يوسف بن عمر عليهم ولمرّغوا جبهته بالتراب بدل أن يمرغ هو جباههم.

**مذلّون مهانون**

وأمر هؤلاء المتعاونين المنحازين إلى دولة الظلم باختيارهم ودون أن يدعوهم أحد لذلك، أمر مثير للانتباه حقاً، فهم لم يكونوا من الوجهاء المرموقين أو المستفيدين من عطاء الدولة، لكنهم من المحرومين المبعدين عن الجاه والمال كليهما، ومع ذلك فإننا نحسب أن طموحات وضيعة تدعوهم للتقرب من أقطاب الدولة بالسعاية وإبداء المواقف البطولية المشهودة[1]، ولا نحسب أنهم يطمحون بأكثر من ابتسامة رضا أو قليل من الدراهم لا غير، ومع ذلك يندفعون اندفاعة عمياء وراء الظالمين وكأن مستقبل مشرف ينتظرهم إذا ما خدموا هؤلاء، وكأن طاقة للحظ السعيد ستفتح أبوابها إذا ما أحسنوا أداء تلك الخدمة التطوعية التي لم يطالبهم بها أحد.

وأمامنا هنا قائمة طويلة من هؤلاء المتطوعين الذين كان جل همّهم أن تلتفت إليهم دولة الظلم وتجعلهم من أعوانها.

---

(١) وقد أفردنا فصلًا صغيراً عند استعراض ثورة الحسين عليه السلام في هذا الكتاب للحديث عن هذه الظاهرة، وتحدثنا عن بعض النماذج التي لفتت الأنظار إليها.

فهذا سليمان بن سراقة الذي وشى بزيد لدى يوسف بن عمر وسبّب إعلان الثورة قبل أوانها وفشلها فيما بعد...

وهذا نائل بن فروة الذي حاول أن يظهر بطولته! أمام يوسف بن عمر ليعجب به والذي تعهد بقتل نصر بن خزيمة أو يقتل دون ذلك.. وقد قتله نصر فخسر كل شيء.

وهذا العبد السندي- أو العبد القصار- الذي دلّ أعوان يوسف بن عمر على مكان جثة زيد، بعد أن حاول أصحابه إخفاءها في مجرى أحد الأنهار.

وهذا التابع الأموي الذي كتب إلى هشام يذكر له أمر زيد...

وهذا القحطاني الذي حاول النيل منه وشتمه في مجلس حاكم المدينة الأموي.

وهذا المملوك الخراساني الألكن الذي بعثه ممثل يوسف ليتجسس على أصحاب زيد ويكشف أخبارهم بزعم أنه قدم من خراسان حباً لأهل البيت عليهم السلام وأن معه مالًا يريد أن يقويهم به...

ولم يزل يلقاهم حتى أدخلوه على زيد، فخرج فدلّ يوسف على موضعه[1]...

وهذا الشاعر الذي خاطب زيداً بقوله:

ألا يا ناقض الميثاق     أبشر بالذي ساكا
نقضت العهد والميثاق     قدماً كان قدماكا
لقد أخلف إبليس الذي     قد كان منّاكا

ويرد بقوله عندما قيل له: أتقول هذا لمثل زيد؟، إن الأمير غضبان فاردت أن أرضيه[2]... ولا ندري ما الذي دفعه ليرضيه سوى نفسه الخائرة المهزومة.

---

(١) راجع المصادر السابقة ففيها أخبار متفرقة عن هؤلاء.

(٢) وقد رد عليه أحد شعراء المدينة بقوله:

وهذا الجندي الذي كان ضمن جنود يوسف بن عمر والذي اندفع دون أن يطلب أحد منه ذلك لشتم فاطمة سيدة نساء العالمين بنت رسول الله ﷺ، والذي لقي عقابه في إحدى معارك زيد مع جنود السلطة(١).

إن هذه النماذج تتكاثر في ظل دول الظلم، وأمرها جدير بدراسات إجتماعية جادة من شأنها كشف هذه الأدواء ووضع علاج لها في المستقبل إذا ما تعرف الناس عليها واكتشفوا ضآلة المكاسب التي يحصل عليها أصحابها، بل الخسائر الكبيرة التي تلحق بهم وبمجتمعاتهم... ألسنا نعاني من هذه الظاهرة حتى يومنا هذا؟

**الروح الحسينية**

وإذ أننا لا نؤرخ لثورة زيد إلا بالقدر الذي يفيدنا في هذه الدراسة، فإننا لا نتعرض لكل تفاصيل هذه الثورة الكبيرة، غير أننا نؤكد هنا أن الروح الحسينية كانت واضحة في الثورة الزيدية، وقد أجّجت سلسلة الثورات التي بدأت بزيد وابنه وبعض العلويين من أبناء الحسن والحسين عليهما السلام، فكربلاء امتدت لتشمل كل البلاد الإسلامية وفي كل العهود التي تعرض فيها المسلمون للظلم والأذى، وزيد أصبح امتداداً للحسين عليه السلام، أي أنصار مخلصين للحسين عليه السلام وأطروحته لمواجهة الظلم، كان أولئك الذين وقفوا مع زيد واستشهدوا بين يديه!، وأي أنصار مخلصين للحسين وثورته أولئك الذين رفضوا الظلم والعبث بالإسلام ومقدرات المسلمين على امتداد تاريخهم، والذين وقفوا مع كل راية تعادي ذلك الظلم وذلك العبث وتنكره وتريد إزالته.

---

ألا يا شاعر السوء لقد أصبحت أفّاكا ... ألا صبّحك الله بخزي ثم مسّاكا
أشتم ابن رسول الله يرضي من تولاكا ... ويوم الحشر لا شك بأن النار مثواكا

الطبري: ج٤ ص٢٠٩- ٢١٠.

(١) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين: ص١٤٠.

إن دور أئمة أهل البيت عليهم السلام لإزالة الانحراف والعودة إلى الخط الذي رسمه وأرساه رسول الله كان دوراً واحداً متكاملًا عديد الحلقات والفصول، ولم يكن هناك أي تناقض في أي حلقة أو فصل منها رغم بعض الدعاوى التي تشير إلى ذلك.

وإذ أننا تحدثنا عن ذلك فيما سبق من فصول هذا الكتاب، فإننا نؤكد هنا ثانية إن الذين ساروا تحت راية علي أمير المؤمنين والحسين عليهما السلام وقتلوا تحت تلك الراية لم يكونوا كلهم من الشيعة الموالين لعلي والحسين، فالمذاهب الإسلامية لم تتبلور في ذلك الحين ولم تظهر، بل إن ظهورها كان متاخراً عن تلك الفترات.

إنهم ساروا تحت الراية التي رفضت الإنحراف والمساومة، وكان خط آل البيت عليهم السلام هو الذي خفقت فوقه تلك الراية على امتداد العصور، وكان أئمة أهل البيت عليهم السلام يمثلون المعارضة الدائمة للانحراف والظلم، وكان لا بد أن يلجأ إليها كل رافض لهما وكل مسلم واع يعرف الإسلام معرفة واضحة مبينة.

**العدالة الإلهية يجسدها خط أهل البيت عليهم السلام**

ولعل أولئك الذين أشاروا على أمير المؤمنين بإقرار معاوية على الشام وأولئك الذين أخذوا عليه عدالته المتناهية ومواقفه المبدئية من الانحراف، وأولئك الذين لم يحبذوا خروج الإمام الحسين لمواجهة يزيد رغم قلة أعوانه وأنصاره ورغم الاحتمال الكبير لتعرضه للقتل وعدم قبوله بمساومة يزيد أو الاعتزال في بلدٍ ناءٍ إلى حين. لعل أولئك لو شاهدوا ما تمخضت عنه أمثال تلك المواقف فيما بعد وشاهدوا نتائجها الإيجابية التي كانت لصالح المسلمين في كل وقت والتي جعلتهم يفتحون أعينهم جيداً ويرصدون حركات أعداء الإسلام الذين أصبحوا حكاماً وقادة للمسلمين... سيدركون، لو كانوا قد رأوا طلائع المسلمين من كل المذاهب تتطلع بإعجاب إلى ذلك

الخط الرسالي وتنضم إليه، إنهم كانوا على خطأ، وأن الرابح الوحيد والفائز الوحيد بالنصر والشهادة كليهما، هو الذي لم يبخل بماله ونفسه في سبيل الإسلام الذي جاء به رسول الله لا ذلك الذي وضعه معاوية ومأجوروه، والذي جاد بكل شيء ليظل الإسلام باقياً في نفوس المسلمين إلى الأبد.

«.. إن علي بن أبي طالب عليه السلام في معارضته، وعلي بن أبي طالب في حكمه لم يؤثر على الشيعة فقط، بل كان يؤثر في مجموع الأمة الإسلامية، علي بن أبي طالب ربّى المسلمين جميعاً، حضن المسلمين جميعاً.. أصبح أطروحة ومثلًا أعلى للإسلام الحقيقي. من الذي كان يحارب مع علي بن أبي طالب؟ هؤلاء المسلمون الذين كانوا يحاربون في سبيل هذه الأطروحة العالية، في سبيل هذا المثل الأعلى؟ أكانوا كلهم شيعة بالمعنى الخاص؟ لا، لم يكونوا كلهم شيعة. هذه الجماهير التي انتفضت بعد علي بن أبي طالب على مر التاريخ، بزعامات أهل البيت، بزعامات العلويين الثائرين من أهل البيت، الذين كانوا يرفعون راية علي بن أبي طالب للحكم، هؤلاء كلهم شيعة؟

كان أكثرهم لا يؤمن بعلي بن أبي طالب إيماننا نحن الشيعة، ولكنهم كانوا ينظرون إلى علي على أنه المثل الأعلى، إنه الرجل الصحيح الحقيقي للإسلام..»[(١)].

وهكذا كان الذين أيدوا الحسين عليه السلام ونصروه حتى بعد أن قتل وانضموا إلى فصائل الثائرين المكافحة ضد الظلم، لم يؤيدوه لأنهم كانوا شيعة له خاصة، بل لأنهم علموا أنه كان (شيعة) لجده وللإسلام، وإنه كان يمثل الخط الصحيح المستقيم المبرأ من الإنحراف والظلم وبعد أن وجدوا فيه مثلًا أعلى يتطلعون إلى خطه ونهجه على الدوام، وبعد أن وجدوا أنه كان ينتصر للإسلام بحياته ودمه.

---

(١) أهل البيت: ص ٦٩.

شهداء في سبيل الإسلام

وهكذا صرح الإمام الصادق عليه السلام أمام أحد الذين شاركوا زيداً في ثورته قائلًا: **«مضى والله عمي وأصحابه شهداء، مثل ما مضى عليه علي بن أبي طالب وأصحابه»**[(١)].

وقال عندما بلغه نبأ مقتله: **«إنّا لله وإنا إليه راجعون، عند الله أحتسب عمي، إنه كان نعم العم. إن عمي كان لدنيانا وآخرتنا. مضى والله عمي شهيداً، كشهداء استشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي والحسن والحسين صلوات الله عليهم»**[(٢)].

وإذ أن هذه الأحاديث الواضحة تضيع الفرصة على أولئك الذين ادعوا أن زيداً كان يدعو لنفسه، ربما بدافع الثأر للإهانة أو الإهانات التي لحقت به وأهل بيته، فإنها تدلل على أنه كان حريصاً على السير وفق توجيهات الأئمة عليهم السلام وإنه كان إحدى الواجهات المعروفة لهم، وقد ضحى في سبيل الإسلام وقيادته الحقيقية وحرص أشد الحرص على أن تظل تلك القيادة المتمثلة بالإمام الصادق عليه السلام بعيدة عن شر وعبث القيادة الأموية المتسلطة على مقدرات المسلمين.

«هناك علماء من أكابر علماء السنة، أفتوا بوجوب الجهاد، وبوجوب القتال بين يدي ثوار آل محمد، وأبو حنيفة قبل أن ينحرف، قبل أن يرشيه السلطان ويصبح من فقهاء عمال السلطان، أبو حنيفة نفسه الذي كان من نواب السنة ومن زعماء السنة، هو نفسه خرج مقاتلًا ومجاهداً مع راية من رايات آل محمد وعلي عليهم السلام وأفتى بوجوب الجهاد مع راية من رايات علي عليه السلام مع راية تحمل شعار علي بن أبي طالب»[(٣)].

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٦ ص١٧١.

(٢) عيون أخبار الرضا: ج١ص٢٢٥.

(٣) أهل البيت ص ٧٠ وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: **«إن أبا حنيفة قد تحققت مودته لنا في نصرته زيد بن علي عليه السلام»**، مقاتل الطالبيين ١٤٥.

## حركة يحيى بن زيد

### الوليد بن يزيد- أكبر انتهاك لحرمات المسلمين

لقد ظلت البذور التي نثرها زيد تطلع علينا بغرسات مورقة موردة لثوار آخرين ساروا على نهجه في الدفاع عن الإسلام والقيادة الحقيقية للمسلمين.

ثار من بعده ابنه يحيى الذي كان قد شارك أباه في المواجهة الساخنة في الكوفة ولم يتركها إلا بعد أن دفنه واعتقد أنه أصبح بمأمن من عبث الأعداء.

كانت سنة خمس وعشرين ومائة، وهي السنة التي أعلن فيها يحيى ثورته ضد حكم الوليد بن يزيد الذي أصبح خليفة على المسلمين بعد وفاة هشام، وهو أكبر انتهاك لحرمات الإسلام والمسلمين وأكبر خروج سافر عن الشريعة المحمدية.

«كان فاسقاً، شرّيباً للخمر، منتهكاً حرمات الله، أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة، فمقته الناس لفسقه، وخرجوا عليه»[1] «اشتهر بالخمر والتلوط»[2]، قال عنه يزيد بن الوليد الناقص «بعداً له، أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً، ولقد راودني على نفسي»[3].

وقد رود في مسند أحمد حديث: «ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد، لهو

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص٢٣٣.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص٢٣٣.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص٢٣٣.

أشد على هذه الأمة من فرعون لقومه»[١].

«ولما ولي الخلافة وأفضت إليه، لم يزدد في الذي كان فيه من اللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق إلا تمادياً وحدّا..»[٢].

«ومما اشتهر عنه أنه فتح المصحف فخرج ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ فالقاه ورماه بالسهم وقال:

تهددني بجبار وعنيد  وها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر  فقل يا رب مزقني الوليد».[٣]

ولو أن مؤرخاً أرخَ لعهود المجون والاستهتار في العالم لرأى أن عهد الوليد بن يزيد كان هو العهد الذهبي المزدهر الذي فاق فيه (خليفة الله) كل خلقه في هذا المجال وتمادى فيه إلى أبعد حدّ وفتح الباب على مصراعيه أمام من جاؤوا بعده من (خلفاء المسلمين) ليعبثوا ويستهتروا دون اعتبار لأية قيم أو مبادىء.

**تحشيد المعارضين للنظام**

ظل يحيى بن زيد يعمل طيلة أربع سنوات بعد استشهاد أبيه في الكوفة متنقلًا بينها وبين المدائن وخراسان حيث عمل على تحشيد طلائع جديدة من المسلمين تتصدى للحكم الفاسد بعد أن فاحت رائحته ولم يعد بالإمكان التستر عليها أو السكوت عنها.

حاول يوسف بن عمر أن يتقرب إلى الوليد بن يزيد بمطاردة يحيى وسجنه، وإذ أن يحيى لم تبدر منه بادرة ظاهرية حتى ذلك الحين لمناوئة الحكم، فإن الوليد خشي إن هو

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص٢٣٤.
(٢) الطبري: ج٤ ص٢٣٥.
(٣) الكامل في التاريخ: ج٤ص ٤٨٦.

قتله أن يثير الرأي العام ضده، خصوصاً وإن منافسين له من العائلة الأموية نفسها قد ظهروا على الساحة وأخذوا يتربصون به الدوائر، فامر واليه على العراق أن ينفيه عن خراسان وأن لا يدعه يقيم بها.

**سبعون رجلاً بمواجهة عشرة آلاف**

وقد بدا للعمال الأمويين في خراسان والعراق وأعوانهم أن يقمعوا حركة يحيى بن زيد قبل أن تظهر بوادرها ويُكْمِل استعداداته، فأمر والي خراسان نصر بن سيار بعض قادته أن يمضوا إلى عمرو بن زرارة- هو يومئذٍ على قومس- «ثم ينصبوا ليحيى بن زيد فيقاتلوه، فجاؤوا حتى انتهوا إلى عمرو بن زرارة، واجتمعوا فكانوا عشرة آلاف، وأتاهم يحيى بن زيد، وليس هو إلا في سبعين رجلًا، فهزمهم وقتل عمرو بن زرارة»[(١)].

وفي الجوزجان جرت معركة أخرى بينه وبين أعوان السلطة أصاب فيها سهم غادر جبهة يحيى فقتل في تلك المعركة فاحتز رأسه وصلبت جثته ثم أحرقت بعد ذلك وذرت في الفرات.

**ثورة زيد ويحيى- المعول الأخير الذي أطاح بالدولة الأموية**

كانت ثورة زيد ثم ثورة ابنه يحيى من بعده- مع أنهما لم تحققا نصراً ظاهراً على الدولة في حينهما، كما بدا الحال مع ثورة الحسين عليه السلام للكثيرين، إلا أنهما كانتا فيما يبدو الضربة الأخيرة للمعول الذي أطاح بالدولة الأموية.

أيعقل أن الحسين عليه السلام ثار من قبل وهو الأقل قوة وتجهيزاً، بوجه الدولة القوية المزدهرة ذات الأعوان والعدد، دون أن يضع باعتباره أنه يقوم بعمل حقيقي من شأنه تغيير مصير المسلمين ولو بعد حين، وإن كان يرسي دعائم التصدي والثبات بوجه

---

(١) الطبري: ج٤ ص٢٣٣.

الظلم والانحراف والتزوير، وإنّ دمه ودماء أصحابه التي بدت وكأنها ذهبت هدراً دون نتيجة أو غاية مرجوة، ستسقي بساتين الجهاد والثورة إلى الأبد وإلى أن تعود الأوضاع إلى سيرها الطبيعي ولو بعد مئات أو آلاف السنين؟

إذا لم يكن أصحاب الحسين بدرجة من الوعي تجعلهم لا يدركون طبيعة أهدافه الرسالية الكبيرة، فلماذا اندفعوا لمواجهة أعدائه وأعداء الإسلام تلك المواجهة الساخنة وقدموا انفسهم في سبيلها.

وهل خلت الساحة فيما بعد من أصحاب جدد للحسين يدركون ما أدركه أصحابه الأوائل من قبل، ويعلمون علم اليقين أن المواجهة ينبغي أن لا تنتهي وإن حسب الظالمون والمنحرفون أنهم الطرف الأقوى والأشد.

**تعليمات القيادة الوارثة**

وإذ أن الثائرين هنا كانوا من نفس خط الثوار الأوائل، وكان قادتهم ينتمون إلى قائد الثورة الأولى، الإمام الحسين عليه السلام وكانوا من أبنائه، وكانوا يتلقون توجيهاتهم وتعليماتهم من القيادة الوريثة المنحدرة من صلبه والمتمثلة بأئمة أهل البيت عليهم السلام، وبالإمام الصادق عليه السلام على الخصوص الذي حرص أن لا يقوم هو بالمواجهة لطبيعة الظرف الذي كان يمر به المسلمون ولإمكان إقدام السلطة الحاكمة- لو كان هو الذي قام بالمواجهة- على نسف وتدمير كل تراث آل البيت عليهم السلام واستئصال كل ما من شأنه أن يذكر الناس بمحمد وآل محمد، وإلا.. هل يتورع أمثال الوليد الذي اعتزم أن يذهب إلى مكة ليشرب الخمر فوق سطح الكعبة والذي رمى القرآن بنشابة، يعبث ويلهو، عن إصدار أمر عابث لتدمير آل البيت ومحو آثارهم وطمس الخط الرسالي الحقيقي الذي رسمه محمد وكانوا الحفظة الحقيقيين له بوجه تيارات وعواصف الانحراف التي هيجها

الحكام الأمويون دون حساب إلا لمصالحهم الخاصة وأطماعهم وتوجهاتهم البعيدة عن الإسلام جملة وتفصيلًا، إلا ما ذكر عن اهتماماتهم ببعض المظاهر الشكلية ليتسنى لهم الإدعاء بانهم يحكمون حقاً باسم الإسلام وأنهم يمثلون المسلمين.

**لا بد أن تستمر المواجهة الساخنة**

كان لا بد للمواجهة الساخنة أن تستمر وأن تشعر دولة الظلم أن هناك من هو على استعداد لمواجهتها وعرقلة خططها المعادية للمسلمين، وفي نفس الوقت كان لا بد من ديمومة الخط الرسالي الصحيح بعلوم الإسلام الحقيقية التي كان يحملها حملًا أميناً وواعياً أئمة أهل البيتعليهم السلام، وكانوا هم الوحيدين الجديرين أن ينقلوا هذه العلوم وينشروها بين المسلمين، وكانوا هم الوحيدين الجديرين أن يتقبل منهم المسلمون ذلك وأن يصدقوهم بعد أن كثر وضاعوا الحديث ومزوروه والمتاجرون به.. وكثر وعاظ السلاطين وشيوخ السوء المتهالكون على أبواب السلطان.

وهكذا نشأت أكبر مدرسة، بل المدرسة الوحيدة الكبرى، لعلوم الإسلام في عهدي الإمامين الباقر والصادقعليهما السلام، في فترة بدا فيها أن الإنحراف يعيش عهده الزاهر، وكان لا بد من وضع قواعد تلك المدرسة الكبيرة التي كانت أصلًا لكل المدارس الأخرى التي ازدهرت وعاشت طيلة عهود الإسلام !لى يومنا هذا... حتى تلك التي انحرفت عنها فيما بعد.

**لا بد أن تستمر مدرسة أهل البيتعليهم السلام**

ولو أن مدرسة أهل البيتعليهم السلام لم تقم في ذلك العهد لانطمست كل علوم الإسلام، ولكان الإسلام مجرد أثر غابر ولكان القرآن عرضة لتأويلات مريعة تجعل من آياته أداة لخدمة دول الظلم التي عمدت إلى ذلك فعلًا ومنذ عهد مبكر، وكان بطل

التحريف والتأويل الأول معاوية بن أبي سفيان الذي لا يزال يحظى بتقدير كبير لدى فئات عديدة من المسلمين، بفعل إيحاءات الحكام الآخرين الذين هم نسخة مكرورة معادة منه والذين يحاولون الإفادة من (الشرعية) والأسس التي أقام عليها حكمه.

«إن الأئمة عليهم السلام بالرغم من التآمر على إقصائهم عن مجال الحكم كانوا يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها ضد التردي إلى هاوية الانحراف والانسلاخ من مبادئها وقيمها انسلاخاً تاماً.

**تعرية الزعامة المنحرفة مهمة إيجابية**

تمثل هذا الدور الإيجابي في إيقاف الحكام عن المزيد من الانحراف...

وتمثل في تعرية الزعامة المنحرفة التي أصبحت تشكل خطراً ماحقاً ولو عن طريق الاصطدام المسلح بها والشهادة في سبيل كشف زيفها وشل تخطيطها كما صنع الإمام الحسين مع يزيد..

وتمثل في مجابهة المشاكل التي تهدد كرامة الدولة الإسلامية وتعجز الزعامات المنحرفة عن حلها.

وتمثل الدور الإيجابي للأئمة أيضاً في تلك المعارضة القوية العميقة التي كان الأئمة يواجهون بها الزعامات المنحرفة بإرادة صلبة لا تلين وقوة نفسية صامدة لا تتزعزع، فإن هذه المعارضة بالرغم من أنها اتخذت مظهر السلبية والمقاطعة في أكثر الأحايين بدلًا من مظهر الاصطدام الإيجابي والمقابلة المسلحة، غير أن المعارضة حتى بصيغتها السلبية كانت عملًا إيجابياً عظيماً في حماية الإسلام والحفاظ على مثله وقيمه، لأن انحراف الزعامات القائمة كان يعكس الوجه المشوه للرسالة، فكان لا بد للقادة من أهل البيت أن يعكسوا الوجه النقي المشرق لها وأن يؤكدوا عملياً باستمرار المفارقات بين الرسالة

والحكم الواقع، وهكذا خرج الإسلام على مستوى النظرية سليماً من الانحراف وإن تشوهت معالم التطبيق..

وتمثل الدور الإيجابي للأئمة في تموين الأمة العقائدية بشخصيتها الرسالية والفكرية من ناحية، ومقاومة التيارات الفكرية التي تشكل خطراً على الرسالة وضربها في بدايات تكونها من ناحية أخرى...»[1].

**تنمية التوجه الثوري الرافض**

إن توجهاً ثورياً رافضاً للانحراف تكوّن بعد ثورة الحسين عليه السلام، ظل ينمو في كل أقطار الإسلام. وقد رأينا أنه كان ينمو ويشتد ويكاد أن يجتاح الزعامات المنحرفة لو لم تتصد له تلك الزعامات بعنف وتلجأ إلى أشد الأساليب بطشاً ودموية لمواجهة الثوار الذين استلهموا مبادىء الثورة الحسينية وأيقنوا بجدواها وضرورتها كحل لإيقاف الانحراف.

إن ذلك التوجه الثوري أوجد تياراً قوياً بين صفوف أبناء الأمة، غير مرئي دائماً إلا أنه محسوس تمثل بالاستعداد السريع لمقاومة الزعامات المنحرفة إذا ما تمادت في تحديها واستهتارها وعبثها، فأن يطلع على الأمة كل يوم ثائر جديد ينتصر للإسلام مثل زيد وابنه يحيى ومحمد ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم وغيرهم وأن تلتحق بهم جماهير غفيرة من أبنائها، يعني أن عقيدة الأمة تتجدد باستمرار رغم معاول الهدم التي تلجأ إليها دولة الظلم.. مما يجعل هذه الدول رغم جبروتها وقوتها الظاهرية وأعوانها وثرواتها تحسب حساباً لقوى المعارضة والثورة وتمتنع عن العديد من التصرفات والممارسات المشينة العلنية التي من شأنها أن تشوه صورتها أمام الأمة، وتحاول تحسين هذه الصورة

---

(١) أهل البيت: ص ١١- ١٥.

بادعاء الحرص على الإسلام بل وبالتقرب أحياناً من القيادة الشرعية المتمثلة بآل البيت عليهم السلام، أو بفرض حصار أو رقابة شديدة حولهم في محاولة لعزلهم عن الجماهير وتطويقهم ومنع أي اتصال بهم مدركة أن خطراً ما يهب عليها من ناحية هذا الإمام أو ذاك لخطورة الأدوار الإيجابية التي يمارسها أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين لم يعمدوا في الظاهر إلى القيام بأي نشاط عسكري مع أنهم كانوا يسعون لإقامة دعائم الحكم الصالح مدركين «أن إقامة هذا الحكم وترسيخه لا يتوقف في نظرهم على مجرد تهيئة حملة عسكرية، بل يتوقف قبل ذلك على إعداد جيش عقائدي يؤمن بالإمام وعصمته إيماناً مطلقاً ويعي أهدافه الكبيرة، ويدعم تخطيطه في مجال الحكم ويحرس ما يحققه للأمة من مكاسب..».[(١)] إن الأدوار المتعددة التي لعبها كل إمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام وكانت محصلتها أن استطاعوا استقطاب قطاعات واسعة من الأمة إلى صفهم، أقلقت زعامات الانحراف وأفزعتها وجعلتها تحسب ألف حساب للامام المعصوم من آل البيت وتتيقن من قدرته الكبيرة على التصدي لها ومنع مشاريعها المدمرة، وإن لم تعرف بالتأكيد سبب تلك القدرات وسر تأثير الإمام على جماهير الأمة، وهذا ما جعلها تفكر ملياً قبل الإقدام على عمل طائش قد يطيح بها إلى الأبد، خصوصاً وانها أدركت أن سهولة تشكل حركة ثورية مناوئة أصبح أمراً وارداً، بل إن وجود الحركة المناهضة كان واقعاً فعلًا.. وإن أعداداً كبيرة من الأمة على استعداد لمواجهتها والإطاحة بها مهما كانت النتائج.

**(الزيدية) تيار ثوري مناهض للظلم والانحراف**

وكانت (الزيدية) أحد التيارات الثورية المناهضة للظلم وخط الانحراف[(٢)] في

(١) أهل البيت: ص٢٢.

(٢) ولا بد من الإشارة إلى اختلاف معظم العقائد والمذاهب التي نشأت بعد ذلك ونسبت للزيدية عن الخط الرسالي الثوري الذي انتهجه زيد بن علي وأولاده وأولاد الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام الذين تناوبوا على قيادة ذلك الخط بتوجيه غير معلن من أئمة أهل البيت عليهم السلام، وكانت بعض

تلك الظروف التي كان فيها ذلك الخط ينحدر نحو الهاوية ودولة الظلم قد تمادت إلى أبعد حد في جرائمها وشذوذها.

إن الأثر الذي تركته ثورة زيد في الكوفة ويحيى في خراسان كان قوياً جداً بل صاعقاً جعل الأمة تلتفت بوضوح إلى ما تقوم به زعامات الانحراف، وتعتزم الثبات والصمود أمام نزعاتها المصلحية الشريرة والتصدي لها بعنف مهما كان الثمن، كما أن أجيالًا من المسلمين نشأت على الولاء والحب لآل البيت عليهم السلام وخطهم الرسالي السليم الذي رأت أنه الخط الوحيد الذي يمكن أن يعصمها من الخطأ والانحراف. إن الدعوة للرضا من آل البيت التي رفعها زيد ويحيى ومن جاء بعدهما قد لقيت ترحيباً من عموم المسلمين، وقد وجد العباسيون فيما بعد أنها أضمن وسيلة لانتزاع الحكم من الأمويين فرفعوها بعد أن قرروا أن يلتقوا حولها ويجردوها من مدلولها الحقيقي.. فالرضا من آل البيت يفهمه المسلمون على أنه أحد أئمة أهل البيت عليهم السلام، وسيتاح للعباسيين الإدعاء فيما بعد- بعد أن يعززوا سلطتهم ومركزهم- أنه أحد الهاشميين ولا يهم أن يكون من أبناء علي أو العباس، ما دام سيبدو إمام الأمة متباكياً على الحسين وزيد ومسلم بن عقيل ويحيى، وما دام يدعي الحب لأمير المؤمنين وأولاده من بعده...

---

المواقف المتأخرة لبعض الزيديين أو من يرى رأيهم متناقضاً مع ذلك الموقف الحقيقي الذي وقفه قادة الحركة في البداية، فقد روي «أن ممن سعى بالإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى السجن هو يعقوب ابن داود، وكان يرى رأي الزيدية»، البحار: ج٤٨ ص٢١٠. وكان أبو حنيفة أشهر الذين انحرفوا وساوموا السلطان العباسي بفعل الإرهاب أو الرشوة...

والواقع أن الزيدية بعقائدها الحقيقية لايمكن ان تنفصل عن التوجه العقائدي والفقهي لأئمة اهل البيت عليهم السلام غير انه اريد لها بفعل مقصود ان تكون كذلك وذلك لغرض شق الكتلة العقائدية الكبيرة التي تتبنى خط الأئمة عليهم السلام لإضعافها والهيمنة عليها واخضاعها.

## ١٠- نتائج متوقعة.. تمادي الدولة الأموية بالظلم..

## بداية للسقوط النهائي

**الثورة: مفعول أكيد لكشف الانحراف**

يتطرق بعض مؤرخي ثورة الحسين إلى أمر يعتقدون معه أن تلك الثورة لم تكن ناجحة، وذلك بسبب ما يلاحظونه من حالة الازدهار الظاهري للدولة الأموية طيلة فترة طويلة ومظاهر القوة التي بدت بها تلك الدولة التي عمدت إلى قمع أعدائها ومعارضيها وتوسيع فتوحاتها والأخذ بوسائل الغنى والرفاه حتى عاش خلفاؤها حياة أسطورية في الترف والنعيم..!! ومهما تكن الأسباب التي تدعو هؤلاء للتحيز إلى جانب تلك الدولة، وهي عديدة.. فإن آخرين، على الضد من هؤلاء يعتقدون أن الثورة التي أثارت قدراً كبيراً من الاستنكار بين أوساط الأمة، قد عملت معاولها بسرعة متزايدة ومتصاعدة- ومنذ البداية- على هدم ذلك النظام الذي كان السبب في مذبحة الطف، اعتبروا أن موت يزيد كان نتيجة حتمية لتلك الثورة، مع أن موته كان أمراً متوقع الحدوث، كموت غيره من الناس، طالت مدة حياته أم قصرت وسواء كان ذلك بسب حادث أو مرض أو غيره..

صحيح أن تلك الثورة قد عملت معاولها في جسم الدولة بصورة فعالة ومنذ البداية، إلا أن نتائجها لم تكن سريعة الا انها متصاعدة بل واكيدة.

وإذ أن هذه الدولة قد بقيت وقويت واستمرت، فإن هذا قد يترك أولئك الذين يتوقعون نتائج سريعة وحاسمة، في حيرة كبيرة.

مات يزيد، وثارت المدينة ومكة والكوفة، وقُتل قتلة الحسين ومَن قتلهم أيضاً، وقامت عدة ثورات- كما رأينا- إلا أن الدولة الأموية لم تسقط حالًا، بقيت وتصاعدت ممارساتها المنحرفة وتمادت في انحرافها واستهتارها إلى أبعد حد، وبدت قوية في الظاهر- وهو ما زاد حجة خصومهم قوة كما قلنا- وزادت أسلحتها وتعددت وسائل القمع والإرهاب التي عمدت إليها، بل واكتسبت خبرة في مجال بسط سيطرتها ونفوذها.

وقد يتساءل البعض ممّن يحيّرهم ذلك، هل استشهد الحسين عليه السلام ليتصاعد الظلم ويطغى؟ ويتمادى الظالمون في ممارساتهم الجائرة..؟ فإنهم أمام عدم قدرتهم على الإجابة وعلى فهم الموضوع برمته، لا يلبثون أمام ذلك إلا قليلًا حتى يلتفتوا إلى بعض مظاهر الضعف التي ربما تلوح في أفق دولة الظلم الأموية في بعض الأحيان ليتخذوا ذلك دليلًا وحيداً على نجاح ثورة الحسين عليه السلام بعد أن يكبّروه ويضخّموه..

لقد هالهم أن الذين ارتكبوا جريمة قتل الحسين وأصحابه، ما داموا قد فعلوا ذلك وظلوا على سدة الحكم، قد أصبح بإمكانهم ارتكاب العديد من الجرائم الأخرى دون رقابة ودون أن يرفع أحد من الأمة يداً أو اصبعاً في وجوههم. لقد تمادوا فعلًا إلى أبعد حد في تلك الجرائم المقززة، حينما حسبوا أن التمادي كان حقاً مشروعاً لهم وأنهم يستطيعون الذهاب إلى أبعد غاية ممكنة ما دام ذلك يحقق بسط نفوذهم وسيطرتهم.. مع أن ذلك يعني- على المدى البعيد- السير الحثيث والاكيد نحو السقوط والهاوية.

إن التمادي في الانحراف- مهما كانت قوة المنحرف وسلطانه- لا يعني أنه أصبح بمنجاة من المصير المشؤوم الذي سيؤول إليه بعد ذلك، ولو بعد حين من الزمن، بل يعني الوقوع بين براثن انحرافات أخرى وخيمة لا تحمد عقباها، بل إنه الموت الاكيد والإندثار المحتم.

### التصاعد في وتائر الانحراف يعني الانحدار نحو السقوط النهائي

والتصاعد في الانحراف يتناسب عكسياً مع القدرة على النمو الطبيعي والبقاء، ويتناسب طردياً مع التسارع في السقوط، فهو ليس أمراً طبيعياً ينسجم مع السنن الطبيعية ومقومات وجود الإنسان وخلقه وخلافته على الأرض.. فلا أحد يستطيع أن يدلل على أن عوامل بقاء وديمومة دولة الظلم موجودة مع كل ذلك الانحراف الذي كانت تمارسه وتسير فيه.. ومظاهر الغشم والقوة والعنف الظاهرية ليست عوامل ثابتة تقيها من السقوط إلى الأبد، مع أنها قد تبقيها قائمة لفترة من الزمن قد تطول نسبياً وقد تقصر تبعاً للظروف القائمة.

وقد وردت إشارتان لأمير المؤمنين والحسين عليهما السلام كليهما حول هذه النقطة الحساسة، يتكلمان فيها عن نتيجة التمادي في الانحراف والظلم، وهي نتيجة طبيعية محتومة معروفة لمن يدرسون أوضاع مجتمعات الظلم ويتعمقون في دراستها، وليست من قبيل الرجم بالغيب أو النبوءات التي لا تقوم على أي سند أو أساس، كما قد يتراءى لبعض الدارسين أو الباحثين...

### دولة الظلم الأموية. نتيجة حتمية لابتعاد الأمة عن الإسلام

قال أمير المؤمنين عليه السلام يصف دولة الظلم الأموية التي توقع ظهورها كنتيجة حتمية لما سبق من إنحراف وابتعاد عن قيم الإسلام الحقيقية وكنتيجة لاختلال المفاهيم والموازين واختلافها لدى أبناء الأمة التي أرادها الله أن تكون أمة واحدة، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، وأرادها الباغون والمنحرفون أن تكون شيعاً وطوائف متفرقة، ليحققوا بفرقتها واختلافها أهدافهم ومطامعهم... «**أَلَا وَإِنَّ أَخْوَفَ الفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فَتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ، فإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ: عَمَّتْ خُطَّتُهَا، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا، وَأَصَابَ البَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وَأَخْطَأَ البَلَاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا.**

وَايْمُ اللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوْءٍ بَعْدِي، كَالنَّابِ الضَّرُوسِ، تَعْذِمُ بِفِيهَا، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا، وتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا، لَا يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّى لَا يَتْرُكُوا مَنْكُمْ إِلاَّ نَافِعاً لَهُمْ، أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ، وَلَا يَزَالُ بَلَاؤُهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلاَّ مثل انْتِصَارِ العَبْدِ مِنْ رَبِّهِ، وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ، تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَّةً، وَقِطَعاً جَاهِلِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدىً، وَلَا عَلَمٌ يُرَى..»[١].

«حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ، تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا، وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا، وَلَا يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلَا سَيْفُهَا...»

«وَاللهِ لَا يَزَالُونَ حَتَّى لَا يَدَعُوا للهِ مُحَرَّماً إِلاَّ اسْتَحَلُّوهُ، وَلَا عَقْداً إِلاَّ حَلُّوهُ، حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلاَّ دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَنَبَا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ، وَحَتَّى يَقُومَ البَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ العَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ، وَحَتَّى يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا غَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِاللهِ ظَنّاً...»[٢].

### عمل مقصود لإبعاد الأمة عن الإسلام

إن العمل الدؤوب المنظم لحرف الأمة عن الإسلام وإبعادها عنه والذي كرس له معاوية كل إمكاناته ووقته، نجح نجاحاً (باهراً) وجعل شريحة كبيرة منها منذ البداية، وهم أهل الشام، تنظر إلى الإسلام والحياة بجملتها بمنظاره وعينيه.. وكانت غلبته وسيطرته على منصب الحكم سيتيح له أن يجعل الأمة كلها تستسلم له وتنحرف معه، مؤمنة له الوضع الذي يستطيع معه إنكار كل شروط العقد الإلهي للخلافة الوارد في القرآن الكريم والمبين بدقة من قبل النبي صلى الله عليه وآله ووصيه عليه السلام، والذي كان يفترض وهو

(١) من خطب لأمير المؤمنين عليه السلام نهج البلاغة: ص ٢٤١- ٢٤٢.

(٢) من خطب لأمير المؤمنين عليه السلام نهج البلاغة ٢٣٥.

(معاوية) أحد أطرافه، وقد أصبح (خليفة) فعلًا، أن يكون أشد الملتزمين به والمدافعين عنه. وهكذا كان أول خارج عن صيغة الحكم أو الخلافة الإسلامية عن عمد وسبق إصرار، ولم يكن انحرافه غير مقصود او متعمد الصيغة التي جاء بها الإسلام وأرادها أن تكون صيغة دائمية.. وهكذا خرج ورثته عن تلك الصيغة التي ربما لم يعرفوها أصلًا ووضع هو بديلاً لها قائماً على رؤيته ومنهجه.

فكانوا أرباباً من دون الله لا يهمهم سوى تحقيق مصالحهم ومنافعهم، يقربون من يعمل لتقوية سلطانهم وملكهم ويبعدون من لا يلمسون منه النفع، ويقتلون ويفقرون من يشكون في ولائه ويحتملون عداوته.

وما يملك العبد إذا ما آذاه ربه! قد يكون مغيظاً أو محنقاً، وقد يتمتم مع نفسه أو مع بعض العبيد الآخرين كلمات يعبر بها عن غيظه وانزعاجه، ولكنه لا يملك في النهاية أمام سطوة سيده إلا أن يستجيب لرغباته صاغراً خاضعاً.

وستكون محصلة الظلم الذي يحيق بالأمة إبعادها عن الإسلام، وتكون في هذه الحالة عاجزة عن معرفة حقوقها والتزاماتها وواجباتها. لن تفهم الحرام حتى تبتعد عنه. ولن تسير خلف من ينبغي أن تسير خلفهم لكي يجنبوها المصير البائس الذي يراد جرها إليه، وربما لم تتعرف عليهم اصلاً.

### دولة الظلم لن تكون بديلاً عن الإسلام

دولة الظلم التي توقع أمير المؤمنين قيامها بديلًا عن دولة الإسلام العادلة، قد لا تدعي نبذ الإسلام علانية، بل إنها على العكس من ذلك تدعي أنها المدافع الوحيد عنه والاكثر إخلاصاً له، وقد تتستر ببعض أغطيته وبراقعه لإخفاء عيوبها وانحرافاتها والظهور بمظهر مقبول أمام الأمة.. إنها- على النطاق العملي ستعمد إلى إبعاد الإسلام

عن سياستها وتوجهاتها ولن تتيح للناس الإطلاع إلا على ما تريد هي أن يطلعوا عليه بعد أن قامت بالتزوير والتشويش والدس والافتراء..

دولة الظلم الأموية كانت نموذجاً فريداً لم يوجد من قبل. كانت نموذجاً مستحدثاً مركباً بعناية ودقة، وهي دولة ذات تجارب غنية بأساليب التزوير والكذب والاستبداد والقهر.. ولن يشمل ظلمها فئة دون فئة، بل إنه سيمتد ليشمل كافة الناس، غير أن شعورهم بالظلم سيكون أضعف مما تتوقع الدولة منهم، بل إنها في الواقع تتوقع أن يكون هذا الشعور ضعيفاً فعلًا رغم أنها تستعد دائماً لأعنف رد فعل منها بأعنف إجراءات تستعد لها هي دائماً.

إن الأمة، تحت وطأة الجهل والخوف، وسيطرة الظروف الإستثنائية التي تخلقها الدولة دائماً، لإيهامها بوجود عدو محتمل وموهوم، وقد يكون هذا العدو موجوداً فعلًا، تقع تحت شعور بأنها تعيش في ظرف طارىء يحتم عليها أن تتقبل ما يمكن أن ترفضه في ظرف عادي طبيعي.. ولأن الظروف الاستثنائية عديدة وكثيرة، يصبح الظرف العادي حلماً في ذهن الأغلبية من أبناء الأمة، وقد يكون الاستثناء هو الظرف العادي الطبيعي بعد أن اعتادت عليه وألفته، غير أن الظرف العادي الحقيقي الذي لن تشهده الأمة إلا في ظل الإسلام قد يدفع بعض أفرادها للسعي إليه والقيام بعمل إيجابي في سبيله، يرونه كذلك، وتراه الدولة لوناً من ألوان المعارضة السلبية المناكدة المخاصمة، ما دام يعكر عليها الجو الهادىء الراكد الذي أوجدته وخلقته وما دامت محصلته انتزاع امتيازاتها وسلطانها.

لن يتاح لأحد في ظل دولة الظلم أن يرفع يداً أو إصبعاً، وإن احتج سيكون احتجاجه صامتاً أخرس، وستحصى عليه أنفاسه وحركاته وسكناته..

**فرعون لايرى إلا نفسه ومصالحه**

السلطان لن يرى إلا سلطانه، وسيكون كل من يريد أن ينال من هذا السلطان عدواً له، حتى ولو كان هو الإسلام نفسه.. وسيجد أن عليه لا أن يطوع نفسه لكي يسير مثلما يريد الإسلام، بل ليطوع الإسلام ليكون مثلما يريد هو، يشكّله ويبرزه بحلة جديدة (مقلوبة على حد تعبير أمير المؤمنين) أمام الناس، حلّة تنسجم مع حلة السلطان نفسه، وإلا فإنه سيعلن رفض الإسلام جملة وتفصيلًا، وسيهدد الأمة بإشارات موحية واضحة، بأنه ليس بحاجة إليه ما دام قد أوجد قانونه الخاص به وما دام يستطيع هو بجنده وشرطه وأمواله أن يسوس الناس ويسيطر عليهم ويضمن مصالحه ومصالح أعوانه ومقرّبيه.

سيكون الذي يُخص ببلاء دولة الظلم- وهي الدولة الأموية التي يتكلم عنها أمير المؤمنين عليه السلام هنا- مَن أبصر من أبناء الأمة ووعى وأدرك أبعاد الفتنة الأموية الكبيرة وهذا وحده جدير بأن يتصدى لها ويقف بوجهها ويمنع انتشارها، أما من عميَ عنها ولم يبصرها، ولم ير هناك ظلماً ينبغي أن يقف عند حده، فليس بعدو لهذه الدولة، بل أنها تستغله لصالحها وهو عون لها في مشاريعها وتصرفاتها..

دولة الظلم ستبدو مزدهرة قوية حتى لتبدو الدنيا معها أنها معقولة على الظالمين من بني أمية وأنها مرهونة لإراداتهم ومشيئتهم إلى الأبد يستعبدون الأمة ويستأثرون بكل شيء، سيرى كثيرون ذلك ويعتقدون أن الأمور وجدت لتبقى هكذا إلى الأبد وأن عليهم أن يستسلموا لهذه الأوضاع فلا يسعون للتغيير والتمرد.

وستتمادى الدولة في ظلمها إلى أبعد حد- معتقدة أنها قوية فعلًا- وأن الأمور ستسير لصالحها إلى الأبد ولن يكون لظلمها مدى معين تقف عنده ولا تتجاوزه، وإنما ستستحلّ كل محرّم، بعد أن تجعل الجميع يعتقدون أنه غير محرم فعلًا، حتى وإن اعتقد

بعضهم ذلك، فالبعض لا يهمها ما دامت قادرة على إسكاته.. وليبكِ على دينه.. وليبكِ آخر على دنياه.. فهي قد استأثرت بكل شيء.. ولم تدع حتى لأولئك الذين اعتقدوا أنهم سيعيشون حياة كريمة بعيداً عن العوز والحرمان- فرصة الأمل بذلك، فكيف بالحصول عليه.

**الناس في ظل دولة الظلم**

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَعِنْدَ ذلِكَ أَخَذَ البَاطِلُ مَآخِذَهُ، وَرَكِبَ الجَهْلُ مَرَاكِبَهُ، وَعَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبُعِ العَقُورِ، وَهَدَرَ فَنِيقُ البَاطِلِ بَعْدَ كُظُوم، وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى الفُجْورِ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ، وَتَحَابُّوا عَلَى الكَذِبِ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ.**

**فَإِذَا كَانَ ذلِكَ كَانَ الوَلَدُ غَيْظاً، وَالمَطَرُ قَيْظاً، وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً، وَتَغِيضُ الكِرَامُ غَيْضاً، وَكَانَ أَهْلُ ذلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً، وَسَلاَطِينُهُ سِبَاعاً، وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالاً، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً، وَغَارَ الصِّدْقُ، وَفَاضَ الكَذِبُ، وَاسْتُعْمِلَتِ المَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالقُلُوبِ، وَصَارَ الفُسُوقُ نَسَباً، وَالعَفَافُ عَجَباً، وَلُبِسَ الإِسْلاَمُ لُبْسَ الفَرْوِ مَقْلُوباً....**»[1].

تلك هي إحدى الصور التي رسمها أمير المؤمنين عليه السلام لمجتمع الظلم في ظل دولة الظلم قبل أن تنهار وتقوم على أعقابها دول أخرى ومجتمعات أخرى ربما تأخذ بطرف من العدالة ونصيب منها، وربما جاء ذلك نتيجة ثورة، إلا أنها قد تميل أيضاً وتعود كسابقتها بعد أن يستأثر واحد أو مجموعة ممن (ثاروا) فتعود الأمور كسابقتها وربما فاقت دولة الظلم المتأخرة من سبقها لتراكم الخبرات وتزايد الإمكانات. ولو تساءلنا: هل هذه الصورة التي عرضها أمير المؤمنين عليه السلام علينا تدعو لتفاؤل القائمين على هذه

---

(١) نهج البلاغة: ص٢٥٩.

الدولة وسرورهم؟ وهل يمكن القول ان المجتمع سينمو ويزدهر في ظل هذه الدولة، أم أنها بداية لسقوط محتم وانهيار شامل في النهاية؟ لا شك أن الشق الثاني من السؤال سيكون هو الإجابة الصحيحة عنه...

فإذا ما ظن أحد أن الدنيا أصبحت رهن أيدي الحكام الأمويين، ما دامت تمنحهم درها وتوردهم صفوها، وما دام سوطها وسيفها يعملان في رقاب أبناء الأمة وفوق ظهورهم، فإن ظنه لم يصدق بذلك حتماً وكما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَكَذَبَ الظَّانُّ لِذلِكَ. بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ العَيْشِ يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً**...»[1].

وإذ أن دولة الظلم الأموية تتمادى لأبعد حد في ظلمها وانحرافها حتى «.. **لَا يَبْقَى بَيْتُ مَدَر وَلَا وَبَر إلاَّ وَأَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً**»[2]، فإنها بذلك تعلن رفضها للإسلام واستغناءها عنه. وبذلك تكشف كل الأقنعة والبراقع التي تسترت بها في السابق وستكون عرضة لتجدد غضب الأمة منها ونقمتها عليها «.. **فَيَوْمَئِذ لَا يَبْقَى لَهُمْ فِي السَّماءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِي الأرْضِ نَاصِرٌ**...»[3] وسيحل بهم ما حل بغيرهم من

---

(١) شرح نهج البلاغة: م ٢ ص١٣٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: م ٢ ص٤٤٦. ومن الطبيعي أن الأخبار التي يوردها أمير المؤمنين عليه السلام هي عن رسول الله نفسه، كما سبق أن ذكر عليه السلام ذلك في مناسبات عديدة، يؤيد ذلك ما «جاء في الأخبار الشائعة المستفيضة في كتب المحدثين أن رسول الله أخبر أن بني أمية تملك الخلافة بعده مع ذم منه عليه الصلاة والسلام لهم، نحو ما روي عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ**﴾ فإن المفسرين قالوا إنه رأى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة. هذا لفظ رسول الله الذي تفسير لهم الآية به فساءه ذلك، ثم قال: **الشجرة الملعونة بنو أمية وبنو المغيرة**، ونحو قوله: **إذا بلغ- بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولًا وعباده خولا**. ونحو قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾ قال: **ألف شهر يملك فيها بنو أمية**. وورد عنه من ذمهم الكثير المشهور..» شرح النهج م ٢ ص ٤٤٦- ٤٤٧.

(٣) نهج البلاغة: ص٣٤٢.

الطغاة والظالمين وسينتقم الله منهم شر انتقام وسينتصف لكل المظلومين والمغلوبين والمضطهدين، «**وَ سَيَنْتَقِمُ اللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ مَأْكَلاً بِمَأْكَلٍ وَ مَشْرَباً بِمَشْرَبٍ مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلْقَمِ وَ مَشَارِبِ الصَّبِرِ وَ الْمَقِرِ وَ لِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ وَ دِثَارِ السَّيْفِ وَ إِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ وَ زَوَامِلُ الآثَامِ فَأُقْسِمُ ثُمَّ أُقْسِمُ لَتَنْخَمَنَّهَا أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفَظُ النُّخَامَةُ ثُمَّ لَا تَذُوقُهَا وَ لَا تَتَطَعَّمُ بِطَعْمِهَا أَبَداً مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ...**»(١).

**دولة الظلم تسير إلى حتفها**

وهنا نقول- دون محاولة لتوضيح هذه الصورة التي يعرضها علينا أمير المؤمنين عليه السلام لئلا نشوهها- ألم تكن دولة الظلم الأموية تسير باتجاه موتها وانتكاسها المحتوم؟ وتتصاعد ممارساتها على الوتيرة المرفوضة من الإسلام نهائياً، والتي جاء أساساً لمحوها من المجتمعات الجاهلية وإقرار مجتمع الإسلام القائم على أساسه هو فقط؟

لقد أقدم كل (خليفة) أموي على ما لم يقدم عليه من سبقه، فأضاف لمسة شخصية خاصة به أعلن بها صراحة عن شذوذه وانحرافه عن الإسلام، وكأنما كان أولئك (الخلفاء) يتبارون في الخروج عن الإسلام وترك حلبته، وقد جعلوا أمر انتهاكه ونبذه أمراً واقعاً، وطلبوا من الأمة الخائفة المستسلمة التي لا يحق لها مناقشة سلوكهم الشخصي وممارساتهم العامة، أن تقبله ولا تناقش في شأنه..

ولم يكن من حق أغلبية أبناء هذه الأمة الخانعة أن تناقش وتحسب ما دامت مغلوبة بل وميتة، بعد أن فقدت تحت وطأة الظلم والقهر الطويلين حتى شعورها بالظلم فأصبحت لا تشعر به أو تتحسسه وأصبحت مجرد أدوات طيعة صغيرة وضئيلة تتطلع إلى أرباب تراهم كباراً يديرونها ويوجهونها.. هؤلاء الأرباب الذئاب الذين يخضعون

---

(١) نهج البلاغة: ص٣٤٢.

بدورهم لسلطان وحش كاسر لا يعرف إلا مصلحته وهواه..

وعلى أي قانون تسير الأمة وتحاسب وتناقش! أليس على أساس الإسلام الذي زُور وغير (ولُبِسَ لبس الفرو مقلوباً) لتكون كل تصرفات الحاكم وأفعاله مشروعة مباحة؟!

**الإنحراف مقدمة للسقوط**

وقد استعرض لنا التاريخ تصرفات (الخلفاء) الأمويين، وأفاض واستطرد. وربما رأينا أن تلك الدولة التي حكمها أكثر من إثني عشر حاكماً خلال أكثر من ثمانين عاماً والتي لم يسر فيها أحد منهم سيرة حسنة سوى خليفة واحد هو عمر بن عبد العزيز لفترة قليلة من الزمن أغتيل بعدها من قبل العائلة الأموية نفسها- كانت تبدو قوية في الظاهر، مزدهرة متمكنة، غير أن تلك القوة الظاهرية قد حملت عوامل فنائها واندثارها بنفس الوقت.

كانت أيام الأمويين الزمن الذي اختفى فيه الحق وظهر فيه الباطل وكثر فيه الكذب على الله ورسوله وزور الحديث وفُسرت آيات الكتاب على ما يشتهي الحاكمون، حتى لكأنهم جاؤوا بإسلام آخر لا يحمل من الإسلام الحقيقي إلا اسمه ورسمه الظاهري، إن صح أن يكون له رسم، وقلبت كل المفاهيم والموازين...

كانت نهاية الإنحراف تلك محتمة بعد ما مُهد لها من قبل، وبدأ خط الشروع بالانحراف الأول يبتعد عن خط الإسلام الأساسي ولو ابتعاداً ضئيلًا غير مرئي ولا محسوساً في البداية، إلا أنه قد ابتعد ولا بد أن يصل بعد فترة- كتلك التي استمر فيها الحكم الأموي- إلى نقطة لا مجال فيها للالتقاء بالخط الأول والعودة إليه. وليس غريباً أن يتوصل أمير المؤمنين عليه السلام، برهافة حسه وشعوره الكبير بالمسؤولية ومعاصرته

كل أحداث الإسلام صغيرها وكبيرها، مع ما أخبره به رسول الله، إلى عرض نتائج الإنحراف الخطيرة بعدما رأى مقدماتها. وليس غريباً أن يجعلنا ننظر الصورة المقلوبة للإسلام التي أرادنا الأمويون أن نعيش في أجوائها وضمن إطارها.. وهو صورة قاتمة مقيتة تهول كل من عرف الإسلام معرفة حقيقية وعاش أجواءه النقية الصافية...«**وَإِنَّهُ سَيَأْتي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفى مِنَ الحَقِّ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ البَاطِلِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الكَذِبِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ الكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**[1]**، وَلاَ فِي البِلاَدِ شَيءٌ أَنْكَرَ مِنَ المَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ المُنكَرِ!**

**فَقَدْ نَبَذَ الكِتَابَ حَمَلَتُهُ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ؛ فَالكِتَابُ يَوْمَئِذ وَأَهْلُهُ مَنْفِيَّانِ طَرِيدَانِ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ فِي طَرِيق وَاحِد لَا يُؤْوِيهِمَا مُؤْو؛ فَالكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ! لِأَنَّ الضَّلَالَةَ لَا تُوَافِقُ الهُدَى، وَإِنِ اجْتَمَعَا، فَاجْتَمَعَ القَوْمُ عَلَى الفُرْقَةِ، وَافْتَرَقُوا عَنِ الجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الكِتَابِ وَلَيْسَ الكِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ اسْمُهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلاَّ خَطَّهُ وَزَبْرَهُ، وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَة، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللهِ فِرْيَةً، وَجَعَلُوا فِي الحَسَنَةِ العُقُوبَةَ السَّيِّئَةَ.**

**وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ المَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ المَعْذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ القَارِعَةُوَالنِّقْمَةُ...**».[2]

---

(١) قال شعبة، إمام المحدّثين: تسعة أعشار الحديث كذب.

وقال الدارقطني: ما الحديث الصحيح في الحديث إلا كالبثرة البيضاء في الثور الأسود، شرح ابن أبي الحديد:م ٢ ص ٤٠٨. وهذه حقيقية رهيبة ينبغي الوقوف عندها طويلاً ومعرفة سرها ودوافعها. وهي بلا شك تتعلق بإرادة الحاكمين الذين رأوا أن لا حياة لهم إلا بتزوير الإسلام وعرضه مقلوباً!

(٢) نهج البلاغة: ص ٤٠٨.

### الإنحراف يعني الهلاك المحتم

ونهاية الإنحراف تلك تنتهي بالموت المحتم، وهي لا تدعو أولئك الذين أقدموا على جريمة تحدي القوة الإلهية المقتدرة فبدلوا أحكامها وشريعتها، إلى التفاؤل والسرور وإن حسبوا أنهم بمنجاة من عقابها وإن الرياح تجري بما تشتهي سفنهم. «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقْصِمْ جَبَّارِي دَهْر قَطُّ إِلاّ بَعْدَ تَمْهِيل وَرَخَاء، وَلَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَد مِنَ الأُمَمِ إِلاَّ بَعْدَ أَزْل وَبَلاَء**»[١].

التمهيل والرخاء يحسبهما الظالم في مصلحته وتتحدث السنن الإلهية أنها مقدمة للسقوط، فالترف مقدمة لمطالب وممارسات عديدة غير مشروعة وحياة الرخاء تتطلع إلى حياة أكثر رخاء منها، ومن اعتاد أن تجبى إليه خيرات الأرض وهو ساكن مستريح، بل وهو يشهر سيفه وخنجره، يتطلع إلى يوم يسحق فيه الناس كلهم إذا ما حسب أن أحداً منهم يتطلع إلى ما في يديه.. إنه يحسب أن كل شيء أصبح ملكه وطوع إرادته، وكونه حقاً مفترضاً له بتقادم الزمن ومرور الأيام وإن لم ينزل به كتاب أو يتحدث عنه رسول.

### تعلّم من ذي علم

وعندما أعلم رسول الله صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام طبيعة ما سيحدث في غياب الإسلام قائلًا: «**يَا عَلِيُّ، إِنَّ القَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِم عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الكَاذِبَةِ، وَالأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتَ بِالهَدِيَّةِ، وَالرِّبَا بِالبَيْعِ**».[٢]

لم يكن يقصد أن هذه الأوضاع ستكون الثمار الطبيعية لمجتمع الإسلام،

(١) نهج البلاغة: ص ١٣٣.

(٢) نهج البلاغة: ص٣٣٧.

بل لمجتمعات الجاهلية والانحراف، وهي (ثمار) مرفوضة يمنعها الإسلام ويحرمها، ولن تستطيع الأمة اجتنابها إلا إذا اقتربت منه وجعلت منه أملها الوحيد وهدفها الكبير، وهي لا بد أن تفعل ذلك يوماً وتقترب منه وتعود إليه عودة تامة، وإلا فهل كان الأمر من بدايته عبثاً، وهل وجدت هذه الرسالة لتقصى إلى الأبد ولا تؤمن بها إلا قلة من أبناء هذه الأمة!

**هل ضحى عشرات الآلاف من الأنبياء والرسل من أجل معاوية ويزيد والوليد!**

هل مات عشرات الآلاف من الأنبياء والرسل وعذبوا وتعرضوا لكل صنوف الأذى والنكال، وهل أرسل الرسولﷺ وجاهد وضحى وأوذي ومات أصحابه والآلاف المؤلفة من المسلمين في ساحات المواجهة مع الكفر والجاهلية وتشرد عشرات الآلاف منهم وأوذوا وتيتمت آلاف الأطفال وترملت آلاف النساء لإرساء رسالة السماء الكبيرة ونشرها، ليسقط المسلمون بأجمعهم بعد ذلك جثة هامدة بيد يزيد والوليد والحجاج وأشباههم؟ وهل كانت نتيجة تضحيات المسلمين وجهودهم طيلة قرن من الزمن رهينة بأيدي حفنة من الذين لا يمتون للإسلام بصلة بل وربما يخجلون من انتسابهم إليه، ويسخرون منه ويرون فيه مطية لأحلامهم وأمانيهم غير المشروعة؟

هل قتل حمزة ليسخر منه أبو سفيان. وقتل علي ليرثه معاوية ومروان وأولادهما؟ هل كان الإسلام مكرساً لخدمة هؤلاء وليقع في أيدي صبيان أمية الخليعين المترفين لتكون دولته مملكة موروثة يسوقها الأب لابنه ويسوق معها الأمة كلها عبيداً وخدماً ومطايا..؟!

**إيغال في الجريمة - صحوة الموت**

لقد تجرأ أولئك الذين أقدموا على قتل الحسينعليه السلام وأوغلوا في جرائمهم عندما

رأوا أن الأمة قد شاركت بنفسها معهم بفعلهم الشائن، رغم أنها كانت ترفض ذلك في قرارة نفسها، إذ كانت مدفوعة إليه رغم إرادتها، ولم تكن مقولة الفرزدق وغيره الذين أخبروا الحسين عليه السلام أن قلوب الناس معه وسيوفهم مع بني أمية، غير صائبة..! فالأمة مستسلمة خائفة بل ومهزومة، ولم تبق فيها قدرة على الصمود أمام النظام الفرعوني المتسلط.

وقد ازداد تماديهم عندما أقدموا على قتل أهل المدينة ومكة وضربوا الكعبة وقتلوا آلافاً من أهلهما واستباحوا الحرمات وانتهكوا الأعراض وطلبوا من الناس مبايعة يزيد على أنهم عبيد له، وهو أمر لا يمكن تفسيره بمنظور إسلامي بأي شكل من الأشكال ثم يطلب من الأمة قبوله وهضمه- كما فعل العديد من أعوان السلطة من الوعاظ وواضعي الحديث المأجورين، ولا يدل إلا على أن الإنحراف والظلم قد بلغا غايتهما.

ولقد قمعت المعارضة التي قامت في أعقاب هلاك يزيد، في الكوفة والتي تزعمها سليمان بن صرد الخزاعي أحد صحابة الرسول والمختار بن أبي عبيد الثقفي أحد أشهر المطالبين بثأر الحسين والذي ألحق خسارة فادحة بالدولتين المتصارعتين المروانية والزبيرية، وبقيت إحداهما، وهي الدولة المروانية الأموية، وقويت بحد السيف، واستأنفت مسيرة سابقتها الدولة اليزيدية الأموية، وقد أعطت لنفسها حقاً باللجوء إلى كل ما تراه مناسباً لحماية نفسها وإتمام مسيرتها.

لقد جرت حرب سجال طيلة سنوات عديدة، كانت الغلبة فيها لآل مروان، وأصبحت الكرة بأيديهم، وكان (الحق المضاف) الذي أعطوه لأنفسهم والذي تمادوا فيه لأبعد حد في جرائمهم واستهتارهم وعبثهم، جعلهم أمام الصورة المشرقة لرسول الله والمكانة الكريمة التي بناها للإسلام في نفوس المسلمين، يبدون كالقرود أمام هؤلاء، ينزون ويتقافزون ويتلاعبون على منبره الكريم الذي أراده الله منبر حق وكرامة لا منصة

للقرود واللاهين والحواة...

لم ير الأمويون لأحد حقاً في محاسبتهم ومراقبتهم، وبلغ رصيد الأحاديث النبوية الموضوعة لصالحهم حداً جعلهم يقدمون دون خشية على هدم ما بناه الرسول وينتهكون كل حدود الإسلام ويتلاعبون بأحكامه... فهم ولاة الأمر الذين ينبغي على الجميع إطاعتهم والاقتداء بهم، وليس لأحد أن يخرج عن حكمهم حتى ولو كانوا فاسقين، فإمامة المفضول والفاسق جائزة، بل واجبة حتى لكأن الإسلام قد جاء ليكرس إمامة الفاسقين امثال يزيد ومروان وسلالته وكل سلالات الطواغيت والمنحرفين..!!

**قتلت نفسها عندما قتلت الحسين عليه السلام..**

وكان الإمام الحسين عليه السلام يرى أن الأمة، ممثلة بالجيش الذي أرسله يزيد لحصاره وقتله، إذا ما أقدمت على هذه الجريمة، فإنها ستوقع بيدها على وثيقة إعدامها وقتلها هي بيد الذين استخدموها لقتاله وقتله...

وكان يعلم أنه الممثل الحقيقي لرسول الله صلى الله عليه وآله وللإسلام، وأن الأمة تعلم ذلك، وكان يحذرها، إذا ما تجرأت على قتله، فكأنها تقدم بذلك على قتل رسول الله نفسه وتنتهك حرمته وحرمة الإسلام.. وليس أمراً مفترضاً وغير واقعي أن الإقدام على قتل الحسين عليه السلام يمثل نهاية التمادي في الجريمة دون وازع كما يمثل الانفصال التام عن الإسلام مهما حاول المشاركون بالجريمة إيهام أنفسهم أنهم ينتمون إليه وأنهم على استعداد للدفاع عنه...!

قال الحسين عليه السلام لقتلته قبيل تنفيذ المراحل الأخيرة من الجريمة:

**«أما والله، لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني.**

**وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون.**

**أما والله أن لو قد قتلتموني، لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم ثم لا يرضى لكم بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم...»**[١].

وكيف لا يكون الجزاء من صنف العمل؟ وكيف حدث أن هذه الأمة لم تكتف بعدم تقييم العمل الكبير الذي أقدم عليه الحسين ونهضته ومسيرته الملحمية لإنقاذها، فهو بقية الرسول وممثله ووصيه وحامل رسالته ومبلِّغ سره وأمانته، وأساغت لنفسها أن تسير خلف طغاتها وشذاذها وأعدائها لتقتل ابن الرسول هذا ووصيه قتلة شريرة وتمثل بجيشه وتنهب ثقله ومتاعه وتسبي نساءه وأطفاله وتشردهم وتعذبهم وتسجنهم...

إن هذا سيظل أمراً غير مفهوم في غياب عدم معرفة طبيعة تلك الظروف التي مهد لها معاوية طيلة أكثر من عشرين عاماً وجعل الأمة غائبة عن الوعي مسلوبة الإرادة وأصبح في نهايتها قادراً على تنفيذ كل خططه وبرامجه الشريرة ومهّد لإمبراطورية الشر الأولى في تاريخ الإسلام.

إن إقدام السلطة على قتل الحسين وإشراك الأمة بذلك لن يجعل تلك السلطة تهاب الإقدام على قتل أي شخص آخر مهما علا مركزه وسمت مكانته، فتلك كانت أكبر عملية جس نبض تعرضت لها لمعرفة رد فعلها على قتل أكبر شخصية من المسلمين بل الشخصية الأولى فيهم، وسيكون ذلك تمهيداً لحملة محمومة من الانتهاكات والجرائم الأخرى التي ستقدم عليها بعد ذلك دون تردد أو تحفظ.

لقد كانت الأمة بتقبلها ذلك وقبولها أن تكون أداة بيد القاتل، تقتل نفسها أيضاً... فالقاتل الرئيسي سيعمد إلى تأليب بعضها على بعض وتجريد بعضها على بعض ما دامت تطاوعه وتستجيب له إلى تلك الدرجة التي تطاوعه وتستجيب له الأدوات الجامدة

---

(١) الطبري: ج٣ ص٣٤٣.

الفاقدة للحياة والحس كالسيف والرمح، وكان ذلك دون شك يحزن الإمام الحسين عليه السلام الذي أراد إنقاذها من هذا المصير المفجع، مع أنه مطمئن لمصيره هو والكرامة التي سينالها في دار القرار وفي هذه الدنيا، إذ أقدم على ما تراجع عنه الكثيرون ولم يتراجع رغم كل الثمن الكبير الذي دفعه.

**تطلع دائم إلى النهوض**

وإذ لم يتم له ذلك حالًا، ولم تتح له فرصة إعادة الأمة إلى الخط الرسالي الذي رسمه لها رسول الله صلى الله عليه وآله وبيّن أبعاده وحدوده، فإنه لم يتوقع أنها سوف لن تعود إلى هذا الخط أبداً في يوم من الأيام، وإن قد يبدو هذا اليوم بعيداً..

لقد نجح الحسين عليه السلام نجاحاً باهراً بجعلها تتطلع دائماً إلى النهوض من السقطات والإنحرافات المتكررة التي حاول أعداؤها إيقاعها فيها وتطمح إلى التخلص من دولة الظلم مهما كان شكلها وعنوانها ومهما اختلفت شعاراتها وادعاءاتها، ونجح بجعلها تدرك أنها لا تزال تملك مقومات النهوض والعودة إلى الإسلام.

لقد تمادت دولة الأمويين في ظلمها وطغيانها، وقويت واشتدت، غير أنها تلاشت، ولم يعد رصيدها سوى سيل من اللعنات صبت عليها فيما بعد لانحرافها المعلن وإيقاعها هذه الأمة المغلوبة في بحر من الفتن والضلالة والجهل والانحراف والضياع، وقامت على أعقابها دول أخرى إنحرف فيها (خلفاء) وسلاطين وأمراء كثيرون.. وقد تلاشت تلك الدول بدورها رغم مظاهر القوة والازدهار والأبهة الظاهرة، وبقي الإسلام، وبقيت جذوته في النفوس، وبقيت نزعة التضحية والتصدي واسترخاص النفس والمال وكل شيء في سبيله.

وتشخص أمام هذه النفوس، كلما أوشكت أن تضعف أو تنهار أو تستسلم مواقف

الإمام الحسين وصحبه عليهم السلام ومواقف أولئك الذين ثاروا بعده في الكوفة والمدينة ومكة والبصرة وبغداد وغيرها من حواضر المدن الإسلامية.

رأى العديدون من أبنائها أن عليهم أن يسجلوا موقفاً مناوئاً للظلم والانحراف، كذلك الذي سجله الحسين وأصحابه، وحفلت صفحات التاريخ الإسلامي بصور جديدة لم يستطع الظالمون محوها وإغفالها، لثوار آخرين وقفوا وقفة مبدئية شجاعة بوجه كل دول الظلم المتعاقبة، ولم يرهبهم عنفوانها ولا انتهاجها أقسى الأساليب لقمعهم وإسكاتهم، وقد أخذت الأمة تفكر بشكل جدي ومسؤول بما يقوم به فراعنتها لبسط نفوذهم وسلطانهم، وكان هؤلاء يحسون بروح المقاومة والتصدي الموجودة في نفوس أبنائها وإن لم يعلنوا عنها بنفس الطريقة التي أعلنها الإمام الحسين عليه السلام.

**الثورة أثرت على مجرى كل الأحداث الإسلامية اللاحقة**

ألقت الثورة ظلالها وآثارها حتى على أولئك الذين لم يريدوا أن يعترفوا بها كأكبر حدث إسلامي حاسم، قامت به أكبر شخصية إسلامية، وهو حفيد الرسول ووصيه وخليفته- بفعل التخرصات وخلفيات الخلاف والنزاع القديمة التي زجت بها فئات واسعة من أبنائها، مع أنهم تأثروا بها بشكل مباشر أو غير مباشر وتبنوا مواقفها الحازمة تجاه الظلم والانحراف... واستمرت جذوة الصحوة الإسلامية عالية بفعل تلك الثورة في نفوس المتطلعين لحياة الإسلام وحكم الإسلام مهما كانت مذاهبهم وتوجهاتهم ونوعية الأمور التي اخلتفوا حولها.

لقد كان للثورة تأثيرها على سلسلة الحوادث التي وقعت بعدها، مما جعل مسار الأحداث التاريخية يتخذ الشكل الذي اتخذه فعلًا ليؤثر على مجرى التاريخ الإسلامي برمته.. ماذا كان سيحدث- لو أن أحداً ما لم يواجه دول الانحراف بظلمها وانحرافها؟

صحيح أن تلك الدول لم تتراجع عن انحرافها وظلمها، لكنها أخذت تحسب حساباً شديداً للأمة المسلمة قبل الإقدام على خطوة علنية متهورة تجاه الابتعاد عن الإسلام ورفض منهجه، وتلجأ- مرغمة- للتظاهر ولو بالحد الأدنى المقبول من السلوك لكسب ودّها وليتسنى لها الادعاء بأنها إنما تحكم باسمها وأنها قد استمدت شرعية وجودها من إجماعها وقبولها إياها فئة حاكمة لها! أليس هذا ما تدعيه دول الظلم دائماً؟

**الدولة العباسية قامت على شعارات الثأر للحسين عليه السلام وشهداء أهل البيت**

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الدولة العباسية التي قامت على أنقاض الدولة الأموية، جعلت من استشهاد الحسين عليه السلام- كما سنرى في المبحث المقبل- سبباً لكسب ودّ الأمة وعطفها، وجعلت من ذلك سلماً للوصول إلى السلطة بعد الإطاحة بالدولة الأموية التي أخذت عوامل سقوطها تتجمع في الأفق، مع أن هذه الدولة نفسها قد انحرفت منذ الوهلة الأولى لنشوئها، بل أن الانحراف كان مبيتاً منذ البداية.

**«... إنما ادّعيتم هذا الأمر بنا...»**

ويشير كتاب محمد بن عبد الله بن الحسن للمنصور إلى هذه الحقيقة إشارة واضحة حينما يقول له: «.. وإنما ادّعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم إليه بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا، وإن أبانا عليّا رحمه الله كان الإمام؛ فكيف ورثتم ولاية ولده، وقد علمتم أنه لم يطلب هذا الأمر أحد بمثل نسبنا ولا شرفنا..»[1].

لقد كانت نغمة الثأر لآل البيت عليهم السلام هي التي عزفها العباسيون في بداية سعيهم للحصول على السلطة وحتى في بداية حكمهم، كما فعل أبو العباس السفاح حينما

(١) العقد الفريد: ج٥ ص٢٩٢، وأورد الطبري قوله للمنصور: «.. وإن أبانا علياً كان الوصي وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء، ثم قد علمت إنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا...» ج٤ ص٤٣١.

خاطب رأس مروان الحمار، وقد وضع بين يديه، قائلًا: «الحمد لله الذي لم يبق ثأري قبلك وقبل رَهْطِك، والحمد لله الذي أظفرني بك وأظهرني عليك، ثم قال: ما أبالي متى طرقني الموت، قد قتلتُ بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين، وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي، وقتلت مروان بأخي إبراهيم...»[1].

كان أبو العباس يريد أن يستغل تعاطف أبناء الأمة الذين أدركوا سلامة توجهات أهل البيت ونتائج ثورة الحسين في تحطيم الدولة وكان يعرض نفسه كأحد ثوار آل محمد وكأحد أشد الموتورين لقتلهم.. ولعله كان يضحك في قرارة نفسه على أولئك الذين يصدقون دعاواه بشأن حزنه على الحسين والثائرين من أهل البيت.

وقد وردت إشارة واضحة عن أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد فيها على ذهاب دولة أمية على مجاميع من المسلمين، منهم من يتمسك بآل البيت عليهم السلام كالآخذ بالغصن أينما مال مال معه، فأينما سلكوا سلك معهم، ومنهم من لا يكون هذا حاله وإن ادّعى ودّه ونصرته لآل البيت، وقد تكون دعواه هذه وسيلة لغاية يطمح إليها، كما كان شأن بني العباس.. على أن الكل ادعوا أنهم شيعة هاشمية غرضها إزالة بني أمية.. منهم من كان يوالي أمير المؤمنين وبنيه عليهم السلام ومنهم من حاد عن ذلك أو أضمر الانحراف والخروج عن موالاته منذ البداية، بعد أن كانوا جميعاً من شيعته، أو هكذا ادعوا: «**إفترقوا بعد إلفتهم، وتشتتوا عن أصلهم، فمنهم أخذ بغصنٍ، أينما مَالَ مال معه. على أن الله تعالى سيجمعهم لشر يوم لبني أمية كما تجتمع قزع الخريف، يؤلف الله بينهم، ثم يجعلهم ركاماً كركام السحاب، ثم يفتح الله لهم أبواباً يسيلون من مستثارهم كسيل الجنتين حيث لم تسلم عليه قارة ولم تثبت عليه أكمة، ولم يرد سننه طود ولا حداب أرض، يذعذعهم الله في بطون أوديته، ثم يسلكهم ينابيع في الأرض يأخذ بهم من قوم حقوق قوم، ويمكن**

(١) مروج الذهب:ج٣ ص٣١١.

**لقوم في ديار قوم. وأيم الله ليذوبن ما في أيديهم بعد العلو والتمكين كما تذوب الألية على النار...».**[(١)]

كان العباسيون- إلى أن استلموا السلطة- شيعة لعلي وآله عليهم السلام، ادعوا ولاءهم وحبهم ونصرتهم والمطالبة بحقهم، إلا أن الأيام كشفتهم، ولم يكتفوا بأن سلبوا أصحاب الحق حقهم، بل قاموا بأكثر مما قام به الأمويون بحقهم وحاولوا التقليل من أهميتهم وركزوا الأضواء على أنفسهم، وحاولوا أن يظهروا أمام الأمة وكان لهم قضية خاصة قبالة العلويين، وكأنهم قد ظلموا فعلًا عندما تصدى لهم بعض أبناء ذلك البيت العلوي الذي شيدوا على أساسه مجدهم وسلطانهم، وقد أفصحوا في النهاية في صراعاتهم حتى مع بعضهم البعض عن نواياهم بالاستحواذ على الملك العضوض، وقد رويت لنا قصص عديدة عن صراعات دامية بين أفراد الأسرة العباسية لم ير فيها أي فرعون منهم سوى نفسه ومصالحه ومجده الشخصي.

**تنبيه دائم للأمة**

لقد جعلت ثورة الحسين أعداداً كبيرة من المسلمن يلتفتون إلى دوافعها وأهدافها الحقيقية- رغم التشويه الذي حاول أعداء أهل البيت إلحاقه بها- ويتعاطفون معها، بل ويتبنون مواقف الثوار الذين وقفوا إلى جانب الحسين عليه السلام ونصروه في أحرج الظروف التي كانت تمر بها الأمة..

وقد كانت تلك الطليعة العقائدية المؤمنة التي أراد أمير المؤمنين عليه السلام إيجادها في العراق- إثر خروجه من المدينة بعد ظهور الأحزاب والقوى المناوئة لمسيرة الإسلام الحقيقية- قد نمت بوجوده- في الكوفة، ثم تضاءلت بعد ذلك لما لقيته من متاعب

---

(١) شرح ابن أبي الحديد: م ٢ ص ٤٦٨- ٤٦٩.

ومحن وهي تخوض مع ذلك الإمام العظيم معاركه الكبرى ضد الأحزاب وقريش والعائلة الأموية ومَن استقطبتهم والخوارج، ثم بعد اغتياله عندما واجهت العنف الأموي المتصاعد، الذي كان يبدو مكرساً لمواجهتم وقتلهم إن اقتضى الحال، لو لم يعمل الإمام الحسن عليه السلام على إيقافه عند صلحه مع معاوية وبعد الشروط التي تضمنها عقد الصلح، كما أوضحنا في بحث سابق من هذه الدراسة، وبقي أمرها بين مدٍّ وجزر وصعود وهبوط طيلة الفترات اللاحقة، وبقيت في قرارتها تميل لنهج أمير المؤمنين عليه السلام وخطه، وقد رأت في ثورة الحسين عليه السلام بوجه الانحراف المعلن بعد معاوية أملًا حقيقياً يلوح أمامها لتخليصها من ذلك الانحراف، فكانت تبدو مستعدة للمشاركة فيها. إلا أنها سرعان ما تراجعت على أعقابها بل وشاركت بجريمة قتل الحسين وأصحابه، ثم عادت وانتفضت على قاتليه وشاركت في ثورات عديدة ضد دولة الظلم- كما رأينا في هذا الكتاب- وكانت مستسلمة في مراحل عديدة من حياتها في ظل دولة الظلم الأموية، غير أنها- دون شك- لم تكن راضية عن هذا الاستسلام، وكانت تتطلع إلى من ينقذها ويقودها ضد الأمويين وغيرهم فيما بعد.. ولم تتح لأحد فرصة فهم هؤلاء الثائرين الدائميين على الظلم رغم سكوتهم واستسلامهم الظاهري أحياناً، اللهم ألا لأولئك الذين عرفوا توجهاتهم وفهموا تصوراتهم.

**صحوة إسلامية متجددة**

غير أن الأمر لم يكن مرهوناً بأهل العراق وأهل الكوفة على الخصوص الذين أراد أمير المؤمنين عليه السلام أن يجعلهم طليعة عقائدية وشيعة حقيقيين للإسلام ولرسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن عزم على تربيتهم وقيادتهم ضد كل انحراف مشهود أو محتمل وكل خروج عن الإسلام، مع أن هؤلاء لم يكونوا جالية صغيرة في مكان ما من العالم وإنما كانوا يشكلون قوة كبيرة لها حضورها وروابطها الوثيقة، وكانت الكوفة تشكل المعسكر المتقدم للدولة

الإسلامية بمواجهة أقطار شاسعة لم ينتمِ أغلبية سكانها للإسلام وكانوا معادين له وعلى أهبة الاستعداد للقضاء عليه. وكانت مدينة الجند تلك قد أثرت على غيرها فيما بعد، وانتشرت طلائعها لتشكل دولًا في مختلف أنحاء العالم الإسلامي موالية لأهل البيت، وإن انحرف بعض من حسب عليهم وادعى أنه يسير على خطهم. وكانت الأحداث التي لعبوا فيها أدواراً مهمة، عديدة، وقد شاركوا عموم المسلمين بثورات ومواقف مبدئية مشهورة أثبتوا فيها صدق انتمائهم للاسلام وشدة حبهم له.

إن الصحوة الإسلامية التي غالباً ما تتجدد وتلوح دائماً في أفق حياة المسلمين، كانت نتاجاً دائمياً ومتجدداً لثورة الحسين عليه السلام الذي أصبح رمزاً لكل الثائرين على الانحراف والظلم، ولم يكن مجرد صوت ارتفع لبرهة من الزمن ليخمد بعد ذلك، وإنما كان فعلًا حاسماً ضحى فيه إمام الأمة بحياته من أجل الأمة.

ولم يُرد لثورته تلك أن تكون لأجل فئة أو مجموعة منها، وإنما لها جميعاً..

وإذ لم تتح للكثيرين فرصة الاطلاع على حقائق هذه الثورة وملابساتها وظروفها - بفعل الإعلام المضاد لها- فلعلهم فاعلون ذلك الآن ليدركوا كما أدرك العديدون من أسلافهم أن الحسين عليه السلام لم يكن يسعى للحصول على سلطان أو مالٍ أو مكسب شخصي، فقد كانت مجرد إشارة موافقة بسيطة منه لمعاوية أو يزيد تجلعه في مقدمة المستفيدين من (غنائم) الدولة الكبيرة التي كانت تفيض بها على أعوانها وصنائعها ومقرّبيها، ولعل موقف الحسين الرافض ليزيد هذا، رغم ما كان سيحصل عليه لو أنه قبل به خليفة، يثير الكثيرين من اللاهثين وراء المكاسب الشخصية والطامعين بها فيشنون حملة معادية عليه لأنه لم يقبل بما لو حصلوا على جزء بسيط منه لعدوا أنفسهم من السعداء، وقد سجل بموقفه هذا على كل طامع علامة إدانة كبيرة تجعل الأمة تنظر إليهم بغضب واحتقار لأنهم اختاروا الوقوف إلى جانب الظالم ومساندته على حساب

مصالحها وراحتها ورخائها والتي كانت تتحقق في ظل الإسلام لو كان هناك قيادة حقيقية تشعر بالمسؤولية التامة تجاهها.

**ثورة الإسلام**

كما أن ثورة الحسين عليه السلام لم تكن ثورة شيعية- بالمعنى الذي يصوره البعض- ممن لا يكلفون أنفسهم عناء البحث وفهم مسار التاريخ ومجريات أحداثه والذين انساقوا بدوافع عديدة لتشويه هذه الثورة أو التقليل من شأنها- فالشيعة ككتلة عقائدية اختارت مذهب أهل البيت عليهم السلام لم تكن قد ظهرت بعد، كما لم تكن المذاهب الإسلامية الأخرى قد ظهرت هي أيضاً، إلا أن من ناصروه قد مالوا إلى جانبه لأنه دعاهم إلى العودة الصافية الصحيحة لدين جده متجاوزين كل العقبات والشوائب والأشواك التي وضعت في الطريق في محاولة لإبعاد المسلمين، وكانوا شيعة لرسول الله وللإسلام، ولم يكن هوى بعضهم منذ البداية مع أهل البيت عليهم السلام بل كانوا ضدهم، إلا أنهم انبهروا بالموقف الصادق للإمام الحسين عليه السلام وصعقوا بحرصه الكبير على حماية الإسلام بدمه رغم المخاطر الكبيرة التي كانت تلوح أمامه، وذلك ما جعل حتى بعض الذين قدموا لقتله يتخلون عن مهمتهم وينضمون إليه في اللحظة التي بدا فيها أن موته مؤكد لا شك فيه.

إن تصفحاً واعياً لأحداث التاريخ الإسلامي تجعلنا ندرك أن هذه الثورة قد تركت طابعها الواضح على تلك الأحداث إلى يومنا هذا وأنها قد فعلت فعلها لجعلها تتخذ المسار الذي اتخذته، وأنها قد جعلت الضمير الإسلامي يستيقظ لدى الجميع ولا يغفو، ولا يتمكن الظالمون والمنحرفون من إعادته إلى السبات بسهولة.

وقد حدثت ثورات عديدة من قبل بعض العلويين الذين ينتمون لأهل البيت عليهم السلام

كثورة زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام وثورة ابنه يحيى من بعده في عهد الأمويين[1]، ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين وغيره في عهد العباسيين، كما حدثت ثورات أخرى قاد بعضها ولاة وعمال وقادة آخرون للأمويين والعباسيين، ومهما كانت الدوافع الحقيقية لهذه الثورات فإن استمرارها وظهورها بين وقت وآخر كان يعبر عن روح كربلاء الرافضة للظلم والانحراف أبداً، كما أنه يدل على أن الثوار يجدون ما يبرر قيامهم بها أمام مجموعات كبيرة من الأمة تستجيب لهم وتثور معهم، ولم يكن من المعقول أن تفعل ذلك دون وجود أسباب حقيقية للثورة ودون وجود أرضية مناسبة لها، ولم يكن من المعقول أن يعزز بتلك الأعداد الكبيرة من الأمة دائماً - كما قد يدعي أعداؤهم- وينساقون دون وعي لمواجهة قوى أكبر منهم ما لم يقتنعوا بضرورة المواجهة والثورة وليشعروا كل قطاعات الأمة بالظلم الذي يقع عليها والانحراف المعلن الذي يقع تحت سمعها وبصرها ليتمكنوا من رفعه وإزالته..

ولا نعتقد أن الجميع يحسبون أن كل الأحداث والثورات التي وقعت فيما بعد، كانت نتيجة ثورة الحسين عليه السلام، فالدوافع كثيرة وأبطال تلك الثورات لم يكونوا كلهم من نمط أولئك الذين نصروا الحسين وتبنوا مواقفه ووقفوا إلى جانبه. غير أن تشابك الأحداث وربط كثير من النتائج بالمقدمات تؤكد أن تلك الثورة كانت ذات أثر كبير على الكثير منها وذلك يتطلب دراسات أكثر دقة وشمولية لكل حدث منها وعلاقته بتلك الثورة.

**الحكم الأموي: حفر قبره بيده**

إن ما أردنا توضيحه في هذا الباب هو أن الحكم الأموي قد حفر قبره بيده وأعد لموته بإقدامه على التصدي لثورة الحسين بتلك الصورة المنكرة وقمعها بالشكل الذي

(١) وقد أشرنا إليها في هذا الفصل.

تم فيه ذلك. وكان تماديه في الجريمة والانحراف والخروج المتعمد عن الإسلام، وقيامه بجرأة أكبر على قتل واستئصال كل المعارضين والثوار الآخرين، بعدما حسب أن الأمور قد استتبت له وأنه استطاع القضاء على تلك الثورات نهائياً، عاملًا على كشفه وفضحه أمام الأمة وتجسيم عيوبه وأخطائه التي استثمرها في النهاية الدعاة العباسيون الذين كانت على أيديهم نهايته البائسة، وإن عمد هؤلاء فيما بعد إلى اعتماد نفس أساليب وخطط سابقيهم وكان حكمهم امتداداً لحكم أولئك، وكانت زاوية الانحراف تبدو أكثر انفراجاً وبعداً عن نقطة الشروع وكانت محصلة أعمالهم تتقاطع بشكل واضح مع القيم الكبيرة التي دافع عنها الإمام الحسين عليه السلام وجاؤوا هم مدّعين الدفاع عنهم، ثم تنكروا لها بعد ما حسبوا أنهم قد فازوا بكل شيء...

## ١١- سقوط الدولة الأموية والموجة الفرعونية العباسية

### الأموية والعباسية.. توجه فرعوني واحد

لم يكن قيام الدولة العباسية نتيجة طبيعية للمقدمة التي شهدت ارتفاع الموجة الفرعونية الأموية، مع أنها كانت النتيجة المباشرة الواقعية لها[١]... فكيف حدث أن اتحدت الموجتان فيما بعد تحت تأثير ريح واحدة وشكلتا أكبر تيار فرعوني اجتاح المسلمين، وكانت الخبرة الأموية في مجال الانحراف تبدو وكأنها كانت تكرس لمصلحة الخلفاء العباسيين[٢] الذين أفادوا منها إلى أبعد حد ممكن وقد أضافوها إلى خبراتهم في مجال السياسة والحكم ليتسنى لهم البقاء خلفاء وحاكمين إلى الأبد[٣]... متذرعين

(١) وقد حاول أكبر خليفة عباسي، وهو المنصور، في خطاب له بمكة بعد بناء بغداد، أن يبين للناس أن مجيء العباسيين كان سنة إلهية محتمة أشار إليها القرآن الكريم، بعد أن قام فراعنة الأمويين الجدد ببناء صرح دولتهم الظالمة على رقاب المسلمين ولم يلتفتوا إلا إلى مصالحهم وامتيازاتهم، وحاول أن يظهر دولته بمظهر الدولة العادلة التي يبشر الله بها المؤمنين بعد اندثار الظلم وزواله.. وقد جاء في خطبته.. «﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ الأنبياء: ١٠٥، أمر مبرم وقول عدل وقضاء فصل والحمد لله الذي أفلج حجته وبعدا للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضاً والفيء إرثا وجعلوا القرآن عضين لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون فكم ترى من بئر معطلة وقصر مشيد أهملهم الله حتى بدلوا السنة واضطهدوا العترة وعندوا واعتدوا واستكبروا وخاب كل جبار عنيد ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً» الطبري: ج٤ ص٥٣١، والكامل في التاريخ: ج٥ص ٢٢٣.

(٢) كان الخلفاء العباسيون يتابعون سيرة بعض الخلفاء الأمويين ويحاولون الإفادة منها.. ويهمنا أن نشير إلى اهتمام المنصور بتدبير هشام بن عبد الملك في حروبه وملكه.

(٣) خطب داوود بن علي عم السفاح في أهل الكوفة سنة ١٣٢ وجاء في خطبته «.. فاعلموا أن

ومدّعين أنهم المستضعفون الذين منّ الله عليهم وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، كما أن الله قد منَّ بهم على المستضعفين- على حد تعبير أبي العباس السفاح أول خليفة لهم في أول خطبة ألقاها في أهل الكوفة، وأنهم (أهل البيت) الذين أشار الله إليهم في محكم كتابه الكريم إشارة واضحة بقوله: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[(١)] محاولين التعتيم على أهل البيت الحقيقيين الذين نزلت فيهم هذه الآية الكريمة وهم (محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام)، كما رويت في ذلك الروايات الصحيحة التي تداولها المسلمون في كتبهم وصحاحهم والتي حاول إنكارها من قبلهم الأمويون، فادعوا أمام المسلمين بأن أهل البيت هم آل أبي سفيان. وقد انطلت أكاذيبهم بشأن ذلك على أهل الشام المتأثرين بمعاوية إلى حد بعيد وكانوا نتاج تربيته وإعدادِه الخاص.

**الدولة أموية والشعارات علوية**

لقد قامت الدولة العباسية على شعارات علوية وحاولت التقرب إلى الأمة واستمالتها بالدعوة إلى الرضا من آل محمد وبالمطالبة بدم الحسين وزيد ويحيى.. وهو أسلوب ماكر ظاهره الدعوة لأحد أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهو الأمر الذي من شأنه

---

هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم..» الطبري: ج٤ ص٣٤٨، الكامل في التاريخ: ج٥ص ٦٨، وقد أشار السفاح في هذه الخطبة إلى ما ذكره المنصور بعده فقال: «ثم وثب بنو حرب ومروان، فابتزوها وتداولو ها بينهم، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا، وولى نصرنا والقيام بأمرنا ليمنّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا ((أهل البيت)) إلا بالله..» الطبري: ج٤ ص٣٤٧ وتاريخ الخلفاء ٢٣٩، والكامل في التاريخ: ج٥ص ٦٧.

(١) الأحزاب ٣٣.

استجلاب تعاطف عموم جماهير الأمة والتفافها حولها، وباطنه الدعوة إلى إقامة حكم وراثي مستبد محصور ببني العباس مشابه للحكم الأموي إلا أنه يتفوق عليه بأساليبه المبتكرة الماكرة ومحاولاتها إيهام المسلمين بعد ذلك بأن المقصود بآل البيت هم آل العباس.

أكد العباسيون في معرض خطبهم وأقوالهم وأحاديثهم العامة على فضل أهل البيت في محاولة مستمرة للإيحاء بأن المقصود بهم أقارب الرسول كافة وخصوصاً بني العباس وإن لم يقولوا بذلك صراحة في بداية الأمر خوفاً من افتضاح أمرهم ومن شأن ذلك أن يعرضهم للخطر لأنهم لم يستكملوا استعداداتهم بعد لمواجهة الأمة وفرض سيطرتهم عليها، وكانوا يبدون مستمتعين إلى أبعد حد بالأكذوبة التي كانوا يحاولون تمريرها على الأمة، وكانوا هم أعلم الناس بعدم صحة تلك الأكذوبة وكانوا يدركون حقاً من هم المقصودون بأهل البيت(١) الذين كانوا يتمتعون بأعلى سمعة بين المسلمين قاطبة، حتى أولئك الذين نصبوا لهم العداوة من الأمويين وأعوانهم.. والذين غطى بريقهم الساطع على ضوئهم الخافت وخمولهم لولا ما ذكر عن قرابة جدهم العباس لرسول الله ﷺ وما تميز به ابنه عبد الله بومضة من العلم لم تكن تقارن بعلم أي إمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام وكانت تلك القرابة هي الخيط الذي تشبثوا به للادعاء بصلتهم الوثيقة برسول الله ﷺ محاولين به تجميل صورهم وإظهار أنفسهم بدلاء كفوئين ينوبون عنه في حكم المسلمين. وقد ساعدهم على ذلك ما رآه المسلمون من قبح صورة أعدائهم

---

(١) ورد التأكيد على أن أهل البيت هم محمد ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، أوردت ذلك أهم كتب الصحاح والسيرة والتاريخ، وعزز من ذلك نزول آية المباهلة ﴿...**فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ**﴾ واستدعاء رسول الله ﷺ علياً وفاطمة والحسن والحسين فقال: **اللهم هؤلاء أهل بيتي**.. ومن أهم هذه الكتب وعددها أكثر من ستين كتاباً، صحيح مسلم وسنن الترمذي ومسند أحمد وتفسير الطبري وأحكام القرآن ومستدرك الحاكم وجامع الأصول ودلائل النبوة وذخائر العقبى والبداية والنهاية والإصابة والدر المنثور وغيرها...

الأمويين الذين سبقوهم بالجلوس على سدة الحكم، والذين استثمروا إعلانهم العداوة لهم للتقرب من الأمة.

**العباسيون: استغلوا رصيد أهل البيت لدى المسلمين**

كان لأهل البيت عليهم السلام، وقد خبرهم المسلمون وعرفوهم حق المعرفة وأدركوا أنهم الوحيدون الجديرون بقيادتهم وإيصالهم إلى شاطىء الأمان في ظل الإسلام، منزلة خاصة في نفوسهم وصدى طيب، بعد أن خبروا وعرفوا أيضاً أعداءهم الحقيقيين من الأمويين وغيرهم.. لذلك كان العزف على نغمة بيان ذكرهم وفضائلهم – من قبل العباسيين- دون تحديدهم في البداية- في نية مبيتة لسلب هويتهم كأهل لبيت الرسول صلى الله عليه وآله خاصة ونقلها إليهم- يقصد منه التقرب لعموم أبناء الأمة أولاً وادعاء كل التراث الضخم الذي حازوه والمكانة الضخمة التي حصلت لهم في نفوس أبناء الأمة. ومن هنا نشأت حملة مماثلة لتلك التي قامت في عهد الأمويين كرست للحط من منزلة أمير المؤمنين وأبنائه عليهم السلام ومطاردة كل علوي يرون فيه خطراً على مراكزهم وسلطانهم حتى ولو لم يكن أحد أئمة أهل البيت عليهم السلام... وقد جرى ذلك بعد أن ثبت العباسيون أقدامهم وقمعوا معارضيهم الآخرين، ولم يكن أحد ليجرؤ على تسخيف أطروحاتهم وتكذيبهم خصوصاً وأنهم وجدوا جيشاً كثيفاً من وعاظ السلاطين وواضعي الحديث ومزوريه مستعدين لعرض خدماتهم مقابل الأثمان السخية التي كانت تقدّم لهم.

إدّعى العباسيون الغضب من أعداء الأمة الأمويين لقتلهم الحسين عليه السلام وزيداً ويحيى، ففي خراسان «خرج أبو مسلم يطلب بدم يحيى بن زيد ويقبل قتلته..»[1]،

(١) الطبري: ج٤ ص٥٧٤ ولجأ أبو مسلم إلى أسلوب التفرقة بين القبائل وإثارة العصبية القبلية بين ربيعة وقحطان من جهة ومضر من جهة أخرى، وأبدى أعداءه لمضر باعتبارهم عمالاً لمروان الجعدي وهم قتلة يحيى بن زيد. وقد ألقى أحد أصحاب أبي مسلم خطبة في جماعته جاء فيها: «...

فخراسان كانت المهد الذي احتضن ثورة يحيى وأهلها كانوا يمحضون أهل البيت عليهم السلام الود والوفاء بعد أن تعرضوا لأشد ضروب الامتهان والظلم والحرمان على يد الأمويين، وكانوا يرون أنهم الجديرون بقيادتهم وإنقاذهم من الظلم الأموي، بعد أن استشهد علم من أبنائهم وهو يحيى بين ظهرانيهم وقد جاء ينتصف لهم وللمسلمين بشكل عام. وبعيد استشهاده سمي الاف المواليد في خراسان وأفغانستان وأذربيجان وأرمينيا ونجارى وسمرقند باسم يحيى وزيد اعتزازاً بمن قدما نفسيهما في سبيل الإسلام والمستضعفين من أبنائه، وإذ أن أبا مسلم كان ينتمي لهؤلاء المستضعفين من الموالي فإن دعوته للمطالبة بدم أهل البيت وأبنائهم وخصوصاً دم زيد، قد لقيت إستجابة تامة في تلك البيئة المهيأة لتقبل أي تحرك مضاد لدولة الظلم الأموية. وهكذا دعاهم في أول مواجهة بينه وبين ممثل الدولة الأموية- نصر بن سيار إلى الرضا من آل رسول الله صلى الله عليه وآله[1] وأظهر الدعوة في خراسان، وأمر أحد أصحابه، الذي كان يقص القصص في عسكره بذكر فضل بني هاشم ومعايب بني أمية[2].. ومن الطبيعي إن الغطاء الهاشمي يتسع للعلويين والعباسيين ويفي بالغرض في تلك المرحلة ريثما يتسنى للعباسيين سحبه من تحت اقدام إخوانهم العلويين الذين تقربوا بهم إلى الأمة، ثم ضربوهم بعد ذلك.

ونرى أن النية كانت مبيّتة منذ البداية للتمويه على المسلمين بالدعوة إلى الرضا، فقد بعث محمد بن علي «رسوله إلى خراسان سنة ثلاث ومائة أو أربع ومائة- وأمره أن يدعو إلى الرضا، ولا يسمي أحداً، ومثل له مثالًا ووصف من العدل صفه..»[3]

---

مضر قتلة آل النبي صلى الله عليه وآله وأعوان بني أمية وشيعة مروان الجعدي ودماؤنا في أعناقهم وأموالنا في أيديهم..»، الطبري ج٤ ص٣١٩.

(١) الطبري: ج٤ ص٣٠٨.

(٢) الطبري: ج٤ ص٣١٣.

(٣) الطبري: ج٤ ص٣٢٠.

(الرضا من آل محمد) المعلوم المجهول

وقد قام هذا الرسول وهو أبو منصور طلحة بن زريق بأخذ البيعة وكانت صيغتها: «أبايعكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، والطلاق والعتاق، والمشي إلى بيت الله، وعلى ألا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأكم به ولاتكم؛ وإن كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم..»(١).

وقبيل كل معركة أو واقعة مع أعدائهم أو مناوئيهم كانوا يدعونهم إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وإلى الرضا من آل محمد. وكان ذلك المفتاح السحري الذي يتوصلون به إلى قلوب المسلمين المظلومين والمضطهدين.

**قحطبة بن شبيب: «.. تمسكوا بأهل البر والتقوى من عترة الرسول صلى الله عليه وآله...».**

وتظهر كلمة ألقاها قحطبة بن شبيب صاحب لواء إبراهيم بن محمد بن علي العباسي في أهل خراسان مهارة ومكر القادة العباسيين وقابليتهم لاستغلال مشاعر أهل خراسان الموالين لأهل البيت والمعادين للسلطة الجائرة التي حكمت فيهم بغير ما جاء به الإسلام.

إن قحطبة يحاول هنا إثارة حس الانتماء للوطن الصغير (خراسان) الذي تعرض أهله غير العرب لحملة قاسية من حكامهم الأمويين (العرب)، الذين ابتعدوا عن الإسلام وقيمه العليا التي رفعت العرب جميعاً بعد أن كانوا ضعافاً أمام القوى الكبيرة التي كانت تسيطر على العالم ومنها الدولة الفارسية، فكأنه يريد أن يقول لهم تمسكوا أنتم بالإسلام واحكموا أنفسكم وحطموا من كانوا سبباً لخرابكم، وتمسكوا «بأهل البر

---

(١) الطبري: ج٤ ص٣٢١.

والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليه وآله»...

وإذ أنه لا يصرح هنا بأسماء عترة الرسول، فإنه يعلم حق العلم من هم، ويعلم أن الجميع يعرفونهم حق المعرفة، غير أن نية مبيّتة هنا تبرز بوضوح لقلب الموازين وقلب الحقائق بعد أن يتمكن النظام الجديد من بسط نفوذه وسطوته.

فالعباسيون يظهرون أمام المسلمين- ومنهم أهل خراسان، الموالون لأهل البيت الحقيقيين- كمطالبين بالثأر ومنتصرين لأبناء عمومتهم العلويين، ويريدون من عموم المسلمين ومنهم أهل خراسان طبعاً أن ينضموا إليهم للأخذ بذلك الثأر وإزاحة الأمويين... أما ماذا سيحدث بعد ذلك، فهذا ما لم يريدوا الإفصاح عنه، إذ أن لكل حادث حديثاً، وعلى الجميع أن يتحدوا هنا للاطاحة بأعداء أهل البيت عليهم السلام، ويتركوا الحديثاً عمن سيحكم في المستقبل، فبنو العباس أكثر غيرة على أبناء أعمامهم العلويين وأكثر حباً لهم!. وعلى من يدّعي الموالاة لأي من الطرفين أن يترك الخوض في أمثال تلك الأحاديث التي لم يحن وقتها بعد لكي يفوت على العدو المتربص فرصة إثارة المتاعب للجميع.

قال قحطبة مخاطباً أهل خراسان الذين كانوا يستعدون لمواجهة أكبر جيش أموي أتيح لهم أن ينازلوه والذي أثار قلقهم ومخاوفهم:

« يا أهل خراسان هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين وكانوا ينصرون على عدوهم بعدلهم وحسن سيرتهم حتى بدلوا وظلموا فسخط الله عز و جل عليهم فانتزع سلطانهم وسلط عليهم أذل أمة كانت في الأرض عندهم فغلبوهم على بلادهم واستنكحوا نساءهم واسترقوا أولادهم فكانوا بذلك يحمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم ثم بدلوا وغيروا وجاروا في الحكم وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول

الله ﷺ فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم لتكونوا أشد عقوبة لأنكم طلبتموهم بالثأر وقد عهد إلي الإمام أنكم تلقونهم في مثل هذه العدة فينصركم الله عز وجل عليهم فتهزمونهم وتقتلونهم..».[1]

وواضح من كلام قحطبة أن العباسيين كانوا يدعون أنهم قد توارثوا علماً يشير إلى أنهم سيغلبون ويحكمون وأن ذلك قد وصل إليهم عن طريق الأئمة العلويين وغيرهم.. وأن أمرهم ودولتهم شيء محقق، وأن خبر ذلك قد ورد عن رسول الله[2].

ومهما يكن من أمر فإنهم استمروا برفع شعارات الثأر لأهل البيت والانتصاف لهم من أعدائهم، والدعوة إلى الرضا منهم، فإذا ما حققوا أملهم باستقطاب فئات كبيرة من المسلمين المتعاطفين معهم واستطاعوا حرف الدعوة من مسارها المعلن لتكون في صالحهم، فإنهم عندئذٍ يستطيعون الإفصاح عن كل نواياهم وطموحاتهم في الحكم، وهذا ما فعلوه بعد أن تمكنوا وأصبحت إلى جانبهم فئات من محبي السلطة والقادة والزعماء الطامعين بالجاه والثروة.

لقد ادّعوا في البداية تحيزهم إلى الخط العلوي- خط أهل البيت الحقيقيين الذين خُصّوا بالذكر، بعد أن أصبحوا أطروحة ومثلًا أعلى لدى المسلمين كافة، فالخلافة العباسية «قامت على أساس دعوة كانت تتبنى زعامة الصادق من آل محمد ﷺ، الحركة السلمية التي على أساسها نشأت الخلافة العباسية، كانت تأخذ البيعة للصالح، للإمام الصادق من آل محمد ﷺ، يعني هذه الحركة استغلت عظمة الإسلام، عظمة هذا الاتجاه، وتجمع المسلمون حول هذا الاتجاه، ولم يكن هؤلاء المسلمون شيعة، أكثر هؤلاء لم يكونوا شيعة، لكن كانوا يعرفون أن الاتجاه الصالح، الاتجاه الحقيقي، الاتجاه

(١) الطبري: ج٤ ص٣٢٧.
(٢) الطبري: ج٤ ص٣٤٤.

الصلب، كان يمثله علي بن أبي طالب عليه السلام والواعون من أصحاب علي، والواعون من أبناء علي عليه السلام...».[(١)]

**عرف المسلمون من كانوا إلى جانبهم**

لقد أدرك المسلمون صواب توجهاتهم ومناهجهم ولمسوا صدق انتمائهم للإسلام وطبيعتهم المضحية في سبيل المسلمين والمتفانية في الإسلام، وعلموا أنهم الوحيدون الجديرون بقيادتهم والوصول بهم إلى شاطىء الأمان في ظل الإسلام وعدالته وقيمه الحقيقية العليا التي حرموا من تذوقها والشعور بها طيلة عهد الحكم الأموي.

كانت الحركة العباسية المبطنة، القشة التي قصمت ظهر البعير الأموي، فلم تكن تلك الحركة ضخمة كضخامة ثورة الحسين عليه السلام، ولم يكن فيها من الزخم الرسالي ما يجعلها في عداد الثورات اللاحقة، غير أنها استثمرت كل ذلك وتلاعبت بعواطف المسلمين وأوحت لهم أنها إنما كانت تسير على نهج أهل البيت عليهم السلام وإنها تدعو للرضا منهم وتريد الثأر ممن وترهم ونالهم بالأذى والعدوان، وكانت إحدى نتائج ما قاموا به لرفع الظلم والحيف عن المسلمين، وقد ظهر انها كانت نتيجة غير طبيعية، فما نال المسلمين وأهل البيت عليهم السلام من العباسيين، أضعاف ما نالهم قبل ذلك.

**نوايا مبيّتة مند البداية**

وتدل رسالة كتبها أبو جعفر المنصور لمحمد بن عبد الله على نوايا العباسيين المبيّتة ضد أهل البيت عليهم السلام وتوجهاتهم لحرف الأمر عنهم، كما تدل على أن المطالبة بدمهم لم تكن سوى أداة مزدوجة أرادوا بها التأثير على الرأي العام الإسلامي وإيهامه بحبهم لآل البيت عليهم السلام ثم للاحتجاج بذلك على من يريد إرجاع الأمر إليهم بعد ذلك،

---

(١) أهل البيت: ص ٦٩- ٧٠.

بدعوى أنهم كانوا الآخذين بالثأر. كما تدل على نفس التوجه الأموي المليء بالمغالطات والأكاذيب حولهم.

يقول المنصور: «... ثم خرج عمك حسين بن علي على ابن مرجانة، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه، وأتوا برأسه إليه، ثم خرجتم على بني أمية، فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل، وأحرقوكم بالنيران، ونفوكم من البلدان، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء، وحملوهم بلا وطاء في المحافل كالسبي المجلوب إلى الشام، حتى خرجنا عليهم، فطلبنا بثأركم، وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم، وسنّينا سلفكم وفضلناه...»[1].

ولنتنبه إلى إشارته الخبيثة حول خروج الحسين المزعوم على ابن مرجانة، وكأن الصراع كان بينهما خاصة، وكان الحسين لم يثر بوجه الدولة الأموية اليزيدية المنحرفة ويرفضها جملة وتفصيلًا... وهي إشارة أريد بها التهوين من شأن تلك الثورة الكبيرة التي جعلت دول الظلم كلها تحسب حساباً للأمة المسلمة على امتداد السنين، والتي كانت السبب الأول المباشر للإطاحة بدولة الظلم الأولى.

(١) الطبري: ج٤ ص٤٣٣.

## ١٢- الثورات، والموجة الفرعونية الثانية أيام العباسيين

إنكشفت نوايا العباسيين منذ الأيام الأولى لاستلامهم الحكم، وأبدوا جهوداً منقطعة النظير للمحافظة على ملكهم، وإبعاد منافسيهم العلويين المقربين من الأمة، ولجؤوا إلى أشد الأساليب إرهاباً ودموية لتصفية خصومهم الأمويين أولًا ومنع أي تحرك يرون أنه يشكل خطراً على وجودهم وكيانهم، واشتدت حملتهم بشكل خاص بوجه القيادة الشرعية الحقيقية للمسلمين المتمثلة بأئمة أهل البيت عليهم السلام، وشهد تاريخهم تصفية ستة منهم حيث لوحقوا وحوصروا وقتلوا في أوقات مختلفة.

لقد استنفذوا أغراضهم من التقرب من أهل البيت والعلويين بشكل عام للمكانة التي لهم في نفوس المسلمين ومن دعوتهم المعلنة الأولى للمطالبة بدم الحسين وزيد ويحيى، وكشفوا عن نواياهم وخططهم بعد أن تمكنوا وأحكموا استعداداتهم واستحكاماتهم بوجه كل خصم محتمل أو حقيقي وبعد أن طوعوا وأخضعوا الأمة ثانية وأجبروها على الاستسلامٍ والوقوع جثة هامدة بين أيديهم، وذهبوا إلى حد قتل أشد أعوانهم نصرة لهم وتفانياً من أجلهم.

لقد أسفر الانحراف عن وجهه ثانية ولم ير أقطاب الحكم ما يدعوهم لستر ممارساتهم الشاذة، اللهم إلا ما يتظاهرون به أحياناً من استجابة لوعاظ السلاطين وذرف دموع التماسيح أمامهم، وغالباً ما يفعلون ذلك في ساعات الخطر وأوقات الأزمات لكسب ود الأمة وتعاطفها، وقد رويت قصص طريفة عن بكاء المنصور والرشيد، وتفنن بعض الرواة بعرضها بشكل شيق يثير عطف من لا يعرف حقيقة أولئك الحكام المتفرعنين.

**محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن**

كان محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أول ثائرين بوجه السلطة العباسية التي انتزت على منصب الخلافة بكل الوسائل المتاحة والتي لم تكن شرعية بأي حال من الأحوال.

وكان محمد عند اضطراب أمور الأمويين في مقدمة الثائرين عليهم من بني هاشم، حتى لقد بايعه إبراهيم والسفاح والمنصور، وكان المنصور أشد المتحمسين لهذه البيعة[1]، إلا أن الأمور عندما استتبت له في النهاية جعل أكبر همه رصد تحركاته وتحركات أخيه، وبث الجواسيس والعيون لهذه الغاية. لقد كان اللص في غاية الخوف ممّن سلبه حقه وتخلّى عن بيعته، وكان متلهفاً على التخلص منه وقتله بأسرع وقت.

إن عهد المكائد الطويل ليفخر بتلك الفترة المزدهرة التي شهدت حكم المنصور وأساليبه في القضاء على خصومه ومناوئيه ومن يحتمل أن يكونوا في صفوفهم. وقد لجأ إلى أشدها ظلامية وعسفاً للقضاء على محمد صاحب النفس الزكية وأخيه إبراهيم بعد أن امتنعا عن الحضور إلى بلاطه لتقديم فروض الطاعة والولاء التي طلبها من الجميع، وربما كان سبب امتناعهما عن الحضور، خوفهما من غدره، وهو صاحب تاريخ معروف فيه.

لقد أقضّ اختفاؤهما مضجعه و «لما استخلف أبو جعفر لم تكن له همة إلا طلب محمد والمسألة عنه وما يريد، فدعا بني هاشم رجلا رجلا كلهم يخليه فيسألهم عنه فيقولون يا أمير المؤمنين قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم فهو يخافك

---

(١) مقاتل الطالبيين: أبو الفرج الأصفهاني :ص ٢٠٦ و ٢٥٤ وما بعدها «وقد ذكر أن محمداً كان يذكر أن أبا جعفر ممّن بايع له ليلة تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة حين اضطرب أمر بني مروان...» الطبري: ج٤ ص٤٠٢، والكامل في التاريخ: ج٥ص ١٣٧.

على نفسه وهو لا يريد لك خلافاً..»[١]. وقد «اشترى أبو جعفر رقيقا من رقيق الأعراب ثم أعطى الرجل منهم البعير والرجل البعيرين والرجل الذود وفرقهم في طلب محمد في ظهر المدينة فكان الرجل منهم يرد الماء كالمار وكالضال فيفرون عنه ويتجسسون..»[٢].

**الجواسيس: حضور دائم**

وأرسل المنصور أحد جواسيسه ليستعلم حال محمد وأخيه من أبيهما بعد أن يستدرجه ويدعي أنه أحد مناصري ومحبي ابنه، وقد أرسل مبعوثاً من سكان إحدى قرى خراسان لتقديم الدعم والاستعلام عن موعد إعلان الثورة، وقد نجح هذا الجاسوس بمهمته وأصبح أحد المقربين من المنصور[٣].

وتذكرنا قصة هذا الجاسوس بقصة جاسوس آخر أرسله ابن زياد ليخترق أصحاب مسلم بن عقيل ويعلم قوته وموعد خروجه- وقد نجح أيضاً بمهمته[٤].

تهدد المنصور عبد الله بالقتل وشدد عليه لكي يحضر ابنيه اللذين قيل أنهما ذهبا للبصرة وعدن وإلى السند ثم إلى الكوفة ثم إلى المدينة.. وأحضر الجاسوس الذي نجح بالحصول على بعض المعلومات منه وواجهه به ثم حبسه ثلاثة أعوام في محاولة منه للضغط على ولديه لكي يسلما نفسيهما أو يعجلا لإظهار ثورتهما وهو ما سوف يساعده على قمعها بسهولة إذ ستكون الاستعدادات لها ناقصة حتماً- وهذه تجربة أموية غنية وقديمة- استفاد منها المنصور مع خصميه اللذين كان يحسب لهما كل حساب ويخافهما على عرشه، رغم أنه حاول فيما بعد، وبعد القضاء عليهما التقليل من شأنهما.

---

(١) الطبري: ج٤ ص٤٠٢، والكامل في التاريخ: ج٥ص١٣٨ وما بعدها.
(٢) الطبري: ج٤ ص٤٠٣، والكامل في التاريخ: ج٥ص١٣٨ وما بعدها.
(٣) الطبري: ج٤ ص٤٠٣، والكامل في التاريخ: ج٥ص١٣٨ وما بعدها.
(٤) راجع ما كتبناه عن أحداث الكوفة قبل قدوم الحسين عليه السلام العراق.

ومن الظريف أن نذكر هنا أن فرصة اغتيال المنصور قد أتيحت لهما في مكة إلا أن محمداً صاحب النفس الزكية امتنع عن ذلك وقال: لا والله لا أقتله أبداً غيلة حتى أدعوه[١].

**مخاوف حقيقية**

لم تكن مخاوف المنصور من محمد دون سبب، فمحمد لم يختف منه لمجرد أنه خاف أن يقتله، ولو كان الأمر كذلك لربما تغاضى المنصور عنه ولم يلاحقه تلك الملاحقة العنيدة، غير أنه تيقن من وجود بوادر ثورة كبيرة يقودها محمد، قد تطيح بعرشه في النهاية، فلئن حاول تطويع الأمة وإجبارها على الاستسلام فإنه كان واثقاً أن أمثال صاحب النفس الزكية لن يخضعوا بسهولة وإن الخوف من الموت ربما كان آخر ما يفكرون فيه.

وقد أرسل أحد صعاليك العرب، صعيليكاً صغيراً على حد تعبيره هو- والياً على المدينة وأمره باللجوء إلى أشد الأساليب للقَبض على محمد وإبراهيم، وقد عمد هذا الصعلوك بإيعاز من سيده إلى إلقاء القبض على كافة أفراد العائلة الحسنية من الذكور وأودعهم السجن في محاولة منه لكسر شوكتهم وتشجيع من يفكر بالوشاية بمحمد وإبراهيم، وقد لجأ إلى شتمهما من على منبر المدينة مما سبب إثارة حفيظة أهلها عليه حيث ردوا عليه بخشونة وحصبوه وألجؤوه إلى الفرار.

**معاناة الحسنيين في سجن المنصور**

كانت معاناة المسجونين- ومنهم عبد الله الحسني- كبيرة في السجن، وقد عزم المنصور إلى أخذهم معه إلى العاصمة، وهناك احتمال كبير لتعرضهم لمزيد من الأذى

(١) الطبري: ج٤ ص٤٠٦، والكامل في التاريخ: ج٥ص ١٤٠ وهو موقف مشابه لموقف مسلم ابن عقيل عندما أتيحت له فرصة قتل ابن زياد غيلة فامتنع عن ذلك، وقد تحدثنا عن ملابسات ذلك الحادث وأسباب امتناع مسلم..

على أيدي أعوانه. وقد أراد محمد وإبراهيم في محاولة منهما لتخليص ذويهما من السجن أن يسلما نفسيهما، إلا أن المسجونين رفضوا ذلك وطلبوا منهما المضي في مهمتهما إلى النهاية وإكمال الاستعدادات للثورة رغم الجو الخانق والرقابة الشديدة المضروبة عليهما.

فأمر الثورة لم يكن خافياً على بقية أفراد العائلة كما لم يكن خافياً على الإمام الصادق عليه السلام - روي عن حسين بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام قوله: «غدوت إلى المسجد فرأيت بني حسن يخرج بهم من دار مروان مع أبي الأزهر يراد بهم الربذة فانصرفت فأرسل إلي جعفر بن محمد فجئته فقال **ما وراءك** فقلت رأيت بني حسن يخرج بهم في محامل قال **اجلس** فجلست فدعا غلاما له ثم دعا ربه دعاء كثيرا ثم قال لغلامه **اذهب فإذا حملوا فأت فأخبرني** فأتاه الرسول فقال قد أقبل بهم قال فقام جعفر بن محمد فوقف من وراء ستر شعر يبصر من وراءه ولا يبصره أحد فطلع بعبد الله بن حسن في محمل معادله مسود وجميع أهل بيته كذلك قال فلما نظر إليهم جعفر هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته ثم أقبل علي فقال **يا أبا عبد الله والله لا يحفظ لله حرمة بعد هؤلاء...**»(١) وكان تعاطفه عليه السلام وذرفه الدموع على أولئك الذين نالهم الأذى من أبناء أعمامه يدل على أنه كان يتمنى حقاً نجاح الثورة ضد المنصور، ويدلل على صدق توجهات الثوار وحرصهم على تخليص الأمة من معاول الظلم التي كانت تهدم كل ما بناه الإسلام.

وقد عمد المنصور إلى إحدى حيله المشهورة، حينما قتل محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان المسمى بالديباج- وهو أخو بني الحسن لأمهم، أمهم جميعاً فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام، وأرسل رأسه إلى خراسان مع جماعة أمرهم أن يحلفوا بالله بأن ذلك الرأس هو رأس محمد بن عبد الله بن فاطمة بنت رسول الله(اي فاطمة بنت الحسين بن رسول الله)، يوهمون الناس أنه رأس محمد بن عبد الله بن الحسن صاحب

(١) الطبري: ج٤ ص٤١٥، والكامل في التاريخ: ج٥ص١٤٤.

النفس الزكية في محاولة منه لتطويق ثورة أهل خراسان المحتملة مع محمد صاحب النفس الزكية إذا ما أعلن ثورته، ولزرع اليأس في قلوبهم، وقد أدركوا كذبته تلك بعد أن أرسل إليهم رأسه بعد ذلك.

**حركة محمد النفس الزكية**

لم تكن حركة محمد النفس الزكية لتعلن في غير أوانها دون أن تثير المزيد من المتاعب له ولأصحابه، خصوصاً وأنه في وقت ما- أيام الحكم الأموي- قد بويع من قبل المنصور نفسه، الذي قيل أنه قد بايعه مرتين، ولا بد أنه محيط ببعض أبعادها وخيوطها، ولا بد أن معرفته بها ستتيح له توجيه ضربات قاتلة لها. وهكذا سعى المنصور سعيه الدؤوب الملح لكي يعلن محمد ثورته قبل أوانها وقبل أن يكمل استعداداته لها، وقد عقد عدة اجتماعات مع بعض مستشاريه وأقاربه لدراسة السبل الكفيلة بوأد الحركة حال ظهورها.

وكان وعي الأمة وتحسسها وقدرتها على كشف الانحراف قد تنامت بعد أن عاشت فترة طويلة في ظل الدولة الأموية وأدركت زيف توجهاتها وادعاءاتها وسياساتها.. لقد بدت تلك الدولة مكشوفة عارية بعد أن ضعف سلطانها، بل قبل ذلك، ولم تعد الاكاذيب والافتراءات والمظاهر الكاذبة تنطلي على الأمة التي لم تصل إلى ذلك الوعي دون معاناة حقيقية. فكان على العباسيين أن يلجؤوا إلى أساليب جديدة لتقوية سلطانهم ومراكزهم، وهكذا كان على أقطابهم أن يستنفروا كل مكائدهم ودسائسهم ومكرهم للإطاحة بمركز القوة المنافس الكبير، المتمثل بالعلويين - والذي كان يبدو أنه على وشك الإطاحة بهم لو أنهم أبدوا أقل قدرٍ من التساهل والسكوت، وكان عليهم أيضاً أن يستنفروا كل طاقات الشر لدى من يرون أنه قد يكون عوناً لهم في مساعيهم وإن أضمروا النية على تصفية كل أولئك الأعوان عند ظهور أقل بادرة خلاف أو شكوى

ولو مجرد شك بسيط في ولائهم وخضوعهم...

إن وعي الأمة المتزايد والمتنامي في ظل الأوضاع المتغيرة التي جاءت في أعقاب نظام قد مات للتو وولادة نظام جديد، جعلها تدرك أن هذا النظام الجديد لا يختلف عن سابقه وإن اختلف في بعض الشعارات والأهداف المعلنة، وكان ذلك سيسهل مهمة محمد لمواجهة النظام الفرعوني الجديد.

ويبدو أنه قد أحبك خيوط تلك المهمة وأرسل رسله ومنهم أولاده واخوته لكافة أمصار الدولة الإسلامية لأخذ البيعة له، وإن بدا أن المنصور قد استطاع بجواسيسه وعيونه اختراق التنظيم الواسع الذي أقامه محمد والذي لم يستطع إكماله لأنه أجبر على القيام بثورته قبل موعدها المقرر لأنه «ما زال يُطلب أشد الطلب حتى سقط ابنه فمات وحتى رهقه الطلب»[١] وحتى أن بعض أصحابه لم يحتملوا تأخره وقعوده أكثر من ذلك وقالوا له: «ما تنتظر بالخروج؟ والله ما نجد في هذه الأمة أحداً أشأم عليها منك. ما يمنعك أن تخرج وحدك؟»[٢]...

**توجه رسالي رغم الأذى الذي ألحق به**

وهكذا خرج بالمدينة سنة خمس وأربعين ومائة وألقى القبض على أعوان الدولة ومن أُرسل للقبض عليه وقتله، ولم يلجأ إلى الأساليب التي لجؤوا إليها واتسم أسلوبه بقدر كبير من الانضباط والالتزام بتعاليم الدين الحنيف رغم أنه استهدف شخصياً بالأذى من قبلهم، وهو أمر يعكس التوجه الرسالي الصحيح لقائد الثورة، محمد ذي النفس الزكية.

---

(١) الطبري: ج٤ ص٤٢٢، والكامل في التاريخ: ج٥ص ١٤٧.

(٢) الطبري: ج٤ ص٤٢٢، والكامل في التاريخ: ج٥ص ١٤٧.

وفي خطابه الأول الذي ألقاه في مسجد المدينة بيّن محمد السبب الذي دعاه للثورة بوجه القيادة العباسية المنحرفة، والتي أسفرت عن انحرافها حال قيامها وابتعدت عن الإسلام جملة وتفصيلاً وإن ادّعت كسابقتها أنها هي دولة الإسلام وأن على الجميع أن يدينوا بالطاعة (لولي الأمر) المنحرف الذي بدا أنه لم يشعر بانحرافه في غمرة سعيه المحموم لتثبيت عرشه والتمهيد لملك وراثي فرعوني يمتد في عقبه ونسله.

قال ذو النفس الزكية:

«أما بعد أيها الناس فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندا الله في ملكه وتصغيرا للكعبة الحرام وإنما أخذ الله فرعون حين قال:﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾[1] وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت اللهم فأحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا أيها الناس إني والله ما خرجت من بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة ولكني اخترتكم لنفسي والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لي فيه البيعة...»[2].

وواضح من كلماته الأخيرة أنه كان يعتقد أنه قد أحكم حلقات حركته وأنه قد استكمل كل شيء، وأن عدوه سيواجه مشاكل في كل أنحاء مملكته.. وهذا ما لم يحدث، إذ أن عدوه الماكر استعد لكل شيء[3] وكان يحكم الحلقات التي ضيق بها على

(١) النازعات ٢٤.

(٢) الطبري: ج٤ ص٤٢٦، والكامل في التاريخ: ج٥ص ١٤٨.

(٣) ذكر أن أبا جعفر كان «يكتب إلى محمد على ألسن قواده يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه، فكان محمد يقول: لو التقينا مال إلي القواد كلهم» الطبري: ج٤ ص٤٢٦، والكامل في التاريخ: ج٥ص ١٤٨ وواضح أن المنصور كان يقصد أمرين أولهما استعجال محمد لإظهار حركته وثانيهما

تلك الحركة الكبيرة.. «لما بلغ أبا جعفر خبره بادر إلى الكوفة، وقال: أنا أبو جعفر! استخرجت الثعلب من جحره»[(١)] وكان يقصد أنه عمد إلى أساليب من شأنها أن تلجئ محمداً إلى الخروج قبل أن يكمل استعداداته. ولو لم يفعل ذلك لكان قد تعرض حقاً للخطر المحتم على يد محمد وأصحابه.

كان أبو جعفر أعرف الناس بأبعاد ثورة محمد وأكثرهم معرفة بخطرها عليه، حتى أنه جزع جزعاً شديداً عندما وصلته أخبارها.

وقد أشار عليه عبد الله بن علي العباسي - وكان محبوساً عنده - أن يرتحل إلى الكوفة باعتبار أن أهلها من شيعة أهل البيت وأنصارهم وأن يحففها بالمسالح ويحاصرها ويمنع الدخول إليها والخروج منها ويقتل كل من يحاول ذلك، كما أشار عليه أن يبذل الأموال الطائلة لشراء الجند والأعوان، وأن يستقدم من هؤلاء أكبر عدد لنصرته.

**أمان المنصور**

وقد حاول المنصور أن يسترضي محمداً ذي النفس الزكية وبعث إليه كتاباً يؤمنه فيه على نفسه وولده وإخوته وأهل بيته ومن اتبعهم ويسوّغه ما أصاب من دم أو مال، وعرض عليه مليون درهم وما سأل من الحوائج وأن ينزله من البلاد حيث شاء، وأن يطلق من في حبسه من أهل بيته وأن يؤمن كل من جاءه وبايعه واتبعه أو دخل معه في شيء من أمره ثم لا يتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً، وأن يوجه إليه من أحب ليأخذ له من الأمان والعهد والميثاق ما يثق به[(٢)].

ولو كان هدف محمد مجرد التخلص من مطاردة المنصور والحصول على أمانه،

تضليله بشأن قوته وعدد الذين كانوا معه.

(١) الطبري: ج٤ ص٤٢٩.

(٢) الطبري: ج٤ ص٤٣٠.

لكانت تلك فرصة كبيرة يحصل فيها على ذلك بعد أن يتأكد من عهوده ومواثيقه... غير أن أمره لم يكن كذلك.. ولم تكن خطبته في أهل المدينة الذين لم يتخلف أحد من وجوهها إلا نفر[١]، إلا بياناً حقيقياً لأهداف تلك الثورة التي أراد بها إنهاء ذلك الحكم الفرعوني الجديد، ولم تكن ذريعة للحصول على العفو والأمان الشخصي له وأهل بيته.

وقد أجابه إجابة مفحمة على كتابه وعرض عليه من الأمان مثل الذي عرضه هو عليه، مع أنه أشار إلى (أماناته) المزيفة السابقة كالأمان الذي أعطاه لابن هبيرة وعبد الله ابن علي وأبي مسلم... وقد غدر بهم جميعاً.

**تشخيص محمد لانتهازية العباسيين**

ونشير هنا إلى نقطة جديرة بالانتباه وردت في رسالة محمد وفيها يذكر كيفية استغلال العباسيين نقمة الأمة على الأمويين وتسللهم بين صفوف المعارضة الرئيسية المتمثلة بأهل البيت عليهم السلام ثم استحواذهم على كل شيء بعد ذلك.

قال محمد في رسالته: «... إن الحق حقنا، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا، وإن أبانا علياً كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء...»[٢].

ومن الغريب أن أبا جعفر كتب إلى محمد كتاباً يحفل بالافتراءات والشتائم والدس على أهل البيت، لم يكن ليكتب مثله حتى أشد ناصبي العداوة لآل البيت من الأمويين وغيرهم.

مع أنه اعترف ضمناً بأن العباسيين كانوا من المطالبين بثأر أهل البيت، ولم يكمل

(١) الطبري: ج٤ ص٤٢٧.
(٢) الطبري: ج٤ ص٤٣١، والكامل في التاريخ: ج٥ص ١٥٢.

اعترافه بأن سبب ذلك كان للتوصل إلى أغراض مبيّتة لم يعلنوا عنها إلا بعد أن استتبت لهم الأمور.

استولى إبراهيم على البصرة بعد أن استولى أخوه محمد على المدينة والكوفة، وقد ندَب المنصور لمحمد عيسى بن موسى ومحمد بن أبي العباس وضم إليه أربعة آلاف من الجند ثم أرسل أحد مواليه فمنع طريق الشام وحظر وصول الميرة إليه، وكان الجيش الذي أرسله قد ضم عدة من قواد أهل خراسان وجندهم وجهزهم بالخيل والبغال والسلاح والميرة.

وعمد عيسى إلى مراسلة بعض أهل المدينة لتفريقهم عن محمد، وكانت رسائله تتضمن تهديداً قوياً لهم، كما اتسمت بأسلوب القدريين الذي نشأ أيام الأمويين لتعزيز سلطتهم، والذي طالما لجأ إليه معاوية ويزيد من قبل.. قال يزيد لجلاسه حين أتي برأس الحسين عليه السلام: إن الحسين إنما أتي من قبل فقهه، ولم يقرأ ﴿**قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[1]، وقد تناولنا ما حاول يزيد الإيحاء به من ذكر هذه الآية الكريمة وهو أن الأمر مقدر من الله وأن لا حق لأحد بالتدخل فيه. وكأن الملك قد أنزل له هو خاصة وكأنه سيدوم له إلى الأبد. وإن من يريد منازعته إياه فكأنما ينازع الله سلطانه وهذا هو منطق الطغاة دائماً.. وقد جاء في إحداها «.. إن محمدا تعاطى ما ليس يعطيه الله وتناول ما لم يؤته الله: ﴿**قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[2]، فعجل التخلص وأقل

---

(١) الطبري: ج٣ ص٣٤٠.

(٢) آل عمران ٢٦.

التربص، وادع من أطاعك من قومك إلى الخروج معك..»[١].

اجتمع مع محمد حوالي مائة ألف، وقد عمد إلى حفر الخندق الذي كان رسول الله قد حفره لصد مشركي مكة والأحزاب.. ولأن محمداً لم يلجأ إلى ما يلجأ إليه طلاب الملك العاديون وكان يتحرى الدقة في تصرفاته، وقد سمح لمن أراد من أصحابه تركه فعل ذلك وأحلَّهم من بيعته، فإن أغلب هؤلاء قد تركوه حتى بقي في شرذمة ليست بالكثيرة[٢] وبهذه الشرذمة القليلة التي لم تزد على عدة أهل بدر يوم لقوا المشركين وهي ثلاثمائة ونيف واجه جيش الدولة الذي تكاثر وأصبح جيشه لا يقاس به. وقد قيل أنه بلغ أربعين ألفاً...

**عروض مغرية للتخلي عن الثورة**

قدمت إليه عروض مغرية لكي يتخلى عن ثورته إلا أنه أصر على المضي إلى النهاية، وفي المعركة قتل بيده يومئذٍ سبعين رجلًا.

كان معه بعض أولاد الحسين عليه السلام إضافة لبني الحسن الذين بقوا في المدينة ولم يقض عليهم المنصور وكان شعارهم شعار النبي يوم حنين: أحد أحد.

وقد دار قتال ضار بين الفريقين غير المتكافئين أبلى فيه أصحاب محمد بلاء حميداً. وكانت مشاهد عديدة جديرة بالتأمل والدراسة، مشاهد بطولة فريدة، لم تعرف إلا من الرساليين الحقيقيين ومشاهد للخيانة والجبن شابهت تلك التي شهدتها المدينة أيام واقعة الحرة حينما دلّ آل مروان أصحاب يزيد على مداخل المدينة، ففي هذه المرة «فتح بنو أبي عمرو الغفاريون للمسودة طريقاً في بني غفار، فدخلوا منه حيث جاؤوا من وراء

---

(١) الطبري: ج٤ ص٤٣٨.

(٢) الطبري: ج٤ ص٤٣٩، والكامل في التاريخ: ج٥ص ١٥٩.

أصحاب محمد»[١].

وقد قتل محمد غدراً على يد أحد قادة المنصور، حُميد بن قحطبة، الذي لم يجرؤ على منازلته، فأقدم على اغتياله.

**الغدر ثم الغدر**

وقد حدّث من شهد واقعة قتل محمد، قال: «رأيت محمدا يومئذ وإن أشبه ما خلق الله به لما ذكر عن حمزة بن عبد المطلب يهذ الناس بسيفه هذا ما يقاربه أحد إلا قتله ومعه سيف لا والله ما يليق شيئا حتى رماه إنسان بسهم كأني أنظر إليه أحمر أزرق ثم دهمتنا الخيل فوقف إلى ناحية جدار فتحاماه الناس فوجد الموت فتحامل على سيفه فكسره قال فسمعت جدي يقول كان معه سيف رسول الله صلى الله عليه وآله ذو الفقار»[٢].

وحتى بعيد قتله لم يستطع أعداؤه أن يقولوا فيه كلمة سوء واحدة حتى أنهم مدحوه، وحتى عدوه الألد المنصور مدحه، ووصم شخصاً أخبره أنه فرّ بالكذب، وإن أضاف نحن أهل البيت لا نفر! ويريد بذلك أن يشهد لنفسه أيضاً بالشجاعة... «كثروا محمداً وألحوا في القتال حتى قتل محمد في النصف من شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة.. وكان مكث محمد بن عبد الله من حين ظهر إلى أن قتل شهرين وسبعة عشر يوماً..»[٣].

**المنصور: مكر ونكر ودهاء**

كان المنصور قد عزم على بناء بغداد في السنة التي خرج فيها محمد وإبراهيم، وقد

---

(١) الطبري: ج٤ ص٤٤٥، والكامل في التاريخ: ج٥ص ١٦٠.

(٢) الطبري: ج٤ ص٤٤٦.

(٣) الطبري: ج٤ ص٤٥٤.

توقف عن بنائها عندما وصلته أخبار الثورة في المدينة وذهب إلى الكوفة يدير المعركة بنفسه، ويستعد لها بمواهب الشر التي جبل عليها، فقد كان «حشو ثياب هذا العباسي لمكر ونكر ودهاء»[١] على حد تعبير أحد معاصريه، فاستنفر كل أعوانه وجواسيسه لكشف تحركاتهما خصوصاً بعد أن ترك إبراهيم مكة وقدم العراق، ودخل البصرة بعد أن مر بالموصل والأنبار وبغداد والمدائن والنيل وواسط وبعد معاناة ومخاطرات تعرض فيها لخطر الوقوع بيد أبي جعفر.

أحصى ديوان إبراهيم في البصرة أربعة آلاف وشهر أمره، وكان ماضياً في إكمال استعداداته عندما فوجىء لإعلان محمد ثورته في المدينة، وهو الأمر الذي أقلقه لأنه لم يكن مستعداً بعد للمواجهة النهائية مع الدولة التي تتفوق عليه كثيراً)[٢]... وقد بادر أبو جعفر لإرسال الجند للبصرة حالًا.. وقد اختارهم من جند الشام لعداوتهم القديمة لأهل العراق، وقد قصد بذلك أن يروع الناس ويكسر معنوياتهم، كما بادر إلى حظر التجول ومنعه في الكوفة وقتل عدداً من أهلها اتهمهم بموالاة إبراهيم وضيق الخناق على الناس فيها ليمنعهم من الالتحاق به وسد الطرق المؤدية للبصرة.

كان العراق كله- فيما يبدو- موالياً لإبراهيم، وكان أهله مستعدين للانضمام إليه عند أول إشارة منه، وكان حتماً سينتصر بهم، لو لم يعبىء أبو جعفر أعوانه وقواته ويستنفر كل إمكاناته لمحاربته.

---

(١) الطبري: ج٤ ص٤٦١، والكامل في التاريخ: ج٥ص ١٦٨ وما بعدها.

(٢) ووردت رواية أخرى ذكرت: «لما ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن وغلب على مكة والمدينة، وسلم عليه بالخلافة وجه أخاه إبراهيم بن عبد الله إلى البصرة فدخلها في أول يوم من شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة فغلب عليها» الطبري: ج٤ص٤٦٨.

**الإستيلاء على البصرة**

استولى إبراهيم على البصرة وانتصر على القوات العباسية التي كانت هناك والتي أرسلت لمقاومته ودارت عدة معارك كانت الغلبة فيها لأصحابه وقد امتدت حركته لتشمل الأهواز وفارس وواسط حيث أصبحت كلها في سلطانه[١] وخرج معه «جماعة من الفقهاء وأهل العلم»[٢]...

**مواجهات حتى رحيل إبراهيم إلى باخمرى**

وأرسل أبو جعفر جيشاً ضخماً إلى واسط قيل أنه كان يضم عشرين ألف مقاتل وكانت بينهم وبين أصحاب إبراهيم وقعات عديدة لم تنته إلا بعد أن شخص إبراهيم إلى باخمرى.

«ولم يزل إبراهيم مقيماً بالبصرة بعد ظهوره بها، يفرق العمال في النواحي ويوجّه الجيوش إلى البلدان، حتى أتاه نعي أخيه محمد، وأخبر الناس بقتل محمد، فازدادوا في قتال أبي جعفر بصيرة»[٣]... وكان أبو جعفر في غاية الحرج وكان عرشه في مهب الريح عرضة للإنهيار إذ لم يبق في معسكره إلا الفا رجل، «ما كان في عسكر أبي جعفر كثير أحد ما هم إلا سودان وناس يسير وكان يأمر بالحطب فيحزم ثم يوقد بالليل فيراه الرائي فيحسب أن هناك ناسا وما هي إلا نار تضرم وليس عندها أحد»[٤] وقد استدعى قائده في المدينة بعد انتهاء المعركة هناك وقتل محمد وضمه إلى قواته التي كانت تقاوم إبراهيم.

---

(١) الطبري: ج٤ ص٤٦٩.

(٢) الطبري: ج٤ ص٤٦٨.

(٣) الطبري: ج٤ ص٤٧١.

(٤) الطبري: ج٤ ص٤٧١.

**عرش العباسيين معرض للإنهيار**

كان ملك العباسيين معرضاً للإنهيار والسقوط وكان أبو جعفر يقاوم تلك الريح التي كانت تهب عليه من البصرة وواسط والأهواز وفارس والمدائن والسواد، بضراوة وعنف وقد تتابعت عليه الفتوق والخروق والعساكر المحيطة به مائة وألف سيف كامنة له بالكوفة بإزاء عسكره الضعيف ينتظرون به صيحة واحدة فيثبون[١]...

فالمعركة كانت معركة بقاء ووجود، إما أن يحصل أبو جعفر على كل شيء أو يفقد كل شيء ويفقد حياته أيضاً، فجيش إبراهيم أصبح قوياً وديوانه أحصى مائة ألف..

كان هوى البصرة والكوفة كليهما مع إبراهيم، وكان هو يستولي على البصرة ويقيم فيها، أما الكوفة فكان يقيم فيها أبو جعفر، الذي لم يسر إليه بنفسه وأرسل إليه بعض قواده وبقي هو فيها يراقب تحركات أهلها ليقمع أقل تحرك مشبوه ضده. ولو أنه سار في الجيش لمقاومة إبراهيم لانقلبت عليه الكوفة وطوقته من خلفه بعد مسيره، وهذا ما أدركه.. أما إبراهيم، فلو أنه أقام بالبصرة وأرسل جيشاً لمواجهة جيش أبي جعفر- وهذا ما اقترحه عليه بعض قادته- لأتيحت له فرصة أكبر للنصر، لأن مسيره ترك البصرة خلواً من القيادة الرئيسية المتمثلة به، وانهزامه أمام جيوش الدولة أو مقتله - إذا ما حصل ذلك- سيقطع الأمل نهائياً بالحصول على النصر ثانية، قال له بعض قواده من أهل البصرة: «أصلحك الله إنك قد ظهرت على البصرة والأهواز وفارس وواسط فأقم بمكانك ووجه الأجناد فإن هزم لك جند أمددتهم بجند وإن هزم لك قائد أمددته بقائد فخيف مكانك واتقاك عدوك وجبيت الأموال وثبتت وطأتك..»[٢].

أما الكوفيون فقد كانوا يرون ضرورة أن يكون هو على رأس الجيش الذاهب

(١) الطبري: ج٤ ص٤٧٣.

(٢) الطبري: ج٤ ص٤٧٣.

للكوفة، لأن من شأن ذلك أن يقوي معنويات أهلها ويدفعهم للالتحاق به، قالوا له: «إن بالكوفة رجالا لو قد رأوك ماتوا دونك وإلا يروك تقعد بهم أسباب شتى فلا يأتونك فلم يزالوا به حتى شخص...»[١].

ويبدو أنه كان غير مرتاح لذلك إلا أنه قد أراد أن يسترضيهم.. وقد أتيحت له فرصة بيات أصحاب أبي جعفر ليلًا ومهاجمتهم وهم لا يشعرون إلا أنه رفض ذلك مفضلًا المواجهة العلنية المكشوفة.

**الحريجة في الدين في مواجهة الغدر والمكر**

كان إبراهيم يتحرج مما لا يتحرج منه أمثال أبي جعفر، وكان منطقه الرسالي وحريجته في الدين تجعله في موقف يتيح لعدوه الماكر الذي لا يتورع عن اللجوء إلى أي أسلوب يراه مناسباً لدعم مركزه وقوته، للتغلب عليه. مع أن إبراهيم كان أكثر جنداً وفي موقف قوي.

ولعل تلك الأسباب جعلت بعض أنصاره وقادته يتمادون في فرض آرائهم ووجهات نظرهم التي غالباً ما تكون غير صائبة مما جعل عدوه يتفوق عليه في النهاية...

رفضوا أن يرسلوا رسولًا منهم للكوفة لكي يدعو إلى إبراهيم سراً ثم يجهر بعد أن يقوى أمره، بحجة أن ذلك يجعل المنصور يرسل خيلًا فيطأ البريء والنطِف والصغير والكبير...!

ورفضوا أن يخندقوا على أنفسهم بحجة أنهم أقوى منهم وظاهرون عليهم..!

ورفضوا الذهاب إلى الكوفة حيث مقر المنصور، بحجة أنه في أيديهم متى أرادوه..!

---

(١) الطبري: ج٤ ص٤٧٣.

ورفضوا أن يصفّوا جيشهم كراديس، فإن انهزم كردوس ثبت كردوس فأبوا إلا القتال صفاً.

أما إبراهيم نفسه فقد رفض ثانية أن يبيت أحدُ قادته أبا جعفر قائلًا إنه يكره القتل[1]... ولو كان أبو جعفر مكانه لما تورع عن أية وسيلة تتيح له التغلب على خصمه، فمن يريد الملك ينبغي عليه أن لا يكره القتل ولا يتجنب الحيلة والمكر والغدر.

**في باخمرى**

وفي باخمرى، وهي على ستة عشر فرسخاً من الكوفة- التقى جيش إبراهيم وجيش أبي جعفر بقيادة عيسى بن موسى، وفي الجولة الأولى من المعركة، إنهزم جيش العباسيين ولم يبق مع عيسى سوى عدد قليل من أصحابه. وقد عاد المنهزمون من وراء ظهر جيش إبراهيم بعد أن لم يستطيعوا عبور نهر عميق اعترضهم، فكر أصحاب إبراهيم عليهم، وحسب من كانوا بمواجهتهم أنهم فروا من القتال فعادوا لقتالهم ثانية وارتفعت معنوياتهم... وقد قيل أن أعداء لإبراهيم قدماء من آل طلحة، وهم أعداء ألداء لأهل البيت عليهم السلام، قد شقوا الماء عليهم، فاصبح أهل عسكره مرتطمين في الماء، فانهزموا أمام عدوهم الذي بدأ يستعيد قواه ويستجمع شمله ولم يبق مع إبراهيم سوى عدد قليل قيل إنهم كانوا خمسمائة وقيل أربعمائة وقيل إنهم كانوا سبعين.. وقد اشتد القتال «وجعلوا يقتتلون يومهم ذلك إلى أن جاء سهم عائر لا يدرى من رمى به فوقع في حلق إبراهيم ابن عبد الله فنحره فتنحى عن موقفه فقال أنزلوني فأنزلوه عن مركبه وهو يقول: ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا**﴾ أردنا أمرا وأراد الله غيره فأنزل إلى الأرض وهو مثخن واجتمع

---

(١) تحدثنا في هذا الكتاب عن الأسباب التي تدعو الثوار الرساليين للامتناع عن الغدر وقتل أعدائهم غيلة، عند استعراض أحداث الكوفة بعد دخول مسلم بن عقيل إليها وقبل توجه الحسين عليه السلام إلى العراق.

عليه أصحابه وخاصته يحمونه ويقاتلون دونه..»[١]، فشد عليهم أصحاب عيسى بن موسى فقاتلوهم أشد القتال حتى أفرجوهم عن إبراهيم، وخلصوا إليه فحزوا رأسه.. و«مكث منذ خرج إلى أن قتل ثلاثة أشهر إلا خمسة أيام»[٢]...

**غلبوا عدوهم ورجعوا فظنهم انهزموا!**

وقد قيل: «لما انهزم أصحاب عيسى تبعتهم رايات إبراهيم في آثارهم فنادى منادي إبراهيم: ألا لا تتبعوا مدبرا فكرت الرايات راجعة ورآها أصحاب عيسى فخالوهم انهزموا فكروا في آثارهم فكانت الهزيمة»[٣]...

إنقلبت موازين تلك المعركة في طرفة عين، فبينما كان بعض المنهزمين من جنود الدولة يصلون الكوفة وكان المنصور يعد عدّته للهرب منها، أنهى ذلك السهم العائر المعركة بعد أن أصاب من إبراهيم مقتلًا، وانتهت تلك الثورة الكبيرة التي كادت أن تطيح بالعرش العباسي الناشئ.

وكانت حصة البصرة من عقوبة (المنصور) لا تقل عن عقوبة المدينة، حتى أنه أمر عامله عليها أن يفسد ثمرها، وعزله عندما تلكأ في ذلك، وولى من قدم إليها فعاث فيها فساداً.

**الثورة الحسنيّة استمدت روحها من الثورة الحسينية**

كانت ثورة محمد ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم تستمد من ثورة الحسين الأولى بوجه الظلم والانحراف، روحاً قوية شجاعة ترفض السكوت والمساومة، رغم أن دولة

---

(١) الطبري: ج٤ ص٤٧٦، والكامل في التاريخ: ج٥ص ١٧٤ وما بعدها.
(٢) الطبري: ج٤ ص٤٧٦، والكامل في التاريخ: ج٥ص ١٧٤ وما بعدها.
(٣) الطبري: ج٤ ص٤٧٦، والكامل في التاريخ: ج٥ص ١٧٤ وما بعدها.

الظلم الأولى تلك قد اندحرت وحلت محلها دولة ظلم أخرى ترفع شعارات مغايرة إلا أنها ظلت امتداداً لها وظلت تعزز ممارساتها التعسفية الجائرة.. وبدت خطورتها من خلال الشعارات البراقة المضللة التي رفعتها والتي من شأنها أن تخادع جماهير المسلمين بحقيقتها، لولا التصدي الحازم منذ البداية لها من قبل العصبة الشجاعة من آل البيت ومن وقف معهم من جماهير المسلمين، ولم يكن هؤلاء بالقليل، ولم يكونوا ليثوروا دون بصيرة أو وعي ودون أن يجدوا الدوافع الحقيقية لذلك.

إن أعداداً كبيرة من آل الحسن وآل الحسين عليهم السلام، والتي اتخذت لها مكانة مرموقة بين المسلمين بفضل انتمائهم للرسول صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وقرابتهم من بقية أئمة أهل البيت الآخرين، قد انخرطت في حملة مقاومة مستمرة وقيادة ثورة دائمة لمقاومة الظلم والبغي والعدوان، مهما كان شكل الظالم ومهما كانت أشكال البراقع والأغطية التي حاول بها ستر عيوبه وجرائمه واعتداءاته على الأمة المسلمة، وإذ اصطف هؤلاء سوية مع المسلمين الواعين من القراء والفقهاء والعلماء من ذوي البصيرة والسداد من أهل المدينة والكوفة والبصرة وغيرها، وكانوا قادة للثورات المضادة لكل توجه فرعوني استبدادي، فقد دل ذلك على عمق شعورهم الصادق بالمسؤولية الرسالية تجاه الأمة ودل على أحقيتهم وصواب توجههم الثوري المضاد لكل فرعون تنغل به الأيام ويتطاول على حكم الله وشريعته.

**استغلوا الاسم لعزل الشيعة عن بقية المسلمين**

ولئن قيل في فترة ما- للتقليل من شأن السائرين بركاب الثورة المضادة للظلم- إنهم من الشيعة، ولم يُقصد بذلك إلا عزلهم عن بقية المسلمين واعتبار أن لهم قضايا وطموحات خاصة تختلف عن قضايا بقية المسلمين، فإن سعة أعدادهم وتوزعهم في أقطار شاسعة من البلاد الإسلامية وانضمام فئات معروفة بأنها ليست من الشيعة إلى

صفوفهم، جعلت بعض المؤرخين السائرين في ركاب السلطان وبعض مزوري التاريخ وحاملي أطروحات الدولة ووعاظها والسائرين بركابها، يتخبطون مرة أخرى فيطلقون عليهم لقب الزيدية مرة، ويخترعون لهم أسماء أخرى منسوبة لأشخاص وفرق ادعوا أنها من الشيعة أيضاً، بل حتى لقد ذهبوا إلى حد إلصاق مختلف التهم بمذهب أهل البيت عليهم السلام الذي تبلور فيما بعد في عهد الإمام الصادق عليه السلام وسمي بالمذهب الجعفري تمييزاً له عن المذاهب الأخرى التي ظهرت في ذلك الحين... ولئن كان ذلك المذهب يمثل التوجه الإسلامي الأول الصحيح الذي أرسى دعائمه رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، والذي يمثل الصيغة الحية الوحيدة التي من شأنها أن تحمي الإسلام من الضياع والاندثار وتحفظه من التلاعب والتزوير.. فإن أمراً واحداً ينبغي أن يحملنا على الوثوق به والاعتماد عليه، وهو حَمَلتُه من أئمة أهل البيت عليهم السلام الثقات العلماء الذين شهدت لهم الأمة بالعلم والاستقامة والعدالة... وكان من شأن حملهم لعلوم الرسول والقرآن أن تجعلنا على ثقة بأن أيديَ أمينة قد أوصلته إلينا سالماً من كل تزوير أو تحريف، إضافة إلى الأمور الأخرى التي تجعلنا مطمئنين إلى صحة توجهاته العامة وتطابقها مع القرآن والسيرة والعقل، وقدرته عل البقاء والديمومة ومواجهة كل مشاكل الحياة ومتغيراتها.

### الزيدية: خط موال لأهل البيت عليهم السلام منذ البداية

ولئن قيل عن أولئك الذين وقفوا مع زيد عليه السلام وابنه يحيى الحسينيين ومحمد وأخيه إبراهيم الحسنيين، بأنهم من الزيدية، فإنه ينبغي أن لا يتبادر إلى أذهاننا ان فرقة جديدة من الشيعة قد ظهرت، وأن هذه الفرقة قد أوجدها زيد نفسه وأنه قد عزل نفسه عن بقية السائرين على خط أهل البيت عليهم السلام وأسماهم (الرافضة) كما راح بعض المؤرخين يذكرون في كتبهم، رغم أن هذه الفرقة كانت مجرد خط من الخطوط الموالية

لأهل البيت والسائرة على دربهم، ورغم اشتهارها بعد ذلك ببعض التعاليم الأخرى المغايرة للمذهب الجعفري في بعض الفروع والجزئيات. فقد رأى بعض من رغبوا في التقليل من شأن الحركات المناوئة للعباسيين بوجه خاص (وصمهم) بتلك التسمية في محاولة أخرى لعزلهم عن بقية الجماهير، واعتبارهم كجهة من الجهات المعروفة بالنكد والمشاكسة وحب الخلاف والثورة كالخوارج، وأن لهم توجهاتهم الخاصة التي تختلف عن توجهات عموم المسلمين.

**التوجه الزيدي الثوري لم يكن مذهباً مستقلا**

التوجه الزيدي في البداية لم يكن يعني مذهباً يستمد أسسه من أبي حنيفة أو غيره، فأبو حنيفة لم يكن يوجه زيداً أو يقوده وإنما كان أحد مؤيديه قبل أن يلتحق بركب السلطان، ولئن وجد ذلك السلطان العباسي مصلحة بإيجاد ثغرة بين مؤيدي زيد الحقيقيين وأولئك الذين تخلوا عنه، وبين أولئك الذين أصروا على تبني مواقف أهل البيت وتشريعات الإسلام الحقيقية وأولئك الذين وقفوا خلف أئمة مجتهدين أربعة، ثم عمل على إغلاق باب الاجتهاد إلى الأبد. وكأن الأمة لم يعد فيها من هو قادر على التفكير والدراسة واستنباط الحكم الشرعي، ثم راح هو نفسه يؤيد هذا المذهب أو ذاك في محاولة منه لضربها جميعاً وايجاد نوع من الموازنة بينها يتيح له التفوق عليها، فإنه لم يكن ليفعل ذلك حرصاً منه على مصالح المسلمين وحمايتهم من الأخطار والفرقة، وإنما لحماية مصالحه وامتيازاته وسلطانه هو...

**التوجه الزيدي كان يعني التوجه المناهض للظلم**

التوجه الزيدي كان يعني التوجه المناهض للظلم والانحراف الثائر بوجهه.. ولئن نُسبَ من أراد نصر الحسين عليه السلام في ثورته والأخذ بثأره بعد وفاته ومن سار على

خطه إلى التشيع باعتبار أن الشيعة لها مفاهيمها وخصوصياتها المختلفة عن توجهات عموم المسلمين! فإن هذا الغمز الخبيث الذي يراد من ورائه عزل هذه الطليعة الرسالية المستعدة للتضحية والثورة عن بقية الأمة وإقناع هذه الأمة بأن هذه (فئة) ليست منها، فإن نسبة من أراد نصر الثوار من آل البيت إلى (الزيدية) أريد منه التقليل من شأن الثائرين بوجه دول الظلم باعتبار أن هؤلاء الزيدية مجرد أتباع أحد المذاهب الشيعية العديدة والكثيرة...! مع أن الإسلام واحد، ولا يصح تقويم صحة أحد المذاهب بكثرة المسلمين إليه، كما لا يصح تصنيف المسلمين على أساس اجتهاداتهم في بعض الأمور المتعلقة بالأداءات الطقوسية وبعض المسائل المتعلقة بفروع الدين.

ولئن وجد العازفون على نغمة الخلاف والمذاهب فرصة كبيرة في لفت أنظار المسلمين عن قضاياهم الحقيقية وأتاح ذلك لهم فرصة للتغلب عليهم والوقوف على رأس السلطة دائماً، فإن على المخدوعين والمتضررين من أبناء الأمة أن يبحثوا عن الدوافع الحقيقية التي تجعل من دولة الظلم المنحرفة أصلًا تدعي تبنيها لهذا المذهب أو ذلك وحبها له واستعدادها للوقوف إلى جانبه في (معاركه) وخلافاته مع المذاهب الأخرى خصوصاً مع المذهب (الشيعي)، ولا نقبل الجعفري أو الزيدي الموالي للثائرين من آل محمد عليهم السلام فتعمل على تحطيم أو تحجيم كل توجه من هذا القبيل، قد يلفت نظر الناس إلى ممارسات هذه الدولة البعيدة عن الإسلام جملة وتفصيلًا.

حمل زيد ويحيى ومحمد وإبراهيم وغيرهم على امتداد الأيام، أيام الأمويين أو العباسيين أو بعدهم أرواح أولئك الرجال الذين وقفوا مع الحسين عليه السلام... وقتلوا دونه مستبسلين فرحين... ولئن كانت شرارة تلك الثورة الأولى أصبحت غير قابلة للانطفاء أو الاندثار، فإن الحملة المضادة لها ازدادت ضراوة وتعددت أساليب دولة الظلم الفرعونية لحجبها عن أنظار الأمة بمختلف الحجج والذرائع، إذ كيف لا يعمد أي

فرعون من الفراعنة المتأخرين على محاربة تلك الثورة المضادة لفرعون آخر مشابه لهم، أقام حكمه على نفس الأسس التي أقاموها هم وأقاموا عليها (شرعيتهم) ووجودهم ودولهم.

غير أن ما يريد فرعون طمسه وإبعاد الأنظار عنه، لا يمكن أن يظل كذلك، ولا يمكن أن لا يلتفت الناس دائماً إلى الدوافع التي جعلت أشرف الناس وأكثرهم وعياً وعلماً يقدمون على التضحية بكل شيء، رغم أن الفرص متاحة أمامهم للحصول على مختلف المكاسب والامتيازات في ظل أية دولة لو كانوا يريدون ذلك.

إن ثورات عديدة قد حدثت أيام العباسيين، وإذ أننا لا نؤرخ لها في هذه الدراسة المحددة، إلا أننا نلاحظ فيها روح الحسين ونور الحسين وملامح أصحاب الحسين... وما كان لدولة الظلم أن تتمادى إلى أبعد حد وأن لا تدعي انتماءها للإسلام وحبها له واستعدادها للدفاع عنه في ظل الأوضاع التي يتواجد فيها الثوار الرافضون للظلم الموالون للإسلام.

**استعدادات للدجل والخديعة**

وإذا ما اطلعنا على خطبة ألقاها المنصور في أهل خراسان في محاولة منه لاستمالتهم وكسب ودّهم، أدركنا أية استعدادت كبيرة للدجل والتزوير كان يقدم عليها أولئك الذين يمهدون لملك فرعوني عقيم وأدركنا دوافع (المؤرخين) الآخرين الذي يسيرون في ركابهم لقلب الحقائق وتشويهها، وعرض أكاذيبهم وتلفيقاتهم على أنها هي الحقائق والوقائع الصحيحة...

إن المنصور يعرض نفسه أمام أهل خراسان كإنسان مظلوم معتدى عليه، من قبل أولئك الذين وجّه إليهم أشد سهامه وسيوفه ومن قبل أولئك الذين نالهم بظلمه

واستهدفهم بالشر والعدوان واستهدفتهم عائلته من بعده طيلة عشرات السنين، وهم أهل البيت عليهم السلام، ولم يكتف بتوجيه الطعون والنقد الكاذب والافتراء المتعمد لمن عاصروه وكان يحتمل أن يطيحوا بعرشه وحسب وإنما استعرض تاريخ الأئمة السابقين ابتداء من أمير المؤمنين عليه السلام، وكأن حياتهم سلسلة من الأخطاء والاندفاعات العفوية غير المدروسة.. وهذا النقد، إن كان يوجه من إنسان حسِبَ نفسه من هذه العائلة وادعى انتماءه إليها، فإن فعلها المدمر وتأثيرها السلبي على من قد يخدع بظواهر الأمور وشهادة (الأهل) التي لا بد أن تكون (صادقة وبريئة)، سيمتد ليضلل أجيالاً عديدة من المسلمين، خصوصاً وإن فراعنة آخرين سيجدون فيها مادة دسمة لتعزيز أطروحاتهم بخصوص أهل البيت، وأحقيتهم (هم) بالحكم باعتبارهم ممثلين لسلطان الله في الأرض يسوسونهم بتوفيقه وتسديده! وحسب، لا بمنهجه ودستوره وقوانينه، وإنهم يمثلون مشيئته وإرادته[1]... وكأن وحياً مباشراً من الله ينزل عليهم خاصة ويوجههم

---

(١) من الطريف أن نرى هنا أن المنصور قد أعلن عن انحرافه صراحة أمام أهل بغداد، وإن غلّف ذلك بأسلوب اعتمد الدجل والتزوير وذكر الله، في محاولة منه لخداعهم وتهديدهم والإيحاء إليهم بأنه هو المصدر الوحيد للقوة والسلطان ما دام الله قد وفقه وسدده وألهمه.. قال لهم يوم عرفة: «.. إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده. وأنا خازنه على فيئه، أعمل بمشيئته، وأقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه. قد جعلني الله عليه قفلًا، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فيئكم وأرزاقكم فتحني، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني، فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه، إذ يقول تبارك وتعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا**﴾ المائدة: ٣ أن يوفقني للصواب ويسددني للرشاد، ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم ويفتحني لأعطي، وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم، إنه سميع مجيب» الطبري: ج٤ ص٥٣٣ وواضح من إشارته للآية الشريفة ونزولها أنه يريد تضليلهم بشأن نزولها بعد بيعة الغدير وولاية أمير المؤمنين عليه السلام، ويجعل نفسه في صف أولئك الذين نصبوا العداوة له وأنكروا كل فضائله.. ولا تخفى دوافعه لذلك والتي أراد بها توهين وإضعاف أهل البيت عليهم السلام والخط الموالي لهم.

ويخاطبهم... وكأنهم قد ألهموا العلم وألفهم وإلا فكيف يوفق الله عبد الخليفة! إذا لم يكن يعمل بكتابه وشريعته.

إن فرعون أكثر وعياً وذكاء هنا من سابقه الذي قال لقومه صراحة ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ فهو يقول هنا: أنا عبد الله، غير أنه اختصني بكل شيء دونكم وتنازل لي عن سلطانه وقوته، وهذه مشيئته وليس لكم الحق في مناقشتها، وإلا فإني أنا الذي سيقدم على معاقبة من يفعل ذلك.

**الخط الأموي والخط العباسي متلازمان متوازيان**

ولو أن معاوية استمع لخطبة المنصور تلك لنام محبوراً قرير العين، فقد جاء من يكمل مهمته ويسير على منهجه في التزوير والتضليل وقلب الحقائق والكيد للإسلام والمسلمين...

قال المنصور لأهل خراسان بعيد أخذ عبد الله بن الحسن وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته:

«يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام فيها علي بن أبي طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه ثم قام من بعده الحسن بن علي فوالله ما كان فيها برجل قد عرضت عليه الأموال فقبلها فدس إليه معاوية إني أجعلك ولي عهدي من بعدي فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غدا فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ثم قام من بعده

الحسين بن علي فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والإغراق في الفتن أهل هذه المدرة السوداء وأشار إلى الكوفة فوالله ما هي بحرب فأحاربها ولا سلم فأسالمها فرق الله بيني وبينها فخذلوه وأسلموه حتى قتل[١]، ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة وغروه فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه وقد كان أتى محمد بن علي فناشده في الخروج وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال له إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب وناشده عمي داود بن علي وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وأتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة[٢]..[٣]

ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان لهم ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا واصار إلينا ميراثنا عن نبيناﷺ فقر الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها

(١) تطرقنا في هذه الدراسة إلى أسباب صلح الحسن مع معاوية أما الزعم بتزوجه النساء الكثيرات فلا داعي للرد عليه لأنه من مفتريات الأمويين والعباسيين على السواء.

(٢) ومن الواضح أن المنصور يردد هنا المزاعم الأموية والمعادية لأهل البيت ومنها (انخداع) الحسين عليه السلام بأهل الكوفة وأنه أخطأ بخروجه وعرض نفسه للقتل دون مبرر..! كما أن المنصور هنا يهدد الكوفة ويجعلها أحد الأهداف المقصودة بظلمه كما فعل الأمويون...

(٣) استعرضنا في هذا الفصل أسباب ثورة زيد بن علي عليه السلام، ومن الواضح أن العباسين حاولوا ثنيه عن ثورته لأن نجاحه كان يعني القضاء على طموحاتهم بتسلمه السلطة، ذلك الأمر الذي كانوا يخططون له قبل ثورة زيد بزمن طويل، وقد لجؤوا إلى أساليب مشابهة لأساليب الأمويين أنفسهم لمواجهتهم والقضاء عليهم وهي الأساليب التي رأوا أنها الأمثل والأصح.

وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبغيا لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وآله.

جهلا عليَّ وجبناً عن عدّوهم لبئست الخلّتان الجهلُ والجبنُ

فإني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة بلغني عنهم بعض السقم والتعرم وقد دسست لهم رجالا فقلت قم يا فلان قم يا فلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا إليهم تلك الأموال فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين.

ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾(١).(٢)

**اللهجة التظلمية.. يلجأ إليها الطغاة لتضليل شعوبهم**

كانت اللهجة التظلّمية التي غلّف بها خطابه تتضمن أكاذيب مكشوفة تعرض على أناس كانوا بعيدين عن مسرح الأحداث الذي ذكر أنها وقعت فيه، والذين كانوا يميلون إليه وقد اتخذ منهم شيعة وبطانة بمختلف أساليب الدجل والكذب.

فهو في الوقت الذي يحاول التقرب فيه من أهل خراسان، يحاول إثارتهم وتحريضهم على أهل الكوفة باعتبار أنهم سبب كل المصائب التي حدثت لأهل البيت، وهنا يحاول أن يوحي إليهم بأنه وعائلته العباسية مشمولون بتلك المصائب أو المشاكل التي سببها

---

(١) سبأ: ٥٤.

(٢) الطبري: ج٤ ص٥٣٤- ٥٣٥.

أهل الكوفة، كما أنه كان يحاول إثارتهم على أهل البيت عليهم السلام باعتبار أنهم سبّبوا مشاكل لآل العباس، وعندما خرجوا على الأمويين وثاروا عليهم، ولولا ذلك لكانت علاقة العباسيين بالأمويين جيدة..

كان خطابه يمثل تهديداً آخر يطلقه عميد الأسرة العباسية، كذلك الذي أطلقه معاوية عميد الأسرة الأموية من قبل! لقد أراد أن يري أهل الكوفة أنه يعتبرهم عدوّه الأول وأنه سيعمد معهم إلى أشد الأساليب وأكثرها قسوة وصرامة... كما أراد أن يرى المسلمين كافة أن أعداءه هم العلويون الذين يريدون منافسته وسلبه السلطة، حسداً له وبغياً منهم عليه.

كما أنه باستعراضه الأساليب التي لجأ إليها بدسه عيونه وجواسيسه بين صفوف مناوئيه، يحاول الإيحاء للجميع بأن أية حركة معادية مهما كانت خفية ومهما حاول أصحابها التستر عليها وكتمها، لن تغيب عنه وأنه مطلع على كل شيء.

كان يبدو بمظهر صاحب الحق المظلوم الذي اعتُديَ عليه وأراد أعداؤه سلبه حقه (الشرعي) بالخلافة. وهكذا يفعل كل أولئك الذين يعمدون إلى أساليب البطش والقسوة عندما يريدون التنكيل بخصومهم وضربهم دون أن يتقيدوا بقانون أو بشريعة إلا قانونهم وشريعتهم هم.. ذلك الذي يضمن بقاءهم على كرسي الحكم وا لسلطان.

كان منطق المنصور هو منطق من سبقه من الطغاة، كما أنه منطق من جاء بعده منهم... ففرعون لا يرى إلا حقه المطلق ولا يرى إلا هواه ورغباته ومصالحه. يرى أن الدنيا قد خلقت من أجله والاكوان تدور في فلكه وأن الله- إن كان لا بد من الاعتراف بوجوده وسلطانه- قد تنازل له عن كل ذلك الوجود وذلك السلطان واختصه هو دون العالمين به، وإذا ما كان قد أنزل ديناً وشريعة وضوابط وقوانين، فليست لكي يطبقها

ويلتزم بها هو، بل لكي يطبقها ويلتزم بها الآخرون، بل ويلتزمون بالحدود التي يرى أنها لا تتعارض مع مصالحه وامتيازاته.

**إن كان لا بد من الدين فليكن في خدمة فرعون**

فرعون يرى وجوب تطويع الدين- إن كان لا بد من وجوده- ليكون الدين الذي يريد، يحذف منه ما يتعارض مع رغباته ويضيف إليه ما يتوافق مع تلك الرغبات.

ولئن أرسى فرعون سابق منتم لهذا الدين أساساً للانحراف، فإن اللاحقين جعلوا الانحراف قاعدة وأساساً.. وهكذا جاء العباسيون فيما يمكن أن نسميه (الانقلاب العباسي) فأخذوا (سوابق) بني أمية في عالم السياسة، على أنها أصول مرعية، بل أضافوا إليها من عند أنفسهم إضافات..

لقد رأينا أن خط الانحراف الذي بدأ مع الأمويين[1]! قد زاد انحرافاً، وأضيفت إليه إنحرافات جديدة، وإن الحكومة والمجتمع كليهما زادا بعداً عن الإسلام بدرجات متفاوتة...[2].

لم يعادِ العباسيون الأمويين إلا لأن حياتهم ووجودهم مرهونة بهلاك وموتِ هؤلاء، أما أسلوبهم في الحكم ونظرتهم إلى (الملك) الذي آتاهم إياه (مالك الملك) دون الخلق أجمعين! وحقهم في القيادة والحكم والسلطان، فقد حذوا فيه على أثرهم حذو النعل بالنعل مستغلين قرابتهم برسول الله ومدَّعين أنهم أهل البيت الذين طهرهم الله تطهيراً.

ولم يعد أحد منهم يقبل فكرة أن يتولى آخر غيره زعامة الناس، حتى ولو كان

---

(١) تحدثنا في غضون هذا الكتاب عن بداية خط الانحراف، وقد كان قبل الأمويين دون شك.

(٢) محمد قطب: كيف نكتب التاريخ الإسلامي: ص ١٢٥/ ١٥٣.

هذا الآخر عباسياً أيضاً.. وكان كل فرد منهم يسعى ليكون ولده هو خليفة من بعده. ولئن شهدت الساحة أحداثاً ساخنة تصدى فيها العباسيون للعلويين بمختلف وسائل العنف.. فقد شهدت تصدي العباسيين للعباسيين، وقد أجبر العديد منهم ممّن كانوا ولاة للعهد وأخوة وأقارب، على التنازل لابن الخليفة، لأن هذا الابن سيضعها في ابنه. أما إذا أعطاها لأخيه فإن هذا سيورثها ابنه، وشتان ما بين الابن وابن الأخ.

إن ثورات عديدة حدثت على امتداد تاريخ الحكم العباسي، ومهما يكن من أمرها وأمر القائمين عليها، فإننا نستطيع أن نقول عن تلك التي حدثت بدافع عقائدي مبدئي، أنها كانت تنتصر للاسلام، لأنها كانت ترى أنه ينتهك ويعتدى عليه... وسواء اعتقد القائمون بها أنهم سينتصرون في معاركهم العاجلة أم سيلاقون نفس مصير الثوار الذين سبقوهم، فإن ذلك لم يكن ليثنيهم عن خوض معاركهم ضد أعداء الإسلام الذين يعاصرونهم والذين يحتكرون السلطة والمال وكل شيء دون المسلمين ويسيرون فيهم سيرة الفراعنة الأولين، وإن كانوا يدّعون أنهم يعبدون الله أيضاً، غير أنهم جعلوا أنفسهم وكلاء له وظلًا في أرضه وأرباباً من دونه، وطواغيت يتسلطون بالقهر والإرهاب على رقاب الناس.[١]

فقد كانت ثورة الحسين عليه السلام وإقدامه على الموت لمواجهة أعنف هجمة شرسة على الإسلام بقيادة يزيد، تلوح أمام الثوار على مر الأزمان، ويرى من ينجح منهم بالالتحاق بموكب أصحابه وأنصاره أنه قد حقق أمله الكبير وفاز فوزاً عظيماً، ولئن استغلق أمر هؤلاء الثوار على أفهام الآخرين فإن وضوح منطقهم الخارق عندما ينصرون للإسلام

---

(١) يعرّف الإمام ابن جرير الطبري ((الطاغوت)) في تفسيره بقوله: «هو كل طغيان على الله فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شيء» - تفسير ابن جرير الطبري: ج٣ ص١٩ ط ٣ سنة ١٩٦٨ مكتبة البابي الحلبي بمصر.

ويقفون إلى صفه يخرس من لا يفهم الإسلام فهما صحيحاً، كما يخرس كل من آثر العبودية والاستسلام في ظل الطواغيت والفراعنة، وأنى لميت أن يقوم كما يقوم الأحياء الأصحَّاء..!

## ١٣- نتائج قائمة

### ثورة الحسين بمواجهة دولة الظلم على الدوام

أثبت الحسين عليه السلام بثورته إمكانية تحدي دولة الظلم ومجابهتها وعرقلة مشاريعها الإنحرافية ومساعيها الدؤوبة لترسيخ حكمها الفرعوني، رغم التفاوت الكبير في الإمكانات بين الثائرين والسلطة.. وكانت تلك الثورة إعلاناً واضحاً للأمة كلها في كل وقت وفي كل ظرف لتدرك أن عليها أن لا تهادن دولة الظلم رغم كل ما قد يقتضيه ذلك من تضحيات قد تصل حد الاستشهاد وتقديم كل عزيز وغالٍ، وقد ضرب بإقدامه الباسل مثلًا حياً يشخص أمامها باستمرار، وأرادها أن تقدم على ما أقدم عليه- بالقلة القليلة من أصحابه- إذا ما أحست بظهور بوادر الانحراف والظلم وأن لا تقف مرعوبة أمام جيوشها وأعوانها وما تبديه من ضروب القسوة والعنف.

ولو أنه هادن الدولة الأموية بقيادة يزيد ووضع يده في يده وبايعه، لكان قد أعطى الإشارة الخضراء لعموم أبنائها على مر الأزمان ليضعوا أيديهم بأيدي الظالمين والمنحرفين، دون أن يعيروا الإسلام وقيمه أية أهمية، ولأدّى ذلك إلى أن ينسى حتماً ويوضع على الرفوف كأثر غابر من آثارها[1]... ولكان قد تحمل المسؤولية التاريخية أمام هذه الأمة باعتباره رائد الاستسلام والصلح المهين الذي فتح الباب على مصراعيه لكل استسلام أو صلح مماثل، ألم يكن ذلك الذي سيحدث لو أنه بايع يزيد وقبع سعيداً بالسنوات الباقية من حياته وبما سيعود عليه استسلامه من فوائد ومكاسب شخصية،

---

(١) تحدثنا بإسهاب عن هذا الموضوع وتناولناه بعنوان (الحسين عليه السلام ومسؤولية الثورة).

وألا نرفع نحن عقيرتنا بالصياح، محتجين على كل من يريد إيقاف عجلة الظلم، بموقف الحسين من يزيد لو أنه بايعه وقبل به خليفة وممثلًا لرسول الله صلى الله عليه وآله نفسه..؟

أراد الحسين عليه السلام تصحيح معادلة الخلافة التي جاء بها القرآن الكريم، والتي دخلتها عناصر غريبة وحولتها من شكلها الرباعي(١) القائم على عقد إلهي ملزم وقائم على أساس الإسلام جملة وتفصيلًا، إلى صيغة أباح فيها الحاكم لنفسه العودة إلى الفرعونية المطلقة وجعل من نفسه إلهاً من دون الله وقيماً على الناس لإرادة خاصة كرست لتعزيز مصالحه وحكمه.

وقد أوضحنا في الفصل الأول الأسس التي تقوم عليها معادلة خلافة الإنسان على الأرض، وكيف أن أي إخلال بها يجردها من الشرعية ويجعلها غير جديرة بحمل اسم الإسلام بأي حال من الأحوال. وهذا الإخلال قد تم فعلًا، إذ حولت هذه الخلافة إلى ملك عضوض مطلق وكأنه أنزل على (الخليفة) خاصة كهدية مباشرة من الله، وكأن الرسول صلى الله عليه وآله كان حلقة زائدة لم تعد الحاجة تمس إليها ما دامت تتعارض وتوجهات الخليفة الملك، وما دامت تعاليمه وسنته قد أهملت بشكل تام وعطلت حدود الإسلام نهائياً ولم يلتزم إلا ببعض الأشكال العبادية المظهرية.

إن تحريم الحلال وتحليل الحرام بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية على حد تعبير رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله لأمير المؤمنين، يعني رفض المنهج الإسلامي في الحكم والحياة ما دام لا ينسجم مع مصالح الحاكم ولا يحققها.

**إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح لايعني التهالك على الحكم والسلطة**

ولا تعني محاولة إعادة الخلافة إلى مجراها الشرعي الصحيح، تهالكاً على الحكم

---

(١) وقد تحدثنا عن ذلك أيضاً مستندين إلى أطروحات الشهيد الصدر قدس سره.

والسلطة وحباً لها، كما تبادر إلى أذهان الكثيرين ممن صدقوا معاوية وأجهزته وأبواق دعايته. أو الذين كانت مصالحهم تقتضي تصديقه، مع أنه كان في الواقع أكثر المتهالكين عليهما كما أثبتت ذلك وقائع التاريخ، فقد رفض أمير المؤمنين عليه السلام بشكل حاسم أن يتسلم الحكم إلا على شريطة العمل بكتاب الله وسنة رسوله وعلمه هو عليه السلام، كما اشترط على الجماهير التي بايعته بعد مقتل عثمان في إجماع للصحابة لا مثيل له في تاريخ المسلمين، وكما صرح بعد ذلك أمام جمع حاشد منهم.. «**اللهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَان، وَلَا الِتمَاسَ شيءٍ مِنْ فُضُولِ الحُطَامِ، وَلكِنْ لِنَرِدَ المَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الإِصْلاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ المَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ المُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ...**»[١] وكما صرح أيضاً في عدة مناسبات.

ولو أن الحسين عليه السلام- وهو ممثل علي عليه السلام وخليفته- أراد الوصول للسلطة وحسب لتتاح له فرصة الحصول على المكاسب التي تحققها، لكان قد هادن يزيد ومعاوية قبله، وسلك إليها نفس الأساليب التي سلكاها إلى أن تتاح له فرصة الوثوب، وربما كان بذلك قد أرضاهما إلى الحد الذي قد يقبلان فيه بتقسيم تلك السلطة وربما حصل على موافقة يزيد ليكون ولي عهده.

وإذ أن وسائل الإعلام ظلت بيد الأمويين، ومن بعدهم بيد العباسيين، فإن تهمة السعي لنيل السلطة- حباً بها- والتي وجهت للحسين كما وجهت لأبيه من قبل، أريد بها تضليل الأمة بشأن مساعيه الحقيقية، وهي التصدي للانحراف وإيقافه بكل طريقة ممكنة وفي مقدمتها القتال إن كان لا بد من ذلك والتعرض للشهادة.

وقد رأينا زيف هذه التهمة وعدم صحتها بل وسخافتها، لأن ما أراد الحسين بلوغه، هو وضع صاحب المسؤولية الأول (وهو هنا نفسه) أمام مسؤولية لتحملها

(١) نهج البلاغة- تحقيق د. صبحي الصالح- دار الكتاب اللبناني- ص ١٨٩.

بشكل تام، فلم تكن مطالبته بحقه إلا لكي يؤدي واجبه.

فهذا الحق، ليس حقاً شخصياً مجرداً يحق له التنازل عنه هكذا دون سبب وفي كل ظرف، وإنما هو حق مكرس له شخصياً وبوصية من رسول الله عليه أن يتحمل آثاره ويقوم بواجبه تجاهه وهو حق لا يتيح له إمتيازات خاصة من الأموال والترف- وهو الشيء الذي لم يفكر به بأية حال من الأحوال- بقدر ما يحمّله من مسؤوليات عديدة صعبة لا يستطيع غيره تحملها والنهوض بأعبائها والتزاماتها.

**حق للحسين عليه السلام أم حق للأمة..**

فعزمه على المطالبة بحقه لا يعني أنه يتهالك على الكرسي والعرش والمغانم الخاصة ومنافسة يزيد على حياة الترف والمكاسب الشخصية، بل كان يعني أنه يريد إعادة الأمور إلى نصابها وتصحيح مسار الخلافة الإسلامية التي تشوهت وزورت في عهد معاوية ويزيد لتعني مغنماً شخصياً وملكاً خاصاً، كما رأينا في الفصلين الأولين، وكان ملزماً أن يضحي (بالخليفة) في سبيل (الخلافة)، وبإمام الأمة الإسلامية في سبيل الأمة الإسلامية.

لقد جعل موقف الإمام الحسين العديد من المتسلطين والمتخلّفين بالقوة وبحد السيف، بعد أن وجدوا أن مصير من سبقوهم كان مصيراً أسود، وأن دولهم قد مُحيت وزالت بسبب الظلم والانحراف المعلنين- يقفون موقفاً حذراً في تعاملهم مع الأمة المسلمة، ويحاولون استمالة الناس إليهم بمختلف الطرق المتاحة ومنها التظاهر بالعدالة والتحيز إلى جانبها، والوقوف إلى جانب المظلومين والفقراء ومنحهم بعض المكاسب وبعض أشكال الحرية التي لا تمس مصالحهم وامتيازاتهم. لقد جعلهم يخافون نزع أثوابهم وبراقعهم وأغطيتهم الإسلامية التي لبسوها استرضاء لهم وكسباً لودهم.

إن الصحوة الإسلامية المتجددة، تستلهم على الدوام أحداثاً ورموزاً مؤثرة، ظهرت في تاريخ الأمة الإسلامية، ولن تكون تلك الأحداث والرموز مجرد أشياء حدثت فألقت ظلالًا باهتة أو آثاراً فاترة على مجرى التاريخ وانتهى أثرها، بل أن معطياتها تتجدد على مر الأزمان.. ولعل الذي يستلهم من معارك الإسلام الكبرى كبدر وأحد وحنين والخندق وغيرها، عزماً وقوة متجددين، لا يفوته أن يستلهم من معركة الطف ورموزها قوة دافعة مضافة، ويرى في الرجال الذين قاموا بها نفس أولئك المجاهدين الأوائل الذين قادهم رسول الله والذين أرسوا دعائم الإسلام وكيانه رغم قلتهم وضعف إمكاناتهم الظاهرة، فلم يثنهم ذلك عن مواجهة عدوهم، كما لم يثن الحسين وأصحابه عن مواجهة عدوهم أيضاً.

أعادت الطف بدراً، ورأى الناس في أصحاب الحسين في الطف، أصحاب رسول الله في بدر، ورأوا أن بدراً يمكن أن تتجدد وتحدث في الطف وغير الطف.

وهكذا كان الأمر فعلًا رغم تسلط الظالمين وجبروتهم وتنوع أسلحتهم وأساليبهم، فقد رأينا من وقف مع فئة قليلة من أصحابه وأنصاره، وربما وحيداً ايضاً بمواجهة دولة ظالمة بكل أجهزتها القمعية وقوتها وجبروتها، وقد حسب أنه يكمل فصلًا من فصول بدر والطف وأنه يقوم بدور لا يقل عن دور المشاركين فيهما.

### مبدأ التوحيد لا يقر النهج الفرعوني

إن مبدأ التوحيد الذي حاولت الديانات السماوية ومنها الإسلام، ترسيخه لدى الناس يعني نسف كل أنواع الشرك والعبودية لغير الله وخصوصاً ذلك الشرك الذي يجعل طائفة من الفراعنة والطغاة أرباباً من دون الله أو ممثلين لإرادته ومشيئته، هذا إذا تنازلوا واعترفوا به ووجدوا أن اعترافهم به يحقق لهم ما لم يتحقق للفراعنة الأوائل ذوي

الخبرة والذكاء القليلين.

وليس مبدأ التوحيد مجرد فكرة منفصلة عن الواقع، وإنما هو مبدأ متكامل، تقوم على أساسه سلسلة من الفعاليات المتجانسة تنسجم مع هذا الواقع بشكل عام، ولا يقوم على أساس رفض الأصنام الحجرية التي نصبت آلهة للناس يعبدونها لكي تقربهم إلى الله زلفى وحسب. فتلك الأصنام كان لها صنّاع من البشر، كما أنها نصبت لإرادة بشرية خالصة، ووجد أولئك الذين نصبوها من حاكمين وكهنة مصلحة في ذلك لأن من يتوجه إليها بالعبودية والطاعة، إنما يتوجه إليهم هم، وهكذا كانت الأصنام الحجرية حلقة مفيدة في مصلحة الأصنام البشرية.

ولو أن من نشؤوا في ظل الإسلام، ووجدوا أنفسهم (خلفاء) وحكاماً، رأوا أن الناس لا تزال تعتقد بمثل تلك الأصنام الحجرية، لما توانوا عن الإكثار منها وإحكام صنعتها وهياكلها لضمان إخضاعهم، غير أن مرحلة الخضوع للأحجار قد انتهت ولا بد من وجود بديل لها، وإذ أن الإسلام يرفض كل ألوان العبودية والشرك، فإن ديناً ممسوخاً يحمل من الإسلام اسمه وشكله وبعض مظاهره وشكلياته، يمكن -إذا ما زورت العديد من أحكامه وتعليماته- أن يعوض عن ذلك الحجر ويحقق مصالح فرعون الجديد ذي الخبرة والدهاء والأعوان والمستشارين.

هل يمكن القول إن معاوية أو المنصور يستطيعان إقناع الناس بالرجوع إلى عبادة الأصنام ليقفا هما من ورائها يتلقيان فروض الطاعة والولاء...؟ وهل لا يجد فرعون مهما تسمى، من الإسلام الحقيقي عائقاً حقيقياً أمام مساعيه وطموحاته...؟ وألا يكون الطريق الوحيد لتحقيق أطماع وطموحات الفراعنة الذين ولدوا في عهد الإسلام وفي ظله، تزوير هذا الدين وتطويعه ليكون آلة في أيديهم...؟ أليس ذلك الذي فعلوه؟

**رفقاً بالعقل البشري**

إن نظرة على (الأحاديث) المزورة التي تحث على طاعة الحاكم (ولي الأمر) وإن كان فاسقاً أو مفضولًا وعدم الخروج عليه لأن ذلك يعد خروجا عن الإسلام وأحكام الله! والتي تنسب لرسول الله صلى الله عليه وآله بشأن عدالة الصحابة جميعاً وإن كانوا لم يرو ولم تكن لهم صحبة حقيقية معه، نسبت فضلًا وكرامات لبعض من كانوا أشد الناس كرهاً وعداوة للاسلام ورسوله صلى الله عليه وآله ونزعت الفضل من أقرب مقربيه وأحرصهم على دينه ورسوله صلى الله عليه وآله بل وذهبت حد إدعاء عدم عصمة الرسول صلى الله عليه وآله والتشنيع عليه بروايات وقصص مزورة، والذهاب إلى حد القول إن أهل البيت الحقيقيين الذين وردت شهادة بعصمتهم من الرجس وطهارتهم في القرآن الكريم وهم رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، هم ليسوا هؤلاء، وأنهم آل أبي سفيان، كما ادعى الأمويون ذلك عندما كانت الأمور مستتبة لهم، وأنهم آل العباس كما ادعى ذلك العباسيون عندما أصبحوا حكاماً على المسلمين. إن نظرة على تلك (الأحاديث) التي أباحت للخليفة الحاكم ما لم تبحه لغيره... تعلن ميلاد دين جديد مزور ينسجم والطموحات الأموية والعباسية وكل طموحات فرعونية أخرى.. ففرعون لا يتنازل بسهولة أو يخضع لإرادة تتعارض مع إرادته أو تتقاطع معها، وقانونه هو هواه ومصالحه.

أحقاً أن قسماً منا لم يدركوا ذلك إلى الآن وأنهم لا يزالون مخدوعين بأكاذيب وافتراءات الفراعنة الدجالين..؟

«فكرة التوحيد، وربط الإنسان بكامل وجوده وجوانب حياته برب واحد أحد، هذه الفكرة، هي القاسم المشترك بين كل النبوات والرسالات التي عاشها الإنسان منذ أن خلقه الله سبحانه وتعالى على وجه الأرض..»[(١)].

---

(١) أهل البيت- التغيير والتجديد في النبوة: ص ٣٨.

وقد أريد لهذا الإنسان من خلال الفهم الصحيح الواعي لفكرة التوحيد أن لا يحسب أن تصرفاته وسلوكه يمكن أن يكونا بمعزل عن معتقده وإيمانه بالله الواحد الأحد القدير، وأريد له أن يفهم أنه بقدر نجاحه في تحقيق أعلى قدر من الانضباط والشعور بالمسؤولية فإنه يصعد درجة في سلم الإيمان، وبقدر نجاحه بتجسيم القيم الإلهية مجتمعة في بناء الروح والجسد والمجتمع فإنه يثبت تفوقه في مضمار الإيمان واقترابه مع الخالق العظيم.

إن القيم الإلهية لم تكن أمراً مجهولًا لدى الناس، وقد تم توضيحها وإبرازها بشكل دقيق وواضح، متقبل وواقعي وممكن التحقيق، في القرآن الكريم والسنة المطهرة.. وكان الالتزام بها هو الذي يحدد الشعور بالمسؤولية لدى كل فرد مسلم، وقد أريد من الجميع أن يتحملوا نصيباً من مسؤولية بناء المجتمع وبناء الأمة، إضافة إلى مسؤولياتهم في بناء أنفسهم وعوائلهم وفق هذه القيم الإلهية التي ترفضها مجتمعات الجاهلية والظلم وتحاربها، مع أنها بالتالي تحاول انتقاء ما يروق لها منها بعد إعادة تشكيلها وصياغتها وإبرازها بصورة أخرى توافق هواها ورغباتها بعد أن تكون قد فشلت بالقضاء عليها.

**كهنة محترفون وراء عرش فرعون**

إن الكاهن المحترف الذي يقف وراء رجل الحكم، يبرز مع كل خطوة متعمدة لطمس المعالم الصحيحة للايمان والتوحيد ويساند من يريد أن يضع نفسه في موقع الربوبية والسلطة المطلقة.

إن خط التوحيد الذي رسّخه الإسلام ورسمه بشكل واضح ونهائي ومنسجم مع الفطرة والتطلع الإنساني والتفكير الإنساني الصحيح، لن يظل فاعلًا ومؤثراً، ينسحب على أمور الحياة العملية ومعيشة الإنسان الصحيحة، ما لم يدعمه شعور كبير بالمسؤولية

تجاه نفسه والآخرين ويحس أنه ملزم بتحملها دائماً إلى آخر لحظة من حياته، وما لم يرافقه شعور واع بالعبودية التامة لله سبحانه وحده دون غيره من المخلوقات الضعيفة، مهما أبدت من ضروب القوة والتعاظم ومظاهر العسف والاستبداد..

إن «خط تحمل أعباء المسؤولية الأخلاقية للدعوة، يعني كون الإنسان بالغاً إلى درجة تؤهله لأن يتحمل أعباء دعوة لها ضريبتها وواجباتها وآلامها وهمومها»(١) أن يتحمل «مسؤولية رسالة لا حد لها ممتدة مع الزمان والمكان»(٢).

إن استمرار تأييده لها ودفاعه عنها ووقوفه إلى جانبها وتضحيته في سبيلها يؤكد فهمه التام واستجابته الحقيقية لها.

**لا بد لخط الرسالة أن يظل واضحاً**

وكان لا بد لخط الرسالة- رغم وفاة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله واختفائه من على الساحة الأرضية- أن يستمر بنفس القوة المؤثرة بقيادة عناصر كفوءة مؤهلة تمتلك قدراً من الفهم والوعي والقابلية على تربية الأمة كلها والتأثير فيها تاثيراً إيجابياً بناء. إن ذلك الخط الجديد لإكمال خط الرسالة الأصيل لا بد أن يكون متصلًا به اتصالًا وثيقاً، يأخذ عنه ويمتد بنفس اتجاهه، وهو خط الإمامة أو الوصاية الشرعية المقيدة بعقد إلهي مبرم واضح الحدود والصيغة لا ينبغي الإخلال به أو الخروج عنه بحجة عدم فهمه أو اقتضاء المصلحة اللازمة لذلك أو بحجة (الاجتهاد) الذي لا يستند إلى أي سند أو قانون أو تشريع إسلامي معروف أو الذي تغلّبه المصالح الخاصة والأهواء الشخصية.

إن هذا الخط مسؤول عن تحصين الأمة وحمايتها من كل انحراف وخروج متعمد

(١) أهل البيت: ص ٤١.

(٢) أهل البيت: ص ٤٢.

عن الإسـلام، ولا بد لمن يتزعم هذا الخط أن يكون متمتعاً بأكبر قدر من الوعي والفهم الاستثنائيين، ولا بد أن يكون مستعداً لتقديم أكبر قدر من التضحية طالما أنه يطلب من الآخرين ذلك وطالما أنه يعلم أن المعركة مع أعداء الإسلام سوف تظل بلا هوادة وتستمر دائماً طالما بقيت النزعات الإنحرافية الشريرة التي لا يرى أصحابها إلا مصالحهم وامتيازاتهم وأنفسهم.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن من يتحملون مسؤولية إمامة هذه الأمة ينبغي أن يكونوا على التصاق وثيق برسول الله ﷺ نفسه، لا من حيث النسب وحسب، فقد حدث أن وقف من الرسالة موقفاً معادياً من كان يمت إليه ﷺ بنسب وثيق، وإنما من حيث الولاء والانتماء المبني على الفهم الشمولي للقرآن ولكل ما جاء به رسول الله ﷺ والاستيعاب الكامل للرسالة والاندماج الكلي بها بحيث لا يرى أمامه إلا مَن أنزلها ولا ينحني أو يخضع أو يستجيب إلّا له وحده.

إن هذه الاستجابة المطلقة للرسالة تستدعي إعداداً خاصاً من قبل الرسول ﷺ نفسه، إعداداً يستمر طيلة حياته بأكملها، كما أنها مرهونة بتسديد إلهي خاص شبيه بذلك التسديد الذي اختص به الأنبياء وخاصة الأولياء.. وإشارات القرآن واضحة بشأن وصاة الرسول ﷺ، كما أن أحاديثه ﷺ بشأن أمير المؤمنين وخلفائه عليهم السلام من بعده لا تحتمل اللبس والتأويل رغم الحملة المنظمة الكبيرة التي قادها معاوية وكل سلالات الحكم التي جاءت بعده لطمسها وتبديلها (بأحاديث) مزورة أخرى استهدفت غرضاً معاكساً لذلك الذي أراده الرسول ﷺ وقد تطرقنا بمزيد من التفصيل إلى التضليل الإعلامي الأموي الذي استهدف أمير المؤمنين وآل البيت عليهم السلام عموماً بالشر والأذى لاستمرار إبعادهم عن مراكزهم الحقيقية التي أُهِّلوا لها تأهيلًا خاصاً من قبل رسول الله ﷺ ثم من قبل وصيه عليه السلام لكي يتحملوا مسؤولية قيادة الأمة على نفس النهج

الصحيح والتصور الواعي الذي أرساه ﷺ وأراد من خلفائه من بعده أن يستمروا عليه..

**الخلافة الإلهية لا السيطرة الفرعونية**

إن مسألة السيطرة على الطبيعة من قبل الإنسان وتوجيهها لصالح العموم، ينبغي أن تظل قائمة على نفس التصور الإسلامي الدقيق، وهي مهمة لا يتأتى للناس كلهم القيام بها بشكل متكافئ ومتساوٍ، بل حسب فهمهم للإسلام واقترابهم منه..

ومع أن طموح الإنسان يظل يتسع لبسط المزيد من النفوذ والسيطرة على الكون والطبيعة، وقد يتطلع إلى آفاق أخرى وكواكب أخرى، فإن هذه السيطرة ينبغي أن لا تظل رهينة بما يراه هذا الإنسان بمعزل عن قانون شمولي ينظم له فعالياته المختلفة ومنها خلافته على الأرض، وينبغي أن يظل الإسلام ماثلًا أمامه، ويظل خط النبوة الناصع المجسد حقاً لحاكمية الإسلام ماثلًا أمامه كذلك لا «لكي يأخذ الإنسان في مجال السيطرة على الكون والطبيعة، وإنما جاءت لتضع هذا الإنسان المسيطر على الكون بالدرجة التي هيأتها لها هذه الظروف- ظروفه الموضوعية- أن تجعل من هذا الإنسان إنساناً فاضلًا مدبراً حكيماً.

ونحن باستقراء تاريخنا المنظور- منذ جاء الإسلام إلى يومنا هذا- لا نجد أي تغيير حقيقي في هذين الخطين، لا في مدى إتساع الوعي التوحيدي عند الإنسان ولا في إتساع التحملات الأخلاقية في أعباء الدعوة.. نعم نجد التغير الواسع جداً في الخط الثالث الذي يعتبر خارجاً عن نطاق عمل النبوة ورسالتها..»[١].

إن هذا التغيير الواسع في هذا الخط، وهو خط سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان

(١) التغيير والتجديد في النبوة: ص ٤٢- ٤٣.

وعلى الكون والطبيعة، ما كان له أن يحدث بهذا الشكل والأسلوب ليكون باتجاه الابتعاد عن خط الإسلام، لو أن الإلتزام بخطي الإيمان والنبوة كما رسمهما الإسلام ورسوله الكريم، ظل على حاله راسخاً.. إن التناقضات والاستغلال والظلم بقيت واتسعت مع اتساع اكتشافات الإنسان وتطور خبرته في السيطرة على المزيد من منابع الثروة والنفوذ.

ولم يكن ذلك ناشئاً عن خلل في التصور الإسلامي وفي التوجه الإسلامي، وإنما نشأ عن إنحرافات لها أسبابها وأبطالها، بدأت في وقت مبكر، أضيفت إليها فيما بعد أغطية من الشرعية واعترف بها كأمر واقع، ونشأت نتيجة حملة منظمة أُلْحِقَت بالإسلام شوائب وزوائد لم تكن فيه، وجعلته يبدو وكأنه كرس لخدمة الأشخاص الذين أتيحت لهم فرصة تبوء السلطة.. وقد بدأت تلك الحملة المنظمة الدؤوبة- كما أوضحنا- منذ أيام معاوية واستمرت بنفس القوة والاندفاع في ظل مختلف الأنظمة الفرعونية المتعاقبة.

وقد كان إيقافها منذ البداية أمراً أسهل منه فيما بعد رغم شراسة الواقفين على رأس السلطة واستماتتهم في الدفاع عن مصالحهم وامتيازاتهم، غير أن الصعوبة الحقيقية تجسدت فيما بعد، إذ اتسعت دائرة المستفيدين الطفيليين من الأنظمة الفرعونية التالية وقويت جبهة المدافعين عن فرعون الذين رأوا أن حياتهم ووجودهم رهينان بحياته ووجوده.

إن ترك محاولات إيقاف الانحراف ومنعه بحجة قوة الجبهة الفرعونية وعدم استعدادها للتنازل أو الاستسلام، لن يعني إلا إتاحة الفرصة أمام المتسلطين لمحو الإسلام نهائياً وطمس حدوده، وهذا ما يجعل مهمة الأجيال اللاحقة في الإصلاح والتقويم أصعب وأشق وأقرب إلى المستحيل..

**السكوت عن الظلم إقرار له**

إن محاولة التصدي للخط المنحرف منذ البداية- كما فعل أمير المؤمنين وأبناؤه من بعده- كانت تستهدف تنقية خط التوحيد من الشوائب والأدران وتخليص الأمة من عبوديات الفراعنة الجدد المتسللين إلى الإسلام والمتسترين وراء أغطيته وشعاراته، كما أنها تشعر من عاصرهم ومن جاء بعدهم من المسلمين أن المسؤولية لا تخصهم أو تخص مجموعة منهم، وإنما تظل ملقاة على الأمة كلها، وأنها لن ترفع عنهم. إنها تشعرهم أن عليهم بذل جهودهم المستمرة سواء نجحت أم لم تنجح، فلا بد من توفر الظروف الموضوعية في نهاية المطاف للنجاح.

لقد أوضحوا بجلاء مسؤولية كل فرد في هذه الأمة والتي عليه أن يتحملها كاملة، أما النجاح وتحقيق الظفر الاكيد، فهذا أمر مرهون بعوامل عديدة وسنن ربانية وطبيعية عديدة عليه أن يمهد لها.. وقد أوضحها القرآن الكريم وأشار إليها الرسول العظيم وأمير المؤمنين وأئمة أهل البيت عليهم السلام بوضوح.

إن إقرار الظلم بحجة عدم القدرة على إيقافه، وتعزيز الإنحراف والوقوف مع المنحرفين بحجة عدم القدرة على التصدي لهم ومواجهة عجلتهم التي قد تبدو ساحقة وقوية بل ومدمرة، أمر غير مسوغ وغير مبرر من وجهة النظر الإسلامية على الإطلاق، لأنه يعني أن الإنسان المسلم قد نقل ولاءه المطلق لله ومنحه لأشخاص مثله، وأنه أصبح لا يعتقد بالله وقدرته ووحدانيته، ما دام يعتقد بقدرة غيره المطلقة.

ما فائدة أن يعلن الإنسان بلسانه اعترافه بربوبية الله المتفردة ووحدانيته وقوته وعدالته، ثم يميل بولائه الحقيقي ويمنحه لمخلوق آخر أعلن نفسه رباً من دون الله وأصدر تشريعاته وقوانينه وأحكامه هو، تلك التي تسهل عليه أساليب السيطرة والنفوذ والاستغلال والعبث، وأصبح يدين له بالعبودية والطاعة التامة في تصرفاته

وأفعاله ويلتزم بحدود قوانينه وتشريعاته ولا يخرج عنها، حتى وإن كانت مناقضة بشكل سافر للقوانين والتشريعات والأحكام الإلهية ومتنافرة معها[(١)]...؟

**الإمام الحسين عليه السلام: أتاح للأمة إدراك مسؤوليتها في مواجهة الظلم والانحراف**

لقد أتاح الإمام الحسين عليه السلام الفرصة للأمة لكي تدرك أبعاد مسؤولياتها في ردع الظلم وإيقاف عجلة الانحراف وعرقلتها مهما كانت النتائج المترتبة على ذلك، وجعلها ترصد بوعي- على مر الأزمنة- أولئك الذين تسنموا مراكز الحكم والقيادة وتراقبهم مراقبة دقيقة وتجعلهم أميل إلى التصرفات الحذرة في سلوكهم الشخصي وفي سياستهم معها.

وقد وقعت عشرات الثورات والأحداث- تطرقنا إلى قسم منها- طوال فترتي الحكم الأموي والعباسي وما بعدهما، وإذ لم يكن بعضها نتيجة مباشرة لثورة الحسين عليه السلام، فإن تلك الثورة العظيمة كانت تلوح وراء معظمها، ولا شك أن معظم الأسباب الحقيقية الكامنة خلفها تعود إلى أن الأمة قد بدأت تتعود رفض الظلم والانحراف والتمادي فيهما وأخذت تعتاد الملاحم الكبيرة التي يقدم فيها أناس دون تحفظ أرواحهم لحماية الإسلام والدفاع عنه، تماماً مثلما فعل أصحاب الحسين في واقعة الطف العظيمة.

---

(١) (في الدر المنثور... روى الترمذي (وحسنه) وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه وغيرهم عن عدي بن حاتم، قال: أتيت النبي وهو يقرأ في سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فقال: **أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا له شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه.**

وفي تفسير ابن كثير: وروى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير- من طرق عن عدي بن حاتِم (أنه) «دخل على رسول الله وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قال: فقلت إنهم لم يعبدوهم. فقال: **بلى! إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم: فذلك عبادتهم إياهم..**».

إن تلك المسؤولية التي تحملها من أبناء الأمة مَن فهم أهـداف ثورة الحسين المنسجمة مع روح الإسلام وتطلعاته الحقيقية لخدمة البشرية، وتصرفوا على أساسها، لا بد أن يتحملها الآخرون ممن سيدركون حتماً طبيعة تلك الأهداف بعد دراستها دراسة واعية مجردة من الهوى والتعصب والتأثر بالتيارات المعادية التي خلقها معاوية وأشباهه ممن سخروا (إسلامهم) لخدمتهم الشخصية وتعزيز سلطانهم ونفوذهم ومصالحهم.

ومن الآخرين الذين لا تخلو منهم الساحة في أي وقت من الأوقات والذين يريدون سرقة مكاسب الأمة وتسخيرها لمنافعهم الشخصية وتقوية سلطانهم ونفوذهم أيضاً، بنفس الحجج والمبررات والأساليب التي لجأ إليها بطل الإنحراف العتيد وغطاها ببراقع وأستار إسلامية براقة لا تمت للإسلام بصلة ولا تتجانس معه بأي شكل من الأشكال.

وإذ أن الأسباب الكامنة خلف مقاومة هؤلاء ثورة الحسين عليه السلام والسعي لتشويهها والتعتيم عليها، لا تخفى، ولها (مبرراتها) بنظرهم، فإن الأمر المحير حقاً – بنظر البعض – قيام بعض من استهدفت الثورة تخليصهم من آثار الظلم والانحراف بمشايعة الظالمين بنفس الحماس الذي يبديه هؤلاء ويبديه كل منتفع سائر بركاب دولة الظلم، غير أن الحيرة تزول متى ما أدركنا عمق الحملة المنظمة لتشويه هذه الثورة والتي ما كانت تتاح لولا السعي المحموم لتجريد الأمة من وعيها وثقافتها وجعلها طبقة من العبيد الرعاع الذين لا يعرفون مصالحهم وحقوقهم ولا يدركون أن هناك ظلماً واقعاً عليهم هم بالذات[1].

### ثورة قائمة

ستظل ثورة الحسين قائمة أمام المسلمين دائماً وفي مختلف الأزمان والظروف،

---

(١) وقد تحدثنا عن هذه الظاهرة عند استعراض أحوال المجتمع العراقي أيام معاوية ويزيد.

تحصِّن الأمة ضد الانهيار الذي تجرُّ إليه رغم إرادتها من قبل القيادات المنحرفة، الذي أخذ إنحرافها طابعه المعلن منذ العهد الأموي وحتى الآن، عدا الفترات القليلة التي حكم فيها بعض من كانوا أقرب إلى الإسلام من غيرهم، وكانت اللمسات الشخصية التي أضفوها على مجمل مسيرة الحكم بصورة عامة باهتة وضيقة يصعب انتزاعها وتشخيصها من بين الركام الهائل للانحراف الذي عاشت الأمة في ظله وتأثرت به وكان ضحية دائمة له بفعل مقصود ومدروس ومنظم ودؤوب.

وطبيعي أن الانحراف الذي أدى إلى طمس معالم الإسلام وتشويه صورته واستغلاله لصالح دولة الظلم، كان سيمتد ويتجذر ويتأصل ويتخذ طابعاً مشروعاً مُتقبلًا مُقَراً من الأمة كلها دائماً لو قدّر له أن يسير على نفس الوتيرة السريعة التي كان عليها خلال الحكم الأموي.

**خطان لإعادة الأمور إلى نصابها: محاولة تسلم زمام التجربة وتحصين الأمة ضد الإنهيار**

وقد عمل الأئمة -منذ وقت مبكر وابتداء من أمير المؤمنين عليه السلام- على إيقاف الانحراف المبكر والمتسارع الذي بدأت آثاره تتضح وتنطبع على ملامح الأمة المغلوبة المقهورة، التي بدأت تتخلى عن مسؤوليتها وتتنازل عن عقيدتها بشكل واضح، وكان عملهم عليهم السلام يسير بخطين متوازيين وبوقت واحد.. «.. الخط الأول، هو خط محاولة تسلم زمام التجربة، زمام الدولة، محو آثار الإنحراف، إرجاع القيادة إلى موضعها الطبيعي لأجل أن تكتمل العناصر الثلاثة: الأمة والمجتمع والدولة.

الخط الثاني: الذي عمل عليه الأئمة، هو خط تحصين الأمة ضد الإنهيار بعد سقوط التجربة، وإعطاؤها من المقومات القدر الكافي لكي تبقى وتقف على قدميها

وتعيش المحنة بعد سقوط التجربة بقدم راسخة وبروح مجاهدة وبإيمان ثابت..»[١].

وإذا ما حاولنا أن نتبين ملامح هذين الخطين في مسيرة الإمام الحسين العامة وثورته على الدولة الأموية اليزيدية، رأينا أنه قد أقدم أمام سمع الأمة وبصرها وأمام ممثلي السلطة وعيونها وجواسيسها على المسير نحو العراق عندما وجد من (يعلن) عن استعداده لمبايعته والوقوف خلفه للإطاحة بالحكم الأموي ورموزه الكريهة.

ومن الطبيعي أن يتهم من قبل السلطات الأموية- كما اتهم أبوه عليه السلام من قبل- بالحرص على الحكم والسلطان لمجرد الرغبة فيهما، وعرضته وسائل الإعلام (كمنافس) لا يتمتع بكل المؤهلات المطلوبة للحكم والقيادة، وأخذت عليه (خطأه) في التصدي للسلطة بالعدد القليل الذي سار معه وظل معه إلى نهاية المطاف.. وذهب مؤرخون (إسلاميون) إلى عرض ثورته وكأنها منافسة عادية بين طرفين متكافئين في الإمكانات والمؤهلات ينتميان إلى أصل رفيع من قريش، (أخطأ)، فيها الإمام الحسين عليه السلام عندما لم يقدّر حجم قوته وسار إلى موت محتم، كما (أخطأ) فيها يزيد عندما أصدر أوامره للقيام بتلك المجزرة المروعة في الطف، وذهب قسم منهم إلى حد تبرئة يزيد منها وإلقاء تبعة ذلك على ابن زياد أو ابن سعد أو شمر- كما رأينا في غضون هذه الدراسة- عندما استعرضنا بعض الآراء التي وردت حول هذه الثورة المباركة التي أقدم فيها إمام الأمة على ذلك التحدي الصاعق الذي لا يزال يهز الأمة ويدفعها للتحرك الإيجابي السريع بوجه كل دول الظلم المتعاقبة- مع أنه- وكما بينا- لو كان يريد الحصول على مكاسب رخيصة وكان مجرد منافس عادي متلهف على الحكم والسلطان وحسب، لكان قد ساوم يزيد وهادنه ووضع يده في يده وأقر انحرافه، ولكان قد حصل على حصة كبيرة من المغانم والإقطاعات بل وعلى مملكة يسعى إليها ويتمناها أي طموح عادي حريص

(١) أهل البيت- دور الأئمة بعد وفاة الرسول: ص ٥٩.

على ما يحرص عليه الطامعون والطموحون والمغامرون العاديون[١]، ولما كان يسير نحو ذلك الاستشهاد المؤكد الذي كان يستهدف تخليص الأمة من قيود الانحراف والشرك الجديد.

**محاولة إعادة التجربة إلى خطها الصحيح**

لقد بينا أن الإمام الحسين عليه السلام لم تكن تدفعه رغبة مجردة لاستلام الحكم، وإنما كانت تدفعه رغبة حقيقية لإعادة التجربة الإسلامية إلى خطها الصحيح وتحصينها من الإنحراف والسقوط، وكان هو الشخص المؤهل والمكلف الأول لقيادة هذه التجربة وحمايتها بما يمتلكه من إمكانات ومؤهلات فريدة لم تتح لغيره، ولم يكن ليندفع بعاطفة أو رغبة مجردة لاستلام السلطة بمجرد أن يشار عليه بذلك ودون دراسة الظروف الموضوعية التي تحتم عليه إعلان ثورته، وقد رأينا كيف أنه لم يثر بوجه معاوية بعد وفاة الإمام الحسن عليه السلام رغم أن العديد من المسلمين دعوه إلى ذلك، مع أنه أعلن رأيه فيه وفي يزيد صراحة ولم يقر معاوية على مبايعته خليفة له وبقي مصراً على موقفه من يزيد طيلة حياة معاوية وبادر بالخروج من المدينة وإعلان ثورته من مكة حالما وصلته أخبار وفاة معاوية.

لقد رأى أن التجربة ستسقط نهائياً وتاماً على يدي يزيد، وأنه سيجعل من هذا السقوط أمراً محتماً، وسيبدو وكأنه الأمر الطبيعي الذي تنتهي إليه الأمور، بل إنه سيمنح السقوط شرعية الوجود إذا ما وضع يديه في يدي يزيد وأقر له بالخلافة والإمامة على الأمة المسلمة.

إنه برفضه الاستسلام والمبايعة، وإعلانه ذلك على رؤوس الأشهاد، وخروجه

(١) تحدثنا عن هذا الموضوع بإسهاب في (الحسين ومسؤولية الثورة) وتطرقنا إلى الدوافع التي جعلته يقدم على الثورة بتلك السرعة وذلك الحسم بعد هلاك معاوية مباشرة..

بذلك الشكل الملحمي السافر أمام أنظار أهل المدينة ومكة وآلاف الحجيج الذين توافدوا من مختلف أقطار العالم الإسلامي لأداء أهم الفرائض المقدسة والالتقاء ببعضهم لتجديد عهدهم مع الله ورسوله صلى الله عليه وآله والبراءة من المشركين ورفع كلمة التوحيد وترديدها بألسنتهم بعد أن ترددت في قلوبهم، يعطي لكلمة التوحيد معناها الحقيقي، فهو يسير لمواجهة صنم جديد صنعته قوى عاتية ادعت انتماءها للإسلام، صنم بشري ضخم لن يقدر له أن يموت وربما سينشطر ويتكاثر إلى مئات الأصنام الجديدة التي ستعلن ألوهيتها، وإن لم تقل ذلك صراحة، وتطلب من الأمة أن تدين لها وحدها بالطاعة حتى وإن تعارض ذلك مع قانون الإسلام وشريعة الإسلام فقانونها وشريعتها هما الأهم والأجدر بالاتباع ما داما يحققان لها الهيمنة على الأمة واستعبادها وإخضاعها وسلب حقوقها ومكاسبها.

إنه يعلن عزمه على تصحيح الأوضاع ومنع استفحال الانحراف واستلام التجربة بنفسه، وبذلك فإنه فوت الفرصة إلى الأبد على الحكم الأموي لإضفاء الشرعية على وجوده، وعزز ذلك استشهاده المريع على عرصة كربلاء إذ نبه الأمة بشكل واضح إلى المخاطر التي تتعرض لها بوجود يزيد خليفة لرسول الله وقائداً لعموم المسلمين، كما فوت الفرصة على كل نظام فرعوني متسلط انتهج الأسلوب الأموي في الحكم والحياة ليدعي شرعية وجوده وأحقيته في الحكم واستلام التجربة الإسلامية بعد تجريدها من مقومات وجودها الحقيقية.

## كشف مسيرة الفراعنة

لقد كشف مسيرة الفراعنة كلهم وعرَّاهم أمام الأمة المسلمة بعد أن أصبح عاملًا مهماً من عوامل تحصينها من الغفلة والانقياد للظلم والانحراف وأوجد لديها القدرة على رصد تحركاتهم وألاعيبهم وادعاءاتهم الجوفاء بالحرص على الإسلام وأمة الإسلام

على السواء، وقد طعّم دماءها بدمه الشريف ليكون عاملًا على أن يكون بكل دم منها قطرة حية متجددة تنقذها من الهلاك والتردي، إذ ما فائدة أن يدعو الناس للتضحية بأموالهم وأنفسهم لمواجهة الظلم والإنحراف والشرك الجديد ويضنّ هو بأمواله ودمه وحياته؟ هل سيكون هناك معنى للشعارات التي رفعها طيلة حياته وآمن بها وأراد غيره أن يؤمنوا بها إذا لم تتجسد بفعل إيجابي واع مؤثر كذلك الذي أقدم عليه بشجاعة منقطعة النظير وكانت حياته العزيزة ثمناً له؟

إنه عندما أعلن رفضه ليزيد في حياة معاوية، فإنه كان بذلك يعلن رفضه لمعاوية نفسه والانحراف الأموي بصورة عامة، وقد أعلن ذلك صراحة- كما بينا- في إحدى رسائله إليه، غير أنه سار بنفسه لمواجهة يزيد والحكم الأموي حينما رأى أن مسؤوليته الاستثنائية كانت تحتم عليه هذا المسير، وقد وضع بذلك أبناء الأمة كلهم أمام مسؤولياتهم وجعل العديدين منهم يندمون لأنهم يسيروا معه ولم يناصروه وتخاذلوا أمام الارهاب الأموي.

ولم يجعل الأمة تدرك مسؤولياتها زمن وقوع حدث الثورة وحسب، بل جعلها تتلمس خطوات تلك الثورة وتتأمل أبعادها ومضامينها ويحاول العديدون من أبنائها التأسي بمن بذل دمه وحياته في سبيلها، وانتهاج خطواته حتى وإن بعدت الشقة وطال الزمن.

### التضحية بالنفس لحماية الأمة

إن إقدام إمام الأمة بالتضحية بنفسه بذلك الشكل النادر، لحماية الأمة وتحصينها من الإنهيار والسقوط النهائي والحفاظ على خط الإمامة والخلافة الذي أقامه رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان هو أول إمام وخليفة أقام حكم الله في الأمة التي أنشأها ورباها، يجعل

الكثيرين يدركون أن الحال قد بلغ مبلغاً سيئاً لا يمكن معه إنقاذ الأمة بمجرد الانزواء في مكان بعيد حصين مثل جبال اليمن، كما اقترح عليه ابن عباس، والاحتجاج من هناك، ورفع العقيرة بالصياح والكلمات الغاضبة الرافضة التي لن تتحول إلا إلى صدى أجوف يتردد بين الصخور، بل لا بد من فعل حاسم وسريع حتى وإن كان الرد عليه عنيفاً وحاسماً وسريعاً أيضاً، فالأمة المستسلمة المخدّرة لن توقضها الصرخات والأقوال، ولا بد من هزة قوية تحرك ذلك الجسد الجامد الذي يوشك أن يتعرض لخطر الموت والاندثار، وإلا ضاع كل شيء إلى الأبد.

وهذا ما فعله الإمام الحسين عليه السلام عندما لم ير بداً من ذلك وعندما رأى أن ما قام به هو الأمر الوحيد الذي يجب أن يقوم به دون إبطاء أو تردد.. وهو ما وضع أولئك الذين اتهموه- كما اتهموا أباه أمير المؤمنين عليه السلام من قبل -بالتهالك على السلطة وحسب متجاهلين عن عمد دوافعه الحقيقية لمقاومة الانحراف الذي بدأ يستشري في أوساط الأمة ومفاصل المجتمع منحدراً إليها من الرؤوس التي تنكرت للإسلام وشنت الحرب عليه وأرادته إسلاماً أموياً يستجيب لرغبات معاوية ويزيد وأمثالهما من الطواغيت الذين تسللوا للاسلام وسرقوا مكتسبات المسلمين التي حققوها في ظله، هو ما وضعهم في زاوية ضيقة وعرَّاهم وكشفهم وجعلهم هم أنفسهم محل اتهام، حينما شنوا حملتهم المكشوفة عليه والتي عرفت دوافعها الحقيقية من قبل الأمة كلها.

وإلا فأية مأثرة حقيقية يمكن أن تذكر ليزيد، وأية مؤهلات تجعله جديراً باحتلال منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وأية صلة حقيقية بينه وبين الرسول صلى الله عليه وآله وهو خليفته وممثله؟ وماذا يمكن أن تجني الأمة من هذه الخلافة المسروقة سوى البؤس والضياع الأبدي والبعد عن الإسلام والعودة إلى الفرعونية والشرك!؟

إن نظرة حقيقية إلى ثورة الحسين تجعلنا ندرك أنها قد فعلت فعلها ولا تزال في

نفوس الكثيرين، وأنها لا تزال تزودهم بعطاءات مستمرة وزخم إيماني قوي قائم على عرى الإسلام الوثيقة وروحه وأهدافه السامية الأصيلة.

**بدون فهم الإسلام لن نستطيع فهم ثورة الحسين**

إننا بدون فهم للإسلام وتصوراته، لن نستطيع فهم ثورة الحسين عليه السلام، كما لن نستطيع فهم الدوافع الحقيقية التي دعت آلاف المسلمين إلى الاستشهاد والتضحية والإقدام على مواجهة القوى الشريرة ذات الإمكانات الكبيرة والتي لا تتورع عن استخدام أشد الأساليب قسوة لمواجهتهم وقمعهم، حاسبين أنهم أقوى من أعدائهم القساة طالما أنهم استطاعوا الالتحاق بموكب أنصار الحسين الطويل الدائم الذي لا ينقطع ولا يعدم من يضع دمه على كفه وأقصى أمله أن يكون منهم ليفوز فوزاً عظيماً كما فازوا هم.

وما دمنا نعالج قضايا إسلامية، فعلينا أن ننظر إليها من زوايا إسلامية وعقلية إسلامية غير متأرجحة وغير مشوبة بنظرات وتصورات وقيم دخيلة غريبة وطارئة على الإسلام.

كان التلاعب بالإسلام وأحكامه ومعالجة القضايا الإسلامية بأسلوب غير إسلامي، أحد أساليب معاوية المفضوحة التي أراد أن يسخر بها من الأمة ومن كل المضحين في سبيلها على امتداد تاريخها القصير لكن الحافل، وقد مد لهم لسانه وكأنه يقول: إن الذي جاء به محمد واستشهد في سبيله حمزة وجعفر وياسر وعمار والاف من شهداء الإسلام أصبح بيدي الآن أتلاعب به كيفما أشاء وأتركه غنيمة باردة لولدي يزيد.

وقد وجد من يصفق له ويرفع عقيرته بالصياح مؤيداً من بين أوساط حاولت أن تفرض لها مكانة مرموقة بين أبناء الأمة من القصاص والوعاظ ومزوري الحديث

والشعراء ومن لف لفهم من بين المغامرين وطالبي الثروة والحكم والجاه.. وإلا ألم يكن خروجه المتعمد عن العديد من أحكام الإسلام الواضحة استهانة بالإسلام واستخفافاً بقدرة الله والرسول المنزل على الخلق رحمة وقدوة؟

هل كان معاوية يعمل من أجل الإسلام حقاً، أم أنه كان يحقق مصالحه ويكرس لوجوده وديمومة حكمه وحكم عائلته من بعده إلى الأبد؟ لقد رأى فقهاء الدولة وموظفوها وقادتها وقصاصوها ومحدّثوها وشعراؤها وأهل الرأي والعقد فيها ما رأى لهم معاوية ويزيد من بعده أيضاً، لأنهم رأوا أن لهم حصة من الغنيمة وأنهم يستطيعون تحقيق المكاسب والأرباح في ظلها أكثر مما يحققونه في ظل أي نظام آخر قد يرونه شديد الوطأة عليهم، غير متساهل معهم، وكانت لهم تجربة سابقة في ظل حكومة أمير المؤمنين عليه السلام، فإذا ما جاء حكم آخر، امتداداً لحكمه، كحكم الإمام الحسين عليه السلام مثلًا فإن فرصة المكاسب غير المشروعة والثروة والجاه على حساب الآخرين ستفوت إلى الأبد وإذا ما عاد الإسلام للسيطرة والنفوذ. إنهم لم يروا إلا أنفسهم ومصالحهم أيضاً، وعودة إلى طبيعة النظام الأموي والقشرة اللماعة التي تغلفه من هؤلاء الفقهاء والوعاظ والقصاصين والمحدثين وغيرهم تثبت أننا لم نجانب الصواب في ذلك.

وإذا ما حاولنا نتساءل: إذا ما كان أولئك قد حصلوا على أرباحهم في ظل النظام الذي أزروه ودافعوا عنه، فما سيجني أولئك الذين يدافعون عنه بعد زواله إلى يومنا هذا بنفس حماس موظفيه ومحدّثيه وقصّاصيه وغيرهم، بعد أن أبيد هذا النظام وأصبح أثراً غابراً من آثار الماضي وصفحة سوداء من صفحات تاريخنا الإسلامي الطويل، ولم يعد يستطيع أن يقدم لهم ما قدم لأعوانه ومؤازريه عندما كان حياً مسيطراً؟ إن هذا أمر محيّر للبعض!

غير أن الحيرة تزول إذا ما علمنا أنهم يعيشون في ظل أوضاع وحكومات لا تختلف

عن تلك الحكومة الفرعونية الأموية الأولى، سواء في العهد العباسي أو غيره، يرى رؤوسها أن يُمجّد أولئك الأمويون ليمجّدوا هم وليستطيعوا ادعاء الشرعية المزيفة كما ادعوه وليقيموا على أساسها كيانهم ووجودهم، ما دام قد أصبح أمراً واقعاً مفروضاً على الأمة كما كان النظام الأموي من قبل.

إن بعض هؤلاء المعاصرين انبهروا ببعض الأسماء القديمة من وعاظ السلاطين الذين رفعت الدولة منزلتهم، ليرفعوا هم بدورهم منزلتها، وانخدعت بأباطيلهم وترهاتهم، ورأوا أنهم ما داموا قد أقروا بشرعية بل بضرورة وجود الدولة الأموية، فإن عليهم هم بدورهم واستمراراً لخطة (السلف الصالح) من هؤلاء (الصحابة) و (التابعين) أن يقروا بشرعية وجودها والدفاع عنها بنفس الحماس الذي دافع به موظفوها الأوائل واستنكار أي خروج أو ثورة عليها، حتى وإن كان الثائر هو الإمام الحسين نفسه، واعتبار ذلك خروجاً على الإسلام، فيروحون يستعملون نفس الأساليب الملتوية والأحاديث الملفقة عن الرسول صلى الله عليه وآله والأقاصيص الغريبة والتاويلات الكاذبة التي استعملها أولئك الأوائل في ظل الدولة الأموية وتحت إشرافها وتوجيهها، ليدللوا على صحة وشرعية بقاء الدولة و (الخليفة) وهم يلمسون ما يقدمه لهم من قصاع دسمة وأصفر رنان وهم يتمتعون بما يقدم لهم.

وإذا ما تتبعنا دوافع بعض هؤلاء رأينا أنها تتعدى الأهداف العادية وكونهم يعيشون في ظل فرعون محلي صغير، وأنهم يعملون لتنفيذ مخططات أوسع يرسمها أعداء الإسلام الذين خلقوا هؤلاء الفراعنة ووقفوا وراءهم يوجهونهم ويرمون بهم الشعوب المظلومة المغلوبة، ولا بد لمواجهة وعي هذه الشعوب من مخططات أكثر استحكاما وفاعلية.. ولا بد من كتّاب و (مفكرين) مأجورين و (وعّاظ) للشعوب يتقوى بهم السلاطين ليكونوا أكثر قدرة على خدمة أسيادهم الكبار فيما وراء البحار..!

## ١٤- نتائج للمستقبل

**إصرار على الشهادة.. إصرار على النصر**

يُدهَش العديد من الكتاب والباحثين وغيرهم، من الإصرار والثبات اللذين مضى بهما الإمام نحو هدفه واللذين طبعا ثورته- في كل مراحلها- بطابعهما الواضح المعروف، رغم أن احتمال الموت كان قائماً بنسبة كبيرة، بل أنه عليه السلام قد أشار في مواقف عديدة إلى أنه كان أمراً مؤكداً[١]، فهو لم يفد على أمر قد مُهِّد له، ولم يسر على بساط من الورود[٢]، ولم يكن يجهل الطبيعة العدوانية الشرسة لأعدائه والتي سيواجه بها إذا ما أقدم على الثورة، ومع ذلك عزم أمره وتوكل وسار، ولمّ تثنه التحذيرات العديدة التي وجهت له ممن يميلون إليه ومن خصومه على السواء.

إن من لا يمتلك تصوراً إسلامياً صحيحاً عن طبيعة النظرة الإسلامية الشمولية لكل أمور الحياة، وعن طبيعة المواجهة التي كان يتعرض لها المسلمون في ذلك الوقت -وفي غيره من الأوقات- لا يسعه أن يستوعب العديد من التصرفات والممارسات الإسلامية التي قد تبدو بنظره دون هدف أو فائدة حقيقية.

إذ كيف يمضي الحسين إلى الموت، وما الفائدة التي خباها من ذلك وهو يعلم أنه قد لا يتمكن من الإطاحة بخصومه أو التغلب عليهم عند المواجهة أو المنازلة..!

---

(١) وقد تطرقنا إلى ذلك بالتفصيل في غضون هذا الكتاب.

(٢) وهذا التعبير الأخير استعمله أحد الكتاب المصريين للتدليل على عدم جدوى مسير الحسين عليه السلام إلى العراق ما دام الدرب كان محفوفاً بالمخاطر...

هذا هو السؤال المحير الذي يطرحه هؤلاء!

وإذا ما عرفنا طبيعة الظروف التي أحاطت بالثورة، ودفعت الإمام الحسينعليه السلام للنهوض بوجه الحكم الأموي اليزيدي المتسلط الذي كان يشكل بداية لسلسلة من أنظمة الحكم المتسلطة الأخرى، أصبح علينا أن نناقش أولئك المندهشين والحائرين، من وجهة نظر إسلامية بحتة، فقد نرى أن من حقهم أن يندهشوا أو يحتاروا إذا ما تناولوا المسألة من وجهة نظر عادية بحتة، أو تعتمد على أحد التصورات القائمة الأخرى، أو وجهة نظر تناقش المسألة وكأنها صراع بين شخصين على السلطة بغض النظر عن مؤهلاتهما والدوافع الحقيقية لكل منهما.

هل كان دافع الحسينعليه السلام إعادة السلطة إلى أصحابها الشرعيين، لأنه كان هو صاحبها الشرعي وحسب؟ وكيف يعمل في هذه الحال على أن يفقد كل شيء بما في ذلك حياته في سبيل شيء هو جزء من حياته؟ أم أن دافعه كان صيانة التجربة الإسلامية كلها من الانحراف والسقوط الذي كانت على وشك الوصول إليه؟

وهل كانت دوافع يزيد لقمع الثورة دوافع إسلامية بحتة تحتم عليه شعوراً بالمسؤولية لتجنيب الأمة الوهن والفرقة والاختلاف، وليحافظ على بيضة الإسلام وراية الإسلام وعز الإسلام، أم أن دافعه كان الحفاظ على عرشه الذي وصل إليه بالقوة والإكراه وسفك دماء آلاف المسلمين؟

لقد أجبنا عن هذين السؤالين في الفصول السابقة بالتفصيل، وعلمنا الدوافع الحقيقية الكامنة خلف ثورة الحسين، والدوافع التي جعلت يزيد يقدم على قمعها بتلك الشدة وذلك العنف الرهيب، بعد أن رأينا من هو الحسين، ومن هو يزيد، ورأينا موقع كل منهما من الأمة، ورأينا طبيعة العقلية والتصورات والفهم التي يحملها كل منهما عن

الإسلام.

**لماذا لم يتراجع مع أنه يعلم أنه مقتول لا محالة**

وإذاً: لماذا مضى الحسين في ثورته ولم يتراجع رغم علمه أنه مقتول لا محالة؟ وكيف انتصر مع أنه قتل؟

وكيف ينتصر مَن يعلم أنه مقتول، ويقدم على ما أقدم عليه الحسين عليه السلام من قبل؟

هذه الأسئلة لا يمكن الإجابة عنها في غياب التصور الإسلامي والفهم الإسلامي اللذين أرسى رسول الله صلى الله عليه وآله قواعدهما بنفسه وحاول أن يربي عليهما جيل الصحابة المعاصر له وعموم المسلمين فيما بعد، ولا يمكن الإجابة عنها من وجهة نظر غريبة عن الإسلام، حتى وإن كانت منسوبة إلى دين (سماوي) آخر، فكلنا نعلم كيف مسخت الأديان الأخرى وحرفت وزورت لتصبح في صالح (قيصر) وتكون أداة بيده لترويض الشعوب وتنويمهاوإسكاتها، ولا يمكن الإجابة عنها من وجهة نظر (إسلامية) لا تفهم من الإسلام إلا أنه تراث حملته الأمة لتطبقه فترة من الزمن ثم أصبح (يتقاطع) مع حياتها، ولم يعودوا يرون فيه إلا بعض الجوانب الأخلاقية والوصايا التي تمنع عن (الرذيلة) وتدعو (للفضيلة) ويرون أن الأجدر به ألا يتدخل في شؤون السياسة والحكم والأمور العامة وقضايا الناس الشخصية.

التصور الإسلامي لخلافة الإنسان يضع بنظر الاعتبار أن هذه الخلافة أمانة من الله، وهي تكليف منه بعقد مشروط لا يجوز الخروج عن أي بند من بنوده، أو الإخلال به. إن المراقبة الدقيقة الكاملة لمتابعة مدى تنفيذ شروط هذه الخلافة تتم من قبل الله العليم القدير نفسه الذي لا تخفى عنه خافية والذي يحيط بكل شيء علماً.. إن ذلك يستدعي أن يكون كل فرد من أبناء هذه الأمة على أعلى مراحل التيقظ والانتباه والقدرة على

المحاسبة الدقيقة لنفسه قبل أن يحاسبه الآخرون وفق المقاييس التي وضعها الإسلام، لا تلك التي وضعها فراعنة الأمة الجدد ليتلاعبوا بمقدرات المسلمين. إن النجاح في تحمل أعباء هذه الخلافة والقيام بمهماتها على الوجه الأكمل وعلى مختلف المستويات هو الذي يتيح له الفوز بالحياة الكاملة النهائية السعيدة، لا في هذه الحياة الدنيا القصيرة وحسب، التي يعد فيها لاختبار قصير الأجل يثبت فيه انتماءه للإسلام وصدق حبه له ورغبته في أن يسود ويحكم كوحدة كاملة غير مجزأة أو مقطعة عن بعضها.

**الثواب والعقاب.. هنا وفي والآخرة**

إن فكرة الجزاء! الثواب والعقاب في الآخرة وفق عدالة الله وشريعته، وهي التي تهيمن على شعور المسلم وعقليته، فتطبعه بطابعها وتجعله على مستوى الأهداف الكبيرة التي يخطط لها الإسلام، لا على مستوى الشوط القصير الذي يحدد به عمره. لو كان الهدف بمستوى هذا الشوط القصير، لتوقف الإنسان عن سعيه لمصلحة الإنسانية، ولأصبحت الحياة الحاضرة بنظره هي الهدف النهائي الذي ينبغي أن يبذل كل جهوده وقواه- ولو على حساب الآخرين وسعادتهم- لتكون حياة طيبة مريحة سهلة له هو شخصياً ولا يهم ما يلحق بغيره من نصب أو دمار.

وغالباً ما تكون الأهداف الجليلة التي يسعى المسلم لتحقيقها، في ظل تصوره وفهمه الإسلامي، أوسع من عمره وأبعد مدى، قد لا يستفيد هو شخصياً من نتائجها ومعطياتها ولا يستطيع تحقيق شيء منها خلال حياته، بل قد يصيبه من الأذى في سبيلها أكثر مما يحققه من فائدة، اللهم إلا تلك السعادة الغامرة التي يشعر بها وهو يعلم أنه يطيع الله بعمله ويتفانى في سبيله.

لو كان هدف الإمام الحسين عليه السلام مرتبطاً بالفترة الزمنية التي كان يعيشها على هذه

الأرض، لما كان قد سعى إلى ما سعى إليه، ولكان قد اكتفى بمغانم عديدة لا بد أن يحصل عليها من يزيد وأشباهه إذا ما وضع يده في يده، ليقضي بقية العمر آمناً سعيداً..! غير أنه ارتبط بهدف أكبر، ألقى عليه مسؤولية كبيرة! هدف يعلم حق العلم أنه لن يستطيع جني ثماره في هذا الشوط الأولي من الحياة، وأن غيره، ربما بعد عشرات السنين أو مئات السنين سيستطيعون تحقيقه وجني ثماره، غير أنه علم أيضاً أنه يخوض اختباراً حاسماً، لا بد أن يثبت فيه صدق انتمائه للإسلام وصدق إيمانه بقيمه كاملة، ولا بد أن يكون في مقدمة الذين يفعلون ذلك بحكم موقعه وشعوره الكبير بالمسؤولية. إنه ينتظر جزاء أكبر من ذلك الذي قد يتاح له على الأرض إذا ما حقق هدفه.

**أراد أن يضع الأمة بمستوى أهداف الاسلام**

لقد أراد الحسين عليه السلام أن يضع المسلمين، والبشرية كلها بعد ذلك، بمستوى الأهداف الكبيرة للإسلام، لأن البشرية إذا أصبحت «على مستوى الأهداف الكبيرة، لأنها انطلقت في غاياتها.. إلى أكثر من حدود هذه الدنيا، حينئذٍ تستطيع أن تقوم بأعباء تلك الأهداف الكبيرة ﴿**وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ**﴾[(١)]، كم من الناس درسوا وماتوا قبل أن يحققوا النتيجة؟ كم من الآلاف المجاهدين خرجوا للحرب واستشهدوا قبل أن يذوقوا لذة النصرة والانتصار؟ كم من الآلاف من المجاهدين والمعلمين طافوا وتحملوا في سبيل مباحثهم من الأذى والظلم والإهانة وماتوا قبل أن يذوقوا لذة الانتصار؟ إن هؤلاء حين خرجوا من بيوتهم، وهاجروا في سبيل الله سبحانه وتعالى وماتوا وسط الطريق، وقع أجرهم على الله، وبذلك انفتح أمام هؤلاء طريق هذه الأهداف الكبيرة، فلا يهم هذا الإنسان القصير العمر أن يموت خلال الخطوة الأولى أو الثانية، ما دام يسير في خط، في أي

(١) النساء: ١٠٠.

مرحلة منه يموت يقع أجره على الله! هنا انفتح طريق الأهداف الكبيرة، انفتح باب أن القيم الخلقية لا معنى لها، ما لم تكن على مستوى الأهداف الكبيرة والجزاء الكبير غير المنظور. والقيم الخلقية من التضحية والفداء والحب والإيثار ونحو ذلك من الأمور، كل هذه انفتح بابها لأنها جميعاً طرق الله سبحانه وتعالى، كل من يمشي في طريق من هذه الطرق، ويموت ويخسر ويبتدىء تجاهها بصدمه يقع أجره على الله سبحانه وتعالى، كل من يضحي فلا يلاقي جزاء تضحيته يقع أجره على الله...».[١]

لقد فتح الإمام الحسين عليه السلام الباب على مصراعيه أمام الأمة ليقوم كل فرد منها بدوره المقرر له على ضوء الإسلام، وجعل أولئك المتصدين للظلم والثائرين والمنكرين للمنكر والجور والاستغلال والظلم يدركون أنهم لم يخسروا حتماً حتى وإن فقدوا حياتهم وأموالهم وكل شيء، وأنهم قد نجحوا في هذا الشوط القصير في هذه الدنيا، وأن فوزهم مؤكد في الآخرة، وأن جهودهم لم تذهب سدى ولم تضع، لقد جعلهم يطمئنون إلى صحة توجهاتهم وأهدافهم، وقد أصبحوا عاملًا من عوامل الضبط والكبح والمعارضة ضد أي تماد أو انحراف أو خرق معلن لأي حد من حدود الإسلام.

## فزت وربّ الكعبة

وقد فتح أمير المؤمنين عليه السلام من قبله باباً كبيراً للجميع، قبل أن تنتهي حياته بضربة غادرة من خارج عن الإسلام عندما قال بتلقائية عجيبة وبكلمات جمعت حصيلة عمره وكفاحه كله: «**فزت ورب الكعبة**»... كان يمكن من وجهة نظر غريبة عن الإسلام، ولو لم يكن عليه السلام قد كرس حياته حقيقة لخدمته وفي سبيله، أن ييتئس وأن يحزن لانتهاء حياته بذلك الشكل الفاجع وضياع جهوده الطويلة التي استغرقت حياته كلها في جهاد أعدائه الذين هم أعداء الإسلام، لو لم يكن يذوب حباً في خالقه ومعبوده وحبيبه، ولو لم

(١) أهل البيت: ص ١١٨ - ١١٩.

يكن هو نفسه إسلاماً حياً متنقلا وقرآناً ناطقاً بحكمة الله وكلماته ومجسداً لكل ما يريده من فعل خير بنّاء.

رأى أنه يستطيع الآن بعد تلك الضربة الغادرة التي أنبأه بها رسول الله من قبل أن يجني ثمار تلك الحياة والجهود المتواصلة في سبيل الإسلام[1] أحسَّ أنه يقبل هنا على الحياة الأخرى الدائمية التي يبدأ فيها الجزاء، وأيقن عندما عرف سلامة سيرته وصحتها واستقامتها على نهج أخيه وابن عمه، أنه قد فاز فوزاً حقيقياً - حتى لقد أقسم على ذلك محبوراً وكأنه كان يبشر نفسه ذاتها بالمصير السعيد- وأنه لم يخسر أبداً.. كان سعيداً أن تنتهي حياته على يد شر خلقه، وأنه استطاع الصمود والثبات طيلة هذه الحياة والوقوف في صف الإسلام وفي مقدمة الداعين إليه والمدافعين عنه وعن المستضعفين والمغلوبين والمقهورين.

لقد أصبح حلماً جميلًا للمسلمين أن يكونوا على بينة من أمرهم خلف راية إمام عادل، ليفوزوا فوزاً عظيماً، حتى وإن كان ثمن هذا الفوز التضحية بحياتهم وبأعز ما يملكون.

أصبح فوز أمير المؤمنين عليه السلام وفوز الحسين عليه السلام من بعده، أملًا لجماهير واسعة من

(١) ذكر عليه السلام عندما قام إليه رجل وسأله عن الفتنة، وهل أخبره رسول الله صلى الله عليه وآله عنها، فقال: «**إنه لما أنزل الله سبحانه قوله: ﴿الم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله صلى الله عليه وآله بين أظهرنا. فقلت: يا رسول الله، ما هذه الفتنة التي أخبرك الله تعالى بها؟ فقال: «يا علي، إن أمتي سيفتنون من بعدي»، فقلت: يا رسول الله، أو ليس قد قلت لي يومَ أحد حين استشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت عني الشهادة، فشق ذلك علي، فقلت لي: «أبشر فإن الشهادة من ورائك» فقال لي: «إن ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذن؟ فقلت: يا رسول الله، ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر..»**» نهج البلاغة: ص ٢٢٠ وقد ألمح عليه السلام عدة مرات وفي عدة مناسبات إلى ما سيصيبه على يد ابن ملجم الخارجي.

المسلمين، لا من أبناء الشيعة وحسب، أخذت تروض أنفسها، وتعدها لتكون بمثل تلك القوة والصلابة التي كانت عليها نفسا الرجلين الكبيرين؛ وإذ أن ذلك لن يتاح إلا لمن بلغ الذروة من الشعور بالمسؤولية تجاه نفسه وأمته، وإذ أن أحداً لن يستطيع الوصول إلى مستوى الرجلين العظيمين، فإن طموحاً دائمياً يظل يراود المسلمين بأن يكونوا بمتسوى أصحابهما الذين وقفوا معهما وقفتهما الصلبة الشجاعة.. ونموذج أصحاب أمير المؤمنين وأنصار الحسين ممكن التكرار والحدوث.. ويمكن لمن يفهم تصورهما ونهجهما ان يقف موقفهما من الظلم والانحراف وأن يكون أحد أولئك الأصحاب والأنصار الشجعان، وإن بعدت الشقة وطال الزمن...

## ١٥- تكوين الطليعة العقائدية

من هي الطليعة العقائدية، وما مواصفاتها، ولماذا الطليعة العقائدية؟ الطليعة العقائدية هي المجموعة من أبناء الإسلام التي تحمله حملًا واعياً قائماً على أساس التصور والفهم السليمين اللذين عبر عنهما القرآن الكريم والرسول العظيم صلى الله عليه وآله والأئمة الراشدون من أئمة أهل البيت عليهم السلام.

هذه الطليعة ترتبط بوشائج من القرابة الحميمة والود العميق القائمين على الحب في الله، مع كل من حمل الإسلام بروحه وضميره وفكره وكرس حياته لنشره والدفاع عنه وتشعر أنهم جميعاً وحدة واحدة توزعت في أجسام مختلفة.. وطن هذه الطليعة الإسلام. وأملها الإسلام. ومستقبلها الإسلام. لا ترى شيئاً إلا وترى الله معه وقبله وبعده وفيه، على حد تعبير أمير المؤمنين عليه السلام.

لا ترى هذه الطليعة في الزمن أو الجنس أو اللغة أو العمر عائقاً أمام التحامها وتوحدها وتوجّهها وحركتها وفعلها.

الطليعة العقائدية لا تخضع لفرعون وأهواء فرعون ولا تنحني لطاغوت أو تهادنه أوتسالمه، ما دام حرباً على الله ورسوله صلى الله عليه وآله ودينه، وإنما ترى فيه عقبة كبرى أمام نهوض الأمة ومستقبلها وازدهارها.

تعرف من تعبد وما تدين به وتعرف أين تضع أقدامها وتعرف ما تريد بالضبط، ليست استجابتها للإسلام استجابة غامضة غير واعية، وإنما استجابة قائمة على فهم

يتمثل سلوكاً وعملًا يبرز الإسلام كفعل محرك مؤثر مليء بالحرارة والحياة، لا كنشاط فكري أو عقلي أو طقوسي أو ميل أو هوى مجرد..

تنتشر الطليعة العقائدية في جسد الأمة كالدم النقي يسري في شرايينها وعروقها فيجدد نشاطها وحيويتها بل وكل حياتها ووجودها.

لا تعرف هذه الطلعية الخوف إلا من الله، وتعرف الحب لله وفيه ومن أجله، تذوب شوقاً إليه ويتملكها الهلع والخوف من خشيته، وترى القتل في سبيله سعادة.

تعمل هذه الطليعة على أن تكون الأمة كلها طليعة لأمم إسلامية مقبلة، ترفل بعز الإسلام وتعيش حياة الإسلام وتحت ظلاله وتفوز بخيره ونعيمه.

لم يكن بد من إعداد هذه الطليعة في البداية على عهد رسول الله ﷺ لكي ينتشر الإسلام، لا الانتشار السطحي المعرض لهبات الرياح وعبث العابثين، ولكن الانتشار العميق المتجذر القوي المثمر، وقد قام هو لإعدادها وتربيتها لتأخذ دورها في توجيه الأمة وتربيتها فيما بعد.

وكان ﷺ يمثل الإسلام أمامها، وقد أرادها أن تبدو بصورته وتحمله حملًا واعياً حقيقياً لتكون نموذجاً حياً شاخصاً متحركاً أمام الأمة كلها..

وقد أرادها أيضاً أن تكمل المسيرة بعده إذا ما اختفى من ساحة الحياة، فمن غير المعقول أن يمتد به العمر إلى ما لا نهاية على هذه الأرض ليقوم هو ﷺ وحده وبشكل شخصي بتبليغ هذه الرسالة لكل الناس على العصور.

ولا بد أن يحملها معه آخرون خلال حياته وبعد وفاته ﷺ أيضاً، ومن الطبيعي أن لا يحمل الجميع هذه الرسالة بنفس القدر من الفهم والوعي والشعور بالمسؤولية! فقد تكون في نفوس البعض ترسبات جاهلية، وقد تطفو على السطح عند أقل إثارة

أو هزة، وقد يكون ذلك في المواقف والأوقات الحساسة والعصيبة التي تشكل مفارق طرق مهمة في حياة الأمة، وقد يكون ذلك سبباً لتعاستها وفقدان أمنها إلى الأبد. وقد لا يكون هؤلاء على نفس القدر من الوعي والبصيرة والفهم ممن لم تدنسهم الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسهم من مدلهمات ثيابها، وعاشوا منذ البداية أنقياء الثياب طاهري الذيل يحملون تصورات وقيم وهموم صاحب الرسالة ﷺ ويرون في مثله الأعلى مثلهم الأعلى الكامل الحي ذي القوة المكين.. وقد أصبح الإسلام أهم جزء من حياتهم، بل كل حياتهم ووجودهم لا يستطيعون الاستغناء عنه، ويرون أن البشرية برمتها لا تستطيع الاستغناء عنه كذلك لأنه المنهج العملي الحي الوحيد القادر على تحقيق سعادتها وإزالة تناقضاتها.. وينعكس بشكل إيجابي على مجالات حياة وعمل الإنسان وتضمن سلامة تصرفاته مع الله سبحانه وتعالى ومع نفسه ومع الآخرين، وتضمن له استقراراً عاطفياً ونفسياً قائماً على تواصل وجداني مستمر مع هذا الدين ومن يحمل هذا الدين.

وبعبارة: إنه إنسان يهيمن الإسلام عليه بشكل تام ويحتل كل مشاعره وتفكيره وحياته.

حاول رسول الله ﷺ تكوين وتربية الطليعة العقائدية منذ قيامه بمهمة نشر الرسالة الإسلامية، وكانت تلك المهمة الوحيدة في العهد المكي قبل أن ينتقل إلى المدينة لإنشاء دولة المسلمين الأولى! كان يريدهم أن يأخذوا الإسلام جملة بعد أن يفهموه ويعوا مبادئه وأركانه العامة. وكان ذلك مقدمة ليتقبلوا كل تشريعاته وأحكامه وقوانينه وفروضه ويرفضوا كل قوانين الجاهلية والشرك.

لقد صممت خاتمة الرسالات الرائعة هذه من قبل العلي القدير، ليؤمن من يؤمن بها عن وعي وإدراك ومعرفة، ولم تكن مجرد تعاليم أخلاقية أو طقوس عبادية تؤدى في حضرة الكهنة أو رجال الدين المحترفين، وإنما هي نظام حياتي متكامل يقوم على

أداء سلوكي متصل ومستمر، وإذ أن المؤمن بها يعلم أن المراقب الذي لا تخفى عليه خافية هو الله الواسع العليم نفسه، فإنه يجعل من نفسه مراقباً آخر عليها كي لا ينزلق أو ينحرف أو يخطئ. إن حسابه الأول والأخير مع الله، وإن انتماءه لدينه انتماء حقيقي لا رياء فيه ولا مصانعة أو مداهنة أو نفاق.

كان رسول الله ﷺ على تماس دقيق وعلاقة وثيقة بأولئك الذين أراد أن يكوّن منهم تلك الطليعة، وقد حاول هو شخصياً أن يتسلم زمام قيادة المجتمع ويدير أموره وينظم شؤونه، وحاول أن يضفي على علاقته بأفراده لمسة شخصية تشعرهم أنه معهم دائماً، وأنهم قادرون على إكمال الشوط الذي بدأه بنفس الأسلوب الذي أراده إذا ما اختفى من الساحة وتوفي. وكانت هذه اللمسة الشخصية تشعر كل فرد من المسلمين بأنه قريب منه وتجعله يتأثر به تأثراً مباشراً، وتجعل الأمة تصل درجة من الحصانة والعصمة تضعها بعيداً عن الخطأ والانزلاق والوقوع في الفتن.

وطبيعي أن مهمة تربية الأمة لم تكن لتتم من قبل رسول الله ﷺ بتلك الكفاءة الفريدة لو لم يسيطر عليها ويهيمن على مشاعرها تلك الهيمنة الأبوية الحبيبة القريبة. وكانت مهمة تربية الأمة، التي لا يزال أغلب أفرادها يعيشون في ظل عقلية تحمل وجهين، جاهلياً وإسلامياً، إذ لم تختف القيم الجاهلية منها تماماً، ولم تتح الفرصة لمن التحق بالإسلام من الطلقاء في عام الفتح وقبيله أن ينبذ عقليته الجاهلية، وربما كان بعضهم لا يريد ذلك وأحنى رأسه أمام الموجة الإسلامية الكاسحة.. مهمة شاقة، ما كانت لتتم دون الاتحاد الشعوري المتعاطف بين الصفوة من أبنائها وقائدهم وإمامهم رسول الله ﷺ، وما كانت مهمة يمكن إنجازها خلال فترة وجيزة، هي البقية الباقية من حياة الرسول ﷺ بل كانت مهمة تستدعي مدة أطول قد تستوعب حياة أجيال بأكملها تكفي لتنقية الجو الإسلامي من كل رواسب الجاهلية وغبارها وعبثها، ومن

غير المعقول أن يكون مَن حمل من تلك الرواسب قدراً كبيراً، بقادر على إنجاز وإكمال مهمة الرسول صلى الله عليه وآله بنفس القدر الذي يستطيعه من تبرأ منها ومن لم توجد في نفسه أصلًا.

لقد تربى أمير المؤمنين عليه السلام في حجر الرسول صلى الله عليه وآله منذ طفولته المبكرة، ولم يحمل أية رواسب أو تصورات جاهلية، فقد كان أول من آمن به وفهم رسالته ووعاها وعاش كل أحداث الرسالة وهمومها كما لم يعشها أو يعيها أحد غيره، وشارك بصنع الأحداث التي وقعت وكانت لها أهمية كبيرة في حياة المسلمين، وكان له حضور دائم وفاعل في كل حدث وقضية مهمة، وقد جعلته قدراته الاستثنائية لفهم الإسلام وشعوره العالي بالمسؤولية يصل درجة العصمة، وكان في كل أموره مسدداً من الله، ولم ير سوى الإسلام وحده جديراً بأن يسيطر ويسود ويهيمن على هذه الحياة. لقد هيمن رسول الله صلى الله عليه وآله عليه بشكل تام كما هيمن عليه القرآن الكريم وتأثر بهما بشكل كلي لا مجال معه لتراجع أو مساومة أو تنازل[1].

وكان هو المؤهل الوحيد لحمل الرسالة حملًا واعياً صحيحاً، وإكمال الشوط وفق

---

(١) وقد قال هو عليه السلام مخاطباً جماعة من المسلمين: «... **وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمِسني جَسَدَه، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل. ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً، أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره. ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل إثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما، ويأمرني بالاقتداء به. ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه، ولا يراه غيري. ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة.**
**ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيِس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي، ولكنك لوزير، وإنك لعلى خيراً.** نهج البلاغة: ص ٣٠٠- ٣٠١.

رؤى وتصورات رسول الله صلى الله عليه وآله ليكمل مهمته في إعداد تلك الطليعة العقائدية من الأمة التي تستطيع شدّها للإسلام وجعلها تنظر إليه نفس نظرة الولاء الصادق التي تنظر بها هي إليه وتمحضه نفس الحب والولاء.

وقد كانت مهمة الأئمة عليهم السلام السير في هذا المضمار. ومع أنهم لم يتسلموا أي منصب فعلي لقيادة الأمة، إلا أنهم لم ينقطعوا عن مهمة هذه القيادة وإعداد الأمة لفهم مسؤولياتها وإدراك واجباتها على ضوء الإسلام.

«.. إن الأئمة عليهم السلام بالرغم من التآمر على إقصائهم عن مجال الحكم، كانوا يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها ضد التردي إلى هاوية الانحراف والانسلاخ من مبادئها وقيمها انسلاخاً تاماً. فكلما كان الانحراف يطغى ويشتد وينذر بخطر التردي إلى الهاوية، كان الأئمة يتخذون التدابير اللازمة ضد ذلك. وكلما وقعت التجربة الإسلامية أو العقيدة في محنة أو مشكلة، وعجزت الزعامات المنحرفة عن علاجها بحكم عدم كفاءتها، بادر الأئمة إلى تقديم الحل ووقاية الأمة من الأخطار التي كانت تهددها. وبكلمة مختصرة، كان الأئمة يحافظون على المقياس العقائدي والرسالي في المجتمع الإسلامي، ويحرصون على أن لا يهبط إلى درجة تشكل خطراً ماحقاً، وهذا يعني ممارستهم جميعاً دوراً إيجابياً فعالًا في حماية العقيدة وتبني مصالح الرسالة والأمة..»[1].

وتمثل موقف الأئمة «في تعرية الزعامة المنحرفة إذا أصبحت تشكل خطراً ماحقاً ولو على طريق الاصطدام المسلح بها، والشهادة في سبيل كشف زيفها وشل تخطيطها

---

(١) دور الأئمة: ص١١- ١٢ وترينا الدراسات العديدة وفي مقدمتها دراسات الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره: وحدة مواقف الأئمة عليهم السلام في هذا المضمار وفي المضامير الأخرى وعملهم في إيقاف الانحراف ومنعه مع أن أساليبهم اختلفت وفقاً لتغير الظروف والأحداث.

كما صنع الإمام الحسين مع يزيد..

وتمثل الدور الإيجابي للأئمة أيضاً في تلك المعارضة القوية العميقة التي كان الأئمة يواجهون بها الزعامات المنحرفة، لإرادة صلبة لا تلين، وقوة نفسية صامدة لا تتزعزع، فإن هذه المعارضة بالرغم من أنها اتخذت مظهر السلبية والمقاطعة في أكثر الأحايين، بدلًا من مظهر الاصطدام الإيجابي والمقابلة المسلحة، غير أن المعارضة حتى بصيغتها السلبية كانت عملًا إيجابياً عظيماً في حماية الإسلام والحفاظ على مُثُله وقِيَمه.

وتمثل الدور الإيجابي للأئمة عليهم السلام في تموين الأمة العقائدية بشخصيتها الرسالية والفكرية من ناحية، ومقاومة التيارات الفكرية التي تشكل خطراً على الرسالة وضربها في بدايات تكونها من ناحية أخرى...»[1].

لقد برز تأثير الدور القيادي للأئمة عليهم السلام بشكل واضح على أفراد عديدين من أبناء الأمة وجعلهم يستجيبون للرسالة الإسلامية استجابة واعية وجعلهم طليعة لجماهير إسلامية أوسع عدداً وأوضح رؤية.

ولذلك كان الحكام يرون في الأئمة وقد استلموا زمام القيادة الشعبية الفعلية خطراً عليهم، وكان لا بد من شن حرب مضادة يتزعمها هؤلاء الحكام للحفاظ على عروشهم.. وقد فعلوا ذلك، ورأينا كيف شنت حرب ظالمة على الأئمة عليهم السلام وكيف حاول أولئك الحكام منعهم من الاتصال بالأمة والتأثير فيها، إلا أنهم فشلوا في ذلك رغم جهودهم الحثيثة ولم يستطيعوا منع الأمة من الاستجابة لهم والسير خلفهم، وبقي الأئمة عليهم السلام – في نطاق مهمتهم الواسعة للحفاظ على الإسلام ومنه الانحراف المتزايد– يسعون باستمرار لتكوين الطليعة العقائدية التي تملك قدراً من الفهم والاستيعاب

(١) دور الأئمة: ص ١٣– ١٤– ١٥.

والتصور يمكنها من حماية الإسلام والأمة.

كان تشكيل فصائل جديدة من هذه الطلائع، الضمانة الوحيدة لتجنيب الأمة خطر السقوط والإنهيار وإبقائها على درجة كبيرة من الانتباه والوعي وتحصينها ضد الانحراف الذي قد تنجرف إليه بفعل مقصود مخطط له وتكتوي بناره وشروره.

«.. إن الأئمة لم يكونوا يرون الظهور بالسيف والانتصار المسلح آنياً كافياً لإقامة دعائم الحكم الصالح على يد الإمام. إن إقامة هذا الحكم وترسيخه لا يتوقف في نظرهم على مجرد تهيئة حملة عسكرية، بل يتوقف قبل ذلك على إعداد جيش عقائدي يؤمن بالإمام وعصمته إيماناً مطلقاً، ويعي أهدافه الكبيرة ويدعم تخطيطه في مجال الحكم ويحرس ما يحققه للأمة من مكاسب.

وعلى هذا الأساس استلم أمير المؤمنين زمام الحكم في وقت توفر فيه ذلك الجيش العقائدي الواعي متمثلًا في الصفوة من المهاجرين والأنصار والتابعين من أصحابه رضي الله عنهم..»(١).

وكما عمل رسول الله ﷺ على ربط الكتلة المؤمنة به شخصياً وجعلها تشعر أنها تنتمي إليه بشكل خاص بغض النظر عن نسبها أو انتمائها القبلي أو العرقي، وحاول تربيتها وإعدادها لتقوم بنشر الرسالة وعدم السماح للقيم الجاهلية بالعودة والانتشار ولو بشكل جديد مموّه، فإن مهمة الأئمة عليهم السلام أخذت نفس هذا النمط فيما بعد.

وقد رأينا إقدام آل بيت الرسالة ممن رافقوا الحسين عليه السلام إلى الكوفة، وكيف اندفعوا دون تردد أو تحفظ عندما رأوا إمامهم وقدوتهم ومربّيهم يندفع للموت عندما رأى أنه الطريق الوحيد لإيقاف الانحراف القوي المتسارع، وقد ظلوا على نفس الدرجة من

---

(١) دور الأئمة: ص٢٢.

الحماس منذ بداية مسيرهم وحتى استشهادهم في ساحة المعركة.. كما رأينا كيف أن مجموعة من أصحابه، رغم أن بعضهم لم يكن على علاقة شخصية مباشرة به من قبل، قد آمنت بصحة توجهاته وضرورة ثورته في ذلك الوقت بالذات وتأثرت به إلى الحد الذي جعلها لا تتردد هي أيضاً عن المضي معه إلى النهاية. وقد فعل آخرون فعلهم بعد ذلك، ساروا على نفس الطريقة، مع أنهم لم يروه، كما سار على نفس طريق الرسول الكريم صلى الله عليه وآله أناس لم يروه من قبل أيضاً.

لقد أفرزت مسيرة الحسين عليه السلام وثورته بوجه الحكم الأموي السائر نحو الفرعونية، مجموعة من أبناء الأمة، منحت ولاءها له، على مر العصور، دون تحفظ أو تردد، بعد أن أدركت أن مسيره كان من أجل الإسلام ومن أجل الأمة، وأنه لم يسعَ لتحقيق أية منافع شخصية، وأنه على العكس من ذلك عرّض نفسه وعائلته لأكبر هجمة شرسة قدّر أن يشهدها المسلمون في تاريخهم بسبب موقفه المبدئي المعلن ذاك وبسبب مواجهته الحاسمة لدولة الظلم.

وكانت تلك الكتلة المؤمنة، وقد أعلنت تشيّعها له، قد قصدت بذلك إعلان تشيعها لرسول الله صلى الله عليه وآله وللرسالة الكريمة المبرأة من التحريف والغش والدجل والتزوير.

ولا نحسب أن أولئك الذين تشيعوا وانحازوا لآل البيت عليهم السلام طواعية وعن وعي، واختاروا أن يسيروا على درب رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، هم نفس بعض أولئك الذين وجدوا أنفسهم ينحدرون بالنسب إليهم ويتبنّون عقيدتهم بالظاهر، إلا أنهم قد جرفوا من قبل نفس تيارات الانحراف التي جرفت أعداداً هائلة من المسلمين الآخرين ممن هم من غير الشيعة، في سياق الحملة المنظمة التي تشن على الإسلام من قبل أعدائه المتمرسين بالعداوة والشر، والتي تستهدف كل طوائف المسلمين دون تفريق بينهم في هذا المجال.

لم يسعَ الأئمةعليهم السلام سعيَ غيرهم للوصول إلى السلطة من خلال أجواء تآمرية أو حيل سياسية كما فعل العباسيون أو غيرهم[١]، ولم يريدوا أن تتبعهم فئة محدودة من الأمة أو تنصرهم لكي يفوزوا بالسلطة والحكم، وإنما أرادوا الأمة كلها أن تتبعهم وتسير خلفهم مقتدية بهم.

الأئمةعليهم السلام هم أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله ونتاج دعوته وتربيته وإعداده والصفوة المختارة المؤهلة لحمل رسالته حملًا واعياً يتصف بأعلى قدر من المسؤولية، ولذا فمن غير المعقول أن يتجهوا إلى شريحة واحدة من الأمة أو طائفة منها لاستمالتها دون سواها لتدين لهم بالولاء الشخصي المجرد لتحقيق منافع أو مكاسب شخصية دون النظر إلى مصلحة الإسلام ومصلحة الأمة عموماً، وذلك اتهام أطلقه خصومهم لصرف الأنظار عن القيادات الفرعونية التي لجأت إلى شتى الأساليب للاستحواذ على الملك وعرضت القضية على جماهير المسلمين كقضية منافسة بين أبناء (الصفوة) من قريش، فاز فيها هذا (الشريف) بينما فشل منافسوه الآخرون.

وحسبنا أن نعيد مقولة معاوية بهذا الشأن- والتي تطرقنا إليها وإلى دوافعها في هذا الكتاب: إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم، فإبني أحق من أبنائهم.

وهي مقولة ماكرة تريد أن تؤكد أن الأمر أمر ملك، وأن هؤلاء (الصفوة) من آل

---

(١) وهو ما جعل العديدين من الكتاب يشيدون بالعباسيين لأنهم نجحوا بالوصول إلى السلطة بأساليبهم المعروفة- وقد تحدثنا عنها في هذا الكتاب- ولو أنهم فشلوا لكانت حصتهم من اللوم والتقريع من قبل هؤلاء الكتاب حصة لا بأس بها.. وننقل نصاً لأحدهم هنا: «.. هنا نجد حركة، أو قل ثورة ناجحة، وهي من أخصب التجارب.. وتدل خطة العباسيين على ذكاء وخبرة بالأمور السياسية والاجتماعية ومعرفة عميقة بنفسية الناس..»- محمد سليمان العبدة: حركة النفس الزكية- دار الأرقم- الكويت ط١- ١٤٠٤هـ ص ٤٥.. وكأن الكاتب يناقش هنا حركة انقلابية عسكرية عادية لا علاقة لها بالإسلام وعقيدته وقيمه العليا، ويناقشها على هذا الأساس..

عبد مناف هم أصحاب الحق فيه فقط. وأن أكثرهم جدارة له هو ابن صاحب العرش العالي معاوية.. وهكذا سعى سعيه للاستحواذ عليه وصرفه لابنه متناسياً ومتجاهلًا كل ما جاء به الإسلام بخصوص الخلافة، ولم ير أنه قد تمادى ما دام قد وصل هو نفسه إلى السلطة، وهو أعلم الناس بنفسه ومدى ابتعاده عن الإسلام.

حاول الأئمة من أهل البيت طوال حياتهم استمالة الأمة كلها إلى جانب الإسلام الذي جسدوه هم بسلوكهم وأفعالهم، وكان ذلك يبدو الهدف الوحيد الذي عملوا له بمثابرة وجدّ استغرقا كل لحظة بل كل دقيقة من تلك الحياة الحافلة، وقد أوضحوا مواصفات الكتلة المؤمنة التي تمنّوا أن تبرز بين صفوف الأمة، ومَن أرادوهم أن يكونوا شيعة لهم ولرسول الله صلى الله عليه وآله والإسلام.. وكانت مواصفاتها نفس تلك التي أرادها رسول الله صلى الله عليه وآله والقرآن للمسلمين بشكل عام[1].

(١) «في الكافي وأمالي الصدوق عن جابر بن يزيد الجعفي قال: قال الباقر عليه السلام: **أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بمحبتنا أهل البيت، فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه. وما كانوا يعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشع والأمانة والإنابة، وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبر بالوالدين والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكف الألسن عن الناس... لا تذهبن بذلك المذاهب، حسب الرجل أن يقول: أحب علياً وأتولاه، ثم لا يكون مع ذلك فعّالاً. فلو قال: إني أحب رسول الله صلى الله عليه وآله فرسول الله خير من علي صلى الله عليهما، وعلى آلهما وسلم ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته، ما نفعه حبه شيئاً، فاتقوا واعملوا لما عند الله. ليس بين الله وبين أحد قرابة. أحب العباد إلى الله عز وجل أتقاهم وأعملهم بطاعته. يا جابر فوالله ما يتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة. وما معنا براءة من النار. وما لنا على الله من حجة. من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي. ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، ولا تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع.**
وعن الرضا عليه السلام: **... شيعتنا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويحجون البيت الحرام، ويصومون شهر رمضان، ويوالون أهل البيت ويتبرؤون من أعدائهم..**
وعن أمير المؤمنين عليه السلام: **اختبروا شيعتي بخصلتين، فإن كانتا فيهم فهم شيعتي: محافظتهم على أوقات الصلوات، ومواساتهم مع إخوانهم المؤمنين بالمال. وإن لم تكونا فيهم فأعزب، ثم أعزب..**»
شجرة طوبى: الشيخ محمد مهدي المازندراني الحائري: المطبعة العلمية، النجف الأشرف

وإذاً فإن هذه الطليعة العقائدية لم يُرد لها أن تبرز من بين فئة محدودة من الأمة بعينها، بل من الأمة كلها.. بل كل الأمة تكون طليعة عقائدية ممتازة لمن سيأتي بعدها من الأمم إن أمكن ذلك. وقد رأينا أن أعداداً كبيرة ممن ناصروا الأئمة أو ناصروا الثوار من آل محمد، لم يكونوا من شيعتهم من قبل، وقد ساندوهم ووقفوا خلفهم عندما رأوا عدالة قضيتهم وأنهم على حق وأن المثل الأعلى للمسلم الغيور على الإسلام حقاً والذي يتمتع بأعلى قدر من المسؤولية، يتمثل بهم عليهم السلام قبل غيرهم.

إن شيعة علي أو الحسين أو غيرهم من الأئمة–عليهم السلام– هم من يناصرون الإسلام

---

١٣٦٩هـ:ص ٣-٦.

«وعن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام قال: **امتحنوا شيعتنا عند ثلاث: عند مواقيت الصلاة كيف محافظتهم عليها، وعند أسرارهم، كيف حفظهم لها عند عدونا، وإلى أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم فيها..**

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: **إنما شيعة جعفر من عف بطنه وفرجه، واشتد جهاده، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه، وخاف عقابه. فإذا رأيت أولئك، فأولئك شيعة جعفر.**

وعن محمد بن علي عليه السلام: **إنما كانت شيعة علي المتباذلون في ولايتنا، المتحابون في مودتنا، المتزاورون لإحياء أمرنا. إن غضبوا لم يظلموا. وإن رضوا لم يسرفوا. بركة لمن جاوروا. سلم لمن خالطوا..**».

وعن أبي جعفر عليه السلام قول: **إنما شيعة علي عليه السلام الشاحبون الناحلون، الذابلون، ذابلة شفاههم، خميصة بطونهم. متغيرة ألوانهم، مصفرة وجوههم. إذا جنهم الليل اتخذوا الأرض فراشاً، واستقبلوا الأرض بجباههم، كثير سجودهم، كثيرة دموعهم، كثير دعاؤهم، كثير بكاؤهم، يفرح الناس وهم يحزنون..**– الصدوق: كتاب الخصال: دار التعارف، مكتبة الصدوق، ١٣٦٨هـ ج ١ص ١٠٣– ٢٩٦ ج ٢ ص ٣٩٧– ٤٤٤.

والصفات التي يتطلبها أئمة أهل البيت عليهم السلام من الشيعة من شأنها أن تجعلهم يتمتعون بأعلى قدر من المسؤولية والوعي والفهم لطبيعة هذا الدين العظيم والالتزام بحدوده وأحكامه وأن لا يتكلوا على مجرد الولاء والحب المجردين.. إذا ما جدوى أن تدعي حب شخص وموالاته وأنت تسير خلاف سيرته وترفض منهجه في الحياة وتعمل ضد رغباته وأهدافه، بل وتشوّه الصور الجميلة التي يحاول أن يظهر بها نفسه ومنهجه في الحياة.. ما جدوى أن تدعي حب الرسول صلى الله عليه وآله وأنت ترفض الإسلام..!

وينتصرون له ويقفون إلى جانبه ويضحّون من أجله، إسلام محمد صلى الله عليه وآله الصافي النقي، لا إسلام معاوية ويزيد وعبد الملك والوليد والمنصور والمتوكل وأشباههم..

لا يفهمنَّ أحد أن تولي علي والحسين عليهما السلام حكراً على جماعة محدودة من المسلمين، كما لم يكن تولّي رسول الله صلى الله عليه وآله حكراً على جماعة محدودة منهم أيضاً... فالإسلام جاء عن طريق رسول الله صلى الله عليه وآله، وهؤلاء وقفوا حياتهم في سبيله وفي سبيل كل المسلمين لا يفرقون بين أحد منهم، ويتمنون أن يكونوا جميعاً تحت خيمته الكبيرة، لا تحت خيام الطغاة الصغيرة الموبوءة.

ولا يفهمنَّ أحد أن ثورة الحسين كانت من أجل جماعة محدودة من المسلمين، كما لم تكن من أجل تحقيق هدف خاص، يتعلق بآل البيت أنفسهم.. وقد رأينا- بما لا يقبل الشك- أنها قامت من أجل المسلمين كلهم، في كل زمان ومكان، وأنها الأمر الوحيد الذي كان كفيلًا بانتشالهم من وهدة الانحراف وخطر الشرك والطواغيت، ولا عجب إن رأينا رسول الله صلى الله عليه وآله يعلن انتماء الحسين له، وهو من أرسله الله بهذا الدين القويم، وانتماءه للحسين، الذي بعث هذا الدين ثانية بعد أن تعرض لأخطر هجمة كادت تفنيه وتمحوه[1]... فرابطة النسب الوثيقة عززت منها وقوتها رابطة الإسلام الذي تفانى كلاهما لتثبيته وتمكينه في الأرض بعيداً عن سلطان الطواغيت والشرك.

وأخيراً...

لو نظرنا بمنظار الإسلام ومقاييسه، وتساءلنا: هل انتصر الإمام الحسين؟ لكان الجواب حتماً: نعم. انتصر، لأن الإسلام عاش وانتصر، وظل قائماً، يرقب المسلمون اليومَ الذي يسود فيه ويحكم، ولم يقطعوا هذا الأمل في أي يوم من الأيام، ولم يندثر، كما

---

(١) وذلك في حديثه الذي خص به الحسين عليه السلام: «**حسين مني وأنا من حسين**».

كان مقرراً له، لو أن الحسين عليه السلام لم يوقظ الأمة من سباتها ويقيمها من كبوتها، ويشخص أمام ضميرها دائماً كمعترض أبدي وشاجب ومحارب للظلم والانحراف والشرك والطاغوت..

ويجب أن ننبه هنا إلى أننا نبتعد عن المقاييس البشرية المحدودة الصغيرة، ونتعامل مع المقياس الإلهي الكبير العام الشامل الذي يضعنا أمام تجربة عظيمة- هي تجربة الإسلام الكاملة المنزلة من الله عز وجل- وضمان نجاحنا فيها هو إثبات انحيازنا الواعي الإرادي الحر لهذا الدين وهذه التجربة الكاملة التي تمتد عبر العصور وتتجاوز الأمكنة والحدود..

لقد انتصر الحسين عليه السلام للإسلام، وانتصر الإسلام، وانتشر وعاش على مستوى العقيدة والمبادىء رغم عبث العابثين والأعداء، ولا يزال المستقبل له، وله وحده، ففيه من مقومات البقاء والحياة ما يجعله بمأمن من السقوط والاندثار... وهو الذي جعله متمكناً من النفوس التي تذهب إلى حد الاستشهاد في سبيله ليظل حياً قائماً، رغم الأعداء الألداء المنظمين الذين أعدّوا أسلحتهم دائماً للقضاء عليه، ومنهم من انتموا إليه في الظاهر وعملوا على تهديمه والقضاء عليه في الباطن وإن ادعوا الحرص عليه والتباكي من أجله.

ألم يحفل تاريخنا بنماذج معروفة من هؤلاء الأعداء الذين كان ضررهم على الإسلام والمسلمين أشد من ضرر أعدائه التقليديين المكشوفين؟

وما كان ليصمد لهم لو لم تكن فيه كل مقومات الحياة الطبيعية، ولو لم يتمكن من النفوس التي عرفت أن فيه وفيه وحده مستقبلها وحياتها وسعادتها.. بل ومستقبل وحياة وسعادة البشرية جمعاء.

لقد صمد الحسينعليه السلام وسار لإنجاز مهمته دون تردد، ولم ينهزم أمام المخاوف البشرية العادية وقد لوّح بها العديدون أمامه بصورة تهديدات وتحذيرات مختلفة طيلة مسيره من المدينة إلى الكوفة مروراً بمكة كما رأينا، مذكّرينه بالعنف الأموي وما يمكن أن يحل به إذا ما بقي مصراً على مواجهته.

لقد انتصر على تلك المخاوف، وأثبت للأمة أن التضحية بالحياة لا تشكل خسارة كبيرة أمام النتائج المتوقعة من ثورته، بل أن حفنة قليلة متبقية من سِنيّ العمر لا تعد شيئاً ذا بال أمام ما سوف يتحقق على صعيد البناء العقائدي في نفوس أبناء الأمة المسلمة.

وهكذا، فليس لنا أن نناقش قضية انتصار الإمام الحسينعليه السلام وثورته، من وجهة نظر غير إسلامية لا ترى ما يراه المسلمون، فكل يستعمل أدواته الخاصة وطرائقه في الدراسة والنظر، وعلينا أن لا نستعير أدوات غيرنا وننظر بعيونهم ونطل على العالم من خلال عقولهم، قبل أن نتأكد من صلاحية وسلامة الأدوات التي تخصنا، وليس فيها ما يثبت عدم قدرتها على تلبية حاجاتنا وإجابة مطالبينا. بل لعل أولئك الذين لم يعرفوها أو يكتشفوها بعد، هم الأكثر عجزاً عن فهم قضايانا وفهم هذا الدين... وإذا كان البعض يفعلون ذلك اليوم، فما نظنهم سيظلون هكذا في المستقبل، بعد أن تكون البشرية قد اصبحت أكثر نضجاً ووعياً وانفتاحاً، وبعد أن تتخلص من سيطرة التيارات المضللة التي تعبث وتتلاعب بهم، وبعد أن تطل على الإسلام إطلالة بعيدة عن التعصب الأعمى والمواقف المسبقة المتجنّية والتكريس لمصالح أقلية مستغلة تريد أن تفرض سيادتها دائماً على هذه الأرض.

ولن نذكر- في هذه الدراسة- كل تخرصات المتخرصين والأعداء وادعاءاتهم وأباطيلهم بشأن هذه الثورة العظيمة، فهؤلاء وإن كانوا من المسلمين أو المنتمين إسمياً بحكم انحدارهم من عوائل مسلمة فإنهم يضعون أنفسهم دون فهم أو وعي

مع الطواغيت وأعداء الإسلام ويقدمون لهم خدمات كبيرة تنقلب ضدهم شخصياً فيما بعد وضد الجماهير الواسعة من أبناء الأمة الآن وفي كل وقت فهم اعداء انفسهم لو علموا. فالإسلام كله ومعاركه وثورات الصفوة من أبنائه وفي مقدمتها هذه الثورة الرائدة لهم ولمصلحتهم، كما أنها لغيرهم من المسلمين، وإذ انتصر فيها الحسين على الظلم والانحراف وأثبت قدرته على مواجهتهما والتصدي لهما فإنه يثبت بذلك قدرة الأمة كلها على ذلك ويثبت امتلاكها مقومات تلك المواجهة وذلك التصدي، وإن اختلفت وتعددت أشكال الظلم والانحراف واختلف الظالمون واختلفت الأمكنة والأزمنة.

وبعد

فهل يحسبن أحد أن تلك الثورة كانت أو ستكون مبعث سرور وسعادة لحكام السوء وطواغيت الأمة وسرّاق الشعوب، وقد كانت مصدراً لكل ثورات المسلمين ضدهم على امتداد التاريخ الإسلامي، بل أنها كانت مصدر كل ثورة حملت أهدافاً وشعارات نبيلة في العالم..؟ وهل يسرهم أن ثورة بتلك القوة، وذلك المضاء، وقد صدَّرها الحسين عليه السلام لكل المسلمين، في كل مكان، لإقامة دولة الإسلام، ستكون موضع ترحيب من قبل كل المسلمين..؟

ألسنا نرى- ونحن شهود عيان- كيف حوربت الثورة الإسلامية في إيران - وهي امتداد لها، وفرع كبير منها- بحجج مختلفة، منها أن الثوار وعدوا بتصدير ثورتهم إلى خارج إيران، وهذا ما اعتبره أعداء الإسلام تدخلًا في شؤون ممالكهم وأمبراطورياتهم التي استولوا على مقدراتها بالقوة والإكراه وبكل الوسائل غير المشروعة، مع أن الثورة قد صدرت فعلًا وأدت رسالتها منذ اليوم الأول لقيام الجمهورية الإسلامية، دون محاولة مباشرة أو غير مباشرة للتدخل في شؤون أي بلد، فالإسلام أصبحت له الآن الحاكمية في رقعة مهمة من الوطن الإسلامي، بعد أن فقد المسلمون الأمل في ذلك طيلة

مئات السنين، وأصبح من الممكن أن تعاد التجربة في كل مكان من هذا الوطن الكبير بعد أن كادت تكون شبه مستحيلة. وهذا هو الذي أرعب أعداء الإسلام ومناوئيه، وجعلهم يستنفرون كل قواهم لمحاربته وقمع الطلائع الواعية من أبنائه، لمنع أية تجربة مماثلة لتلك التجربة الفريدة..

ولئن أفلتت إيران من قبضتهم، رغم كل الآمال التي أخذوا يعلقونها لاستعادتها ثانية، وضمها إلى ركب عروش الطواغيت، ورغم حملات الشر التي استنفروا لها كلابهم المسعورة في المنطقة، فإن تلك القبضة الجاسية بخناق أبناء الإسلام في العراق والجزائر ومصر وشبه الجزيرة العربية وغيرها من أقطار الإسلام، قبل أن ينظموا صفوفهم، ويوجهوا بدورهم ضربة أخرى إليهم ويقيموا دولة الإسلام في بقعة أخرى..

وبالتأكيد فإن أهداف أعداء الإسلام هذه لن تنجح، حتى وإن استطاعوا النيلَ من هذه الثورة- لا سمح الله- فما دامت قد قامت وبقيت قرابة عشرين عاماً تغذيها وتحرسها دماء أبناء الحسين، في جو مشحون بالعداوة والشر، وهي فترة أطول من فترة حكومة رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة، فإن الأمل ببقائها واستمرارها سيظل مثلما ظل الأمل بعودة حكومة الرسول وخلفائه عليهم السلام قائمة كذلك، وسيظل الأمل قائماً بحكم الإسلام في كل أقطاره الأخرى..

ولئن كانوا يخافون الشيعة ويحذرونهم لأنهم لا يسيرون بركب دولة الظلم، أو لأن المطلوب منهم وفق منهج أئمتهم عليهم السلام تلاميذ الرسول صلى الله عليه وآله وأبنائه، أن لا يسيروا بركب هذه الدولة وولاة الأمر الذين نصبوا أنفسهم ملوكاً ورؤساء وقادة وخلفاء وأمراء للمؤمنين وما أشبه وأعطوا لأنفسهم من الأسماء والألقاب أكثر مما عرف المسلمون لله- عز وجل سبحانه-، وأعطوها من الصلاحيات ما اختص به وحده جل وعلا.

ولماذا الخوف من المسلمين الآخرين، ولماذا استنفر (أولياء الأمر) المزيفون كل جهدهم للقضاء عليهم؟ أليس (ولي الأمر) منهم يدعي أنه ممثل الإسلام وظل الله في الأرض؟ ألا يدعو هؤلاء إلى إقامة حكم الإسلام الذي يدعي (ولي الأمر) تمثيله؟ لا شك أن السر أصبح مكشوفاً ولم يعد سراً وانكشفت الأقنعة والبراقع عن الوجوه. فالإسلام لا يقبل أن يعيش أبناؤه في ظل دولة الظلم ويرفضها رفضاً قاطعاً. وتلك كانت وصايا القرآن ورسول الله صلى الله عليه وآله وخلفائه من أهل بيته عليهم السلام والخلص من صحابته رضوان الله عليهم، وسيرتهم تشهد بذلك..

ولئن حصل أن سار في ركابها عدد كبير من وعاظ السلاطين وعلماء السوء المأجورين ومزوري الحديث وواضعيه وفقهاء السوء والمتاجرين بشعارات التفرقة والشتائم، وغيرهم، فإن ذلك الرفض الحاسم لها الذي أعلنه الإمام الحسين عليه السلام قلب كل موازناتها وحساباتها، فقد استطاع أن يوصل صوته المعبر القوي إلى كل الأمة، لا المتشيعين من أبنائها وحسب، وإن لم تدرِ أعداد كبيرة منهم أن هذا الصوت الذي أثر فيهم وأوقظهم هو صوته.

ولا نحسب أن ذلك يهمه ما دام هو صوت الحق الذي يسمعونه ويعونه ويستجيبون له..

فمعركته في كربلاء لم تنته، وقد امتدت مع امتداد الرقعة الواسعة الفسيحة من الزمان والمكان إلى يوم تمتلىء الأرض قسطاً وعدلًا بعد أن ملئت ظلماً وجوراً وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولئن يحقق المسلمون نصراً في كل حين، فإن الحسين عليه السلام يحسب حتماً أنه هو الذي يحقق هذا النصر، وأنه نتيجة مواقفه وتضحياته الكبيرة، كما أنه نتاج كل التضحيات

الكبيرة لشهداء الإسلام والمجاهدين الذين قدموا كل شيء في سبيل حفظه وصيانته من عبث العابثين والطامعين والأعداء.. وهذا هو الأمر الواقع بمفهوم الإسلام وتصوره.

فما دام قد انتصر للإسلام وتمنى له أن يسود إلى الأبد وبذل دمه في سبيل ذلك، فلا نعتقد أنه كان يرى أن ساحة صغيرة من أرض كربلاء دارت فيها رحى واقعة الطف، قد مكنت أعداءه من التغلب عليه نهائياً رغم أنهم استطاعوا قتله وقتل أصحابه، ولا بد أن جولته في تلك الساحة هي التي مهدت للجولات الأخرى في الساحات الأخرى ومهدت لكل نصر لاحق لا بد أن يتحقق في يوم من الأيام، ولا بد أنه يرى نفسه في تلك الساحات ويرى أنه يقود المسلمين فيها، وسيكون كل نصر يحققونه بفضل دمه النقي الذي طعم به دماء أبناء الأمة وسقى بها أرض كربلاء لتظل دوحة الجهاد والثورة باسقة لا تستطيع رياح الظلم والانحراف إمالتها أو اقتلاعها.

أليس هو الإسلام، ذلك الدين يقيم وزناً كبيراً للتعاطف النبيل البنّاء والمشاعر الزاخرة بالحب للمجاهدين والمضحين؟ إن أمنيات صادقة بانتصارهم تجعلك في عدادهم وفي عداد شهدائهم(١).

إن نظرة واعية لثورة الحسين تجعل أعداداً كبيرة من المسلمين تتمنى لو كانت حقاً في صفوف أنصاره في واقعة الطف الذين تغلبوا على المخاوف والأطماع البشرية العادية لاقتلاع الطاغوت وتحقيق العدالة.

وندرك حقيقة النصر الكبير الذي حققوه في ظل قائدهم العظيم، والذي لم تستطع

---

(١) لما أظفر الله أمير المؤمنين عليه السلام بأصحاب الجمل، قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصركَ الله به على أعدائك. فقال عليه السلام: **أهوى أخيك معنا؟** فقال: نعم. قال: **فقد شهدنا، ولقد شهدنا، في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء، سيرعَف بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان.** نهج البلاغة: ص٥٥.

كل قوى البغي والظلم والانحراف إزالة آثاره رغم محاولاتها الدؤوبة العنيدة.. فمن غير المعقول أن يوجه أعداء الإسلام كل أسلحتهم ضد عدو وهمي لا وجود له أو عدوٍ صغير لا قوة له ولا تأثير ولو لم يكونوا على يقين من مخاطره عليهم.

ومن غير المعقول أن يستهدفوا باللمز والتجريح أحداثه الكبيرة وشخصياته من غير ان يدركوا تأثيرا على مستقبلهم.

ألم تُوجَّه الأقلام المسمومة بأشد النقد إلى نبي الإسلام نفسه ﷺ طيلة قرون عديدة من قبل أناس تستروا بالإسلام[١] وادعوا انتسابهم إليه، وطيلة احتدام أوار الحروب الصليبية وما بعدها، ولا تزال تتوجه بسمومها وسهامها إليه رغم الادعاء بانتهاء تلك الحروب..؟

وإذ أن الصراع اتخذ مساراً جديداً وأساليب مبتكرة، فقد بدا لأعداء الإسلام أن يلجؤوا إلى ما كان قد حقق نتائج باهرة لصالحهم، وهو شن الحرب عليه من الداخل ومن قبل أناس متسترين بالإسلام بل وأكثرهم ادعاء بأنهم أشد الناس حرصاً عليه

---

(١) ولا تفوتنا الحملة الواسعة لوضع الأحاديث المزورة أيام الأمويين والتي استهدف قسم كبير منها النيل من الرسول العظيم ﷺ وعرضه أمام الأمة مجرداً من العصمة التي تؤهله لقيادة الأمة قيادة مجردة من الخطأ. وقد أريد من ذلك تبرير الأعمال الشائنة والخارجة عن الإسلام التي قاموا بها عن عمد وسبق إصرار باعتبار أن الرسول وهو قدوة المسلمين وإمامهم يخطأ وتفوته أمور كثيرة، فكيف بالجيل الذي لم يعش حياته ولم يشاهده! ولا زالت الحملة المناوئة للرسول الاعظم ﷺ تمرر على جماهير واسعة على المسلمين في كتب حديثية وصحاح واسانيد وكتب سيرة وتاريخ ينظر اليها كتراث مقدس ينبغي التسليم والاخذ عن كل ماجاء به. وقد انتجت كل هذه الفوضى في عقول المسلمين وافكارهم انعكست على مجمل مسيرتهم العامة وعلاقاتهم وتفاصيل حياتهم اليومية ومستقبلهم. كما انتجت حركات متطرفة لها رؤى وقراءات متناقضة من شأنها تشويه سمعة المسلمين في العالم وادخالهم في بؤر صراعات ومعارك كما حدث في سوريا والعراق وافغانستان وغيرها.

وتفانياً في سبيله.. وهي خطة ماكرة انطلت على أعداد كبيرة من المسلمين الذين دخلوا غمار صراعات وحروب جانبية بينهم وتركوا عدوهم اللدود مسروراً بما دبره لهم وجعله جديراً أن يكون سيدهم بعد أن سيطر على مقدراتهم وثرواتهم..

إن التعرض بالنقد والشتائم والتجريح لآل الرسول ومواليهم السائرين على خطهم تستهدف الإسلام نفسه والرسول الكريم صلى الله عليه وآله.

ولئن يحسب أعداء الإسلام أنهم منتصرون ما داموا يلحقون الأذى بالمسلمين بهذا الشكل المنقطع النظير ويسلطون عليهم كلابهم المسعورة تنهش لحومهم وتمتص دماءهم، فإنهم يقعون في خطأ كبير، ما دامت أعداد كبيرة من هؤلاء المسلمين- وفي كل الأقطار الإسلامية- يرون أن النصر لهم هم حتماً ما داموا قد نظروا إلى الأمور كلها بوعي الإسلام وبصيرته، وما داموا قد آثروا طريق الجهاد والتضحية ودرب الشهداء البدريين وشهداء الطف الذين نصروا الرسول صلى الله عليه وآله ونصروا الحسين عليه السلام ونصروا الإسلام.

أليس وعد الله قاطعاً جازماً: **﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾**(١)...؟

**﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾**.(٢)

**﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾**.(٣)

**﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ﴾**.(٤)

ومن أصدق وعداً وقولًا من الله؟

---

(١) غافر: ٥٢.

(٢) محمد: ٧.

(٣) الحج: ٤٠.

(٤) الروم: ٤٧.

أي حس صاف كان لأمير المؤمنين عليه السلام ليرى بعين البصيرة الصادقة أعداداً من المؤمنين لم يولدوا بعد يشاركونه معارك تلك الجولة ضد الناكثين في (الجمل). إنه يرى أن الأمة ستظل دائماً مع الإسلام وستتطلع إليه كأمل وحيد لتخليصها من طواغيت الشرك والظلم، وسيرعف الزمان بمئات الآلاف منهم يتصدون لهم بصدورهم ودمائهم.

وإذ أنه أول مدافع عن الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأول من أجاب دعوته ولبى نداءه وسمع صوته فإنه يرى نفسه أمام تلك الطليعة التي تلبي دعوة الرسول صلى الله عليه وآله تلبية صادقة وتنطلق للدفاع عن الإسلام حتى وإن بعدت الشقة وطال الزمن..

ما دام هواهم معه وميلهم إليه وإلى خطه المحمدي الاصيل لا الأموي المزيف، وسيشهدون معركته تلك وكل معاركه كما شهدها المقاتلون معه والمستشهدون بين يديه. وسيكونون هم الذين يجعلون الأمة تنتبه إلى قوة الإسلام وعظمته والى قوتها وعظمتها هي إن تمسكت به وأبدت استعدادها للدفاع عنه والتضحية من أجله..

أليس هذا هو ما يحصل حقاً كل يوم على امتداد تاريخنا الطويل الحافل؟

ألا نشهد دائماً قوافل المشاركين بمعارك الإسلام التي لا تختلف أهدافها عن المعارك الأولى التي كانت تهدف إلى نصرة الإسلام؟

هل بدر وأحد والجمل وصفين والطف إلا معارك تتجدد كل حين وحتى اليوم وإن اتخذت أسماء أخرى وجرت في مواقع مختلفة؟

وأن تظل المعارك سجالًا، فحسب الصفوة المؤمنة أنها ترى نفسها منتصرة على أية حال، سواء حققت النصر على أيديها أو أنه سيتم بعد جولة أخرى أو جولات، فهذا هو منطق الإسلام، وهذه هي لغته ولا وجود لكلمة الهزيمة في قاموسه.

## المحتويات

| | |
|---|---|
| **الفصل العاشر نتائج الثورة وآثارها الاجتماعية والنفسيّة** | ٣ |
| تطابق النتائج مع الأهداف | ٥ |
| منازلة مكشوفة أمام الأمة | ٥ |
| الأمويون: خلافة غير شرعية | ٦ |
| انماط متعددة من اللاشرعية | ٧ |
| هل هو انحراف واحد فقط | ٨ |
| خروج متعمد عن شرعية الصيغ الإسلامية في الحكم والحياة | ٨ |
| نمط مبتذل – يزيد مثالا | ٩ |
| الانحرافات أصبحت مبادئ | ١٠ |
| لماذا الخوف من كشف الانحرافات؟ | ١١ |
| بسبب الامويين اتهم الاسلام بأن مثله الرفيعة غير قابلة للتطبيق | ١٢ |
| هل نغلق الملف ونبدأ تاريخا مقطوع الجذور! | ١٣ |
| تشريعات أموية..لا تشريعات إسلامية | ١٤ |
| لماذا اختصهم الله بالملك ألمؤهلاتهم النادرة؟ | ١٥ |
| اطروحات فرعونية بمواجهة الشرعية | ١٦ |
| مفاهيم جديدة | ١٧ |
| لماذا يريدون ازالة ملكنا؟ حيرة يزيد | ١٨ |
| لابد من كشف الباطل حتى يستبين الحق | ٢٠ |
| نصر ام هزيمة..نمطان من التفكير والتصور | ٢١ |
| فهم الثورة الحسينية يقتضي فهم الإسلام كله | ٢٢ |

الإسلام حل جميع التناقضات ٢٤

جرثومة الترف أفسدت كل شيء ٢٤

الطبقة الثرية استعداد منذ البداية لمواجهة عدالة أمير المؤمنين ٢٦

قائد الأمة الحقيقي موجود دائما ٢٧

ما كان سيحدث لو أن الحسين بايع يزيد؟ ٢٨

لماذا الشعور بالحزن والأسف؟ ٣٠

كيف تبرر الأمة اقدامها على قتل ابن نبيها؟ ٣١

غلطة أم كارثة؟ ٣٢

لابد من الجد والموضوعية ٣٣

الإسلام طاقة دائمية ٣٤

اعداء الإسلام: استعدوا منذ البداية ٣٤

الطف شاخصة أمام الأمة دائما ٣٥

لماذا تبني الموقف الأموي رغم ذهاب بني أمية! ٣٦

مطامع شخص واحد دمرت مستقبل الأمة إلى الأبد ٣٨

افتراءات ومزاعم ٣٩

قضية التاريخ الإسلامي لنبحثها بعيدا عن حدود النظرة الأموية العابثة ٣٩

هل هي شجاعة مجردة؟ ٤١

من هم المجاهدون؟ ٤٢

لم يجرؤوا على شجب الثورة فشجبوا الأسلوب ٤٤

كيف يعبر عن رفضه لو جلس في بيته؟ ٤٥

احتمالان ٤٥

نجاح منقطع النظير ٤٦

النتائج المباشرة القريبة ٤٧

رد الفعل المباشر - غضب جماهيري عام ٤٨

| | |
|---|---|
| اسف أم خوف – التنصل من الجريمة | ٤٩ |
| جيش ابن زياد أول من أدرك فداحة الخطب | ٥٢ |
| مشاعر الندم..بعد الواقعة مباشرة | ٥٢ |
| شبث بن ربعي أول النادمين ((..ضلال يا لك من ضلال..)) | ٥٤ |
| الشعور بالذنب والتنصل من المسؤولية: ((..لا والله، ما أنا قتلته)) | ٥٥ |
| طاقية الاخفاء طاعة الخليفة، فأبلغ عبيدالله أما لقيته بأني مطيع للخليفة سامع | ٥٧ |
| ندم المهزومين..حتى الذين لم ينصروا الحسين ندموا على فعلتهم... | ٥٩ |
| مشهد جيش منتصر، أم فلول مهزومة؟ | ٦١ |
| مشاهد مروعة لا يمكن أن تغيب عن الذاكرة | ٦٢ |
| عذر دائمي يتجدد دائما في ظل دول الظلم | ٦٣ |
| دور الامام زين العابدين بعد الواقعة – في الكوفة | ٦٦ |
| فورة عاطفية مؤقتة | ٦٧ |
| في مجلس ابن زياد | ٦٩ |
| عبدالله بن عفيف الأزدي: تقتل الذرية الطاهرة وتزعم... | ٧٠ |
| اقسم لو يفسح لي عن بصري | ٧٢ |
| في دمشق..احتفالات وأفراح | ٧٣ |
| «يوم بيوم بدر» الثأر من رسول الله | ٧٤ |
| ثارات أموية ليت أشياخي | ٧٦ |
| منطق أموي | ٧٧ |
| بين الدفاع عن السلطان ومجالس الشرب | ٧٩ |
| يزيد بين الفرح والخوف | ٧٩ |
| حتى آل يزيد استنكروا فعلته | ٨١ |
| تبجحات لاخفاء المخاوف | ٨٢ |
| الامام زين العابدين معركة في قصر يزيد | ٨٣ |

| | |
|---|---|
| هذا الذي تعرف البطحاء وطأته | ٨٥ |
| الشامي المضلل | ٨٦ |
| تاب فقُتِلَ.. | ٨٧ |
| اعلان الطوارئ لخنق الأنفاس | ٨٩ |
| بناء الكتلة العقائدية ومحاربة الانحراف | ٩٠ |
| دور لامع للامام زين العابدين بعد واقعة الطف | ٩٢ |
| توسيع الفئة العالمة الواعية | ٩٢ |
| أدب الدعاء..أدب الوصول إلى الله | ٩٤ |
| ارساء قواعد الحزن النبيل البناء المتعاطف... | ٩٥ |
| قبيل الوصول إلى المدينة | ٩٦ |
| بشارة أم اثارة شجون وأحزان...واقعة الطف أثارت المدينة | ٩٨ |
| المدينة تبكي الحسين | ١٠٠ |
| اسلوب جديد لفضح الانحراف | ١٠١ |
| الابقاء على شحنة الحزن النبيل المتعاطف | ١٠٢ |
| اما آن لحزنك أن ينقضي؟ | ١٠٤ |
| منطق الطغاة | ١٠٤ |
| القضية العادلة تبقى ماثلة في الأذهان - لن ننسى الحسين.. | ١٠٥ |
| أننسى الذي ضحى من أجلنا؟ | ١٠٥ |
| زيارة الحسين استنكار لواقعة الطف | ١٠٦ |
| زوروا الحسين ولا تجفوه | ١٠٧ |
| من ذكر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون | ١٠٨ |
| الحزن على الحسين شجب لدول الظلم الأموية | ١٠٩ |
| عبدالله بن جعفر: والله لو شهدته لأحببت ألا أفارقه حتى أقتل معه | ١١٠ |
| اسماء بنت عقيل: ماذا تقولون ان قال النبي لكم؟ | ١١٢ |

تأجيج مشاعر الحزن والنقمة ١١٣
تبريرات وتلفيقات لاخفاء الجريمة ١١٣
ثورة الحسين عليه السلام حضور دائم في الأذهان ١١٥
**ثورة المدينة وواقعة الحرة** ١١٧
حاضرة المسلمين الأولى ١١٩
الفتنة دمرت المدينة ١٢٠
قريش والأحزاب ١٢١
اميرالمؤمنين: بعيداً عن المدينة إلى الكوفة لتربية الطليعة العقائدية ١٢٢
الكوفة اقبال على أميرالمؤمنين عليه السلام ١٢٣
معاوية استهدف الكوفة لكي تتحول عن الخط العلوي ١٢٤
ميل الناس للحسين عليه السلام ١٢٥
يزيد قتل الحسين عليه السلام فأجج المعارضة ضده ١٢٦
ثاروا بعد أن أدركوا أبعاد الانحراف ١٢٧
الأشدق يحرض يزيد على زينب ١٢٨
عودة الوعي ١٢٩
انفجار الموقف بعد أن عرف وفد المدينة حقيقة يزيد ١٣٠
محاولات يزيد لرشوة وفد المدينة ١٣٠
المدينة نقمة متراكمة على النظام الأموي ١٣١
لا عذر في السكوت عن يزيد ودولته المنحرفة ١٣٢
عمرو بن سعيد وعبيد الله بن زياد: لا طاقة لنا بغرور المدينة ١٣٣
وصية معاوية بشأن المدينة: ارمهم بمسلم بن عقبة ١٣٤
الأمويون ومروان: نقض العهود ١٣٥
عبد الملك بن مروان أعد الخطة لمسلم بن عقبة لغزو المدينة اباحة... ١٣٦
شماتة بأصحاب الرسول ١٣٨

اباحة المدينة: هل كان مجرد خطأ؟ ١٣٨

معاوية عراب غزو المدينة رغم تحذيرات رسول الله ١٣٩

هل مشكلة المسلمين الآن لعن يزيد؟ المائعون الراتعون ١٤١

هل يزيد من الصحابة؟ ١٤١

تأول فأخطأ..الإمام اذا فسق لا يعزل ١٤٢

ماذا سيقولون لرسول الله صلى الله عليه وآله ١٤٣

لماذا تساهمون في الجريمة وأنتم لم تشهدوها؟ ١٤٤

هل المشكلة فيما قاله يزيد أو فيما فعله؟ ١٤٥

خصال يزيد: هل كانت تؤهله لحكم الأمة الإسلامية؟ ١٤٦

مواصفات خليفة أم عامل صغير من عمال الخراج؟ ١٤٦

ثورة المدينة – استنكار لتمادي الدولة في الانحراف ١٤٧

اسفر الانحراف..لا داعي للتستر ١٤٨

بعد الطف: تمادي دولة الظلم في الجرائم ١٤٩

اباحة المدينة كشف واقع القيادة الأموية ١٥٠

مهمة الأئمة: تعبئة الأمة ضد الانحراف ١٥١

لماذا لم يتزعم الامام زين العابدين عليه السلام ثورة المدينة..؟ ١٥١

اليد التي امتدت لقتل الحسين عليه السلام لم تتورع عن غيره ١٥٣

الامام زين العابدين عليه السلام حياة حافلة بالعطاء ١٥٤

بين استلام السلطة وبناء القواعد الشعبية المؤمنة ١٥٥

ملاحظات جديرة بالنظر ١٥٨

اخلاق أهل البيت ١٥٨

بين زين العابدين ومسلم بن عقبة ١٥٩

فضل مروان ١٦٠

لابد من النظر قبل النقد ١٦٢

**ابن الزبير...وثورة مكة** ١٦٥

ابن الزبير: استغل الغضبة الجماهيرية ضد يزيد لصالحه ١٦٧

قضية أموية وشعارات علوية ١٦٧

وجود الحسين في مكة سلب منه الأضواء ١٦٩

حسب أنه يخدع الحسين عليه السلام بتشجيعه على ترك مكة ١٧٠

محاولة ماكرة لخلط الأوراق ١٧١

الامام الحسين عليه السلام...لم تنطل عليه نوايا ابن الزبير ١٧٢

يا لك من قبرة بمعمر ١٧٢

هل أدرك ابن عباس ما لم يدركه الحسين عليه السلام ١٧٣

ماذا لو بقي الحسين في مكة ١٧٤

بعد واقعة الحرة، أدرك المسلمون حقيقة الخطر الأموي ١٧٥

ابن الزبير: دعا لنفسه بعد غياب الحسين عليه السلام عن الساحة ١٧٧

كلمة حق أريد بها باطل ١٧٧

ثورة نجدة بن عامر النخعي في اليمامة ١٧٩

ابن الزبير: أموي من لون آخر ١٨٠

منهج ابن الزبير: عداوة أهل البيت عليهم السلام ١٨٢

شهادة (أبو برزة الأسلمي) بحق ابن الزبير: «ان ذاك الذي بمكة... ١٨٣

بين ابن الزبير وابن عباس عندما قطع ابن الزبير ذكر ... ١٨٤

ابن الزبير: تكلف في العباس لكسب الناس ١٨٦

دينه كره محمد وآله صلى الله عليه وآله ١٨٧

تحذيرات الرسول صلى الله عليه وآله من ابن الزبير: «ويل للناس منك ... ١٨٨

اول ما أفصح به وهو صغير: السيف ١٩٠

بخيل حسود ١٩٠

كاد أن يتغلب لولا مشورة ابن زياد على مروان ١٩٢

بين الذهبي وابن خلدون...حكايات وأساطير ١٩٣
مسلم بن عقبة المري: بذَّاء فاحش، عبد فرعون ١٩٥
يتباهى باستباحة المدينة ((...لم أعمل عملا أحب الي... ١٩٦
لا حرمة للكعبة...كيف ترى صنيع أم فروة... ١٩٦
احرق الكعبة فأهلكه الله ١٩٧
حسب أنه قوي... فهدد وأوعد ١٩٨
بين حصار وحصار...كادت الأمور أن تستتب له ١٩٩
ذلة بعد عنجهية ٢٠٠
مسرحية أخرى لمروان «لما رأيت الأمر أمرا نهبا ... ٢٠٠
تلاقفوها يا آل مروان ٢٠١
ذبح الكبش فهدأت مكة ٢٠٢
**ثورات الكوفة التوابون بين سليمان بن صرد الخزاعي والمختار** ٢٠٥
**ثورات الكوفة التوابون بين سليمان بن صرد الخزاعي...** ٢٠٧
رد فعل أهل الكوفة ٢٠٧
يزيد: بين التبرئة من دم الحسين ودخول الجنة ٢٠٨
تلاوموا بعد قتل الحسين واتفقوا على قتل قتلته ٢٠٩
شيعة الحسين بين الواقع وما رسمته الريشة الأموية ٢١٠
رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام منهج واحد ٢١٢
انحازوا إلى المنهج العلوي المحمدي و تركوا المنهج الأموي ٢١٣
دولة الظلم: فلنشوه صورتهم ماداموا يريدون الاطاحة بنا ٢١٤
مهمة الأئمة عليهم السلام اقامة كيان إسلامي متكامل قائم على الأسس... ٢١٦
حذار من أئمة الكفر..فانهم ان يظهروا يفسدوا الدين والدنيا ٢١٦
بين الاكاذيب وثقافة السب ٢١٨
التشيع: الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله ٢١٩

الشيعة هم أهل السنة: التشيع أطروحة لحماية مستقبل... ٢١٩
اجتماعات في الكوفة ٢٢١
لا عذر لنا عند الله ورسوله بالتخلي عن الحسين ٢٢٢
سليمان بن صرد الصحابي المحمود في بأسه ودينه، والموثوق بحزمه ٢٢٣
الا لا تهابوا الموت، فوالله ما هابه امرؤ قط الا ذل ٢٢٥
إلى الشهادة لنلتحق بركب الحسين عليه السلام ٢٢٧
وثيقة تسجل أهداف الثوار ٢٢٨
مرحلة الاعداد تهيئة الرأي العام لقبول فكرة الثورة ٢٣٠
عمل في السر ٢٣١
يا لثارات الحسين ٢٣٣
قصدوا الشام لمعاقبة المجرم الرئيسي ٢٣٤
ابن الزبير لم يحرك ساكنا: عصفوران بحجر واحد ٢٣٥
سليمان بن صرد:ان للدنيا تجارا وللآخرة تجارا... ٢٣٦
عند قبر الحسين عليه السلام توبة وعزيمة ٢٣٦
إلى العدو في عقر داره ٢٣٨
الشهادة أولا، لا قيمة للسلامة ٢٣٩
ادفعوا الينا ابن زياد ٢٣٩
انتصروا في البداية رغم قلة عددهم ٢٤٠
شيوخ يقاتلون أعداء الإسلام ٢٤٠
الانسحاب للم الشمل ثانية ٢٤١
لم يخب حماس بقيتهم رغم الخسارة الفادحة ٢٤٢
المختار مرحلة جديدة من العمل ٢٤٤
اذل الأمويين والزبيريين فحاولوا تشويه سمعته ٢٤٤
تحفظ الامام زين العابدين عليه السلام في التعامل الظاهري مع شيعة... ٢٤٥

هل كان ساذجا للدرجة التي يدعي فيها النبوة أكاذيب ومزاعم ٢٤٦

سيرته الشخصية الحافلة حيرت الكثيرين ٢٤٧

موضوعات أموية ٢٤٨

اكاذيب وأضاليل ٢٥٠

استقامة وثبات على الحق ٢٥٢

المختار: لم يكن المتهم الوحيد ٢٥٢

قدوم المختار إلى الكوفة ونزول مسلم بن عقيل في بيته ٢٥٣

اراد الوقوف مع مسلم ففاته الوقت ٢٥٥

المخبرون يشون بالمختار لدى ابن زياد ٢٥٥

في السجن، مع ميثم التمار ٢٥٦

ابن عمر يتوسط لاطلاق سراح المختار ٢٥٧

اقوال تحققت ٢٥٧

تعلم من ذي علم...المختار أدهش الجميع ٢٥٨

المختار فاق منافسيه ٢٥٩

محمد بن الحنفية:حلقة الوصل بين الامام زين العابدين... ٢٥٩

هل كان المختار يسعى للسلطة؟ ٢٦١

لا تناقض في المواقف الهدف النهائي الأخذ بثأر الحسين عليه السلام،... ٢٦١

اراد أن يستفيد من حرص ابن الزبير... ٢٦٢

معرفة النوايا ٢٦٣

ادانة لابن الزبير لا للمختار ٢٦٥

كان المختار من أشد المدافعين عن البيت ... ٢٦٦

ابن الزبير: شعارات أموية المضمون عثمانية الهوى ٢٦٧

لم يجد عنده توجهاً صحيحاً فتركه ٢٦٨

دراسة حال الكوفة في ظل المتغيرات الجديدة ٢٦٨

المختار في الكوفة ثانية: مرحلة جديدة من العمل ٢٧٠
لابد من الاستعداد قبل المواجهة ٢٧٠
مقرب من أهل البيت...قريب من أهل الكوفة ٢٧٢
هل يجهل أهل الكوفة امام المسلمين الحقيقي ٢٧٢
استمالة أصحاب سليمان بن صرد ٢٧٢
الطابور الخفي مستعد دائما للوقوف إلى جانب دولة الظلم ٢٧٣
لابد من ردع المعتدين حتى لا يتكرر العدوان ٢٧٤
قتلة الحسين أدركوا دوافع المختار ٢٧٥
وشوا به وأدخلوه السجن خوفا منه ٢٧٥
اسلوب خطابي مؤثر يخيف الأعداء ٢٧٦
توقعات مدروسة ٢٧٧
التوابون خميرة الأنصار للأخذ بالثأر ٢٧٨
تكاتف القتلة في الآراء والمواقف ٢٨٠
الهدف النهائي ليس مجرد الثأر من قتلة الحسين ٢٨١
كتب تشجع العائدين وتشد ازرهم ٢٨١
عبدالله بن مطيع...نسخة باهتة لعبيد الله بن زياد ٢٨٢
تراجع في الحال، نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها ٢٨٣
تحديد تاريخ الثورة - محمد بن الحنفية لا ينفي أدعاءات المختار ٢٨٤
محمد بن الحنفية دعا أهل الكوفة لمناصرة المختار ٢٨٥
استجابة ابراهيم بن الأشتر وانضمامه لحركة المختار ٢٨٦
اشراف الكوفة: دائما إلى جانب دولة الظلم ٢٨٦
تحرك سريع من الكوفة ٢٨٧
يا شرطة الله انزلوا... ٢٨٨
قانون دولة الظلم ٢٨٩

| | |
|---|---|
| اصحاب ابن الزبير اليوم أصحاب ابن زياد بالأمس | ٢٩١ |
| المختار يحاصر قصر الامارة | ٢٩٢ |
| استيلاء المختار على قصر الامارة وعلى الكوفة | ٢٩٣ |
| المبايعة على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد .. | ٢٩٣ |
| لماذا التريث في تنفيذ شعاراته؟ | ٢٩٤ |
| العدل وحسن السيرة | ٢٩٤ |
| دولة جديدة تنافس الدولتين الزبيرية والمروانية | ٢٩٥ |
| اشراف الكوفة: نهج الخيانة | ٢٩٥ |
| اوامر مروان لابن زياد: افعل بالكوفة ما فعله مسرف... | ٢٩٧ |
| المختار يقرر مواجهة الجيش الأموي بقيادة ابن زياد | ٢٩٨ |
| إنَّا المؤمنون الميامين، الغالبون المساليم | ٢٩٨ |
| الاعلام الأموي: دور تحريضي لتفرقة الناس | ٢٩٩ |
| الاعلام الأموي: ثورة العبيد، «انكم انما تقاتلون العبيد الاباق.. | ٣٠١ |
| جيش آخر بقيادة ابراهيم بن الأشتر | ٣٠٢ |
| اشراف الكوفة: شيمتهم الغدر | ٣٠٢ |
| خرج ابراهيم فخرجوا على المختار | ٣٠٤ |
| كسب الوقت بالتفاوض | ٣٠٤ |
| ((يا لثارات عثمان)) جعلت بعض معارضي المختار... | ٣٠٤ |
| مطاردة قتلة الحسين | ٣٠٥ |
| قصة مقتل شمر | ٣٠٥ |
| اقاصيص وحكايات - سراقة بن مرداس | ٣٠٧ |
| هل رأى ابن مرداس ما لم يره الصحابة في بدر... | ٣٠٩ |
| روايات واهية | ٣٠٩ |
| وقعة جبانة السبيع | ٣١٠ |

| | |
|---|---|
| ابن الحسين، محاسبة القتلة | ٣١١ |
| لابد من تتبع القتلة | ٣١٤ |
| ابن سعد: خوف دائم من المختار | ٣١٤ |
| صيغة أمان تحتمل التأويل | ٣١٥ |
| هروب ابن سعد ورجوعه إلى الكوفة «..ان في عنقه سلسلة سترده» | ٣١٧ |
| ادعاء النبوة..افتراء وكذب على المختار | ٣١٨ |
| المختار: لا لابن الزبير لا لآل مروان | ٣٢١ |
| تكتيك في أيام الحرب | ٣٢٢ |
| مناورات ومناوشات | ٣٢٣ |
| ابن الزبير: أساليب ومواقف أموية | ٣٢٥ |
| المعركة الحاسمة مع ابن زياد | ٣٢٦ |
| تعليمات المختار لابن الأشتر | ٣٢٩ |
| قصة الكرسي..من نسج الخيال الأموي الخصب | ٣٢٩ |
| دعايات وافتراءات...أضاليل وأباطيل | ٣٣٠ |
| معركة خازر | ٣٣٢ |
| رأي في الحرب | ٣٣٢ |
| ابراهيم بن الأشتر: كفاءة وقوة في الحرب | ٣٣٣ |
| جدل بيزنطي | ٣٣٤ |
| كلام الببغاوات | ٣٣٦ |
| نداءات ابن الأشتر: يا أنصار الدين وشيعة الحق وشرطة الله... | ٣٣٦ |
| هزيمة جيش الشام ومقتل ابن زياد | ٣٣٨ |
| وفي عاشوراء قُتِلَ ابن زياد أيضا | ٣٤١ |
| محمد بن الحنفية يدعو للمختار: جزاه الله خير الجزاء | ٣٤٢ |
| الامام زين العابدين يدعو للمختار «..جزى الله المختار خيرا» | ٣٤٢ |

فصول جديدة من الصراع ٣٤٣
الغدر ثم الغدر ٣٤٤
مصعب بن الزبير يحارب المختار ٣٤٥
مستشار خائن ٣٤٦
انهزام جيش المختار أمام مصعب ٣٤٧
المختار: سأمضي إلى نهاية الشوط ٣٤٧
حصار القصر ٣٤٩
الكوفة تنقلب ثانية ٣٤٩
شجاعة المختار ٣٤٩
المختار: لا للحصار، انزلوا بنا فلنقاتل ٣٥٠
الشيخ البطل يضارب بسيفه حتى الموت ٣٥٠
عودة للحكايات الأموية ٣٥١
محاولات زبيرية ومروانية لاستمالة ابن الأشتر ٣٥٣
مقتل مصعب وابراهيم بن الأشتر ٣٥٣
وفاء زوجة المختار ٣٥٤
المختار: تصدى لدول الظلم بنفس أساليبها ٣٥٤
المجرمون يخافون من قصاص مرتقب... ٣٥٥
حركة المختار امتداد لواقعة كربلاء ٣٥٥
**نتائج الثورة الحسينية** ٣٥٧
**حركة مطَرّف بن المغيرة بن شعبة** ٣٥٩
رافضون لدولة الظلم- يخرج الطيّب من الخبيث ٣٥٩
أراد الحجاج رشوتهم فخرجوا عليه ٣٦٠
رفض مطاليب الخوارج ٣٦١
ابحث عن المخبرين ٣٦٢

جهاد دولة الظلم أول واجب شرعي.... ٣٦٣
الأخ ينصر أخاه ٣٦٤
«إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه» ٣٦٥
حيلة ومكيدة ٣٦٦
قبيل المعركة ٣٦٧
نهاية مروعة ٣٦٨
**حركة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث** ٣٦٩
آل الأشعث وعداوتهم لأهل البيت عليهم السلام ٣٦٩
مكتمل الرأي والقوة لم تخدعه الأضاليل الأموية فثار عليها ٣٧٠
سار حيناً في ركاب دولة الظلم ٣٧٠
قاتل الخوارج بناء على أمر الحجاج ٣٧٠
مقاتلون بالإكراه- مقاتلون بلا قضيّة ٣٧١
خطب نارية للحجاج ٣٧١
انتصار شبيب الخارجي ودخوله الكوفة ٣٧٢
طرد شبيب من الكوفة ٣٧٣
عبد الرحمن بن الأشعث: انهزم أوتهازم.. عدم قناعة بأهداف الدولة ٣٧٣
.. ومع ذلك فقد ولّاه أحد جيوشه رغم تحذير... ٣٧٤
نجاح في المهمة واستيلاء على غنائم هائلة ٣٧٤
عبد الرحمن يستشير أصحابه في إكمال الغزو: (كره متبادل بين... ٣٧٥
لا طاعة للحجاج ٣٧٦
إخلعوا عدوّ الله الحجاج ٣٧٦
الأبناء يخالفون الآباء: عبد المؤمن بن شبث بن ربعي... ٣٧٦
مبايعة عبد الرحمن على خلع الحجاج ونفيه من أرض العراق ٣٧٧
إلى العراق لمواجهة الحجاج والدولة الأموية «.. إني خلعت... ٣٧٧

مبايعة كاملة (.. على كتاب الله وسنّة نبيّه وخلع أئمة الضلالة) ٣٧٨
خوف عبد الملك من ثورة عبد الرحمن وقيامه بتحريض أهل... ٣٧٩
الحجاج يقيم في البصرة ٣٨٠
هرب الحجاج في المواجهة الأولى رغم ضخامة جيشة واستعداداته ٣٨٠
هدفنا غزو عبد الملك ٣٨٠
إجتياح البصرة خلع عبد الملك جميع أهلها من قرائها وكهولها ٣٨١
تصرف عن وعي وبصيرة ٣٨١
هزيمة ثانية للحجاج انتهت بتراجع ابن الأشعث- حارب أهل... ٣٨٢
العودة إلى الكوفة واستقبال حافل وهزيمة منكرة لجيش الشام ٣٨٣
استعداد للمواجهة الحاسمة ٣٨٤
الحجاج: كاد أن يخلعه عبد الملك عن العراق لاستمالة أهلها. ٣٨٤
فزع وتنازل ٣٨٥
عرض عبد الملك أوجد انشقاقًا في صفوف العراقيين ٣٨٦
كاد أن يقبل بتنازلات عبد الملك لو لا رفض العِراقيين ٣٨٦
كتيبة القراء.. مركز القوة في جيش ابن الأشعث ٣٨٨
روح كربلاء ٣٨٩
مقتل قائد كتيبة القراء زلزل الكتيبة بعد صمود مائة يوم ٣٩٠
خيانة الأبرد بن قرّة التميمي- انهزم لتخذيل الجيش العراقي ٣٩٠
مقتل كميل بن زياد وسعيد بن جبير ٣٩١
أهل الشام.. أهل الطاعة ٣٩٢
المعركة الأخيرة.. تفوق في العدد والعدّة ٣٩٣
إطمأنوا إلى نجاحهم في البداية فأمنوا وألقوا السلاح ٣٩٣
إلى سجستان.. غدر وخيانة ٣٩٤
مات غريباً بعد أن كاد يطيح بالعرش الأموي ٣٩٥

**٩- ثورة زيد بن علي بن الحسين** ٣٩٧
عالم صالح ٣٩٧
شعور بمظلومية المسلمين ٣٩٨
عوامل أججت نار الثورة ٣٩٨
إهانة مقصودة ٤٠٠
ثورة زيد لم تكن رد فعل على إهانة أُلْحِقَت به ٤٠١
هشام والحقد على أهل البيت عليهم السلام ٤٠١
خصومات ملفقة ٤٠٢
فوت الفرصة على من أراد استغلال قضية الخلاف ٤٠٣
تصعيد (ثقافة) السب ٤٠٤
رافض للذل والعبودية:- ((والله لايحب الدنيا أحد إلا ذلّ)) ٤٠٤
توجهات معروفة من قبل القيادة الأموية ٤٠٦
إنحراف بلغ الذروة.. علامات على نهاية حياة دولة الظلم الأموية ٤٠٧
لن تغني الأموال ٤٠٨
ثورة بوجه الانحراف: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه... ٤٠٩
طليعة رسالية بقيادة آل البيت عليهم السلام ٤٠٩
لا بد من تعرية السلطة وكشف توجهاتها المعادية للإسلام ٤١٠
الصراع المكشوف ليس في صالح الأئمة عليهم السلام ٤١٢
لم يكن يطالب بالأمر لنفسه ٤١٤
حركة رسالية- واجهة لأئمة أهل البيت عليهم السلام ٤١٥
تحركات مرصودة ٤١٥
محاولة للاستدراج ٤١٦
تفويت الفرصة على من أراد استغلال الخلاف ٤١٩
الإنشقاق ٤٢٠

إثارة الخلاف.. إثارة الفرقة ٤٢٢
لم يدعُ إلى سنّة الشيخين ولم يسبّهما ٤٢٤
أقصى الإجراءات لمواجهة الثورة ٤٢٥
معارك عديدة وانتصارات على الجيش الأموي رغم قلة العدد ٤٢٦
في المسجد: «اخرجوا من الذل إلى العز.. اخرجوا إلى الدين والدنيا» ٤٢٦
الغدر والمكر ٤٢٨
إصابة زيد بسهم غادر ٤٢٩
قطعوا الرأس وصلبوا البدن ٤٢٩
تهديدات لأهل الكوفة ٤٣٠
مذلّون مهانون ٤٣١
الروح الحسينية ٤٣٣
العدالة الإلهية يجسدها خط أهل البيت عليهم السلام ٤٣٤
شهداء في سبيل الإسلام ٤٣٦
**حركة يحيى بن زيد** ٤٣٧
الوليد بن يزيد- أكبر انتهاك لحرمات المسلمين ٤٣٧
تحشيد المعارضين للنظام ٤٣٨
سبعون رجلاً بمواجهة عشرة آلاف ٤٣٩
ثورة زيد ويحيى- المعول الأخير الذي أطاح بالدولة الأموية ٤٣٩
تعليمات القيادة الوارثة ٤٤٠
لا بد أن تستمر المواجهة الساخنة ٤٤١
لا بد أن تستمر مدرسة أهل البيت عليهم السلام ٤٤١
تعرية الزعامة المنحرفة مهمة إيجابية ٤٤٢
تنمية التوجه الثوري الرافض ٤٤٣
(الزيدية) تيار ثوري مناهض للظلم والانحراف ٤٤٤

**١٠- نتائج متوقعة.. تمادي الدولة الأموية بالظلم...** ٤٤٧
الثورة: مفعول أكيد لكشف الانحراف ٤٤٧
التصاعد في وتائر الانحراف يعني الانحدار نحو السقوط النهائي ٤٤٩
دولة الظلم الأموية. نتيجة حتمية لابتعاد الأمة عن الإسلام ٤٤٩
عمل مقصود لإبعاد الأمة عن الإسلام ٤٥٠
دولة الظلم لن تكون بديلاً عن الإسلام ٤٥١
فرعون لايرى إلا نفسه ومصالحه ٤٥٣
الناس في ظل دولة الظلم ٤٥٤
دولة الظلم تسير إلى حتفها ٤٥٦
الإنحراف مقدمة للسقوط ٤٥٧
الإنحراف يعني الهلاك المحتم ٤٥٩
تعلّم من ذي علم ٤٥٩
هل ضحى عشرات الآلاف من الأنبياء والرسل من... ٤٦٠
إيغال في الجريمة- صحوة الموت ٤٦٠
قتلت نفسها عندما قتلت الحسين عليه السلام.. ٤٦٢
تطلع دائم إلى النهوض ٤٦٤
الثورة أثرت على مجرى كل الأحداث الإسلامية اللاحقة ٤٦٥
الدولة العباسية قامت على شعارات الثأر للحسين عليه السلام... ٤٦٦
«... إنما ادّعيتم هذا الأمر بنا...» ٤٦٦
تنبيه دائم للأمة ٤٦٨
صحوة إسلامية متجددة ٤٦٩
ثورة الإسلام ٤٧١
الحكم الأموي: حفر قبره بيده ٤٧٢
**١١- سقوط الدولة الأموية والموجة الفرعونية العباسية** ٤٧٥

الأموية والعباسية.. توجه فرعوني واحد ٤٧٥
الدولة أموية والشعارات علوية ٤٧٦
العباسيون: استغلوا رصيد أهل البيت لدى المسلمين ٤٧٨
(الرضا من آل محمد) المعلوم المجهول ٤٨٠
قحطبة بن شبيب: «.. تمسكوا بأهل البر والتقوى... ٤٨٠
عرف المسلمون من كانوا إلى جانبهم ٤٨٣
نوايا مبيّتة منذ البداية ٤٨٣
**١٢ - الثورات، والموجة الفرعونية الثانية أيام العباسيين** ٤٨٥
محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن ٤٨٦
الجواسيس: حضور دائم ٤٨٧
مخاوف حقيقية ٤٨٨
معاناة الحسنيين في سجن المنصور ٤٨٨
حركة محمد النفس الزكية ٤٩٠
توجه رسالي رغم الأذى الذي ألحق به ٤٩١
أمان المنصور ٤٩٣
تشخيص محمد لانتهازية العباسيين ٤٩٤
عروض مغرية للتخلي عن الثورة ٤٩٦
الغدر ثم الغدر ٤٩٧
المنصور: مكر ونكر ودهاء ٤٩٧
الإستيلاء على البصرة ٤٩٩
مواجهات حتى رحيل إبراهيم إلى باخمرى ٤٩٩
عرش العباسيين معرض للإنهيار ٥٠٠
الحريجة في الدين في مواجهة الغدر والمكر ٥٠١
في باخمرى ٥٠٢

غلبوا عدوهم ورجعوا فظنهم انهزموا! ٥٠٣
الثورة الحسنيّة استمدت روحها من الثورة الحسينية ٥٠٣
استغلوا الاسم لعزل الشيعة عن بقية المسلمين ٥٠٤
الزيدية: خط موال لأهل البيت عليهم السلام منذ البداية ٥٠٥
التوجه الزيدي الثوري لم يكن مذهباً مستقلًا ٥٠٦
التوجه الزيدي كان يعني التوجه المناهض للظلم ٥٠٦
استعدادات للدجل والخديعة ٥٠٨
الخط الأموي والخط العباسي متلازمان متوازيان ٥١٠
اللهجة التظلمية.. يلجأ إليها الطغاة لتضليل شعوبهم ٥١٢
إن كان لا بد من الدين فليكن في خدمة فرعون ٥١٤
**١٣- نتائج قائمة** ٥١٧
ثورة الحسين بمواجهة دولة الظلم على الدوام ٥١٧
إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح لايعني التهالك... ٥١٨
حق للحسين عليه السلام أم حق للأمة.. ٥٢٠
مبدأ التوحيد لا يقر النهج الفرعوني ٥٢١
رفقاً بالعقل البشري ٥٢٣
كهنة محترفون وراء عرش فرعون ٥٢٤
لا بد لخط الرسالة أن يظل واضحاً ٥٢٥
الخلافة الإلهية لا السيطرة الفرعونية ٥٢٧
السكوت عن الظلم إقرار له ٥٢٩
الإمام الحسين عليه السلام : أتاح للأمة إدراك مسؤوليتها في مواجهة... ٥٣٠
ثورة قائمة ٥٣١
خطان لإعادة الأمور إلى نصابها: محاولة تسلم زمام التجربة... ٥٣٢
محاولة إعادة التجربة إلى خطها الصحيح ٥٣٤

كشف مسيرة الفراعنة ٥٣٥
التضحية بالنفس لحماية الأمة ٥٣٦
بدون فهم الإسلام لن نستطيع فهم ثورة الحسين ٥٣٨
**١٤- نتائج للمستقبل** ٥٤١
إصرار على الشهادة.. إصرار على النصر ٥٤١
لماذا لم يتراجع مع أنه يعلم أنه مقتول لا محالة ٥٤٣
الثواب والعقاب.. هنا وفي والآخرة ٥٤٤
أراد أن يضع الأمة بمستوى أهداف الاسلام ٥٤٥
فزت وربّ الكعبة ٥٤٦
**١٥- تكوين الطليعة العقائدية** ٥٤٩